# دوستويفسكي



# الإخوة كارامازوف

رواية الجزء الثاني



دوستويفسكي

# الإخوة كارامازوف

## الجزء الثاني

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

**الكتاب:** الإخوة كارامازوف ـ الجزء الثاني

**المؤلف:** فيودور دوستويفسكي

**الترجمة:** فارس غصوب

**الغلاف:** فارس غصوب

**الناشر:** دار الفارابي ـ بيروت - لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

**e-mail:** info@dar-alfarabi.com

**الطبعة الأولى:** حزيران ٢٠١٦

**ISBN:978-9953-71-748-7**

# المحتويات

## القسم الرابع

# الكتاب الثامن

## ميتيا

# I

## كوزما سامسونوف

أما بالنسبة لديمتري فيودوروفتش الذي «طلبت» إليه غروشنكا، وهي تتجه نحو حياة جديدة، بأن يُبلِّغ سلامها الأخير، مع المطالبة بأن يحفظ إلى الأبد ذكرى الساعة القصيرة من الحب الذي وهبته له، فقد كان يجتاز هو أيضاً، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة، فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق. ففي اليومين الأخيرين، كان يبدو في حالة نفسية يصعب تصورها، حتى ليكاد، في الحقيقة، أن يصاب باحتقان في الدماغ كما عبر عنه ذلك فيما بعد. لم يستطع إيليوشا أن يعثر عليه، عندما بحث عنه طوال الليل؛ كما لم يتمكن أخوه إيڤان، أن ينظم لقاء معه في اليوم نفسه في الكاباريه. فقد أزال أصحاب الدار التي كان يقيم فيها، كل أثر له، نزولاً على إرادته. وظل هو خلال هذين اليومين يتجول على غير هدى «مواجهاً قدَره ساعياً إلى خلاصه»، كما صرَّح بذلك فيما بعد. حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل، رغم أنه خاف من الابتعاد في مثل هذه اللحظة وترك غروشنكا بلا رقابة حتى لدقيقة واحدة. سوف تُذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل، وحسبي الآن أن أسرد أهم وقائع هذين اليومين الرهيبين، اللذين سبقا سقوط الكارثة الرهيبة على مصيره فجأة.

في الحقيقة إن غروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمن بشكل صادق وحقيقي ولكنها في مقابل ذلك قد عذبته بقسوة ومن دون شفقة. الأساسي في الأمر أنه لم يستطع أن يفهم نياتها ولا عواطفها. ولم تكن له أي وسيلة في أن يكتشف هذه العواطف على كل حال، كان يعلم أنه إذا حاول ذلك لكانت عاندته وتخلت عنه وهي غاضبة. فقد كانت تجتاز، في تلك الساعة، أزمة عصيبة تتخبط في حيرة شديدة، وفي كل مرة تحاول فيها أن تحزم أمرها كانت تتردد في آخر لحظة. لقد تولد لديه شعور (وهو على حق) أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره ولعه بها. لعله لم يكن مخطئاً في هذا، لم يدرك السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه غروشنكا. وكانت المسألة التي تعذبه إنما ترتد في الواقع إلى هذا الاختيار بين شخصين: «إما هو ميتيا، وإما فيودور بافلوفتش». وهنا يحسن أن أوضح النقطة التفصيلية التالية: كان مقتنعاً بشكل مطلقٍ بأن فيودور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج غروشنكا (ربما عرض عليها ذلك)، وكان لا يتخيل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل إلى تحقيق أغراضه دون أن يضحِّي بشيء إلّا ثلاثة آلاف روبل. هكذا استنتج ميتيا على أساس أنه يعرف غروشنكا وطبعها. لذلك كان من الممكن أن يقدّر أن ما تعانيه غروشنكا من تردد إنما يعود إلى أنها لا تعرف من تختار منهما، وأيهما أنفع لها. أما بشأن عودة «الضابط»، ذلك الرجل المشؤوم الذي احتل هذا المكان في حياة غروشنكا والذي كانت تنتظر وصوله بذلك القدْر كله من شدة الخوف، صحيح أن غروشنكا أصبحت منذ زمن بعيد لا تكلمه في هذا الأمر، ولكن ديمتري كان يعرف أن صاحبها القديم قد كتب إليها، لأنها أطلعته على الرسالة التي تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف ما تضمنته هذه الرسالة.

لقد أطلعته غروشنكا على الرسالة بنية شريرة، لكنها دهشت كثيراً حين

اكتشفت أنه لم يعط الرسالة أي اهتمام. ولعل سبب ذلك يرجع، إلى أنه سئم من وطأة تنافسه مع أبيه هذه المرأة لأنه لم يستطع أن يتخيل مصيبة أكبر وشقاءً أعظم من ذلك، في تلك الفترة على الأقل. وكان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيبٌ بعد غياب خمس سنوات، وخاصةً أن يعود قريباً، أضف إلى أن رسالة «الضابط» الأولى لم تتضمن إشارة إلى مجيئه إلّا بكلمات غامضة: لقد كانت الرسالة تحتوي أموراً عامة. يجب أن نذكر أن غروشنكا قد أخفت عنه في ذلك المساء الأسطر الأخيرة التي يشير فيها إلى عودته القريبة بشيء من الوضوح. وكان ميتينكا يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن غروشنكا، حين أطلعته على الرسالة، قد أظهرت على غير إرادة منها احتقارها للرجل الذي كتب إليها الرسالة من سيبريا. ولم تفضِ غروشنكا إليه بعد ذلك بأي شيء عن الاتصالات التي تمَّت بينها وبين غريمه الجديد. إلى أن نسي وجود هذا الضابط نهائياً.. فكان لا يشغله إلّا اعتقاده بأن الصراع الحاسم بينه وبين فيودور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر، فلا بد أن تُحلَّ هذه المسألة على أي حال قبل كل شيء. وكان ينتظر قلِقاً، أن تتخذ غروشنكا قرارها من دقيقة إلى أخرى، وكان يعتقد أنها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي فتقول فجأة: «خذني، أنا لك إلى الأبد»، وينتهي كل شيء، فيسيطر عندئذ عليها، ويمضي بها إلى آخر العالم. سيأخذها عندئذ فوراً إلى أبعد مكان ممكن، يأخذها إلى أقصى روسيا إن لم يأخذها إلى أقصى العالم؛ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولَينِ لا يعرفهما أحد، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان. ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة كلياً! هكذا كان يحلم متحمساً بالحياة الجديدة، الحياة «الفاضلة» ـ الفاضلة خاصة ـ. لقد كان متعطشاً جداً إلى هذا التجديد، لأنه كان يتألم من الحمأة الحقيرة التي تردّى فيها وغاص بإرادته، ككثير من هذا النوع من الرجال في مثل هذه الحالة، يؤمن بالخلاص

عن طريق تغيير هذا الوسط: فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش في هذا الوسط بعد الآن. كان يتصور أنه متى هجر هذا المحيط الملعون تغيّر كل شيء. ذلك كان أمله، وهذا ما كان يؤلمه.

إن هذا الحل لا يمكن أن يحصل إلّا بالنسبة للحل الأول، الحل «السعيد» للمسألة. وثمَّة قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه، لكن نتيجته مخيفة، هو أن تقول له فجأة: «أغرب عني، فلقد اتفقت مع فيودور بافلوفتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتزوجه، فلا حاجة بي إليك بعد اليوم.» وهذه الحالة... في هذه الحالة... لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث، ولقد ظل لا يعرف ذلك إلى آخر لحظة. علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له. إنه لم يعقد نيته على شيء، ولم يفكر في ارتكاب أي جريمة. كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويتجسس ويتعذب بدون انقطاع، ولكنه لا يتصور إلّا الحل الأول، ولا يتنبأ إلّا بالنهاية السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى. على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله قلقاً مهموماً؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة في طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد، عقبةً خارجية طبعاً، ولكنها عقبة رهيبة ولا حلَّ لها.

وإذا قالت له: «أنا لك، خذني»، كيف يمكنه أن يأخذها؟ أين يجد الوسائل والمال؟ فالأموال التي كانت تأتيه من حسنات فيودور بافلوفتش الصغيرة قد نفدت منذ سنين طويلة. صحيح أن غروشنكا تملك مالاً، ولكن ميتيا اكتشف فجأة كبرياء شديدة تستيقظ في نفسه: كان حريصاً على أن يتحمل هو نفقات الرحيل، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله الخاص، ويرفض أن يعيش عالةً عليها. كان لا يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً، وكان إذا تصوَّر ذلك يبلغ من شدة الألم أن يشمئز من نفسه. لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحلِّلها، وحسبي أن أقرر أن هذه كانت عاطفته، جائز جداً أن يكون هذا

الموقف قد أملاه عليه، دون أن يشعر، ما قاساه ضميره من عذاب خفيٍّ منذ أن استولى على المبلغ الذي ائتمنته عليه كاترينا إيڤانوفنا. لقد كان يقول لنفسه كما اعترف فيما بعد: «أنا وغد حقير في نظر الأولى، وسأصبح وغداً حقيراً في نظر الثانية. إذا علمت غروشنكا بالأمر، فلن ترضى بنذل مثلي». ولكن أين عساه يجد المال الضروري والحالة هذه؟ أين عساه يجد المال الذي يحتاج إليه، والذي بدونه سيتعرض كل شيء للخطر، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أي هدف؟ «أكلُّ هذا بسبب مسألة مالية حقيرة؟ يا للعار!».

أود أن أشير مسبقاً إلى أنه ربما كان يعلم أين يمكنه أن يأخذ هذا المال، وربما كان يعرف أين هو مخبّأ. سأكتفي بهذا القدر لأن كل شيء سيتضح فيما بعد. لكن، أين تكمن مصيبته الكبرى، سأقول ذلك ولو بشكل غامض: حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبّأ في مكان ما، حتى يكون «من حقه» أن يأخذ هذا المبلغ، كان عليه أولاً أن يردَّ الثلاثة آلاف روبل التي يدين بها لكاترينا إيڤانوفنا. «وإلّا لست إلّا سارقاً صغيراً، إلّا لصاً، ولن أبدأ حياتي الجديدة كلصٍّ حقير». كذلك كان يقول ميتيا لنفسه، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب إذا لزم الأمر، من أجل أن يستطيع ردَّ الثلاثة آلاف روبل إلى كاترينا إيڤانوفنا وهذا قبل كل شيء. وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة، أثناء الساعات التي أعقبت لقاءه مع إيليوشا في الطريق، بعد أن علم من أخيه بأمر الإهانة التي ألحقتها غروشنكا بكاترينا إيڤانوفنا، فصاح يقول: قل هذا عن لساني لكاترينا إيڤانوفنا «إذا كان ذلك يمكن أن يهدِّئ روعها». ولقد شعر أثناء تلك الليلة، وهو في اضطراب شديد، «بأنه يحسن صنعاً إذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد إلى كاتيا مالها». قال يخاطب عندئذ نفسه: «ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً في نظر ضحيتي وفي نظر جميع الناس، ألا فلأُرسَل إلى سجون الأشغال الشاقة في سيبريا، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول

عني إنني لم أخنها فحسب، وإنما سرقتها أيضاً وسطوت على مالها لأهرب مع غروشنكا وأبدأ بذلك حياة جديدة محترمة. لا أستطيع أن تقول عني كاتيا هذا الكلام!». ذلك ما كان يحدِّث به ميتيا نفسه وهو «يكزّ» على أسنانه، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه. ولكنه كان، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح...

أمر غريب: كان من الممكن أن نعتقد أنه مع هذا القرار لم يبق له سوى شيء واحد ألا وهو اليأس، لأنه أين يمكنه، فجأة، الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير بينما هو يتخبط في فقر مدقع؟ ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية، واثقاً أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة. فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم إلّا تبديد ما ورثوا، مثل ديمتري فيودوروفتش، والذين يجهلون كل شيء عن طريقة جني الرزق وكسب المال. إن مشاريع خيالية عجيبة تغلي في ذهنه منذ أن ترك إيليوشا قبل يومين، وقدا اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت كل الأفكار. فبدأ بمشروع هو أسخف ما يمكن أن يتخيله. لقد قرر فجأة أن يذهب إلى التاجر سامسونوف، حامي غروشنكا، ليعرض عليه «مشروعاً» ويحصل منه على كل المبلغ الذي يريده. وكان لا يساوره شك في قيمة مشروعه من الناحية التجارية، وإنما كان يتساءل كيف يمكن أن يستقبله العجوز. وكان يعرف العجوز وجهاً، ولكنه لم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين. وكان مقتنعاً منذ زمن طويل، بأن هذا العجوز الفاسق، لن يعارض أن تبني غروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة». كان يقول لنفسه: «أغلب الظن أن العجوز لن يرى أي سوء في هذا، بل لعله يتمناه ويساعد على تحقيقه إذا سنحت الفرصة.». وكان يعتقد أيضاً، على أساس شائعات غامضة وأقوال أفلتت من غروشنكا، أن سامسونوف يؤثره

على فيودور بافلوفتش زوجاً لغروشنكا. ربما كان بعض قرائي يرون أن حساباً كهذا من جانب ديمتري، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدي حاميها إن صح التعبير، يدلان على أن ديمتري فيودوروفتش يفتقر إلى رقة الشعور. ولكنني أجيب عن هذا بقولي إن ميتيا كان يرى أن ماضي غروشنكا قد دُفن نهائياً. لقد كان شقاؤه وسقوطه يوقظان في نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها. لقد دفعته حرارة الهوى إلى الاعتقاد بأن غروشنكا ستُبعث من جديد وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه، فيكون في وسعهما كليهما أن يبدأا حياة بريئة من كل إثم، حياةً كلُّها فضائل: لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه، ويبدأان حياة جديدة. أمّا كوزما سامسونوف فكان ديمتري يرى أنه قد لعب في حياة غروشنكا إبان صباها دوراً مشؤوماً، وأنه لم يحبها على كل حال، كان يرى أيضاً أن كوزما ـ وهذا هو الأمر الأساسي ـ قد «انقضى» هو أيضاً، فلا يُحسب بعد الآن. أضف إلى ذلك أن ميتيا لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى فيه رجلاً، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم إلّا خرقة بالية، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبقِ له غروشنكا إلّا علاقاتٍ أبوية إن صح التعبير، وذلك منذ زمن غير قصير، منذ ما يقرب من عام. صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة، ولكنه كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه. وكان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذي يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحسُّ بندامة صادقة على ماضيه مع غروشنكا؛ وأن ليس لها في هذا العالم الآن صديق أشد إخلاصاً من هذا العجوز الذي أصبح الآن لا يُخشى منه أذًى.

في اليوم الذي تلى حديثه مع إيليوشا في الحقل، والذي لم يستطع بعده ميتيا أن يغمض له جفن طوال الليل، ذهب إلى منزل سامسونوف في الساعة العاشرة من الصباح، وأعلن نفسه. المنزل قديم، حزين المظهر، عظيم الاتساع،

له طابق فوق الطابق الأرضي، وله ملحقات كثيرة وجناح في الفناء. إن الطابق الأرضي يسكنه ابنا سامسونوف مع عائلتيهما، وأخته العجوز، وابنته التي لم تتزوج بعد. أما الجناح الذي في الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه، أحدهما أيضاً ذو عائلة كبيرة العدد. إن أولاده ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم، بينما الطابق الأعلى وقفٌ على العجوز وحده، الذي كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته التي تعتني به، وكان عليها، في ساعة محددة، وكلما ناداها، كي تذهب إليه أن تصعد السلَّم رغم داء الربو الذي يرهقها منذ زمن طويل. إن الطابق «الأعلى» الذي يسكنه العجوز يتألف من غرفٍ واسعة متتابعة، مؤثثة على الطراز الذي كان يحبه التجار في الماضي، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد متشابهة ثقيلة من خشب الأكاجو، وعُلِّقت في سقوفها ثريات من الكرستال مجلَّلة بأغطية، ووُضعت في زواياها مرايا قاتمة بين النوافذ. كل هذه الغرف خالية وغير مأهولة الآن، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في عمق المنزل والتي تخدمه فيها خادمة عجوز تعصب رأسها دائماً بمنديل، و «صبي» ينام على مقعد في المدخل. ولا يستطيع العجوز المشي بسبب ساقيه المتورمتين، فهو يكتفي بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادمة العجوز من حين إلى آخر ليمشي بضع خطوات في الغرفة. وكان قاسي الطبع لا يتكلم إلّا قليلاً حتى مع هذه العجوز.

ولما أُبلغ زيارة «الكابتن»، رفض أن يستقبله في بادئ الأمر؛ ولكن ميتيا ألحَّ على أن يراه. فسأل كوزما كوزمتش الصبيَّ هل يبدو على الزائر أنه عنيف وأنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى إلى فضيحة. فكان الجواب:

ـ لا... إن العجوز يرفض أن يفتح الباب.

ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه، لأنه كان قد توقَّع ذلك، وتزوَّد سلفاً بقلم وورقة. وبدأ يكتب على الورقة «أن القضية مستعجلة وتتعلق

بأغرافينا ألكسندروفنا من كثب»، وأرسل الورقة إلى العجوز. فكَّر العجوز بضع لحظات، ثم أمر الصبيَّ بإدخال الزائر إلى الصالة، وأرسل الخادمة العجوز في الوقت نفسه إلى ابنه الأصغر آمراً إياه أن يصعد إليه فوراً، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة. إنه رجل طويل القامة يبلغ المترين عريض الجسم قوي البنية، حليق اللحية يرتدي الزيَّ الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدي قفطاناً وكانت له لحية). إن جميع أفراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب. ولقد استدعى العجوز ابنه القوي هذا لا خوفاً من الكابتن، فإنه لا تنقصه الشجاعة، ولكن لكي يكون هنالك شاهد. وها هو ذا يستند إلى ابنه وإلى الصبي فيظهر أخيراً في عتبة الصالة كتلةً مائجة. وربما كان يجب أن نسلِّم بأنه كان يشعر بكثير من الفضول.

إن الصالة التي كان ميتيا ينتظر فيها غرفة واسعة معتِمة، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويُشعر النفس بالحزن، وهي مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلَّلة بأغطية، وسماط من اللوحات تصطف في القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلَّد المرمر. كان ميتيا جالساً على كرسي صغير قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره، وهو في حالة عصبية شديدة فلما ظهر العجوز في المدخل المقابل له على مسافة عشرين متراً من كرسي ميتيا نهض هذا الأخير فجأة وتقدم نحوه بخطًى حازمة عسكرية. كان ميتيا حسن الهندام، يرتدي ردنغوتاً مزرّراً، ويحمل بيديه قبعةً مدوَّرة، ويلبس قُفازين أسودين، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام في الدير عند الراهب المرشد أثناء لقائه فيودور بافلوفتش وأخويه. انتظره العجوز واقفاً، رصين المظهر وقوراً، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويتفحصه بانتباه. وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورُّم شديد منذ زمن. إن شفته السفلى، وهي شفة سميكة، تتدلى الآن تدلياً. حيَّا هذا الأخير ضيفه بصمت ورصانة،

ودعاه إلى الجلوس على مقعدٍ أمام كنبة، كما حاول هو بتهالك بطيء مستنداً إلى ذراع ابنه مطلقاً من صدره بعض الأنين أن يجلس مقابل ميتيا بحيث أن ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التي يبذلها العجوز، شعر فوراً بعذاب ضمير وبخجل مزعج لتفاهته الحالية وإزعاجه لشخصية بهذه الأهمية.

سأل العجوز بلهجة حازمة ولكن مهذبة بعد أن استقر على الكنبة:

ـ بم أستطيع أن أخدمك يا سيدي؟

ارتعش ميتيا، وأراد أن يقف، ولكنه عاد فجلس، ثم بدأ متكلماً بسرعة كبيرة وعصبية شديدة، مكثراً من الحركات والاشارات، لأنه كان في حالة اهتياج عظيم. فمن رآه أحسَّ أنه أمام رجل اندفع إلى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقي نفسه في الماء إذا أخفق. ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً كأنه وجه طوطم.

لا شك أن كوزما كوزمتش المحترم جداً قد سمع عن خلافاتي مع أبي فيودور بافلوفتش كارامازوف الذي سلبني كل ميراثي من أمي... إن المدينة كلها تلغط في هذا الأمر... لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهي أن يهتموا بما لا يعنيهم... ولا شك أنك علمت من غروشنكا... معذرة: أغرافينا ألكسندورفنا... التي أحترمها وأبجِّلها إلى غير حدّ...

بدأ ميتيا حديثه بهذه الكلمات وتوقف عند أول كلمة. لكنني لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة، وحسبي أن ألخص مضمونها الأساسي. إليكم ما قاله ديمتري: لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محاميَ المنطقة (كان ميتيا يتعمد أن يستعمل في شروحه تعابير رائجة في البيئة التي ينتمي إليها سامسونوف). قال: «ذهبت مع المحامي الشهير، إلى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذي ربما تعرفه يا كوزما كوزمتش؟ إنه عريض الجبهة، وله ذكاء رجل دولة... وهو يعرفك أيضاً... وقد أثنى عليه ثناءً عظيماً...».

هنا توقف ميتيا مرة جديدة. ولكنه كان يعود إلى نفسه في كل مرة، منتقلاً إلى فكرة جديدة بدون تدرُّج. إذن، إن كورنيبلودوف الرائع هذا، بعد أن استمع إلى شروح ميتيا، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة، وإنما هو مرَّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً) رأى، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا، وهي القرية التي كان يجب أن تؤول إليه مع أنني لم أستطع أن آخذ من فيودور بافلوفتش إلّا ستة آلاف أو سبعة آلاف، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب... «لأن جميع الأبواب ليست مسدودة، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي توصل إلى الهدف»؛ أي أنّ من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيودور بافلوفتش على مبلغ يصل إلى ستة آلاف روبل أو سبعة من قبيل التعويض، لأن تشرماشنيا تساوي في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً. ـ ثلاثون ألفاً، ثلاثون ألفاً يا كوزما كوزمتش، مع أنني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي إلّا سبعة عشر ألف روبل، تصوَّر...! ولكنني آثرت ألّا أرفع دعوى، لأنني لا أفهم في شؤون المخاصمات شيئاً... فلما وصلتُ إلى هذه المدينة رأيتني ألاحَق وأطارَد. هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز إلى موضوع آخر هل تقبل، في هذه الشروط، يا كوزما كوزمتش المحترم، أن أتنازل لك عن جميع حقوقي عند هذا الشيطان الرجيم، على أن تدفع لي في مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل... إنك لا تجازف بشيء، وأقسم لك عليه بشرفي، بالعكس: لسوف تُرَدُّ إليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة... لكن المهم أن تتم هذه الصفقة كلها «اليوم». أنا على استعداد لأن أوقِّع عقداً مسجَّلاً لدى الكاتب العدل، أو شيئاً من هذا القبيل... أي أنني مستعد لكل شيء. أعطيك الأوراق التي ستحتاج إليها، وأتنازل لك عن جميع الحقوق... تُبرِم العقد فوراً، إن أمكن، إذا كنت تستطيع ذلك اليوم، صباحاً... ثم تعطيني

الثلاثة آلاف روبل... أنت الذي تعدُّ كرأسمالي في هذه المدينة القذرة وبذلك تنقذني.. وتهَب لي فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيلٍ جداً في الواقع... فإنني أضمر عواطف نبيلة لإنسانة تعرفها أنت وترعاها مثل أب... وما كان لي أن أجيء إليك لولا علمي بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً. وبشكل أدق وجب أن نقول إن رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا، لأن القدَر قوة رهيبة يا كوزما كوزمتش!. فلنكن واقعيين يا كوزما كوزمتش، لنكن واقعيين! وإذ إنك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب في عداد المتصادمين، فلم يبقَ هنا لك إلّا خصمان يتنازعان. إنني أعبِّر عما يجيش في نفسي تعبيراً أخرق، ولكنني لست بأديب. المهم أنه لم يبقَ هنالك إلّا أنا من جهة، وذلك الوحش من جهة أخرى. فاختر: أنا أم ذلك الوحش؟ كل شيء متوقف عليك منذ الآن ـ مصائر ثلاثة أشخاص وقدَران... اعذرني أنا مرتبك، إنك تدرك ذلك... إنني أرى في نظرات عينيك المحترمتين أنك فهمتني... فإن لم تكن قد فهمتني سوف ألقي نفسي في الماء، هذا هو الأمر!».

قطع ميتيا حديثه الغريب المدهش فجأة بعد أن نطق بجملته السخيفة تلك: «هذا هو الأمر»، ونهض عن مكانه ينتظر الردَّ على عرضه السخيف. لقد شعر فجأة وهو يختم تلك الجملة، أن كل شيء قد ذهب سدىً، وأنه قد ارتكب حماقاتٍ رهيبة. «غريب! كنت حين وصولي أحسُّ أن الفكرة رائعة، فإذا هي لا تسفر في النهاية إلّا عن غباء» وكان العجوز أثناء تدفُّق ميتيا في الكلام، يحافظ على هدوء وضعه، ويراقب محدِّثه وقد ظهر في عينيه تعبير بارد كالثلج. فلما أنهى كلامه، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة، ثم قال له بلهجة حازمة وغير مشجِّعة:

ـ متأسف يا سيدي! إنني لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع.

أحسَّ ميتيا بساقيه تنثنيان!

ـ ولكن يا كوزما كوزمتش، ما عسى أصير إليه في مثل هذه الحالة؟ تمتم وهو يبتسم ابتسامة شاحبة؟ لقد هلكتُ الآن، ألا تصدِّق ذلك؟

ـ آسف...

بقي ميتيا جامداً ينظر إليه بدقة، ولكنه لاحظ عندئذ شيئاً من الانفراج في عضلات وجه العجوز، فارتعش.

ـ أنا يا سيدي لم أتعود تعاطي أعمال كهذه. قال العجوز بهدوء، فهناك دعاوى ومحامون ومصيبة! ومع ذلك في وسعي أن أدلّك، إذا شئت، على شخص يمكنك أن تتجه إليه...

ـ يا إلهي! من هو إذن!... تمتم ميتيا! إنك تردُّ إليَّ الحياة يا كوزما كوزمتش!

ـ هذا الرجل، ليس من هنا، ولا يقيم الآن هنا. إنه فلاح يتعاطى تجارة الخشب. اسمه «لياغافي». وهو يتفاوض منذ سنة مع فيودور بافلوفتش على ثمن الأشجار، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما تعلم ذلك. وقد جاء إلى المنطقة من جديد، وهو يسكن الآن عند الكاهن ايلنسكي ايلنسكي في قريته التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن محطة فولوفيا! وقد كتب إليَّ في موضوع الأشجار هذه مستنصحاً. وأحسب من جهة أخرى أن فيودور بافلوفتش يعتزم الذهاب إليه شخصياً. فإذا أنذرت فيودور بافلوفتش وعرضت على «لياغافي» ما عرضته عليَّ الآن، فمن الجائز أن...

فكرة عبقرية! قاطعه ميتيا بحماسة: ذلك هو الرجل الذي أنا في حاجة إليه؛ هذه الصفقة صفقته! إنه يساوم على السعر، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها، فإذا هو يجد بين يديه أوراقاً تجعله مالكاً للمنطقة بأسرها! هاهاها! انفجر ميتيا يضحك ضحكةً آلية غير متوقعة، استأنف ميتيا كلامه قائلاً وهو يغلي: كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش؟ فلم يملك سامسونوف إلّا أن ارتعش قليلاً.

ـ لا داعي إلى الشكر. قال سامسونوف وهو يحني رأسه.

ـ إنك لا تعرف أنك أنقذتني... قلبي هو الذي جاء بي إليك... والآن، فلنذهب إلى ذلك الكاهن!

ـ لا داعي إلى الشكر.

ـ سأركض سأطير. لقد أسرفت في الاستفادة من لطفك، بينما أنت مريض. لن أنسى جميلك مدى الحياة. إن روسياً هو الذي يعدك بذلك كوزما كوزفتش، رووووسيّاً!

ـ حسناً.

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها، ولكنه لاحظ بريقاً خبيثاً في عيني العجوز في تلك اللحظة، فأرخى ميتيا يده، لكنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه، وقال لنفسه: «لا بد أن يكون متعباً...»،

ـ من أجلها، هذا من أجلها، يا كوزما كوزمتش. وصاح يقول بصوت مدوٍ: هل تعلم أنه من أجلها.

حيَّا العجوزَ بانحناء، واستدار، واتجه نحو الباب بخطًى واسعة وسريعة دون أن يلتفت وراءه. كان يرقص من الفرح. قال لنفسه: «كل شيء قد ضاع. وفجأة ملاكي الحارس أنقذني. فحين يدلني رجل أعمال على هذه الطريق... العجوز الأنبل وما أعظم مهابته! فمعنى ذلك أنني ربحت القضية. سأذهب إلى هناك حالاً. ثم أعود قبل حلول الليل، نعم قبل الليل، لقد ربحت العملية! ذلك أن العجوز لا يمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال!». بذلك كان ميتيا يحدِّث نفسه وهو يتجه إلى منزله بخطًى سريعة. ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصور شيئاً آخر. فإما أن المسألة مسألة حلٍّ مضمون يوصى به «رجل أعمال كهذا الذي كان على علم بالموقف وكان يعرف لياغافي هذا (يا له من اسم غريب!) وإما أن العجوز قد سخر منه! ومع الأسف؛ إن هذا الافتراض الثاني

كان هو الصحيح. لقد استمرَّ العجوز زمناً طويلاً بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبَّر مكيدة لهذا «الكابتن». كان رجلاً سيِّئ الطوية قاسي القلب ساخر النفس، كثيراً ما يخالط الكرهَ في نفسه مرض. ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميًّا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه، هو سامسونوف، يمكن أن تنطلي عليه هذه العروض الخادعة تصدر عن رأس محموم و «سلة مثقوبة» من هذا النوع، أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على غروشنكا التي جاء هذا «الولد الفاجر» يسأله المال باسمها من أجل «مشروع» سخيف مضحك؟ لست أدري أي الدافعين فعل في نفس العجوز حين كان ميتيا يقف أمامه شاعراً بارتخاء ساقيه هاتفاً في غباء أنه هلك! المهم أن العجوز ألقى عليه في تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يسخر منه. وما إن انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش إلى ابنه، وقد اصفرَّ لونه من شدة الغضب، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرثّ أن يدخل منزله مرةً أخرى في المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء، وإلّا...

ولم يكمل جملة تهديده، ولكن ابنه ارتعد خوفاً، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات عديدة. وظل العجوز بعد ذلك ساعةً كاملة فريسةَ غضب شديدٍ يرتعش منه جسمه كله. وعند المساء وقع مريضاً فأرسل في طلب الطبيب.

# II

## لياغافي

إذن، يجب «الإسراع». لكن المال لاستئجار الخيول ليس متوفراً. ولا يملك سوى بضعة كوبيكات، وهذا كل ما بقي له من سنوات البحبوحة التي عاشها! لكنه تذكّر أن لديه في منزله ساعةً قديمة من فضة، متعطلة منذ زمن طويل. فأسرع لجلبها وأخذها إلى تاجر ساعات يهوديّ، لديه دكان قرب السوق، فاشتراها منه بستة روبلات. هتف ميتيا يقول لنفسه متحمساً: «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله!»، وعاد إلى مسكنه مسرعاً، فرحاً، يحمل المبلغ معه، واقترض ثلاثة روبلات من أصحاب المنزل الذي يقيم فيه. ولقد وافق أصحاب المنزل بطيبة خاطر على أن يقرضوه المبلغ، رغم أنه كان هذا كل ما تبقى لديهم، وذلك لأنهم يحبونه كثيراً. وأبلغهم ميتيا، وهو فرحٌ، أن مصيره على المحك وهو سيتقرر الآن، وشرح لهم، ببضع كلمات سريعة جداً، «الخطة» التي عرضها على سامسونوف والقرار الذي اتخذه هذا الأخير، والآمال التي أشرقت في نفسه، الخ. وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يعتبرونه واحداً منهم، فهو «سيد» لا يتكبر. فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو، أمر

بخيول للسفر إلى فولوفيا. ولكن هذا أَلَّف واقعة ثابتةً ستُذكر فيما بعد: «في عشية الحادثة، لم يكن ميتيا يملك كوبيكاً واحداً، حتى لقد اضطر، من أجل الحصول على شيء من المال، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب المنزل، وذلك كله بوجود شهود.».

أذكر هذه الواقعة مسبقاً وباقي القصة سيبين الأسباب.

كان ميتيا، أثناء انطلاق الخيول به إلى فولوفيا بسرعة، مشرق الآمال يتملكه شعور بأن «جميع هذه الشؤون» ستسوَّى أخيراً. إلا أنه كان يرتعش من الخوف حين يتساءل ماذا سيحصل لغروشنكا أثناء غيابه؟ ماذا إذا قررت في ذلك المساء أن تذهب إلى فيودور بافلوفتش؟ لهذا السبب قرر أن لا يخبرها بأمر سفره، كما أنه أمر أصحاب منزله أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر إليه إذا هم سئلوا عن ذلك. «يجب أن أعود قبل هبوط الليل، مهما كلف الأمر، مهما كلف الأمر». هكذا كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به إلى فولوفيا مسرعة وتهزه بقوة. وكان يحدِّث نفسه أثناء تعجُّله المحموم هذا قائلاً: «أما لياغافي هذا، فسوف أعود به معي، لإبرام العقد». ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من «خطط» مع الأسف!

فهو أولاً قد وصل متأخراً، لأنه سلك طريقاً قروياً بعد محطة فولوفيا، واكتشف أنه اجتاز ثمانية عشر فرسخاً وليس اثني عشر فقط. ثم إن الكاهن ايلنسكي لم يكن في منزله لأنه كان قد ذهب إلى قرية مجاورة. فلما عثر عليه ميتيا أخيراً في تلك القرية التي تابع طريقه إليها بخيوله المنهوكة القوى، كان الليل قد أوشك أن يهبط. وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن، وهو رجل لطيف وخجول المظهر، أن لياغافي قد نزل عنده فعلاً في أول الأمر، ولكنه يقيم الآن في سوخوي بوزيولوك، وأنه سيبيت هذه الليلة في عربة حرّاس الغابات لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك. فتوسل إليه ميتيا أن يصحبه فوراً إلى لياغافي

وأن «ينقذه» بذلك، فتردد الكاهن في أول الأمر، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوي بوزيولوك، وكان واضحاً أن الفضول هو الذي دفعه إلى هذه الموافقة. ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراًعلى الأقدام، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو «أكثر قليلاً». وكان طبيعياً أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح، فأخذ يسير بخطًى مديدة على عادته في السير، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً إلى أن يماشيه راكضاً أو شبه راكض. إن هذا الكاهن رجل ما يزال غضَّ الاهاب، وهو في أحاديثه شديد التروّي والحذر. وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح المتعلقة بلياغافي، بإلحاح عصبيّ، وظل يتكلم على هذا النحو طوال الطريق. فكان الكاهن يصغي إلى كلامه بانتباه، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة، يقتصر على أن يكرر في الجواب عن أسئلة ميتيا الملحَّة: «لا أعلم، مع الأسف، أنَّى لي أن أعلم!». ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه في موضوع الميراث، ذُعر الكاهن، لأنه كان مرتبطاً بفيودور بافلوفتش من بعض النواحي؛ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب إطلاقه اسم لياغافي على هذا الفلاح غورسكين، فأخبره أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم أنه اسمه فعلاً، لأنه يستاء جداً من مناداته بهذا الاسم، وأنه لا غنى عن مخاطبته باسم غورسكين «وإلّا فلن تفلح معه في شيء، بل ولن يستمع إليك». بهذه العبارة ختم الكاهن كلامه، فدُهش ميتيا قليلاً، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذي ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيِّر الحديث. ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذي راوده والشبهة التي خطرت بباله: لئن أرسله سامسونوف إلى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياغافي، فمن الجائز جداً أن يكون قد فعل ذلك سخرية به؛ ولا بد أن يكون في الأمر شيء «يعرج». ولكن ميتيا لم يكن في وقته متسع للتلبُّث على «مثل هذه التفاهات». فهو يسرع في السير ويمشي

بخطًى مديدة، ولم يدرك أن المسافة التي قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل، لم يدرك ذلك إلّا حين وصل إلى سوخوي بوزيولوك. ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر عليه. ودخل الرجلان العزبة التي كان حارس الغابات، وهو رجل يعرفه الكاهن، يشغل نصفها، بينما كان نصفها الثاني الذي يفضل الأول عنايةً وصيانةً والذي يفصله عن النصف الأول دهليز، موضوعاً تحت تصرف غورسكين؛ واتجه الرجلان إلى غورسكين فوراً بعد أن أشعلا شمعةً. كانت الغرفة مدفَّأة تدفئة شديدة، وعلى طاولة من خشب السنديان يُرى سماور منطفىء وصينية وفناجين وزجاجة «روم» فارغة وإبريق ما يزال فيه بقايا خمر، وكسرات خبز. فكان الضيف مستلقياً على مقعد، وقد لفَّ سترته واتخذها وسادة، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً. نظر إليه مذهولاً وقال: يجب إيقاظه طبعاً! إن القضية التي جئت من أجلها مهمة جداً، وأنا في عجلة من أمري، لأن عليَّ أن أعود في هذا اليوم بالذات. صمت الكاهن والحارس ولم يبديا رأيهما. واقترب ميتيا من النائم وراح يحاول إيقاظه، فكان يهزه بقوة، ولكنه لم يظفر بشيء؛ ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران، فقال: هو سكران، فماذا عساي أصنع؟ يا إلهي!

وفجأة، فقد صبره وشدَّ الشاخر من ذراعيه، ثم من ساقيه، ثم رفع رأسه، وأجلسه على البنك، فلم يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة إلّا بضع تمتمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها.

ـ خير لك أن تنتظر، فليس هو في حالة تمكّنه من المناقشة. قال الكاهن:

ـ لقد ظل يشرب طوال النهار. قال الحارس.

ـ يا إلهي! لو علمتما مدى حاجتي إليه، وفي أي ظرف أنا!

ـ لا حيلة في الأمر، لا بد من الانتظار إلى صباح غد. ردد الكاهن.

ـ إلى يوم غد؟ إنك لا تفكر في الأمر! هذا مستحيل! واشتد به اليأس

فأراد أن يهز السكران من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك، لأنه أدرك أن جهوده لا فائدة منها. وقد سكت الكاهن؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت متجهم الوجه عابس الهيئة.

ـ تهيئ الحياة للإنسان في بعض الأحيان مهازل فاجعة من هذا النوع! قال ميتيا وقد بلغ ذروة الحيرة والاضطراب:

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه، وانتهز الكاهن الفرصة فأوضح كيف أن إيقاظ النائم لن ينفع في شيء، لأنه لن يكون قادراً على المناقشة وهو في حالة سكر شديد. وختم كلامه قائلاً: وما دام الأمر الذي جئت من أجله هاماً، فالأفضل أن ترجئه إلى الصباح. فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبِّراً عن العجز.

ـ سأبقى هنا يا أبتي مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية، فمتى استيقظ كلّمته... وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس: ـ وسأدفع لك ثمن الشمعة، وسأدفع لك أيضاً أجر قضاء الليلة هنا. سوف تتذكر ديمتري كارامازوف. ثم عاد يخاطب الكاهن فسأله: ولكن أين تنام أنت يا أبتي؟

ـ الأمر بسيط. أعود إلى بيتي. أجابه الكاهن. وأضاف مومئاً إلى الحارس:

ـ سأستعير فرسه وأعود. والآن نعمت مساءً. أرجو لك التوفيق كله.

وذلك ما كان. عاد الكاهن إلى بيته على الفرس، سعيداً بخلاصه من ميتيا. وكان في أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض الشيء، متسائلاً ألا يحسن به أن يبلغ فيودور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه: «إنه إذا علم بالأمر لسوء الحظ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته.». أما الحارس فقد حكَّ رأسه وعاد إلى غرفته دون أن ينطق بكلمة. وجلس ميتيا على البنك مترقباً اللحظة المواتية كما قال، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف. وأراد أن يفكر وهو على ما هو عليه من إرهاق وقلق، ولكن

أفكاره كانت تتهرب. إن الشمعة تذوب ببطء؛ وهذا جدجد يغنّي في مكانٍ ما؛ وقد أصبح الهواء خانقاً في الغرفة المدفَّأة تدفئة زائدة. وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه، والممر الذي يقع خلف الحديقة، وتراءى له باب يُفتح خلسةً في المنزل، وتراءت له غروشنكا تتسلل من الداخل... فإذا هو يثب عن البنك واقفاً!

ـ يا لَلمأساة! تمتم وهو يصرُّ بأسنانه: ثم اقترب من النائم بخطوات آلية، وراح يتفرس في وجهه. إنه فلاح نحيل ما يزال شاباً، شديد استطالة الوجه، مضفور الشعر، لذقنه لحية طويلة رقيقة، يرتدي قميصاً هندياً وصِداراً أسود تتدلّى من جيبه سلسلة ساعة من فضة. تأمَّل ميتيا وجهه، فشعر بكره شديد لهذا الرجل، وأغضبته ضفائره خصوصاً، لا يدري لماذا! وبدا له أنه أمر لا يطاق، أمر مذلٌّ أن يكون عليه، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هامّ ضحى في سبيله بكل شيء، أن ينتظر هنا منفطر القلب هماً، بينما هذا الكسول «الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم كأن شيئاً لم يكن، وكأنه على كوكب آخر»، يا لَسخرية القدَر! صاح ميتيا:

وفجأة فقد صوابه وانقضّ على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه. إنه الآن حاقد عليه فها هو يهزه بكل ما أوتي من قوة، وها هو يصدمه، بل يضربه. ولكن جميع جهوده ذهبت سدًى! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أن لا سبيل إلى إيقاظه، عاد إلى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله:

ـ يا للسُّخف! يا لَلسُّخف! قال ميتيا... ثم إذا هو يضيف إلى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا: يا لَلذل أيضاً! يا لَلعار! وأخذ يشعر بصداع رهيب في رأسه. وتساءل لحظة: «هل أعدُل؟ هل أرجع؟» ولكنه أجاب يقول: «بل سأنتظر حتى الصباح. سأبقى خصيصاً، خصيصاً! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت إلى هنا ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل؟ ما أسخف هذا كله!».

وكان صُداع رأسه يتزايد أثناء ذلك. وبقي ساكناً دون أن يلاحظ النعاس الذي كان يسيطر عليه شيئاً فشيئاً، ونام آخر الأمر جالساً. لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع في الرأس، ألم لا يطاق، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ. كان صدغاه يطنّان، وكان يحس بوجع في القذال. فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه، وانقضت برهة قبل أن يدرك ما به، ثم أدرك فجأة أن الغرفة المدفّأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هي رائحة فحم محترق، وأنه كاد يموت اختناقاً. وكان السكران مايزال يغطُّ في نومه على البنك. وكانت الشمعة قد انصهرت توشك أن تنطفىء. صرخ ميتيا وأسرع إلى غرفة الحارس مترنّح الخطى. فسرعان ما استيقظ هذا الأخير، ولكن لم يبدُ عليه أنه انفعل كثيراً حين عرف بما حدث، وإنما راح يتخذ الإجراءات اللازمة ببرودة وقلّة اكتراث، فدُهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضباً.

ـ لكنه مات، مات... وهنا... ماذا؟ صاح يقول مضطرباً اضطراباً شديداً:

فتُح الباب، وفتحت نافذة، ودخل الهواء إلى الغرفة، ونُظِّفت مدخنة المدفأة المسدودة. وأسرع ميتيا فجاء بدلو ماء فأغطس فيه رأسه، ثم تناول خرقة فبلّلها بالماء ووضعها على جبين لياغافي. فكان الحارس ينظر إليه أثناء ذلك هادئاً فيه نوع من احتقار وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة: «هل هذا كافٍ». ثم رجع إلى غرفته ينام، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً. ظل ميتيا يتحرك قرابة نصف ساعة إلى جانب السكران الذي يوشك أن يكون مختنقاً، واستمر يجدِّد له الكمادات المبتلّة مرة بعد مرة، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح. ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة، وفوراً أغمض عينيه، واستلقى على البنك دون أن يلاحظ ذلك، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً.

استيقظ متأخراً. لقد دقّت الساعة التاسعة، والشمس تسطع من خلال نافذتي الغرفة الصغيرتين؛ وقد ارتدى الفلاح المضفور الشعر ثيابه كاملة، وجلس إلى الطاولة التي كان عليها سماور جديد وإبريق خمر جديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن ـ كان الإبريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة ـ، فنهض ميتيا بوثبة واحدة، وأدرك منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر مجدداً، وأن سكره سيكون في هذه المرة عميقاً لا علاج له. ظل ميتيا يحدِّق إلى الفلاح دقيقةً محملِق العينين. أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر، إلى هدوء مُهين، فيما بدا لميتيا. قال له ميتيا:

ـ المعذرة... أعتقد... لا بد أن الحارس قد أخبرك بدون شك. أنا الليوتنان ديمتري كارامازوف، ابن العجوز كارامازوف الذي تفاوضه في أمر شراء أشجار الغابة...

ـ أنت تكذب! أجابه الفلاح بصوت هادىء وثقة.

ـ كيف؟ أنا أكذب؟ أنت تعرف فيودور بافلوفتش جيداً!

ـ أنا أجهل من هو فيودور بافلوفتش! قال الفلاح رخوَ الفم.

ـ لقد ساومتَه على ثمن أشجار الغابة التي ستقطع. هلّا استيقظت أخيراً؟ هل استعدت رشدك! إن الأب بافل إيلنسكي هو الذي جاء بي إلى هنا... تذكَّر: ولقد كتبت أنت إلى سامسونوف، فأرسلني هو إليك... قال ميتيا لاهثاً.

ـ كذّاب قال لياغافي

فأحس ميتيا بساقيه ترتخيان.

ـ رجاءً! ليس الأمر مزاحاً. لعلك سكران قليلاً. حاول أن تتكلم... أو... أو... أصبحت لا أفهم شيئاً!

ـ أنت الصبَّاغ!

ـ رجاءً، أنا كارامازوف، ديمتري كارامازوف، وقد جئت أعرض عليك صفقة... صفقة رابحة... رابحة جداً لك... تتعلق بهذه الأشجار التي ستُقطع.

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار:

ـ هذا كذب! لا شك أنك قد تواطأت على عقد. أنت نذْل، أنت نذْل.

ـ أؤكد لك أنك مخطىء! قال ميتيا محتجـاً وهو يعقف ذراعيه يأساً:

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف إغماضة وهو يمسِّد لحيته.

ـ لا إني أفضّل أن تقول لي ما هو القانون الذي يجيز للناس أن يقترفوا النذالات. هل تسمعني يا نذل؟ هل تفهم؟

رجع ميتيا متجهماً وفجأة انتفض، «كما لو أن شيئاً ضربه على جبينه»، كما روى هو ذلك فيما بعد. وقد تبين في الحال. «أن ذلك كان إلهاماً مباغتاً، فأدركت كل شيء». تساءل ميتيا، مذهولاً، كيف أمكن أن يُساق، هو الرجل الذكي رغم كل شيء ، كيف أمكن أن يُساق إلى وضع سخيف إلى هذا الحدّ، وكيف أمكن أن يندفع في مغامرة كهذه، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة، وأن يشغل نفسه بلياغافي هذا واضعاً على صدغيه كِمادات مبلّلة... «إنه سكران، سكران سكراً فظيعاً، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله، فعلامَ أنتظر؟ وماذا إذا كان سامسونوف قد سخر مني بإرسالي إلى هنا؟ وماذا إذا هي... يا إلهي! ماذا فعلت بنفسي!...».

كان الفلاح الجالس على البنك ينظر إليه ضاحكاً. فلو كان ميتيا في غير هذا الوضع لانقضَّ على هذا الأبله حانقاً وصرعه، ولكنه كان يشعر في تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل. توجه نحو البنك بخطًى بطيئة، تناول معطفه، تلفع به وخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يجد حارس الغابات في الغرفة الأخرى، فتناول من جيبه خمسين كوبيكاً فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضاً عن الإزعاج. وخرج من العزبة، فوجد نفسه في عمق الغابة دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه في معرفة طريقه؛ فسار على غير هدًى، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التي جاء منها، فلم يعرف هل يتجه يَمنةً أم يَسرة حين يخرج من منزل الحارس. لم يلاحظ الطريق في الليلة

البارحة من شدة استعجاله. وهو الآن لا يشعر بأية رغبة في الانتقام، حتى ولا من سامسونوف. إنه يسير في ممر الغابة الضيق، خاوي الرأس زائغ النظر، كأنه يبحث عن «فكرة ضائعة»، ولا يهمه أن يعرف إلى أين كان ذاهباً! إن بإمكان طفل صغير أن يسقطه على الأرض في تلك اللحظة بسهولة، من فرط ما كان يعاني من إرهاق جسديّ ونفسيّ في آن. ومع ذلك خرج من الغابة بهذا الشكل أو ذاك، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى النظر. قال في نفسه وهو ما يزال يسير قدُماً بشكل مستقيم: «كأن اليأس والموت قد مرَّا بهذا المكان!».

وأنقذته عربة: كانت تنقل تاجراً عجوزاً وتسير على طول الطريق. فلما بلغته العربة سأل حوذيَّها عن الدرب، وتبيَّن أن الحوذي ذاهب إلى فولوفيا هو أيضاً. وبعد النقاش تم الاتفاق بينه وبين الحوذيّ، على أن يكون ميتيا رفيقاً للسفر. وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة إلى محطة فولوفيا، فلاحظ ميتيا فجأة، بعد أن أمر بخيلٍ تقلُّه إلى المدينة، أنه يكاد يموت جوعاً؛ فبينما كانت الخيل تُقرن، طلب طبقاً من عجَّـة التهمه مع قطعة كبيرة من الخبز، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً، وشرب ثلاثة أقداح صغيرة من الفودكا. حتى إذا استردّ قواه، شعر بتجدد شجاعته، واستعاد صحو ذهنه. وكانت الخيل تجري، وميتيا يحضّ الحوذيّ على مزيد من السرعة، ويهيىء في الوقت نفسه «خطة» جديدة، خطة «لا تخطىء» في هذه المرة، من أجل الحصول على «هذا المبلغ اللعين» قبل نهاية ذلك اليوم. صاح يقول مشمئزاً: «كيف يمكن أن يهوي مصير إنسان بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل الحقيرة؟. سوف أجدها في هذا اليوم نفسه!». وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً، لولا أن التفكير في غروشنكا كان يحاصره. «ما الذي صارت إليه؟ ماذا حدث لها؟». كانت هذه الفكرة تطعنه في كل لحظة كسكّين مسنونة. ووصلت العربة أخيراً، فأسرع ميتيا إلى غروشنكا على الفور.

# III

## مناجم الذهب

كانت زيارة ميتيا هذه التي تحدثت غروشنكا عنها إلى راكيتين مذعورة. في تلك اللحظة، كانت تنتظر «الرسالة» وكانت مسرورة لأن ميتيا لم يظهر لا اليوم ولا بالأمس، كانت تتمنى ألا يستطيع أن يظهر قبل رحيلها. ولكنه ظهر فجأة. ونعرف التتمة: لكي تتخلص منه، أقنعته فوراً بأن يرافقها إلى بيت كوزما سامسونوف حيث كانت مضطرة للذهاب، «لإجراء بعض الحسابات»، وما إن أوصلها ميتيا، جعلته يتعهد، وهو يودعها أمام بيت العجوز، بأن يعود في منتصف الليل لاصطحابها إلى منزلها. فقد كان مسروراً بهذا الوضع: «سوف تبقى اذن عند كوزما، ولن تذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش...»، أضاف: «اللهم إلّا إذا كانت تكذب.» ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة. إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور «خيانتها» لهم أثناء غيابهم. ولكن ميتيا كان متى التقى غروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً معذب النفس من يقينه بأنها خانته، لا يلبث أن يسترد شجاعته عندما يرى وجهها الضاحك اللطيف، فإذا هو يطرد من رأسه كل شيء، ويشعر بالخجل من غيرته، ويلوم نفسه على

ضعف الثقة. وبعد أن قام ميتيا بمرافقة غروشنكا إلى منزل سامسونوف أسرع عائداً إلى منزله. ثمَّة مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل الغد! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: «يجب أن أسأل سمردياكوف، بأقصى سرعة ممكنة، هل حدث شيء في الليلة البارحة، هل ذهبت غروشنكا إلى فيودور بافلوفتش أمس؟». هكذا التهبت الغيرة في قلبه المعذَّب من جديد، قبل أن يتسع وقته للعودة إلى بيته.

الغيرة! «عطيل ليس غيوراً، إنه واثق بنفسه»، يقول بوشكين، وهذه الملاحظة البسيطة تشهد وحدها على عبقرية شاعرنا الكبير الفريدة. فعطيل نفسه محطمة وقد اضطرب عالمه بكامله لأن مثله الأعلى قد مات. ولكن عطيل لم يختبئ ولم يتجسس أو يتلصص: إنه واثق بنفسه. بالعكس: كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصوُّر الخيانة. ولا كذلك الغيور الحقيقي. لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوي إليه الغيور من درك الدناءة دون أن يشعر بأي خجل من ذلك. وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً. لا، ربَّ رجل نبيل القلب نقيِّ الحب مخلص العاطفة، يرتضي مع ذلك أن يختبئ تحت الطاولات، وأن يرشو أناساً قذرين، وأن يستخدم أقذر أنواع التجسس! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة ـ أقول يذعن للخيانة ولا أقول يسامحها ـ رغم أن له نفساً بريئة كنفس طفل. ولا كذلك الغيور الحقيقي! ما من شيء إلّا ويمكن أن يذعن له الغيور وما من شيء إلّا ويمكن أن يغفره عند الحاجة. إن الغيورين أسرع الناس إلى الغفران، والنساء يعرفن هذا! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً)، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم، شريطة أن يستطيعوا القول لأنفسهم إن «هذه هي آخر مرة» وإن الغريم سيغيب وإنه سيرحل إلى بلد في

آخر العالم، أو أنهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم إلى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً. ثم لا تدوم المصالحة أكثر من ساعة طبعاً، ذلك أنهم، ولو اختفى الخصم، لا يلبثون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه «الخيانة» الجديدة. ربَّ متسائل: ما هي في نظرهم قيمة حبٍ يتطلَّب هذه الاحتياطات كلَّها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل تستحق منهم المرأة التي يتصورون خيانتها هذا الحب كله. ألا إن هذا السؤال بعينه هو ما لا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم، مع أن بينهم أناساً لهم نفوس سامية. وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً: إن ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون، وهم مختبئون في أحد الأركان للتجسس والمفاجأة، يمكنهم أن يفهموا جيداً، «لنبل قلوبهم»، أنهم ينحدرون إلى الخزي والعار، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير، ما داموا مختبئين في أوكارهم على الأقل.

ما إن رأى ميتيا صاحبته غروشنكا حتى شعر بغيرته تزول، وحتى أصبح واثقاً كريماً سمحاً خلال بضع لحظات، بل لقد مضى في هذا إلى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يعتقد هو نفسه، وأن الشهوانية والتعلق الجسدي اللذين حدَّث عنهما أخاه إيليوشا، ليسا جوهر ذلك الحب. ولكن ما إن غابت غروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها، دون أن يشعر أثناء ذلك بأي ندم أو عذاب ضمير.

إذن بدأت الغيرة تغلي في داخله. وكان عليه أن يسرع دائماً. وقبل كل شيء أن يجد قليلاً من المال لسدِّ حاجاته المباشرة: إن الروبلات التسعة التي جمعها في الليلة البارحة كانت قد نفدت في تلك الرحلة؛ ولا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً حين لا يكون في جيبه كوبيك واحد كما يعرف ذلك جميع الناس.

ولقد فكَّر ميتيا، أثناء وضعه خطته الجديدة في العربة، فكَّر في الوسيلة التي تمكِّنه من الحصول بسرعة على بضعة روبلات. إنه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التي تستعمل في المبارزات، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن، لأنه يحرص عليهما حرصاً شديداً. وكان قد تعرف منذ زمن، في كاباريه «العاصمة الكبرى»، بموظف عازب غنيّ كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها، يشتري مسدساتٍ وبندقياتٍ وخناجر يعلِّقها في جدران غرفته، ويدعو ضيوفه إلى مشاهدتها والإعجاب بها، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص، وطريقة التصويب به، الخ. ذهب ميتيا إلى هذا الموظف الشاب دون تفكير، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرضٍ قدْره عشرة روبلات، فسُرَّ الموظف سروراً عظيماً، وحاول إقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين، ولكن ميتيا رفض التخلي عنهما، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلاً إنه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال. وافترق الرجلان صديقين. وأسرع ميتيا إلى جناحه الذي يقع خلف منزل فيودور بافلوفتش بغية أن يلقى سمردياكوف. ولكن، هنا أيضاً ـ هكذا حصل الأمر ـ «قبل حصول مغامرة سأتكلم عنها لاحقاً، بثلاث ساعات أو أربع لم يكن في جيب ميتيا كوبيك واحد، فقرر أن يرهن في سبيل الحصول على عشرة روبلات مسدسين كان يحرص عليهما جداً، ثم إذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات...» ولكنني أسبق بهذا تتمة القصة.

في منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيودور بافلوفتش) كان ينتظره مرض سمردياكوف فاضطرب اضطراباً شديداً. أصغى إلى قصة سقوطه في القبو، ونوبة الصرع، ووصول الطبيب، ومخاوف فيودور بافلوفتش. كما علم أيضاً بنبأ سفر إيڤان فيودوروفتش إلى موسكو في الصباح، فبدا عليه اهتمام شديد

بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدِّث نفسه: «لا بد أن ايفان قد مرَّ بفولوفيا قبلي». لكن مرض سمردياكوف قد أحدث في نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة. فأخذ يسائل المرأتين قائلاً: «فما العمل الآن؟ من عساي أكلِّف بمراقبة المنزل واطلاعي على ما يجري؟ ألم تلاحظ شيئاً في مساء أمس؟». وأدركت المرأتان فوراً ما الذي يحاول أن يعرفه فطمأنتاه. قالتا له مؤكدتين: «لم يأتِ أحد. وقد أمضى إيڤان فيودوروفتش الليلة كما اعتاد، وجرى كل شيء على ما يرام». وجم ميتيا مفكراً. لا بد من حراسة في هذه الليلة أيضاً. الأمر واضح. ولكن أين يرابط؟ هل يرابط هنا في الحديقة، أم أمام منزل سامسونوف؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين معاً، وفقاً لما تتطلّبه الظروف، ولكن المهم قبل كل شيء، قبل كل شيء، هو أن... وقد آن فعلاً أوان تنفيذ «الخطة» الجديدة، الجدِّية في هذه المرة، التي رسمها في العربة. لا يمكن تأجيل هذا المشروع. فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن وقال يحدِّث نفسه: «بعد ساعة واحدة أكون قد سوَّيت كل شيء، ثم أذهب إلى منزل سامسونوف أسأل أماتزال غروشنكا عنده، ثم أعود إلى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك أذهب إلى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها إلى بيتها». على هذا النحو حلَّ ميتيا الصعوبة.

وأسرع إلى منزله فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة، وارتدى ملابسه وذهب إلى السيدة خوخلاكوفا. فهناك كانت «تلك الخطة»، مع الأسف! لقد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة. خاصة وقد راوده فجأة يقين عجيب بأنها لن ترفض. ربَّ متسائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت إلى هذه المرأة التي تنتمي إلى بيئته على الأقل، ولماذا آثر أن يتجه إلى سامسونوف الذي يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأي لغة يخاطبه! يجدر أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد

إلى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها جيداً على كل حال. وكان يعرف عدا ذلك أنه لا يروق لها لأنها قد ناصبته العِداء منذ البداية في الواقع، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترينا إيڤانوفنا. لقد كانت تتمنى أن تقطع كاترينا صلتها به لتتزوج إيڤان فيودوروفتش «الشاب المثقف، اللطيف، المحبب، الذي يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية»، بينما آداب ميتيا كريهة. ثم إن ميتيا قد سخر منها مراراً وقال عنها «إنها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هي قليلة الثقافة». ولكن فكرة قد لمعت في رأسه كوميض البرق في الصباح، فقال لنفسه: «ما دامت تكره أن أتزوج كاترينا إيڤانوفنا وما دام هذا الزواج يثير غضبها إلى هذا الحدّ (كان لا يجهل أن استياء السيدة خوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حدّ الهستيريا)، فلا يمكن أن ترفض إقراضي هذه الثلاثة آلاف روبل التي ستتيح لي أن أقطع علاقتي بكاتيا، وأن أرحل من هنا إلى الأبد؟». وكان ميتيا يقول لنفسه أيضاً: «إن نساء المجتمع هؤلاء، وهن صاحبات نزوات دلَّلتهن الأقدار، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية في سبيل هوًى غريبٍ من أهوائهن العجيبة!». إن «الخطة» التي وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة خوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة: سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، ولكنه لا ينوي في هذه المرة أن يعرض الأمر على أنه صفقة تجارية، ولا يهدف إلى إغراء هذه السيدة، كما حاول إغراء سامسونوف، بأنها ستكسب ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل؛ وإنما يكون التنازل عن الحقوق، في هذه الخطة الجديدة، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذي سيُتفق عليه. وكان كلما ازداد تفكيراً في هذا المشروع ازداد حماسةً له، وذلك ما يحدث له دائماً عندما يتخذ قراراً جديداً. يتحمس في البداية لكل مشروع من مشاريعه. ومع ذلك شعر، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل خوخلاكوف، بقشعريرة في ظهره، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب:

لقد أدرك في تلك اللحظة، بيقين رياضي، أن هذا هو أمله الأخير، وأنه لم يبقَ له شيء في هذه الدنيا، فإذا لم تنجح هذه المحاولة، فلا أمل بعد ذلك، «إلّا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاثة آلاف روبل، وبدون ذلك فلا مخرج لي...». وكانت الساعة هي السابعة والنصف حين شدَّ الجرس.

بدا كل شيء يجري على ما يشتهي في أول الأمر: فما إن أُبلغت السيدة خوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بإدخاله بسرعة فائقة. فدُهش ميتيا من سرعة استقباله، وقال لنفسه: «لكأنها كانت تنتظرني». وما كاد يدخل غرفة الاستقبال حتى أسرعت إليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره.

ـ كنت أنتظرك، كنت أنتظرك! لا شيء كان يسمح لي بأن أتوقع زيارتك، أعتقد أنك تقدِّر ذلك بسهولة. ومع هذا كنت أنتظرك. فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا ديمتري فيودوروفتش، لأنني كنت على ثقة، منذ هذا الصباح، بأنك ستزورني.

ـ حقاً إن هذا يثير الدهشة قال ميتيا، يثير أكبر الدهشة... ولكنني جئت من أجل قضية خطيرة، خطيرة بصورة رهيبة... بالنسبة إليَّ، طبعاً... يا سيدتي، بالنسبة إليَّ وحدي، لذلك أسارع فـ...

ـ أعرف أن السبب الذي دفعك إلى المجيء سبب خطير يا ديمتري فيودوروفتش. وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات، لأنني أكره ذلك الإيمان الرجعي بما هو فوق الطبيعة (لعلك على علمٍ بمغامرة الراهب المرشد زوسّيما؟) وإنما الأمر حساب رياضي: كان لا بد أن تجيء إليَّ حتماً بعد كل ما جرى مع كاترينا إيڤانوفنا، لم يكن في وسعك ألّا تأتيَ. هذه رياضيات.

ـ أو فلنقل هذه واقعية يا سيدتي. لنكن واقعيين. اسمحي لي أن أبسط لك بإيجاز...

ـ الواقعية، قلتها يا ديمتري فيودوروفتش! أنا من أنصار الواقعية بعد

اليوم! لقد شُفيت من مرض الإيمان بالمعجزات، صدقني! أنت تعرف طبعاً أن الراهب المرشد زوسّيما قد مات؟

ـ لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك. قال ميتيا بشيء من الدهشة وطافت في خياله صورة إيليوشا.

ـ مات هذه الليلة، تصوَّر أن...

ـ سيدتي، قاطعها ميتيا: أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً: هو أنني في وضع يائس وأن كل شيء سينهار إذا أنت لم تساعديني، وسأكون أنا أول من ينهار. سامحي خشونة لغتي، ولكنني في قلق محموم؛ إن بي حمَّى حقاً...

ـ أعرف ذلك، أعرف أن بك حمَّى. أنا مطَّلعة عل كل شيء، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي اليوم. كل ما قد تقوله لي الآن، أنا أعرفه سلفاً. إنني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا ديمتري فيودوروفتش. كنت ألاحظ حياتك، وأدرسها... أوه! أنا طبيبة نفوس، خبيرةٌ جداً، صدّقني يا ديمتري فيودوروفتش!

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو محبّباً:

ـ سيدتي، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة، ولكنني أنا أيضاً مريض خبير. إنني مقتنع بأنك ستساعدينني على اتقاء هلاك كبير، ما دمتِ قد اهتممت بمصيري. فاسمحي لي لهذا أن أشرح لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك... وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها إنني آمل منك... لقد جئت يا سيدتي من أجل أن...

ـ لا تشرح لي شيئاً، هذا أمر ثانوي! لن تكون أول شخص أقدم له المساعدة يا ديمتري فيودوروفتش! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا. كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها

اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً. هل تفهم في شؤون تربية الخيول يا ديمتري فيودوروفتش؟

ـ لا يا سيدتي، أبداً... صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب، حتى لقد همَّ أن ينهض: لا أفهم في هذا المجال شيئاً! أتوسل إليك يا سيدتي أن تصغي إليَّ لحظة. دعيني أتكلم دقيقتين فحسب، لأعرض لك مشروعي. ثم إنني لا أملك إلّا وقتاً قصيراً جداً، أنا مستعجل... (كذلك صاح ميتيا يقول بصوت هستيري، إذ عرف أنها ستقاطعه، وأمَّل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت إليك لأنني قد بلغت قمة اليأس، رجوتُ أن تسلفيني ثلاثة آلاف روبل، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتي، بشروط موثوقة تماماً. وهاأنذا أشرح لك الموضوع...

ـ تشرح هذا فيما بعد، فيما بعد. قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تحرِّك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التي همَّ بها ميتيا: ستقول لي هذا كله فيما بعد. ثم إنني أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لي، سبق أن قلت لك هذا. أنت في حاجة إلى مال، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل، ولكنني سأعطيك أكثر من ذلك، أكثر كثيراً، لأنني أريد أن أنقذك يا ديمتري فيودوروفتش. ولكنني أطالبك في مقابل ذلك بأن تطيعني!

وثب ميتيا من مقعده مجدداً، قائلاً بانفعال شديد: ـ آه! سيدتي! هل يمكن أن تكوني طيبة إلى هذا الحدّ؟ لقد أنقذتني يا إلهي! لقد انتزعتِ إنساناً من ميتة عنيفة يا سيدتي، من ميتة بطلقة مسدس... لسوف أظل شاكراً لك إلى الأبد...

عادت السيدة خوخلاكوفا تقول، وهي تنظر بابتسامة مشرقة إلى وجه ميتيا المتحمس:

ـ سأعطيك أكثر بكثير من ثلاثة آلاف روبل؟

ـ أكثر بكثير؟ لست في حاجة إلى كل هذا. لست بحاجة إلّا إلى هذه

الثلاثة آلاف الشقية! وأريد من جهتي أن أعطيك ضمانة لهذا القرض، وأن أعبِّر لك عن شكر لا حدود له. إن المشروع الذي أحب أن أشرحه لك هو...

فقاطعته السيدة خوخلاكوفا التي كان وجهها يشرق بفرح الإحسان المتواضع:

ـ كفى! أنا لا أنكث عهداً. لقد وعدتك بأن أنقذك، وسأفعل. سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا. ما رأيك في مناجم الذهب يا ديمتري فيودوروفتش؟

ـ مناجم الذهب يا سيدتي؟ لم أفكر في هذا الأمر أبداً.

ـ أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك! لقد درست جميع جوانب المسألة. إنني أراقبك منذ شهر لهذا الغرض. ظللت أفحصك أكثر من مئة مرة عابراً، فكنت أقول لنفسي في كل مرة: «هذا رجل نشيط يمكن أن ينجح في مناجم الذهب»، حتى لقد أنعمت النظر في مشيتك، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة.

لم يستطع ميتيا إلّا أن يسأل السيدة خوخلاكوفا مبتسماً:

ـ استنتجت ذلك من مِشيتي يا سيدتي؟

فأجابت السيدة خوخلاكوفا:

ـ نعم، من مشيتك أيضاً. هل تستطيع أن تنكر يا ديمتري فيودوروفتش أن في الإمكان معرفة طبع الشخص من مِشيته؟ إن العلوم الطبيعية تعلّمنا هذا. ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن! فمنذ ذلك اليوم، منذ تلك القصة التي حدثت في الدير والتي هزتنا بقوة، أصبحت لا أؤمن إلّا بالواقعية، بالوا..قعية، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي. لقد شُفيت من الغيبية إلى الأبد. «كفى!»، كما قال تورغنيف.

ـ ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها سخيّة!

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة:

ـ ستحصل عليها، ديمتري فيودوروفتش، تستطيع أن تعتبرها في جيبك منذ الآن. لا ثلاثة آلاف، بل ثلاثة ملايين، وخلال فترة وجيزة! إليك المشروع الذي أقترحه عليك: تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراءً عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين؛ ثم تعود إلينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل، تصبح رجلاً محرِّكاً لغيرك من الناس، تنقذنا من خدرنا وكسلنا، وتقودنا نحو الخير. هل يجب أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود؟ ستبني عمارات، وستخلق صناعات، وستساعد الفقراء، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالبركات. إننا نعيش في عصر السكك الحديد يا ديمتري فيودوروفتش. وستعلم وزارة الخزانة، التي تتخبط في مصاعب ضخمة، ستعلم بوجودك فتناديك وتعتمد عليك. إن سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً...

سيدتي! سيدتي! قاطعها ميتيا وهو يوجس قلقاً شديداً: من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك، وهي نصيحة سديدة جداً في الواقع. سأتبع هذه النصيحة حتماً فيما بعد... سأذهب إلى مناجم الذهب هذه... وسأعود مرة أخرى لنتحدث في صددها... أما الآن... فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فـ... آه! إن هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب! ليتني أستطيع الحصول عليه في هذا اليوم... ذلك أنني، كما ترين، لا أملك وقتاً أضيِّعه، لا يوماً، ولا ساعة...

ـ كفى، كفى! قاطعته السيدة خوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة: أجبني: هل تذهب إلى مناجم الذهب أم لا؟ هل عزمت أمرك؟ أريد جواباً واضحاً!

ـ سأذهب يا سيدتي فيما بعد. سأذهب إلى حيث تريدين يا سيدتي... أما الآن...

ـ انتظر! صاحت السيدة خوخلاكوفا.

وأسرعت نحو مكتبها الأنيق ذي الأدراج الكثيرة، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة، باحثة فيها عن شيء ما.

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينفطر قلبه: «الثلاثة آلاف! وبدون ضمانة، بدون رهن، بدون وصل، ما أنبلها امرأةً! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة...».

ـ هاك! هتفت السيدة خوخلاكوفا عائدة إليه: هاك ما كنت أبحث عنه!!

هو إيقونة صغيرة جداً من فضة، ذات حبل، كالإيقونات التي تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب.

وشرحت السيدة خوخلاكوفا قائلة برصانة:

ـ هذه إيقونة صغيرة من كييف. لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة بارب، الشهيدة العظيمة. فاسمح لي أن أعلِّقها لك بنفسي، لتباركك في حياتك الجديدة، ومشاريعك المقبلة.

قالت له ذلك، ووضعت الإيقونة حول عنقه، وجهدت أن تعدلها. حنى ميتيا رأسه متحيراً، وأخذ يساعدها، ونجح أخيراً في أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره.

ـ والآن هلمَّ إلى مناجم الذهب. قالت السيدة خوخلاكوفا بلهجة ملؤها الأُبَّهة:

ثم جلست.

قال ميتيا:

ـ سيدتي! أنا متأثر جداً... لست أدري كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة... وهذه المشاعر النبيلة... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالي!... إن ذلك المبلغ الذي أنتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل يا سيدتي... آه ما أطيبك، ما أعظم عطفك عليَّ! (بهذا قال ميتيا في سورة صادقة)...

اسمحي لي أن أعترف لك.. بأمرٍ تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال... إنني أحب امرأة في هذه المدينة... لقد خنت كاتيا... أقصد كاترينا إيڤانوفنا. مع الأسف! كان سلوكي معها خالياً من الخلُق والشرف... تولَّهت هنا بامرأة أخرى... امرأة لعلك تحتقرينها، فأنت على علم بالأمر، أعرف ذلك... ولكن يستحيل عليَّ أن أتركها، يستحيل! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل...

ـ دعك من هذا يا ديمتري فيودوروفتش. قالت خوخلاكوفا بلهجة قاطعة دع النساء خصوصاً! مناجم الذهب، ذلك هو هدفك بعد اليوم، ولا شأن للنساء هناك! فيما بعد، حين تعود غنياً مجللاً بالمجد، تختار حليلةً من أرقى بنات مجتمع: فتاةً عصرية، مثقفة، متحررة. وفي ذلك الوقت ستكون مشكلة المرأة، هذه المشكلة التي يتحدث الناس عنها كثيراً في هذه الأيام، ستكون قد حُلَّت، وستظهر امرأة جديدة...

ـ ولكن ليس هذا، ليس هذا ما... قال ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى متوسِّلاً:

ـ بل هو هذا، هو هذا يا ديمتري فيودوروفتش! هو هذا ولا شيء سواه! هنالك السعادة التي تَنشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك. إنني على اطلاع واسع على مشكلة المرأة. إن تحرر المرأة، وحتى وصولها إلى الحياة السياسية، هو مثلي الأعلى. إن لي ابنةً يا ديمتري فيودوروفتش، والناس لا يعرفونني كثيراً في هذا المجال. لقد كتبت في هذا إلى شتيدرين. إن هذا الكاتب قد كشف لي أموراً كثيرة، كثيرة جداً، أموراً لا تخطر على البال، عن رسالة المرأة، فوجهت إليه في العام الماضي كتاباً لم أذكر فيه اسمي، كتاباً من سطرين: «أقبِّلك بحرارة، يا عزيزي المفكر الكبير، باسم المرأة العصرية. استمر!» وذيَّلت الكتاب بهذا التوقيع: «أمّ». خطر ببالي أن أوقِّع: «أمّ عصرية»، ولكنني اكتفيت، بعد تردد، بكلمة الأمّ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يا ديمتري فيودوروفتش؛

هذا عدا أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكّره بمجلته «المعاصر»، وأن توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن... ولكن ماذا بك؟ ماذا جرى لك؟

ـ سيدتي! كان ميتيا قد وثب عن مقعده. وها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة: لسوف تبكينني إذا تأخرتِ عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتني به...

ـ ابكِ يا ديمتري فيودوروفتش، إبكِ! إن هذه العواطف نبيلة... ما يزال طريقك طويلاً! ستحسن الدموع إليك. سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً. ستجيئني من أعماق سيبيريا خصيصاً لأشاركك في فرحتك...

ـ اسمحي لي أخيراً أن أقول كلمة. صاح ميتيا في هذه المرة. أرجو مرةً أخيرة أن تجيبيني: هل بوسعي أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم؟ وإلّا ففي أي يوم تأمرين أن أجيء لأخذه؟

ـ على أي مبلغ تتكلم يا ديمتري فيودوروفتش؟

ـ على الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فوعدتني بها... منذ قليل...

ـ ثلاثة آلاف روبل؟ آه، لا، أنا لا أملك هذا المبلغ. قالت السيدة خوخلاكوفا بدهشة هادئة. وبقي ميتيا مدهوشاً.

ـ كيف هذا؟ لقد وعدتني منذ برهة... منذ هنيهة قصيرة... حتى لقد قلت إنني أستطيع أن أعتبر هذا المبلغ موجوداً في جيبي.

ـ آه، لا، لا شك أنك أسأت فهمي يا ديمتري فيودوروفتش. لا، لا، إنك لم تفهمني. لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب... صحيح أنني وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل، تذكرت هذا الآن، ولكنني كنت لا أفكر عندئذ إلّا في مناجم الذهب.

ـ والمبلغ؟ والثلاثة آلاف؟ صاح ديمتري فيودوروفتش.

ـ إذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال، فيجب أن أذكر لك أنني لا أملك مالاً. إنني الآن خالية الوفاض تماماً يا ديمتري فيودوروفتش. حتى إنني في شجار مع وكيلي، وقد اضطررت أن أقترض خمسمئة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام. لا، لا، لا أستطيع أن أعطيك شيئاً. واعلم عدا ذلك يا ديمتري فيودوروفتش أنني لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضاً، أولاً لأنني لا أقرض أحداً أبداً، فالدين خصام دائماً؛ وإذا أقرضت غيرك، فلا أقرضك أنت، لأنني أريد لك الخير، وأريد أن أنقذك، ولست أنت في حاجة إلّا إلى شيء واحد: المناجم، المناجم، المناجم!

ـ فليأخذها الشيطان!... صاح ميتيا فجأة.

وضرب بقبضة يده على المنضدة بكل ما أوتي من قوة.

ـ آي! صاحت خوخلاكوفا مرتعبةً وهي تهرب إلى عمق غرفة الاستقبال.

بصق ميتيا من فرط غضبه، وبخطًى سريعة، اجتاز الغرفة؛ وخرج من المنزل، وأوغل في الشارع المظلم. كان يسير كالمجنون، ويلطم صدره بقبضة يده، على ذلك الموضع نفسه الذي لطمه منذ يومين بحضور إيليوشا حين صادفه في الشارع عند المساء. لماذا يلطم صدره، «على هذا الموضع نفسه»، وماذا كان معنى هذه الحركة؟ ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد، حتى ولا لإيليوشا. هذا سرُّه في تلك الساعة، ولكنه كان يعلم أنه، لأسباب يكتمها، إنما يسير إلى هاوية العار، إلى انهيار حياته، إلى الانتحار. ذلك ما سيحدث حتماً إذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليدفع إلى كاترينا إيڤانوفنا مالها، ولينزع عن صدره، «عن هذا الموضع بعينه من صدره»، العار الذي يخنقه، الحمل الذي يرهقه، ويرهق ضميره. إن هذا كله سيتضح فيما بعد. والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوي البنية، فإنه ما إن ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة خوخلاكوفا، حتى انفجر يبكي فجأة كطفل صغير. وها هو

يمسح دموعه بقبضتي يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب. وعلى هذه الحال وصل إلى الميدان، حيث أحسّ فجأةً أنه قد صدم شيئاً ما، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن امرأة عجوز كاد يقلبها.

ـ يا يسوع! كاد يقتلني! هلّا نظرت أين تسير أيها الوغد!

ـ كيف؟ أهذا أنت؟ صاح ميتيا وهو يتفرس في وجه المرأة العجوز في الظلام؟

لقد عرف ميتيا في هذه المرأة العجوز، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة في السنّ التي رآها في منزله الليلة البارحة.

ـ ومن أنت يا بنّي؟ سألته العجوز بصوت أصبح لطيفاً فجـأة.

ـ أنتِ في خدمة كوزما كوزمتش، أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح يا بنّي، وأنا ذاهبة الآن إلى بروخورتش... لا أستطيع أن أراك في هذا الظلام!

ـ قولي لي يا أمّاه: هل أغرافينا ألكسندروفنا عندكم الآن. لقد أوصلتها إلى منزلكم منذ قليل. قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً.

ـ لقد جاءت يا بنّي فمكثت لحظة ثم انصرفت.

ـ انصرفت؟ صرخ ميتيا. كيف هذا؟ إلى أين ذهبت؟

ـ لم تمكث عندنا إلّا دقيقة، قصَّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم انصرفت.

ـ أنت تكذبين أيتها المشعوذة اللعينة. زأر ميتيا:

فصاحت المرأة تقول مذعورة:

ـ آي! آي!

ولكن ميتيا كان قد غاب؛ أسرع ميتيا يركض بخطًى كبيرة نحو منزل آل موروسوف. كانت غروشنكا قد سافرت منذ ربع ساعة إلى موكرويه، وكانت

فينيا في المطبخ مع جدتها ماتريونا الطباخة، حين ظهر «الكابتن» فجأة في المنزل. فلما رأته أطلقت صرخات رعب.

ـ تصرخين؟ صاح ميتيا يسألها؟ أين هي؟ ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا، التي اصفرَّ لونها من الذعر، لأن تنطق بكلمة واحدة، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها:

ـ فينيا، قولي لي، باسم ربنا يسوع المسيح، إلى أين ذهبت؟

ـ لست أدري يا سيدي، لست على علم بشيء أيها العزيز ديمتري فيودوروفتش. ولو قتلتني لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا. ثم إنك قد خرجت معها منذ قليل...

أكدت فينيا متدفقة في كلامها.

ـ ولكنها عادت... قال ميتيا.

ـ لا، لا، يا عزيزي ديمتري فيودوروفتش، لم تعد، أقسم لك بالله أنها لم تعد!

ـ تكذبين! صرخ ميتيا. وإني أعرف من ذعرك وحده إلى أين ذهبت!...

وأسرع يركض في الشارع من جديد. فما كان أسعد فينيا بأنها تخلصت منه بمثل هذه السهولة! فلقد أدركت أنه كان سيسومها سوء العذاب خلال ربع ساعة، لولا استعجاله الشديد. على أنه قد فاجأ فينيا ماتريونا العجوز، حين انصرافه، بحركة لم تكن في الحسبان: كان هناك على الطاولة هاون ومدقّ من نحاس، ولكن المدق ليس كبيراً. فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضاً ليخرج، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافاً ودسَّه في جيب سترته.

ـ يا إلهي! سيقتل أحداً! صرخت فينيا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى.

# IV

## في العتمة

إلى أين كان يركض؟ نعرف ذلك جيداً: «أين يمكن أن تكون إن لم تكن عند فيودور بافلوفتش؟ لا شك أنها ذهبت إليه مباشرة بعد أن غادرت منزل سامسونوف. كل شيء أصبح واضحاً الآن، الكذب والخداع!».. كانت هذه الأفكار مثل العاصفة في رأس ميتيا. تجنَّب ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندراتيفنا. «يجب أن لا تراني بحال من الأحوال!... يجب أن لا أنبهها... وإلّا وشت بي فوراً... لسوف تخونني حتماً. يبدو أنها متواطئة معهم. وكذلك سمردياكوف. لقد اشتُروا الجميع!». تكون لديه نية أخرى: لذلك سلك طريقاً آخر، دار دورة طويلة، فمرَّ بالشارع الصغير الذي يقع خلف منزل فيودور بافلوفتش، واجتاز شارع دمتريفسكا، وعبر الجسر الضيق الصغير، فوصل إلى شارع صغير خالٍ يقع وراء الفناء. يحدّه سياج بستان مجاور من جهة، ويحدّه من الجهة الأخرى سور حديقة فيودور بافلوفتش. واختار ميتيا لاجتياز ذلك السور الموضع الذي يُروى أن أليزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه في الماضي. قال ميتيا لنفسه: «إذا استطاعت تلك أن تتخطاه ـ لا يدري إلّا الله لماذا ـ فكيف لا أفلح أنا في تخطِّيه؟». واستطاع فعلاً من أول وثبة،

أن يتشبث بقِمّة السور بيده، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية، فإذا هو يصبح في أعلى السور، فيركب عليه ركوبه على حصان. إن حمامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة. قال ميتيا يحدّث نفسه: «طبعاً!... إن في غرفة نوم العجوز نوراً. معنى هذا أنها عنده!». وقفز بعد ذلك إلى الحديقة. ورغم علمه بأن غريغوري مريض، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً، وأن أحداً من المنزل لا يمكن إذن أن يسمعه في هذه اللحظة، فقد اختبأ متجمعاً على نفسه بدافع الغريزة، وجمد لا يتحرك، وأصاخ بسمعه. إن صمتاً كصمت الموت يخيِّم على المكان وما حوله. لا نأمة، ولا نسمة... هدوء مطلق، كأنما عن قصد...

«الصمت وحده يهمهم». خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا «آمل أن لا يكون قد سمعني أحد لحظةَ قفزت! أعتقد أنني لم أُسمع». وبعد أن بقي دقيقة لا يتحرك، تسلل بخطًى وئيدة عبر الحديقة، سائراً على العشب متجنباً الأشجار والأدغال. وتقدم بطيئاً، لا يضع قدمه إلّا محاذراً، ويصيخ بسمعه إلى أدقّ صوت. فلم يصل إلى النافذة المضاءة إلّا بعد خمس دقائق. وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباطاً كثيفة تمتد أغصانها، إلى علو كافٍ. وكان الباب الذي يفضي من الحديقة إلى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً، فانتبه ميتيا إلى ذلك وسجَّله في ذهنه عند مروره. ووصل أخيراً إلى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه: «يجب أن أبقى هنا بضع لحظات، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتي، فأخذوا يُصيخون إليه للتأكد... أرجو ألّا أسعل أو أعطس...».

وانتظر دقيقتين وثلاثاً، لكن قلبه كان يخفق بسرعة، حتى لتكاد تنقطع أنفاسه. ثم قال لنفسه: «لا، سوف يستمر قلبي في الخفقان هكذا، فلا يمكنني أن أنتظر أكثر». كان ميتيا مختبئاً في ظل مجموعة الأشجار التي ينير الضوء

الآتي من النافذة جانبها الخلفي. وراح يتمتم دون أن يعرف لماذا: «ما أشد الاحمرار في أثمار أشجار الرباط هذه!». اقترب من النافذة بخطًى محسوبة، صامتاً وانتصب واقفاً على رؤوس أصابعه، بدت له غرفة نوم فيودور بافلوفتش كلها. إنها غرفة صغيرة، تنقسم قسمين بحاجزين أحمرين، كان فيودور بافلوفتش يسميهما «الصينيين». قال ميتيا لنفسه: «الحاجزان الصينيان... لا شك أن غروشنكا تختبىء وراءهما». وراح ميتيا يمعن النظر في أبيه. كان الأب يرتدي ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط لم يره عليه ميتيا من قبل، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهي بعقد؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب؛ وكان فيودور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذي سبق أن رآه إيليوشا. قال ميتيا لنفسه: «لقد تجمَّل وتزيَّن». وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد الذهن. وها هو يرفع رأسه فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من الطاولة فصبَّ نصف كأس من الكونياك وأفرغه في فمه، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه. وفكَّر بضع لحظات، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذي يخفي جبينه، وأخذ ينعم النظر في الندوب والبقع الزرق التي لم تختفِ بعد. قال ميتيا لنفسه: «أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد». وفي تلك اللحظة ابتعد فيودور بافلوفتش عن المرآة، والتفت فجأة نحو النافذة، راح ينظر إلى الخارج. فما كان من ميتيا إلّا أن ارتمى في العتمة بقفزة واحدة.

«ربما هي مختبئة وراء الحاجزين، وربما كانت نائمة... (لقد اخترقت هذه الفكرة قلبه). وابتعد فيودور بافلوفتش عن النافذة، «لا شك أنه يترقبها هي إذ ينظر من النافذة إلى الخارج. فليست إذن عنده! وإلّا لماذا ينظر في العتمة! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً». وعاد ميتيا يقترب، وأخذ يرصد

أباه. كان العجوز قد جلس إلى الطاولة، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس. ووضع كوعيه أخيراً على الطاولة، وأسند خده إلى راحة يده اليمنى. فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم!

«وحيد! إنه وحيد! فلو كانت معه، لكان مظهره مختلفاً». والغريب أنه أحسَّ فجأة حين عرف أن غروشنكا ليست هناك، بنوع من الغيظ العبثي الذي راح يغلي في قلبه لا يُفهم! فقال يشرح لنفسه: «المشكلة ليست في أنها غير موجودة هنا وإنما في أنه لا يمكنني أن أعرف إذا كانت هنا أم لا». وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره في تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء، فلا تفوته شاردة ولا واردة، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف. ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، لأنه ليس من أمره على يقين، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع.

تساءل: «هل هي هنا أم لا؟». واشتعل غضبه. وها هو يحسم أمره فجأة، فيمد ذراعه، وينقر على الزجاج نقرات الإشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهي: نقرتان متباعدتان، فثلاث نقرات متقاربة، دلالةً على أن «غروشنكا قد وصلت». فانتفض العجوز، ورفع رأسه، وقفز من مكانه، واندفع نحو النافذة. فارتمى ميتيا في العتمة.

ـ أهذا أنت يا غروشنكا؟ أنت؟ تمتم فيودور بافلوفتش بصوت مرتجف: أين أنت يا ملاكي؟ أين أنت يا حبِّي؟ أين أنت؟

وكان يختنق من فرط الانفعال.

قال ميتيا لنفسه: «إنه وحيد».

ـ أين أنت إذن؟ صاح العجوز مجدداً.

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين وهو ينظر إلى جميع الجهات. وها هو يضيف:

ـ تعالَي! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة. تعالي فأريك المفاجأة...

قال ميتيا في سرِّه: «هو الظرف الذي يضم الثلاثة آلاف روبل».

ـ ولكن أين أنت إذن؟ لعلك قرب الباب؟ سأفتح لك الباب...

وكاد العجوز يسقط من النافذة من شدة ميله نحو اليمين من جهة باب الحديقة ليرى المرأة الشابة في الظلام. وبعد ثانية من ذلك أسرع إلى الباب يفتحه دون أن ينتظر جواب غروشنكا. كان ميتيا يرقبه من عمق مخبأه بغير حركة. كان يراه من جانب. فكان وجهه الكريه، وكانت جوزة عنقه، وكان أنفه الأقنى، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظارٍ شبق، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطعٍ يسقط عليه موارباً من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة. فإذا بكره عنيف يشتعل في قلب ميتيا فجأة، فيقول في نفسه: «هذا هو، هذا هو غريمي، هذا هو خصمي، هذا هو جلّادي، هذا هو عدوُّ حياتي!». إنها سورة الغضب المباغت الحاقد الظامىء إلى الانتقام، الذي تحدث عنه إلى إيليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما في الجناح قبل أربعة أيام جواباً عن سؤال إيليوشا له: «كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك؟». لقد أجابه يومئذ قائلاً: «لست أدري، أصبحت لست أدري. قد لا أقتل، ولكن من الممكن أن أقتل. أخشى أن يصبح في نظري كريهاً فجأة بوجهه المقيت في تلك اللحظة. إنني أكره جوزة عنقه، وأنفه، وعينيه، وضحكته القصيرة المستهترة. إنه يثير فيَّ تقززاً جسمياً. ذلك هو ما أخشاه خصوصاً. قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي».

وكان التقزز الشخصي الذي يحسُّ به ميتيا لا حدود له. فإذا هو، دون أن يدرك ماذا يفعل، يُخرج من جيبه مِدقَّ الهاون فجأة...

إن الله كما قال ميتيا فيما بعد كان يحرسه في تلك اللحظة. ففي تلك اللحظة نفسها استيقظ غريغوري فاسيلفتش في سرير ألمه. كان غريغوري قد لجأ في المساء إلى استعمال الدواء الذي ذكره سمردياكوف في حديثه مع

إيڤان فيودوروفتش، أي دلَّك جسمه بالفودكا ممزوجة مع مشروب قوي ثم شرب ما تبقى وهو يتلو «صلاة» أسرّتها له زوجته واستسلم للنوم. لقد ذاقت مارفا إينياتيفنا هي أيضاً، ولكنها لم تلبث أن نامت إلى جانب زوجها نوماً عميقاً، لأنها لم تألف شرب الكحول. أما غريغوري فقد استيقظ من نومه في وسط الليل على غير توقُّع، وفكَّر لحظة، ثم إذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد في المنطقة الحقوية. فلما فكر من جديد، نهض وأسرع يرتدي ثيابه. من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقي المنزل بدون حارس «في فترة خطرة إلى هذا الحد». وكان سمردياكوف الذي صرعته النوبة، نائماً بلا حراك في الغرفة الصغيرة المجاورة. ولم تتحرك مارفا اينياتيفنا، فقال غريغوري لنفسه وهو يلقي نظرةً عليها: «إنها لم تتحمل الدواء» ثم خرج إلى درجات الباب وهو يئن. كان لا يستهدف إلّا أن يلقي نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشي، بسبب الألم الشديد الذي كان يشعر به في الكليتين والساق اليمنى. ولكنه تذكر في تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدي في المساء. إن غريغوري رجل دقيق المواعيد منظم السلوك، لا ينحرف أبداً عن القواعد التي فرضها على نفسه إلى الأبد ولا عن العادات التي أخذ نفسه بها خلال سنين. وها هو يهبط درجات الباب متلوياً من الألم، ويتجه إلى الحديقة. وكان باب الحديقة الحديدي مفتوحاً حقاً. أتُراه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً غير متوقَّع؟ فلما أدار رأسه فجأة نحو اليسار، رأى النافذة في غرفة نوم سيده مفتوحة، ولم يرَ أحداً عليها؛ فتساءل: «كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا في فصل الصيف؟»، ولمح في تلك اللحظة عينها ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه. كان هناك رجل يهرب في الظلام. صاح غريغوري يقول: «رباه!»، ثم نسي فجأة ألمه، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار، فسلك أقصر طريق،

لأنه يعرف الحديقة كما يبدو أكثر مما يعرفها الرجل الهارب. لقد اتجه هذا الأخير نحو الحمامات، فركض وراءها، ثم اندفع باتجاه الحائط... وكان غريغوري يلاحقه بنظره كي لا يغيب عنه ويركض بأقصى سرعة، فوصل إلى السور في اللحظة التي كان فيها الهارب يتسلق السور؛ ففقد غريغوري أعصابه وراح يصرخ ثم انقض عليه، وأمسك إحدى ساقيه بكلتا يديه.

لم يخطئه حدسه؛ عرف الرجل: إنه ذلك الشيطان القاتل «قاتل أبيه».

ـ يا قاتل أبيه! صاح غريغوري بصوت انتشر في كل النواحي.

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك: وهوى على الأرض كأنه أصيب بصاعقة. فقفز ميتيا إلى الحديقة مجدداً ومال على الخادم الذي ضربه. وكان ميتيا يمسك المدق النحاسيّ بيده، فرماه على العشب ذاهلاً. سقط المدق على مسافة خطوتين من غريغوري، لكن ليس بين الأعشاب، بل في الممر الذي يراه الجميع. بقي ميتيا بضع لحظات يتفحص جسم الرجل الممدود أمامه، كان رأسه مضرحاً بالدم. ومدَّ يده يجسّ الرأس. لقد تذكر ميتيا فيما بعد، تذكراً واضحاً، أنه شعر في تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم، إلى «التأكد تأكداً كاملاً»: هل كسرت جمجمة غريغوري أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمي عليه بسبب الضربة التي أصابت صدغه. ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة. وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به حين ذهب إلى السيدة خوخلاكوفا، فوضعه على وجه غريغوري، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه. فسرعان ما ابتل المنديل بالدم خلال بضع ثوانٍ. فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد عاد إلى رشده: «لمَ بقائي هنا؟» ثم أضاف يقول يائساً: «وكيف يمكنني أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا؟ وما جدوى هذا على كل حال؟ ما حدث فقد حدث. ولقد كان العجوز متهوراً فنال جزاءه!». بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ، ثم انطلق

نحو السور، فتسلقه، وقفز إلى الشارع الضيق، وانصرف راكضاً. وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم، فدسَّه في جيب سترته دون أن يخفف من سرعة ركضه. كان يعدو عدواً سريعاً يوشك أن يقطع أنفاسه؛ ولسوف يتذكر عدد من المارَّة صادفوه في الشوارع أنهم رأوا في تلك الليلة رجلاً يهرب في الظلام طائش العقل. واتجـه مجدداً إلى منزل آل موروسوف. كانت فينيا قد أسرعت، بعد انصرافه، إلى بيت البواب نازار إيڤانوفتش فتوسلت إليه «باسم المخلص يسوع أن لا يدع «الكابتن» يدخل المنزل مرة أخرى، لا في هذا المساء ولا في الغد»، فوعدها نازار إيڤانوفتش بأن يلبي رجاءها، ولكنه إذ اضطر أن يذهب إلى مالكة المنزل في الطابق الأعلى، عهد بمراقبة الفناء إلى ابن أخيه، وهو شاب في العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً، ونسي أن يكلمه عن الكابتن، اقترب ديمتري من الباب وراح يطرقه. عرفه الشاب على الفور، لأن ميتيا كان قد أعطاه «بقاشيش» مرات كثيرة، وتركه يدخل، وأسرع يبلغه، وهو يبتسم ابتسامة تودُّد، أن «إغرافينا ألكسندروفنا ليست في منزلها». فسأله ميتيا وقد توقف في مكانه:

ـ فأين هي يا بروخور؟

ـ سافرت إلى موكرويه منذ أكثر من ساعتين، مع تيموفي. قال الشاب.

ـ ماذا ذهبت تصنع هناك؟ صاح ميتيا.

ـ لست أدري يا سيدي! لكي تلتقي ضابطاً أو شخصاً استدعاها وأرسل إليها عربة تقلُّها.

تركه ميتيا وأسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا.

# V

## القرار المفاجىء

كانت هذه الأخيرة في المطبخ مع جدَّتها، وكانتا تستعدان للنوم. وثقة منهما بنازار إيڤانوفتش، لم تقفلا الباب بالمفتاح. اقتحم ميتيا الغرفة، وهجم على فينيا، فقبض على عنقها، بكل قواه:

ـ قولي لي حالاً، مع من هي في موكرويه الآن؟ وصرخ يسألها خارجاً عن طوره.

فأطلقت المرأتان صرخة حادّة. وراحت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب:

ـ سأقول كل شيء يا ديمتري فيودوروفتش العزيز، سأتكلم، لن أخفي شيئاً. لقد ذهبت غروشنكا إلى لقاء ضابطها في موكرويه.

ـ أي ضابط؟ صرخ ميتيا:

ـ الضابط الذي عرفته في الماضي، منذ خمس سنوات، الضابط الذي تركها وسافر. أسرعت فينيا تجيبه.

رفع ديمتري فيودورفتش يديه عن عنق فينيا. وقف أمامها لحظة لا ينطق بكلمة، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبَّرت نظرته عن أنه عرف

الحقيقة الآن فجأة، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل عرف الحقيقة فعلاً أم لا. لقد ظلت جالسةً على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا، ولبثت ترتعش جامدةً على ذلك الوضع نفسه مادَّةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها. وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الخوف تحدقان إلى ميتيا الذي كانت يداه حمراوين من الدم، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده الأيمن. وشعرت فينيا أنها توشك أن تصاب بنوبة عصبية. وكانت العجوز الطباخة التي قفزت من مكانها تنظر إلى المشهد مذعورة النظرات، نصف مجنونة من شدة الهلع. وبعد دقيقة من الصمت تهالك ميتيا على كرسي قرب فينيا.

كان ميتيا موجوداً هناك لكنه لا يفكر، كان خائفاً مذهولاً. كان كل شيء قد اتضح: إنه ذلك الضابط، وهو على علم بوجوده. وعرف أنه كتب إلى غروشنكا منذ شهر، فقد أخبرته بذلك هي نفسها. فخلال شهر إذن، خلال شهر كامل، ظلت هذه المؤامرة تدبَّر من وراء ظهره، إلى أن وصل الخصم الجديد، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكترث له أو قلق منه. كيف أمكنه ألَّا يفكر في هذا الضابط يوماً، ولماذا نسيه تماماً بعد أن رأى رسالته؟ كان هذا السؤال يعذّب ميتيا كأمر غريب، ويبعث في نفسه رعباً.

لكن بدأ ميتيا يخاطب فينيا فجأة برقّة ولطف، كطفل طيب ولطيف، كأنه نسي كيف هاجمها وقسا عليها منذ لحظات. راح يطرح عليها أسئلة واضحة ودقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة، رغم أنها لم تستطع أن تحوِّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه

شيئاً وأن لا تخفي عنه شيئاً. ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد لذةً في أن تكشف له عن جميع التفاصيل، لا بقصد إيلامه، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون مفيدة له. قصّت عليه أحداث النهار تفصيلاً، وذكرت له زيارة راكيتين وإيليوشا، روت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد، وأخبرته سفر غروشنكا، وردَّدت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلِّف إيليوشا من النافذة بأن ينقلها إليه، بغية «أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبته فيها». فلما وصلت فينيا إلى هذه النقطة من حديثها ابتسم ديمتري، واحمرّ خداه الشاحبان بضع ثوان. وتجرأت فينيا عندئذ فسألته دون خوف في هذه المرة:

ـ لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا ديمتري فيودوروفتش؟

ـ آ، نعم، صحيح. أجابها ميتيا ذاهلاً: وألقى على يديه نظرة ذاهلة.

ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي أُلقي عليه، وغرق في الصمت. لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا. إن الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلَّ محل ذلك الرعب. وها هو ينهض فجأة ويبتسم حالم النظرة شارد الفكر.

ـ ماذا حدث لك يا سيدي؟ سألته فينيا وهي تشير إلى يديه.

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها إليه في لحظة الشقاء هذه.

نظر ميتيا مرة أخرى إلى يديه. أجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة:

ـ إنه دمٌ يا فينيا، دم بشري... الله وحده يعلم لماذا سُفح هذا الدم... ولكن اعلمي يا فينيا أنّ هنالك سوراً عالياً (نظر إليها في تلك اللحظة نظرة من يلقي عليها «لغزاً»)، سوراً رهيباً... وغداً، عند الفجر، عندما تبدأ الشمس مسيرتها، سيقفز ميتيا عن ذلك السور... إنك لا تفهمين أي سور أعني... لا

بأس! ستعرفين ذلك غداً، وستفهمين عندئذ كل شيء... أما الآن، فوداعاً! لن أكون عقبةً في طريق سعادتها، سأعرف كيف أمحى... عيشي واسعدي يا فرحي، يا ضيائي... لقد أحببتني ساعة، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك... تعلمين أنها كانت تناديني ميتنكا!

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج فجأة من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها.

وبعد عشر دقائق تماماً كان ديمتري فيودوروفتش يمثُل أمام بيوتر إيلتش برخوتين، الموظف الشاب الذي استودعه المسدسين رهناً. كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف، وكان بيوتر إيلتش قد احتسى الشاي، وارتدى ردنغوته ليمضي يلعب البلياردو قليلاً في كاباريه «العاصمة الكبرى». وصل إليه ميتيا في اللحظة التي كان يهم فيها أن يخرج. فما إن رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ بدهشة.

ـ سيدي! ماذا حدث لك؟

ـ لا شيء! جئت أردُّ إليك مالك وأسترد المسدسين. لقد قدّمت لي خدمة كبيرة أنا مستعجل جداً يا بيوتر إيلتش، أرجوك أن تسرع.

كانت دهشة بيوتر إيلتش ما تنفك تزداد: ذلك أنه رأى في يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية، وأغرب ما في الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد: كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها إلى أمام كأنما ليعرضها. وقد صرَّح الخادم الشاب الذي يعمل في منزل الموظف، فيما بعد أن ديمتري فيودوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال، وأن أغلب الظن إذن أنه كان في الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهي أوراق من فئة المئة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة.

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدمَّاة. وقد قال بيوتر إيلتش للذين سألوه فيما بعد عن حجم المبلغ، إنه من الصعب تقديره بالنظر فمن الجائز أن يتجاوز ألفي روبل وربما ثلاثة آلاف، غير أن الكمية كانت كبيرة على كل حال، كانت سميكة جداً. أما ديمتري فيودوروفتش فلقد كان، كما ورد في الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد، «في حالة غير طبيعية، ولكنه لم يكن ثملاً، وإنما كان شديد الاندفاع، رغم أن منظره يُشعر في الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله، فهو يبدو مفكراً يبحث عن حل لا يستطيع الوصول إليه. وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً، وكان يجيب بأجوبة مفاجئة، وجمل قصيرة، غريبة. وكان يمكن أن يُظن في بعض اللحظات أنه مسرور وليس حزيناً».

ـ ولكن ماذا بك؟ صاح بيوتر إيلتش يسأل من جديد وهو يتفرس في زائره مذهولاً: ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم؟ هل سقطت على الأرض؟ أنظر إلى نفسك في المرآة.

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة. فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطَّب حاجبيه. وتمتم يقول حانقاً:

ـ هه! لم يكن ينقص إلّا هذا!

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأخرج منديله من جيبه بحـركة متشنجة. كان هذا المنديل (الذي استعمله ميتيا في مسح وجه غريغوري) ملطخاً بالدم، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يتمكن ميتيا من فضّها، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بيوتر إيلتش:

ـ أليس عندك خرقة... أمسح بها؟

ـ تمسح؟ هل أنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب؟ ألست جريحاً إذن؟ إذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل. سأعطيك طشت ماء.

ـ شكراً... ولكن أين أضع هذا؟

قال ذلك وهو يشير إلى حزمة الأوراق المالية، سائلاً بيوتر إيلتش بنظراته كأن هذا الأخير هو الذي يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله. قال بيوتر إيلتش:

ـ ضع المال في جيبك. أو ضعه على الطاولة هنا. فلن يأخذه أحد.

ـ في جيبي؟ طبعاً في جيبي. حسناً...

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله:

ـ هذا كله سخيف! لا، يجب أن نسوِّي تلك المسألة أولاً. هات المسدسين. إليك المال... إنني في حاجة ماسَّة إلى المسدسين... وأنا مستعجل جداً... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها...

قال ذلك ومدَّ إلى الموظف ورقة بمئة روبل كانت أولى أوراق الحزمة. فقال له بيوتر إيلتش:

ـ لا أستطيع أن أبدِّلها لك. أليس معك نقود صغيرة؟

ـ لا... أجابه ميتيا.

ولكنه جسَّ ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه، ثم أضاف:

ـ لا... ليس عندي أوراق صغيرة... هي جميعاً واحدة.

قال ذلك ونظر إلى بيوتر إيلتش مرتبكاً.

ـ من أين جاءتك هذه الثروة كلها؟ سأله الموظف الشاب.

ثم أضاف:

ـ انتظر! سأرسل الصبي إلى مخزن آل بلوتنيكوف. إنهم يغلقون متجرهم في ساعة متأخرة، وسيبدلون لنا هذه الورقة. هيه، ميشا!

كذلك نادى الصبيَّ وهو يفتح الباب.

صاح ميتيا فيما يشبه الإلهام المفاجئ:

ـ مخزن آل بلوتنيكوف ـ إنها فكرة رائعة!

ثم قال يخاطب الصبي الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة، كأنه تذكر أمراً ما:

ـ ميشا؟ أركض إلى متجر آل بلوتنيكوف، وقل لهم إن ديمتري فيودوروفتش يبلغكم تحياته، وإنه سيجيء إليكم بنفسه بعد قليل... وقل لهم أيضاً هذا: أن يحضِّروا شمبانيا بانتظار وصولي إليهم. نعم، ثلاث دستات شمبانيا. وليحزموها كما فعلوا في المرة الأخيرة عندما سافرت إلى موكرويه... لقد طلبت يومذاك أربع دستات (أضاف يقول فجأة وهو يلتفت إلى بيوتر إيلتش). وهم يعلمون على كل حال، يا ميشا. لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبي). ها نعم! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً، وفطائر من ستراسبورغ، وأسماكاً مدخَّنة، وشرائح من فخذ الخنزير، وكافيار، أي شيء من كل ما عندهم في مخزنهم، بحيث يكون ثمن المجموع مئة أو مئة وعشرين روبلاً كما في المرة السابقة... وقل لهم كذلك أن لا ينسَوا الملبس والسكاكر الذوَّابة والكُمثري، وبطيختين أو ثلاثاً، لا بل تكفي بطيخة واحدة... ولكن لا بد في مقابل ذلك من شوكولاته وسكر شعير، وفاكهة وكاراملين، تماماً كالمرة الماضية؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمئة روبل... تماماً كالمرة السابقة. هل تتذكر يا ميشا؟ أليس اسمه ميشا؟ (وجَّه هذا السؤال إلى بيوتر إيلتش).

قاطعه بيوتر إيلتش الذي كان يصغي إليه بقلق:

ـ لحظة! أليس الأفضل أن تأمرهم أنت بإعداد الأشياء؟ لا شك أن الصبي سيخطئ.

ـ سيخطئ، سيرتبك! أوه، ميشا! كنت أريد أن أقبِّلك الآن، شكراً لك...

اسمع: إذا لم تخطىء في تنفيذ المهمة، فلك مني عشرة روبلات. هيّا أسرع... لا تنس الشمبانيا خصوصاً، يجب أن يحضِّروا كثيراً من الشمبانيا... وكذلك من الكونياك... أبيض وأحمر... تماماً كالمرة السابقة. هم يعرفون ما طلبته في المرة السابقة.

قاطعه بيوتر إيلتش قائلاً وقد نفد صبره:

ـ هلَّا تركتني أتكلم؟ أعود فأقول لك: حسبُ الصبيّ أن يجيئنا بالنقود، وأن يوصيهم بألّا يغلقوا متجرهم قبل وصولك. وستذهب إليهم فوراً، فتعمل ما يجب بنفسك. أعطني هذه الورقة. والآن هيَّا يا ميشا، وأسرع... فهمت؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميشا الذي كان ينظر محملق العينين إلى الزائر الذي تلطخت يداه ووجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية. كان الفتى واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له.

فلما انصرف الفتى قال بيوتر إيلتش بلهجة جافّة:

ـ والآن تعال اغتسل. ضع المال على الطاولة أو ضعه في جيبك... هكذا، اقترب، اخلع عنك هذا الردنغوت!

وساعده في خلع الردنغوت، فإذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً:

ـ أنظر... الردنغوت أيضاً ملوَّث بالدم.

ـ ليس هو... ليس هو الردنغوت... الكمُّ وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع. وهنا أيضاً. ذلك لأنني هنا إنما دسست المنديل، فنضح الدم، ولا بد أنني جلست عليه عند فينيا، فرشح الدم من الجيب.

وراح ميتيا يشرح الأمر في سورة من ثقة عجيبة. فقطب بيوتر إيلتش حاجبيه. وقال متذمراً:

ـ ها أنت دبرت أمرك! أتراك اقتتلت مع أحد؟

وابتدأ التنظيف. تناول بيوتر إيلتش جرةً وأخذ يسكب الماء. فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن «صوبنة» يديه (كانت يداه ترتجفان؛ تذكر بيوتر إيلتش ذلك فيما بعد)، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فصَوْبن يديه من جديد. كان الموظف في تلك اللحظة يسيطر على ميتيا، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء. يحسن أن نشير هنا إلى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع.

ـ أنظر: لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظفار. وادلُك وجهك الآن. أكثر من هذا! هنا على الصدغين، وقرب الأذن أيضاً. هل تنوي أن تنصرف مرتدياً هذا القميص؟ وإلى أين تريد أن تذهب؟ ألا ترى أن الكمَّ الأيمن مملوء بالدم؟

ـ حقاً! إنه ملطَّخ. قال ميتيا وهو يفحص الكمّ:

ـ بدِّل إذن ملابسك الداخلية.

ـ لا وقت لدي. سأدبر هذا الأمر: أثني طرف الكمّ نحو الداخل، فلا يُرى الدم... هكذا!

أجاب ميتيا بتلك الثقة نفسها، وهو يجفف وجهه ويديه ويرتدي ردنغوته.

ـ قل لي الآن ماذا حدث لك؟ هل تشاجرت مع أحد؟ مع من؟ أفي الكاباريه، كما حدث من قبل؟ أتراك تشاجرت مرة أخرى مع ذلك الكابتن نفسه الذي جررته إلى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرِّحاً؟ (ذكر بيوتر إيلتش ذلك المشهد بلهجة لائمة). من ذا ضربت اليوم... أم تُراك قتلت أحداً؟

ـ سخافات! تمتم ميتيا.

ـ سخافات؟ ماذا تعني؟

ـ دعك من هذا الأمر. قال ميتيا:

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب إلى نفسه: دست امرأة عجوزاً في الميدان.

ـ دست امرأة عجوزاً؟

ـ بل رجلاً عجوزاً! صحَّح ميتيا إجابته ضاحكاً، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش. وكان يسدد نظراته إلى عيني بيوتر إيلتش.

ـ رجل عجوز... امرأة عجوز!... أصبحت لا أفهم!... أتراك قتلت أحداً أم ماذا؟

ـ لا بل تصالحنا. تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك. حدث ذلك هناك. وافترقنا صديقين. ثم إنه غبيٌّ أبله..! لقد سامحني وعفا عني... لا بد أن يكون قد صفح عني في هذه الساعة... ولو قد نهض، لما أمكن أن يغفر لي... فليذهب الأبله إلى الجحيم! هل تسمعني يا بيوتر إيلتش؟ فليذهب إلى الجحيم! لا أريد أن أهتم به بعد الآن، لا أريد أن يخطر ببالي في هذه اللحظة!

صاح ميتيا بلهجة قاطعة. قال بيوتر إيلتش:

ـ لا أحب أن أكون كثير الفضول. ولكن أية لذة تجد في التشاجر مع أول قادم؟ وفي سبيل سخافات، كما حدث مع ذلك الكابتن؟ تقتتل ثم تذهب لتلهو وتقصف، ذلك طبعك حقاً! ثلاث دستات شمبانيا! أين تستطيع أن تشرب هذا كله؟

ـ الآن أعطني المسدسين بسرعة. أنا مستعجل جداً، أقسم لك! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزي، ولكن ليس في وقتي متسع. ثم لماذا الثرثرة؟ لقد فات أوان الكلام الآن. آه!... ولكن! أموالي، أين أين وضعتها؟

صاح وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر.

ـ أموالك وضعتها على الطاولة... هناك... وضعتها على الطاولة بنفسك. هل نسيت؟ لكأن المال ليس له أي شأن عندك حقاً! أما مسدساك فهاكهما. إني لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشرة روبلات عند العصر، ثم إذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف. كم معك على وجه الدقة؟ ألفان، ربما ثلاثة آلاف؟ أنا أراهن على ذلك؟

ـ ثلاثة آلاف. أجاب ميتيا ضاحكاً ودسّ الحزمة في جيب سرواله.

ـ سوف تضيعها هكذا؟ أتُراك اكتشفت منجم ذهب؟

ـ مناجم، مناجم ذهب! صاح ميتيا بصوت قوي وهو ينفجر بقهقهة صاخبة. هل تهمك المناجم يا عزيزي الشهم برخوتين؟ إنني أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل فوراً إذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم. لقد أعطتني أنا ثلاثة آلاف روبل، فإلى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم! هل تعرف السيدة خوخلاكوفا؟

ـ كلا! لقد سمعت عنها، أعرفها بالنظر فقط. أهي التي أعطتك الثلاثة آلاف روبل؟

سأله بيوتر إيلتش وقد بدا في وجهه أنه لم يصدق زعم صاحبه.

ـ إذا كنت لا تصدِّق ما أقول فاذهب إليها غداً منذ الفجر، ساعة يرتقي فيبوس قبة السماء مسبحاً الرب ممجداً عظمته بشبابه الخالد. اذهب إليها فاسألها ألم تعطني ثلاثة آلاف روبل، وسوف تعرف.

ـ لا أتدخل في علاقاتك. وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يكون صحيحاً... ولكنك ما إن تسلَّمت المبلغ حتى أخذت تلهو وتقصف وتبدد، بدلاً من أن تذهب إلى سيبيريا!... إلى أين تنوي الذهاب في هذه الساعة؟

ـ إلى موكرويه.

ـ إلى موكرويه؟ ليلاً؟

ـ كان العالم ملك يميني. قال ميتيا فجأة، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً!

ـ كيف لا تملك شيئاً؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل؟

ـ لا قيمة لها عندي! ألا فلتذهب الآلاف إلى الشيطان. أنا أتكلم على طبع النساء...

قلب النساء سريع التصديق

وقلبهن كثير التقلُّب فاسد!...

أنا أؤيد قول أوليس هذا، وأنا أوافقه في الرأي بشكل كامل.

ـ لا أفهمك.

ـ أظن أنك تعتبرني ثملاً؟

ـ لا ، لست ثملاً، ولكن ربما أسوأ من ذلك.

ـ أنا ثمل بالمعنى المجازي يا بيوتر إيلتش، لأن روحي هي السكرى. ولكن كفى هذا الآن...

ـ نعم ألقمه.

فتح ميتيا علبة المسدسين، وسكب باروداً في خرطوشة، ثم دسّها في المسدس؛ وقبل أن يضع الرصاصة في السبطانة، أمسكها بين إصبعين وأخذ يمعن النظر إليها في ضوء الشمعة.

ـ لماذا تنظر إلى الرصاصة؟ سأله بيوتر إيلتش الذي كان يراقبه بفضول قلق.

ـ هي نزوة لا أكثر... لو كنت تنوي أن تُسكن هذه الرصاصة في دماغك، أفما كنت تنظر إليها حين تُلقم المسدس؟

ـ لماذا تنظر إليها؟ لماذا؟

ـ ما دامت ستنفذ في جمجمتي أنا، فإنه يهمني أن أرى هيئتها قليلاً! هذه سخافات أقولها على كل حال، لست أدري ماذا أصابني.

ثم أضاف بحرارة وهو يُدخل الرصاصة ويرسِّخها بالمشاقة:

ـ انتهى! ليس هذا كله إلّا سخافات يا عزيزي بيوتر إيلتش، سخافات لا أكثر... ليتك تعرف مدى ما في هذا كله من غباء. أعطني ورقة بسرعة!

ـ هذه ورقة.

ـ لا، بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه. هذا يصلح على كل حال.

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة، فكتب على الورقة سطرين بسرعة، وطوى الورقة أربعة أرباع، ودسَّها في أحد جيوب صِداره. وبعد ذلك أعاد المسدسين إلى العلبة، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بها في يده. ثم راح ينظر إلى بيوتر إيلتش ملياً، وهو يبتسم ابتسامة حالمة. وقال:

ـ والآن أمضي؟

ـ إلى أين؟ قف! ألعلك تفكر فعلاً في إرسال هذه الرصاصة إلى رأسك؟ سأله بيوتر إيلتش متدخلاً، وقد اشتد قلقه.

ـ هذه الرصاصة؟ يا للسخافة! ألا فاعلم أنني أريد أن أعيش، لأنني أحب الحياة! إنني أعظم حباً لفيبوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن يخطر ببالي الانتحار... قل لي يا عزيزي بيوتر إيلتش: هل تستطيع أنت أن تمَّحي؟

ـ أن أمَّحي؟ ماذا تعني؟

ـ أن تزول من الدرب. أن تخلي الساحة للإنسان الذي تحبه والإنسان الذي تكرهه؛ وأن تحب حتى ذلك الذي كان عليك أن تكرهه، أن تبتعد عن طريقهما قائلاً: «هيَّا اسعدا، وليحرسكما الله، أما أنا فسوف...».

ـ سوف.. ماذا؟

ـ لا شيء! فلأمض.

ـ أعتقد أنني سأبلِّغ أقرباءك ليمنعوك من السفر. ماذا عساك فاعلاً في موكرويه؟

قال بيوتر إيلتش وهو يتفرس في ميتيا. فأجابه ميتيا:

ـ في موكرويه امرأة، امرأة... هاأنت عرفت الآن ما فيه الكفاية يا بيوتر إيلتش! حسبك هذا!

ـ اسمع: أنت إنسان متوحش، ولكنك كنت دائماً محبباً إلى قلبي. فأنا الآن شديد القلق عليك!

ـ شكراً يا أخي! أتقول إنني متوحش؟ هذا صحيح! ذلك ما كنت أدَّعيه دائماً: متوحشون، متوحشون، هذا ميشا قد عاد. كنت قد نسيته.

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود. فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «بدأوا فوراً يتحركون ويعملون»، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاي، وأن كل شيء سيكون قد تم إعداده بعد بضع دقائق. تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات، فمدَّها إلى بيوتر إيلتش، ورمى للصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها.

ـ مستحيل! لا أسمح لك بأن تعطيه «بقاشيش» في منزلي. فإن ذلك سيفسده. أعد هذا المال إلى جيبك ولا تبدده. قد تحتاج إليه في القريب. إنني لأتنبأ بأن تعود إليَّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات. ولكن لا، لا تدسَّ جميع هذه الأوراق في جيب السروال، وإلّا ضاعت منك!

ـ هيه يا صديقي! ليتنا نذهب إلى موكرويه معاً، ما رأيك؟

ـ ما ذهابي أنا إلى هناك؟

ـ اسمع! سنفتح إحدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة. إنني في حاجة إلى شرب شيء من الشمبانيا. فلنشرب معاً! أظن أننا لم نشرب معاً في يوم من الأيام! وأنا أحرص على هذا وأصرُّ عليه!

ـ لك ما تشاء! فلنذهب إذن إلى الكاباريه. لقد كنت أنوي أن أذهب إلى هناك.

ـ ليس إلى الكاباريه! ليس في وقتي متسع. سنشرب عند آل بلوتنيكوف، في الغرفة التي وراء الدكان. سألقي عليك «فزّورة»، هل توافق؟

ـ ألقها.

أخرج ميتيا من جيب صِداره الورقة التي كان قد طواها ووضعها فيها، ففضّ الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب. فقرأ هذه الجملة التالية التي كتبها

عليها ميتيا بأحرف كبيرة: «غنّني أعاقب نفسي مكفِّراً عن حياتي كلِّها، وأقبل هذا العقاب».

ـ أحسب حقاً أن عليَّ أن أبلغ أقاربك! سأقوم بهذا! قال بيوتر إيلتش بعد أن قرأ الجملة.

ـ لن يتسع وقتك يا عزيزي! هلمَّ نشرب! ذلك أفضل!

يقع متجر آل بلوتنيكوف في ناصية الشارع قريباً جداً من منزل بيوتر إيلتش. إنه أكبر «محل للبقول» في المدينة، وهو مشروع تجاري مزدهر يحسن أصحابه إدارته؛ ويوجد في هذا المتجر ما يباع في المخازن الكبرى في العاصمة: خمور من «أقبية الإخوة ألسييف»، فاكهة، سيجار، شاي، سكّر، بنّ، الخ. وفيه يعمل ثلاثة مستخدمين مقيمين، وصبيَّان متجولان يحملان السلع إلى منازل الزبائن. لقد أصيب إقليمنا بفقر شديد، وغادره الأثرياء المالكون، وبارت التجارة فيه، ولكن مخازن البقول استمرت مزدهرة، حتى ليمكن القول إنها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة: إن السلع التي من هذا النوع لا تعدم من يشتريها في كل زمان. كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا إلى مخزنهم نافدي الصبر، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة، إذ ابتاع، دفعةً واحدة، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عدّاً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدَّين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده، كما في هذه المرة، حزمة أوراق مالية ضخمة، وكان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر في فائدة تلك السلع الكثيرة التي اشتراها. وقد رُوي بعد ذلك في المدينة كلها أنه «حين ذهب إلى موكرويه بصحبة غروشنكا، قد أنفق في ليلة واحدة وفي النهار الذي أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله، ثم عاد من ذلك القصف بدون كوبيك واحد في جيبه، كما ولدته أمه تماماً». ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا

يعسكرون آنذاك على مقربة من بلدتنا)، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات، ومن أجل أن يفتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات، مستغلين سكره. وقد روى الناس أيضاً، في معرض السخرية من ميتيا، أنه قدم شمبانيا لفلاحي موكرويه، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورغية وأنواعاً من الحلوى. وكان الناس يسخرون منه أيضاً، ولا سيما في الكاباريه (ولكن ليس بحضور ميتيا، لأن ذلك خطر)، كانوا يتندرون بتلك المغامرة التي ذكرها هو علناً، وهي هروبه مع غروشنكا وما حظي به منها، «لم يحظ إلا على إذن بتقبيل قدميها».

عندما اقترب ميتيا وبيوتر إيلتش من البقالية وجدا على بابها مركبة ترويكا مجهزةً تماماً، مزَيَّنة بأجراس ومفارش، وعربةً مزوَّدةً بغطاء مريح. وكان الحوذي أندره ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد مليء تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون إلّا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة.

ـ من أين جاءت مركبة الترويكا هذه؟ دهش بيوتر إيلتش، فسأل ميتيا:

فأجابه هذا الأخير:

ـ لقد التقيت أندره عندما كنت آتياً إليك، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية. فلقد كان عليَّ أن لا أضيِّع وقتاً. إن تيمودي هو الذي قادني في المرة السابقة، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة، دون أن يأبه لي. هل نتأخر كثيراً يا أندره؟

أسرع أندره يجيب:

ـ لن يسبقونا إلّا ساعة واحدة في أكثر تقدير، بل أقلّ من ذلك!... ساعة قصيرة! لقد قرنت خيول تيمودي بنفسي، وأنا أعرف سرعتها. سأقودك بسرعة غير تلك السرعة يا ديمتري فيودوروفتش! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة.

كذلك قال أندره مؤكداً بحرارة. وهو رجل ما يزال شاباً، أحمر الشعر، جاف الجلد، يرتدي قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه.

ـ لك مني خمسون روبلاً «بقشيشاً» إذا لم تتأخر أكثر من ساعة!

ـ اعتمد عليَّ يا ديمتري فيودوروفتش. ساعة؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا إذا هم سبقونا بنصف ساعة؟

أخذ ميتيا يتحرك في المتجر في فوضى مضطربة، متنقلاً من طلب إلى طلب آخر قبل إنهاء الطلب الأول. فرأى بيوتر إيلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدَّ من جنونه.

قال ميتيا آمراً:

ـ أريد أن يكون الثمن أربعمئة روبل على الأقل، تماماً كالمرة السابقة. أربع دستات شمبانيا، هل تسمعون؟ لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة!

ـ صرخ بيوتر إيلتش:

ـ قف! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا؟ ماذا يحتوي هذا الصندوق الخشبي؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوي ثمنه أربعمئة روبل.

أسرع المستخدمون يشرحون له، بلهجة متلطفة، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوي إلّا ست زجاجات من الشمبانيا، وأنه يحتوي كذلك «الأشياء الضرورية جداً» كالمقبّلات، والملبّس، والحلوى. أما «الغلات» الأساسية فستحزم على حدة، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد «ديمتري فيودوروفتش بأقل من ساعة».

قال ميتيا ملحاً:

ـ بعد ساعة واحدة، لا أكثر من ذلك. وستضعون فيها أكبر قدْر ممكن من الحلوى والكارامل. إن البنات هناك يعشقن الحلوى والكارامل.

كذلك أضاف بحرارة:

ـ أوافق على الكارامل! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد!

وراح بيوتر إيلتش يساوم، وطلب أن يرى الفاتورة، وتحرك كثيراً، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقد إلّا مئة روبل، فتقرر أن لا يزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمئة روبل.

ثم صاح بيوتر إيلتش يقول وقد نفد صبره:

ـ فليأخذكم الشيطان! ما أغباني. لماذا أتدخل في هذه الأمور؟ بدِّد مالك كما تشاء، ما دمت قد كسبته بغير جهد!

فقال له ميتيا وهو يجره إلى الغرفة التي تقع خلف الصالة:

ـ هدِّىء روعك يا معلمي! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطِّب حلقينا! قل لي يا بيوتر إيلتش: لماذا لا تسافر معي؟ أنت شاب شهم، وأنا أحبّ أمثالك من الرجال.

جلس ميتيا على مقعد أمام طاولة مغطاة بمفرش غير نظيف. وجلس بيوتر إيلتش قبالته، وجيء بالشمبانيا. واقترحت عليهما محارات «من نوع فاخر وصلت مؤخراً»، فقال بيوتر إيلتش رافضاً الاقتراح في غضب:

ـ دعوني من محاراتكم، فأنا لا أحب المحار.

ـ لا يتسع وقتنا لأكل المحار؛ قال ميتيا، ثم إنني لا أرغب أن آكل الآن محاراً.

ثم التفت يقول لبيوتر إيلتش وقد تحمس فجأة؛

ـ اسمع يا صديقي، إنني أكره كل هذه الفوضى ومن الذي لا يشمئز منها؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا، ولمن؟ لفلاحين؟ أجد أن هذا يثير التقزز ويبعث الغثيان!

ـ ليس هذا ما أعنيه. أناَ أقصد النظام الأعلى! لقد أعوزني دائماً ذلك النظام... فعلام الأسف؟ فات الأوان! لا بأس!... حياتي كلها كانت فوضى، وقد آن لي أن أدخل عليها شيئاً من النظام. كلام بكلام؟

ـ بل قل إنك تخرف!...

قال ميتيا:

المجد لله في الكون

المجد لله في أعماق نفسي!...

لقد نظمت هذا البيت من الشعر في الماضي، انبجس مني في ذات يوم انبجاس دمعة... أوه! لم يكن هو اليوم الذي جررت فيه الكابتن من لحيته...

ـ لماذا تتكلم عليه؟

ـ لماذا؟ لماذا؟ ما كل شيء إلّا دخان! كل شيء يتبدد! كل شيء يزول آخر الأمر!

ـ اسمع! إن مسدسيك يقلقاني.

ـ ما المسدسان إلّا دخان! اشرب، وكفَّ عن قول هذه السخافات! إنني أحب الحياة... لقد بالغت في حبها، حتى لأخجل من ذلك! كفى! فلنشرب يا عزيزي، فلنشرب نخب الحياة، نخب الحياة! لماذا أنا معجب بنفسي! إنني شرير، ولكنني راضٍ عن نفسي! ومع ذلك يعذبني أن أحب نفسي هذا الحب رغم دناءتي! إنني أبارك الخليقة، وإنني مستعد لأن أسبِّح بحمد الخالق، وأن أتغنى بعظمته، ولكن... يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين... هيه يا أخي! فلنشرب نخب الحياة! أي شيء أفضل من الحياة؟ لا شيء أفضل من الحياة، لا شيء! المجد للحياة، والمجد لملكتي، ملكة الملكات!

ـ لك ما تشاء! فلنشرب نخب الحياة، ولنشرب نخب ملكة قلبك.

وأفرغ كل من الرجلين كأساً. كان ميتيا، الحذر المهذار في آن، يبدو حزيناً، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره ولا يستطيع طرده.

ـ ميشا... ها هو ميشا، ها هو فتاك ميشا قد دخل! تعال إلى هنا أيها الصبي الطيب! اشرب كأساً معنا، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء، تمجيداً للشمس التي ستشرق غداً...

ـ هل أنت مجنون؟ أتسقيه هو شمبانيا؟ صاح بيوتر إيلتش محتجاً حانقاً.

ـ أسمح له بأن يشرب مرةً واحدة! سوف يسرني هذا. فقال ميتيا.

ـ ولكن... الخلاصة... ما دمت تصرُّ!

أفرغ ميشا كأساً، وسلَّم ثم انصرف.

ـ هكذا سيتذكرني مدة أطول على الأقل قال ميتيا... إنني أحب المرأة، أحب المرأة! ما المرأة؟ هي ملكة الأرض.. أوه! إنني أحس بحزن يا بيوتر إيلتش، أحس بحزن رهيب. هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت. «أشعر بحزن رهيب. يا هوراسيو، أشعر بحزن شديد... واأسفاه! مسكين يوريك ذاك!». لعلني أنا يوريك! إنني في هذه اللحظة بعينها يوريك. وبعد ذلك سأكون الجمجمة.

كان بيوتر إيلتش يصغي إليه صامتاً. وسكت ميتيا أيضاً.

ثم اتجه بالكلام فجأة إلى المستخدم يسأله شارد الفكر وقد رأى في الزاوية كلباً صغيراً طويل الشعر متدلي الأذنين أسود العينين:

ـ لمن هذا الكلب؟

أجاب المستخدم:

ـ هو لفارفارا ألكسييفنا، صاحبة المتجر. نسيته هنا منذ قليل. سأرسله لها.

ـ رأيت في الماضي كلباً يشبهه... قال ميتيا حالماً في الكتيبة... كانت ساقه مكسورة... بالمناسبة يا بيوتر إيلتش، قل لي: هل سرقت شيئاً في حياتك؟

ـ ما هذا السؤال؟

ـ افهمني! أقصد السرقة الحقيقية... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر، لا من الدولة، فجميع الناس يسرقون الدولة... هذا شيء معروف، وأنت أيضاً تسرق الدولة، لا شك عندي في ذلك...

ـ سحقاً لك...

ـ هل سرقت مع ذلك؟ من جيب، أو من محفظة؟...

ـ سرقت في طفولتي قطعة نقدية بعشرين كوبيكاً من أمي. كان عمري تسع سنوات. أخذت القطعة النقدية من على الطاولة، دون أن يراني أحد، وأخفيتها في قبضة يدي.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا شيء... احتفظت بها ثلاثة أيام، ثم شعرت بالخجل، فرددتها معترفاً بالسرقة.

ـ ثم؟

ـ جُلدت كما أستحق. ولكن لماذا هذه الأسئلة؟ هل سرقت؟

ـ سرقت قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة.

ـ ماذا سرقت؟ سأله بيوتر إيلتش قلقاً:

ـ سرقت عشرين كوبيكاً من أبي. كان عمري تسع سنوات. ثم رددتها.

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة.

ـ آن أوان السفر يا ديمتري فيودوروفتش. صاح الحوذي أندره من باب المتجر.

ـ هل كل شيء جاهز؟ هيّا بنا!

قال ميتيا ذلك، وراح يدور في الغرفة. وأضاف:

ـ بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة! كأساً من الخمرة لأندره! بسرعة!

وأعطوه أيضاً كأس كونياك!... أما العلبة (علبة المسدسات)، فضعوها تحت المخدات. استودعك الله يا بيوتر إيلتش، ما ينبغي لك أن تؤاخذني.

ـ ولكن هل ستعود غداً؟

ـ نعم، سأعود.

ـ هل ننهي الحساب الآن؟ آ، نعم، الحساب! طبعاً!

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية، سحب منها ثلاث ورقات من فئة المئة روبل، ورماها على البسطة بإهمال، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب، فرافقه جميع مستخدمي المتجر، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون له انحناءً كبيراً. ثم شرب أندره كأساً من الكونياك، وصعد إلى مكانه في العربة. ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة، انبجست فينيا راكضة لاهثة، فضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وجثت على ركبتيها أمامه، وهتفت تتوسل إليه قائلة:

ـ سيدي العزيز ديمتري فيودوروفتش، يا ملاكي، لا تقتل سيدتي! أنا من أخبرك كل شيء! فلا تسئ إليه هو أيضاً، القديم... لأنه عرفها قبلك. وهو ينوي أن يتزوج أغرافينا ألكسندروفنا، لقد جاء من سيبيريا لهذا الغرض... سيدي العزيز ديمتري فيودوروفتش، لا تدمر حياتهما!

قال بيوتر إيلتش يخاطب نفسه: «آ، آ، آ، هكذا إذن! ستحدث مشاجرة هناك. اتضح الآن كل شيء. أصبح كل شيء واضحاً.». ثم قال بصوت عالٍ:

ـ ديمتري فيودوروفتش! أعد إليَّ هذين المسدسين في الحال إذا كنت رجلاً. هل تسمح يا ديمتري؟

ـ المسدسين؟ لحظة يا عزيزي أجابه ميتيا سأرميهما أثناء الطريق في النهر. وانهضي أنت يا فينيا. لا تركعي أمامي. إن ميتيا لن يقتل، هذا الصبي الغبي، لن يحطم حياة أحد بعد الآن.

ثم أردف يقول اسمعي يا فينيا، لقد أهنتك منذ قليل، فأرجو أن تسامحيني. اغفري لهذا الشقي البائس. يمكنك أن تغفري وأن لا تغفري... لم يبقَ لهذا قيمة... هيَّا يا أندره، ولتجر المركبة بأقصى سرعة!

رفع أَندره سوطه، فجلجلت الأجراس.

ـ استودعك الله يا بيوتر إيلتش، لك مني آخر دمعة!...

قال بيوتر إيلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التي أخذت تبتعد: «ليس بسكران، ولكن ما أشد الاضطراب في أقواله». وقد أراد بيوتر إيلتش أن يبقى في المتجر ليراقب شحن الخمور والمؤونات على عربة أخرى، لأنه كان يحسُّ أنهم سيغشُّون ميتيا. ولكن شعر بحنق على نفسه فجأةً، لاهتمامه بهذه التفاصيل، وبصق من شدة غضبه، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوي.

وقال في نفسه أثناء الطريق: «إنه رجل أبله، ولكنه طيب...». ذلك الضابط، صاحب غروشنكا «القديم»، فقد سبق أن سمعت عنه... هل عاد إذن؟... ولكن المسدسين... المسدسين. فليحلَّ الرجلان نزاعهما، ولن يحدث شيء على كل حال. سيصرخان كثيراً، وسيسكران، وسيقتتلان، ثم يتصالحان. إنهما غير جادّين... كلمات جوفاء! «سوف أتنحى عن طريقهما...» «إنني أعاقب نفسي...» دعنا من هذا! لن يفعل من ذلك شيئاً. لقد ردَّد أقوالاً من هذا النوع مئة مرة في الكاباريه عندما كان ثملاً. وهو في هذه المرة لم يشرب «نفسي سكرى»؛ إن جميع أمثاله من القاصفين يحبّون العبارات الرنانة. أأنا مربية أخيراً؟ لقد تشاجر على عادته، فدمّى وجهه. ولكن من الذي تشاجر معه؟ سأعرف هذا في الكاباريه حتماً. وذلك المنديل المدمَّى؟ لقد تركه في غرفتي... ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال! ما لي ولهذا كله!».

وصل إلى الكاباريه معتكر المزاج جداً، وبدأ يلعب فوراً. وانبسطت أساريره، وتابع اللعب، وأخذ يقص على أحد ملاعبيه أن ديمتري كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى، وأنه رأى في يديه بأمّ عينه ثلاثة آلاف روبل. وأضاف أن ميتيا قد سافر في هذه المرة أيضاً إلى موكرويه ليقصف فيها مع غروشنكا. أصغى السامعون إلى هذه الأنباء بفضول شديد، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جدٌّ عجيب. حتى لقد توقّف لعب البلياردو.

ـ ثلاثة آلاف؟ من أين جاء بها؟

وتتالت الأسئلة. لم يصدّقوا حكاية مناجم الذهب التي اقترحتها السيدة خوخلاكوفا.

ـ أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز؟

ـ ثلاثة آلاف! هذا أمر يثير الاشتباه!

ـ لقد تباهى في هذا المكان نفسه بأنه سيقتل والده، وسمعه جميع الناس، حتى لقد تحدث في تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل...

كان بيوتر إيلتش يصغي، وأصبحت أجوبته مقتضبة وجافة. ولم ينبس بكلمة واحدة عن الدم الذي رآه على وجه ميتيا ويديه، رغم أنه كان ينوي أن يتحدث عن ذلك حين ذهب إلى الكاباريه. وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة، أعلن بيوتر إيلتش أنه لا يحب أن يلعب أكثر. ثم وضع عصا البلياردو، وخرج حتى دون أن يتناول العشاء. خلافاً لما كان ينوي. فلما وصل إلى الساحة توقف لحظة، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء. «يا للحماقة! سأوقظ جميع الناس، وأحدث فضيحة، مع أن هذا كله ليس إلّا تخيلاً! وما شأني أنا؟ هل أنا خادمهم؟».

وعاد إلى منزله غاضباً. وفجأة خطرت بباله فينيا. قال لنفسه في حسرة: «ما أغباني! إن فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله، ولو فعلتُ، لقالت لي كل شيء!». وشعر عندئذ برغبة قوية في أن يكلِّمها، وبلغت هذه الرغبة من القوة أنه انعطف فجأة، وهو في منتصف الطريق إلى منزله، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذي تقيم فيه غروشنكا. فلما وصل إلى الباب طرقه، فإذا بالطرقات التي تردّد صداها في صمت الليل ترده فجأة إلى الواقع، وإذا بغضبه يشتد لأنه يقوم بمسعى غير لائق. قال في نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة». ولكنه بدل أن ينصرف، راح يطرق الباب، بكل ما أوتي من قوة. دوَّت طرقات الباب في الشارع كله. فردَّد يقول: «لا بأس! لسوف أجبرهم على أن يفتحوا!»، وكان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرقة جديدة وهو يستأنف الطرق بمزيد من القوة.

# VI

## سأصل، أنا!

كان ديمتري فيودوروفتش يسير في الطريق بسرعة فائقة. فالمسافة تزيد قليلاً على عشرين فرسخاً حتى موكرويه. لكن خيول أندره، قطعت هذه المسافة بساعة وربع الساعة. ويبدو أن سرعة الجري قد أنعشت ميتيا. كان الهواء ندياً، قليل البرودة، ونجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب. في تلك الليلة، وربما في تلك الساعة، تهالك إيليوشا على الأرض، «وقد أقسم بحرارة أنه سيحبها إلى الأبد». كان ميتيا يشعر بضيق شديد، ولكن نفسه، رغم الهموم الثقيلة التي تعذبها، كانت لا تفكر في تلك اللحظة إلّا في المرأة الحبيبة، ملكته التي تعجَّل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة. حسبي أن أقرر ما يلي: كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة. وسواء أصدّقتم كلامي أم كذبتموه، فإن الحقيقة تجبرني أن أقول إن هذا الغيور لم يكن يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجديد، نحو ذلك الخصم الذي لم يكن في حسبانه، نحو هذا «الضابط» الذي داهم حياته بهذه القسوة الشديدة. لو حاول أي إنسان آخر أن يحل محل ميتيا لدى غروشنكا، لأسرع ميتيا يردُّ بغضب غيور مسعور، ولتلطخت يداه بالدم من جديد. أما تجاه هذا الإنسان الذي هو «أول رجل» في

حياة غروشنكا فإن ميتيا كان لا يشعر بأي غيرة، ولا بأي عداوة، أثناء ما كانت مركبة الترويكا تقلُّه إلى موكرويه. ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد. «الأمر واضح. إنها على حق. هو أول حب في حياتها، هو الرجل الذي لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنوات. معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة. أما أنا، فماذا جئت أعمل في حياتها؟ من أنا عندها؟ ابتعد يا ميتيا! تنحَّ عن طريقها! ثم ما قيمة هذا كله اليوم، ما دام مصيري قد تقرر، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة إليّ، حتى ولو يكون هو هناك، حتى ولو لم يجيء ذلك الضابط؟...».

بهذه العبارات تقريباً كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التي كانت تجيش في نفسه، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة. ولكن ميتيا لم يكن يستطيع أن يفكر. إن القرار الذي اتخذه إنما جاءه فجأة، دون أي تفكير، فإذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التي تترتب عليه، أثناء انفعاله ذاك الذي أيقظه في نفسه ما كشفت له عنه فينيا من أمور. ومع ذلك لا يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق، ولا يزال يشعر باضطراب أليم: إن قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة والسلام إلى نفسه. وتربطه أشياء كثيرة بذلك الماضي. كان يقول لنفسه في بعض اللحظات: «ما أغرب هذا!» كان قد نطق بحكم نهائيّ على مصيره، وكتب على ورقةٍ قوله: «إنني أعاقب نفسي، وأنا أقبل هذا العقاب»، وإن هذه الورقة الآن في جيبه، جاهزة للاستعمال؛ وأن مسدسه محشو، وهو يعرف ما الذي سيفعله في صباح الغد، حتى يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية» فيدفئ الأرض مجدداً بأول أشعته. ومع ذلك... لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التي تلازمه وتعذِّبه. فكان يقول متألماً: لا سبيل إلى النسيان؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملأه يأساً. ولقد أوشك في لحظة من اللحظات، أثناء هذه الرحلة، أن يأمر أندره بالتوقف، وأن يفرغ من الأمر كله؛

يخرج من العربة، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد. ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت، كما تنطفىء شرارة طائرة. وكانت مركبة الترويكا «تنهب به الأرض نهباً»، فكلما اقتربت به من غايته، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه بقوة طاغية مستبدة مستأثرة، طاردةً جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه. «أوه! أريد أن ألمحها مرة أخيرة، ولو من بعيد، عابرةً؛ إنها في هذه الساعة معه، وسأراهما كليهما، هي وحبيبها الأول، وسأتأملهما، ذلك هو كل ما أتمناه الآن!» لم يشعر نحو هذه المرأة يوماً بمثل الحب الذي يشعر به الآن من عاطفة رقيقة لا حدود لها، من عاطفة غير متوقعة حتى منه، تدفعه إلى الرغبة بلا اختفاء، «سأتنحّى من طريقهما». هتف فجأة بنوع من الحماسة الهذيانية.

العربة تسرع منذ قرابة ساعة. ميتيا صامت. وأندره، وهو فلاح ثرثار في العادة، لا يتكلم أيضاً، كأنه يخاف من أن يقطع الصمت. فهو لا يزيد على أن يحرِّض بسوطه خيوله النحاف على عصبية. وفجأة صاح ميتيا بقلق شديد:

ـ أندره! ماذا لو وجدناهم نائمين؟

في تلك اللحظة خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك.

ـ جائز جداً أن يكونوا في هذه الساعة نائمين يا ديمتري فيودوروفتش.

قطب ميتيا حاجبيه بغضب. ماذا؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً... هي أيضاً... ربما إلى جانبه! واستعر الغضب في قلب ميتيا.

صرخ يقول خارجاً عن طوره:

ـ اجلد يا أندره! مزيداً من الإسراع، قال أندره بعد صمت:

ـ لا أعتقد أنهم ناموا. لقد أسرَّ لي تيموفي أن جمعاً غفيراً قد تجمَّع هذا المساء في موكرويه؟

ـ في محطة العربات؟

ـ لا، بل عند آل بلاستونوف، وهو محطة عربات أيضاً.

ـ أعرف. أتقول إنهم جمع غفير؟ كيف هذا؟ من أين جاؤوا؟ قال ميتيا يسأل الحوذي وقد أدهشه هذا النبأ غير المتوقع.

ـ يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون كما قال تيموفي: اثنان منهم جاءا من المدينة ولست أدري من هما، فإن تيموفي لم يذكر لي ذلك؛ واثنان من هنا، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يبدو، ثم شخص آخر أيضاً إذا صحَّ ظنّي. وهم يلعبون بالورق، حسب ما يقول تيموفي.

ـ بالورق؟

ـ نعم. وما داموا قد بدأوا يلعبون بالورق، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا. إن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن.

ـ أسرع، أسرع يا أندره.

واستأنف أندره كلامه بعد صمت فقال:

ـ قل لي يا سيدي. هناك أمر أحب أن أسألك عنه، ولكني أخشى أن أغضبك.

ـ ما هو هذا الأمر؟

ـ إن فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة إليك ألّا تلحق أذًى بسيدتها وبشخص آخر... فيا سيدي، ما دمت أنا أقودك إلى هناك، فإن ضميري... لا تؤاخذني يا سيدي... إذا كنت غبياً فيما أقول.

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسي شديد:

ـ أنت حوذي، أليس كذلك؟ أنت حوذيّ.

ـ نعم، حوذي...

ـ أنت تعلم إذن أنه عليك أن تتنحى عن الطريق. ثمة حوذيون لا يتنحون

لأحد، ادهس من تريد، تابع. كلا أيها الحوذي، لا تدهس أحداً، ليس لحوذي أن يدوس المارَّة... لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره. ومن يدمِّر حياة شخص آخر، فلا يبقى عليه إلّا أن يعاقب نفسه بنفسه بعد ذلك... إذا هو دمَّر حياة أحد، فليمضِ... فلينل العقاب!

تكلم ميتيا جيَّاش النفس، شديد الاندفاع، ورغم أن أندره دُهش من أقواله، فإنه لم يقطع الحديث قال:

ـ صحيح جداً ما تقوله يا سيدي ديمتري فيودوروفتش. أنت على حق، لا يجوز لأحد أن يدوس البشر، ولا أن يعذبهم؛ ولا ينبغي له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التي تتنفس! أنظر إلى الخيول مثلاً: إن من الناس من يضربونها بغير طائل، ويستحثونها أكثر مما يجب. إن بعض الحوذيين في بلادنا لا يعرفون الاعتدال، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لست أدري إلى أين وكيف؟

ـ لعلهم يفعلون هذا ليصلوا إلى جهنم بسرعة أكثر وهو يضحك ضحكته القصيرة الجافة. قل لي يا أندره: إنك إنسان طيب القلب بسيط القلب (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن ديمتري فيودوروفتش كارامازوف سيذهب إلى جهنم؟

ـ لست أدري يا سيدي الطيب، ذلك متوقف عليك أنت... اسمع يا سيدي: حين مات ابن الله على الصليب، نزل مباشرة إلى جهنم فخلَّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب النار. وقد تشكى الجحيم عندئذ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك. فقال الرب للجحيم: «اطمئني يا جهنم، فإنك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة في الماضي، إلى اليوم الذي أرجع فيه إلى هذا العالم». إن هذا الكلام هو الحقيقة، هكذا...

ـ هذه أسطورة شعبية رائعة. اضرب الحصان الأيسر يا أندره!

استأنف أندره كلامه وهو يصفِّق بسوطه فوق الحصان الأيسر؛ قال: أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم. أما أنت يا سيدي فنحن نعتبرك طفلاً... ذلك هو رأينا نحن... مهما تكن عنيفاً غضوباً... وإنك لعنيف غضوب لا شك في ذلك. سيغفر الرب لك لأنك ذو قلب طيب.

ـ وأنت يا أندره، هل تسامحني؟

ـ ليس هناك ما أسامحه يا سيدي، فإنك لم تسئ إليَّ.

ـ إنني أسألك هل تستطيع أن تسامحني نيابةً عن الجميع، أن تسامحني أنت، في هذه اللحظة، على هذا الطريق؟ هل تغفر لي باسم الجميع؟ أجبني يا ابن الشعب!

ـ سيدي! لقد بدأت أخاف. إنك تتكلم كلاماً غريباً جداً.

كان ميتيا قد أصبح لا يصغي إليه، فهو الآن يصلي صلاة حارة، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة:

ـ يا رب! اقبلني رغم سفالتي، ولكن لا تحكم عليَّ. اللهم اسمح لي أن أجيء إليك دون أن أمثُل أمام محكمتك... لا تحكم عليَّ، ما دمت قد حكمت على نفسي بنفسي. لا تحكم عليَّ، لأنني أحبك يا رب! أللهم إني خبيث دنيء، ولكني أحبك. وحتى في الجحيم، إذا أنت أرسلتني إلى الجحيم، سأظل أحبك، وسأظل أهتف لك بحبي إلى أبد الآبدين ولكن دع لي أن أحب حبي الأرضي حتى النهاية... اسمح لي أن أبقى أحب، في هذه الحياة الدنيا، خمس ساعات أخرى، إلى أن تشرق شمسك الدافئة... إنني أحب ملكة قلبي، ولا أستطيع أن أمتنع عن حبها أللهم إنك تراني كلّي في هذه اللحظة. سوف أسرع إليها، فأرتمي عند قدميها، وأقول لها: لقد كنت على حق حين نبذتني، وداعاً... انسي ضحيتك، ولا تدعي لذكراي أن تعذبك يوماً!».

ـ موكرويه! صاح أندره وهو يومىء إلى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه:

فمن خلال ظلمات الليل الشاحبة، كانت تُرى، كتلةٌ مظلمة ومتينة من منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة. إن سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة. ولكن كل شيء كان غارقاً في النوم. ولا يرى الناظر إلّا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك.

ـ أسرع، أسرع يا أندره. صرخ ميتيا محموماً.

فقال أندره وهو يشير بسوطه إلى نُزُل آل بلاستونوف الذي يقع عند مدخل القرية والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة إضاءة قوية:

ـ لم يناموا بعد.

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاً:

ـ لم يناموا بعد! أجرِ العربة جرياً سريعاً يا أندره، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي جلبة. ألا فليعلم الجيمع من القادم! هو أنا... هأنذا وصلت! كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج.

استحث أندره جواديه المكدودين، فوصلت العربة إلى باب النُّزل مقرقعة بقوة، وهنالك استوقف الحوذيّ الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً. قفز ميتيا من العربة في اللحظة التي كان فيها صاحب النزل يهم أن ينام في فراشه فلما سمع قرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من القادم في مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة. صاح ميتيا يسأله:

ـ أهذا أنت يا تريفون بوريستش؟

مال صاحب النزل إلى أمام ليستطيع أن يميز في الظلام ملامح وجه القادم، ثم نزل درجات المدخل راكضاً، وأسرع إلى الزائر بحماسة مجاملة، وهو يقول:

ـ ماذا؟ أهذا أنت يا عزيزي ديمتري فيودوروفتش! ما أعظم فرحي برؤيتك من جديد!

كان تريفون بوريستش هذا فلاحاً قوي البنية مربوع الجسم متوسط القامة ضخم الوجه، تعبر قسماته في العادة عن قسوة وغيظ، لاسيما مع فلاحي موكرويه، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة. يرتدي ثياباً على الزيّ الروسي، فقميصه مقلوب الياقة، وصِداره مطرَّزة. ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال، فلقد كان لا يعيش إلّا لجمع المزيد من الثراء، وتحقيق المزيد من الارتفاع. إن أكثر من نصف فلاحي موكرويه مدينون له، واقعون في شباكه، خاضعون لتسلطه. كان يستأجر الأراضي من ملاكي المنطقة، ويشتري البعض الآخر أيضاً، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يستطيعون التخلص منها أبداً. وهو أرمل له أربع بنات مسنَّات، إحداهن مات عنها زوجها فهي تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين، ويعاملها أبوها معاملة خادمة؛ والثانية زوجة أحد الموظفين، فالداخل إلى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمي الذي تزدان كتفاه بشارات القصب. أما الابنتان الأخريان، فهما في أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر «موضة»، ولكنهما تنهضان في الغداة منذ الفجر كسائر الأيام، لتكنسا الغرف وتصبّا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها. وكان تريفون بوريستش، رغم المال المخبأ الكثير الذي جمعه، كان يبتهج كثيراً لكل فرصة تمكِّنه من استلاب أموال مبذِّر من المبذرين. وهو يتذكر أنه ربح ديمتري فيودوروفتش، منذ أقل من شهر، مئتي روبل إن لم يكن ثلاثمئة روبل، في يوم واحد، بفضل ديمتري فيودوروفتش، في يوم عيده مع

غروشنكا. لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض، مدركاً من طريقة وصول المركبة إلى الباب على هذا النحو الصاخب، أن الفريسة ستكون سهلة.

ـ عزيزي ديمتري فيودوروفتش، ها أنت عندنا من جديد!

ـ لحظة يا تريفون بوريستش قاطعه ميتيا. قل لي الأمر الأساسي أولاً: أهي هنا؟

فسأله صاحب المنزل الذي فهم ما يعنيه ميتيا وكان يحدِّق إليه بنظرة نافذة:

ـ أغرافينا ألكسندروفنا؟ هي هنا... أيضاً!

ـ مع من؟ مع من؟

ـ مع نزلاء عابرين... موظف لا شك أنه من أصل بولندي. يظهر هذا من لهجته. إنه هو الذي أرسل خيلاً لتجيء بها إلى هنا. وشخص آخر هو صاحب البولندي، أو رفيق رحلته فحسب، لست أدري. وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية...

ـ هل يقصفون؟ هل يملكون مالاً؟

ـ يقصفون؟ دعك من هذا الكلام! هم أناس متواضعون.

ـ متواضعون؟ والآخرون؟

ـ هناك سيدان من المدينة... كانا عائدين من تشرنايا، فبقيا هنا لقضاء الليل. أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو، ولكنني نسيت اسمه... أما الثاني فأعتقد أنك تعرفه أيضاً: إنه الملّاك ماكسيموف الذي ذهب يحج إلى دير كنيستكم فيما يدّعي، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف في الطريق...

ـ أهذا كل شيء؟

ـ اسكت يا تريفون بوريستش. شيء واحد يهمني: ماذا تفعل هي الآن؟

ـ وصلت تواً، وهي الآن معهم.

ـ أهي مرحة؟ أهي تضحك؟

ـ لا، إنها لا تضحك كثيراً كما لاحظت... حتى لقد بدا لي أنها حزينة. وكانت تمسّد شعر الشاب.

ـ شعر الضابط، ذلك البولندي؟

ـ دعك من هذا الكلام! ليس البولندي شاباً ولا هو ضابط. أنا لم أقصد البولندي، بل الشاب... قريب ميوسوف؟ ما لي نسيت اسمه...

ـ لعل اسمه كالغانوف.

ـ تماماً، كالغانوف.

ـ حسناً، سوف أرى. قلت إنهم يلعبون بالورق، أليس كذلك؟

ـ توقفوا عن اللعب. لقد تناولوا الشاي، وأمر الضابط بخمور.

ـ لحظة يا تريفون بوريستش! هذه كلها أمور ثانوية، وسأحكم على الموقف بنفسي. أجبني الآن عن الشيء الأساسي: هل في القرية غجر؟

ـ لم يبقَ غجر يا ديمتري فيودوروفتش! لقد طردتهم السلطات. غير أن عندنا في مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان. هم الآن في رودجستفنسكا، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً.

ـ استدعهم حالاً. ويجب كذلك إيقاظ البنات، كما في المرة السابقة، ولاسيما ماريا تلك، ثم ستيبانيد وإيرين. سأدفع للجوقة مئتي روبل!

ـ بهذا المبلغ أجمع لك جميع أهل القرية، ولو كانوا نائمين. ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهؤلاء البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ؟ هؤلاء رعاع لا يستحقون هذه الملاطفات؟ لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدّمت لهم سيجاراً. هؤلاء أناس نتنون. أما النساء فهن جميعاً قذرات. إني أفضِّل أن أرسل إليك بناتي، ولو مجاناً، على أن أدعك تبعثر هذا

المال كله. إن بناتي نائمات الآن، ولكني سأوقظهن، سأوقظهن ركلاً بقدمي إذا اقتضى الأمر، وسأجبرهن على أن يغنين لك. لا أستطيع أن أتصور كيف قدّمت شمبانيا لأولئك الفلاحين! ذلك أمر يبعث على الشفقة!

ـ تريفون بوريستش! ألا تتذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية؟

ـ كيف لا أتذكر؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز.

ـ إذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه. أنظر!

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل. ثم أضاف قوله:

ـ اسمع الآن وحاول أن تفهم: بعد ساعة سيصل خمر ومقبّلات وفطائر وسكاكر. فاحمل هذا كله فوراً إلى فوق. أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد أندره فيجب أن تنقله إلى هناك أيضاً، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً. ولكن لا تنسَ أن الأمر الأساسي هو البنات، البنات! وأريد حتماً أن تجيء ماريا تلك!...

واتجه ميتيا إلى العربة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين.

ـ سأدفع لك دينك عليَّ يا أندره. إليك خمسة عشر روبلاً، أجرَ العربة، وإليك خمسين أخرى «بقشيشاً»... مكافأة لك على إخلاصك، وتقديراً لصداقتك... تذكّر السيد كارامازوف!

ـ لا أجرؤ يا سيدي قال أندره بلهجة مترددة... إنني أقبل خمسة روبلات مكافأة، لا أكثر من ذلك. مستحيل. هذا تريفون بوريستش شاهد عليَّ... سامحني على حماقتي...

ـ ممَّ تخاف! سأله ميتيا وهو يقيسه بنظره، ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقي إليه خمسة روبلات: أنت وشأنك! اذهب إلى الشيطان! والآن يا تريفون

بوريستش خذني على مهل إلى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً دون أن يروني. أين هم الآن؟ أظن أنهم في الغرفة الزرقاء، أليس كذلك؟

ألقى تريفون بوريستش على ميتيا نظرة قلقة، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده في حذر عبر الممرّ، ودخل هو الغرفة الكبيرة المتاخمة للغرفة التي كان فيها النزلاء، فأبعد الشمعة التي كانت تضيء تلك الغرفة؛ ثم أدخل ميتيا إلى الغرفة المعتمة بغير ضجة، وأجلسه في زاوية معتمة جداً يسهل عليه منها أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى. غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم: فما إن رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره، وحتى اضطرب نظره فلا يكاد يرى. كانت جالسة على مقعد قرب الطاولة، وكان الشاب كالغانوف يجلس قريباً منها على الكنبة، وهو فتى جميل الهيئة وسيم الطلعة. كانت غروشنكا ممسكةً يده وكأنها تضحك، بينما كان هو يناقش ماكسيموف ممتعض الوجه، وكان ماكسيموف هذا يجلس إلى الطرف الآخر من الطاولة قبالة غروشنكا أما «هو» فقد كان جالساً على الكنبة نصف نائم يدخِّن غليوناً. وفي جانب، على كرسي مستند إلى الجدار، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه. إن الشخص المسترخي على الكنبة يبدو رجلاً بدين الجسم عريض الوجه، قصير القامة، أما الثاني فهو طويل جداً. لكن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك. لقد انقطعت أنفاسه، ولم يستطع أن يمكث هنا حتى دقيقة واحدة، فوضع العلبة على المنضدة، واتجه مباشرة، منقبض القلب نحو الغرفة الزرقاء التي كان يجلس فيها المتحادثون.

ـ آه! صاحت مذعورة غروشنكا التي رأته قبل الآخرين.

# VII

## الأول الذي لا نقاش فيه

وصل ميتيا إلى الطاولة مباشرة بخطاه الطويلة والنشطة. وبدأ كلامه بصوت قوي جداً، بصوت يكاد يكون صراخاً، ولكنه يتلعثم عند كل كلمة...

ـ يا سادة، أنا... أخيراً... لا شيء... لا تخافوا، أنا لا أريد شيئاً... واستدار نحو غروشنكا التي مالت على كالغانوف مذعورة وتشبثت بذراعه... لا شيء. أنا أيضاً سأنصرف... سأمكث حتى الصباح فقط. يا سادتي، هل تأذنون لمسافر ضلَّ طريقه في هذا المكان... أن يجالسكم، حتى الصباح فحسب، ولآخر مرة في هذه الغرفة نفسها؟

وجَّه ميتيا هذا السؤال إلى الرجل القصير السمين الذي كان يدخِّن على الكنبة. فما كان من هذا إلّا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار، وأجاب بصوت قاسٍ:

ـ «يا سيد»، نحن هنا في اجتماع خاص. وهناك غرف أخرى.

ـ أهذا أنت يا ديمتري فيودوروفتش؟ فلماذا هذه الكلفة كلها؟ تدخل كالغانوف فجأة. اجلس معنا. أهلاً بك! مساء الخير!

ـ مساء الخير أيها الصديق العزيز...، أيها الصديق الذي لا نظير له. لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام... أجابه ميتيا مسرعاً فرحاً.

ومدَّ إليه يده من فوق الطاولة.

ـ أوه! يا لها من قبضة قوية! لقد حطمت أصابعي. قال كالغانوف ضاحكاً

فقالت غروشنكا مرحةً وهي تبتسم خجلى!

هذه هي طريقته في المصافحة دائماً!

لقد أدركت غروشنكا من النظر إلى هيئته أنه لن يعمد إلى شيء من العنف. وكانت تتفحصه باستطلاع قوي تداخله بقية من قلق. إن شيئاً ما في تعبير وجه ميتيا قد خطف عينيها وأسر انتباهها، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً.

وانبرى الملَّاك ماكسيموف بدوره، فقال بصوته «المتعاذب»: ـ يومك سعيد يا ديمتري فيودوروفتش!

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً. قال له متدفقاً في كلامه:

ـ أهذا أنت؟ ما أسعدني برؤيتك! أيها السادة! أيها السادة! أنا... (وتوجه بكلامه من جديد إلى السيد الذي يدخن الغليون، معتبراً إياه الشخص الأساسي في الغرفة)... أنا قد أسرعت... إلى هنا، لأقضي ليلتي الأخيرة، لأقضي ساعاتي الأخيرة في هذه الغرفة، في هذه الغرفة بالذات... التي أتيح لي فيها، أنا أيضاً، أن أعبد... ملكتي!... (ثم هتف بحماسة) سامحني يا سيدي. لقد آليت حين جئت إلى هنا... أوه! لا تخشَ شيئاً، لأن هذه الليلة هي ليلتي الأخيرة! فلنشرب أيها السيد، فلنشرب نخب صداقتنا! سوف يجيئوننا بخمر. ولقد حملت معي هذا (قال ذلك وهو يُخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية، لا يدري أحد لماذا!)... اسمح لي أيها السيد... إنني أريد موسيقى، أريد صخباً، أريد حركة، تماماً كالمرة الماضية. إن دودة الأرض، إن دودة الأرض التي لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض... لسوف تختفي وتزول... أريد أن أستحضر في ليلتي الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتي!...

كان ميتيا يختنق. أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذاته إلّا بصيحات غريبة. بقي البولندي جامداً لا يتحرك، منقِّلاً نظره بين ميتيا وكدسة الأوراق وغروشنكا، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة. قال:

ـ إذا وافقت ملكتي...

ـ ما أسخفكما بهذه الطريقة في الكلام! هل أنا ملكة؟ قالت غروشنكا مقاطعة. إنكما لتضحكاني! اجلس هنا يا ميتيا. ماذا كنت تعني حين قلت إن هذه الليلة هي آخر لياليك؟ لا تروِّعني، أرجو ألّا تروِّعني، أليس كذلك؟ إذا كففت عن تخويفي فسوف أكون سعيدة بمجيئك...

ـ أنا؟ أنا أروِّعك؟ هتف ميتيا رافعاً ذراعيه في الهواء أوه... اعبري... اعبري... لن أكون عقبةً في طريقك...

وما إن قال ذلك حتى ارتمى فجأة على الكرسي وأجهش يبكي، محوِّلاً رأسه، شاداً بيديه ظهر الكرسي كأنه يعانقه. ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد، ولا كان يتوقعه هو نفسه.

ـ ما هذا؟ ما هذا؟ ماذا تفعل؟ سألته غروشنكا بلهجة العتب: ذلك هو سلوكه حين يأتي إليَّ ـ يقول أشياء لا تُفهم فجأة، حتى لقد انفجر منتحباً في ذات مرة... وها هو يعيد الآن الكرَّة. ألا تخجل؟ لماذا البكاء؟ ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة، وهي تشدد كلماتها بشيء من الغضب: وهل ما يدعو إلى البكاء؟

ـ أنا... أنا لا أبكي... قال ميتيا! مساؤكم سعيد جميعاً! واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً. ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية، ممتدة، مشدودة، متوترة، كانت تهز جسمه بكامله.

ـ أيضاً؟ هلَّا كنت أكثر مرحاً، أكثر مرحاً! قالت غروشنكا ملحّة. إنني

سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا، سعيدة جداً جداً، هل تسمعني! ثم قالت بلهجة آمرة وهي تتوجه بكلامها إلى جميع الحضور في ظاهر الأمر، وإن كان كلامها منصرفاً إلى الشخص المستلقي على الكنبة في الواقع. أريد أن يبقى معنا! أريد ذلك، أريد ذلك! فإذا كان عليه أن ينصرف، انصرفت أنا أيضاً.

أضافت غروشنكا هذه العبارة الأخيرة وسطعت عيناها شرراً.

قال السيد وهو يقبّل يد غروشنكا بلطف:

رغبات ملكتي هي عندي قوانين.

ثم التفت إلى ميتيا متحبباً متودداً وقال:

ـ تفضل فاجلس معنا يا سيدي!

وهمَّ ميتيا أن يقفز من مكانه ليلقي خطاباً جديداً كما ظهر ذلك في هيئته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا، واكتفى بأن قال:

ـ لنشرب أيها السيد! وأخذ الجميع يضحكون.

ـ يا رب! ما كان أضلَّني حين تصورت أنه سيتابع الكلام. قالت غروشنكا بعصبية. ثم أضافت تخاطب ميتيا بإلحاح: اسمع يا ميتيا، توقف عن الوثوب عن كرسيك، لكنك أحسنت إذ جئتنا بالشمبانيا. سيحلو لي أن أشرب شمبانيا، لأنني أكره الخمور الأخرى. ويهمني خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتي، فلقد كنا هنا في ضجر رهيب... أرى أنك تنوي أن تقصف وأن تبدد؟ خبىء أوراقك المالية هذه في جيبك. من أين جـئت بكل هذا المال؟

وها هو ميتيا الذي كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية المجعدة التي لاحظها الجميع ولاسيما «السيدين» البولنديين، دسَّها في جيبه وهو مربك. وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجةَ شمبانيا مفتوحة وكؤوساً. فأمسك ميتيا الزجاجة، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها، فهبَّ كالغانوف إلى نجدته، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الكؤوس.

ـ هات زجاجةً أخرى! صاح ميتيا يأمر صاحب النزل ونسي أن يقرع كأسه بكأس «السيد» بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة، فها هو يفرغ كأسه في فمه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كؤوسهم. وتغير تعبير وجهه. فالهيئة المأسوية الفخمة التي كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامةً تشبه ابتسامة طفل. فهو ينظر إلى الحضور بفرح خجول تتخلله في كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكِّر بالكلب الصغير المذنب الذي يحس بفرح وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد. لكأنه نسي كل شيء عن الماضي، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد، بنوع من الحماسة، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً. أما غروشنكا فكان يتفرس فيها بدون انقطاع ضاحكاً، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها. وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً، فأما «السيد» الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين، ولهجته البولندية،وغليونه خصوصاً. قال ميتيا لنفسه: «هل من سوءٍ في أن يدخن؟ إن من حقه تماماً أن يحب الغليون!». ولم يصدمه في أول الأمر ما لاحظه في وجه هذا «السيد» الذي يقارب عمره الأربعين، من غضون وأخاديد، ولا أزعجه أنفه الصغير الذي يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمَّعان يضفيان على وجهه لا أدري أي نوع من الاستخفاف والوقاحة؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة في سيبريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف إلى أمام على الصدغين. قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة: «باروكة؟ لِمَ لا؟». وأما البولندي الآخر الذي جلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من «السيد» ذي الغليون، فقد كان ينظر إلى الجمع بوقاحة مستفِزَّة، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار. إن الشيء الوحيد الذي خطف بصرَ ميتيا فيه هو فرط طوله الذي يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً. قال ميتيا لنفسه: «لو نهض لكان طوله يقارب المترين!». وقد اعتقد

ميتيا أيضاً أن «السيّد» الطويل لا بد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده، فالقصير هو الذي يأمر العملاق في أغلب الظن. وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً. لم يبقَ في قلبه الصغير أثر من خصومة أو تنافس. ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقي لموقف غروشنكا، وللهجة الملغزة التي كانت تقول بها بعض عباراتها. فكل ما عرفه متأثراً في قرارة قلبه أشد التأثر، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس إلى جانبها. وقد أعجب بها حتى الجنون وهي تشرب جرعات الشمبانيا. لكن الصمت الذي خيَّم على النزلاء لفت انتباهه فجأة، وراح يُجيل على الحضور نظرة انتظار، وكأنه يتساءل: «لماذا نحن جامدون هكذا؟ ما الذي يمنعنا من أن نلهو؟».

ـ انظروا إلى هذا! إنه لا يني يكذب، وقد أضحكنا كثيراً. قال كالغانوف في تلك اللحظة، وكأنه قد عرف ما جال في خاطره، مشيراً إلى ماكسيموف:

فحدَّق ميتيا إلى الرجلين واحداً بعد آخر. وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً: إنه يكذب؟ ها ها!

ـ نعم. تصور أنه يدّعي أن جميع ضباطنا في سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامي ١٨٢٠ و١٨٣٠؛ هذا سخف، أليس كذلك؟

ـ بولنديات؟ قال ميتيا بالغاً أوج السرور:

كان كالغانوف يعرف نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وغروشنكا، وكان يعرف أيضاً دور «السيد» البولندي، ولكنه لم يكن مهتماً بذلك كثيراً، وربما لم يكن مهتماً آنذاك، فماكسيموف هو الذي كان يشغله. لقد قادته المصادفة إلى لقاء ماكسيموف في هذا النُّزُل الذي التقى فيه الرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن. أما غروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب إلى منزلها في ذات يوم مع أحد أصدقائه، ولم تعجبه حينذاك ولكنها تنظر إليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً. وقد ظل لا يبالي بها في بادئ الأمر رغم أنها قد بدأت

تلاطفه قبل وصول ميتيا. إنه فتى في العشرين من عمره على أكثر تقدير، شديد الأناقة، جميل الوجه، شاحب اللون، له شعر أشقر رائع، وعينان زرقاوان جذّابتان تعبّران عن ذكاء وتعبران في بعض اللحظات عن عمق، فلا يتفق ذلك مع سنّه الغضة، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أقواله تُشعر في كثير من الأحيان بأنه طفل. على أن هذا لم يكن يضايقه أبداً، رغم شعوره القوي به. كان يبدو على وجه العموم إنساناً متفرداً، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته. وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسي شيئاً يشبه العناد: فهو عندئذ ينظر إلى محدثه ويصغي إليه، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو، يتابعها في إصرار. وهو تارة متوانٍ، وهو تارة أخرى حادّ مندفع إلى أقصى الحدود، يضطرب لأبسط الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب.

ـ تصور أنني أطوِّف هذا الرجل معي منذ أربعة أيام، تابع يقول، منذ اللحظة التي دفعه فيها أخوك إلى خارج العربة فسقط، كما تتذكر ذلك حتماً. لقد اهتممت بأمره عندئذ، وأخذته معي إلى الريف. ولكنه لا ينقطع عن الكذب. إنه يكذب بدون توقف، حتى أخذ كذبه يضايقني. وإني أنوي أن أعيده إلى منزله...

قال البولندي ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية: ـ إن هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات، وهو يروي أشياء كاذبة.

كان البولندي ذو الغليون يجيد اللغة الروسية، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه. ولكنه يصرُّ على أن ينطق بها نطقاً رديئاً، فهو يشوِّه الألفاظ، ويدس في جمله كلمات بولندية.

ـ ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية. أجاب ماكسيموف ساخراً.

ـ فسرعان ما تدخَّل كالغانوف: ليست هذه هي المسألة. هل خدمت في

سلاح الفرسان؟ ذلك أنك تتكلم على سلاح الفرسان! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟

ـ هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! يا لَلفارس الجميل الذي كان يمكن أن يُرى في سلاح الفرسان!... صاح ميتيا مرحاً، وكان يصغي إلى الحديث بشغف.

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدري إلّا الله ما هي!

ـ لا... لقد أسأت فهمي قال ماكسيموف وهو يلتفت إلى ميتيا: أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات.. وهنَّ جميلات في الواقع... ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رقصة مازوركا مع أحد فرساننا الرمَّاحين... يكفي أن ترقص إحداهن مع الفارس رقصة مازوركا، حتى تقفز بعد ذلك فوراً على ركبتيه، كقطة صغيرة بيضاء... ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتجان... بل هما يأذنان ويستحسنان... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة... هل فهمتم؟ يمضي يخطب الحسناء... أليس هذا صحيحاً؟ ها ها... كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً.

ـ سيد مسكين! تمتم البولندي الطويل، الجالس على كرسي قرب الحائط، وأنزل إحدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى، ليصالبهما في الاتجاه المعاكس من جديد.

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمَّعة التي كان نعلها السميك وسخاً جداً. يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً، ولم تكن ثيابهما نظيفة.

ـ لماذا يكون مسكيناً؟ أنا لا أحب الاهانات! تدخلت غروشنكا بلهجة غاضبة.

فقال البولندي ذو الغليون وهو يلتفت نحو غروشنكا:

ـ سيدتي أغريبينا! لا بد أن هذا السيد قد عاشر في بولندا بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة!

فأمَّن الرجل العملاق على كلامها قائلاً:

ـ تستطيعين أن تكوني من ذلك على يقين.

قالت غروشنكا متجهمة الأسارير:

ـ كفى! دعوه يتكلم! بماذا أساء إليكم؟ إن المرء يتسلّى مع أمثاله على الأقل!

ـ لست أمنعه من الكلام يا سيدتي. فأجاب «السيد» البولندي ذو الباروكة، بوقار.

وألقى نظرة طويلة على غروشنكا، ثم سكت، ونشق نفساً من غليونه برصانة.

قال كالغانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً:

ـ معذرة! أعتقد أن «السيد» على حق. ما دام ماكسيموف لم يعش في بولندا فبأي حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد؟ إنك لم تتزوج في بولندا مع ذلك، أليس كذلك؟

ـ لا... وإنما تزوجت في إقليم سمولنسك. إن أحد الفرسان هو الذي جاء إلى ذلك الإقليم بزوجتي... أعني بمن أصبحت زوجتي فيما بعد... جاء بها إلى ذلك الإقليم تصحبها السيدة أمها، وخالة من خالاتها، وقريبة أخرى لها ابن كبير. لقد جاءت هؤلاء السيدات من بولندا، فهنَّ بولنديات حقاً... وقد تنازل لي الفارس عنها. كان هذا الفارس فتًى أخاذاً... كان في نيته أن يتزوجها هو نفسه في أول الأمر، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء...

ـ كيف؟ تزوجت عرجاء؟ هتف كالغانوف يسأله.

ـ نعم، كانت تعرج. وقد تآمرا كلاهما على خداعي. كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً، وكنت أعزو ذلك إلى فرحها...

ـ إلى فرحها بتزوجك؟ سأله كالغانوف بصوت رنان طفولي.

ـ نعم، إلى فرحها بتزوجي. ولكن اتضح لي أن الأمر لم يكن كذلك أبداً. فبعد زواجنا، بل في مساء الحفلة نفسه، اعترفت لي بالحقيقة، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً: يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير، فانكسرت عندئذ ساقها! ها ها!

انطلق كالغانوف عندئذ في ضحك كضحك الأطفال تماماً، وكاد ينقلب على الكنبة. وضحكت غروشنكا أيضاً. أما ميتيا فقد شعر أنه في ذروة الغبطة والسعادة.

ـ هل تعرف أنه ذكر الآن الحقيقة؟ صاح كالغانوف مخاطباً ميتيا: إنه لم يكذب في هذه المرة! اعلموا أنه تزوج مرتين... وهو عن زوجته الأولى تحدث الآن، أما الثانية فقد هربت... هل تعلمون هذا؟ وهي ما تزال حية. أكنتم تجهلون ذلك؟

ـ غير معقول! قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة إلى ماكسيموف.

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع:

ـ لقد هربت فعلاً. نعم... حدث لي هذا المكروه! سافرت مع رجل فرنسي. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضي التي تتبعها. قالت لي: «أنت رجل مثقف، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك». على هذا النحو تركتني. وقد نبهني أسقف محترم جداً في ذات يوم إلى أن إحدى زوجتيَّ كانت ساقها عرجاء، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة... ها ها!...

ـ هل تسمعون؟ هل تسمعون؟ صاح كالغانوف في حماسة. إذا كان يكذب ـ وهو غالباً ما يكذب ـ فهو يقوم بذلك لتسليتنا. فهذه إذن ليست سفالة، ليس فيه شيء من السفالة! إنني أحبه أحياناً، هل تعلمون؟ هو دنيء جداً، ولكن دناءته طبيعية، أليس كذلك؟ ما رأيكم؟ غيره ينحطون طمعاً في

منفعة، أما هو فيفعل ذلك مجاناً، يفعل ذلك مدفوعاً إليه بطبيعته المنزهة عن الغرض. تصوروا مثلاً أنه يدّعي أن غوغول وصفه هو في كتابه «النفوس الميتة». لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق. إنكم تذكرون أن كتاب غوغول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف، جلده رجل اسمه نوزدريف، فحوكم هذا الرجل «بتهمة توجيه إساءة شخصية بالسياط، في حالة سكر، إلى الملّاك ماكسيموف». إن صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذي جلد بالسياط ذلك الجلد الذي يحدثنا عنه كتاب غوغول، فهل هذا ممكن؟ فكروا قليلاً! إن تشتشيكوف قد سافر سنة ١٨٢٠، فالتاريخ إذن غير مطابق أبداً. إنه يستحيل أن يكون ماكسيموفُنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد. يستحيل، أليس كذلك؟

لقد تحمس كالغانوف بصدق، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولي هذه المسألة كل هذا الاهتمام، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن! وتحيز له ميتيا باقتناع تام، ثم صاح وهو يضحك ضحكاً مدوياً:

ـ ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد...

فقاطعه ماكسيموف مصححاً: الحق أن ما وقع لي لم يكن هو الجلد تماماً، بل كان شيئاً من هذا القبيل.

ـ كيف هذا؟ شيء من هذا القبيل؟ إما أنك جُلدت وإما أنك لم تُجلد، ولا وسط بين الأمرين!

سأل «السيد» البولندي ذو الغليون، صاحبه البولندي الطويل، متململاً متذمراً:

ـ كم الساعة الآن؟

فرفع البولندي الطويل كتفيه. لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة.

ـ هل أضجركم هذا الحديث؟ تدخلت غروشنكا بلهجة هجومية. دعوا الآخرين يتكلمون! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا؟

كان يبدو على غروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة، فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة. أجاب «السيد» البولندي بشيء من العصبية، أجاب باللغة البولندية:

ـ سيدتي! أنا لم أقل شيئاً، ولا أنوي أن أزعج أحداً.

ـ حسناً. قصَّ الآن. قالت غروشنكا متوجهة بالكلام إلى ماكسيموف. ما لي أراكم تسكتون جميعاً فجأة!

ـ ليس هناك ما أقصه! استأنف ماكسيموف كلامه وقد سرَّه الاهتمام به، وأخذ يصطنع اللطف: هذا كله هراء! ثم إن غوغول قد موَّه أكثر الأسماء في هذه القصة، واستبدلها بتسميات رمزية. من ذلك أن نوزدريف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف، كما أن كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف، والاسمان مختلفان كل الاختلاف. أما فيناردي فكان اسمه فعلاً فيناردي، ولكنه كان روسياً لا إيطالياً: فيناردي بتروف. وكانت الآنسة فيناردي فتاة جذابة... ليتكم رأيتموها! ليتكم رأيتم ساقيها المغمَّدتين في سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة!... وما كان أروع دورانها!... ولكنها لم تدر إلّا خلال أربع دقائق، لا خلال أربع ساعات. فتنتنا جميعاً يومئذ...

ـ ولكن لماذا جلدوك؟ صاح كالغانوف يسأله: هلَّا قلت لنا لماذا جلدوك؟ ذلك هو الأمر الذي يعنينا!

ـ جلدوني بسبب بيرون. أجاب ماكسيموف.

ـ أي بيرون؟ سأله ميتيا.

ـ الكاتب الفرنسي الشهير بيرون. كنا جماعةً كبيرة في كاباريه وكنا قد

شربنا قدْراً لا بأس به من الخمر. حدث ذلك في أثناء تلك السوق نفسها. دعوني، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة. قالوا لي: «أهذا أنت... الشاعر بوالو؟ يا للزي الغريب المضحك!» فأجابهم بوالو بأنه ذاهب إلى حفلة تنكُّرية، وكان بوالو يقصد بذلك الحمّامات... ها ها!... ولكنهم اعتبروا هذا تعريضاً بهم. وعندئذ أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة في الأوساط المثقفة، وكانت في الحق كاوية:

أنت سافو وأنا فاوون ـ هذا واضح
مع ذلك، يا للمصير المرّ،
أنت لا تعرفين طريق البحر.

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينونني إهانات ليست لائقة. فأردت عندئذ، لسوء حظي، أن أصلح ما بدر مني من خرافة؛ ومن أجل أن أسوِّي الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التي لا يعرفها إلّا المثقفون جداً. فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر، حين لم يُنتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، أراد أن ينتقم لنفسه، فنظم بيتين لشاهدة قبره، فقال:

هنا يرقد بيرون، الذي لم يكن شيئاً ذا بال
حتى ولا عضواً في الأكاديمية.

وهكذا هجموا عليَّ وجلدوني.

ـ عجيب! لماذا؟ لأي سبب؟

ـ بسبب ثقافتي.

ـ ما أكثر الأسباب التي يُجلد من أجلها إنسان! استنتج ماكسيموف بتواضع.

ـ كفى! قاطعته غروشنكا لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة! لا أريد أن أسمعها بعد الآن. لقد توقعت شيئاً أقرب إلى البهجة! فاضطرب

ميتيا فجأة وكفَّ عن الضحك. ووقف «السيد» البولندي الطويل، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره، وقد بدا عليه التعالي، كرجل أوقعته المقادير في صحبة أناس يحتقرهم فهو يشعر بملل.

ـ ما أبلد مشيته هذه! قالت غروشنكا وهي تنظر إليه باحتقار.

فازداد انفعال ميتيا، لا سيما وأن «السيد» الجالس على الكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف فيما خيل إليه. فصاح ميتيا:

ـ فلنشرب أيها السيد. (ثم التفت إلى البولندي الآخر وتابع كلامه). وأنت أيضاً... فلنشرب، فلنشرب أيها السادة!

وتناول ثلاث كؤوس وملأها شمبانيا. وصاح:

ـ فلنشرب نخب بولندا! فلنشرب نخب بلادكم بولندا! فلنشرب نخب الأرض البولندية!

فأجابه «السيد» ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه:

ـ بكل سرور يا سيدي! فلنشرب!

فقال ميتيا مهتماً:

ـ والسيد الآخر أيضاً. هلّا قلتم لي اسمه! خذ كأساً يا سيدي.

ـ اسمه السيد فروبلفسكي. قال السيد ذو الغليون.

واقترب السيد فروبلفسكي من الطاولة متمايلاً، وتناول كأساً، ولكنه ظل واقفاً.

ـ فلنشرب نخب بولندا يا سادتي! صاح ميتيا وهو يرفع كأسه.

وقرع الثلاثة كؤوسهم بعضها ببعض. ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكؤوس الثلاث من جديد. وقال:

ـ والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة! علينا أن نتآخى!

ـ املأ لي أنا أيضاً كأساً. قالت غروشنكا. أريد أن أشرب كأس روسيا.

ـ وأنا كذلك! قال كالغانوف:

ـ وأنا أيضاً! زاد ماكسيموف إنني أحرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا.

ـ فلنشرب جميعاً! صاح ميتيا: فلنشرب جميعاً! هات زجاجات أخرى يا سيدي!

جيء بالزجاجات الثلاث الباقية. وملأ ميتيا الكؤوس. وصاح من جديد:

ـ نخب روسيا!

فشرب الجميع إلّا البولنديين. أفرغت غروشنكا كأسها دفعةً واحدة. أما البولنديان فلم يمسَّا كأسيهما.

ـ ماذا؟ أهكذا أنتما؟ قال ميتيا في دهشة.

فتناول «السيد» فروبلفسكي كأسه، ورفعه، وقال بصوت أخفّ:

ـ إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة سنة ١٧٧٢!

فهتف «السيد» الآخر قائلاً باللغة البولندية:

ـ عظيم!

وأفرغ الاثنان كأسيهما. فلم يملك ميتيا إلّا أن يقول:

ـ ما أغباكما!

فانتصب «السيدان» أمام ميتيا كديكين، وقالا له بلهجة التهديد:

ـ أيها... السيد!

وكان يبدو على فروبلفسكي أنه خارج عن طوره؛ وها هو يصرخ قائلاً في استياء (باللغة البولندية):

ـ هل محظور على المرء أن يحب بلاده؟

وهنا انفجرت غروشنكا تقول بصوت صارم وهي تضرب الأرض بقدمها:

ـ سكوت! كفاكم شجاراً! لا أريد هذه المناقشات! قالت ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها. كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها. خاف ميتيا. وأسرع يقول:

ـ معذرة أيها السيدان! أنا المذنب. لن أكرر. يا فروبلفسكي، يا سيد فروبلفسكي، سأجلس هادئاً بعد الآن.

ـ ليتك تسكت أنت على الأقل؟ أبله! قاطعته غروشنكا بانزعاج.

جلس جميع الحضور، وخيَّم الصمت، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض في حرج.

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع غروشنكا، فاستأنف يقول:

ـ أنا سبب هذا كله أيها السادة! يجب ألّا نبقى عاطلين هكذا.. ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً... فنسترد مرحنا وانطلاقنا؟...

قال كالغانوف بإهمال ودون اكتراث:

ـ حقاً إن المرء يضجر هنا ضجراً رهيباً.

فقال ماكسيموف مقترحاً:

ـ ما رأيكم في لعبة الورق كما فعلنا منذ قليل؟

ـ لعبة الورق؟ فكرة عظيمة! قال ميتيا مستحسناً هذا إذا وافق هذان السيدان...

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن مزاج معتكر، باللغة البولندية:

ـ بوزنو (الوقت متأخر).

ـ هو على حق. قال فروبلفسكي مؤمناً.

ـ بوزنو؟ ما معنى هذه الكلمة؟ سألت غروشنكا.

ـ معناها: الوقت متأخر. أجابها السيد الجالس على الكنبة.

ـ الوقت دائماً متأخر في نظر هذين السيدين. قالت غروشنكا بصوت حاد

وقد نفد صبرها، وكل شيء مستحيل في نظر هذين السيدين. إنهما لا يجيدان إلّا الضجر، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة. إنهما، إلى أن جئت يا ميتيا، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت، متخذين هيئة التعالي تجاهي.

فهتف «السيد» الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية:

ـ إلهتي! ما قلته صحيح تماماً. لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة وغير راضية.

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل:

ـ أنا مستعد.

ـ افتح اللعب يا سيدي. أجابه ميتيا.

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها ورقتين بمئتي روبل ووضعهما على الطاولة. وقال:

ـ أريد يا سيدي أن أخسر مالاً كثيراً معك. خذ الورق، وكن أنت الخازن.

ـ يجب أن نلعب بورق صاحب النُّزل. قال «السيد» القصير بلهجة جادّة مشدداً كلماته.

ـ ذلك أفضل حقاً! قال السيد فروبلفسكي موافقاً.

ـ تفضّلون ورق صاحب النُّزل؟ قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما. حسناً أيها السادة! سنأخذ ورق صاحب النُّزل. أنتم على حق.

وقال يأمر صاحب النُّزل:

ـ هات ورقاً.

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمَّعن، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد لحظة، ولكن العربة التي تحمل المؤن قد تأخرت. فنهض ميتيا فجأة، وأسرع إلى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة. لم يكن في الغرفة إلّا ثلاث بنات.

ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد. وكان ميتيا لا يعرف في الواقع ما هي الإجراءات التي كان عليه أن يتخذها، حتى لقد تساءل ماذا جاء يعمل في هذه الغرفة. ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذي يحتوي السكاكر، وأن يوزَّع على البنات كارامل. وأضاف يقول مستعجلاً: «وقدِّموا فودكا لأندره لأنني جرحت شعوره منذ قليل». وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضع يده على كتفه، فالتفت فرأى ماكسيموف الذي كان قد تبعه إلى الغرفة.

ـ هل تستطيع أن تسلفني خمسة روبلات؟ همس الملَّاك يقول له إنني أحب أن ألعب أيضاً! هيء هيء!

ـ رائع! عظيم! خذ هذه الروبلات العشرة! إليك عشرة روبلات!

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات، وقال له:

ـ وما عليك إذا خسرتها إلّا أن تطلب المزيد. سأعطيك غيرها أيضاً...

ـ هذا يدبر أمري! همس ماكسيموف فرحاً.

وأسرع يعود إلى القاعة الأخرى.

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به، واعتذر للجمع عن تغيُّبه. وكان البولنديان، الجالسان الآن إلى الطاولة، قد فضّا الورق قبل وصوله. وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف. وها هو «السيد» القصير، الذي أشعل غليوناً جديداً، يستعد لخلط الورق بوقار. صاح فروبلفسكي يقول:

ـ مكانكم يا سادتي!

فقال كالغانوف:

ـ أنا لن ألعب. فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلاً.

ـ إن سيدي لم يحالفه الحظ في المرة السابقة قال السيد ذو الغليون. ولكن قد يتدارك الآن ما فاته...

ـ كم الخزنة؟ سأل ميتيا متحمساً.

ـ يمكن أن تكون مئة روبل، ويمكن أن تكون مئتين، فذلك متوقف على المبلغ الذي تضعه.

ـ مليون! قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكي؟

ـ أي بودفيزوكي؟

ـ حدث في ذات مساء في فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال الموضوعة عند الخازن. فأقبل بودفيزوكي، فرأى ألوف القطع الذهبية، فوضع مبلغاً. سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف. فقال بودفيزوكي: «بل اعتماداً على عهد الشرف»، فقال الخازن «حسناً»، وقطع، فلمَّ بودفيزوكي القطع الذهبية. فإذا بالخازن يقول له: «لحظة أيها السيد». وفتح الدرج وناول بودفيزوكي مليوناً وهو يقول له: «خذ. هذا ما ربحته. لقد كانت الخزنة مليوناً. قال بودفيزوكي متردداً: «كنت أجهل هذا»، فقال له الخازن: «يا سيد بودفيزوكي، أنت لعبت بالاعتماد على عهد الشرف. وأنا كذلك، فأخذ بودفيزوكي المليون ودسَّه في جيبه.

ـ هذا غير صحيح! هتف كالغانوف.

فقال السيد ذو الغليون، يخاطبه باللغة البولندية:

ـ يا سيد كالغانوف، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس محترمين!

ـ لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو! صاح ميتيا. ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فاستدرك يقول:

ـ معذرة يا سيدي! أنا أخطىء من جديد! إن البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة، تنفيذاً لعهد الشرف، صوناً للشرف البولندي! أنا أسلم بهذا! أرى أنني سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر! ها ها ها! أضع عشرة روبلات على الأعرج (الفاليه).

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام):

ـ وأنا أقامر بروبل صغير على البنت، البنت الجميلة، البنت البستونية، على «الست»، ها. ها.

قال ماكسيموف ذلك واقترب من الطاولة اقتراباً شديداً، كأنه يريد أن يخفي ما سيفعله، ورسم تحت الطاولة إشارة الصليب.

ربح ميتيا، وربح الروبل الصغير أيضاً.

ـ أضاعف. صاح ميتيا.

ـ وأنا ألعب مرة أخرى بروبل، روبل فقط، روبل طيب، روبل شهم صغير! تمتم ماكسيموف بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل.

ـ خسرت! أضاعف حطتي على السبعة. صرخ ميتيا.

وخسرت السبعة أيضاً.

ـ كفوا عن اللعب. قال كالغانوف فجأة.

ـ أضاعف قال ميتيا دون أن يضطرب.

وظل ميتيا يضاعف، وظل يخسر في كل مرة، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يضعها ماكسيموف استمرت تربح.

ـ أضاعف أيضاً. صرخ ميتيا حانقاً.

ـ فقال له «السيد» ذو الغليون:

ـ خسرت حتى الآن مئتي روبل. فهل تريد أن تقامر بمئتي روبل دفعةً واحدة؟

ـ كيف؟ مئتي روبل؟ لا بأس! أضاعف مع ذلك! ألعب بمئتي روبل دفعةً واحدة!

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمئتي روبل، وهمَّ أن يلقيهما على البنت (الدام)، فإذا بكالغانوف يضع يده عليها فيغطيها. قال كالغانوف صائحاً بصوت رنان:

ـ يكفي هذا!

ـ ماذا بك؟ سأله ميتيا وهو ينظر إليه مندهشاً.

ـ يكفي هذا. لن أدعك تستمر.

ـ لماذا؟

ـ هكذا! دعهما وامض. هذا أفضل. صدقني. سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب.

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم.

وتدخلت غروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها:

ـ اترك اللعب يا ميتيا. ربما كان على حق. ثم إنك قد خسرت ما فيه الكفاية.

قلق «السيد» القصير فقال يخاطب كالغانوف بالبولندية وهو يحدِّق إليه بقساوة.

ـ أتراك تمزح؟

ـ كيف تجرؤ أن... صرخ «السيد» الطويل يقول لكالغانوف بصوت راعد!

ـ لا أسمح بالصراخ هنا. صاحت غروشنكا. لكأنكم ديكة حانقة!

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد آخر. وفجأة لفت انتباهه في هيئة غروشنكا تعبير غريب. وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة.

بدأ «السيد» القصير يتكلم فقال وقد احمرَّ وجهه غضباً:

ـ سيدتي... أغريبينا.

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه. فاقترب منه، ووضع يده على كتفه وقال له:

ـ كلمتين أيها السيد النبيل!

فسأله هذا بالبولندية:

ـ ماذا تريد؟

ـ تعال معي إلى الغرفة المجاورة. أجابه ميتيا. أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً. سترى أن ما سأقوله لك يرضيك.

بدت الدهشة على «السيد» القصير، ونظر إلى ميتيا في خشية. ومع ذلك رضي أن يتبعه، ولكنه اشترط أن يصحبه «السيد» فروبلفسكي.

ـ حارسك؟ فليأتِ هو أيضاً... هتف ميتيا ثم إن حضوره ضروري. هيا بنا أيها السيدان!

ـ إلى أين تذهبون؟ سألته غروشنكا قلقة.

ـ سنعود بعد لحظة أجابها ميتيا، بثقة غير متوقعة، وبجرأة وحزم لم يعتدهما.

إن تعبير وجهه الآن يختلف عن تعبير وجهه ساعة وصوله. قاد ميتيا الرجلين البولنديين إلى غرفة تقع على اليمين، ليست هي الغرفة التي كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها الطاولة للقاصفين، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد. وكان في الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة. جلس «السيد» ذو الغليون وميتيا متقابلين، ووقف «السيد» العملاق فروبلفسكي في جانب، واضعاً يديه وراء ظهره. إن الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية في معرفة ما يريد أن يقوله.

تمتم «السيد» ذو الغليون يقول بالبولندية:

ـ ما الخدمة التي يمكنني أن أقدمها لك؟

ـ اسمع أيها السيد. لن أراوغ. خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية)، خذ المال. هل تريد ثلاثة آلاف روبل؟ خذها وانصرف!

حدَّق «السيد» إلى ميتيا بنظرة فاحصة، مغرقاً عينيه في عينيه. وسأله بالبولندية:

ـ ثلاثة آلاف روبل أيها السيد؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكي نظرة خاطفة.

ـ نعم، ثلاثة آلاف! قال له ميتيا اسمع أيها السيد: إنني ألاحظ أنك رجل عاقل. خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا، ولكن لا تنسَ أن تصطحب صاحبك فروبلفسكي، هل فهمت؟ لكنني أشترط أن تذهب فوراً، في هذه الدقيقة نفسها، وإلى الأبد، إلى الأبد، فهمت؟ تخرج من هذا الباب، هل ترى؟ ماذا تركت في الغرفة الأخرى؟ معطفاً؟ فراءً؟ سأجيئك به. وسآمر بإعداد عربة ترويكا لك فوراً. وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد. ما رأيك؟

كان ميتيا ينتظر الجواب بثقة. كان لا يراوده شك في أن الرجل سيقبل هذا العرض. واتخذ وجه «السيد» ذي الغليون هيئة تنم عن العزم والتصميم. وقال يسأل ميتيا:

ـ أين المال يا سيدي؟

ـ إليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال: أدفع لك الآن خمسمئة روبل سلفةً ونفقات سفر. أما الباقي، وهو ألفان وخمسمئة، فسأدفعه لك غداً في المدينة، أقسم لك بشرفي. سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض إذا لزم ذلك! (هكذا صاح ميتيا).

تبادل البولندیان النظر. وأصبح وجه «السيد» ذي الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل. قال ميتيا:

ـ بل أعطيك سبعمئة، سبعمئة روبل، لا خمسمئة، كدفعة أولى. أعطيكها حالاً، في هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذي لاحظ أن الأمور أخذت تجري بشكل لا يبعث على الأمل). ما بك أيها السيد؟ ألا تصدِّقني؟

لا أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال. ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً... ثم إنني لا أحمل الآن هذا المبلغ، وإنما هو مخبأ في منزلي بالمدينة. تمتم يقول إيليوشا الذي كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة، والذي أصبح يرتجف منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق، أقسم لك أن هذا المال في منزلي، مخبأ...

وفي لحظة قصيرة، اجتاح وجهَ «السيد» ذي الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة، فسأل ميتيا في سخرية (باللغة البولندية):

ـ أهذا كل ما تريده؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة.

وبصق فروبلفسكي أيضاً.

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه، وأدرك أن كل شيء قد ضاع، قال:

ـ أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب غروشنكا مبلغاً أكبر! إنكما كلاكما لمضحكان!

فقال «السيد» ذو الغليون، وقد احمر وجهه (قال باللغة البولندية أيضاً):

ـ إنك تهينني إلى أقصى حدود الإهانة. ثم أسرع يتجه نحو الباب، في هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام. وسار فروبلفسكي وراءه متمايلاً. وتبعهما ميتيا مضطرباً حائراً وقد أسقط في يده. كان يخشى غضب غروشنكا، لأنه أوجس أن البولندي سيفضح الأمر. وذلك ما حدث فعلاً. فقد دخل «السيد» ذو الغليون القاعة، فوقف أمام غروشنكا وقفة مسرحية، وصاح قائلاً لها باللغة البولندية:

ـ لقد أُهنت إلى أقصى حدود الإهانة.

فإذا بغروشنكا تصيح في وجهه غاضبة مسعورة باللغة الروسية: تكلم باللغة الروسية! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة! لقد كنت

تعرف الروسية في الماضي، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها في خمس سنوات!

وكانت غروشنكا محمرَّة الوجه غضباً.

ـ سيدتي أغريبينا...

ـ اسمي أغرافينا... أنا غروشنكا... تكلم بالروسية إذا كنت تريد أن أسمع لك!

جُرحت كبرياء «السيد»، فاحمر وجهه، وأسرع يقول في تنفخ متعمداً تشويه الكلمات:

ـ أيتها السيدة أغرافينا! لقد جئت وأنا أنوي أن أنسى الماضي وأن أسامح، جئت وأنا أنوي محو ما حدث حتى هذا اليوم...

ـ جئت لماذا؟ لتسامح؟ أتريد أن تغفر لي أنا؟ قاطعته غروشنكا وهي تقفز من مكانها.

ـ نعم يا سيدتي، كنت أريد أن أغفر لك. إن لي نفساً رحبة وقلباً سمحاً. ولكن سلوك أصدقائك قد أدهشني. فمنذ هنيهة، في الغرفة المجاورة، أراد «السيد» ميتيا أن يعطيني ثلاثة آلاف روبل لأسافر. فبصقت في وجهه.

ـ ماذا؟ صرخت غروشنكا تسأله بصوت حاد هل تجرأ أن يقدم لك مالاً من أجلي؟ أصحيح هذا يا ميتيا؟ كيف تجرأت؟ هل أنا امرأة تباع؟

قال ميتيا في أنين:

ـ أيها السيد، أيها السيد، إنها طاهرة كملاك، ولم أكن خليلها في يوم من الأيام. لقد كذبت في هذا الأمر...

ـ كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه؟ زأرت غروشنكا لئن حافظتُ على طهارتي، فإنني لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة، بل ليكون من حقي أن أصرخ في وجه هذا الرجل حين ألقاه: أنت شقي! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذي عرضته عليه؟

فصاح ميتيا يقول:

ـ رفض؟ إنه لم يرفض. لقد رضي. ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمئة روبل.

ـ اتضح الآن كل شيء. قالت غروشنكا: لقد علم أنني أملك مالاً، فأراد أن يتزوجني!

صرخ «السيد» يقول:

ـ يا سيدة أغريبينا، أنا فارس، أنا بولندي نبيل، ولست شقياً. لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لي، ولكنني أرى الآن أمامي امرأة تختلف كلياً عن المرأة التي عرفتها، أرى أمامي الآن امرأة راكبةً رأسها...

ـ اذهب! صرخت غروشنكا وقد خرجت عن طورها: عد من حيث جئت! سآمر بطردك، ورميك خارجاً! ما كان أشد بلاهتي حين عذبت نفسي خلال هذه السنوات الخمس بسببه!، إنني لم أعذب نفسي هذا التعذيب بسببه، وإنما عذبت نفسي غضباً! ليس هذا هو الرجل الذي أحببته! أوه! إنه لم يكن هكذا! ليس هذا الرجل هو من أحببت! أغلب الظن أنه أبوه! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة؟ لقد كان ذاك صقراً، أما هذا فدجاجة مبتلة! كان ذاك يضحكني وينشدني الأغاني... ما كان أغباني إذ بقيت أبكي طوال خمس سنوات، وما كان أحطني، وما كان أجبنني!

وتهالكت على مقعدها من جديد، وغطت وجهها بيديها. وفي تلك اللحظة، ترجعت في الغرفة التي تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتي اجتمع شملهن أخيراً. لقد أخذن يغنين رقصة شيطانية.

ـ هذا محل دعارة! صاح فروبلفسكي فجأة: يا سيّد، اطرد هؤلاء النساء الخليعات!

كان صاحب النُّزُل يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين إلى آخر،

فلما سمع الصراخ أدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون فأسرع إليهم. وقال يسأل فروبلفسكي بلهجة فظة:

ـ أنت! ما لك تصرخ هذا الصراخ بحلقك العريض كله؟

فزأر «السيد» فروبلفسكي يقول له:

ـ أنت وغد!

ـ وغد؟ أنا وغد؟ هلّا قلت لي بأي ورق لعبت منذ قليل؟ لقد جئتك بحزمة مختومة، فأخفيتها، ولعبت بورق مغشوش! هل تعلم أنني أستطيع أن أرسلك إلى سيبيريا بسبب هذا الغش؟ إن اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة... اقترب صاحب النُّزُل من الكنبة، وأدخل يده بين الوسادة والظهر، فسحب حزمة الورق المختومة، وقال:

ـ هذا ورقي، لم يمسَّ!

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهرها لجميع الحضور، وهو يقول:

ـ لقد رأيته من زاويتي لحظة دسَّ هذه الحزمة في الشق، وأحل محلها ورقاً من عنده! أنت غشاش يا «سيد»...

ـ وأنا فاجأت «السيد» يغش مرتين. قال عندئذ كالغانوف.

صاحت غروشنكا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

ـ يا للعار! آه... يا للعار!... رباه! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل إلى هذا الحد؟

وكانت غروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل.

قال ميتيا:

ـ لقد اشتبهت في أنهما يغشان!

فما إن نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت «السيد» فروبلفسكي إلى غروشنكا مغتاظاً، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها:

ـ مومس!

ولكن ميتيا انقضّ عليه في تلك اللحظة نفسها، فأمسك بجسمه كله، ورفعه، ونقله بلمحة بصر إلى الغرفة التي تقع إلى اليمين، الغرفة التي قادهما إليها منذ لحظات. وسرعان ما عاد إلى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال، فقال:

ـ رميته على الأرض! المسكين يتخبط، ولكنه لن يسارع إلى الرجوع.

وأغلق ميتيا أحد مصراعي الباب، وترك المصراع الثاني مفتوحاً، واتجه إلى «السيد» ذي الغليون يسأله:

ـ هل تتنازل، أيها السيد النبيل، فتلحق بصاحبك؟ (معذرة!).

فهتف تريفون بوريستش يقول:

ـ ولكن يا ديمتري فيودوروفتش، استرجع منه المال الذي خسرته في اللعب، على الأقل... لقد سرقاك!

ـ أنا أترك لهما روبلاتي الخمسين! قال كالغانوف.

فصاح ميتيا:

ـ وأنا أتنازل عن روبلاتي المئتين! صاح ميتيا لن أستردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما!

ـ مرحى ميتيا برافو.

صاحت غروشنكا بصوت فيه شيء من الشر.

فاتجه «السيد» ذو الغليون نحو الباب، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته. ومع ذلك فإنه قبل أن يخرج من القاعة، التفت نحو غروشنكا وقال لها (بالبولندية):

ـ سيدتي، إذا كنت تريدين أن تتبعيني، فتعالي! وإلّا فوداعاً!

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً.

ذلك إنسان لا يهزه شيء. فإنه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه «السيدة»، لأنه يقدِّر نفسه قدراً عظيماً.

أغلقت غروشنكا الباب عليهما.

ـ أَقفلي الباب عليهما بالمفتاح. قال لها كالغانوف ناصحاً.

ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة. لقد سارعا إلى إقفال الباب من الداخل.

عظيم! ذلك كلَّ ما كانا يستحقانه! صاحت غروشنكا بلهجة حاقدة.

# VII

## الهذيان

وبعد ذلك، حصل ما يشبه حفلة مجون واحتفال بالعودة إلى الحياة وكانت غروشنكا أول المطالبين بالخمر: «أريد أن أشرب، أريد أن أسكر كالمرة السابقة، هل تتذكر يا ميتيا، هل تتذكر كيف تعارفنا»؟ وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان، لأنه كان يستشعر «سعادته». وكانت غروشنكا، مع ذلك، تشجعه باستمرار، قائلةً له: «اذهب إليهم، سرِّ عن نفسك، مُرْهم بأن يرقصوا، ليمرح الجميع. أريد قصفاً حاراً، كالمرة السابقة، كالمرة السابقة تماماً». كانت في حالة هياج رهيبة. وكان ميتيا يسرع لاتخاذ الاجراءات الضرورية. تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة. إن هذه الغرفة التي تجمعوا فيها صغيرة جداً، تقسمها إلى قسمين ستارةٌ من نسيج هندي تخفي وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف كبير فوقه كدسة من وسائد. وإن في سائر الغرف الأربع الأخرى «النظيفة» أسرّة على كل حال. استقرت غروشنكا أمام الباب، حيث أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه. ذلك هو المكان الذي شغلته «في ذلك اليوم»، أثناء احتفالها الأول في الليل، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء. إن البنات اللواتي اشتركن في ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن. ولم يلبث اليهود

أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان. وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التي طال انتظارها قد وصلت هي أيضاً تحمل المؤن.

كان ميتيا مضطرباً. وكان بعض الغرباء يدخلون القاعة ليروا الفلاحات والفلاحين الذين استيقظوا من نومهم متوقعين وليمة ما، كالمرة السابقة. كان ميتيا يحيي ويعانق الذين يعرفهم والذين عادوا، ويفتح الزجاجات، ويقدم الشراب لكل قادم. والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك، ويفضلون «البنش» خصوصاً. أصدر ميتيا أوامره بإعداد شوكولاتة للبنات، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلي ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش. يجب أن يكون هنالك شراب للجميع. يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه. الخلاصة: قامت الدنيا وقعدت، وأخذ الناس يشربون في فوضى لا يلجمهم شيء. ولكن ميتيا كان يشعر في هذا السديم المضطرب بارتياح، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف في هذه السهرة. فلو خطر ببال أول فلاح قادم أن يطلب منه مالاً في تلك اللحظة، إذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزَّع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عدّ. ولعل هذا هو السبب الذي جعل صاحب النزل لا يكف عن الدوران حوله لحمايته في أغلب الظن. وقد قرَّر تريفون بوريستش أن لا ينام في هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه إلّا قليلاً جداً (اكتفى بكأس بنش واحد)، ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بكثير من الانتباه، ولو على طريقته الخاصة؛ فهو يتدخل متى لزم الأمر، بلهجة «متعاذبة»، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدِّم للفلاحين الجفاة سيجاراً وملبساً «كما فعل في المرة الماضية»، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خصوصاً، لا سمح الله! كان يسوؤه أن يرى البنات يشربن خموراً ويقضمن ملبَّساً، فيقول: «وسخات! وسخات! لأطردهن ركلاً بالقدمين،

ولأحملهن على أن يشكرن لي هذا الشرف. ذلك ما هن به جديرات!». وتذكر ميتيا الحوذي أندره مجدداً، فأرسل إليه شيئاً من البنش. وكان يردد بصوت ضعيف دامع: «لقد أسأت إليه منذ قليل». ورفض كالغانوف في أول الأمر أن يشرب، ولم ترضه جوقة البنات. ولكن مرحه اشتد بشكل جنوني بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا، فكان يسير في الغرفة ضاحكاً مُطرياً كل شيء، الأغاني والموسيقى. وكان ماكسيموف الذي بلغ أوج السكر والغبطة، لا يتركه لحظة واحدة. وكانت غروشنكا، التي ثملت قليلاً هي أيضاً، ما تنفك تقول لميتيا وهي تومىء إلى كالغانوف «ما ألطفه فتى! ما أعذبه!»، فكان ميتيا يسرع عندئذ إلى كالغانوف فيعانقه بحماسة؛ وكان يقبِّل ماكسيموف في هذه المناسبة. آه... ما كان أعظم السعادة التي يوجس ميتيا أنه سينالها! صحيح أن غروشنكا لم تكن قد وعدته بشيء بعد، وأنها كانت تبدو راغبة في تجنب أي تفسير الآن، ولكنها كانت تنظر إليه خلسةً من حين إلى آخر وقد فاضت عيناها حناناً. وها هي تمسك يده فجأة، فتجذبه إليها بقوة، وتقول له وهي جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت في أول الاحتفال:

ـ كان مظهرك غريباً حين دخلت علينا منذ قليل! أوه! لقد خفت عندئذ خوفاً شديداً. كيف خطر ببالك أن تتنازل عني لذلك الرجل؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً؟

ـ لم أشأ أن أفسد سعادتك. تمتم ميتيا وقد طاش عقله من فرط السعادة.

ولكن غروشنكا لم تصغِ إلى جوابه. وصرفته عنها مجدداً قائلة له:

ـ اذهب، اذهب، سرِّ عن نفسك لاهياً معهم. ولا تبكِ، فسأناديك بعد قليل.

انصرف، واستأنفت غروشنكا تأمُّل الرقصات والإصغاء إلى الأغنيات. فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فأسرع إليها. قالت: ـ اجلس إلى

جانبي الآن، وقصَّ عليَّ كيف عرفت أمس أنني هنا، مَنْ أولُ من قال لك ذلك؟

بدأ ميتيا يقص عليها بحرارة، ولكن بفوضى، فليس في سرده تسلسل. والشيء الغريب أنه كان في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه.

ـ ما بك؟ قالت له غروشنكا.

فأجابها:

ـ لا شيء. لقد تركت في المدينة مريضاً. أرجو أن يشفى. إني أعطي من عمري عشرة أعوام في سبيل أن يشفى!

ـ لا تفكر بعد الآن في ذلك المريض. قل لي: هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر أيها الأحمق؟ لماذا؟ ثم تمتمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً.

ـ أحب أمثالك، المجانين قليلاً. هل أنت مستعد لأن تجازف بكل شيء في سبيلي؟ هل كان في نيتك أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزي الطيب الأبله؟ ألا فاعلم أن من الأفضل لك أن تنتظر. قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة... لا اليوم! لا شك أنك تؤْثر أن أقولها لك اليوم؟ لا، لا أريد أن أقولها اليوم... اذهب، اذهب الآن، وامرح.

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة، وسألته:

ـ هل أنت حزين؟ إنني ألاحظ أنك حزين...

وسدَّدت إليه نظرة نافذة، وأردفت تقول: نعم، ألاحظ ذلك واضحاً. مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فإنني أعرف أن هناك شيئاً يعذبك، كن فرحاً! أريد ذلك! أنا فرحة، فعليك أن تفرح أنت أيضاً... تصور أنني أحب أحداً هنا... أوه! انظر إليه! لقد غفا فتاي الصغير، إنه ثمل، عزيزي!

كانت تعني كالغانوف. لقد غفا كالغانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول. على أن الخمر وحدها لم تكن لتكفي أن تغرقه في النوم. وإنما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال، دون سبب معيَّن،

وذلك ما عبَّر عنه بقوله إنه «ضجر». وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء، وكذلك كان شأن الرقصات: لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا كدُبَّيْن، وأخذت ستيبانيد، وهي امرأة قوية الجسم خلية البال، «تعرضهما» وفي يدها هراوة، قائلةً في صراخ:

ـ بعنف يا ماري، وإلّا هويت عليك بالهراوة! وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل!

قالت غروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة: دعوهم يلهون على هواهم، ذلك من حقهم مرة. إن هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً، فليتهزوها!

وكان كالغانوف ينظر إلى المشهد شاعراً بأنه اتسخ؛ وابتعد وهو يقول: ما أكثر الابتذال في هذا الفرح الشعبي! أهكذا يتسلّى هؤلاء الذين يعيشون في قلب الطبيعة؟

وكانت قد آذته أغنية «جديدة» ايذاءً خاصاً. هي أغنية تتردد فيها لازمة تُمثَّل بإيماء وتُرقص على إيقاع جريء؛ وهي تروي قصة السيد روسي مسافر يسبي قلوب البنات.

سأل البنات.

هل تحببنني نعم أم لا؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً.

سيضربني السيّد.

ولن أحبه.

واتفق أن مرّ عندئذ غجري:

سأل الغجري البنات:

هل تحببنني أيتها البنات؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من السيد الروسي:

سيكون الغجري لصاً

أما أنا فسأبكي.

ومرَّ رجال آخرون كثيرون، حتى لقد مرَّ جندي:

سأل الجندي البنات:

أتحببنني أيتها البنات أم لا؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار:

سيهزم الجندي

أما أنا فسوف...

وكان البيت الثاني بذيئاً جداً، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً، فتثير في الجمهور حماسة عظيمة. وتقدم أخيراً تاجر:

سأل التاجر البنات:

أتحببنني، أيتها البنات أم لا؟

وهنا تبين أن البنات أحببنه، لأن:

التاجر سيجني ثروة كبيرة

ويجعلنا أميرات.

غضب كالغانوف فصاح بصوت عالٍ:

ـ هذه أغنية حديثة جداً. تُرى من مؤلفها؟ ليس ينقصها في الواقع إلّا متعهدو سكك حديد ويهود. فلو وجدوا لأحرزوا النصر!

وكان كالغانوف كمن أُهين تقريباً، وقال فجأة إنه ضجر، استلقى على الكنبة وسرعان ما غفا. وهذا وجهه الصغير الجميل، الشاحب قليلاً، ينزلق على الوسادة قليلاً.

ـ أنظر ما ألطفه! قالت غروشنكا وهي تجذب ميتيا إليها. كنت منذ قليل أسلِّي نفسي بمداعبة شعره. إن شعره غزير، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومة...

ومالت غروشنكا على كالغانوف في حنان، وقبلت جبينه. ففتح كالغانوف عينيه فجأة، ونظر إليها، ثم نهض نصف نهوض، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال:

ـ أين ماكسيموف؟

ـ انظروا عمَّن يسأل! قالت غروشنكا ضاحكة: ماكسيموف هو الذي يعوزه! هلَّا بقيت معي بضع لحظات! يا ميتيا، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به.

كان ماكسيموف لا يترك البنات، ولا يبتعد عنهن من حين إلى آخر إلّا ليملأ كأساً من الخمر. وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاتة. وتلوَّن خداه، واصطبغ أنفه بحمرة قانية، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله في عاطفة وحنان. وسرعان ما أخذ ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على «لحنِ موسيقي معروف». وقال شارحاً:

ـ لقد علموني في طفولتي هذه الرقصات الراقية الرفيعة...

فهتف كالغانوف، مبعداً الفرصة التي عرضتها له غروشنكا وهي أن ينفرد بها:

ـ سأمضي أنا أيضاً. إنني أريد أن أراه عن كثب حتماً.

وتبعوا ماكسيموف. وعرض هذا الأخير رقصته، فلم تثر حماسة أحد إلّا ميتيا. هي رقصة قوامها قفزات وتلوِّيات، ورفع السيقان إلى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة.

مطَّ كالغانوف شفتيه استياءً، ولكن ميتيا أغرقه بالقبلات.

ـ شكراً لك يا صاحبي. لقد تعبت. هل تريد السكاكر؟ أتريد واحدة؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً؟

ـ بل سيجارة صغيرة.

ـ ألا تريد أن تشرب شيئاً؟

ـ شربت خموراً... أليس عندكم سكاكر بالشوكولاته؟

ـ ما أكثر ما عندنا منها على المائدة. اختر ما يحلو لك يا عزيزي!

ـ لا هذه، أريدها سكاكر بالونيلة... أريد سكاكر العجائز تلك! هئ هئ!...

ـ ليس عندنا منها يا أخي!...

ومال العجوز قصير القامة فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً:

ـ قل لي: أما من سبيل... أليس هناك وسيلة... أنظر إلى هذه البُنيَّة، إلى ماري اللطيفة هذه، هئ هئ، كم أود لو أتعرف إليها... إذا كنت ترى، بما لك من شهامة، أن الأمر ممكن...

ـ أوه! أوه! أرجو أن تكون مازحاً لا جاداً!

ـ لا أريد بها شراً...

قال ماكسيموف مفحَماً. فأجابه ميتيا:

ـ حسناً، حسناً، هنا يا أخي غناء ورقص، ذلك هو كل شيء. على كل حال... إذا كنت تحرص هذا الحرص كله... عجيب! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح. ألعلك في حاجة إلى مال؟

ـ ربما أحتاج إلى شيء من المال. أجابه ماكسيموف مبتسماً:

ـ حسناً، حسناً...

أحسَّ ميتيا كأن رأسه ينفجر. خرج إلى المدخل وصعد إلى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء. فأنعشه الهواء الندي. توقف في ركن مظلم، وحيداً، وضع رأسه بين يديه فجأة. إن خواطره المتبعثرة، وإحساساته الغامضة المبهمة، قد تركزت الآن وتوضحت، فخرج منها فجأة ضياء رهيب!

تساءل: «إذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه، في هذا الركن المظلم القذر ذاته؟» وبقي متردداً دقيقة طويلة. إنه منذ ساعات قليلة، حين كانت عربة الترويكا تقلُّه إلى موكرويه، كان قد خلَّف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك! كان اتخاذ هذا القرار أسهل منه الآن، أسهل كثيراً! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً: كان قد فقد تلك المرأة، قد تنازل عنها... أصبحت لا وجود لها. وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه يسيراً. لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدَر لا مردَّ له، لقضاء أعلى لا اعتراض عليه. ما كان بحاجة إلى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع؟ لم يكن قد بقي شيء يشده إلى هذا العالم. أما الآن فقد اختلفت الحال. إن احدى حلقات القَر، إن أحد أشباح الخوف، قد تبدد الآن دخاناً! إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده أو التنكر له، قد اختفى دون أن يخلِّف أثراً! إن ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً. لقد طُرد من الغرفة كطفل، وأقفل عليه الباب بالمفتاح! إنها تشعر بالعار من هذا الرجل؛ وقد تمكَّن ميتيا أن يقرأ في عينيها من الذي تحب في الواقع. الآن يمكن أن تكون الحياة جميلة، جميلة جداً... ولكن الحياة مستحيلة بعد ما حدث، مستحيلة! يا لها من لعنة! «اللهم ردَّ الحياة إلى ذلك الذي صرعتُه قرب السور! اللهم اجعل الكارثة تمر قربي دون أن تمسّني! اللهم إنك قد صنعت معجزات لأناس غيري كانوا مذنبين مثلي، فهب لي من عندك معجزة من تلك المعجزات! ولكن ماذا إذا كان العجوز لم يمت! سأمحو عندئذ عار الإثم الآخر، فأرد المال المسروق، أعيده إلى صاحبه، ولو اضطررت أن أمضي باحثاً عن المال تحت الأرض... لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار إلّا في

قرارة نفسي حيث سيعيش إلى الأبد. لا، لا، هذا مستحيل. هذه أحلام جبان، أحلام مستحيلة! يا للعنة!».

ومع ذلك ساوره بريق من أمل بعد هذه الأفكار، بريق ضعيف في ظلام الليل. انتزع نفسه من تأمُّله القاتم، وأسرع ينزل إلى غرف الطابق الأرضي، أسرع إليها من جديد، إلى تلك التي تحكم قلبه إلى الأبد. تساءل: «ألا تساوي ساعة واحدة من حبها، ألا تساوي دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً.» استولت هذه الفكرة على قلب ميتيا، قال يحدث نفسه: «انضم إليها، أراها هي وحدها، أسمعها، ولا أفكر في شيء آخر، أنسى كل شيء، ولو لليلة واحدة، لدقيقة واحدة، للحظة!». وفي اللحظة التي اجتاز فيها ممر المدخل، وهو لا يزال في الصالة، اصطدم بتريفون بوريستش. بدا له هذا الأخير حزيناً ومشغول البال، ويبدو أنه كان يبحث عنه.

ـ هل تبحث عني أنا يا بوريستش؟

ـ لا، ليس أنت. أجاب صاحب النُّزل. ثم لِمَ أبحث عنك؟ ولكن... أين كنت؟

ـ ما لي أراك متجهّم الوجه؟ أتراك غاضباً؟ اصبر علينا قليلاً، وسندعك تنام هادىء البال. كم الساعة الآن؟

ـ هي الثالثة أو أكثر.

ـ سننصرف.

ـ لا، لا... في وسعكم أن تبقَوا ما شئتم...

تساءل ميتيا وهو يسرع إلى الغرفة التي كانت ترقص فيها البنات: «ماذا حدث له؟». ولكن غروشنكا لم تكن هناك. لا، ولا كانت في الغرفة الزرقاء. وكان كالغانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً. ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر، فإذا هو يجدها هناك. كانت جالسةً في زاوية، على صندوق، مسندةً

رأسها ويديها إلى حافة السرير، تبكي بكاءً مراً، محاولة أن تخنق نشيجها، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه إليها. لمحت ميتيا، فأومأت إليه أن يقترب، وأمسكت يده، فضغطتها بيدها بقوة. وقالت هامسة:

ـ ميتيا، ميتيا، لقد أحببت هذا الرجل! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس! ترى هل أحببته أم كنت أحب حقدي؟ لا بل أحببته هو! نعم، هو، هو! أكذب إذا زعمت أنني ما أحببت إلّا حقدي! أواه يا ميتيا! لم يكن عمري حينذاك إلّا سبعة عشر عاماً، وكان يظهر لي كثيراً من اللطف والوداعة، وكان يغني لي أغنيات... أم تراه لم يظهر لي فاتناً إلى ذلك الحد إلّا لأنني كنت غبية، لا لأنني كنت طفلة؟... أما اليوم، رباه! إنه ليس هو، إنه ليس ذلك الرجل نفسه! لقد تغير وجهه أيضاً، فهو لا يشبهه أبداً. لم أعرفه حين رأيته أول وهلة. لقد كنت أتساءل طوال الطريق، وأنا قادمة إلى هنا مع تيموفي: «كيف أتصرف حين ألتقي به؟ ماذا أقول له؟ كيف ينظر كل منا إلى الآخر؟... وانهارت نفسي. لقد صب على رأسي دلواً من قاذورات. تكلم كما يتكلم معلم مدرسة. اتخذ أوضاع التعليم، واصطنع هيئة الوقار، وحدَّق إليّ فخرست! كيف حصل أنني لم أستطع أن أقول كلمة واحدة؟ هل تدري، أن زوجته هي التي حطمته، تلك التي من أجلها تركني عندما تزوجـها... لقد بدلته تبديلاً كاملاً... يا للعار يا ميتيا! إني لأشعر الآن بالعار مدى حياتي كلها! ملعونة هي تلك السنوات الخمس، ملعونة! وتدفقت دموعها من جديد، لكنها لم تترك يد ميتيا، بل ضغطت عليها بقوة.

ـ ميتيا، عزيزي، لا تذهب، انتظر لحظة (ثم تمتمت وهي ترفع إليه نظرها) سأقول لك كلمة صغيرة. اسمع. قل لي أنت: من هو الرجل الذي أحبه؟ إنني أحب رجلاً هنا. فمن هو ذلك الرجل؟ قل لي هذا أنت! وأضاءت ابتسامةٌ في وجهها المحتقن من الدموع والتمعت عيناها في الظلام. وتابعت تقول:

منذ قليل دخل صقر، فتوقف قلبي عن الخفقان. وقال لي قلبي: «أيتها الغبية، هذا هو، هذا هو الرجل الذي تحبين!» لقد دخلت أنت فاتضح لي كل شيء فجأة. تساءلت: «ولكن ممَّ هو خائف؟». إنك كنت خائفاً، ولشدة خوفك لم تستطع أن تتكلّم. قلت في سري: «ليس خائفاً منهم مع ذلك». أنت لا يمكن أن ترتعد أمام شخص آخر، إنني أعرف ذلك تماماً. وقلت لنفسي عندئذ: «إنه خائف مني، مني أنا وحدي»؛ إذ لا شك أن فينيا قد روت لك ـ أليس كذلك أيها الأحمق؟ ـ كيف أنني هتفت أقول لإيليوشا، من النافذة، إنني قد أحببت ميتيا مدة ساعة، وإنني ذاهبة الآن... لأحب رجلاً آخر! أوه! ميتيا، ميتيا، كيف أمكنني أن أصدق أنني أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك؟ ما كان أغباني! سامحني يا ميتيا؟ هل تسامحني؟ هل تحبني؟ هل تحبني؟

نهضت ووضعت يديها على كتفيه. أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة، فكان لا يزيد على أن ينظر إلى عينيها، ووجهها، وابتسامتها ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات.

ـ هل تسامحني لأنني عذبتك؟ لقد عذبتكم جميعاً، من شدّة غضبي وحسرتي! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبي... هل تتذكر كيف حطمت في منزلي كأساً، في ذات يوم، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة، فحطمت اليوم كأسي وأنا أشرب «نخب قلبي الجبان!». ميتيا، صقري، لماذا لا تقبّلني؟ لقد قبلتني مرةً ثم توقفت. إنك تنظر إليَّ... ما قيمة الاصغاء إليَّ؟ قبلني، بمزيد من القوة، بمزيد من القوة، هكذا، ما دمت تحبني!... سأكون بعد اليوم عبدة لك، مدى الحياة! ما أحلى أن أكون عبدة... قبلني أيضاً! اضربني! عذبني! افعل بي ما شئت... لأنني أستحق أن تعذبني... لا... انتظر! نؤجل هذا! لا أريد الآن. قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة. وأردفت

تقول: اذهب يا ميتيا، سأشرب الآن خمراً، أريد أن أسكر، وسأرقص بعد ذلك، أريد هذا، أريد هذا!

وتخلصت منه وغابت وراء الستائر. تبعها ميتيا. كان كالسكران. «ما قيمة ما سيحدث فيما بعد، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله». بهذا حدَّث ميتيا نفسه. شربت غروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت إلى رأسها. جلست على المقعد، في مكانها السابق، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وسعادة. احمرَّ خداها، التهبت شفتاها، زاغ نظرها. وفي عينيها الساطعتين، كان يُقرأ نداء محموم. كالغانوف نفسه اضطرب من ذلك، كأن شيئاً قد لسع قلبه، فاقترب منها.

ـ هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً. أوه! أحس أنني سكرى... وأنت؟ ألم تسكر؟ لماذا لا يشرب ميتيا؟ ميتيا، يجب أن تشرب! أنا شربت وأنت لا تشرب...

ـ أنا سكران! سكران بك... ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضاً.

وأفرغ ميتيا في فمه كأساً أخرى، فإذا بهذه الكأس الأخيرة تفجِّر السكر فيه دفعةً واحدة، بينما الكؤوس السابقة لم تُحدث أثراً. شيء غريب! بدأ كل شيء يدور في رأسه منذ تلك اللحظة، فكأنه في حالة هذيان. إنه الآن يمشي، ويضحك، ويكلم كل من يلقاه. وفي بعض اللحظات كانت تستيقظ في قلبه عاطفة حارة «تحرقه كجمرة» كما قال فيما بعد. وكان يقترب من غروشنكا، ويجلس إلى جانبها، وينظر إليها، ويستمع لكلامها... أما غروشنكا فقد أصبحت تتدفق في هذرها تدفقاً رهيباً؛ وهي تنادي الناس إليها، وتستدعي بنتاً من بنات الجوقة، حتى إذا اقتربت البنت منها أخذت تقبلها ورسمت عليها إشارة الصليب، حتى لتوشك أن تجهش باكية. وكان يفرحها ويضحكها «العجوز الصغير» على الأخصّ (هكذا كانت تسمي ماكسيموف) إنه يسرع

إليها في كل لحظة ليقبِّل يدها، لاثماً كل إصبع من أصابعها. وأخيراً، رقص رقصة أخرى على لحن قديم دندنه بصوته. رقص بحيوية خاصة على اللازمة التي كانت تتكرر:

الخنزير الصغير، كريو ـ كريو

العجل الصغير، مو ـ مو

البطة الصغيرة، قوا ـ قوا

الإوزة الصغيرة، غا ـ غا غا غا.

والدجاجة الصغيرة تركن في الغرفة

منادية صغارها: تيوريو ـ ريو ـ ريو

ـ هلَّا أعطيته شيئاً يا ميتيا! قالت غروشنكا: قدم له هدية لأنه فقير. أوه! رباه! يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً، يا لهؤلاء المذلِّين جميعاً؟... هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير! كلا، أقسم لك، أنني سأدخل الدير ذات يوم. لقد قال لي اليوم إيليوشا كلاماً لن أنساه ما حييت. أما الآن فلنرقص! غداً الدير، أما اليوم فلنرقص! أود أن أقوم بأعمال جنونية! ولسوف يغفر لي الرب. أي ضير في أن نمرح أيها الناس الطيبون؟ لو كنت أنا الله، لغفرت لجميع الناس، ولقلت لهم: «يا أعزائي الخاطئين، قد عفوت عنكم اليوم.». ولسوف أمضي أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم: «أيها الناس الطيبون، اغفروا لامرأة مسكينة غبية!». ذلك ما سأقوله لهم. أنا وحش مفترس نعم. ولكنني أريد أن أصلِّي. لقد وهبت بصلة أنا أيضاً. إنني، أنا الشقية، أريد أن أصلِّي! دعهم يرقصون يا ميتيا، لا تعكر سعادتهم! جميع الناس طيبون، جميعهم بغير استثناء! آه! ما أجمل أن يعيش المرء في هذا العالم! نحن شريرون، ولكن الحياة جميلة جداً... فينا الخير والشر، الخير والشر في آن... قولوا لي أنتم جميعاً! يجب أن أسألكم هذا السؤال! اقتربوا وقولوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟

إنني طيبة فعلاً، فقولوا لي، اشرحوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟ بهذا الكلام كانت غروشنكا تتمتم، مغرقة في الهذر المضطرب شيئاً بعد شيء، إلى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هي نفسها، ونهضت عن كرسيها مترنحة: ميتيا، امنعني من أن أشرب أكثر مما شربت. الخمر لا يؤدي إلى الهدوء. كل شيء يدور الآن أمامي، الغرفة والمدفأة! أريد أن أرقص... فلينظر الجميع، كيف أرقص. كم رقصي جميل، كم أشعر بالارتياح عندما أرقص.

كان قرارها جدياً: أخرجت منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق، وأمسكته من أحد أطرافه بيدها اليمنى لتلوِّح به أثناء الرقص. تحرّك ميتيا هنا وهناك. سكتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول إشارة. وحين علم ماكسيموف بأن غروشنكا سترقص، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته، وأخذ يتواثب أمامها، وطفق يدندن:

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران

ولكن ذيلها كالبوق.

أبعدته غروشنكا عنها بحركة من منديلها، قائلة:

ـ اسكت! لماذا لا يجيئون يا ميتيا؟ ليُسرعوا جميعاً... لرؤيتي. ناد الآخرين، ناد المحبوسين... لماذا حبستهما؟ قل لهما إنني أريد أن أرقص. فليجيئا هما أيضاً...

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح، مترنح الخطى من السكر، وراح يطرق الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين.

ـ هيه! أنتما... اخرجا! إنها سترقص وهي تناديكما.

فصاح أحد «السيدين» البولنديين يجيبه بالبولندية:

ـ (شقي)!

فأجابه ميتيا:

ـ وما أنت إلّا «شقي» حقير صغير! ذلك هو أنت!

قال كالغانوف وقد ثمل هو أيضاً، بلهجة تتكلف الوقار:

ـ هلا كففتم عن إهانة بولندا؟

ـ اسكت أيها الولد الصغير! إنني إذ وصفته بأنه شقي، لم أهن بولندا كلها، ليس أبناء بولندا كلهم تافهين مختالين. صمتاً أيها الطفل اللطيف، لسوف أعطيك حبَّة ملبَّس.

ـ يا للأشرار! أليس فيهم شيء من إنسانية؟ قالت غروشنكا بدهشة وهي تتقدم إلى أمام لترقص: لماذا يرفضون أن يتصالحوا؟

أنشدت الجوقة لحناً شعبياً. رفعت غروشنكا رأسها، وفتحت شفتيها، وابتسمت، ولوَّحت بمنديلها، ثم توقفت فجأة وهي تتمايل في وسط الغرفة، وتشعر بارتباك شديد. تأوّهت وهي تقول بصوت أليم:

ـ أحسُّ بوهن. معذرة. إنني تعبة منهكة... لا أستطيع... أوه.... هي غلطتي.

وحيَّت الجوقة، ثم حيَّت جميع الحضور وهي تلتفت إلى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة، وتردد قولها:

ـ لا تؤاخذوني... لا تؤاخذوني!

ـ أسرفت في الشراب، السيدة الشابة! قالت بعض الأصوات في الجمهور.. هي ثملة، السيدة اللطيفة...

ـ السيدة ثملة قليلاً. قال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً:

ـ ميتيا، خذني من هنا... تمتمت غروشنكا بصوت منطفىء: انقلني من هنا.

فأسرع ميتيا إليها، وتناولها بذراعيه، وأسرع يركض بحمله الثمين إلى ما وراء الستائر. قال كالغانوف لنفسه: «في هذه المرة، آن أوان الانصراف»،

وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه. وتتابع الاحتفال بصخب شديد. وضع ميتيا صاحبته غروشنكا على السرير، وقبلها قبلة محمومة على الفم. دمدمت تقول بصوت ضارع: لا تلمسني، لا تلمسني، أنا لست لك بعد... قلتُ إنني سأكون لك، ولكن لا تلمسني... إرأف بي، أشفق عليَّ... لا تفعل شيئاً الآن، بينما هم لا يزالون هنا. لا يجوز هذا... إنه هناك، على بعد خطوتين! هذا فظيع هنا...

ـ إنني أطيعك! قال ميتيا متعثراً في كلامه. لم يخطر ببالي هذا... أنا أمامك في نشوة. نعم، هذا فظيع هنا. يا للمكان الموبوء! ودون أن يدع عناقها، تهالك على ركبتيه، قرب السرير.

ـ أنا واثقة بك. أعرف أنك متوحش، ولكن نفسك نبيلة. قالت غروشنكا بصوت رخو: يجب أن يجري كل شيء بشرف بعد الآن... أريد أن يكون كل شيء شريفاً... وأن نكون شرفاء أيضاً، لا بهائم، بل بشراً طيبين طاهرين... خذني إلى مكان بعيد، بعيد جداً من هنا، هل تسمع؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا... أريد أن أسافر إلى مكان بعيد... بعيد جداً.

ـ نعم، سنسافر، سآخذك، سأطير بك!... قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها إلى صدره: إنني مستعد لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من سعادة، شرط أن أعرف ماذا جرى لذلك الدم!

ـ أيّ دم؟ سألته غروشنكا مندهشة.

ـ لا شيء. أجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه: إنك تريدين يا غروشنكا أن نكون شرفاء، ولكنني أنا لص. لقد سرقت مال كاتكا!... يا للعار! يا للعار!

ـ كاتكا؟ الآنسة؟ لا لم تسرق شيئاً! أرجع إليها مالها. خذ مالي أنا... ما بك؟ إن كل ما أملكه أنا هو الآن لك. ما حاجتنا إلى المال؟ سوف نبدده على كل حال في القصف واللهو. لا يعرف أمثالنا أن يحتفظوا بالمال. إنني أفضِّل

أن نحرث الأرض معاً. أريد أن أعمل في الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما. إن من واجبنا أن نعمل، هل تسمع؟ إيليوشا هو الذي شرح لي ذلك. لن أكون خليلتك، بل حليلتك، زوجتك الوفية، عبدتك المخلصة. سأتعب وأجهد في سبيلك. سوف نذهب إلى الآنسة، فننحني لها بتحية عظيمة حتى تسامحنا قبل رحيلنا. وإذا لم تسامح، فسنرحل مع ذلك. أما المال فسترده إليها. عليك أن تحبني أنا... لا أريد أن تحبها هي! أنا أمنعك من أن تحبها وإلّا فأخنقها... أفقأ عينيها بالإبر....

ـ أنت من أحب، أنت وحدك، وسأظل أحبك من آخر سيبيريا...

ـ لماذا تتكلم على سيبيريا؟ لا بأس! سنسافر إلى سيبيريا إذا كنت ترغب في ذلك... إن في وسعنا أن نعمل هناك كما في أي مكان آخر. إن في تلك البلاد ثلجاً كثيراً... وأنا أعشق الثلج...، وأعشق الزلاجات التي تنزلق عليه سريعة مجلجلةً أجراسُها... هل تسمع؟ لكأن جرساً يرن في مكان ما... من أين يأتي رنين هذا الجرس لا شك أن بعض المسافرين قد وصلوا... انقطع الصوت الآن.

وأغمضت عينيها، منهكة القوى إلى أقصى الحدود، وغفت بضع لحظات. كان جرس قد رنَّ فعلاً في البعيد ثم صمت. مال ميتيا برأسه على صدرها. لم يكن قد انتبه إلى صوت الجرس وإلى انقطاع رنينه فجأة؛ ولم يلاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب الذي كان يملأ النُّزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محلَّه فجأة صمت كصمت الموت. وفتحت غروشنكا عينيها بعد دقيقة.

ـ ماذا يجري؟ نمت؟ نعم... ذلك الجرس... لقد نمت وحلمت بأنني محمولة على زلاجة فوق الثلج. كان الجرس يرنّ، وكنت أنا نائمة. كنت راكبة عربة ترويكا، مع رجل عزيز في قلبي، معك أنت. وكنا ذاهبين إلى مكان بعيد،

بعيد جداً. وكنت أقبلك، وأشد جسمي إلى جسمك، وكان الثلج يسطعُ. ما كان أجمله من إحساس! كأنه لم يكن على الأرض... واستيقظت، فإذا أنا أراك، يا حبيبي، قريباً مني ما أجمل هذا!

ـ نعم، قريباً منك ردَّد ميتيا كلامها وهو يلثم ثوبها وصدرها ويديها. وأحس فجأة بإحساس غريب: خيِّل إليه أنها تنظر إلى أمام، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجـهه، تتطلعان إلى ما وراء رأسه، في جمود عجيب. عبرَّت قسمات وجهها عن الدهشة أولاً، ثم عن الخوف.

ـ ميتيا! من الذي يرقبنا من هناك؟ تمتمت فجأة؟

التفت ميتيا فإذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستارة؛ حتى لقد أحسَّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك. فنهض من مكانه بسرعة، واتجه نحو ذلك الشخص. فإذا هو يسمع صوتاً يقول:

ـ هل تتفضل فتجيء إلى هنا يا سيد.

كان المنادي المجهول يتكلم بصوت خفيض ولكنه جازم وقاطع.

خرج ميتيا من وراء الستارة، وتجمد في مكانه. كانت القاعة ملأى بالناس، ولكن ليس الذين كانوا يلهون منذ قليل. لا، بأشخاص جدد. شعر ميتيا بارتعاشة تسري في ظهره، إنه يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً، وها هو يتعرفهم الآن دفعة واحدة. إن الرجل العجوز السمين طويل القامة الذي يرتدي معطفاً ويعتمر قبعة ذات ترس وشارات، هو رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش. وهذا الشاب الذي يوحي مظهره بأنه مصدور والذي يتأنق في ملبسه ويلتمع حذاؤه دائماً هو وكيل النيابة. «إنه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمئة روبل. لقد أرانيها في ذات يوم لأعجب بها». أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذي يضع نظارتين... فلم يتذكر ميتيا اسمه، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه: إنه قاضي التحقيق الذي تخرج في «مدرسة الحقوق» منذ مدة

غير طويلة. وهذا موظف الشرطة موريسماكريفتش الذي يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد. ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذي يحملون على صدورهم صفائح معدنية؟ وهذان الفلاحان؟... وبعد هؤلاء جميعاً، لمح ميتيا، عند فرجة باب المدخل، كالغانوف وتريفون بوريستش...

ـ ماذا أيها السادة؟ ماذا جرى؟ قال ميتيا.

ولكنه لم يلبث أن هتف فجأة بملء صوته، كأنما تدفعه إلى ذلك قوة لا سبيل إلى مقاومتها:

ـ فـ .... ـهمت!

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة:

ـ كنا نريد... الخلاصة، أرجو منك أن تجلس هنا، على الكنبة... علينا أن نلقي عليك بعض الأسئلة.

ـ العجوز! صاح ميتيا خارجاً عن طوره. والدم المسفوح!... فـ ... ـهمت!

وكأنما انهارت قواه فجأة، فتهالك على كرسيٍ كان هناك.

ـ آ... فهمت؟ فهمت؟ وإذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا: يا قاتل أبيه! أيها الوحش! إن دم أبيك يتهمك!

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب، وكان جسمه كله يرتجف.

فصاح الشاب قصير القامة:

ـ ولكن هذا مستحيل! يا ميخائيل ماكاروفتش ميخائيل ماكاروفتش! يجب أن أكون أنا أول المتكلمين... لم أكن أتوقع منك سلوكاً كهذا.

ـ هذا هذيان، أيها السادة. هذا هذيان! استأنف رئيس الشرطة كلامه

قائلاً: انظروا إليه: تضرج بدم أبيه ثم هو يقضي السهرة ماجناً في صحبة واحدة من بنات الهوى. هذا هذيان، هذا هذيان!

ـ أرجو منك وألحُّ في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميخائيل ماكاروفتش. أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز: وإلّا اضطررت أن أتخذ إجراءات من أجل أن...

ولكن قاضي التحقيق الصغير لم يتركه يتم جملته، فها هو يتجه إلى ميتيا، ويعلن له بوقار، وبصوت عال صارم:

ـ أيها الليوتنان المتقاعد كارامازوف، من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيودور بافلوفتش كارامازوف، الذي قُتل في هذه الليلة...

كان يريد أن يقول شيئاً آخر أيضاً. وكيل النيابة أيضاً، كان يريد أن يضيف شيئاً من عنده. لكن ميتيا بذل جهداً كي يصغي، فلم يعد يفهم شيئاً. كان يتفرس في وجوههم بنظرة مجنونة...

# الكتاب التاسع

# التحقيق التمهيدي

# I

## بداية عمل الموظف برخوتين

إن بيوتر إيلتش برخوتين الذي تركناه يطرق بكل قواه، الباب السميك المغلق في منزل التاجرة موروزوفا، قد توصل طبعاً إلى أن يحملهم على أن يفتحوا له. وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول، وكانت لم تفق بعد من الذعر الذي أصابها قبل ساعتين، ولا حزمت أمرها على أن تنام، من شدة اضطرابها، استبد بها هلع هستيري: لقد ظنت أن ديمتري فيودوروفتش هو الذي كان يطرق (رغم أنها رأته يسافر). لأنه لا يستطيع أي إنسان غيره أن يطرق الباب بمثل هذا العنف؟... وأسرعت إلى البواب الذي أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب، فتوسلت إليه ألّا يسمح لأحد بالدخول. ومع ذلك سأل البواب الطارق عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا في أمر هام جداً، قرر أن يفتح له. مضى بيوتر إيلتش مباشرة إلى المطبخ ليرى فينيا التي أصرَّت، من باب الحفاظ على الشكل، أن يحضر البواب المقابلة. أخذ الموظف يلقي الأسئلة على المرأة، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسي: هو أن ديمتري فيودوروفتش حين ذهب يسعى إلى غروشنكا قد أخذ مدقَّ الهاون، ورجع بعد ذلك ملطَّخ اليدين بالدم ولم

يكن المدقُّ معه. كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض. قالت فينيا التي اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلي الرهيب دون أن تشعر. وكان بيوتر إيلتش قد رأى الدم في يدي ميتيا بنفسه، وإن لم يكن يسيل، وقد ساعده على غسل يديه. ولم يكن يهمُّ بيوتر إيلتش أن يتساءل على كل حال: أجفَّ الدم بسرعة أم لا، وإنما كان يهمه أن يعرف: ماذا فعل ديمتري فيودوروفتش بمدق الهاون هذا، وإلى عند من ذهب؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك أنه ذهب إلى منزل أبيه، وإلى أي شيء يستند هذا الاستدلال؟ لذلك ألحَّ بيوتر إيلتش على هذه النقطة بصورة خاصة؛ ثم انتهى إلى الاقتناع التام، رغم أن فينيا لم تقدم إليه أيّ قرينة واضحة، بأن ديمتري فيودوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب إلّا إلى منزل أبيه وأن «شيئاً ما» لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً. وأضافت فينيا متأثرةً: حين رجع، قصصت عليه كل شيء، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين، فأجاب بأن هذا دم بشري، وبأنه قد قتل إنساناً منذ حين. اعترف لي بذلك في هذا المكان نفسه، في هذا المطبخ، ثم ولَّى هارباً كمجنون؟ ورحت أفكر بعد انصرافه: «إلى أين يركض؟ لا شك أنه ينوي أن يسافر إلى موكرويه ليقتل مولاتي»، فاندفعت ألاحقه، لأتوسل إليه ألّا يسيء إلى الآنسة المسكينة؛ وكنت آمل أن أجده في منزله، ولكنني لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن يسافر، وكانت يداه عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلي وحفظته). وقد أكدت جدَّة فينيا العجوز، بقدر الإمكان، أقوال حفيدتها. وبعد أن ألقى بيوتر إيلتش أيضاً بضعة أسئلة خرج من المنزل بتشوش وقلق أقوى من اللذين كانا يستبدان به عندما جاء.

لقد ساد اعتقاد أن الأمر الأكثر مباشرة والأكثر بساطة الذي يجب أن يقوم به هو أن يذهب إلى منزل فيودور بافلوفتش ليعرف إذا ما كان قد حدث شيء هناك، وإذا كان قد حصل شيء، ما هو هذا الشيء؟ وبعد التأكد من

المعلومات يبلغ رئيس الشرطة. وهذا ما خطر ببال بيوتر إيلتش في أول الأمر فعلاً. ولكن الليل كان حالك الظلام، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة، فسيكون عليه إذن أن يطرق من جديد، وأن يحدث ضجة وصخباً، وهو لا يعرف فيودور بافلوفتش إلّا قليلاً جداً. فما عسى يحدث إذا قيل له، بعد أن يفتح له الباب، إن شيئاً لم يقع؟ إن فيودور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروي للمدينة كلها في الغد، من باب التندر، أن الموظف برخوتين، الذي ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد. سيكون هذا فضيحة! وبيوتر إيلتش لا يخشى شيئاً في هذا العالم كما يخشى الفضيحة! لكن العاطفة التي كانت تدفعه إلى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن ضرب الأرض بقدمه غاضباً وشتم نفسه، أسرع يتخذ قراراً جديداً: هو أن يذهب لا إلى منزل فيودور بافلوفتش بل إلى السيدة خوخلاكوفا. سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت ديمتري فيودوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات، فإذا أجابته بالنفي ذهب إلى رئيس الشرطة لا يلوي على شيء ولا يمر بمنزل فيودور بافلوفتش؛ وإلّا أرجأ مساعيه إلى الغد ورجع إلى منزله. واضح أن بيوتر إيلتش عندما يذهب في الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى إحدى سيدات المجتمع التي لا يعرفها، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقي عليها سؤالاً قد يبدو في مثل هذه الظروف سخيفاً مضحكاً إنما يتعرض لإحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه إلى فيودور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها، في ظروف كهذا الظرف، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير. فما بالك وقد فقد بيوتر إيلتش في تلك اللحظة كل برودته وكل رويته! سوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل إلى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء، ثم استحال أخيراً إلى عذاب حادّ دفعه في تلك الليلة إلى أن يتحرك ويتدخل، على غير

إرادة منه تقريباً. والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق، وقرَّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة، ولكنه أقسم «ليسيرنَّ إلى آخر الشوط، مهما كلف الأمر»، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه. وقد برَّ بيمينه، فمضى إلى آخر الشوط فعلاً. وكانت الساعة الحادية عشرة تماماً عندما دخل منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد فُتح له الباب بدون جهد، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين هل نامت السيدة أم لا، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادةً في مثل هذه الساعة. وأضاف يقول له: اصعد إلى فوق، وأعلن عن نفسك، فإذا شاءت استقبلتك، فكل شيء رهن بإرادتها.

صعد بيوتر إيلتش إلى الطابق الأول. وهنالك بدأت الأمور تتعقد. رفض الخادم أن يبلغ السيدة خوخلاكوفا وصوله، ونادى الخادمة. فرجاها بيوتر إيلتش، بأدب ولكن بإلحاح، أن تبلغ السيدة خوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً، وأنه ما كان له أن يزعجها لولا أن الأمر الذي يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقاً!

ـ انقلي إليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً!

انتظر بيوتر إيلتش في القبو. وكانت السيدة خوخلاكوفا في غرفة نومها، ولكنها لم تكن قد نامت بعد. لقد هزتها زيارة ميتيا، وهي تتنبأ بأنها لن تنجو في هذه الليلة من الصداع الشديد الذي ينتابها عادة عقب انفعالات من هذا النوع. فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت، ومع ذلك أمرت خادمتها، بلهجة غضب، أن تصرف هذا الزائر الذي يجيء في غير أوان الزيارة، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجيء «الموظف برخوتين» إليها في مثل هذه الساعة، على غير توقُّع، قد أثار فيها فضولاً قوياً. ولكن بيوتر إيلتش كان عنيداً في هذه المرة عناد بغل. فلما عرف أن السيدة خوخلاكوفا ترفض استقباله، طفق يلحُّ من جديد إلحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة إلى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً: وهي أنه

جاء «لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم إذا هي لم تستقبله.». وقد روى فيما بعد أنه أحسَّ في تلك الدقيقة أنه «يسقط في هاوية». تفرست فيه الخادمة مدهوشة، وأسرعت تقوم بالواجب الذي عهد إليها به. ذُهلت السيدة خوخلاكوفا، وفكرت بضع لحظات، وسألت عن مظهر الزائر، فقيل لها إنه «حسن الهندام، شاب، مهذب جداً». يجب أن نذكر هنا عابرين أن بيوتر إيلتش فتى جميل جداً، وهو يعرف ذلك. قررت السيدة خوخلاكوفا أن تستمع إليه. وإذ كانت بثوب المنزل والخفين، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود. أُدخل الموظف إلى غرفة الاستقبال، حيث استُقبل ديمتري فيودوروفتش قبل بضع ساعات. تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه قاسٍ ومتسائل، وسألته دون أن تدعوه إلى الجلوس:

ـ ماذا تريد أيها السيد؟

ـ بدأ برخوتين كلامه:

ـ لقد جازفت وجئت أزعجك في أمر يتعلق بصديقنا المشترَك ديمتري فيودوروفتش كارامازوف، ولكن ما إن لفظ هذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة خوخلاكوفا غضب شديد، فهمَّت أن تصرخ، ولكنها توقَّفت، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة:

ـ إلى متى، إلى متى أظل أُعذَّب بسبب هذا الإنسان المخيف؟ كيف تجرأت أيها السيد، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها، أن تجيء تزعجها في منزلها، في مثل هذه الساعة... متحدثاً إليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات، في هذا الصالون نفسه، في هذا المكان نفسه، أن يقتلها... ضرب الأرض بقدمه، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها في منزل محترم! اعلم أيها السيد أنني سأشكوك إلى رؤسائك. إنني لن أسكت لك عن هذه الوقاحة! وأرجو أن تخرج من مسكني فوراً... أنا أم... وأنا... أنا...

ـ أراد أن يقتلك؟ هل أراد أن يقتلك أنت أيضاً؟

ـ هل قتل أحداً؟ سألت السيدة خوخلاكوفا بحرارة. فأجابها برخوتين بصلابة:

ـ إذا وافقت على أن تسمعي، ولو لنصف دقيقة، يا سيدتي، شرحت لك كل شيء في بضع كلمات. في هذا اليوم، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم، جاء إليَّ السيد كارامازوف ورجـا رجاء الصديق أن أقرضه عشرة روبلات. وأنا أعرف جيداً أنه كان في تلك اللحظة مفلساً؛ وفي هذا اليوم نفسه، في الساعة التاسعة، رجع إليَّ ممسكاً بيديه حزمةً من أوراق مالية تقدَّر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف. وكانت يداه ملطختين بالدماء وكذلك وجهه، وكان يتصرف كمجنون. فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله، أجابني إجابةً واضحة دقيقة بأنه قد تسلَّمه منك قبل لحظات، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل لكي يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم...

ظهرت على وجه السيدة خوخلاكوفا علامات انفعال عنيف أليم. وصاحت وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى: إلهي! لقد قتل أباه العجوز! أنا لم أعطه مالاً أبداً، لم أعطه مالاً أبداً. آه، اركض، اركض بسرعة، لا تقل كلمة واحدة أخرى، لا تضيع الوقت! أنقذ أباه، أسرع إلى نجدته، أسرع!

ـ سامحي إلحاحي يا سيدتي. أنت تؤكدين أنك لم تعطه مالاً، فهل ذكرياتك واضحة في هذه النقطة؟

ـ لم أعطه شيئاً، لم أعطه كوبيكاً واحداً. رفضت أن أقرضه، لأنه لم يقدر نياتي. وانصرف كمجنون مسعور ضارباً الأرض بقدمه. وقد هجم عليَّ، فلم يكد يتسع وقتي للاحتماء منه، وإني لأسرُّ إليك أيضاً، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن، أنه قد بصق عليَّ، هل تستطيع أن تتخيل هذا؟ اجلس... رجاءً... معذرة... أنا... لا بل اركض، اركض بسرعة. واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة رهيبة.

ـ ولكن ما دام قد قتله!

ـ آه، يا إلهي! هذا صحيح! فماذا نفعل الآن؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله؟

ومع ذلك أجلست بيوتر إيلتش وهي أمامه. شرح لها بيوتر إيلتش، بإيجاز ولكن بوضوح، لبَّ القضية، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل. وروى لها أيضاً أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدقِّ الهاون. فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزَّت السيدة الطيبة بعنف فلم تستطع أن تحبس، أثناء هذه القصة، صرخات الخوف حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات...

ـ هل تتصوّر أنني كنت أتوقع كل ذلك. أنا موهوبة بقدرة التوقع. وما أتنبأ به يتحقق لا محالة. كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر إلى هذا الرجل الكريه: «سيقتلني هذا الرجل أخيراً ذات يوم.» وذلك ما حدث... أقصد أنه إذا كان لم يقتلني فقد قتل أباه، فإنما يعود الفضل في ذلك إلى تدخُّل العناية الإلهية. لا شك أن الله قد حماني في ذلك الحين. أضف إلى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علقت في عنقه، هنا في هذا المكان نفسه، الإيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة... ولم يكن يخطر ببالي عندئذ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة. اقتربت منه، ومسسته تقريباً، فمدَّ لي عنقه... يجب أن أقول لك يا بيوتر إيلتش (معذرة، أليس اسمك بيوتر إيلتش؟)، يجب أن أقول لك إنني كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكرأن تلك الإيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة! آه، يا إلهي! إنني أحس بأنني جاهزة للإيمان من جديد بكل شيء. لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسّيما تلك، أليس كذلك؟ أراني أتيه، فلا أعرف ماذا أقول... تصور أنه، رغم تلك الإيقونة، قد بصق عليَّ... بصق فحسب،

صحيح هذا، ولم يقتلني... أهذا إذن ما مضى يفعله بعد ذلك؟ ماذا يجب أن نقرر الآن، ما الذي يجب أن نفعل، قل لي؟

نهض بيوتر إيلتش معلناً أنه سيذهب حالاً إلى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله.

ـ تذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش؟ إنه رجل ممتاز، ممتاز، أنا أعرفه. إنني أثق بسداد رأيه. ميخائيل ماكاروفتش: ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب إبلاغه الأمر. فكرتك رائعة، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا، لو كنت في مكانك.

قال بيوتر إيلتش، وهو ما يزال واقفاً، محاولاً أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوُّه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف، قال:

ـ لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية.

تابعت السيدة خوخلاكوفا تقول دون أن تيأس:

ـ اسمع، اسمع، يجب أن تأتي إليَّ لكي تعلمني بكل ما علمته... على الوقائع التي أمكن أن تعرف... وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها. أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا، أليس كذلك؟ تعال إليَّ حتماً، ولو في الساعة الثالثة صباحاً، أو في الساعة الرابعة، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف... اطلب إيقاظي، وليجرّوني من السرير عند الحاجة، إذا أنا أصررت على النوم... إنني أقول سخافات على كل حال. كيف أستطيع النوم بعد كل هذا؟ تراودني فكرة: ما رأيك في أن أرافقك؟

ـ لا، لا داعي إلى هذا. ولكن إذا وافقت، في مقابل ذلك، أن تكتبي لي، بخط يدك، تصريحاً في ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطِ ديمتري فيودوروفتش مالاً قط، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا... عند الحاجة.

ـ طبعاً! صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول قافزةً عن مكانها بحماسة،

متجهة إلى مكتبها الصغير: هل تعلم أنك تدهشني بسداد رأيك، صدِّقني إذا قلت لك إنني معجبة بما تبرهن عليه في هذا المجال من مهارة! هل أنت تعمل موظفاً في إدارة مدينتنا؟ ما أسعدني إذ أعرف أن لدى سلطاتنا معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك...

وفيما كانت تتكلم، كتبت بسرعة، على ورقة، الأسطر التالية، بأحرف كبيرة:

«لم أقرض ديمتري فيودوروفتش، العاثر الحظ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقي عاثر الحظ)، ولا أي مبلغ آخر، أبداً أبداً. أقسم على هذا بكل ما هو عندي مقدس في هذا العالم».

خوخلاكوفا.

ـ إليك تصريحي ثم التفتت نحو بيوتر إيلتش وقالت له: أسرع الآن. يجب إنقاذ هذا الرجل. هذا عمل نبيل تقوم به.

ورسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم شيعته إلى الممشى.

ـ ما أعظم شكري لك! لا تستطيع أن تصدق مدى امتناني لك لأنك جئت إليَّ أولاً! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن! لسوف يسعدني في المستقبل أن أستقبلك في منزلي. إنه لممّا يعزّي النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا في شخصك موظفاً له مثل كفايتك وقيمتك، موظف دقيق، حصيف خصوصاً... أنا على يقين أن رؤساءك يقدرونك بحق. صدِّقني إذا قلت لك إنهم سيفهمونك آخر الأمر... واعلم على كل حال أني مستعدة لأن أقول كلمة طيبة في حقك كلما لزم ذلك...! إنني أحب الشباب! إنني مغرمة بالشباب حقاً! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمة الشقية روسيا! أنتم أملنا... هيَّا أسرع! هيَّا!...

ولكن بيوتر إيلتش كان قد نزل إلى الشارع، وإلّا لحبسته زمناً آخر. يجب أن نقول من جهة أخرى إن السيدة خوخلاكوفا قد أحدثت في نفسه أثراً ممتعاً

خفَّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية مزعجة. إنكم تعلمون أن الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة. قال بيوتر إيلتش لنفسه مسروراً: «ليست متقدمة في السن كثيراً. كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها».

أما السيدة خوخلاكوفا فقد افتتنت به «ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة في شاب، ذلك عدا آدابه ومظهره اللطيف! تلك مزايا نادرة في هذه الأيام! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له. فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون». وقد انتهت السيدة خوخلاكوفا من ذلك إلى نسيان «الحادث الفظيع»، ولم تتذكر إلّا على سريرها أنها «لامست الموت ملامسة قريبة». فتمتمت تقول: «شيء رهيب، شيء رهيب!»، لكنها لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً. ما كنت لأسهب في ذكر هذه التفاصيل الثانوية والمضحكة، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذي وصفته للتو بين رجل شاب والأرملة التي كانت لا تزال نضرة، لم يستخدم فيما بعد نقطة انطلاق في حياة هذا الموظف الدقيق والمنظم، الأمر الذي مازال الناس في مدينتنا حتى يومنا هذا يتكلمون عنه مندهشين، والذي ربما سنحت لي فرصة لأقول كلمة صغيرة في نهاية هذه القصة الطويلة التي نكتبها عن الإخوة كارامازوف.

# II

## الإنذار

كان رئيس شرطتنا ميخائيل ماكاروفتش ماكاروف، وهو ليوتنان كولونيل متقاعد أعيد تعيينه مستشاراً في السلك الامبريالي المدني بالرتبة نفسها، رجلاً أرمل يتمتع بأخلاق طيبة. جاء إلى مدينتنا منذ ثلاث سنوات فقط، لكنه استطاع أن يكسب مودة جميع الناس خاصة أنه عرف كيف يوحد أبناء المدينة. كان منزله يغص دائماً بالزوار، حتى ليبدو أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوماً واحداً دون أن يستقبلهم. كان لا يخلو منزله يوماً من ضيف على مائدته، ولو كان الضيف شخصاً أو شخصين؛ وهو لم يتناول الطعام يوماً بدون مدعوين. وفوق ذلك كله، كان يقيم ولائم رسمية، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة، حججٍ قد لا تخطر بالبال. ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة فقد كانت وافرة. ومع ذلك كان لفطائر السمك التي تقدَّم في منزله شهرة ذائعة. وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال. فالغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو، وأُثثت بأناقة، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق إنكليزية، وتلك هي كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيِّن كلَّ قاعة بلياردو في منزل رجل أرمل. وكان يُلعب بالورق كلَّ

مساء في منزل ميخائيل ماكاروفتش، وإن يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان، لكن الاستقبالات التي تحضرها نخبة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة، وكانت الأمهات يصطحبن إليها بناتهن، لكي يرقصن فيها. وكان ميخائيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضاً منذ مدة طويلة، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما. لم تكن الفتاتان دميمتين أبداً، وكانتا بما تنعمان به من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً. ولم يكن ميخائيل ماكاروفتش لامع الذكاء، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر. وفي الحقيقة يجب أن نذكر أنه كان غير محظوظ، غير مثقف، قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية. كان معنى بعض الإصلاحات التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه، وكثيراً ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث، فإنه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها بعمق. وكان يحب أن يقول عن نفسه: «إن لي روح رجل عسكري لا رجل مدني». ورغم أنه كان من ملّاكي الأراضي، فإن ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالإصلاح الزراعي قد ظلت غامضة، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة، بدون إرادة منه إن صح التعبير، فإنما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية. كان بيوتر إيلتش يعرف أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء ضيوفاً، ولكنّه كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء الضيوف. ومن المصادفات أن ميخائيل ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكي الذي وصل من سان بطرسبورغ مؤخراً وكان من أوائل متخرجي مدرسة الطب). فأما النائب العام هيبوليت كيريلوفتش ـ وكان

يسمى نائباً من قبيل المجاملة، لأنه لم يكن في الواقع إلّا وكيل نيابة ـ فهو رجل على حدة، ما يزال شاباً، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، فيه استعداد للإصابة بمرض السل، متزوج بامرأةً سمينة عاقر. وهو شديد الشعور بكرامته وكبريائه، سريع الغضب، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب. يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ في تقدير قيمته، فهذا التباين بين كفاياته الواقعية ورأيه في نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر. وكانت له مطامح كبيرة، بل ومطامح فنية، وكان يعتز خصوصاً بمقدرته في علم النفس، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصةً في النفاذ إلى أسرار النفس الإنسانية، وفي اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين. لذلك كان يعتقد بأن الناس لم يقدروه حق قدره، أو أن هناك أعداءً في الدوائر العليا يكيدون له ويعرقلون تقدمه في وظيفته. وفي ساعات يأسه كان يهدد بترك وظيفته ليصبح محامياً أمام المحاكم الجنائية. وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته، فحدَّث نفسه قائلاً: «إن قضية كهذه ستحدث ضجة كبيرة غداً في روسيا كلها.». ولكني أستبق بهذا تتمة القصة.

وفي الغرفة المجاورة كان قاضي التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نليودوف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ شهرين، يثرثر مع الفتاتين. لقد دُهش الناس بمدينتنا، فيما بعد، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين في مساء وقوع «الجريمة» نفسه، في منزل أحد ممثلي السلطة التنفيذية. مع أن المسألة كانت بسيطة جداً والمصادفة طبيعية: إن زوجة هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر إلّا في الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها. فإلى أين يمكنه أن يذهب إذا هو لم يذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش؟ أما الطبيب فإنه، بحكم مهنته، كان لا يستطيع أن يقضي سهراته إلّا في لعب الورق، لذلك كان وجوده في منزل

رئيس الشرطة أمراً لا بد منه. وأما نيقولا بارفينوفتش نليودوف، فقد كان ينوي منذ ثلاثة أيام أن يزور ميخائيل ماكاروفتش في ذلك المساء، وأن يجيء إليه «بما يشبه المصادفة»، بغية أن يفاجىء بعد ذلك كبرى الفتاتين، أولغا ميخائيلوفنا، بأنه عالم بسرِّها: وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقصٍ في منزلها. كان نيقولا بارفينوفتش يتخيَّل مزحات كثيرة سيقوم بها في تلك المناسبة، ويتلذذ سلفاً بهذه المزحات: كالإشارة إلى أنها تخشى أن تعلن عمرها، وكالتهديد بإذاعة الأمر في المدينة كلها غداً، الخ. إن هذا الشاب الفتان «عفريت» كبير، حتى إن سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب، وكان هذا يملأه رضًى وارتياحاً فيما يبدو. وكان ينتمي من جهة أخرى إلى أسرة رفيعة المستوى، وكان جمَّ الكياسة رفيع المشاعر. ورغم أنه كان بطبيعته محباً للأفراح مقبلاً على الملذات، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخلُّ بالمواضعات المقررة ولا يسيء إلى الآداب الاجتماعية. وهو قصير القامة، ضعيف البنية، رقيق مرهف، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة. وكان في قيامه بأعمال وظيفته رصيناً، قوي الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه. وكان يمتاز خصوصاً بمهارته في أن يحيِّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته، وكثيراً ما كان يثير فيهم من الدهشة إن لم يثر فيهم الاحترام.

صُعِق بيوتر إيلتش عندما وصل إلى منزل رئيس الشرطة إذ اكتشف فجأة أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر. توقف اللاعبون عن اللعب، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون في الحادث بحرارة. حتى نيقولا بارفينوفتش قد غادر النساء وانضم إلى الآخرين عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم. وما كان أشدَّ ذهول بيوتر إيلتش حين علم بالنبأ الرهيب: وهو أن العجوز فيودور بافلوفتش قد قتل في منزله فعلاً هذا المساء قُتل وسُرق. وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية.

أما مارفا إينياتيفنا، زوجة غريغوري، التي كانت نائمة نوماً عميقاً في فراشها، وكان يمكن أن تستمر في نومها حتى الصباح. تستيقظ فجأة، بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي كان ممدداً في الغرفة الضيقة المجاورة مغشياً عليه. إنها تعرف هذه الصرخة التي سبق وأرعبتها طوال حياتها، وخلَّفت في نفسها أثراً مَرَضياً، ولم تستطع أن تعتادها في يوم من الأيام. نهضت مارفا من نومها منتفضة وأسرعت إلى الغرفة التي ينام فيها سمردياكوف، بدون شعور منها. كان الظلام حالكاً، ويُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط بعنف. أخذت مارفا إينياتيفنا تصرخ هي أيضاً، مناديةً زوجها، ولكنها أدركت فجأة أن زوجها لم يكن إلى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها، فأسرعت إلى السرير وأخذت تجس الغطاء، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد. تساءلت إلى أين ذهب؟ هل خرج؟ ولماذا خرج؟ وأسرعت إلى درجات المدخل وأخذت تناديه في الظلام، ولكنها لم تتلق جواباً. وفجأة خيِّل إليها أنها تسمع في عتمة الليل أناتٍ مخنوقة كأنها آتية من الحديقة. فأصاخت بسمعها، فتكررت الأنات. تمتمت مضطربة «يا إلهي! يشبه هذا ما حدث في الماضي يومَ موت أليزابث سمردياستشايا!». ونزلت الدرجات مذعورة، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح، فقالت في سرّها: «لا شك أن زوجي الطيب هناك»، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت في هذه المرة زوجها غريغوري نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر: «مارفا، مارفا!». فقالت مارفا متلعثمة: «نجِّنا من الشر يا رب!» واندفعت في الاتجاه الذي كان يصدر عنه النداء. وهكذا اكتشفت غريغوري. ومع ذلك لم تجده قرب السور، في المكان الذي صُرع فيه، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان. وقد عُرف فيما بعد أن غريغوري، حين أفاق من إغمائه، زحف على الأرض فترة طويلة، فأغمي عليه أثناء ذلك عدة مرات، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف

زحفه. وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه، فأخذت تصرخ. وكان غريغوري يتمتم بصوت واهن عبارات مضطربة لا تسلسل فيها، قائلاً: «قتل... قتل أباه... لماذا تصرخين يا امرأة؟ هلمي! أركضي! نادي!». ولكن مارفا اينياتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن إطلاق صرخاتها الوحشية. فلما رأت فجأة أن نافذة غرفة سيدها مفتوحة ومضاءة، أسرعت إلى هناك تنادي فيودور بافلوفتش. وإذ لم تسمع جواباً نظرت من النافذة، فرأت عندئذ مشهداً فظيعاً: رأت فيودور بافلوفتش منطرحاً على الأرض جثةً هامدة. أصيبت مارفا اينياتيفنا بهلع شديد، فاندفعت عندئذ إلى خارج الحديقة. ففتحت الباب الكبير، وأسرعت إلى منزل جارتها ماريا كوندراتيفنا. كانت المرأتان، الأم وابنتها، نائمتين حينذاك، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة على مصراعي الباب، ولشدة الصرخات الحادّة التي كانت تطلقها مارفا إينياتيفنا، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة. فقصت عليهما العجوز المسكينة ما حلَّ بمنزلهم من شقاء، قصت عليهما ذلك بأقوال مضطربة تقطعها أنّات. ومن المصادفات أن توماس الذي يسكن مستأجراً في منزلهما، والذي يتنقل عادة في البراري، كان يبيت في المنزل في تلك الليلة. فسرعان ما أوقظ من نومه، وأسرع الجميع إلى مكان الجريمة. وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت في نحو الساعة التاسعة من المساء، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها. كان ذلك هو الصرخة التي أطلقها غريغوري لحظةَ أمسك بيديه إحدى ساقي ميتيا الراكب السور، قائلاً: «يا قاتل أبيه». قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً: «إن أحداً قد صرخ عندئذصراخاً قوياً جداً ثم سكت فجأة». ووصل الثلاثة إلى قرب غريغوري، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس، ونقلوه إلى الملحقات. وأشعلوا شمعة. وحين مروا أمام الغرفة التي ينام فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط في تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه. غسلوا

رأس غريغوري بماء ممزوج بخل، فجعله ذلك يصحو تماماً، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال: «أقُتل سيده أم لا؟». وأرادت الجارتان عندئذ أن تصحبا توماس إلى غرفة فيودور بافلوفتش. فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة، وإنما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً، مع أن فيودور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم إقفال الباب بالمفتاح كل ليلة، ولا يسمح حتى لغريغوري بأن يدخل عليه لأي سبب من الأسباب، وبأي عذر. فلما رأت المرأتان وفوما هذا الباب مفتوحاً ترددوا في الدخول إلى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات». فطلب غريغوري إبلاغ رئيس الشرطة شخصياً بالحادث. هنا ركضت ماريا كوندراتيفنا وشوشت جميع الموجودين. لقد وصلت قبل وصول بيوتر إيلتش بخمس دقائق لا أكثر، لاسيما وأن هذا الأخير ليس فقط كان يريد أن يقدم شكوكه واستدلالاته، بل كشاهد عيان، أكد بروايته الاستنتاج العام حول هوية المجرم (الأمر الذي حتى اللحظة الأخيرة، رفض دائماً، في أعماق نفسه، أن يصدقه).

قرروا مباشرة العمل بقوة. وأبلغ مفوض الشرطة مساعده ليجند فوراً أربعة شهود، وفقاً للأصول القضائية التي لا داعي إلى وصفها هنا، وقاموا بالتحريات الأولى في مكان الجريمة بمنزل فيودور بافلوفتش. وقد أصر طبيب زمستفو، وهو طبيب مبتدىء ممتلىء همةً وحماسة ونشاطاً، أصرَّ على أن يرافق رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضي التحقيق. سوف ألخص ما شاهدوه: لقد صُرع فيودور بافلوفتش، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذي استعمل في قتله؟ على الأرجح السلاح نفسه الذي استعمله القاتل بعد ذلك في ضرب غريغوري. واكتشف أداة الجريمة أخيراً بفضل ما استطاع غريغوري أن يذكره لهم على نحو متسق، ولو بصوت واهن، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التي تتطلبها حالته. استكشف رجال الشرطة الأرضَ التي تجاور السور مستعينين

بمصباح، فلم يلقوا عناءً في العثور على مدقّ الهاون النحاسي. وجدوه ملقًى وسط الممر الذي يشق الحديقة، في موضع يلفت الأنظار على الفور. ولم تكن الغرفة التي ينام فيها فيودور بافلوفتش في فوضى، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقًى قرب السرير. وكان ظرفاً كبيراً مصنوعاً من ورق سميك، وقد كتب عليه ما يلي: «هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهديها إلى ملاكي غروشنكا إذا هي رضيت أن تجيء» وفي أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيودور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه: «إلى حبيبتي». وكان الظرف الذي ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فُضَّ وأفرغ مما فيه: لقد سُرق المال الذي كان فيه. واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردي اللون الذي كان يلف الظرف. وقد أحدثت أقوال بيوتر إيلتش أثراً عميقاً في وكيل النيابة وقاضي التحقيق وهزّتهما بقوة، لاسيما بسبب ما ذكره لهما من أن ديمتري فيودوروفتش كان يبدو عازماً بشكل مطلق على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وأن ديمتري فيودوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه، حين لقَّم أحد المسدسين بالرصاص أمامه، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذي يدعوه إلى الانتحار ودسَّها في جيبه، الخ، حتى إذا قال له بيوتر إيلتش الذي لم يشأ أن يصدق قراره إنه سيبلغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من إنقاذه، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة: «لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزي». معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع في العمل، والوصول إلى موكرويه بسرعة، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ما عقد النية عليه.

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطرباً بشدة:

ـ القضية واضحة وضوح ماء الصخر. ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون في الجريمة. غداً أنتحر، أما الليلة فألهو وأتسلى. وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث

في المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى. هل تتذكرون، أيها السادة، ذلك الشاب الذي قتل التاجر أولسوفيف ليسلبه ماله؟ إنه بعد أن استولى على ألف وخمسمئة روبل كانت مع ضحيته، فكَّر قبل كل شيء في أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق، ثم أسرع إلى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء إخفاء المال، فكان يمسكه بيديه تقريباً، مثل هذا القاتل الجديد تماماً. لكن التحقيق وتفتيش منزل فيودور بافلوفتش والإجراءات القانونية الشكلية، كل ذلك قد استغرق وقتاً، لذلك تقرر أن يرسل إلى موكرويه، على جناح السرعة، موظف الشرطة موريس مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء إلى المدينة في الليلة البارحة لقبض مرتبه. أصدرت إليه تعليمات بأن يذهب إلى موكرويه، منتحلاً عذراً من الأعذار، بحيث لا يلفت الانتباه، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن نظره، إلى حين وصول السلطات. وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون في عداد الخفراء الذين سيقتادون المتهم. نفَّذ موريس مافريكيفتش الأوامر التي تلقاها، ولزم التخفي، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذي يعرفه منذ زمن بعيد بعض الإيضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه. وفي ذلك الوقت التقى ميتيا صاحب النزل في أسفل السلّم الموصل إلى الشرفة، فلاحظ تغيراً غريباً في تعبير وجهه وطريقة كلامه. وهكذا، لم يستطع أحد، لا ميتيا ولا سائر الضيوف، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون. أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها في مكان آمنٍ على الفور. وصل إلى موكرويه في الساعة الخامسة، عند طلوع الفجر. كل من وكيل النيابة، ورئيس الشرطة، وقاضي التحقيق، وحاشيتهم، في عربتي ترويكا. بقي الطبيب في منزل فيودور بافلوفتش، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح. ولكنه كان مهتماً بصورة خاصة بحالة سمردياكوف. إن نوبات

الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل هذه المدة مستمرةً يومين، هي حالات نادرة جداً، يهتم بها العلم كثيراً.

هذا ما قاله الطبيب بحماسة لمرافقيه حين سافروا إلى موكرويه؛ وقد هنأوه على ما أوتي من فرصة وحظ نادرين. وقد تذكر وكيل النيابة وقاضي التحقيق فيما بعد، بوضوح، أن الطبيب قال لهم بلهجة حازمة أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر.

الآن، وبعد شرح مسهب، ولكن أعتقد أنه لا بد منه، ها قد عدنا إلى اللحظة المحددة من روايتنا، حيث توقفنا في الكتاب السابق.

# III

## محن النفس المحنة الأولى

وهكذا تصفَّح ميتيا وجوه محدثيه بنظر مجنون، ولم يفهم ما يقال له. ثم نهض فجأة، رفع ذراعيه إلى السماء وصرخ بصوت مدوٍّ:

ـ أنا بريء! أنا بريء من هذا الدم! بريء من دم أبي... كنت أريد أن أقتله، ولكنني بريء. لست أنا القاتل!

فما إن قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت غروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمي رئيس الشرطة، وصاحت بصوت ممزَّق:

ـ أنا المذنبة، أنا الملعونة. بسببي إنما قتل! أنا التي عذبته ودفعته إلى ذلك. ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً، لقد عذبته بغضبي، أنظر إلى ما دفعته... أنا المذنبة، أنا وحدي. أنا المذنبة الرئيسية.

ـ نعم أنت القاتلة! أنت المجرمة الرئيسية، أنت ضالة فاسقة! أنت المسؤولة الرئيسية عن هذه الجريمة.

صاح رئيس الشرطة وهو يلوِّح بقبضة يده مهدداً. ولكن سرعان ما سكت، حتى إن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم فيه، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً:

ـ لقد أحدثت فوضى يا ميخائيل ماكاروفتش، هذا لا يجوز! إنك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء.

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره:

ـ يجب اتخاذ بعض التدابير الضرورية فوراً... يجب اتخاذ اجراءات.

واستأنفت غروشنكا كلامها فقالت بحماسة وهي ما تزال جاثية على ركبتيها:

ـ احكموا علينا معاً، أعدمونا معاً، أنا مستعدة لأن أشاركه في العقوبة القصوى!

فصاح ميتيا وهو يرتمي على الأرض فيجثو إلى جانب غروشنكا ويعانقها:

ـ غروشا، حياتي، دمي، قديستي! لا تصدقوا ما تقوله، إنها ليست مذنبة في شيء، إنها لا تشارك إطلاقاً في المسؤولية عن هذا الدم المسفوح، إنها لم تفعل شيئاً!

ـ تذكر ميتيا فيما بعد أن عدداً من الرجال قد أبعدوه بالقوة عن غروشنكا التي أقصيت عن الغرفة، وأنه في اللحظة التي استعاد فيها وعيه، وجد نفسه جالساً أمام الطاولة. وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن. وفي الجهة الأخرى من الطاولة، كان قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة، يلح عليه أن يشرب قليلاً من الماء مشيراً إلى الكأس الموضوعة على الطاولة، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً:

ـ اشرب، الماء ينعشك ويهدئك. لا تخشَ شيئاً.

خطفت انتباهَ ميتيا فجأة، الخواتمُ الكبيرة التي كانت في أصابع قاضي التحقيق. إن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت، والثاني يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوي السطوع. سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما

أحدثته هذه الخواتم في نفسه من افتتان حتى إنه طوال الساعات الرهيبة التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحوّل نظره عنها، ولم ينقطع عن النظر إليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه. وإلى يسار ميتيا، في المكان الذي كان يشغله ماكسيموف في بداية السهرة، كان يجلس وكيل النيابة؛ وإلى يمين ميتيا، في المكان الذي جلست فيه غروشنكا بضع ساعات قبل ذلك، كان يجلس شاب زاهي اللون، يرتدي سترة عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون، وأمامه دواة وورقة. ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضي التحقيق. أما رئيس الشرطة فقد كان واقفاً قرب النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، على مقربة من كالغانوف الذي كان جالساً على كرسي.

ـ اشرب ماءً. كرر قاضي التحقيق بلطف ورقة للمرة العاشرة:

فصاح ميتيا، وهو يثبت على قاضي التحقيق نظرته الجامدة بشكل رهيب في عينيه الجاحظتين:

ـ شربت يا سادتي شربت... والآن اسحقوني، أعدموني، قرروا مصيري!

سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملحّ:

ـ هل تصرُّ إذن، على أنك بريء من مقتل أبيك؟

ـ أنا بريء! أنا مذنب بقتل شخص آخر، سفحت دم العجوز الآخر، ولكنني لم أسفح دم أبي. آه... لشد ما يؤسفني أن فعلت. لقد قتلت ذلك العجوز المسكين، صرعته. غير أنه يشق عليَّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسؤولاً عن جريمة أخرى، جريمة فظيعة لم أرتكبها... ذلك اتهام رهيب يسقط عليَّ سقوط الصاعقة! ولكن من الذي قتل أبي؟ من هو القاتل؟ من عسى يكون القاتل إذا لم أكن أنا؟ هذا جنون...

بدأ قاضي التحقيق يقول:

ـ أتسأل من هو القاتل؟ سأقول لك ذلك!

ولكن وكيل النيابة هيبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه، ثم قال مخاطباً ميتيا:

ـ تخطىء إذا قلقت على مصير الخادم العجوز غريغوري فاسيليفتش، فهو لم يمت، وقد أفاق من إغمائه واسترد وعيه. حتى إن الطبيب يرى أنه ليس في خطر رغم الضربة القوية التي تلقاها واعترفت أنت بأنك أصبته بها.

صاح ميتيا فجأة وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً):

ـ أهو حيّ؟ اللهم إني أشكرك على هذه المعجزة العظيمة التي تهبها لي، لي أنا الخاطىء المجرم؛ اللهم إني أشكرك على أنك استجبت لصلاتي... ذلك أن صلاتي هي التي قُبلت... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت. ورسم ميتيا إشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالاً.

استأنف وكيل النيابة كلامه قال:

ـ مِن غريغوري هذا نفسه حصلنا على معلومات خطيرة جداً في شأنك...

ولكن ميتيا قاطعه وقفز عن كرسيه قائلاً:

ـ دقيقة واحدة أيها السادة! اسمحوا لي بدقيقة واحدة، دقيقة واحدة، أناشدكم الله... أريد أن أكلمها هي...

فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد، ناهضاً عن مقعده فجأة هو أيضاً:

ـ آسف! في هذه الدقيقة، ذلك مستحيل.

لكن الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدنية، أمسكوا ميتيا، ثم عاد يجلس دون احتجاج، وقال: هذا يؤسفني أسفاً عميقاً يا سادتي، لأنني لم أكن أريد أن أراها إلّا لحظة قصيرة. لأبلغها أن ذلك الدم قد امّحى من حياتي، ذلك الدم الذي عذبني طوال هذه الليلة، وأنني لست قاتلاً! إنها

خطيبتي أيها السادة، هل تعرفون هذا؟ (هكذا صاح فجأة وهو ينقل نظره على محدثيه جازماً). أوه! شكراً لكم أيها السادة! لقد أرجعتموني إلى الحياة بهذه الكملة وحدها: حي! كان ذلك العجوز يحملني بذراعيه أيها السادة، وكان يغسلني في جرن حين كنت في السنة الثالثة من عمري وتركني الجميع. كان لي بمثابة أب!

همَّ القاضي أن يتكلم قائلاً:

ـ وهكذا، فأنت...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على الطاولة ويغطي وجهه بيديه:

ـ عذراً أيها السادة، عذراً دقيقة واحدة. دعوني أتنفس لحظة، وأحاول أن أرى بوضوح. إن هذا الأمر قد هزني بقوة وقلب نفسي رأساً على عقب، هذا فظيع، فظيع ليس يُقرع إنسان كما يقرع طبل أيها السادة!

ـ عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء. دمدم نيقولا بارفينوفتش قائلاً له.

رفع ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك. كانت نظرته حادة، وبدا كأنه تغير، كما تغيرت لهجته أيضاً. وشعر أنه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم. نشير هنا إلى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة، في بداية إقامته بمدينتنا، ولكنه انقطع عن التردد إلى هذا المنزل بعد ذلك، ولا سيما خلال الشهر الأخير. وأصبح رئيس الشرطة، منذ مدة، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا في الشارع، ولا يردّ على تحيته إلّا من باب الأدب، وقد لاحظ ميتيا هذا. أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضاً، رغم أن ميتيا قد زار زوجته، وهي امرأة عصبية ذات هواجس، عدة زيارات شكلية تماماً؛ كان يذهب إليها دون أن يعرف لماذا، وكانت تستقبله حتى في هذه الأسابيع الأخيرة بكثير من البشاشة والمودة،

بل كانت تبدي شيئاً من الاهتمام به. وأما قاضي التحقيق، فلم تكن بينه وبين ميتيا علاقات اجتماعية، واقتصر كل شيء بينهما على حديث أو حديثين تبادلا خلالهما كلاماً غامضاً عن جنس النساء.

ـ أرى أنك خبير حقيقي يا نيقولا بارفينوفتش كقاضي تحقيق. قال ميتيا وهو يضحك بسرور. ولكن عليَّ أن أساعدك الآن. أوه! لقد تنفست أيها السادة... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بدون كلفة. ثم إنني ثمل قليلاً، أعترف لكم بذلك صراحة. أظن يا نيقولا بارفينوفتش أنني قد سبق لي أن سُررت وتشرَّفت بلقائك، عند ميوسوف، قريبي... معذرة أيها السادة! لست أدّعي المساواة بكم الآن، فأنا أعرف موقفي أمامكم. هناك تهمة رهيبة تجثم عليَّ... طبعاً إذا كان غريغوري قد شهد عليَّ فلا بد أن تكون القرائن قوية في الظاهر. أنا موضع شبهة خطيرة! فظيع! فظيع! إنني أفهم هذا جيداً، ثقوا بذلك! ولكن فلنصل إلى الوقائع أيها السادة! إنني مستعد وسنوضح الأمور في بضع دقائق يا سادتي، أليس هذا صحيحاً؟ ما دمت بريئاً أصغوا إليَّ، أصغوا إليَّ! ما دمت أعلم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، فسوف نبدد سوء التفاهم في طرفةعين، أليس كذلك أيها السادة؟

كان ميتيا يتكلم بسرعة متدفقاً بشكل عصبي، وبنوع من الإصرار العنيد كأنه يعتبر محدثيه خير أصدقائه...

ـ سنسجل الآن إذن أنك تنكر بشكل قاطع التهمة الموجهة إليك. قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة.

ثم التفت نحو الكاتب، وأملى عليه بصوت خفيض خلاصة إنكارات ميتيا.

ـ أتريدون أن تدونوا ذلك؟ حسناً. دونوا إذا شئتم. أنا موافق... موافق كلياً... ولكن لحظة من فضلكم! أريد أن تكتبوا كما يلي: «مذنب باستخدام

العنف، وبتوجيه ضربات مميتة إلى عجوز مسكين، أنا مذنب» ثم إنني في أعماق قلبي، في قرارة ضميري، ولكن لا داعي إلى كتابة هذا ـ هكذا قال ملتفتاً إلى الكاتب ـ تلك حياتي الخاصة التي لا شأن لكم بها أيها السادة، هذه أعماق قلبي... أما قتل أبي فأنا بريء منه! هذه تهمة حمقاء!... سأبرهن لكم على هذا، فتقتنعون اقتناعاً تاماً. سوف تضحكون أيها السادة، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التي راودتكم، سوف تنفجرون ضاحكين!...

تدخل قاضي التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب:

ـ هدىء من روعك يا ديمتري فيودوروفتش! قبل أن تتابع الاستجواب، أود أن تقبل أن تجيبني، لأسمع من فمك تأكيد واقع ـ أنك لم تكن تحب فيودور بافلوفتش كثيراً، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما. لقد صرحت أنت نفسك، منذ ربع ساعة، في هذا المكان نفسه، إذا لم يخطىء ظني، أنك كنت تنوي أن تقتله: «كنت أريد أن أقتله ولكنني لم أفعل.».

ـ أأنا قلتُ هذا؟ أوه! نعم، هذا ممكن، مع الأسف! لقد أردت أن أقتله، وراودتني الفكرة مراراً... مع الأسف، مع الأسف!

ـ كنت تنوي إذن أن تقتله. فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الحقد الذي كنت تحمله لأبيك؟

ـ ماذا تريدون أن أشرح أيها السادة! قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه. أنا لم أخفِ عواطفي يوماً، والمدينة كلها تعرفها، ويتحدثون عنها حتى في الكاباريه. ومنذ بضعة أيام، عبّرت عن ذلك، في غرفة الراهب المرشد زوسّيما... وفي مساء ذلك اليوم ضربت أبي حتى كدت أقتله، وأقسمت أمام شهود بأنني سأعود. أوه! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد عليَّ، خلال هذا الشهر... الناس جميعاً يشهدون... الوقائع متوافرة... الوقائع

تتكلم من تلقاء نفسها، بل هي تصرخ... أما عواطفي أيها السادة فأمر آخر! وهنا قطب ميتيا حاجبيه، ليس من حقكم أن تسألوني عن عواطفي. أنا أعرف وأفهم أنكم تقومون بواجبكم، ولكن عواطفي هي من شأني أنا؛ هي تتصل بحياتي النفسية، الحميمة... على كل حال، ما دمت لم أكتمها حتى الآن... لم أكتمها في الكاباريه مثلاً، وكنت أكاشف بها أول قادم، فليكن ما تريدون! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً. أيها السادة، إنني أعرف أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية: فلقد أعلنت لجميع الناس أنني سأقتله، وها هو ذا يُقتل. فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه؟ هاها! إنني أعذركم أيها السادة، أعذركم. أنا نفسي مذهول من هذا الحادث: من ترى يقتله إذا لم أكن أنا؟ إذا لم أقتله أنا فمن يقتله؟ من؟ من؟ ثم صاح فجأة: أريد أن أعرف منكم أيها السادة، لا بل أطالبكم بأن تقولوا لي الحقيقة: أين قُتل؟ وكيف قُتل، بأي سلاح وكيف؟ قولوا لي! ردَّد بقوة، وهو ينظر إلى وكيل النيابة وقاضي التحقيق واحداً بعد آخر.

ـ وجدناه نائماً على ظهره فوق أرض الغرفة، مكسور الجمجمة. أجابه وكيل النيابة.

ـ هذا فظيع أيها السادة!

قال نيقولا بارفينوفتش وأخفى وجهه بيديه:

ـ لنتابع الاستجواب. لماذا كنت تكره أباك؟ لقد صرحت على رؤوس الأشهاد، فيما أظن إنني أعلم، أن الغيرة هي التي كانت تؤلّبك عليه، فهل هذا صحيح؟

ـ هي الغيرة إن شئتم. ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفي منه.

ـ هل ثمة خلاف على مال؟

ـ نعم، نعم، مسائل مالية.

ـ كان الخلاف يدور، إذا لم يخطىء ظني، على ثلاثة آلاف روبل هي من حقك في الميراث ولم يدفعها لك.

ـ ثلاثة آلاف روبل؟ بل أكثر كثيراً، أكثر بكثير قال ميتيا مستاءً، ستة آلاف روبل، وربما بأكثر من عشرة آلاف. قلت هذا لجميع الناس، صرحت به في كل مكان! ولكنني كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً، لأنني كنت في حاجة مستعجلة رهيبة إلى هذا المبلغ. فكان ذلك الظرف الذي يضم ثلاثة آلاف روبل والذي يوجد تحت وسادته ـ أنا أعلم ذلك ـ والذي أعدّه، هو لغروشنكا، كان في نظري مالاً سُرق مني. هل تفهمون أيها السادة؟ كنت أعتبر ذلك المبلغ حقاً من حقوقي، وملكاً لي.

نظر وكيل النيابة إلى قاضي التحقيق الذي قال:

ـ سنعود إلى هذه المسألة. واسمح لي أن ألاحظ وأسجل هذه النقطة. وهي أن ذلك المبلغ المودع في الظرف كان في رأيك ملكاً لك.

ـ اكتبوا أيها السادة! إنني أدرك أن هذا هو قرينة جديدة ضدي، ولكنني لا أخاف شيئاً، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى. سوف أتكلم أنا ضد نفسي، هل تسمعونني؟ أرى أيها السادة أنكم ترون فيَّ رجلاً مختلفاً عمَّا أنا في الواقع ـ يقف أمامكم أيها السادة إنسان صادق مستقيم لا يعرف الالتواء ولا المخاتلة، أمامكم إنسان ـ لا يغب هذا عن بالكم ـ إن يكن قد ارتكب حقارات كثيرة، فإنه ظل دائماً في قرارة نفسه، أعني في أعماق قلبه، طاهراً... الخلاصة... إنني لا أحسن الإفصاح عما بنفسي... لقد تألمت طوال حياتي بسبب اندفاعات روحي إلى ما هو خير، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الإنسانية على ضوء مصباح، مثل مصباح ديوجين... وعلى الرغم من ذلك اقترفت دناءات في كل خطوة من خطواتي، كما نقترف جميعاً هذه الدناءات أيها السادة... أقصد... لا... لا كما نقترفها جميعاً، بل كما أقترفها أنا وحدي، لقد أسأت التعبير يا

سادتي... نعم، كما أقترفها أنا وحدي... إن بي صداعاً أيها السادة ـ قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم... نعم يا سادتي... كنت أكره مظهره؛ كان في جسمه شيء يوحي بالدنس، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم ومقدس، كان فيه سخرية وكفر! أوه! كان هذا دنيئاً، دنيئاً جداً! ولكنني أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود.

ـ غير هذا التفكير؟

ـ لا غير هذا التفكير، ولكنني آسف لأنني كرهته كثيراً.

ـ هل أنت نادم؟

ـ لا، هذا لا يعني أنني نادم، لا تكتبوا هذا! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها السادة! أنا لست مثالاً لجمال النفس، فلم يكن من حقي إذن أن أنفر منه... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه.

ظهرت على ميتيا، فجأة علامات الحزن. وكان وجهه يزداد اكفهراراً مع استمرار الاستجواب. وفجأة في تلك اللحظة حصل ما لم يكن متوقعاً. كانت غروشنكا قد أبعدت من الغرفة، ولكن ليس إلى مكان بعيد، أودعوها الغرفة الثالثة، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي إلّا القاعة التي أقيمت فيها الحفلة الراقصة. هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها غروشنكا برفقة ماكسيموف الذي روَّعته الأحداث فكان يتشبث بغروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة. وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن. كانت غروشنكا تبكي، وها هي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها، فإذا هي تنهض وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، وتصرخ قائلة: «يا للشقاء! الشقاء»، ثم تندفع إلى خارج الغرفة، متجهة إليه، إلى عزيزها ميتيا؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المفاجأة أن أحداً لم يتسع وقته لمنعها. وقد سمع ميتيا صرختها، فارتعد، وقفز

عن كرسيه، وأطلق من صدره نوعاً من العويل، واندفع نحوها طائش العقل، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه. لم يسمح لهما أن يتعانقا، وإن تكن نظراتهما قد التقت. أمسكوا ميتيا بقوة؛ أخذ يصارع، فتعاون ثلاثة رجال للسيطرة عليه. وقبضوا عليها هي أيضاً، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد إليه ذراعيها بينما كانوا يقتادونها. حتى إذا ما انتهى المشهد استعاد ميتيا رشده فوجد نفسه في ذلك المكان نفسه، أمام الطاولة، قبالة القاضي، فتوجه إليه سائلاً:

ـ ماذا فعلت لكم؟ لماذا تعذبونها؟ إنها بريئة، بريئة!...

فحاول وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن يهدئاه. وانقضت على هذه الحال عشر دقائق. وأخيراً عاد إلى الغرفة ميخائيل ماكاروفتش الذي كان قد غاب؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت قوي واضطراب شديد:

ـ أبعدناها من هنا. هي الآن تحت. هل تأذنون لي أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الإنسان العاثر الحظ، كلمتين لا أكثر؟ بحضوركم أيها السادة، بحضوركم!

ـ أرجوك يا ميخائيل ماكاروفتش. أجابه القاضي، نحن نرى الأمر طبيعياً، في هذه الحالة الخاصة.

ـ ديمتري فيودوروفتش، أصغ إليَّ. توجه ميخائيل ماكاروفتش مخاطباً ميتيا وهو محمرُّ الوجه من الانفعال، يعبِّر عن شفقة على المسكين تشبه شفقة الأب. لقد أنزلت بنفسي أغرافينا ألكسندروفنا إلى الطابق الأرضي، وعهدت بها إلى بنات صاحب النزل؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف لا يتركها. وقد كلمتها، وطمأنتها، هل تسمعني؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك، أن تبرىء نفسك، فما ينبغي لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك، وإلّا فقد تدلي من شدة اضطرابك بأقوال خاطئة تشهد عليك، هل تفهمني؟ الخلاصة، أقنعتها،

فقالت إني على حق. إنها ذكية وطيبة جداً! كانت تريد أن تقبِّل يديَّ لأنني عجوز، وتضرعت إليَّ من أجلك؛ وطالبتني ملحةً بأن أجيء إليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال إليها. يجب أن تطمئن يا عزيزي، وأريد أن أعود إليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنك لا تخشى عليها من شيء. هدىء نفسك يا عزيزي، ذلك واجبك. أنا أشعر بأنني مذنب في حقها. إن لها روحاً مسيحية؛ نعم يا سادتي: هي طفلة وديعة. هل أستطيع أن أبلغها يا ديمتري فيودوروفتش أنك ستهدأ الآن؟

كان الرجل الطيب يخبط في كلامه. إن ألم غروشنكا، هذا الألم الإنساني، قد نفذ إلى قلبه مباشرة، فكانت في عينيه دموع. نهض ميتيا واندفع نحوه، وصاح:

ـ بإذنكم يا سادتي، اسمحوا لي. روحك يا ميخائيل ماكاروفتش هي روح ملاك. شكراً لك. نعم، نعم، أنا هادىء. قل لها هذا وسأكون مرحاً. قل لها، بما لك من طيبة، إنني مرح، مرح جداً، سوف أبدأ بالضحك لأنها في حماية ملاك حارس مثلك. سأنهي هذا الالتباس بسرعة، حتى إذا انتهيت، أسرعت إليها. فلتعتمد عليَّ ولتنتظرني واثقة. أيها السادة ـ قال يخاطب قاضي التحقيق ووكيل النيابة ـ سوف أفتح لكم نفسي كلها، سوف أسرُّ إليكم بكل شيء، فننتهي من هذا الحادث بسرعة وننتهي منه مرحين، لأننا سنضحك جميعاً في النهاية، أليس كذلك يا سادتي؟ إن هذه المرأة هي ملكة قلبي! أوه! اسمحوا لي أن أقول لكم إنني أشعر بالحاجة إلى أن أفضي إليكم بما في قلبي... لأنني أرى أن أمامي أناساً لهم نفوس نبيلة. إنها ضيائي وحياتي أيها السادة! ليتكم تعلمون! هل سمعتم كيف صرخت تقول: «سأشاركك في العقوبة القصوى!»؟ فماذا أعطيتها أنا الذي لا أملك شيئاً، حتى أستحق منها مثل هذا الحب؟ لست جديراً بهذا الحب، أنا الإنسان السيِّىء، بوجهي المنفِّر،

وسلوكي الأخرق، ومظهري الثقيل. هل أنا جدير بمثل هذا الحب؟ ماذا فعلت في سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعني إلى سجون الأشغال الشاقة؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة من أجلي، هي التي لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه. فكيف لا أعبدها، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة؟ سامحوني أيها السادة! ولكنني قد تعزيت الآن!

وتهالك على الكرسي، وأخفى وجـهه بيديه وأخذ يبكي منتحباً. ولكن دموعه في هذه المرة كانت دموع السعادة. كان يشعر أنه استعاد ذاته ورجع إلى نفسه. وأشرق وجه رئيس الشرطة، وظهر الرضى والارتياح على رجلي القضاء أيضاً: لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة. ورجع ميتيا إليهما بعد أن ودَّع رئيس الشرطة، عاد هادىء النفس وقال:

ـ والآن أيها السادة، أضع نفسي تحت تصرفكم. ولكن إذا تجاوزتم تلك التفاصيل، نتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة. تقتلني التفاصيل. أنا مستعد أيها السادة، لكني أرجوكم، نحن بحاجة إلى الثقة المتبادلة لا بد منها في مثل هذه الحالة. وإلّا فلن نصل أبداً إلى النهاية. أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم. استندوا إلى الوقائع! وكفُّوا خصوصاً عن التفتيش في نفسي، ولا تعذبوني في سبيل أمور تافهة؛ اطرحوا أسئلةً تتعلق فقط بالقضية. فتشوا عن وقائع، فقط وقائع، وسأجيبكم بما يرضيكم فوراً. دعونا من التفاصيل!

وهكذا استؤنف الاستجواب.

# IV

## المحنة الثانية

ـ لا تستطيع أن تصدق إذا قلت لك إلى أي مدى تشجعنا بإرادتك الطيبة هذه يا ديمتري فيودوروفتش. قال نيقولا بارفينوفتش... بتلك الحماسة والرضى الواضحين في عينيه الرماديتين الحسيرتين المصابتين بقصر النظر. إنك محق في ما قلته عن موضوع الثقة المتبادلة التي يجب أن تعود بيننا والتي بدونها يستحيل أحياناً القيام بأي شيء في أمور بمثل هذه الخطورة، لاسيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يستطيع أن يبرىء نفسه. نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجري هذا الاستجواب... أنت توافقني على هذا يا هيبوليت كيريلوفتش؟ قال مخاطباً وكيل النيابة فجأة.

ـ بدون شك. أجاب وكيل النيابة مؤيداً، ولكن بلهجة جافة، تتعارض مع ما أظهره قاضي التحقيق من اندفاع حار.

سأقولها للمرة الأخيرة إن نيقولا بارفينوفتش الذي وصل إلى مدينتنا منذ فترة قصيرة والذي هو في بداية مهنته، قد شعر تجاه وكيل النيابة عندنا هيبوليت كيريلوفتش باحترام عظيم لشخص، فانعقدت بين الرجلين صداقة قوية. وكان

هو الإنسان الوحيد المؤمن حقاً بالمواهب السيكولوجية والخطابية الفذة التي يتمتع بها هيبوليت كيريلوفتش «الذي لم يقدر حق قدره». وكان يعتقد هو أيضاً، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذي سمع عنه في سان بطرسبورغ قبل أن يجيء إلى مدينتنا. وكان نيقولا بارفينوفتش، الشاب، هو الإنسان الوحيد الذي شعر نحو صاحبنا «المجهول القدر» بعاطفة صادقة. وقد اتسع وقتهما في طريقهما إلى موكرويه، لأن تتفق آراؤهما في هذه القضية، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه، والطريقة الواجب تبنِّيها، بحيث إن الفكر المرهف الذي ينعم به نيقولا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنيات التي تجول في ذهن زميله الأكبر منه سناً، ويشرحها بنصف كلمة، بإشارة خاطفة، بحركة من عضلات وجهه، بغمزة من عينيه.

ـ دعوني أيها السادة، أروي لكم بنفسي، دون أن تقاطعوني بتفاصيل تافهة؛ سأشرح لكم كل شيء برفة عين. قال ميتيا متحمساً:

ـ ممتاز. شكراً لك. لكنني قبل أن أسمع ما تريد أن تقوله لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة وهامة جداً بنظرنا ألا وهي مسألة تلك الروبلات العشرة التي اقترضتها أمس مساءً، في نحو الساعة الخامسة، من صديقك بيوتر إيلتش برخوتين، وأودعته مسدسيك رهناً.

ـ صحيح أيها السادة، نعم... رهنتهما! أي شيء خارق في هذا؟ إنني ما إن رجعت إلى المدينة بعد تلك الرحلة، حتى رهنت المسدسين. الأمر بسيط جداً.

ـ بعد تلك الرحلة؟ هل غادرت المدينة؟

ـ نعم! سافرت إلى خارج المدينة، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا. هل كنتم تجهلون ذلك؟ تبادل وكيل النيابة ونيقولاي بارفينوفتش النظرات.

ـ لعلك تحسن صنعاً إذا أنت بدأت شرحك للقضية بأن تصف لنا على

وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح. إسمح لي أن أسألك مثلاً، ماذا كان الهدف من تغيُّبك، ومتى سافرت، وفي أي ساعة رجعت... إن جميع هذه الوقائع...

ـ كان يجب أن تسألني عن ذلك منذ البداية. قاطعه ميتيا وهو يبتسم: بل إنني أعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول، من صباح أمس الأول، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة، وماذا كان هدفي منها، وما هي الظروف التي أحاطت بها. في صباح أمس الأول، أيها السادة، ذهبت إلى التاجر سامسونوف على نية أن أقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماماً. ذلك أنني احتجت إلى هذا المبلغ احتياجاً مستعجلاً فجأة، احتياجاً مستعجلاً جداً أيها السادة...

ـ اسمح لي أن أسألك لماذا احتجت فجأة إلى المال. قاطعه وكيل النيابة، ولأي غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً؟

ـ ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة؟ لماذا ومتى وكيف وأين؟ ما فائدة هذا كله في الواقع؟ لأن أحتاج إلى ثلاثة آلاف روبل أو إلى أي مبلغ آخر... لن ننتهي من الأمر أبداً إذا نحن تهنا في هذه التفاصيل الدقيقة! لسوف نحتاج عندئذ إلى ثلاثة مجلدات على الأقل، عدا المقدمة!...

قال ميتيا ذلك بلهجة حميمة وودية، لكن بتململ إنسان يريد أن يقول الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النيات. واستأنف كلامه فجأة يقول:

ـ اعذروني أيها السادة على هذه الخشونة. اطلب إليكم أن تثقوا أنني أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم عليَّ، وأنني مدرك موقفي تماماً. وهأنذا أكرر ما سبق أن قلته: لا تظنوا أنني سكران. فقد صحوت من سكري. ولكن حتى لو كنت ثملاً، فذلك لن يغير من الأمر شيئاً، ولن يكون له أي تأثير فيما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

أنا إن صحوت أصبح غبياً
وإن سكرت غدوت عبقرياً!

ها ها! لاحظوا، أنا أرى أيها السادة، أنه لا يزال من غير اللائق الآن أن أنكِّت أمامكم، طالما أننا لم نوضح بعد هذا الالتباس القائم بيننا. فاسمحوا لي إذن أن أحافظ على وقاري الشخصي. أنا أدرك الاختلاف الحالي: هنا أقف أمامكم كمجرم، إذن لست مثلكم. إن مهمتكم هي أن تراقبوني: سوف لن تقبِّلوني من أجل غريغوري. فليس من الممكن أن نكسر رؤوساً بغير ذنب اقترفوه، ومع ذلك ستطالبون بأن يُحكم عليَّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة، معاقبةً لي على هذا الفعل الذي اقترفته، ولكن دون سقوط مدني. أنا لست معرَّضاً للحرمان من حقوقي المدنية، أليس كذلك يا وكيل النيابة؟ قلت أيها السادة إنني أدرك الفرق بين موقفي وموقفكم... ومع ذلك أرجو أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذا النوع: كم خطوة مشيت، فبأي لحظة رفعت قدمك اليسرى، في أي لحظة أنزلت قدمك اليمنى، على أي شيء مشيت؟ إذا أخذتم تطرحون عليَّ مثل هذه الأسئلة، فسأرتبك أخيراً، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل إلى أي نتيجة. وما دمت قد بدأت ببعض الكذب، فلا بأس أن أستمر في الكذب، وستغفرون لي كذبي، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية. أحب في الختام أرجو منكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب القديمة في الاستجواب، أعني البدء بإلقاء أسئلة تافهة: كيف نهضت من نومك هذا الصباح؟ ماذا أكلت؟ أين بصقت؟ ثم المبادرة، بعد «تنويم يقظة المجرم» على هذا النحو، إلى مباغتته فجأة بهذا السؤال: «أين قتلت القتيل وسلبته ماله؟». ها ها! ذلك هو روتينكم، ذلك هو علمكم كله، تلك هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من الخداع، ولكن ذلك لا ينطلي عليَّ أنا!

أنا نفسي خبير في هذه الشؤون، لقد عملت أنا أيضاً في هذا المجال. ها ها! لا تغضبوا يا سادة، هل تغفرون لي هذه الوقاحة؟ صاح وهو ينظر إليهما ببراءة مستغربة ـ ميتكا كارامازوف هو الذي تكلم في الحال بهذه الطريقة، يمكن أن نسامحه، لأنه يمكن عدم مسامحة رجل ذكي، أما ميتكا فيمكن مسامحته! ها، ها!

كان نيقولا بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصغي إلى ميتيا، ولكنه كان يراقبه بإلحاح، ولا يحول عنه نظره النافذ، ويحاول أن يسجل كل كلمة من كلماته بل أقلَّ حركة من حركاته، وحتى أخف الاختلاجات في عضلات وجهه.

ـ يجب أن تنصفنا على الأقل، فتعترف بأنَّا لم نستعمل معك هذا الأسلوب. قال القاضي وهو ما يزال يبتسم. إننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك في الصباح وماذا أكلت، وإنما واجهنا الأمر الأساسي دفعةً واحدة، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضاً.

ـ إنني أفهم، وفهمت وأقدر ذلك. وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوي من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم. إننا جميعاً، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر. فليجر كل شيء بيننا كما يتوجب أن تجري الأمور بين أصحاب يثق بعضهم ببعض، وتربطهم روابط النبالة والشرف! اسمحوا لي على كل حال أن أعتبركم أصدقاء في هذه الدقيقة من حياتي، في هذه الساعة التي يذل فيها شرفي أكبر الاذلال! أرجو ألَّا يسوؤكم هذا يا سادتي! أليس كذلك؟

ـ بالعكس! لقد عبَّرت أفضل تعبير، وانتقيت أنسب الكلمات!

ـ أما التفاصيل، أما تلك التفاصيل السخيفة كلها، فلندعها وشأنها صاح ميتيا بحماسة، وإلّا لا نعرف إلى أين يمكن أن ينتهي هذا كله، أليس ذلك صحيحاً يا سادتي؟

ـ أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة، قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا: ولكنني لن أستطيع مع ذلك أن أعدل عن سؤالي، فهو على جانب فظيع من الخطورة في نظرنا أن نعلم لماذا احتجت إلى هذا المبلغ، أعني إلى الثلاثة آلاف روبل.

ـ لماذا احتجت إلى ذلك المبلغ؟ احتجت إليه لأسباب عدة... الخلاصة: لأدفع ديناً عليَّ.

ـ لمن بالتحديد؟

ـ هذا ما أرفض أن أقوله لكم، أيها السادة، ليس لأنني لا أستطيع أن أقوله، أو عن خوف، بل لأن الأمر في الواقع هو تفاهات لا قيمة لها. ولئن سكت عنه مع ذلك، فلأن القضية قضية مبدأ: إنه يتعلق بحياتي الخاصة، ولن أسمح لكم بالتدخل في حياتي الخاصة. هنا لا تسامح ولا تنازل! إن ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتي الخاصة! لقد أردت أن أردَّ ديناً هو دين شرف، ولكنني لن أذكر لكم اسم الشخص الذي كنت أريد أن أردَّ له هذا الدين.

ـ اسمح لنا بتسجيل تصريحك. قال وكيل النيابة:

ـ سجلوا ما شئتم! اكتبوا أنني لن أجيب عن هذا السؤال أبداً. اكتبوا أن في الإجابة عن هذا السؤال إخلالاً بشرفي! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو!

استأنف وكيل النيابة كلامه بصوت أصبح قاسياً رصيناً:

من واجبي أن أنبهك أيها السيد، إذا كنت تجهل ذلك، أن من حقك طبعاً ألّا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك، وأننا لا نستطيع أن نجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط. ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك إلى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الإدلاء بالمعلومات المطلوبة.

ـ ولكنني يا سادتي لم أغضب... أنا... تمتم ميتيا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة: إن سامسونوف ذاك الذي ذهبت إليه حينذاك يا سادتي...

لن نعيد سلسلة الوقائع التي يعرفها القارىء. لقد أراد الراوي أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً، وبأسرع ما يمكن. لذلك كانت تصريحاته تسجَّل شيئاً فشيئاً، مما يضطرنا إلى إيقافه عند الضرورة. كان يزعجه أن يتوقف عن الكلام لكنه كان ينصاع بطيبته وبساطته. كان يصيح قائلاً في بعض الأحيان: «أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف!» أو «لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو!»، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذي كان عندئذ منطلقاً. روى كيف أن سامسونوف قد «خدعه» قبل يومين (بدأ يدرك الآن أن سامسونوف ضلَّله وخدعه). وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر، وتلك حادثة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها جيداً. فكان من شأن إلحاحهما على هذه النقطة أن أخرجا ميتيا عن طوره، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هذه الواقعة، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك كوبيكاً واحداً. ومنذ تلك اللحظة أخذ وجه ميتيا يتجهَّم شيئاً بعد شيء. وبعد أن روى قصة سفره سعياً إلى لياغافي، وقضائه ليلةً في الكوخ الذي يملأه الدخان، وصف عودته إلى المدينة، وأخذ يصوِّر، من تلقاء نفسه في هذه المرة، دون أن يُطلب منه ذلك، جميع تباريح غيرته على غروشنكا. فكان القاضيان يصغيان إليه بانتباه صامتين. وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمَن طويل، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيودور بافلوفتش في حديقة ماريا كوندارتيفنا، وأنه كان يترصد غروشنكا من هناك، وأن سمردياكوف كان ينقل إليه أخباراً ويطلعه على ما يجري في منزل أبيه.

هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية. وتكلم ميتيا عن غيرته بإسهاب وانفعال. فإنه رغم الحرج النفسي الذي شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه بصورة تسيء إلى شرفه أمام الناس، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً. غير أن النظرات القاسية الباردة التي كان يصبها عليه كل من قاضي التحقيق ووكيل النيابة محدِّقين إليه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه في آخر الأمر. قال في سرِّه حزيناً: «إن هذا الصبي الغر نيقولا بارفينوفتش الذي بادلته منذ مدة أحاديث تافهة عن النساء، وإن وكيل النيابة هذا المريض النفس. لا يستحقان أن يسمعا ما أفضي إليهما به من اعترافات نفسي. يا للعار!». ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذي يقول: «قلبي اعتصمْ بالصبر والإذعان». وتابع يروي قصته. فلما وصل إلى الكلام على زيارته للسيدة خوخلاكوفا انبسطت أساريره من جديد، وأوشك أن يروي نكتة عن هذه السيدة كانت تتناقل في صالونات المدينة، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً. لذلك استوقفه القاضي عن الكلام بلطف، راجياً منه أن ينتقل إلى وقائع أهم. وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذي اجتاح نفسه في الشارع، لم يسقط من حديثه تلك الواقعة، وهي أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب «أنه لم يبقَ له إلّا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ». عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه «قد خطر بباله أن يذبح أحداً»، وأسرعا يسجلان ذلك. وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج. ولما وصل أخيراً إلى اللحظة التي علم فيها فجأة أن غروشنكا قد خدعته وأنها تركت منزل سامسونوف فوراً بعد أن نقلها إليه، خاصة وأنها قالت أنها ستبقى عند العجوز حتى منتصف الليل، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً: «إنني لم أقتل فينيا في تلك اللحظة، لأنه قد

أعوزني الوقت». سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية. فكان ميتيا ينتظر، عابسَ الوجه، وأراد أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع إلى حديقة أبيه، عندما قاطعه فجأة قاضي التحقيق، وفتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه، وأخرج منها مدق الهاون النحاسي.

ـ هل تعرف هذه الأداة؟ سأله القاضي.

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة شاحبة:

ـ نعم! طبعاً أعرفها! أرنيها... بل لا داعي لأن أراها!

ـ نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا. قال القاضي.

ـ إلى الجحيم! كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة، فلولا هذا المدق لما وقع شيء، ولكن الأمر كان قد خرج من رأسي.

ـ هلّا ذكرت لنا الظروف التي تسلحت فيها بهذا المدق!

ـ بكل سرور يا سادتي.

وروى ميتيا كيف أخذ مدقّ الهاون وتابع طريقه.

ـ ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح؟

ـ هدفي؟ لم يكن لي هدف، وإنما أخذته وتابعت الركض.

ـ لماذا إذن، إذا لم يكن لك هدف؟

غضب ميتيا وراح يتفرس في «الفتى» مبتسماً ابتسامة عداء وغضب. ذلك أنه كان يشعر بالعار، شيئاً بعد شيء، من أنه ارتضى أن يصف «لأناس مثلهم»، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفي، مشاعرَ الغيرة التي كانت تعذبه.

ـ ما لنا ولهذا المدق اللعين؟

ـ ولكن...

ـ حسناً من أجل الكلاب في الظلام... احتياطاً للمفاجأة.

ـ هل اعتدت، من قبل، حين تخرج ليلاً، أن تتسلح خوفاً من العتمة؟

ـ آه! حقاً يستحيل الحديث معكم أيها السادة! صاح ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق. ثم التفت نحو الكاتب، فقال له بصوت حاد، وقد احمر وجهه غضباً: اكتب... اكتب فوراً «إنني أخذت المدقّ على نية الذهاب فوراً إلى أبي... فيودور بافلوفتش... لتحطيم جمجمته».

ثم قال مخاطباً قاضي التحقيق ووكيل النيابة، وهو يرشقهما بنظرة متحدية: هل أنتما راضيان الآن أيها السيدان؟ هل ارتاحت نفساكما؟

ـ نرى أنك قد أعطيت هذا التصريح بسبب غضبك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تظن أنها تافهة. أجابه وكيل النيابة بلهجة جافة. ولكننا مضطرون إلى طرح هذه الأسئلة عليك لأنها في الواقع هامة جداً.

ـ أيها السادة! أخذت هذا المدقّ...! يشعر المرء أحياناً بالحاجة إلى أن يكون في يده شيء. الحق أنني أجهل لماذا أخذته. لقد أخذته راكضاً، هذا كل شيء. ألا تخجلون أيها السادة؟ دعونا من هذا، وإلّا فأقسم أنني لن أقول شيئاً بعد الآن!

وضع كوعيه على الطاولة، وجعل رأسه بين يديه. كان جالساً إلى جانب الرجلين، ينظر إلى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه. وكان يغريه فعلاً أن ينهض ويصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة «ولو سيق إلى الموت».

ـ أتعرفون أيها السادة؟ قال متمالكاً نفسه كي لا ينفجر: إنني، وأنا أصغي إليكم، أشعر بإحساس غريب... هناك حلم يعاودني في كثير من الأحيان أثناء النوم... أحلم أن أحداً يطاردني في الليل، في الظلام، أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً. إنه يبحث عني، وأحاول أن أختبىء منه، أن أغيب عن نظره. فأختبىء جباناً وراء باب أو وراء خزانة، فأختبىء هناك جامداً لا أتحرك. ويعرف الرجل الآخر أين أنا، يعرف مخبأي، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابي وليتمتع

بخوفي... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم في هذه اللحظة أيها السادة! ذلك هو بعينه تماماً!

ـ أتراودك إذن أحلام فيها خوف وقلق؟

ـ نعم تراودني أحلام... ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً؟

ـ لا، لن نسجله. ولكنه إشارة هامة في الواقع. الحق أنك ترى أحلاماً غريبة.

ـ غير أن ما أراه الآن ليس حلماً! إنه واقع أيها السادة، هو واقع الحياة الرهيب! أنا ذئب وأنتم الصيادون. فهلموا وراء الذئب!

ـ تخطىء في هذا التشبيه؟ قاطعه قاضي التحقيق قائلاً له برقة ولطف.

ـ لا، لست مخطئاً أيها السادة! تابع ميتيا غاضباً ولكن مرتاحاً ثم عاد تدريجاً إلى هدوئه ولطفه.

يمكنكم ألا تصدقوا مجرماً أو متهماً تعذبونه بأسئلتكم، أما إنسان نبيل أيها السادة، إنسان مستسلم لأصدق اندفاعات روحه (ولا أخشى من قول ذلك)، لا يمكنكم ألا تصدقوا كلامه. حتى لا يحق لكم ذلك... ولكن.

... عليك بالصمت قلبي
تحمَّل، اصبر ولا تقل شيئاً!

ـ هل أتابع قصتي؟ سألهم وقد تجهَّم وجهه.

ـ طبعاً! أرجو أن تفعل. أجابه نيقولا بارفينوفتش.

# V

## المحنة الثالثة

عبثاً حاول ميتيا أن يسرد قصته بصوت قاسٍ، دون أن يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية. وصف حادثة قفزه فوق سور حديقة أبيه، واقترابه من النافذة، وما حصل معه هناك وبشكل واضح ودقيق، مشدداً على كل كلمة، تحدث عن المشاعر التي هزته خلال تلك اللحظات في الحديقة، عندما اجتاحته رغبةٌ رهيبة في معرفة إذا ما كانت غروشنكا موجودة أم لا، عند أبيه. ولكن الغريب هو أن وكيل النيابة وقاضي التحقيق كانا يصغيان إليه هذه المرة بنوع من الانتباه الرهيب، بحيث ينظران إليه بقسوة ولا يطرحان عليه إلا القليل من الأسئلة. كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه. قال في نفسه: «لا شك أنهما غاضبان مستاءان؛ فليكن ما يكون!». حتى إذا وصل من حديثه إلى «الإشارة» التي قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن غروشنكا وصلت فيفتح النافذة، لاحظ أن قاضي التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أي انتباه، فكأنهما لا يدركان خطورته ولا يفهمان ما هي تلك «الإشارة» التي يتحدث عنها، فاستغرب ميتيا ذلك. فلما وصل أخيراً إلى اللحظة التي رأى فيها أباه يميل من على النافذة، فشعر بتأجج غضبه وأخرج

مدق الهاون من جيبه. توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك، وراح ينظر إلى الجدار، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد.

ـ حسناً، قال وكيل النيابة: أخرجت السلاح من جيبك... ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟ قتلته... ضربته على قِمّة رأسه وكسرت جمجمته... أليس هذا ما حدث، أليس كذلك؟ صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شرراً. لقد تأجج الغضب في نفسه من جديد، بعنف متزايد.

ـ ذلك في زعمنا نحن. كرر نيقولا بارفينوفتش: حسناً. فماذا في زعمك أنت؟

خفض ميتيا عينيه. وبقي صامتاً لفترة طويلة.

ـ حسب رأيي أنا، إليكم ما حدث أيها السادة، تابع ميتيا كلامه بصوت هادىء: لست أدري. ابتهلت أمي إلى الله في تلك اللحظة، هل انسكبت دموع طاهرة لإبعاد الشر، أم أمسكني من يدي ملاك لا يُرى؟ المهم أن الشيطان قد هُزم. ابتعدت عن النافذة، وركضت متجهاً نحو السور... ذعر أبي، وعرفني فجأة، وأطلق صرخته، وغاب عن النافذة ـ أتذكر هذا بوضوح. اجتزت الحديقة، وأسرعت إلى السور، وفي تلك اللحظة ظهر غريغوري الذي أدركني حين كنت قد جلست على السور...

هنا، قرر أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه. فلاح له أنهما كانا ينظران إليه بغير اكتراث. فألمّت به رعشة من غضب.

ـ ألاحظ يا سادتي أنكم تسخرون مني! قال لهما:

ـ ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك؟ سأله نيقولا بارفينوفتش.

ـ إنكم لا تصدِّقون كلمة واحدة مما أقول، أنا أدرك هذا. فهمت: لقد وصلت إلى النقطة الرئيسية. العجوز، إنه هناك الآن، رأسه محطم، وأنا، بعد

أن وصفت لكم وصفاً فاجعاً كيف أردت أن أقتله، وكيف أخرجت مدقَّ الهاون من جيبي لهذا الغرض، أصرِّح لكم فجأة بأنني لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة!... هذه قصيدة حقاً، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن يقال هذا الكلام كله شعراً! كيف يمكن أن يُصدَّق رجل مثلي؟ إنكم تعرفون كيف تسخرون دون أن يظهر عليكم ذلك.

واستدار ثقيلاً على كرسيه فقرقع الكرسي تحت ثقل جسمه.

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا:

ـ هل لاحظت عندما ابتعدت عن النافذة أكان الباب المؤدي إلى الحديقة في الطرف الآخر من المبنى مفتوحاً أم مغلقاً؟

ـ لم يكن مفتوحاً.

ـ ألم يكن مفتوحاً؟

ـ كان ذلك الباب مغلقاً. لم يكن أحد يستطيع فتحه. هذا الباب... لحظة! (صاح ميتيا مرتعشاً، كأن فكرةً قد لمعت في ذهنه فجأة). لأنكم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً؟

ـ مفتوحاً.

ـ فمن يستطيع فتحه إن لم تفتحوه أنتم أيها السادة؟ قال ميتيا مندهشاً.

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء، مقطّعاً كلماته:

ـ كان الباب مفتوحاً، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك؛ وبعد أن نفذ جريمته خرج من ذلك الباب نفسه. تلك نقطة نعتبرها مفروغاً منها. فمما لا شك فيه أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة لا من خلال النافذة. إن هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى. لم يبقَ أي شك من هذه الناحية.

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة.

ـ ولكن هذا مستحيل أيها السادة. صاح وقد ارتبك عقله. أنا... أنا لم أدخل... أؤكد لكم جازماً أن الباب بقي مغلقاً أثناء وجودي في الحديقة، وأنه كان مغلقاً أيضاً حين هربت. إنني لم أتحرك من مخبأي؛ ومن النافذة وحدها رأيت... من النافذة وحدها... إنني أتذكر جميع التفاصيل. وإن لا أتذكرها، فإنني متأكد من أن الباب كان مغلقاً، لأن أحداً لم يكن يعرف «الاشارات» إلّا أنا وسمردياكوف، والمتوفَّى طبعاً؛ وبدون الإشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب.

ـ الإشارات؟ أي إشارات؟ سأله وكيل النيابة بفضول شره أفقده وضع الرصانة والوقار في لحظة. كان في نبرة سؤاله شيء من مذلة، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها.

ـ لأنك أنت لا تعلم؟ أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ماكرة؟ فما رأيك إذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الإشارات؟ من يمكنه أن يطلعك على ذلك في هذه الحالة؟ لأن هذه الاشارات لا يعرفها أحد إلّا أنا وسمردياكوف والمتوفَّى. إن أحداً لم يُطْلَع على السر، فليس يعرفه، عدانا، إلّا الله. ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر؛ وهو أمر هام إلى أبعد الحدود، لا يعرف إلّا الشيطان جميع النتائج التي يسمح بالوصول إليها. ها ها ها، مخاوفكم حمقاء! إنكم لا تعرفون الإنسان الذي تخاطبونه،. إن أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التي تشهد عليه! نعم يا سادتي! ذلك أنني أنا فارس شرف، ولكنني لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم. ـ لا!

تجاوز وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة، لأنه كان يحترق رغبةً في معرفة الواقعة الجديدة. عرض ميتيا بدقة وتفصيل كل ما يتعلق بالإشارات التي اخترعها خيال فيودور بافلوفتش لاستعمال سمردياكوف، وأوضح معنى

كل طريقته من تلك الطرق المختلفة في قرع النافذة، ومثَّلها هو نفسه بالضرب على الطاولة. فسأله نيقولا بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالإشارة المتفق عليها لينبىء فيودور بافلوفتش بأن «غروشنكا وصلت»، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لإعلان وصول السيدة الشابة. وختم ميتيا كلامه قائلاً:

ـ الآن وقد اطلعتم على الأمـر. هلموا اجمعوا القرائن، وتابعوا استدلالاتكم واستخرجوا نتائجكم. ثم حوَّل وجهه عن الرجلين باحتقار.

سأله نيقولا بارفينوفتش مرة أخرى:

ـ أنت تؤكد إذن أنه لم يكن أحد غيركم، أنت وأبوك والخادم سمردياكوف، يعرف هذه الاشارات، أليس كذلك؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم؟

ـ كلَّا، أنا وسمردياكوف والسماء. أرجو أن تسجلوا السماء أيضاً. قد يكون العون الإلهي ضرورياً لكم أنتم أيضاً في هذه القضية.

راحوا يسجلون بسرعة جميع هذه التفاصيل. ولكن بينما كان الكاتب يكتب، قال وكيل النيابة كأن افتراضاً جديداً قد ومض في ذهنه فجأة:

ـ ولكن إذا كان سمردياكوف يعرف هذه الإشارات هو أيضاً، وإذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الإشارة المتفق عليها، فاستدرج أباك إلى فتح الباب، ثم ارتكب الجريمة؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وحقد رهيب في آن؛ وظل يحدِّق إليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة، حتى أن عيني وكيل النيابة أخذتا تطرفان.

ـ هل تريد أن تقبض على الثعلب؟ تمتم أخيراً ميتيا بهذا السؤال المغري؟ ولكن الثعلب قد هرب... ها ها! لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة! خيِّل إليك أنني سأهجم على هذا الطُّعم، الذي تمده إليَّ، وأنني سأتبنى هذا التعليل

الجميل الذي توحي به، أليس كذلك؟ لا شك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتي قائلاً: «نعم إنه سمردياكوف؛ إنه هو القاتل؟» اعترف «بأن هذه هي فكرتك الخفية، اعترف بذلك، فأتابع قصتي».

ولكن وكيل النيابة لم يعترف، بل بقي منتظراً صامتاً. قال ميتيا:

ـ خطأ! لن أتهم سمردياكوف.

ـ لا ولا يساورك أي شك فيه؟

ـ وأنت هل يساورك هذا الشك؟ هل تشتبه فيه؟

ـ لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضاً.

ركز ميتيا نظره إلى الأرض. ثم قال:

ـ كفى مزاحاً. وإليكم ما أريد أن أقوله لكم. إنني منذ البداية، وفي اللحظة التي أزحت فيها الستائر متقدماً نحوكم، في تلك اللحظة تقريباً، ومضت في ذهني هذه الفكرة «أيكون هو سمردياكوف!». ثم، حين جلست أمامكم، وبينما كنت أصيح قائلاً إنني لم أسفح دم أبي، كنت أقدِّر في قرارة نفسي أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، ولم يبارح هذا الافتراض ذهني بعد ذلك. وفي هذه الدقيقة نفسها، بينما كنتَ تلقي عليَّ هذا السؤال، قلت لنفسي مرة أخرى: «إنه سمردياكوف!»، ولكنني سرعان ما انتهيت إلى هذه النتيجة قائلاً في سري: «لا، ليس هو سمردياكوف!». ليست هذه الجريمة من صنعه، أيها السادة!

ـ هل تشتبه إذن في شخص آخر؟ سأل نيقولا بارفينوفتش محاذراً.

ـ لست أدري من عسى أن يكون القاتل. فقال ميتيا جازماً: اللهم إلّا أن يكون الله أو أن يكون الشيطان هو الذي تدخّل في الأمر... ولكن ليس سمردياكوف.

ـ ما الذي يدفعك إلى أن تؤكد جازماً وملحاً هذا الإلحاح، أن القاتل ليس هو؟

ـ لدي إحساس داخلي وقناعة بذلك، لأنه إنسان ذو طبيعة حقيرة جداً، ولأنه جبان. ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن في هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى؛ إن هذا الإنسان هو الخوف نفسه قد تجسَّد أيها السادة. لقد ولد هذا الرجل في خُمّ! كان، كلما كلمته، يرتجف خوفاً من أن أقتله، مع أنني لم أكن أرفع يدي عليه. كان يرتمي على قدميَّ باكياً ويقبل حذاءيَّ ضارعاً إليَّ أن لا «أخيفه». هل تسمعون؟ «أن لا أخيفه!» ماذا تعني هذه الكلمة؟ ومع ذلك كنت لطيفاً معه دائماً، وكنت أقدم إليه الهدايا. هذا فرخ ممروض مصاب بالصرع متخلّف العقل يستطيع أن يضربه طفل في الثامنة من عمره. أهذا رجل؟ لا يا سادتي، ليس لسمردياكوف ضلع في هذا الأمر. ثم إنه لا يحب المال، ولقد كان يرفض المكافآت التي كنت أريد أن أهبها له. وما عسى أن يكون الباعث له على قتل العجوز؟ ربما كان سمردياكوف ابن العجوز، ابنه غير الشرعي، هل تعرفون هذا؟

ـ نعرف هذه الشائعة. ولكنك أنت أيضاً ابن فيودور بافلوفتش، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن في كل مكان أنك تريد قتله.

ـ حجر في حديقتي! وحجر ذليل وتافه! هيَّا أيها السادة، ولكن ألَا ترون أنه من المعيب أن تقولوا هذا في وجهي معيب لأنني أسررت به إليكم أنا نفسي؟ أنا لم أشأ أن أقتله فحسب، بل كان في وسعي أن أفعل، وقد اتهمت نفسي أمامكم بأنني أوشكت أن أصرعه ذات يوم. لكنني لم أقتله، فإن ملاكي الحارس قد حماني من ارتكاب هذه الجريمة. ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزناً لهذا الكلام. ذلك هو الشر في موقفكم، ذلك هو في موقفكم ما يستحق الاحتقار! إنني لم أقتله، إنني لم أقتله! لا، لم أقتله. هل تسمع يا وكيل النيابة. أنا لم أقتله!

كان على وشك الاختناق. إنه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله في أي لحظة أثناء الاستجواب. وسأل بعد صمت:

ـ فما الذي قاله لكم صاحبنا سمردياكوف؟ هل يجوز لي أن أسألكم عن هذا؟

ـ تستطيع أن تطرح علينا ما تشاء من أسئلة. أجابه وكيل النيابة بلهجة قاسية وجافة: إنني أسمع كل الأسئلة التي تتصل بالظروف المادية للقضية. أعود فأقول لك إن من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التي قد تثيرها. لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذي سألت عنه الآن نائماً على سريره مغشياً عليه يعاني نوبة صرع شديدة، هي النوبة العاشرة فيما أظن، لأن النوبات تتلاحق بدون انقطاع، حتى لقد صرَّح الطبيب الذي رافقنا، بعد أن عاينه، أن أغلب الظن أنه لن يعيش حتى الصباح.

ـ في هذه الحالة، فالشيطان هو الذي قتل أبي إذن! قال ميتيا، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة: «أهو سمردياكوف أم لا؟».

ـ سنعود إلى هذه المسألة فيما بعد. قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة: هل يمكنني رجاءً استئناف سرد الوقائع؟

وافق وكيل النيابة على طلب ميتيا بأن يستريح بضع لحظات. وبعد انقطاع قصير تابع ميتيا كلامه وقد بدا عليه التعب، فقد أرهقه الاستجواب، وأصبح مستاء. ثم إن وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابه بتحطيمه في كل لحظة بأسئلة تتناول أموراً تافهة لا قيمة لها. من ذلك مثلاً أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جلس على السور وكيف ضرب بمدقّ الهاون الخادم غريغوري الذي تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يقفز إلى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية، حتى استوقفه وكيل النيابة يرجوه أن يوضح طريقة جلوسه على السور. فدهش ميتيا من هذا الإلحاح، فأجابه:

ـ جلست... هكذا، راكباً، كركوبي على حصان، في كل جهة ساق...

ـ ومدق الهاون؟

ـ مدق الهاون؟ كان بيدي.

ـ ليس في جيبك؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاماً؟ هل اندفعت بقوة لتضربه؟

ـ لا بد من ذلك، ما دمت قد ضربت ضربة قوية. لماذا هذا السؤال؟

ـ ليتك تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التي جلست بها على السور، وتمثل الحركة التي قمت بها، والاندفاعة التي اندفعتها بذراعك، والجهة التي سدّدت إليها الضربة، زيادةً في الايضاح؟

ـ أتُراك تسخر مني؟ سأل ميتيا محدِّثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة.

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه. فاستدار ميتيا فوق كرسيه بحركة عصبية، وجلس عليه راكباً ركوبه على حصان، ورفع ذراعه، وقال:

ـ انظروا كيف ضربته! انظروا كيف قتلته! هل أنتم راضون الآن؟ ماذا تريدون أيضاً؟

ـ شكراً، هلّا شرحت لنا الآن لماذا قفزت بعد ذلك إلى الحديقة، وماذا كان هدفك من هذا؟ ما هو الدافع الذي خضعت له حين قفزت على ضحيتك؟

ـ عجيب... هل أعرف لماذا؟ قفزت عليه، لست أعرف السبب الذي دفعني إلى ذلك.

ـ لقد قفلتَ راجعاً إلى الحديقة مع أنك كنت تعاني انفعالاً شديداً وكنت تريد الهروب. فهلّا شرحت لنا هذا؟

ـ نعم، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب.

ـ فهل كان في نيتك أن تسعفه؟

ـ لا... على كل حال، لست أدري. لعلني أشفقت عليه، لا أتذكر الآن.

ـ لا تعرف؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل؟

ـ بلى، كنت في كامل وعيي، ولا أزال أتذكر أصغر التفاصيل. دعونا من ذلك الكلام! لقد أردت أن أرى الحالة التي كان عليها، وأن أمسح جرحه بمنديلي.

ـ عثرنا على المنديل. هل كنت تأمل إنقاذ حياة الضحية التي صرعتها؟

ـ لست أدري. لقد أردت، بكل بساطة، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟

ـ إذن؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟ فماذا وجدت عندئذ؟

ـ لم أستطع التأكد، لأنني لست طبيباً. ثم هربت معتقداً أنني قتلته. وها هو صحا من إغمائه.

ـ عظيم. قال وكيل النيابة أخيراً شكراً. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه. هلّا تفضلت فتابعت؟

ـ مع الأسف غاب عن بال ميتيا ـ رغم أنه كان يتذكر ذلك جيداً ـ أن يذكر أنه قفز إلى الحديقة بدافع الشفقة، وأنه حين مال على العجوز غريغوري قد نطق بكل ما يُعبِّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذي آلمه أن يراه قتيلاً في هذا المكان. إن كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه قفز عن السور «في لحظة كتلك اللحظة، رغم الاضطراب الشديد الذي كان يعانيه»، دون أن يكون له هدف إلّا أن يعرف هل الشاهد «الوحيد» على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات. وحدَّث وكيل النيابة نفسه قائلاً: «إن هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل»، ثم أضاف: «وأخيراً! لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه التفاهات، فإذا هو يفضح نفسه.».

وتابع ميتيا سرد قصته في عناء. ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام فوراً. وسأله:

ـ كيف ذهبت إلى الخادمة فيدوسا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك، كما ثبت ذلك فيما بعد؟

ـ لم ألاحظ أبداً عندئذ أنني كنت ملطخاً بالدم. أجاب ميتيا.

قال وكيل النيابة وهو ينظر إلى قاضي التحقيق.

ـ إنه يقول الحقيقة الآن، فذلك ما يحدث في مثل هذه الحالة.

ـ لم ألاحظ ذلك عندئذ، نحن الآن متفقان تماماً يا سيادة وكيل النيابة! قال ميتيا مؤيداً كلامه بحرارة.

ثم برزت فجأة قصة القرار الصعب بأن «يتنحى»، «يخلي الدرب للحبيبين السعيدين». ولكنه أحس أنه لا يملك الآن، كما في بداية الاستجواب، القدرة على أن يفتح قلبه، وأن يتحدث عن «ملكة قلبه» حديثاً طلقاً حراً. إن شعوراً بالاشمئزاز أمام هذين الإنسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما، بل يغرسانها في لحمه غرساً كحشرات تمص دمه، أقول إن شعوراً بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق في الكلام. فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة وعنيفة، عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة.

ـ حسناً، قررت أن أنتحر. فلماذا عليّ أن أبقى على قيد الحياة؟ إن هذا الحل يفرض نفسه بنفسه. إن صديقها القديم الشرعي الذي هجرها في الماضي قد عاد إليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسده، ويزيل عنها الأذى الذي ألحقه بها. أدركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع... وعدا هذا كان ذلك العار يلاحقني، وكان ورائي دم غريغوري هذا... ففيمَ الحياة بعد ذلك كله؟ هكذا ذهبت إلى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق في رأسي رصاصة عند الفجر...

ـ وبانتظار ذلك، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل؟

ـ نعم، قررت ذلك! دعونا ننهي هذه المسألة! لقد قررت أن أنتحر هناك، في أقصى هذه القرية، وكان ينبغي أن أنفذ عزمي هذا في الساعة الخامسة

من الصباح وراء السياج. وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب، كلمة كنتم ستجدونها في جيبي. لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسي. إليكم الورقة التي كتبت عليها تلك الكلمة، اقرأوها إن شئتم. وأضاف يقول باحتقار: ولست أروي هذا كله من أجلكم أنتم. ثم سحب من جيبه ورقة ورماها على الطاولة. قرأ وكيل النيابة وقاضي التحقيق الورقة باستطلاع شديد، وضمَّاها إلى الملف.

ـ ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب إلى السيد برخوتين؟ ألم تكن تخشى من الشكوك؟

ـ وماذا يهمني من كل هذا؟ كنت سأجيء إلى هذا المكان لأطلق على رأسي رصاصة في الساعة الخامسة من الصباح ولن يستطيع أحد أن يشك. وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم. فلولا المصيبة التي حلت بأبي، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا. ذلك من صنع الشيطان، هل تعلمون؟ إن الشيطان هو الذي قتل أبي وتولى مهمة إبلاغكم بهذه السرعة! ماذا فعلتم حتى تمكنتم من الوصول إلى هنا بعد وقوع الجريمة بهذه السرعة؟ إنها معجزة! ذلك أمر لا يصدَّق!

ـ ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيدك... بيديك الداميتين... أوراقاً مالية... مبلغاً ضخماً... حزمة من الأوراق المالية من فئة المئة روبل؛ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضاً.

ـ نعم أيها السادة؛ إنني أتذكر هذا. صحيح.

ـ هنا يبرز سؤال صغير. ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك؟ بدأ نيقولا بارفينوفتش كلامه بصوت رقيق جداً.

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المفاجئة، ولكنه لم يقاطع قاضي التحقيق.

ـ لم أمرَّ بمنزلي فعلاً! أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر، ولكن مطرقاً إلى الأرض.

ـ فاسمح لي إذن أن أكرر سؤالي تابع نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامز: من أين جئت بهذا المبلغ ما دام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر كنت...

ـ كنت في حاجة ملحّة إلى عشرة روبلات، فرهنت مسدسيَّ عند برخوتين، ثم ذهبت إلى السيدة خوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل، فرفضت أن تقرضني، الخ، قاطعه ميتيا. أعرف القصة. كنت لا أملك كوبيكاً واحداً، أليس كذلك أيها السادة، ثم إذا بي أملك ألوف الروبلات فجأة. أعتقد أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال، أليس كذلك؟ حسناً. أنا أرفض، نعم أرفض أن أشير لكم إلى مصدر المال. لقد حزرتم. لن أتكلم، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة. هكذا حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة.

وساد صمت.

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه بلهجة فيها رفق وحسم:

ـ اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال.

ـ أعرف ذلك، ولكنني مع هذا لن أقول لكم شيئاً.

وتدخل وكيل النيابة بدوره، فذكَّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه إذا هو اعتبر أن الصمت أجدى له، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الأهمية...

ـ وهلمَّ جراً أيها السادة، وهلمَّ جراً! كفى! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المكررة! قاطعه ميتيا بفظاظة: ثم إنني أعرف أنا نفسي خطورة هذا

السؤال الذي تطرحونه عليَّ، وأعرف أنه النقطة الرئيسية في القضية، ولكنني مع ذلك لن أتكلم.

ـ نحن لا مصلحة لنا على كل حال، القضية قضيتك! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصاً على ذلك! قال نيقولا بارفينوفتش بعصبية:

ـ لندع المزح جانباً أيها السادة. سأكون صريحاً. رفع ميتيا عينيه، ونظر إليهما بصلابة قائلاً: لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة. ولكن حين بدأت قصتي هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لي في مكان بعيد غائم، كأنه غارق في الضباب، حتى لقد بلغت من السذاجة في تلك اللحظة أنني اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة. وإني أدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أم آجلاً! وها نحن نصطدم به. فمن المستحيل أن نستمر. هذا كل شيء. ولست ألومكم على كل حال، فأنا أعرف أن ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف.

ـ ألا يمكنك، دون أن تخرق قرارك بالسكوت عن النقطة الأساسية، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو بإشارة صغيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟

ـ أنا أكثر لطفاً مما تتصورون أيها السادة. سأقول لكم لماذا، سأذكر لكم ما تطلبونه، رغم أنكم لا تستحقون ذلك! إنني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار. إن الجواب عن السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة إليَّ على دناءة إذا قيست بها جريمة قتل أبي وسلبه المال بدت أمراً يسيراً، حتى ولو كنت أنا المجرم. ذلك هو سبب اضطراري إلى الصمت. إن الشعور بالعار يخنقني. ماذا تفعلون أيها السادة؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟

ـ نعم سنسجلها. تمتم نيقولا بارفينوفتش.

ـ لا يجوز لكم أن تسجلوا ما قلته عن «الدناءة». لقد فتحت لكم قلبي من قبيل المجاراة. كان يمكنني أن أمنع عنكم هذا الايضاح. لقد قدمت إليكم هذا الإيضاح بغير داعٍ إلى ذلك، فهل تسارعون إلى تسجيله أيضاً؟ ليكن أيها السادة! اكتبوا ما شئتم. أنا لا أخشاكم... ولن أطأطىء رأسي أمامكم. بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً.

ـ ألا يمكنك أن تقول لنا ما هو نوع هذه الدناءة؟ تمتم نيقولا بارفينوفتش يسأله:

ـ أنصحكم ألا تلحوا! لست مضطراً لأن أدنس نفسي أكثر؟ كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة.

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الإلحاح، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيبوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد.

ـ قل لنا على الأقل مقدار المال الذي كان بيديك حين وصلت إلى السيد برخوتين. أي كم روبلاً بالتحديد؟

ـ لا، لا أستطيع أن أقول.

ـ ألم تتحدث إلى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك اقترضتها من السيدة خوخلاكوفا؟

ـ ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة.

ـ أوضح لنا إذن كيف وصلت إلى هنا، وماذا فعلت منذ وصولك إلى موكرويه!

ـ ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا. على كل حال، لا أرى بأساً في أن أروي لكم هذا.

أعاد عرض قصة تلك الليلة مرة جديدة. وكان يتكلم هذه المرة في

جفاف، مقتصراً على إشارات مقتضبة، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة. ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب «ظروف جديدة». ولم يتحدث عن حالاته النفسية، بل اقتصر على الوقائع المادية فقط. ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك، فلقد كان واضحاً في نظر وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن الأمر الأساسي ليس هنا.

ـ سنتحقق مما تقول، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود، بحضورك طبعاً قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب: أحب رجاءً الآن أن تضع على هذه الطاولة جميع الأشياء التي معك، ولا سيما الأموال، جميع المبالغ التي هي في حوزتك الآن.

ـ المال أيها السادة؟ أنا أفهم أن هذا لا بد منه، بل إنني لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن. وما كان لي أن أتهرب طبعاً، ما دمتم تراقبونني. إليكم المال. عدُّوه. خذوا. أعتقد أن هذا كل شيء.

أفرغ ميتيا جيوبه، وأخرج حتى النقود الصغيرة، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبيكات، أخرجها من جيب صِداره. وجُمعت الأموال، فبلغت ثمانمئة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبيكاً.

ـ أهذا كل شيء؟ سأله القاضي.

ـ هذا كل شيء.

ـ لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل، أثناء سرد الوقائع، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بولتنيكوف قد بلغ ثلاثمئة روبل، فإذا أضفنا إليها العشرة روبلات التي رددتها إلى برخوتين، والعشرين روبلاً التي أعطيتها الحوذي، والمائتي روبل التي خسرتها في اللعب بالورق أثناء الليل، ثم...

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً، وكان ميتيا يساعده راضياً، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل، فقال:

ـ فإذا حسبنا الثمانمئة روبل التي بقيت لك، كان معنى هذا أنك كنت تملك ألف وخمسمئة روبل؟

ـ ممكن. قال ميتيا.

ـ فكيف يُجمع الشهود إذن على أن المبلغ أكبر من ذلك.

ـ لهم أن يقولوا ما يشاؤون.

ـ لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا.

ـ ربما أكدت ذلك.

ـ سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين. أما المال فلا تخش عليه. سنحتفظ به في مكان آمن، وسيُردُ إليك في نهاية... هذا التحقيق... إذا ظهر عندئذ أو قل إذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بدون شك. حسناً، والآن...

قال نيقولا بارفينوفتش هذا، ونهض، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه «مضطراً» إلى أن «يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً»...

ـ افعلوا أيها السادة. سأقلب جيوبي إذا أردتم.

وأخذ يقلب كلَّ جيوبه.

ـ لا بد من أن تخلع ملابسك.

ـ ماذا؟ أخلع ثيابي؟ عجباً! ألا يكون تفتيش جيوبي أسهل من ذلك؟

ـ مستحيل! لا بد من خلع ثيابك يا ديمتري فيودوروفتش. يجب أن تخلع ثيابك.

ـ كما تشاؤون. قال ميتيا عابساً. ولكن ليس هنا، بل وراء الستارة. من سيتولَّى التفتيش؟

ـ طبعاً وراء الستارة. قال نيقولا بارفينوفتش وهو يحني رأسه موافقاً. وظهر على وجهه اللطيف تجهمٌ بالغ الخصوصية.

# VI

## وكيل النيابة يوقع ميتيا

لقد حدث لميتيا ما هو مدهش وغير متوقع. ما كان بإمكانه أن يتخيل، حتى قبل دقيقة واحدة، أن أحداً يمكن أن يعامله هكذا، هو، ديمتري كارامازوف! خاصة وأنه بدا إذلالاً له، «وازدراءً متعالياً» من قبلهم! فهم لم يطلبوا منه أن يخلع سترته فحسب! إنما أن يخلع ملابسه كلها. والأمر ليس أنهم طلبوا منه، لكنهم في الواقع أمروه بذلك. وهو قد فهم ذلك جيداً، لذلك خضع للأمر دون تذمر، كبرياءً واشمئزازاً! عدا نيقولا بارفينوفتش وقاضي التحقيق، كان يوجد وراء الستارة عدد من الفلاحين أيضاً، فقال ميتيا يحدث نفسه: «لقد دخل هؤلاء للمساعدة في إجباري على خلع ملابسي، وربما لشيء آخر كذلك».

ـ هل أخلع قميصي أيضاً؟ سأل ميتيا بعنف، لكن نيقولا بارفينوفتش لم يجب. لقد كان غارقاً مع وكيل النيابة بتفتيش السترة والسروال والصِدار والقبعة، وكان يبدو عليهما أن هذا التفتيش يهمهما إلى أقصى حد. قال ميتيا في نفسه: «أصبحا لا يتحرجان من شيء، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب!» وقال يسألهما بلهجة عنيفة: أسألكم مرة أخرى: أيجب أن أخلع القميص أم لا؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا كان إحساس ميتيا على الأقل): لا تقلق، سنقول لك ذلك في حينه.

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت. إن هناك بقع دم، غير متخثرة، تظهر على السترة، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى، وأن هناك بقع دم أخرى تُرى في السروال أيضاً. وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش، بحضور الفلاحين المكلفين، يجس الياقة وطيات الأكمام، ويجسّ كذلك مختلف خياطات الثياب، كأنه يفتش ليكتشف فيها شيئاً ـ هو المال طبعاً. وخصوصاً أن الرجلين كانا يدلان بذلك، بحضور ميتيا، على أنهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب. فجمجم ميتيا يقول: «يعاملونني الآن معاملة لص، لا معاملة ضابط». وكانا يتبادلان وجهات النظر بصوت عال وصراحة تامة دون اكتراث لوجوده. من ذلك مثلاً أن الكاتب، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش إلى القبعة التي أخذ يجسُّها أيضاً، قائلاً له: تذكروا المستخدم غريدنكا. لقد أوفد في هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفي الدائرة، فلما عاد صرَّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر. فأين وجدوا المال بعد ذلك؟ وجدوه في شريط قبعته! لقد صنع من أوراق المئة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسَّها تحت الشريط، ثم خاط الشريط. لم يكن وكيل النيابة وقاضي التحقيق قد نسيا قضية غريدنكا، فوضعا قبعة ميتيا في جانب وفي نيّتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً.

ـ هل تسمح؟ صاح نيقولا بارفينوفتش عندما رأى قبضة الكمّ اليمنى من قميص ميتيا ملطخة بالدم ومقلوبة، هذا دم أيضاً إن لم يخطىء ظني.

ـ نعم، هو دم. أجاب ميتيا بصوت قاطع.

ـ دم؟ ولماذا قلبت الكم؟

فذكر ميتيا أنه لطخ طرف كمِّه أثناء اهتمامه بغريغوري، ثم أعاد ترتيبه فيما بعد عند برخوتين الذي غسل يديه عنده أيضاً.

ـ يجب أن تنزع قميصك أيضاً قال نيقولا بارفينوفتش، يجب أن نأخذها... لاستكمال المشاهدات المادية. فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً:

ـ أأصبح عارياً الآن؟

ـ اطمئن... سنرتب هذا. وبانتظار ذلك، إنزع جوربيك من فضلك.

ـ هل أنتم تمزحون؟ أهذا ضروري حقاً؟ سأل ميتيا وقد سطع في عينيه الغضب:

ـ لسنا هنا للمزاح. أجابه القاضي بلهجة قاسية.

ـ ما دام هذا ضرورياً... أنا... تمتم ميتيا وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه:

كان يشعر بعار لا يطاق. كل الحاضرين، ما عداه، يرتدون ثيابهم، شيء غريب، حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مذنب أمامهم. خاصة وأنه سلَّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً فجأة، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه. قال يحدث نفسه: «حين يكون الجميع عراة فلا عار، أما حين أكون وحدي عارياً فذلك هو العار! لكأنني في حلم! لقد سبق أن عانيت في الحلم انحطاطات من هذا النوع». وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه: إنهما وسخان، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً، ففي وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن. ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعتبر أصابعهما بشعة، ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التي كان أحد أظفارها مسطحاً تاماً فلا ينحني إلّا في نهايته. سوف يراه الجميع الآن. اجتاحه الشعور بالعار، ففارت نفسه، وأصبح فظاً عن قصد. قال:

ـ ألا تودُّون أن تلاحقوا تحرياتكم إلى أبعد من هذا إذا كان الحياء لا يصدكم؟

ـ لا، لا داعي إلى ذلك الآن.

ـ وهل عليَّ أن أنتظر عارياً؟ سأل بلهجة فيها غضب.

ـ لا بد من ذلك الآن. تفضل واجلس هنا. في إمكانك أن تتدثر بشرشف السرير... وسأحاول أن أتدبر الأمر.

عرضت الثياب على الشهود. ووضعوا محضراً بذلك، ثم خرج أخيراً نقولا بارفينوفتش، وأُخذت الملابس، وانصرف وكيل النيابة أيضاً. لم يبق مع ميتيا سوى الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوِّلون عنه أبصارهم. تدثر ميتيا بالغطاء، لأنه كان يحس ببرد شديد، ولكنه لم يستطع أن يحمي قدميه العاريتين على أي نحو تلفف. وتأخر نيقولا بارفينوفتش عن العودة، كأنه يريد «إطالة تعذيبه». فجمجم ميتيا يقول وهو يصرف أسنانه: ـ يحسبني صبيّاً! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك، احتقاراً في أغلب الظن، واشمئزازاً من رؤية رجل عار. وكان ميتيا يعتقد مع ذلك أنهم سيُرجعون إليه ثيابه بعد تثبت جديد. فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود إليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه.

ـ إليك هذه الثياب التي حصلنا لك عليها أخيراً. قال له بلهجة ودود: وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التي وصلت إليه مساعيه. وتابع كلامه يقول: ـ إن السيد كالغانوف هو الذي تفضل، في هذا الظرف الغريب، فقدم إليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما في حقيبته من حسن الحظ. أما ملابسك الداخلية وجورباك ففي إمكانك أن تحتفظ بها.

انفجر ميتيا فزأر بصوت مهدِّد:

ـ لا أريد هذا الرداء الذي ليس لي. ردوا إليَّ ملابسي.

ـ مستحيل.

ـ أعيدوا إليّ حوائجي. ليأخذ الشيطان كالغانوف وثيابه!

كان من الصعب عليهم إقناعه، ولكنه ما لبث أن هدأ. لقد أقنعوه بضرورة «ضمِّ الثياب إلى وثائق الإثبات» ما دامت ملطخة بالدم. وقد حرص قاضي التحقيق على أن يقول له «إنه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة، فليس يدري أحد ما هو المنحى الذي قد تجري فيه القضية». اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج، وبدأ يرتدي الثياب الجديدة، وهو محافظ على سكوت عابس. واكتفى بأن قال وهو يرتدي سترة كالغانوف إن هذه السترة أغلى ثمناً من قميصه، وإنه يكره أن «يستفيد» منه؛ وأضاف يقول: ثم إنه ضيِّق عليَّ فهو يجعلني مضحكاً. هل عليَّ أن أظهر للناس مضحكاً... لتتسلّوا أنتم؟

وحاولوا أن يقنعوه مجدداً بأنه يبالغ، وبأن قامة السيد كالغانوف كقامته هو، وإن يكن السيد كالغانوف أطول منه قليلاً، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الشيء. ولكن اتضح أن السترة مشدودة جداً عند الكتفين، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد:

ـ من المستحيل عقد أزرارها. أرجو أن تبلغوا السيد كالغانوف أنني لست أنا الذي رغبت في ارتداء ثيابه، وأنني أُكرهت على ارتدائها كمهرِّج!

ـ هو يفهم هذا، وهو يأسف... دمدم قاضي التحقيق: لا يأسف على حرمانه من ثيابه بل يأسف على ما وقع لك.

ـ لا حاجة بي إلى أسفه! أين يجب أن أذهب الآن؟ أم أنا مضطر إلى البقاء هنا؟

ـ طلبوا منه العودة إلى «الغرفة الأولى» من جديد. فدخل ميتيا منقبضَ الوجه غضباً، محاولاً ألّا ينظر إلى أحد. كما كان يشعر وهو في ثيابه المستعارة أنه مذلّ حتى في نظر الفلاحين، وفي نظر تريفون بوريستش الذي لاح وجهه خلسةً من خلال باب شقه ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا في نفسه: «أراد أن يتأملني وأنا في هذا الزي الهزلي». وجلس على الكرسي الذي كان يشغله منذ قليل.

كان يبدو لي أنه يعيش حلماً ثقيلاً، يعيش كابوساً، وكان يتساءل ألم يصبح مجنوناً؟

ـ جيد، والآن، هل تأمرون بجلدي؟ لم يبق لكم إلّا هذا! التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين.

لم يشأ أن يلتفت نحو نيقولا بارفينوفتش، لأنه يرفض أن يوجه إليه أي كلمة. وقال يحدث نفسه: «لقد تلذذ بتأمل جوربيَّ زمناً طويلاً جداً، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً ـ يا للشقي! ـ لكي يُظهر الجميع على أن ملابسي الداخلية قذرة جداً!».

ـ حسناً. سنبدأ الآن استجواب الشهود. قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله:

ـ نعم نعم. قال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضي.

يبدو على وكيل النيابة أنه كان يفكر في أمرٍ ما. وتابع القاضي كلامه فقال:

ـ لقد بذلنا قصارى جهدنا يا ديمتري فيودوروفتش من أجل مصلحتك. ولكن بعد أن رفضت رفضاً فظّاً أن تلبي طلبنا فتقدم لنا بعض الإيضاحات عن مصدر المبلغ الذي في حوزتك، فإننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن..

ـ من أيّ نوع صُنع هذا الخاتم؟ قاطعه ميتيا.

كان ميتيا يتكلم كمن هو في حلم، مشيراً إلى أحد الخواتم الثلاثة التي تزين يد القاضي الصغيرة.

ـ خاتمي أنا؟ سأل نيقولا بارفينوفتش في دهشة.

ـ نعم، هذا الخاتم... ذلك الذي يزين الإصبع الوسطى. ما هذا الحجر الكريم؟ قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها الكثر من نفاد الصبر، كطفل عنيد ذي نزوات.

ـ هو زمرُّد أدكن! فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسماً: هل تريد أن تراه؟ سوف أنزعه فـ...

ـ لا، لا... لا تنزعه.. صاح ميتيا بعنف مستعيداً رشده، وساخطاً على نفسه! لا تنزعه... الأمر لا يستحق العناء... آه... لقد دنستم نفسي أيها السادة! هل تظنون أنني كان يمكن أن أخفي عليكم لو أنني قتلت أبي فعلاً، هل تظنون أنني كان يمكن أن أنكر وأكذب وأختفي؟ إنكم لا تعرفون ديمتري فيودوروفتش! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة! أقسم أنه لو كان مجرماً لما انتظر أن تصلوا إلى موكرويه، ولما بقي حياً إلى الفجر كما كان ينوي، وإنما كان قتل نفسه فوراً! لقد تعلمت في هذه الليلة الواحدة المشؤومة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاماً من الحياة! هل كان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، هل كان يمكنني في هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن، أكنت أجد هذه اللهجة، أكنت أقوم بهذه الإشارات، أكنت أستطيع أن أنظرإليكم وجهاً لوجه، أنتم والعالم بأسره، لو كنت قاتل أبي حقاً؟ إن مجرد تصوُّري أنني ارتكبت جريمة قتل غريغوري عرَضاً قد ظل يعذبني طوال الليل، لا خوفاً، ولا خشية من عقابكم! يا للعار! ثم تريدون بعد ذلك، أيها العابثون، تريدون أن أفضي إلى أناس مثلكم، أناسٍ لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئاً، أيها المناجذ العميان، دناءةً أخرى ارتكبتها، حتى يزداد عاري؟ لن أفعل ذلك ولو أدى إلى تبرئتي من اتهاماتكم. أفضِّل على هذا سجون الأشغال الشاقة! إن من فتح باب أبي ودخل من ذلك الباب. هو من قتله وهو من سرق ماله! من هو ذلك الشخص؟ إنني أتيه، وأعذب نفسي لمعرفته. ولكن ليس هو ديمتري كارامازوف على كل حال، فاعلموا هذا. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم. فلا تلحّوا... أرسلوني إلى سيبيريا، أو نفذوا فيَّ الحكم بالاعدام، ولكن توقفوا عن اللعب بأعصابي. ها أنا أسكت. استدعوا شهودكم!

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا على وجهه أنه عازم بثبات على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة. وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظراً أن ينهي

كلامه. فما إن ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جداً.

ـ في موضوع ذلك الباب المفتوح الذي جئت على ذكره الآن، يبدو أننا نستطيع أن نطلعك ـ وهذا هو الوقت المناسب لذلك ـ على واحدة من أغرب الشهادات وأكثرها أهمية، بالنسبة إليك وبالنسبة إلينا معاً، وهي شهادة العجوز غريغوري فاسيليف الذي جرحته. لقد صرَّح هذا العجوز، بعد أن أفاق من إغمائه واستعاد وعيه، قال لنا بوضوح وإلحاح في الإجابة عن أسئلة ألقيناها عليه، إنه حين خرج من باب منزله فسمع ضجة مشتبهاً فيها، قرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الحديدي الذي كان مفتوحاً؛ ولكنه قبل أن يراك في الحديقة أثناء هروبك في الظلام مبتعداً عن النافذة التي رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل، قد لاحظ أيضاً، من مكان أقرب إليه كثيراً، ذلك الباب الذي تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك في الحديقة، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لما تدَّعي. ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وإنما لمحك حين كنت قد أصبحت قريباً من الباب، وسط الحديقة، راكضاً نحو السور...

قفز ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يكمل كلامه، وصاح خارجاً عن طوره:

ـ هذا كذب دنيء! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً، لأن الباب كان مغلقاً في تلك اللحظة... إنه يكذب!

ـ من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أن أقواله واضحة جداً في هذه النقطة، وأن شهادته لم تختلف ولم تتناقض، بل ظل مصراً عليها بإلحاح، لأننا سألناه عن هذا الأمر مراراً.

ـ أنا نفسي استجوبته. قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة.

فاستأنف ميتيا كلامه صارخاً:

ـ هذا كذب! هذا كذب! لا يمكن أن يكون هذا إلّا وشاية تستهدف الإيقاع بي، أو أن يكون أوهام رجل يهذي. لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه... فقصَّ عليكم ما رآه في الحلم حين صحا من إغمائه... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذي.

ـ أتمنى لو أصدِّق ما تقول، ولكن العجوز لم يرَ الباب مفتوحاً بعد أن أفاق من إغمائه، وإنما رآه قبل أن يُجرح، لحظة دخوله الحديقة.

ـ غير صحيح، غير صحيح. لا يمكن أن يكون! إن الكره هو الذي يدفعه إلى اتهامي... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب... أنا لم أهرب من الباب! صاح ميتيا لاهثاً.

فالتفت وكيل النيابة إلى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة، أرِه الظرف.

فإذا بالقاضي يضع على الطاولة ظرفاً كبيراً من ورق متين، تُرى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمسَّ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه؛

ـ هل تعرف هذا؟ قال القاضي يسأل ميتيا.

ـ لا شك، قال ميتيا، أنه الظرف الذي كان عند أبي والذي كان يحوي ثلاثة آلاف روبل، إذا كان عليه كتابة. هل تسمح لي بأن أرى؟ نعم، هذه هي الكتابة: «إلى حبيبتي»، وهنا: «ثلاثة آلاف روبل... وصاح ميتيا: ثلاثة آلاف روبل... أرأيتم»؟

ـ طبعاً رأينا. ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ. كان الظرف ممزقاً مرمياً على الأرض قرب السرير وراء الحاجز.

بقي ميتيا بضع ثوان كالمصعوق. ثم صاح فجأة بكل قواه:

ـ إنه سمردياكوف، أيها السادة! هو الذي سرق وقتل. إنه الإنسان الوحيد الذي كان يعرف الموضع الذي خبأ فيه العجوز الظرف... إنه هو، كل شيء واضح الآن!

ـ ولكنك كنت أنت أيضاً على علم بوجود هذا الظرف، وتعرف أنه موضوع تحت الوسادة.

ـ بل كنت أجهل ذلك تماماً: لم أرَ هذا الظرف حتى الآن، ولم أكن أعلم بوجوده إلّا من مسارات سمردياكوف... كان سمردياكوف وحده يعرف... أين خبأ العجوز الظرف. أما أنا فكنت لا أعرف. كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس.

ـ لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجوداً تحت وسادة المتوفَّى أبيك. لقد حدَّدت بنفسك أنه كان مخبأً تحت الوسادة. معنى هذا أنك كنت تعرف!

ـ لقد سُجِّلت تصريحاتك في محضر الاستجواب، قال نيقولا بارفينوفتش.

ـ إن يكن، هذه حماقة! لم أكن أعرف إطلاقاً أنه تحت الوسادة... وعلى كل حال، لم يكن تحت الوسادة إطلاقاً... لقد ذكرت الوسادة مصادفة... ماذا قال لكم سمردياكوف؟ هل سألتموه أين كان الظرف؟ هذا هو المهم!... أنا كذبت عمداً... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة. وأنتم، فوراً... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة. لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر، ولم يكن يعرفه أحد سواه!... رفض أن يكشف لي عن المخبأ، حتى أنا رفض أن يكشف لي عن المخبأ. إنه هو، هو القاتل! هو القاتل لا محالة، لقد اتضح الأمر الآن. هكذا صاح ميتيا مضطرباً، وقد أصبحت عباراته مفككةً غير متماسكة من فرط الانفعال. ـ افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن

تضيعوا لحظة واحدة!... لقد أصبح واضحاً أنه قتل أبي بينما كنت أنا أهرب وكان غريغوري ينام في الحديقة بلا حراك. أصبح كل شيء واضحاً... قرع الباب بالإشارة المتفق عليها، ففتح له أبي الباب... لأنه الشخص الوحيد الذي كان على علمٍ بالإشارات التي ما كان لأبي أن يفتح الباب بدون سماعها...

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار في نبرة صوته:

ـ يظهر أنك تنسى من جديد أن الإشارات تصبح زائدة لا داعي إليها، مادام الباب كان مفتوحاً من قبل، بينما كنت أنت ما تزال في المكان، أعني في الحديقة...

ـ الباب... الباب! قال ميتيا متلعثماً.

وسكت، وحدَّق إلى وكيل النيابة بنظرة متجهمة. ثم تهالك على الكرسي كالمنهار. وساد صمت. ثم هتف يقول فاقد القوى:

ـ نعم، الباب!... كان هذا شبحاً! الله ضدي!

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة:

ـ أرأيت؟ احكم الآن بنفسك يا ديمتري فيودوروفتش. هناك من جهة أولى هذه الشهادة الدامغة، في نظرك وفي نظرنا، أعني الشهادة بأن الباب كان مفتوحاً وأنك هربت منه. وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذي لا يُفهم، هذا الصمت الذي تلوذ به عن مصدر المال الذي أصبح في حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات، فيما صرحت به أنت نفسك، مضطراً إلى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات. فماذا نصدّق وإلى أي شيء نستند؟ هلّا قلت لي؟ فلا تأخذ علينا، ظلماً وعدواناً، أننا أناس «مستهزئون باردون مستهترون»، عاجزون عن فهم ما في نفسك من اندفاعات نبيلة... بل ضع نفسك في مكاننا...

كان ميتيا مضطرباً، وقد شحب لونه، ثم هتف يقول:

ـ حسناً! سأكشف لكم عن سرّي، سأطلعكم على مصدر المال... سأكشف عن عاري، حتى لا ألوم نفسي ولا ألومكم في المستقبل...

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان.

ـ ثق يا ديمتري فيودوروفتش أن اعترافاً صادقاً كاملاً منك الآن قد يخفف عنك كثيراً في المستقبل، حتى لقد...

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت الطاولة فسكت القاضي في الوقت المناسب. وكان ميتيا لا يصغي إليه على كل حال.

# VII

## سرُّ ميتيا الكبير. الخيبة

ـ أيها السادة، بدأ ميتيا كلامه منفعلاً. أريد أن أعترف بالحقيقة كلها... هذا المال كان لي أنا.

فتح وكيل النيابة وقاضي التحقيق فمهما. ليس هذا ما كانا يتوقعانه أبداً.

ـ المال لك أنت، كيف يعقل هذا؟ أنت تقول في اعترافك إنك في الساعة الخامسة بعد الظهر... تمتم نيقولا بارفينوفتش.

ـ سحقاً للساعة الخامسة بعد الظهر ولاعترافي! ليس هذا هو الموضوع الآن! لقد كان ذلك المال لي أنا... أقصد أنني استوليت عليه، سرقته... نعم سرقته سرقته. هو مبلغ ألف وخمسمئة روبل وكنت أحملها دائماً معي، معي...

ـ من أين أخذتها؟

ـ من عنقي أيها السادة، من هذا العنق الذي ترون هنا... كنت أخبئها هنا، معلقةً بعنقي، مخيطة في خرقة. هكذا كنت أحمل عاري منذ زمن طويل، منذ أكثر من شهر!

ـ ولكن لمن كان هذا المال الذي... استوليت عليه؟

ـ تريدون أن تقولوا من عند من «سرقته»؟ سمُّوا الأشياء بأسمائها! أنا

أعتقد فعلاً أنني سرقت هذا المال، أنني «استوليت» عليه إذا كنتم تؤثرون هذا التعبير. وأنا أرى أنه سرقة. وأمس مساءً، اكتملت السرقة.

ـ ولكنك قلت إنك حصلت عليه... منذ شهر.

ـ نعم، ولكن لم أسرقه من أبي، ليس منه، اطمئنوا! لم أسرقه من عند أبي، بل من عندها. دعوني أروي لكم الوقائع دون أن تقاطعوني. إنه لأمر قاس على نفسي أن أتكلم، هل تفهمون؟ منذ شهر، نعم منذ شهر استدعتني كاترينا إيڤانوفنا فرخوفنريفا ـ خطيبتي السابقة ـ... هل تعرفونها؟

ـ طبعاً نعرفها؟

ـ أعلم أنكم تعرفونها. هذه إنسانة ذات نفس نبيلة، لا يجاريها في نبلها أحد ولكنها كانت تكرهني منذ زمن طويل... طويل جداً... وكان من حقها أن تكرهني على كل حال!

ـ كاترينا إيڤانوفنا؟ سأله القاضي مندهشاً.

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً.

قال ميتيا:

ـ أوه! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ! كنت وغداً حين ذكرت اسمها. نعم، كنت أعلم أنها تكرهني منذ زمن طويل... منذ اليوم الأول، في مسكنها هناك... ولكن كفى! كفى حديثاً في هذا الأمر! إنكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء، ولا داعي إلى ذكر هذه الأشياء على كل حال... يكفيكم أن تعرفوا أنها استدعتني منذ شهر وأعطتني ثلاثة آلاف روبل كلفتني بأن أرسلها إلى أختها وإلى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها؟) وأنا... كانت تلك الساعة هي بعينها الساعة المشؤومة في حياتي، كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي... الخلاصة... هي اللحظة التي كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل، هي اللحظة التي كنت فيها قد أحببتها «هي».. امرأة هذا

اليوم... تعلمون تلك التي أودعت تحت، غروشنكا... فجئت بها إلى هنا، إلى موكرويه، فأنفقت خلال يومين من الاحتفال والقصف، نصف ذلك المبلغ اللعين، أعني ألفاً وخمسمئة روبل، واحتفظت بالنصف الآخر. فهذه الألف وخمسمئة روبل الباقية هي ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلَّقاً بعنقي مَخيطاً في كيس. وقد فتحت الكيس أمس، فأنفقت هذا المال في القصف هنا. وإن الثمانمئة روبل الموجودة لديك يا نيقولا بارفينوفتش هي كل ما بقي لي من الألف وخمسمئة روبل تلك.

ـ دعني أذكرك، أن مسألة تبذيرك ثلاثة آلاف روبل لا ألف وخمسمئة أمر يعرفه جميع الناس.

ـ من يعرفه؟ من الذي حسب نفقاتي؟ لمن أعطيته ليعدَّه؟

ـ أنا من أخبر الجميع أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل.

ـ صحيح، قلت هذا، وللمدينة كلها، والناس يتحدثون عنه في كل مكان، وما من أحد إلّا ويعتقد اعتقاداً جازماً بأنني أنفقت ثلاثة آلاف روبل. وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضاً. ولكنني، مع ذلك، لم أنفق في الواقع إلّا ألفاً وخمسمئة روبل، ثم خطت باقي المبلغ في كيس. هذه هي الحقيقة أيها السادة، ذلك هو مصدر المال الكثير الذي كان في حوزتي أمس...

ـ يشبه هذا أن يكون معجزة... دمدم نيقولا بارفينوفتش.

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا:

ـ اسمح لي أن أسألك هل أفضيت بهذا السر إلى أحد قبل هذا اليوم... أعني: هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمئة روبل هذا؟

ـ لم أقل لأحد.

ـ غريب. لم تذكره لأحد، أبداً.

لكن لماذا هذا السكوت؟ ما الذي دفعك إلى الاحتفاظ به سراً؟ سأشرح

لك بشكل أدق. لقد كشفت لنا أخيراً عن سرِّك الذي تراه «مخزياً» إلى هذا الحد في نظرك، رغم أن هذا الفعل ليس في الواقع ـ إذا قيس بغيره طبعاً ـ إلّا هفوة صغيرة. أريد أن أتحدث عن استيلائك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي لم تكن لك، إنما تملكتها موقتاً بالطبع ـ أن هذا العمل يُعد طيشاً، ينبغي أن يُعد خطأً مرده إلى الخفة، ولكنه ليس بهذا القدر من الخزي، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى طبعك... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له، وأنا أسلّم بذلك... ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو ما أشبه ذلك... واعلم على كل حال أن كثيراً من الناس، في هذه المدينة، قد عرفوا، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيفا. لقد اشتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال، رغم أنه لا أدلة على ذلك، حتى لقد وصلت هذه الشائعة إلى أسماعنا، وعلم بها ميخائيل ماكاروفتش أيضاً، فليس الأمر سراً إذن، وإنما هو كلام يتردد في كل مكان... ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة، أثناء حديث خاص، إذا لم يخطىء ظني، بأن ذلك المبلغ مصدره الآنسة فرخوفتزيفا... لذلك أستغرب كثيراً عندما أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمئة روبل، فيما تدعي، اهتماماً خارقاً وتضفي عليها خطورة عظيمة، ولا أفهم أبداً أن تجعلها سراً لا تتكلم عليه، سراً مصحوباً بنوع من الهلع الأخلاقي. ليس من المعقول أن يسبب لك سرٌّ من هذا النوع عذاباً كهذا، وأن يبدو لك الاعتراف به صعباً إلى هذا الحد... ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة...

سكت وكيل النيابة. وكان قد تحمس أثناء الكلام، والتهب فيه استياء متزايد يشبه الغضب، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة، ودون كثير من التسلسل أيضاً، وكان يدع لأفكاره أن تنفجر في جمل متقطّعة ومبهمة...

ـ ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل، بل العار في أنني ادّخرت نصف هذا المبلغ، أي ألفاً وخمسمئة روبل! قال ميتيا بصوت جازم.

فقال وكيل النيابة وهو يضحك باغتياظ:

ـ حقاً؟ هلّا قلت لي أين العار في أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاءً غير لائق، أو مخزياً إن كنت تؤْثر أن تصفه بهذه الصفة؟ إن الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كثير من الأمانة، وليس أنك تصرفت في المال على هذا النحو أو ذاك! بالمناسبة: هل تستطيع أن تقول لي لماذا قسمت المبلغ نصفين، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين؟

ـ أيها السادة، ذلك هو الدراما كلها! صاح ميتيا. لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة، أي عن حساب. ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة في مثل هذه الحالة... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره!

ـ أنا لا أفهم.

ـ أستغرب هذا منكم. اصغوا إليّ جيداً. صحيح أن كلامي غير مفهوم للوهلة الأولى. هل تتابعون ما أقول: لقد استوليت على ثلاثة آلاف روبل اؤتمنت عليها، فأنفقتها في المرح إلى آخر كوبيك منها. أذهب إلى آنستي في الغد وأقول لها: «كاتيا، سامحيني، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتني عليها». ليس هذا خيراً بطبيعة الحال، وإنما هو سوء أمانة، وضعف خلق؛ هو سلوك إنسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته. ولكنني في هذه الحالة لن أكون سارقاً، لن أكون لصاً. لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة. هل توافقونني على هذا؟ لقد بددت المال الذي اؤتمنت عليه، ولكنني لم أسرقه. فلنفرض الآن فرضاً ثانياً، فرضاً أفضل من الأول أيضاً. تابعوا ما أقول، وإلّا فقد أرتبك مجدداً. إن رأسي يدور قليلاً. إليكم الفرض الثاني: لنفرض أنني

أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط، أي ألفاً وخمسمئة روبل، ولنفرض أنني ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال، وقلت لها: «استردي مني المال يا كاتيا لأنني لست إلّا إنساناً شقياً محموم الرأس. استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه، وإلّا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول. إنني لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية!». فماذا أكون عندئذ؟ أكون ما شئتم، أكون شيطاناً وأكون شقياً، ولكنني لن أكون لصاً، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً. لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمئة روبل الباقية، وإنما كنت احتفظت بها لنفسي. كانت ستدرك هي عندئذ أنني ما دمت أرد إليها نصف المبلغ، فسأرد إليها النصف الثاني آخر الأمر، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتي مدخراً لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأعيده إليها. إذن، بهذا الشكل أنا وغد، ولكنني لست لصاً؛ أكون ما شئتم، ولكنني لا أكون سارقاً!

ـ لنسلِّم بأن هناك فرقاً ما. قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة: مع ذلك، إنه غريب أن تروا هذا الفرق الحاسم!

ـ أجل. أنا أرى فرقاً حاسماً. إن أي إنسان يمكن أن يكون وغداً، ولا شك أننا جميعاً جبناء بدرجات متفاوتة. ولكن ليس كل إنسان يمكنه أن يكون لصاً. لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً. أعتقد أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني... ولكن اللص أحقر وأدنأ الأوغاد. تلك هي قناعتي العميقة! أصغوا إليَّ. لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع، وكنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيراً، أما وأنني لم أستطع أن أتخذ هذا القرار، فذلك هو الأمر الخطير! كنت كلَّ يوم أفكر فأقول لنفسي: «قرر أيها الشقي، يجب أن ترد المال». ولكن القرار لم يأتِ، وطالت القضية شهراً بأكمله. فما رأيكم؟ ألعلكم ترون هذا جميلاً؟

ـ لنعترف أن ذلك ليس جيداً، أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم. أنا أفهم هذا جيداً، ولا يخطر ببالي أن أجحده. ولكنني أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام على هذه الفروق، وأن تدع هذه الرهافة في التمييز بين الأمور، وأن تعود إلى جوهر القضية. لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا، في الإجابة عن سؤالي، السبب الذي دفعك إلى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه في القصف وتحتفظ بالنصف الثاني معك. ماذا كان هدفك من ذلك، وعلى أي غرض وقفت هذه الألف وخمسمئة روبل التي احتفظت بها؟ إنني أصرُّ على هذا السؤال يا ديمتري فيودوروفتش!

ـ لكن هذا صحيح! صاح ميتيا وهو يضرب جبينه! المعذرة، إنني أعذبكم بهذه المناقشات بدلاً من أن أشرح لكم جوهر الأمر. لقد نسيت أن أفعل! سأقول لكم الآن الأساسي. ذلك أن العار كله يكمن هنا. اسمعوا: لقد كان العجوز، المتوفَّى، يلاحق أغرافينا ألكسندروفنا بإلحاحه ولحاجته، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة. وكنت أتخيل في ذلك الحين أنها مترددة بيني وبينه لا تعرف أتختارني أم تختاره، فكنت أتساءل كل يوم: «ما عسى يحدث إذا هي حزمت أمرها فجأة وكفّت أخيراً عن تعذيبي وصارحتني قائلة: أنت الذي أحبه لا هو، فلنسافر... خذني إلى آخر الدنيا». كنت أتساءل ماذا سيحدث عندئذ وأنا لا أملك في جيبي إلّا بضعة كوبيكات! أين لنا المال الذي نسافر به؟ ماذا أفعل حينذاك؟ كان ذلك هو الهوة، هو اليأس! لاحظوا أنني لم أكن قد عرفتها جيداً في ذلك الأوان. كنت أعتقد أنها لا تستغني عن المال، وأنها لا تسامح فقري. ذلك هوالسبب الذي من أجله قررت، جباناً، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل، وأن أخيط المبلغ في كيس. وذلك ما فعلته ببرودة، بحساب، من قبل أن أسكر! وبعد ذلك، بعد أن طويت الكيس وخطته، سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمئة روبل الأخرى. لا، لا. ذلك حقارة. هل فهمتم الآن؟

انفجر وكيل النيابة وقاضي التحقيق في ضحك صاخب. وقال نيقولا بارفينوفتش ساخراً:

ـ في رأيي أن قرارك كان عقلانياً وأخلاقياً، على عكس ما تقول، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحدة. أين في هذا ما يثير السخط؟

ـ تكمن المسألة في أنني سرقت هذه القذارة. إن عجزكم عن الفهم يروِّعني! كنت أثناء حملي هذه الألف وخمسمئة روبل في عنقي، أردد كل يوم وكل ساعة: «أنت لص، أنت لص!». وبسبب هذا العار الذي يرهقني، بسبب هذا الشعور بأنني سارق، إنما كنت شرساً عنيفاً خلال هذا الشهر الأخير. ذلك هو السبب في أنني تشاجرت واقتتلت في الكاباريه، وأنني ضربت أبي. وحتى إيليوشا أخي لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة في موضوع الألف وخمسمئة روبل، فإلى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة! ولاحظوا أيضاً أنني طوال مدة احتفاظي بالمال المودع في الكيس سليماً لا أمسه، كنت أستطيع أن أقول لنفسي كل يوم وكل ساعة: «لا يا ديمتري فيودوروفتش، ربما لم تكن لصاً!». لماذا؟ لأنني كنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب إلى كاتيا فأرد إليها هذا المال. وأمس فقط، بعد أن تركت فينيا، وفي طريقي إلى منزل برخوتين، قررت أن أفضَّ الكيس. أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمري. ولكنني منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل، لصاً لا يمكن إنكار أنه لص؛ أصبحت رجلاً بدون شرف إلى آخر الحياة. لأنني حين مزقت الكيس قد مزقت في الوقت نفسه أملي في أن أذهب إلى كاتيا وأن أقول لها: «أنا جبان ولكنني لست لصاً». هل تفهمونني الآن!

ـ فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس مساءً؟

ـ لماذا؟ إنها مسألة مضحكة! اتخذت قراري لأنني حكمت على نفسي

بالموت هنا، في هذا المكان، عند الفجر. قلت لنفسي: «ما قيمة أن أموت شريفاً أو وغداً بعد الآن؟». ولكنني أدركت أن الأمرين لا يستويان.. صدقوني أيها السادة! إن العذاب الأكبر الذي عانيته في هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعوري بأنني قتلت الخادم العجوز، ولا تصوُّري أنني سأُحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة. لا، صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل إلى السجن في اللحظة التي أخذ فيها حبي ينتصر، في اللحظة التي انفتحت فيها سماوات السعادة أمامي! ولكن ذلك لم يكن عذابي الأكبر. ولا كان يساوي، على الأقل، عذابي من تصور أنني فتحت ذلك الكيس اللعين، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس، وأصبحت بهذا لصاً إلى الأبد! أيها السادة، إنني وقد تهدمت إلى أعمق أعماق كياني، أعود فأقول لكم: لقد تعلمت أشياء كثيرة في هذه الليلة. لقد تعلمت ليس فقط أنه يستحيل على المرء أن يعيش وغداً وإنما أيضاً أن يموت وغداً... لا، يا سادة، لا يمكن أن يموت المرء إلّا في الشرف...

كان ميتيا شاحب اللون، مشدود العضلات، وكان وجهه المنقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام.

ـ بدأت أفهمك يا ديمتري فيودوروفتش. قال وكيل النيابة بلهجة ملطَّفة فيها شيء من التعاطف ولكنني أعتقد أنك تبالغ قليلاً، وأن أعصابك، أعصابك المريضة، هي السبب الحقيقي لعذابك... فمثلاً: لماذا لم يخطر ببالك، حتى تتخلص من الآلام النفسية التي قاسيتها خلال شهر بأكمله، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب إلى تلك الإنسانة التي ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد إليها الألف وخمسمئة روبل؟ ألا يكون أبسط من هذا كله، بعد أن تشرح لها الخطيئة التي ارتكبتها في لحظة ضلال، أن تعمد إلى حلٍ يخطر على البال من تلقاء نفسه، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذي كنت فيه كما تقول؟ لقد كان في وسعك، بعد أن تعترف لها اعترافاً كلُّه نبلٌ، كان في وسعك أن تطلب

إليها أن تقرضك المبلغ الذي كنت في حاجة إليه؛ وإني لعلى يقين، لمعرفتي بسمو نفسها، أنها ما كان لها أن ترفض إقراضك ذلك المبلغ، لا سيما وقد وقعت لها سنداً أو، أخيراً الضمانات التي عرضتها على التاجر سامسونوف، أو على السيدة خوخلاكوفا أيضاً! مع ذلك، ما زلت تعتبر أن تلك الضمانة لها قيمة كبيرة.

احمرَّ وجه ميتيا. ثم صاح مستاءً وهو يحدِّق إلى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك في أن يكون وكيل النيابة قد تفوه بذلك:

ـ أحقاً تتصورونني وغداً إلى هذه الدرجة؟ لا يمكن أن تكون جاداً!

فدهش وكيل النيابة وقال:

ـ أؤكد لك أنني جادّ جداً... لماذا تشك في ذلك؟

ـ عجيب! أي وغد كنت! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني. سأقول لكم كل شيء، إذا أردتم سأعترف لكم بكل دونيتي، لكن لكي تشعروا بالخجل، وتستغربوا إلى أي حدٍ من الجبن يمكن أن ينحدر ضمير إنسان. إن هذا الحل الذي ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي. نعم يا سادتي! لقد فكرت في هذا الحل أيضاً خلال هذا الشهر الملعون، وكنت على وشك أن أذهب إلى كاتيا من فرط نذالتي، أذهب إليها فأعترف لها بخيانتي، ثم أطلب إليها بعد ذلك الاعتراف، أن تقرضني مالاً لأنفذ هذه الخيانة، لأسدد النفقات التي كانت ستقتضيها هذه الخيانة. أطلب مالاً منها هي، كاتيا، أطلب، أتضرع، هل تسمعون؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى، مع غريمتها، مع امرأة تكرهها، امرأة أساءت إليها وأهانتها. إنك لمجنون يا سيادة وكيل النيابة!

ـ أكنت مجنوناً أم لا؛ لكنني أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالي عنصر الغيرة النسوية هذا إذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثَمَّة غيرة في هذه الحالة

كما تقول... نعم، والحق أن من واجب المرء ألّا يغفل عن عاطفة من هذا النوع... ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة.

صاح ميتيا وهو يضرب بقبضة يده الطاولة بقوة.

ـ إن عملاً كهذا فيه من النذالة والدناءة، ويبلغ من شدة ما يبعثه في النفس من اشمئزاز، ما جعلني أتراجع عنه أنا نفسي! هل تعلمون أنه كان يمكن أن تعطيني ذلك المال؟ أنا متأكد من أنها كانت ستعطيني ذلك المال، بدافع الانتقام، لتتلذذ بالثأر، لتظهر لي احتقارها، لأنها هي أيضاً نفس جهنمية عنيفة غضبى! وكنت سآخذ منها المال، هذا أكيد، فأبقى طوال حياتي... أوه... يا إلهي! معذرة يا سادتي! لئن صرخت الآن، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتني، ساورتني أمس الأول، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياغافي. وعاودتني أمس مرة أخرى، نعم أمس، إنني أتذكر هذا وحاصرتني طوال النهار إلى حين وقوع ذلك الحادث...

ـ أي حادث؟ تدخل نيقولا بارفينوفتش يسأله مستطلعاً، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله. وختم ميتيا كلامه يقول:

ـ لقد اعترفت لكم بكل شيء، ثم لا تقدروا ذلك، أيها السادة، ولا يكفي أن تقدّروه حق قدره فحسب، وإنما ينبغي لكم أن تعترفوا بقيمته وإلّا إذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم، فيجب أن نسلّم عندئذ بأنكم لا تضمرون لي أي احترام، إنكم تحتقرونني؛ سأموت عندئذ من شعوري بالعار لأنني فتحت قلبي لأناس مثلكم. سأطلق عندئذ رصاصةً في رأسي! ولكنني أرى أنكم لا تصدقونني، أرى ذلك! ماذا؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟ صاح ميتيا مروَّعاً. فأجاب نيقولا بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا:

ـ لن نسجل إلّا التصريح الذي أدليت به الآن... سنسجل أنك كنت

تنوي، حتى الدقيقة الأخيرة، أن تذهب إلى الآنسة فرخوفتزيفا لتقترض منها هذا المبلغ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة إلينا يا ديمتري فيودوروفتش صدقني هذه التفاصيل كلها هامة... ولا سيما بالنسبة إليك، إليك أنت.

هتف ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى متوسلاً:

ـ أتوسل إليكم يا سادتي! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن، اعدلوا عنه من باب الحياء على الأقل! لقد فتحت لكم نفسي، فإذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامي... يا إلهي!

وأخفى وجهه بيديه يأساً.

ـ لا تخف يا ديمتري فيودوروفتش. قال وكيل النيابة. سنقرأ عليك كل ما نسجله، وسنعدِّل عندئذ الفقرات التي لا توافق عليها متقيدين بما تذكره. ولكن يجب عليَّ الآن، مرةً ثالثة، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: هل يُعقل فعلاً ألّا يكون أحد، ألّا يكون أحد على الإطلاق، قد علم بوجود ألف وخمسمئة روبل مخيطة في الكيس؟ أعترف لك بأن هذا يبدو لي غير معقول كثيراً.

ـ قلت إن أحداً لم يعلم بهذا الأمر. لم أرو هذا الأمر لأحد. إذن لم تفهموا شيئاً أبداً! دعوني وشأني.

ـ أرجوكم. سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير. لكنني أرجو أن تفكر في ما يلي: إن عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروي أنت نفسك، حتى لتكاد تصيح بذلك من فوق سطوح البيوت، أنك قد أنفقت في القصف في المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل، لا ألف وخمسمئة وحتى في هذه المرة، قلتَ لعدد من الأشخاص بصدد المال الذي أصبح في حوزتك فجأة، أنه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً...

ـ الشهود؟ ستجدون من الشهود مئاتٍ لا عشرات! سيأتي مئتا شخص يؤكدون ذلك، وربما جاء ألف شخص! صاح ميتيا.

ـ هاأنت ترى إذن. لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام. وهم جميعاً يؤكدونه اليوم. هل تفهم ماذا تعني كلمة «جـميع الناس» هذه؟

ـ لا تعني شيئاً! أنا كذبت وكرر الناس كذبتي.

ـ فلماذا «كذبت»؟ على حد ما تقول؟

لا يعلم ذلك إلّا الشيطان! لعلني كذبت افتخاراً... أو ربما هكذا... أو لأجل المبلغ الذي بذّرْته أو لأنسى ذلك المال الذي خيطته في الكيس... نعم، ذلك هو، ذلك هو الباعث الحقيقي الذي دفعني إلى الكذب... أنا أحس هذا!... على كل حال! كم مرة سبق وطرحتم عليّ هذا السؤال؟ لقد كذبت وكفى! هل يعلم أحد ما الذي يمكن أن يدفع الإنسان إلى الكذب، في بعض الأحيان؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين:

ـ حقاً إن من الصعب أن يعرف المرء يا ديمتري فيودوروفتش، ما قد يدفع الإنسان إلى الكذب. ولكن قل لي: ماذا كانت أبعاد الكيس الذي كنت تحمله معلقاً برقبتك؟ هل كان كبيراً؟

ـ لا، لم يكن كبيراً.

ـ ماذا كانت أبعاده تقريباً؟

ـ بشكل ورقة المئة روبل حين تطوى إلى نصفين.

ـ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع الصغيرة؟

ـ إنني لا أدري ما الذي صارت إليه.

ـ أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك؟ لقد صرَّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع إلى منزله.

ـ بعد أن تركت فينيا لأذهب إلى برخوتين. نزعته من عنقي وأخرجت منه المال.

ـ في المساء؟

ـ لماذا؟ هل كان عليَّ أن أشعل شمعة؟ لقد توصلت إليه باللمس في مثل لمح البصر.

ـ في الشارع؟ بدون مقص؟

ـ نعم. حصل ذلك في الشارع. ما الداعي إلى مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها.

ـ ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ؟

ـ رميتها.

ـ أين بالتحديد!

ـ عجيب! في الساحة! أنَّى لي أن أتذكر المكان الذي رميت فيه الخرقة على وجه التحديد؟ لماذا هذه الأسئلة؟

ـ ذلك هام جداً يا ديمتري فيودوروفتش: إن هذه الخرقة يمكن أن تكون وثيقة إثبات لمصلحتك؟ من ساعدك في خياطة الكيس على المال، منذ شهر؟

ـ لم يساعدني أحد. قمت بذلك وحدي.

ـ أنت تعرف أن تخيط؟

ـ لا بد أن يعرف الجندي كيف يخيط. ثم إن هذا لا يحتاج إلى أي براعة.

ـ أين وجدت القماش، أعني تلك الخرقة التي خطتها على المال؟

ـ هل تسخرون مني؟

ـ أبداً. ثق أننا لا نرغب في الضحك يا ديمتري فيودوروفتش!

ـ لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة. لا بد أنني لممتها من مكان ما.

ـ كيف يمكن أن تنسى ذلك؟

ـ أقسم لكم أنني لا أعرف. لعلني قد مزقت أحد الملابس.

ـ هذا شيء هام جداً. قد نعثر غداً في منزلك على ذلك اللباس الممزق

الذي انتزعت منه قطعة، وربما كان قميصاً من قمصانك. ما نوع نسيج تلك الخرقة؟ هل كانت من كتان أم من قطن؟

ـ الشيطان يعلم! لحظة... لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس.. كانت الخرقة من قماش خاص... أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه.

ـ لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه.

ـ نعم، اختلست هذه الطاقية من عندها؟

ـ اختلستها؟

ـ أظن أنني أتذكر فعلاً أنني في ذات يوم أخذت طاقية من عندها. كنت في حاجة إلى خرقة، ربما لأمسح قلمي، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد، لأنها طاقية لا قيمة لها، طاقية بالية من قماش قطني غُسل وأعيد غسله مئة مرة... وبقيت الطاقية مرمية في غرفتي منذ ذلك الحين فلما أردت أن أخبىء تلك الألف وخمسمئة روبل، تناولت الطاقية وخطتها على المال...

ـ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟

ـ لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً. يخيَّل إليَّ أنها الطاقية. ولكن ما قيمة هذا!

ـ في هذه الحالة قد تستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افتقدت طاقية، أليس كذلك؟

ـ لا، أبداً. إنها لم تلاحظ غياب الطاقية. تلك خرقة عتيقة غير ذات فائدة.

ـ والإبرة؟ من أين أخذت الإبرة؟ والخيط؟

ـ أتوقف عن الكلام. أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة. كفى! حسم ميتيا المناقشة وقد نفد صبره.

ـ إنه لغريب حقاً أن تنسى في أي مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس في الساحة!

ـ لكن كنسوا الساحة في الغد، فربما عثرتم عليه. أجاب ميتيا ساخراً. ثم أردف يقول بصوت منهك: هذا يكفي أيها السادة، إنني أرى بوضوح أنكم لا تصدّقونني! إنكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول. وذلك خطأي أنا لا خطأكم أنتم: كان عليَّ أن أسكت بدلاً من أن أفضي بذات نفسي أمامكم في غباء. لماذا، لماذا أسففت فكشفت لكم عن سرِّي؟ وهذا يضحككم! أنا أقرأ هذا في نظراتكم. أنت الذي دفعتني إلى الكلام يا وكيل النيابة. أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون الملعونون!

حنى رأسه وأخفى وجهه في يديه. وصمت وكيل النيابة وقاضي التحقيق. وبعد دقيقة، رفع ميتيا رأسه ونظر إليهما دون أن يفكر. إن قسمات وجهه تعبر في هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه؛ وبقي جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة كأنه غائب عن نفسه. وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي، فلا بد من الانتهاء، ولا يمكن تأخير سماع الشهود. لقد دقت الساعة الثامنة صباحاً، وذابت الشموع منذ زمن طويل. وهذا ميخائيل ماكاروفتش وكالغانوف اللذان غابا عن الغرفة مراراً أثناء الاستجواب، يخرجان الآن من جديد. وإن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يبدوان متعبينِ هما أيضاً إلى أقصى الحدود. والصباح مكفهر، والسماء تغطيها الغيوم، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة. وميتيا ينظر من خلال النوافذ دون أن يفكر.

ـ هل أستطيع أن ألقي نظرة من النافذة؟ قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش.

ـ أنظر ما شئت. أجابه هذا الأخير.

فنهض ميتيا واقترب من النافذة. كان المطر ينهمر على الزجاج بقوة. وأمام المنزل يُرى طريق قذر؛ وبعد الطريق، في الضباب الماطر، تُلمح الكتل السوداء، كتل الأكواخ التي تبدو في المطر ملفّعة بمزيد من البؤس والحزن. فكر ميتيا فجأة في «فيبوس ذي الضفائر الذهبية»، وفي ما كان قد عقد عليه

عزمه من انتحار عند الفجر. فقال في نفسه وهو يبتسم ابتسامة مُرة: «هذا صباح كان يناسب مشروعي جداً» ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده، والتفت إلى جلاديه وصاح:

ـ أيها السادة، أرى أنني خسرت. ولكن ماذا عنها هي؟ قولوا لي، أتوسل إليكم، أسيكون عليها أن تهلك معي. إنها بريئة. وفي لحظة من ضلال اتهمت نفسها أمس بأنها «مسؤولة عن كل شيء». هي لم ترتكب أي خطيئة، هي غريبة عن هذه الدراما كلياً. لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبونني... ألا تستطيعون أن تقولوا لي ما هو المصير الذي ينتظرها؟

بادر وكيل النيابة يجيبه:

ـ اطمئن إليها يا ديمتري فيودوروفتش. ليس هناك حتى الآن أي سبب يدعونا إلى إقلاق الإنسانة التي تهتم بها، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق خارج القضية نهائياً... وسنعمل من جهتنا كل ما في وسعنا في سبيلها. فلا تخش عليها شيئاً!

ـ أشكركم يا سادتي. كنت أعرف جيداً أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء. لقد أزحتم عن صدري عبئاً ثقيلاً... ماذا أنتم صانعون بي الآن؟ إنني مستعد.

ـ نعم. يجب أن نبادر إلى سماع الشهود حالاً، وهذا لا يكون إلّا بحضورك. لذلك...

ـ ألا يكون من الأفضل أن نحتسي فنجاناً من الشاي أولاً. قاطع نيقولا بارفينوفتش. أعتقد أننا نستحق فنجاناً من الشاي!

فقرروا احتساء الشاي الساخن إذا وجدوا منه في البار (وهذا مرجَّح، وإلّا فهل كان يتغيب ميخائيل ماكاروفتش إلّا لطلب الشاي؟). وبعد الشاي يُستأنف الاستجواب حتى نهايته. أما الإفطار بمعنى كلمة الافطار فيؤجل.

واتضح أن هناك شاياً مهياً بالفعل، فجيء به إلى الغرفة. رفض ميتيا في أول الأمر أن يتناول الكأس التي قدمها إليه نيقولا بارفينوفتش، ولكنه غيَّر رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاي بشراهة. كان يبدو مرهقاً بشكل غريب. ما كان لليلة قصف، ولو حفلت بانفعالات عنيفة. لكن ميتيا كان لا يكاد يحافظ على توازنه على كرسيه، وكانت الأشياء الموجودة في الغرفة تدور أمام عينيه من وقت إلى آخر. قال يحدث نفسه: «لحظات وأبدأ بالهذيان».

# VIII

## أقوال الشهود. الصبيّ

بدأ استجواب الشهود. ولكننا لن نتابع سردنا للتفاصيل، كما سبق وفعلنا حتى الآن. لهذا السبب سوف لن نصف كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد يُستجوب أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملةً، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بقسم اليمين؛ ولن نصف الشكليات الإجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير إلى أن الأسئلة التي ألقيت على مختلف الأشخاص إنما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل: لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق ديمتري فيودوروفتش، في موكروييه، أثناء سهرة القصف السابقة، في الشهر الماضي، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمئة فحسب، وهل كان معه في الليلة البارحة، في أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمئة. مع الأسف! لقد شهدوا جميعاً ضد ميتيا، ولم يشهد أحد له. حتى أن عدداً منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه. وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداته. تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أي خجل، فهيئته هيئة رجل مستاء جداً من سلوك المتهم، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعاً

قوياً من الصدق، وأتاح له أن يصطنع أوضاعاً فيها كثير من الكرامة والمهابة. وكان موجزاً في كلامه، متحفظاً في أقواله، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية. وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذي أُنفق في الشهر الماضي لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل، وأن جميع فلاحي المنطقة يمكنهم أن يؤكدوا ذلك والجميع. قد سمع «ديمتري فيودوروفتش» يتحدث بنفسه عن ثلاثة آلاف روبل: يكفي المبلغ الذي صرفه على نساء الزيغان. وحدهن أخذن أكثر من ألفين روبل. وختم صاحب النُّزل كلامه بقوله:

ـ لم أكد أعطيهم خمسمئة روبل. علّق ميتيا على ذلك وهو مكفهر الوجه: من المؤسف أنني لم أحسب، لأنني كنت ثملاً.

كان ميتيا جالساً في هذه المرة إلى جانب، جاعلاً ظهره إلى الستائر، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعباً، يستمع إلى أقوال الشهود مستسلماً بدون انفعال، فكأنه يقول لهم: «هيَّا... قولوا ما شئتم. يستوي عندي كل شيء بعد الآن!».

لقد بذرت أكثر من ألف روبل يا ديمتري فيودوروفتش. ردَّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة. كنت ترمي إليهم المال بدون حساب، وكانوا يلتقطونه عن الأرض. إن هؤلاء الناس أوغاد. ذلك معروف.. هم لصوص خيل. وقد طُردوا من المنطقة، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك في تلك الليلة. لقد رأيت بعيني الحزمة التي كنت تمسكها بيديك. ولئن لم أعدَّ الأوراق المالية التي كانت تضمها الحزمة، لأنك لم تتح لي ذلك، فإنني أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمئة روبل... إذا صدق النظر... أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة في حياتنا... إننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدّر ما تضمه حزم الأوراق المالية...

أما عن المبلغ الذي جاء به ميتيا في الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة بأن ميتيا ما إن نزل من عربة الترويكا حتى قال له إن معه ثلاثة آلاف روبل.

ـ ما هذا يا تريفون بوريستش؟ حاول ميتيا أن يحتج قائلاً: أأنا زعمت بمثل هذا الجزم أن معي ثلاثة آلاف روبل؟

ـ أنت قلت ذلك يا ديمتري فيودوروفتش! وقد قلته بحضور أندره. هو مايزال هنا لم ينصرف، فاسألوه. وبعد ذلك بقليل صحت تقول في القاعة، وأنت تغدق على أفراد الجوقة، إنك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى في حسابك طبعاً. ولقد سمع كلامك ستيفان وسيمون، وسمعه فومتش الذي كان إلى جانبك، فلعله يتذكره هو أيضاً...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالستة آلاف روبل اهتماماً شديداً. إن هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم: ثلاثة آلاف في المرة الأولى زائد ثلاثة آلاف في هذه المرة يعني ستة آلاف فعلاً.

واستُجوب كل الذين ذكرهم تريفون بوريستش، وهم ستيفان وسيمون، والحوذي أندره، وكذلك بيوتر فومتش كالغانوف. فأما الفلاحان والحوذي فقد أيّدا تصريحات صاحب النزل بلا تردد. وقد سُجِّلت، بوجه خاص، التفاصيل التي أوردها أندره عن الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا: «أسيذهب، ديمتري فيودوروفتش، إلى جهنم أم إلى الجنة، وهل يُغفر له في العالم الآخر، أم لا». وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في «النفاذ السيكولوجي»، فاستقبل ما رواه أندره بابتسامة ناعمة، وأمر بضم هذا التصريح إلى الملفّ.

بناء على استدعاء المحقق كالغانوف، دخل كالغانوف مشمئزاً القاعة رغماً عنه، وتحدث مع وكيل النيابة وقاضي التحقيق كأنه يراهما لأول مرة،

مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل، والتقاهما مراراً في المجتمع. وقد بدأ كلامه بقوله «إنه يجهل كل شيء عن هذه القضية، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها». ولكنه اضطر على الموافقة أنه سمع صيحة ميتيا في موضوع الستة آلاف روبل، وأنه كان إلى جانبه في تلك اللحظة. فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال: «لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً». وأكّد في مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشّا أثناء اللعب بالورق. وذكر كذلك، بعد إلحاح القضاة عليه إلحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظي، بعد طرد البولنديين، برضى أغرافينا ألكسندروفنا، وأن هذه الأخيرة قد أكدت أنها تحبه. وقد تكلم كالغانوف عن أغرافينا ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «غروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذي كان يشعر به هذا الشاب من اضطراره إلى الإدلاء بشهادته، فإن هيبوليت كيريلوفتش استمر يستجوبه مدة طويلة، حتى عرف منه جميع التفاصيل التي تألفت منها خلال الليل «رواية» ميتيا. وقد ترك ميتيا للشاب كالغانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه، وصُرف الشاب أخيراً، فابتعد دون أن يخفي استياءه.

ثم تم استجواب البولنديين أيضاً. كانا نائمين في الغرفة التي حُبسا فيها، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل، وأسرعا يرتديان ثيابهما عندما سمعا وصول القضاة، لأنهما كانا يعتقدان أنهما سيستدعيان للإدلاء بشهادتيهما. تقدما نحو القضاة بوقار، ولكن بشيء من الخوف. وعُرف عندئذ أن «السيد» الصغير الذي كان يبدو أنه هو الشخصية الأكثر أهمية من الشخصيتين، موظف متقاعد من الدرجة الثانية عشرة، قد خدم في سيبيريا طبيباً بيطرياً. وأن اسمه موزيالوفكتش. أما «السيد» فروبلفسكي فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر»، وهذا اصطلاح يعني في الروسية أنه «خالع أسنان». إثر دخول البولنديين الغرفة التفتا نحو ميخائيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة التي كان يلقيها عليهما نيقولا

بارفينوفتش. كان واضحاً أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة، المنتحي قليلاً، هو أرفع الشخصيات الموجودة في الغرفة رتبةً، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما: «سيادة الكولونيل». ولم يعزما على الاتجاه بحديثهما إلى نيقولا بارفينوفتش إلّا بعد احتجاجات كثيرة من ميخائيل ماكاروفتش، مصحوبة بإيضاحات وتعليمات. وقد تبيَّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية بشكل ممتاز، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق. عرض «السيد» موزيالوفكتش علاقاته الحاضرة والماضية بغروشنكا، متكلماً بلهجة مسرحية، مظهراً كثيراً من الحرارة والكبرياء، فكان من شأن ذلك أن أغضب ميتيا وأفقده السيطرة على نفسه فصاح يقول إنه لا يحتمل أن يتحدث إنسان «حقير» على هذا النحو أمامه. فسرعان ما ألحَّ «السيد» موزيالوفكتش على أن يُسجَّل في المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير». بدا ميتيا يغلي من الغضب.

ـ حقير، نعم، حقير! سجلوا هذا الكلام، وسجلوا أيضاً إنني لا أعبأ بالمحضر. ولن يمنعني المحضر من أن أصرخ في وجهك مرة أخرى قائلاً: أنت حقير!

طلب نيقولا بارفينوفتش تسجيل الإهانة، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة. فبعد افتقاده ميتيا بقساوة إلى التزام الهدوء بلهجة قاسية، توقف فوراً عن إلقاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائي من القضية. وعلى وجه الاجمال، كان في أقوال «السيدين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين بصورة خاصة، وأثارت فيهما اهتماماً شديداً، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالوفكتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن غروشنكا، منها سبعمئة روبل ينقده إياها فوراً، والباقي وهو ألفان وثلاثمئة روبل، يدفعه له «صباح الغد في المدينة». وقد ذكر «السيد» البولندي أن ميتيا أقسم له أنه لا يملك المبلغ

كاملاً في موكرويه، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة. احتدّ ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده بإكمال المبلغ صباحاً في المدينة. غير أن «السيد» فروبلفسكي أيد أقوال رفيقه. ففكَّر ميتيا قليلاً، ثم وافق، مقطباً، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذي يذكره «السيدان» البولنديان، وقال إنه كان مهتاجاً جداً أثناء ذلك الحديث، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام. وهكذا بدا ثابتاً الآن (وذلك ما لم يُفتهم الاستناد إليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التي صارت إلى يدي ميتيا إنما هو مخبأ في المدينة، وربما في موكرويه نفسها. بذلك تبدد ذلك الظرف الذي كان يعرقل الاتهام، أعني كون ميتيا لا يحمل إلّا ثمانمئة روبل، وهذا أمر كان إلى ذلك الحين العنصر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله، وإن تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة. هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التي كان يمكن أن تدافع عن ميتيا. فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه، وهو ألفان وثلاثمئة روبل، لكي يدفع «للسيد» البولندي، مادام كل ما يملكه هو ألف وخمسمئة، وما دام قد وعد بإكمال المبلغ في الغد، أجاب ميتيا بصوت جازم بأن ما كان ينوي أن يعطي البولندي غداً، لم يكن مالاً سائلاً، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه في أراضي تشرماشنيا، وهي الحقوق نفسها التي سبق أن عرضها على التاجر سامسونوف وعلى السيدة خوخلاكوفا. فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص».

ـ هل تعتقد أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين وثلاثمئة روبل عداً ونقداً؟

ـ طبعاً كان سيقبل. أجاب ميتيا بثقة. ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفي روبل. إن في وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل، وربما قبض ستة آلاف. كان سيسرع إلى توكيل بعض المحامين، اليهود أو

البولنديين، فيرغم العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا!

من البديهي أن تكون أقوال «السيد» موزيالوفكتش قد أضيفت، بجميع تفاصيلها إلى المحضر. وعلى ذلك صُرف البولنديان. ولم يتطرق أحد إلى موضوع الغش في اللعب بالورق. لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكراً لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدِّعهما بتفاهات، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون خلافاً في اللعب بين سكارى. ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى؟ هكذا بقيت المئتا روبل ملكاً حلالاً «للسيدين» البولنديين.

ثم تم استدعاء العجوز ماكسيموف. فظهر وهو يرتجف، واقترب من القضاة بخطًى صغيرة، حزيناً جداً ويرتدي ثياباً رثة. لقد كان طوال الوقت في صحبة غروشنكا، صامتاً لا يقول شيئاً. يمسح عينيه بمنديل أزرق ذي مربعات، كما روى ذلك ميخائيل ماكاروفتش فيما بعد. وقد بلغ من فرط اليأس أن اضطرت المرأة الشابة إلى تهدئته ومؤاساته عدة مرات. اعترف العجوز دفعةً واحدة، والدموع في عينيه، أنه يعتبر نفسه مذنباً لأنه اقترض من ديمتري فيودوروفتش عشرة روبلات «بسبب شدة فقره»، وأنه مستعد لردِّها... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان في يدي ميتيا من مال، لأنه استطاع أكثر من أي شخص آخر أن ينعم النظر في الحزمة حين تناول العشرة روبلات، أجاب على الفور باقتناع: «كان في الحزمة نحو عشرين ألفاً».

ـ هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل؟ سأله نيقولا بارفينوفتش مبتسماً.

ـ هل رأيت؟ طبعاً رأيت، ولكنني لم أرَ عشرين ألفاً بل رأيت سبعة آلاف، وذلك حين رهنت زوجتي قريتنا الصغيرة. لقد تباهت أمامي بالمبلغ الذي أُعطيته، وأذنت لي أن أنظر إلى الحزمة، ولكن من بعيد. كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التي كانت مع ديمتري فيودوروفتش.

أطلقوا سراحه بسرعة. وجاء أخيراً دور غروشنكا. كان القضاة يخشون ردة فعل ميتيا حين يراها، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصح. ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلاً، كأنه يريد أن يقول: «لن يحدث اضطراب!».

إن ميخائيل ماكاروفتش هو الذي أدخل غروشنكا. وقد دخلت عابسةً متجهمة الوجه، ولكن على هدوء ظاهر، وجلست بدون ضجة على كرسي أشار لها إليه نيقولا بارفينوفتش أمامه. وكانت شاحبة الوجه جداً، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع. والحق أنها كانت تشعر برعشات حمى هي بداية ذلك المرض الطويل الذي أصيبت به منذ تلك الليلة. وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادىء أن أحدثت في نفوس الجميع أثراً بالغاً. حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء. فقد روى فيما بعد، حين وصف مشاعره في إحدى ندوات المجتمع، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك. وقال إنه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين إلّا «غانية ريفية». وقد صاح يقول ذات مرة في مجتمع نسوي: «إن لها آداباً عظيمة»، فأحدثت هذه الصيحة استياءً شديداً في نفوس سامعاته، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق»، فسُرَّ هو بهذا الوصف سروراً عظيماً. وحين دخلت غروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة، فتأملها قلقاً، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه. بعد التحذيرات الشكلية والأسئلة الأولى التي لا بد منها، سألها نيقولا بارفينوفتش متردداً بعض الشيء، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب، «ما هي علاقاتك بالملازم المتقاعد ديمتري فيودوروفتش كارامازوف؟» فأجابته غروشنكا بصوت حازم وعذب:

ـ كنا على علاقة بحيث استقبلته في منزلي أثناء هذا الشهر الأخير.

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقاً محرجاً، فكانت تجيب

في كل مرة بصراحة تامة. وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها «في بعض الساعات» ولا شك، غير أنها لم تكن تحبه، لكنها أرادت أن تغويه «بدافع الخبث المنحط وحده»، كما كانت تلعب «بالعجوز» من جهة أخرى؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جداً من فيودور بافلوفتش، ومن رجال آخرين أيضاً، ولكن ذلك لم يكن عندها إلّا موضوعاً جديداً للتسلية. أما فيودور بافلوفتش فإنها لم تزره في يوم من الأيام، لأنها كانت تسخر منه طوال الوقت. وأضافت تقول:

ـ كانت لي خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك. كنت لا أفكر فيهما، لأنني كنت أنتظر وصول رجل اعتبره آثماً في حقي.. ومهما يكن من أمر، فأنا أعتبر أنه ليس لكم أن تتدخلوا في هذا الشأن، وليس عليَّ أن أروي هذه التفاصيل، لأن هذا من شؤوني الخاصة.

فخضع نيقولا بارفينوفتش بسرعة أمام هذه الحجة، فكف عن سؤال غروشنكا عن العناصر الروائية في القضية، وبادر يواجه النقطة الأساسية مباشرة، أعني مسألة الثلاثة آلاف روبل. فأيدت غروشنكا أن المال الذي أُنفق في موكرويه في الشهر الماضي يصل إلى ثلاثة آلاف روبل. فلئن لم تعدَّ المال، لكنها سمعت ديمتري فيودوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم.

ـ هل أسرَّ إليك بهذا الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين؟ سألها وكيل النيابة.

فأوضحت غروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين، ولكنه حدثها عنه أيضاً، على انفراد وبحضور آخرين.

ـ هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات؟ سألها وكيل النيابة مرة أخرى.

فأجابت: بل عدة مرات.

رضي هيبوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضًى تاماً. وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يُعرف، عدا ذلك، أن غروشنكا كانت على علم بمصدر هذا المبلغ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترينا إيڤانوفنا.

ـ ألم تسمعي أبداً أن المبلغ الذي أُنفق في القصف في الشهر الماضي لم يكن ثلاثة آلاف روبل، بل دون ذلك كثيراً، وأن ديمتري فيودوروفتش قد احتفظ بنصف المال لنفسه؟

ـ لا، أبداً. لم أسمع هذا في يوم من الأيام. قالت غروشنكا.

وإذ طلبوا إلى غروشنكا أن تزيد هذه النقطة وضوحاً إلى أن تصرح بأن ميتيا، خلافاً لذلك، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبقَ معه كوبيك واحد. وختمت غروشنكا كلامها قائلة:

ـ وكان يأمل دائماً أن يأخذ مالاً من أبيه.

ـ هل اتفق له أن قال بحضورك... أو ذكر عرضاً أو صاح وهو في سورة من غضب أنه ينوي أن يقتل أباه؟ هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها:

ـ قال ذلك مع الأسف! أجابت غروشنكا متنهدة.

ـ أقاله مرةً واحدة أم مراراً؟

ـ مراراً، ولكن في لحظات الغضب دائماً.

ـ هل صدّقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه؟

ـ لا، لم أصدق هذا في يوم من الأيام، لأنني كنت على ثقة بنبل أخلاقه. قالت غروشنكا بلهجة حازمة.

فصاح ميتيا فجأة:

ـ اسمحوا لي أيها السادة! هل أستطيع أن أقول كلمة، كلمة واحدة، بحضوركم، لأغرافينا ألكسندروفنا؟

ـ قلْ! قال نيقولا بارفينوفتش:

ـ أغرافينا الكسندروفنا. قال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه: صدقيني، فإن الله على ما أقول شاهد: أنا لم أسفح دم أبي!

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه. فنهضت غروشنكا، ورسمت إشارة الصليب وهي تتجه إلى إيقونة، وقالت بصوت حار مؤثر: الحمد لله!

ثم أضافت مخاطبةً نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود لتجلس: إن ما قاله هو الحقيقة، وعليكم أن تصدِّقوه. أنا أعرفه. قد يمزح لعباً أو عناداً، ولكنه لن يكذب في يوم من الأيام مخالفاً ضميره. سيقول الحق دائماً في الأحوال الخطيرة. كونوا من هذا على يقين!

ـ شكراً أغرافينا ألكسندروفنا! قال ميتيا بصوت مرتجف: إن أقوالك قد واست قلبي.

وحول الأسئلة عن المال الذي كان مع ميتيا البارحة، أجابت غروشنكا بأنها لم تكن تعرف مقداره، ولكنها سمعت ميتيا يقول عدة مرات ولعدة أشخاص أنه يحمل ثلاثة آلاف روبل. وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت غروشنكا إن ميتيا اعترف لها، لها وحدها، بأنه «سرقه» من كاترينا إيڤانوفنا، وأنها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة، وأن عليه أن يرد إليها المال في الغد. فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذي يدعي ميتيا أنه سرقه من كاترينا إيڤانوفنا ـ أهو الثلاثة آلاف روبل التي كانت معه البارحة، أم هو الثلاثة آلاف روبل التي بدَّدها بموكرويه في الشهر الماضي ـ أجابت بأن ميتيا قد تكلم على الثلاثة آلاف روبل التي أنفقت في الشهر الماضي، وأن هذا ما فهمته هي من كلامه.

تم أخيراً تحرير غروشنكا. وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع العودة إلى المدينة. وإذا كان في وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيىء لها خفراً، فإنه سوف يسعده أن...

ـ أشكر لك لطفك. أجابته غروشنكا وهي تنحني انحناءة توديع يسيرة: سأعود بصحبة هذا العجوز المسكين، هذا الملّاك الذي أرغب في أن أوصله إلى منزله. وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت، إذا أذنتم بذلك، ريثما تقرروا مصير ديمتري فيودوروفتش.

كان ميتيا هادئاً بعد خروج غروشنكا، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال، ولكن ذلك لم يدم إلّا لحظة قصيرة. إن وهناً جسمياً شديداً كان يغزوه شيئاً بعد شيء، وإن عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب؛ ولم يكن قد بقي شهود يُستمع إليهم. وقد بدأت كتابة المحضر في صورتها الأخيرة. فها هو ميتيا ينهض عن كرسيه، ويتجه إلى زاوية الغرفة قرب الستارة، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة، فسرعان ما ينام، ويرى في منامه حلماً غريباً لا يتناسب مع هذه الظروف في شيء من الأشياء ـ رأى نفسه في عربة تجتاز سهوباً في المنطقة التي كان قد خدم فيها ضابطاً، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذياً. كان ميتيا يشعر ببرد. هذا مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر. الثلج يتساقط قطعاً كبيرة رطبة ما إن تلامس الأرض حتى تذوب. الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع ملوِّحاً بسوطه. له لحية حمراء طويلة جداً. ما هو بالعجوز. قد يكون في الخمسين من عمره. إنه فلاح بسيط يرتدي قفطاناً فقيراً أشهب. وهذه قرية صغيرة تتراءى في مكان قريب. يرى الناظر أكواخها السوداء الكئيبة وقد احترق نصفها ولم يبقَ منها إلّا هياكل محترقة. وعند مخرج القرية تصطف نساء، كثرة من النساء. إنهن هزيلات بشكل رهيب. وجوههن بلون التراب. بينهن واحدة تلفت النظر خاصة، قد وقفت على حافة الطريق. هي امرأة بارزة العظام طويلة القامة، تبدو في الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين. وجهها مستطيل جاف. وعلى ذراعيها طفل يبكي، وثدياها قد نضبا، فلم يبق فيهما قطرة من

حليب. والطفل يبكي، وما ينفك يبكي بلا انقطاع، ماداً ذراعيه الصغيرتين، العاريتين البائستين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد.

ـ لماذا يبكون؟ سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة.

ـ الصبي هو الذي يبكي. أجابه الحوذي.

فوجىء ميتيا من قول الفلاح: «الصبيّ»، بدلاً من أن يقول: «الطفل». أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية. إن في كلمة «الصبي» من العطف ما ليس في كلمة «الطفل».

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله:

ـ ولكن لماذا يبكي؟ لماذا ذراعاه عاريتان؟ لماذا لا يغطون ذراعيه؟ أجاب الفلاح:

ـ الصبي قد تخدر من البرد؛ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟ عَنَدَ ميتيا فظل يسأل في غباء.

ـ هؤلاء نساء فقيرات. احترقت منازلهن، ولم يبقَ معهن خبز، فهن يستجدين.

قال ميتيا وكأنه لم يفهم:

ـ لا، لا: لماذا هن هنا، أولئك الأمهات اللواتي احترقت منازلهن، لماذا هن فقيرات إلى هذه الدرجة، لماذا هذا الصبي يبكي، ولماذا هذه السهوب عارية؟ نعم، لماذا لا يتعانقن جميعاً، لماذا لا يرتمي بعضهن في أذرع بعض منشدات أغنية فرح؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس، لماذا لا يطعمن الطفل؟

وأحس ميتيا في نفسه أن هذه الأسئلة سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية إلى إلقائها، ويعرف أنها يجب أن تلقى. وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تلهب قلبه، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل، وهو يريد أن يبكي، ويتمنى أن يفعل

شيئاً ليساعدهن جميعاً، حتى يكف الصبي عن الأنين، وحتى تنقطع دموع أمه ذات الوجه الهزيل المغبر، وحتى لا يبكي أحد في هذا العالم بعد اليوم. يريد أن يعمل شيئاً على الفور، بغير انتظار، وبدون أن يحسب حساب أي شيء، مندفعاً اندفاعاً جامحاً يتميز به آل كارامازوف.

ـ سأكون معك أنا أيضاً، لن أتركك بعد الآن، سأبقى إلى جانبك مدى الحياة.

قال على مقربة منه صوت غروشنكا الرقيق الحنون.

التهب قلبه مندفعاً نحو ضياء بعيد. يريد أن يعيش، أن يعيش، أن يمشي، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الذي يناديه، أن يسافر فوراً، بمزيد من السرعة، على الفور!

ـ أين؟ كيف؟ قال فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة، كأنه يصحو من غيبوبة.

وأضاءت بسمة مشرقة وجهه. كان نيقولا بارفينوفتش واقفاً أمامه يطلب منه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه. أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر. ولم ينتبه إلى كلام نيقولا بارفينوفتش، لأنه لاحظ أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه، مع أنه لم يكن ثمّة وسادة حين استلقى على الحقيبة منهار القوى. فسأل وهو يشعر بامتنان متحمس، وفي عينيه دموع، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم:

ـ من وضع وسادة تحت رأسي؟ من هو هذا النبيل الذي أشفق عليّ؟

غير أن الرجل الذي قام بالمبادرة بقي مجهولاً. لعل أحد الشهود المطلوبين أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذي فكر في إحضار الوسادة، لكن نفسه كانت ترتعد من كثرة الدموع. اقترب من الطاولة، وأعلن أنه سيوقع على كل ما يشاؤون أن يضع توقيعه عليه.

ـ رأيت حلماً جميلاً يا سادتي، قال بصوت غريب، بنوع من الوجوه الجديدة جداً، كأنه يشع فرحاً.

# IX

## اقتادوا ميتيا

عندما تمَّ توقيع المحضر نظر نيقولا بارفينوفتش إلى المتهم بأبهة، وقرأ عليه نص «قرار» ينص على أنه في يوم كذا، سنة كذا، وفي مكان كذا، وبعد أن استجوب قاضي تحقيق المحكمة الفلانية في الحي الفلاني، فلاناً (أي ميتيا)؛ بصفته متهماً بهذه أو تلك من الجرائم (كل أخطائه حددت بدقة)، رغم إنكاره التهمة المنسوبة إليه، لم يكن قادراً على أن يبرز أي وثيقة كي يبرىء نفسه؛ ونظراً إلى التهم المنسوبة إليه من الشهود (وتُليت قائمة بأسماء الشهود)، ونظراً إلى ظروف القضية، قد قرر قاضي التحقيق، بالاستناد إلى مواد القانون (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن.. حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة، وأن تبلَّغ صورة من هذا الحكم إلى وكيل النيابة، الخ. الخلاصة: أُعلم ميتيا أنه معتقل، وأنه سينقل إلى المدينة ليسجن في مكان ليست الإقامة فيه بالممتعة. وقد أصغى ميتيا إلى قراءة هذه الورقة بانتباه، ولكنه رفع كتفيه قائلاً:

ـ ليكن ما تشاؤون يا سادتي... لست أؤاخذكم، أنا مستعد... إنني أعرف أنكم ما كان بإمكانكم أن تفعلوا غير ما فعلتم.

فشرح له نيقولا بارفينوفتش، بهدوء، أن موريس مافريكيفتش الذي كان مصادفة في المكان، هو الذي سيقتاده.

ـ لحظة يا سادة! صاح موجهاً كلامه إلى جميع الحضور في القاعة: نحن جميعاً قساة، نحن جميعاً وحوش، نحن سبب الدموع التي تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضَّع، ولكنني أنا ـ لنحسم هذا الآن ـ أنا هو الوغد، الأفعى الأكثر سفالة. إنني أعترف بهذا. وما مرَّ يوم في حياتي إلّا وأقسمت فيه، وأنا ألطم صدري، على أنني سأصلح أمري لأقوّم اعوجاجي، ولكنني كنت أهوي إلى أخطائي في الغد. إنني أدرك اليوم أن رجالاً مثلي محتاجون إلى أن يضربهم القدر، محتاجون إلى أن يضربهم القدر ضربة تدمِّر كيانهم وتوقظ في أنفسهم قوى الحقيقة العليا. ما كان لي أبداً، أبداً، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسي! ولكن الصاعقة قد نزلت عليَّ. أرضى ألم هذا الاتهام الذي وجِّه إليّ والعار الذي تلطخ به شرفي أمام الناس. أريد أن أتألم، وأن أتطهر بالألم. لأنني سأفدي نفسي بالألم، أليس هذا صحيحاً أيها السادة؟ ولكنني أؤكد لكم آخر مرة: أنني لم أسفح دم أبي! إنني أقبل العقاب لا على قتله، بل على أنني أردت أن أقتله، وربما كنت سأقتله في النهاية... ولكنني سأكافح لدفع التهمة عن نفسي، فاعلموا هذا! سأدافع عن نفسي حتى النهاية، وسيقرر الله مصيري! إلى اللقاء أيها السادة. وسامحوني على ما ظهر مني من غضب أثناء الاستجواب. آه، ما كان أغباني عندئذ! بعد بضع ثوان لن أكون إلّا سجيناً؛ ولآخر مرة يمد ديمتري فيودوروفتش كارامازوف يده إليكم مصافحاً كرجلٍ حر طليق. وإني إذ أودعكم أودِّع العالم..

بدأ صوته يرتجف، وقدم يده، لكن نيقولا بارفينوفتش الذي كان أقرب الحضور إليه، سحب يده فجأة بحركة متشنجة. فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده.

ـ لم ينته التحقيق بعد. دمدم نيقولا بارفينوفتش محرجاً: وسنستأنفه في المدينة. وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك. لقد كنت أميل دائماً يا ديمتري فيودوروفتش إلى أن أعتبرك إنساناً سيئ الحظ إن صح التعبير، لا إنساناً مجرماً... ونحن جميعاً مستعدون ـ إذا جاز لي أن أنطق بلسان الآخرين أيضاً ـ لأن نرى فيك شاباً نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه، مع الأسف، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعاً ربما كان فيه إفراط. وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل وضع مهابة قصوى ووقار. وأحس ميتيا فجأة أن هذا «الولد الصغير» سيمسكه من ذراعه فينتحي به جانباً ويستأنف معه حديثه الأخير عن «البنات الصغيرات». هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تسطع في ذهن الإنسان، ولو كان هذا الإنسان مجرماً يُساق إلى التعذيب؟

ـ أنتم أناس طيبون وإنسانيون. فهل بإمكاني أن أراها مرة أخيرة لأودعها؟ سأل ميتيا.

ـ طبعاً... ولكن، بالنظر إلى... باختصار.. لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود.

ـ لا مانع لدي.

ذهب بعضهم يُحضر غروشنكا. ولكن الوداع كان موجزاً، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش. انحنت غروشنكا تحيي ميتيا تحية عميقة. وقالت له:

ـ قلتُ إنني سأكون لك إلى الأبد. سأصحبك حيثما تذهب، مهما يكن مصيرك. أستودعك الله، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنباً. واختلجت شفتاها، وانهمرت الدموع من عينيها.

ـ سامحيني يا غروشنكا، اغفري لي أنني أحببتك. وفقدتك بسبب الحب.

أراد ميتيا أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه توقف عن الكلام. وسرعان ما وجد

نفسه محاطاً برجال لم يغب عن أنظارهم. وتحت، أمام درجات الباب الذي وصل إليه الليلة البارحة على عربة أندره محدثاً ضجة كبيرة، كانت تنتظره عربتان. إن موريس مافريكيفتش، وهو رجل سمين قصير القامة مغضَّن الوجه، يبدو سيء المزاج قد أحنقه طارىء ما، فهو يغضب ويصيح. وها هو يدعو ميتيا إلى ركوب العربة بلهجة اعتبرها ميتيا مسرفة في الخشونة. قال ميتيا يحدّث نفسه: «حين كنت أسقيه خمراً في الكاباريه، كان يتصرّف غير ما يتصرّف الآن.». وظهر تريفون بوريستش في أسفل درجات الباب أيضاً. واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تحدق إلى ميتيا.

ـ سامحوني! هتف ميتيا لهم من مكانه.

ـ سامحنا أنت أيضاً.

ـ أنت أيضاً سامح يا تريفون بوريستش!

ولكن صاحب النزل لم ينظر إليه. لعله كان مشغولاً جداً، هو أيضاً كان يصرخ ويتحرك منهمكاً: والحق أن العربة الثانية التي يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر. كان الفلاح قصير القامة الذي كلِّف سوق العربة يصرُّ على أن يزعم، بينما هو يرتدي قفطانه، أن الدور دور آكيم، لا دوره هو، في القيام بهذه المهمة. ولكن أين آكيم؟ إن أحداً لم يستطع العثور عليه. لقد بحثوا عنه في كل مكان. والفلاح قصير القامة مايزال يصرُّ ويتوسل أن ينتظروه.

يقول:

ـ لكن هؤلاء الناس هم وقحون يا موريس مافريكيفتش، هتف تريفون بوريستش! لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبيكاً، فشربت بها خمراً ورحت تصرخ. يدهشني يا موريس مافريكيفتش لطافتك تجاه هؤلاء الفلاحين الأوغاد. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله.

ـ لماذا هذه العربة الثانية؟ قال ميتيا. تكفينا عربة واحدة، ألا تظن ذلك يا موريس مافريكيفتش؟ إنني لن أتمرد ولن أزعجك في شيء! لا حاجة إلى خفر من أجلي!

ـ أرجوك يا سيد، أن تكلمني كما يجب إذا كنت لم تتعلم بعد. أنا لست رفيقك، وإنني أمنعك من مخاطبتي بصيغة المفرد. مفهوم؟ أما نصائحك ففي وسعك أن تمتنع عن إسدائها إليَّ في المستقبل.

كان واضحاً أنه يسعده أن يفرِّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه.

سكت ميتيا. وكان قد احمر بشدّة. وها هو بعد لحظة يشعر ببرد. لقد توقَّف المطر عن الهطل، ولكن السماء الشهباء ملبدة بالسحب، وأن ريحاً جافة جداً تسفع وجهه. تساءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه في تشنج: «أهذه ارتعاشة حمَّى؟». وركب موريس مافريكيفتش العربة أخيراً. جلس في مكانه ثقيلاً، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا إلى زاوية المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك. الحق أنه كان معتكر المزاج جداً، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التي عهد إليه بها.

ـ استودعك الله يا تريفون بوريستش! صاح ميتيا مرة أخرى، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل في هذه المرة بروح المودة، وشعر بأن الغضب هو الذي انتزع منه هذه الصيحة انتزاعاً بغير إرادته.

بقي تريفون بوريستش ساكناً لا يتحرك، واضعاً يديه وراء ظهره. وحدَّق إلى ميتيا دون أن يجيب، ناظراً إليه نظرة مثقلة بالكبرياء زاخرةً بالاستنكار.

ودوَّى صوت كالغانوف يقول فجأة وقد انبجس لا أحد يعرف من أين:

ـ الوداع يا ديمتري فيودوروفتش، الوداع!

كان كالغانوف يركض نحو العربة عاري الرأس، ماداً يده إلى ميتيا، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه، قائلاً له:

ـ وداعاً أيها الصديق الشهم. لن أنسى كرمك ما حييت! ولكن العربة تحركت، فانفصلت يداهما، ورنّت الجلاجل. اقتيد ميتيا.

انسحب كالغانوف إلى المدخل، فجلس في زاوية، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي. بقي هكذا زمناً طويلاً، كصبي صغير، لا كشاب في العشرين من عمره. لقد كان شبه مقتنع، بأن ميتيا قد قتل أباه. فكان يهتف بغير انقطاع، وهو يشعر بحسرة مرة ولوعة شديدة: «ما هي نوعية هؤلاء البشر؟ فهم قادرون على القيام بأي شيء سيئ». ما عاد يشعر في تلك اللحظة بلذة الحياة، فراح يتساءل: «لِمَ الحياة؟ هل تستحق العناء؟».

# القسم الرابع

# الكتاب العاشر

# الصّبيان

# I

## كوليا كراسوتكين

بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. درجة البرودة أقل من إحدى عشرة، وظهر رقاق الجليد. وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناشف، والريح الجافة الحادة ترفعه وتكنسه من الشوارع الكالحة من مدينتنا الصغيرة، خاصة في ساحة «السوق». الصباح ضبابي، ولكن الثلج توقف عن الهطل. يمكن أن نرى، غير بعيد من الساحة، قرب متجر آل بلوتنيكوف، منزلاً صغيراً، نظيفاً في الداخل والخارج على السواء، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين. إن الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً قد مات منذ زمن طويل. فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة؛ ولكن أرملته، وهي امرأة جميلة الوجه باشة الهيئة، في نحو الثلاثين من عمرها، ما تزال تعيش من إيراداتها، في منزلها النظيف. وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة، لأن لها طبعاً متواضعاً حنوناً، وإن تكن على شيء من المرح. لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها، وهي لم تعش معه إلّا سنة واحدة، أي الفترة التي كانت لازمةً لإنجاب ابنها. ومنذ ذلك الحين، منذ اليوم الذي ترملت فيه، وقفت حياتها كلها على ابنها الغالي كوليا وحده. حتى إذا أحبت

ابنها، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر، حباً جنوناً لا حدود له، يمكن أن نتصور ما عانته من العذاب، أكثر كثيراً مما ذاقت من الفرح، فهي كل يوم ترتعد خوفاً وهلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد، أو أن يمرض، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه، فيتسلق كرسياً فيسقط، الخ. وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية، ثم حين قُبل بعد ذلك في المدرسة الثانوية في مدينتنا، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه في مذاكرة دروسه. وأسرعت تتعرف كذلك بمدرِّسيه، بل وبنسائهم أيضاً، وتعلقت برفاق صفه، فهي تدلِّلهم وتتفانى في بذل جميع الملاطفات لهم، حتى لا يُلحقوا بابنها أية إساءة، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه. وقد بلغت من ذلك أن الصِّبية انتهوا حقاً إلى أن يسخروا منه بسببها، فأخذوا يناكدونه، مطلقين عليه اسم «حبيب أمه». ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه. إنه صبي شجاع، «ذو قوة هائلة»، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت في نفوسهم. وكان بارعاً، قوي الطبع صلب الإرادة جريئاً. وكان إلى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق في الرياضيات وفي التاريخ العام على الأستاذ داردينالوف نفسه. ولكنه رغم أنه ينظر إلى الآخرين من علٍ، يعرف كيف يحافظ في وضعه، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق. ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف في معاملتهم. وكان يعرف خصوصاً كيف يحافظ على الاعتدال، كان قادراً على ضبط نفسه عند اللزوم، فهو لا يتجاوز، في علاقاته برؤسائه، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها، ولا يُعدُّ تخطيها إلّا تمرداً في الفوضوية وخروجاً على المشروعية. لكنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض الشيء، ولا يعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة، فينطلق في أفعال مرحة طائشة، كسائر الصبية الصغار، لا بدافع «الشيطنة» والحق يقال، بل طلباً

للذة ابتكار شيء ما، وإحداث أثر في النفوس، وجذب الأنظار إليه، وتأكيد ذاته بجرأة، والقيام بدور من الأدوار. وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه، وقد سيطر على أمّه سيطرة تامة، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون استبداداً. وقد خضعت الأم منذ زمن طويل، وإنما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها «لا يحبها كثيراً»، وكانت لا تتحمل هذه الفكرة. كان يتراءى لها دائماً أن كوليا «فاتر العاطفة» تجاهها، وكانت تبكي بكاءً هستيرياً، بسبب هذا الفتور؛ وكان الفتى يكره هذه «المشاهد»، فكلما طالبته أمه بمزيد من العاطفة، ثبت هو مزيداً من الثبات على جمود إحساسه وبرود عاطفته. والواقع أنه لم يكن يقوم بذلك عن قصد بل على غير إرادة منه، فتلك كانت طبيعته: كان يحب أمه كثيراً، ولكنه كان يكره هذا الإفراط السخيف في إظهار المشاعر، كان يكره تلك «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، كما كان يقول بلغته، لغة التلميذ. وكان أبوه قد خلَّف مكتبة خاصة. وكان كوليا يحب القراءة، فقرأ عدداً من الكتب المودَعة في المكتبة الزجاجية. لم يُقلق هذا أمَّه، لكنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً من أن ينصرف إلى اللعب. هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنّه هذه. على أن الفتى الذي كان لا يحب أن يتجاوز بعض الحدود في حيله، قد أخذ منذ زمن يثرثر بشكل يرعب أمه. لم يكن في سلوكه شيء يتنافى مع الأخلاق، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات طائشة. من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها في هذا الصيف نفسه، أثناء عطلة تموز/ يوليو إلى قريبة من قريباتها تسكن في مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا، لقضاء أسبوع عندها. إن زوج هذه المرأة موظف في السكة الحديد، فهو يعمل في محطة القطار بالمنطقة (وهي تلك اللحظة نفسها التي سافر فيها إيڤان فيودوروفتش كارامازوف إلى موسكو منذ شهر). قضى كوليا الأيام الأخيرة

يدرس تجهيزات السكة الحديد بكثير من العناية والاهتمام، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يتفوّق على رفاقه في المدرسة عند عودته. وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين في المنطقة كان بعضهم يسكن حول المحطة مباشرة والبعض الآخر يسكن في منازل تبعد قليلاً عن المحطة. هكذا تألفت منهم عصبةٌ عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة، تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وبينهم اثنان من مدينتنا. وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً، واخترعوا أنواعاً من العبث والهزل، ثم إذا بهذه العصبة المرحة تخترع في اليوم الرابع أو الخامس رهاناً بروبلين على مغامرة عجيبة. إن كوليا، وهو أصغر أفراد العصبة، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب، قد اقترح في ذات يوم، من قبيل حب الظهور أو إبراز الجسارة، أن ينام في إحدى الليالي بين خطَّي السكة الحديد، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار بسرعة عند الساعة الحادية عشرة. لا شك أن كوليا كان قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً واستنتج أن في وسعه أن ينام بين خطي السكة الحديد، وأن يبقى نائماً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه. ولكن ما أشد ما تحتاج إليه هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك، فهزىء منه الفتيان في أول الأمر، ونعتوه بأنه كذاب ومتبجح، فما زاده ذلك إلّا حنقاً وعناداً؛ وكان يغضبه خاصة أن ينظر إليه هؤلاء الفتيان الذين هم في الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية، وأن يرفضوا اعتباره نداً لهم، وأن يصفوه بأنه «صغير»، وتلك في نظره إهانة لا تحتمل! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل إلى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ، ليقوموا بهذه التجربة هنالك، حيث يكون القطار بعد تحرُّكه من المدينة قد أخذ يجري سريعاً. تواعد الفتيان أن يلتقوا في ذلك المكان. كانت الليلة بدون قمر، وكان الظلام دامساً. وفي الساعة المتفق عليها نام كوليا بين خطَّي السكة

الحديد. واختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار في أسفل المنحدر قرب الطريق، وهم يشعرون بشيء من الانفعال في أول الأمر، ثم تملَّكهم الخوف والندامة بعد ذلك. وسُمعت أخيراً همهمة القطار الذي غادر المحطة. وسطع ضوءان أحمران في الليل، وأقبل القطار العملاق يجري مسرعاً بضجة كدوي الرعد. صاح الصبيان وقد شلَّهم الذعر في مخبأهم، يقولون لكوليا: «أركض، أركض، أهرب»، ولكن كان قد فات الأوان. ووصل القطار ومرَّ فوق كوليا. ظل كوليا متمدداً بلا حراك. وأسرع إليه الصبيان يحاولون إنهاضه. فإذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة، ثم يمضي يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة. حتى إذا وصل إلى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالإغماء ليرعبهم. ولكن الحقيقة هي أنه قد أغمي عليه فعلاً، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة. ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم «الجَسور». وقد عاد الصبي إلى المنزل في تلك الليلة أصفر الوجه، وانتابته في الغد حمّى خفيفة. ولكنه كان يشعر بالسعادة، ويضحك ويمزح. ولم يذع أمر هذا الحادث فوراً، وإنما ذاع بعد عودة كوليا إلى مدينتنا، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً؛ وتدخلت أم كوليا لدى الادارة متوسلة إليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى، وبقيت تبذل مساعيها، إلى أن تولى المعلم داردينالوف، وهو رجل محترم مسموع الكلمة، أمر الدفاع عن الفتى، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث. إن داردينالوف هذا، وهو رجل عازب ما يزال شاباً، كان قد أُخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل، وعرض عليها الزواج في السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتجف خوفاً. ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها. ومع ذلك ظل داردينالوف يعتقد، على أساس بعض الدلالات الخفية، أن عليه أن لا يفقد الأمل، وأن الأرملة الشابة الفتانة، ولكن المبالغة في عفتها ووسواسها، لا تخلو من الميل إليه والإعجاب

به. وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التي قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة، وقد أُفهم داردينالوف، حين شكر له توسطه في الأمر، أنه ليس محظوراً عليه أن يراودها أي أمل. صحيح أن ذلك قد قيل إلماعاً بعيداً غامضاً، ولكن داردينالوف، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة. وكان يحب كوليا، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف إليه، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة. ولسنا نبتعد عن الإنصاف إذا قلنا إن كوليا نفسه كان يجافيه. كان كوليا يحضِّر واجباته المدرسية بكثير من العناية، وكان ثاني التلاميذ ترتيباً في صفه، ويجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التي يلقيها عليه المعلم. وكان جميع رفاقه، من جهة أخرى، مقتنعين بأنه يستطيع في مادة التاريخ العام أن ينافس أستاذه. وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا أستاذه في ذات يوم: «من بنى مدينة طروادة؟»، فاقتصر داردينالوف في الإجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن الشعوب والتحركات والتنقل وعن عمق الأزمنة والأساطير، ولكن على سؤال من بنى مدينة طروادة، من هم الأشخاص بالضبط لم يستطع أن يجيب، واعتبر هذا السؤال تافهاً لا داعي إليه. لكن التلاميذ بقوا مقتنعين بأن داردينالوف يجهل اسم باني طروادة. وكان كوليا قد وجد من هم مؤسسو مدينة طروادة من كتاب سماراغدوف الذي كان أحد كتب المكتبة الموروثة عن أبيه. في النهاية، جميع التلاميذ كانوا يريدون أن يعرفوا من بنى طروادة، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سرِّه، وظل يتمتع بهالةٍ من الاحترام.

وقد حدث تغير في العلاقة بين كوليا وأمه بعد حادث السكة الحديد. عندما علمت السيدة آنا فيدوروفنا (أرملة كراسوتكين) بالانجاز الذي حققه ابنها أوشكت أن تُجن من الهلع، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة الأمر الذي أرعب كوليا بشكل جدي. فقطع

لها على نفسه عهد الشرف بأن يتخلى كلياً في المستقبل عن هذه الأعمال الصبيانية. أقسم على ذلك أمام الإيقونة، وأقسم على ذلك أيضاً بذكرى أبيه، كما طلبت أمه. وقد انفجر كوليا «الجسور» عندئذ باكياً كطفل في السادسة من عمره، واستسلم لنوبة من «العاطفية»، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين. ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح «فاتر الشعور»، «بارد العاطفة»، ولكنه أصبح منذ ذلك الوقت أشد صمتاً، وأكثر تواضعاً، وأكبر قوة، وأطول روية. ولكن ما إن انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا في مغامرة جديدة، فوصل اسمه حتى إلى أسماع قاضي الصلح. لكن القضية في هذه المرة لم تكن أكثر من «شيطنة» مضحكة ليست خطرة، ولم يكن هو نفسه الفاعل فيها، وإنما جرفه إليها غيره. وسنشير ربما إليها فيما بعد على كل حال. وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة، وأحس داردينالوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة. يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يعرف الأحلام الخفية التي تراود أستاذه، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه «العواطف الكاذبة السخيفة»؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هنا بحضور أمه دون أية مداراة، وأنه يعرف الهدف الذي يريد أن ينتهي إليه داردينالوف. لكنه بعد حادث السكة الحديد تغيَّر موقفه في هذه الناحية أيضاً. فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز، وبدأ يتكلم عن داردينالوف أمام أمه بمزيد من الاحترام؛ وإذ أدركت أمه، بإحساس قلبها، الأسباب التي تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف الجديد، فقد شعرت بكثير من الشكر. ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما ذكر زائر غريب اسمَ داردينالوف بحضور كوليا. وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهم الوجه، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر إلى حذائه فاحصاً حالته، أو ينادي كلبه «برزفونه» غاضباً، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء،

وكان كوليا قد تبناه منذ شهر، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه ولا يدري أحد لماذا! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب كي يعلمه أنواعاً شتى من الحيل، إلى حد جعله يعوي أثناء غيابه في المدرسة، ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا إلى المنزل، ويقفز ويتواثب طرباً، يتقرب منه ويتحبب إليه، وينام على الأرض متظاهراً بالموت، أي يقوم بالحركات التي علَّمه إياها، وينفذها هذه المرة دون أن يطلب منه، لكن فقط على آثار تهيج أعصابه وقلبه الممتن.

بالمناسبة: لقد نسيت أن أذكر أن كوليا كراسوتكين هو ذلك الفتى نفسه الذي طعنه بموسى في وركه الصبيُّ إيليوشا الذي يعرفه القارىء (هو ابن الكابتن المتقاعد سنيغيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدَّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يعاملونه باحتقار.

# II

## جماعة الأطفال

هكذا إذن، لقد كان كوليا كراسوتكين في منزله في ذلك الصباح الجليدي القارس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. إنه يوم الأحد، فلا مدرسة. لكن الساعة الحادية عشرة قد دقت، وكوليا يريد أن يخرج من المنزل بأي ثمن «لأمر هامٍ جداً». ولكنه مازال في البيت وحيداً، وقد عُهد إليه بحراسته لأن جميع الكبار اضطروا إلى الغياب عن المنزل لظروف طارئة. إن منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين، يفصلها عن الشقة التي تشغلها صاحبة المنزل مدخل وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب، فهي تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً. وقد توثقت بين زوجة الطبيب وآنا فيودوروفنا، عرى صداقة قوية. أما الطبيب فكان قد سافر إلى أورنبورغ منذ أكثر من سنة، ثم سافر من هناك إلى طشقند، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر، فلولا الصداقة التي قامت بين الزوجة والسيدة كراسوتكينا التي خففت حزنها، لقضت نحبها هذه الزوجة المهجورة بسبب بكائها على حظها. ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب، كاترينا، غاية سوء الحظ، ألم يكن من الضروري أن تبلغها خادمتها الوحيدة، فجأة، ليلة الأحد، أنها تتأهب لأن تضع مولوداً؟

ذلك ما حدث. أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة. اضطربت زوجة الطبيب للحادث، وقررت أن تنقل كاترينا، ما دام في الوقت متسع، إلى قابلة في مدينتنا كانت تستقبل في منزلها سكاناً يبيتون ويطعمون. ولأنها كانت شديدة الحرص على الخادمة، أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ، فاصطحبتها إلى القابلة ومكثت قربها. وفي الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التي تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيء من الحماية للخادمة التي على وشك أن تلد. هكذا غابت السيدتان عن المنزل. ومن جهة أخرى، كانت أغافيا، خادمة السيدة كراسوتكينا، قد ذهبت إلى السوق. فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً، إلى حين، حراسة المنزل ومراقبة طفلي زوجة الطبيب، الصبي والبنت، اللذين بقيا وحدهما معه في المنزل. لم يكن دور الحارس يرعب كوليا، لا سيما وأن الكلب «برزفونه» إلى جانبه. ولقد أمر الكلب بأن يبقى نائماً تحت دكة في المدخل، وأن يبقى «ساكناً» لا يتحرك. وكان كوليا يروح ويجيء بين الغرف، فكلما خرج إلى المدخل، انتفض الحيوان الشهم، وأدار وجهه إلى جهة سيده، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً مع الأسف، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية، فيسرع الكلب إلى التجمد على سكونه المطلوب. والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً إلّا بالطفلين. صحيح أن حادث كاترينا قد أيقظ في نفسه احتقاراً عميقاً، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً شديداً، وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍّ. إن ناستيا، وهي الكبرى، تبلغ من عمرها ثماني سنوات، وتجيد القراءة. وإن أخاها، وهو أصغر منها بسنة، يجد لذة كبيرة في الاستماع إلى القصص التي تقرأها له. واضح أن في وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى إلى الضحك، كأن يضعهما في صف ويلعب معهما لعبة الجنود، أو لعبة

«الغميضة»، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بغضاضة، حتى لقد شاع في المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه، ولكن كوليا قد فنَّد هذه التهم، وقال إن لعبة الحصان تخلُّ بالكرامة حقاً «في هذا العصر» إذا هو لعبها مع رفاق مثله في الثالثة عشرة من أعمارهم، ولكنه يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما جداً، ولا يحق لأحد أن يتدخل في مشاعره. لذلك كان هذان الطفلان يحبانه جداً. لكنه لم يكن في هذه المرة منشرح القلب للعب. لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً، بل وسرية بعض الشيء. والزمن يمضي. وأغافيا التي كان يمكن أن يكل إليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد. لقد قطع كوليا المدخل عدة مرات، ففتح باب شقة زوجة الطبيب، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين في القراءة تنفيذاً لأمره. فكان الطفلان يبتسمان بصمت كلما ظهر لهما، متوقعين أن يفاجئهما بشيء مسلٍّ مضحك. ولكن هموم كوليا في ذلك النهار كانت أخطر وأكثر من أن يفكر في تسليتهما وإضحاكهما. فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم بحزم على أن يخرج دون أن ينتظر أغافيا «الملعونة»، إذا هي لم تعد خلال عشر دقائق، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يبقيا أثناء غيابه هادئين، وألّا يخافا ولا يبكيا. وعلى هذا، ارتدى معطفه الشتوي الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب، ووضع كيسه المدرسي على كتفه. ورغم التوصيات الملحة التي أسدتها إليه أمه بأن لا يخرج في «مثل هذا البرد» دون أن ينتعل خفَّي المطّاط، فإنه حين اجتاز المدخل رمى الخفين بنظرة ازدراء. فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج، ضرب الأرض بذيله ضربتين، واضطرب وتحرك، وتدحرج، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً. لكن كوليا رأى أن هذا الإفراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط، لذلك تركه ينتظر تحت الدكّة دقيقة

أخرى طويلة، ولم يصفر له منادياً إلّا حين فتح الباب، فقفز الحيوان الشهم وقد جُنَّ فرحاً، وبدأ يقفز أمام كوليا. اجتاز الفتى المدخل، ودخل غرفة الطفلين. إنهما ما يزالان جالسين أمام طاولة صغيرة كما كانا من قبل، ولكنهما كفَّا عن القراءة، وكأنهما منهمكان في مناقشة حامية جداً. غالباً ما كانا يناقشان كل أنواع المواضيع الشائكة المتعلقة بالحياة اليومية، وكانت ناستيا هي التي تنتصر دائماً، من حيث إنها الكبرى. فإذا لم يكن كوستيا متفقاً معها، يحتكم إلى كوليا كراسوتكين، وما يحسمه هذا الأخير يكون هو الحكم الأخير في نظر المتخاصمين كليهما. في هذه المرة أثار الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين «الصغيرين» فضول كوليا، فوقف في عتبة الباب يصغي إليهما. لاحظ الولدان أنه يصغي إلى ما يقولان فاستعادا نقاشهما بحمية أقوى.

ـ لم أصدِّق أبداً، قالت ناستيا مزقزقة، أن القابلات يجدن الصغار في حقول الخضار تحت الكرنب؛ الآن شتاء، فلا تنبت خضار، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً إلى كاترينا؟

ـ عجيب!! قال كوليا.

ـ الأمر هكذا، تأخذ القابلات هؤلاء الأطفال من مكانٍ ما، ويعطيهن فقط إلى النساء المتزوجات.

كان كوستيا يحدق إلى أخته، ويصغي بانتباه، ويبدو عليه التأمل والتفكير.

ـ لست إلّا غبية يا ناستيا! قال أخيراً بصوت جازم على هدوء: كيف يمكن أن يكون لكاترينا طفل وهي غير متزوجة؟

فقالت ناستيا وقد نفد صبرها:

ـ أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً! لعل لها زوجاً ولكنه في السجن. ولذلك كان لها طفل.

ـ هل أنت واثقة بأن زوجها في السجن؟ سألها كوستيا بهدوء:

فقاطعته ناستيا وقد نسيت افتراضها الأول:

ـ أنا أعرف كيف حدث هذا. ليس لها زوج. أنت على حق. ولكنها كانت ترغب في أن تتزوج، فأخذت تفكر في زواجها المقبل، ففكرت ثم فكرت، ومن كثرة ما فكرت حصلت على زوج بل على طفل!

ـ إذا كان الأمر كذلك، فهذا مختلف تماماً. قال كوستيا وقد اقتنع. ولكن كان يجب أن تذكريه لي من قبل، فإنني ما كنت لأستطيع أن أحزره.

ـ هيه يا أولاد! تدخل كوليا قائلاً: إنكم أخطر مما كنت أتصور!

ـ هه! هل «برزفونه» معكم. صاح كوستيا. ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه.

بدأ كوليا يقول وقد بدا على وجهه الاهتمام الشديد:

ـ اسمعوا يا أولاد! لدي شغلة ويجب أن تساعدوني. إن أغافيا قد كُسرت ساقها، لأنها لم تعد حتى الآن. ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها. ويجب عليَّ حتماً أن أخرج. فهل تأذنان لي بالانصراف؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة، وتجهم وجهاهما بعد أن كانا باسمين. وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما.

ـ ألن ترتكبا حماقات أثناء غيابي؟ ألن تتسلقا الخزانة فتكسرا أرجلكما؟ ألن تبكيا ذعراً من الوحدة؟.

ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق.

ـ إذا وعدتماني بأن تبقيا عاقلين، فسوف أريكما شيئاً، سوف أريكما مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقي.

فسرعان ما اطمأن وجها الطفلين. وصاح كوستيا مشرق المحيّا:

ـ أرنا هذا المدفع الصغير!

دسَّ كراسوتكين يده في كيس المدرسة وسلَّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز ووضعه على الطاولة.

ـ هذا يهمكما! أنظرا: إنه محمول على عجلات! قال ذلك وهو يدحرج المدفع على الطاولة. وأضاف:

ـ ويمكن إطلاق النار منه. يُحشى خردقاً، فتخرج الطلقة.

ـ هل يقتل فعلاً أيضاً؟

ـ طبعاً! بهذا المدفع يمكن قتل أي إنسان، إذا أُحسن التصويب إليه طبعاً.

أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود، وكيف يمكن إدخال الخردق. أراهما فتحة صغيرة في البرونز تسمى الضوء، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يندفع إلى وراء عند الإطلاق. أصغى إليه الصغيران بفضول شديد، وأثار خيالهما خصوصاً ذلك الاندفاعُ إلى وراء.

ـ هل عندك بارود أيضاً؟ سألته ناستيا.

ـ عندي بارود.

ـ أرنا البارود أيضاً. قالت وهي تبتسم متوسلة وتجر كلماتها ببطء.

دسَّ كراسوتكين يده في كيسه مرةً أخرى، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقي، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق. حتى لقد مضى في الملاطفة إلى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود في راحة يده.

ـ أنظرا! ولكن يجب ألّا يكون هنا نار، وإلّا حدث انفجار يدمرنا جميعاً.

قال كراسوتكين ذلك ليثير خيال الصغيرين أكثر.

وأخذ الطفلان يتفحصان البارود في خوف شديد. ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفاً إلى الخردق بشكل خاص. قال يسأل:

ـ ألا يحترق الخردق؟

ـ لا، لا يمكن أن يشتعل الخردق.

ـ أعطني بضع حبات من الخردق. قال كوستيا متوسلاً.

ـ سأعطيك. هاك هذه الحبات. خذها. ولكن لا تُرها لـ «ماما» ما لم أعد أنا؛ وإلّا ظنتها باروداً، فماتت هلعاً، وضربتكما كليكما.

ـ ماما لا تضربنا أبداً! قالت ناستيا مصححة.

ـ أعرف. ولكنني قلت هذا لتصبح الصورة جميلة. يجب ألّا تكذبوا أبداً على أمّكم، إلّا هذه المرة، بانتظار عودتي. والآن، يا أولاد، هل أستطيع أن أنصرف؟ ألن تبكوا خوفاً أثناء غيابي؟

ـ سـ... ـنـ... ـبكي!... قال كوستيا بصوت شحيح، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن.

ـ طبعاً سنبكي. قالت ناستيا بسرعة خائفة.

ـ ما أخطركم في هذه السن يا أولاد! يا عصافيري الصغيرة! سيكون عليَّ أن أبقى معكم لست أدري إلى متى؛ والوقت يمر ملحاً رهيباً مع الأسف!

ـ أصدر أمرك إلى «برزفونه» بالتظاهر بالموت. قال كوستيا:

ـ لا مناص. لا بد من اللجوء إلى «برزفونه»! برزفونه: تعال إلى هنا! أصدر كوليا أوامره إلى الكلب، وهذا الأخير ينفذ الحركات التي تعلمها. إن برزفونه كلب كثيف الشعر ضخم الجثّة لا تستطيع أن تحدد لونه، فهو أشهب أغبر معاً، وهو أعور، مصلوم الأذن اليسرى، لا يدري أحد لماذا. أخذ الكلب يصوّت ويقفز فرحاً، ويتبختر، ويمشي على قائمتيه الخلفيتين، ثم يستلقي على ظهره ويتظاهر بالموت. فيما يقوم بهذه اللعبة الأخيرة إذا بالباب يُفتح وإذا بأغافيا، الخادمة الضخمة التي تعمل عند السيدة كراسوتكينا، وهي امرأة مجدورة الوجه، في نحو الأربعين من العمر، إذا بها تظهر في العتبة حاملةً بيدها شبكة المؤن التي اشترتها من السوق. وقفت أغافيا ونظرت إلى الكلب معجبة بينما الشبكة تتدلى من طرف ذراعها اليسرى. ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر، فإنه لم يتوقف عن التمثيل حين رآها، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له، فما إن سمع الكلب الصفير حتى قفز واقفاً على قوائمه، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه.

ـ هذا كلب حقاً! قالت أغافيا منتشية.

ـ لماذا تأخرت يا مخلوقة نسوية؟ سألها كوليا بقسوة.

ـ أنا مخلوقة نسوية؟ انظروا إلى هذا الولد المخاطيّ؟

ـ مخاطيّ؟

ـ طبعاً مخاطيّ! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أو أن لا أتأخر. ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان ضرورياً...

قالت أغافيا متذمرة وهي تنهمك بما حول الموقد. لكنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ. بالعكس: كان يبدو أنها تجد لذة في مشاجرة سيدها الفتى المرح.

قال كوليا وهو ينهض عن الكنبة:

ـ إسمعي يا من عقلك كعقل العصافير. هل تقسمين لي بأقدس ما عندك في هذا العالم، وبشيء آخر أيضاً، على أنك ستهتمين بالأولاد أثناء غيابي وستراقبينهم بلا غفلة عنهم؟ إن عليَّ أن أخرج.

ـ وعلام أُقسم؟ لسوف أهتم بهما دون يمين. قالت أغافيا مندهشة ضاحكة.

ـ بل يجب أن تقسمي على ذلك بخلاص روحك! وإلّا لن أخرج.

ـ إذن لا تخرج. هل يضيرني أن لا تخرج؟ ثم إن الأفضل أن تمكث في المنزل، فالبرد في الخارج شديد يجمِّد المياه.

ـ اسمعوا يا أولاد! قال كوليا يخاطب الطفلين: ستبقى هذه المرأة معكما إلى أن أعود، أو إلى أن تعود أمكما التي كان يجب أن تعود منذ مدّة طويلة. وسوف تهيىء لكما فطوركما. ستطعمينهما، أليس كذلك يا أغافيا؟

ـ جائز.

ـ إلى اللقاء يا عصافيري الصغيرة. إنني أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير.

ثم أضاف يقول لأغافيا بصوت خفيض وهيئة رزينة وهو يمر أمامها:

ـ وداعاً أيها الصيصان، أنا ذاهب مطمئن القلب، قال بصوت خافت. وأنت أيتها الجدة، آمل ألا تخبريهم قصص النساء الطيبات التقليدية عن كاترينا، انتبهي إلى طفولتهم. تعال إلى هنا يا برزفونه!

ـ اذهب إلى الشيطان! أنت أيضاً، قالت أغافيا غاضبة حقاً هذه المرة. إنه يضحكني! أنت تستحق أن تُجلد بسبب هذه الكلمات التي تقولها لي!

# III

## التلميذ

لكن كوليا ما كان يصغي. ها هو يستطيع الخروج أخيراً. وبعد أن اجتاز باب المدخل، التفت حوله، وشد كتفيه، وبعد أن قال: «ما أشد هذا البرد!»، سار قُدُماً على طول الشارع؛ ثم انحرف يميناً إلى زقاق يؤدي إلى ساحة السوق، ووقف أخيراً أمام المنزل الذي يقع قبل الساحة، فأخرج من جيبه صفارةً، وصفر بها بكل قواه، كما لو أنه يقوم بإشارة متفق عليها. ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة، فها هو صبي أحمر اللون في الحادية عشرة من عمره، يسرع نحوه. كان هذا الصبي يرتدي هو أيضاً معطفاً سميكاً، نظيفاً جداً، بل وأنيقاً. إنه الفتى سمورروف، تلميذ الصف التحضيري (كان كوليا يسبقه صفين)، وهو ابن موظف ثري كان أهله قد حظروا عليه معاشرة كراسوتكين الذي اشتهر بأنه صبي متهور مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة. واضح أن سمورروف قد تسلل إلى الشارع على غير علمٍ من أهله. إن سمورروف هذا ـ ولعل القارئ يتذكر ذلك ـ كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا إيليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين. وهو الذي كلّم ألكسي كارامازوف عن إيليوشا في تلك المناسبة.

ـ أنا بانتظارك منذ ساعة يا كراسكوتين. قال سموروف وقد لاح على وجهه العزم. واتجه الفتيان نحو ساحة السوق.

ـ تأخرت حقاً، قال كوليا، والذنب في تأخري بعض الظروف. قل لي: ألن تُجلد لأنك جئت معي؟

ـ لكن تمهلوا، هل تجلدونني؟ هل «برزفونه» معك؟

ـ نعم.

ـ هل تنوي اصطحابه أيضاً؟

ـ طبعاً.

ـ آه... لو كان هناك «يوتشكا»!

ـ هذا مستحيل. «يوتشكا» لم يبقَ له وجود. لقد اختفى دون أن يترك أثراً.

ـ حبذا لو كان ذلك ممكناً قال سموروف. ما دام ايليوشا يزعم أن «يوتشكا» أيضاً كان كلباً طويل الشعر، مثل «برزفونه» هذا، وكان أشهب اللون أيضاً، أفلا نستطيع أن نقول له إن هذا «يوتشكا»؟ لعله يصدِّق.

ـ اعلم أيها التلميذ أنه لا يجوز للمرء أن يكذب، ولو في سبيل الخير. هذه واحدة. أما الثانية فهي أنني أرجو خصوصاً ألّا تكون قد تكلمت هناك على زيارتي.

ـ أبداً. ما هذا الكلام؟ قال سموروف هل أنا غبي إلى هذه الدرجة؟ ثم أضاف يقول متنهداً: ولكن «برزفونه» لن يعزِّيه. إن أباه، الكابتن، هذه الخرقة الرثة، قد قال لنا إنه سيجلب له كلباً أسود البوز من أهمّ كلاب الحراسة جنساً، وهو يعتقد أن إيليوشا سيتعزى بهذا الكلب. ولكنني أشك في ذلك.

ـ وكيف هو إيليوشا؟

ـ آه، سيئ جداً. أظن أنه مصاب بالسل. إنه لم يفقد وعيه، ولكن تنفسه صعب! يجد عناء في التنفس! طلب منذ مدة أن يخرج في نزهة، فألبسوه ثيابه

وحذاءه، فما إن سار بضع خطوات حتى تهالك. فقال لأبيه: «قلت لك مراراً يا بابا إن هذا الحذاء غير صالح. لقد كنت أجد مشقة في المشي بهما حتى في الماضي». اعتقد أنه سقط بسبب الحذاء، مع أنه سقط بسبب ضعفه. لن يعيش أكثر من أسبوع. إن الدكتور هرتسنشتوبه يعانيه من حين إلى آخر. لقد أصبحوا أغنياء من جديد. إن معهم مالاً كثيراً.

ـ أوغاد!

ـ من هم الأوغاد؟

ـ الأطباء، هم وطبابتهم على وجه العموم، ولكنني أخصص أيضاً. أنا لا أؤمن بالطب. الطب لا حاجة إليه. لكنني أريد أن أدرس هذه المشكلة بدقة. قل لي بانتظار ذلك: لماذا أنتم حاذقون جميعاً في العواطف المزعومة؟ يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون إليه، أليس كذلك؟

ـ لا، ليس جميع تلاميذ الصف. نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم. ليس لهذا كبير شأن.

إن ألكسي كارامازوف هو الذي يدهشني أمره خصوصاً في هذه القصة. سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ في اصطناع العواطف!

ـ ليس هذا عواطف مزعومة. أنت نفسك تذهب الآن إلى ايليوشا، تذهب إليه لتصالحه؟

ـ لأصالحه؟ تضحكني هذه الكلمة! ثم إنني لا أسمح لأحد بأن يحلِّل أفعالي.

ـ ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك! إنه لا يتوقع زيارتك أبداً. لماذا رفضت أن تجيء إليه طوال هذه المدة؟ قال سموروف بحرارة.

ـ يا عزيزي الفتى الطيب، هذا شأني أنا لا شأنك. أنا أذهب إليه بإرادتي،

لأن ذلك يحلو لي. أما أنتم فتذهبون إليه مدفوعين من ألكسي كارامازوف. ذلك هو الفرق. ثم من قال لك إن في نيتي أن أصالحه؟ أنا لا أحب هذه الكلمة.

ـ كلا. ليس بسبب كارامازوف! كلهم ما عداه. لقد ذهب التلاميذ بصحبة كارامازوف في أول الأمر فذلك أمر طبيعي. ليس في سلوكنا أي حماقة ذهبنا الواحد تلو الآخر، وهكذا دواليك. وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا! لسوف يُجنُّ أبو ايليوشا إذا مات ايليوشا. هو يدرك أن ابنه لن يعيش. وقد سعد كثيراً بتصالحنا معه. سألنا ايليوشا عن أحوالك، ولكنه لم يضف إلى ذلك شيئاً. سألنا عنك ثم سكت. أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه. ثم إن سلوكه كان دائماً سلوك إنسان مختل العقل. ولكنه رجل نبيل جداً، ولقد أخطأنا في الحكم عليه. إن الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذي ضربه ذات يوم، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد ذلك أباه.

ـ مهما يكن من أمر فإن كارامازوف هذا يبقى لغزاً في نظري. كان بإمكاني أن أتعرف إليه منذ زمن طويل، لكنني أحب في بعض الحالات أن أظهر كبريائي. على كل حال، لقد كوّنت لنفسي رأياً فيه، وما زلت في حاجة إلى التثبت من هذا الرأي وإلى إكماله.

صمت كوليا متجهماً. وسموروف صمت أيضاً. واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين بإعجاب شديد، وما كان يفكر أن يتعامل معه الند للند. وهو الآن يشعر بفضول قوي، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة «بإرادته»، فلا بد أن يكون في الأمر سر. لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة؟ ولماذا يذهب إلى ايليوشا في هذا اليوم بالتحديد؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ساحة السوق حيث تزدحم في هذه الساعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع. هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهنَّ عارضاتٍ خبزاً صغيراً وبسكويتاً وخيوطاً. ويطلق الناس في مدينتنا، بسذاجة، اسم «المعارض» على أسواق

الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة. وكان «كاريون» يركض في جميع الجهات، ويسرح ويمرح، راكضاً إلى اليسار تارة، وإلى اليمين تارة أخرى، متجهاً إلى كل موضع فيه شيء يشمّه. فإذا لقي كلاباً أخرى بادلها، بسرور، حركات التودد المألوفة، بوزاً إلى بوز، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب...

ـ أحب أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية يا سموروف. قال كوليا. هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضاً؟ لا شك في أنها إذ تفعل ذلك تخضع لقانون من قوانين الطبيعة.

ـ نعم، إنه قانون مضحك جداً في رأيي.

ـ كلا، هذا ليس مضحكاً، أنت مخطىء، ليس في الطبيعة ما يضحك، رغم كل ما قد يظنه الإنسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء! لو كان في وسع الكلاب أن تفكر وأن تعبِّر لوجدت حتماً في السلوك الاجتماعي لدى البشر، سادتهم، لوجدت في هذا السلوك من الأمور المضحكة في نظرها مثل ما نجد نحن في سلوكها، وربما وجدت أكثر من ذلك أيضاً! أكرر: لسوف تجد لدينا من المضحكات أكثر مما نجد لديها، لأنني مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب هي. تلك فكرة من راكيتين، وهي فكرة ممتازة. أنا اشتراكي يا سموروف.

ـ ماذا يعني اشتراكي؟ سأله سموروف.

ـ الاشتراكي عندما يصبح جميع البشر متساوين، وأن تصبح آراؤهم واحدة في كل شيء، وأن يلغى الزواج، أما الدين كما يحب كل فرد، إنك لم تبلغ من النضج في سنّك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور. ما أشد البرد مع ذلك!

ـ صحيح. البرودة اثنتا عشرة درجة اليوم تحت الصفر. لقد نظر أبي إلى الترمومتر منذ قليل.

ـ هل لاحظت يا سموروف أن المرء، حين تهبط الحرارة في وسط فصل الشتاء إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى إلى ثماني عشرة درجة، لا ينزعج من البرد مثلما يتألم منه في نهاية الخريف حين تتجمد المياه ولا تهبط الحرارة إلى أكثر من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، ولا يكون هنالك إلّا ثلج قليل، كما هي الحال اليوم؟ ذلك أن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد. كل شيء في البشرية عادة، والأمر كذلك في مجال الحياة الاجتماعية والسياسية. إن العادة هي المحرِّك الكبير للحياة الإنسانية. انظر إلى هذا الفلاح كم هو مضحك؟

وأومأ كوليا إلى فلاح طويل القامة يرتدي معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه السذاجة. كان الفلاح مدثر اليدين بقفازين قصيرين، وهو يضرب يديه إحداهما بالأخرى طلباً للدفء، وقد غطَّت حبيبات الجليد لحيته الطويلة الكستنائية.

ـ تجلدت لحية الفلاح. قال كوليا بصوت مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح.

ـ لست الوحيد الذي تجلدت لحيته. أجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة.

ـ لا تسع إلى مشاكسته ومشاجرته. قال سموروف قلقاً.

ـ ليس في هذا بأس. لن يزعل. هو رجل طيب شهم. إلى اللقاء يا متا!

ـ وداعاً!

ـ لأن اسمك متا فعلاً؟

ـ طبعاً. لماذا؟ هل كنت تجهل ذلك؟

ـ لم أكن أعرف ذلك. وإنما سميتك بهذا الاسم مصادفة.

ـ غريب. هل أنت تلميذ في المدرسة؟

ـ نعم.

ـ وهل يجلدونك في المدرسة؟

ـ كلا، لا أستطيع أن أقول، ليس كثيراً.

ـ هل الجلد مؤلم؟

ـ تقريباً.

ـ كذلك هي الحياة.

بهذا أنهى الفلاح الحوار متنهداً.

ـ وداعاً يا متا!

ـ استودعك الله. أنت فتى أطيب!

وتابع الفتيان طريقهما.

ـ هذا الفلاح لطيف محبب. قال كوليا. إنني أحب الحديث مع أفراد الشعب، ويحلو لي أن أنصفهم.

ـ لماذا كذبت عليه فزعمت له أننا نُجلد في المدرسة؟

ـ كان لا بد من مواساته قليلاً.

ـ مواساته؟ لم أفهم.

ـ اسمع يا سموروف. أنا لا أحب كثيراً أن أُسأل حين لا يُفهم عني فوراً. هناك أمور من الصعب شرحها. فهذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون في المدرسة، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك. لا يُجلد تلميذ! فلو قلت له بفظاظة إننا لا نُجلد في المدرسة لما فهم شيئاً ولأحزنه ذلك. لكنك لا تفهم هؤلاء الناس. يجب أن تتعلم كيف تتحدث مع الشعب.

ـ ولكنني أتوسل إليك أن لا تناكدهم، وإلّا فقد تقع لنا قصة كالتي وقعت لنا في ذلك اليوم، مع ذلك الغبي!

ـ هل يخيفك هذا؟

ـ لا تمزح يا كوليا. هناك أسباب تدفعني إلى الخوف. سوف يغضب أبي غضباً شديداً. لقد منعوني من الخروج معك.

ـ اطمئن. لن يقع شيء هذه المرة. صباح الخير يا ناتاشا!

صاح كوليا يحيي بائعة كانت تقف تحت إفريز حانوتها. فأجابت المرأة التي تبدو شابة بصوت حاد:

ـ ناتاشا؟ أتريد أن تمزح؟ أنا اسمي ماريا.

ـ ماريا؟ هذا أجمل. أستودعك الله.

قال كوليا وهو يحرك يده بإشارة عريضة كأن المرأة هي التي تزعجه:

ـ طيب طيب... ستقصّين عليَّ هذا يوم الأحد القادم. أنا الآن مشغول!

ـ ليس عندي ما أقصه عليك يا متبجِّح! انظروا إلى هذا الولد: أنت الذي ناديتني متحرشاً بي، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح! إن السوط هو ما تستحقه أيها الولد! نحن نعرفك.

صرخت ماريا تقول غاضبة. فانفجرت ضحكاً كل البائعات اللواتي كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها. وفجأة، برز من رواق المخازن في الساحة رجل غاضب. كانت هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجاري، حتى إنه ليس من مدينتنا، وإنما هو مارّ بها صدفةً. هو شاب يرتدي قفطاناً أزرق طويلاً، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستنائي، ووجهه شاحب مجدور، يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً، وها هو ذا يتجه مباشرة نحو كوليا ويهدده بقبضه يده.

ـ أنا أعرفك، أنا أعرفك منذ زمن. قال له صارخاً.

نظر إليه كوليا متفرساً فيه، فلم يفلح في أن يتذكر متى وأين احتكّ بهذا الرجل. إن مصادماته في الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكُّرها جميعاً.

ـ تعرفني؟ سأله كوليا بلهجة ساخرة.

ـ أعرفك! أعرفك! ردّد الرجل في غباء.

ـ هذا خير لك. أنا مستعجل الآن. أستودعك الله.

ـ تعود إلى وقاحاتك. صاح المستخدم؟ تعود؟ أنا أعرفك يا وقح! أتعود إلى وقاحاتك؟.

ـ ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو لا أكون. ليس هذا من شأنك! قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس في الرجل.

ـ كيف؟ ليس من شأني؟

ـ ليس من شأنك أنت على كل حال!

ـ من شأن مَنْ إذن؟ ألا قلت لي!

ـ هو الآن من شأن تريفون نيكيتتش.

ـ أي تريفون نيكيتتش تعني؟

سأل الرجل الساذج وقد بدت في وجهه علامات دهشة بلهاء، ولكن صوته ما يزال غاضباً. نظر إليه كوليا بوقار، ثم سأله فجأة بقسوة:

ـ هل ذهبت إلى «كنيسة الصعود»؟

ـ أية كنيسة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أذهب إليها؟

ـ هل تعرف سابانايف؟ سأل المستخدم مرتبكاً. فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة أيضاً:

ـ أي سابانايف؟ كلا. لا أعرفه.

ـ فليأخذك الشيطان إذن! قال كوليا يحسم الحوار.

ثم مال فجأة إلى يمين، وانصرف بخطًى سريعة، كأنه يرفض أن ينزل إلى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانايف.

صاح المستخدم يسأله وهو ثاب إلى نفسه واضطرب من جديد:

ـ انتظر، اسمع، أي سابانايف تعني؟

ثم التفت فجأة إلى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء:

ـ لماذا كلمني عن سابانايف؟

فانفجرت النساء ضاحكات.

ـ هذا الولد ماكر. قالت إحداهن.

فكرر المستخدم يسأل بإلحاح وهو يحرك يده اليمنى بإشارات عريضة.

ـ أي سابانايف؟ من هذا؟

قالت إحدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة.

ـ أغلب الظن أنه سابانايف الذي كان مستخدماً عند آل كوزمتشيف. لا يمكن إلّا أن يكون هو.

حدَّق إليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة.

وعادت امرأة ثانية تقول:

ـ عند آل كو... ز... متشيف؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون! كان اسمه كوزما وليس تريفون. والتلميذ إنما ذكر اسم تريفون نيكيتتش. فليس المقصود إذن سابانايف ذاك نفسه.

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل في المناقشة فتقول بعد أن كانت طوال الوقت صامتة تصغي بانتباه شديد.

ـ أنت مخطئة. لم يكن اسمه تريفون ولا سابانايف، بل كان اسمه تشيبوف، ألكسي إيڤانوفتش، أتذكر ذلك جيداً: ألكسي إيڤانوفتش تشيبوف.

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة:

ـ هذا صحيح. المقصود هو تشيبوف فعلاً.

كان المستخدم ينقل نظره بينهن واحدةً واحدة، وقد بدت في وجهه علامات الحيرة والذهول. قال الشاب مهموماً:

ـ ولكن لماذا، لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال: «هل تعرف سابانايف؟»؛ هلّا قلتنَّ لي لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات! لا يعلم إلّا الشيطان ما الذي كان يدور في رأسه حين كلمني عن سابانايف!

ـ لست سوى أحمق! ألم تقل لك إن المقصود ليس سابانايف بل تشييوف، ألكسي إيڤانوفتش تشييوف؟ أجابته إحداهن بصوت صارم.

ـ تشييوف؟ أي تشييوف؟ قولي لي ما دمت تعرفين!

ـ هو رجل طويل القامة طويل الشعر، كانت له دكّته في السوق هذا الصيف.

ـ ما شأني أنا بصاحبك تشييوف هذا؟ قلن لي أيتها النساء الطيبات!

ـ هل عليَّ أنا أن أعرف ما شأنك به؟

ـ وقالت امرأة أخرى:

ـ هل نعرف نحن؟ يجب أن تعرف أنت ما الذي يريده منك، ما دمت تصرخ هذا الصراخ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن، يا أهبل! أم تُراك لا تعرف الرجل؟

ـ أي رجل؟

ـ تشييوف طبعاً!

ـ الشيطان يأخذه، ويأخذك أنت أيضاً معه! سوف أضربه، ذلك كل ما أقوله لكُنَّ، لأنه سخر مني.

ـ هل أنت تضرب تشييوف؟

ـ لا، لا، ليس تشييوف من سأضربه، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق، وإنما سأضرب الصبي. آتني به إلى هنا، آتني به حالاً، حالاً!

ضحكت النساء. أما كوليا فكان قد ابتعد، وهو يسير الآن متبختراً كالمنتصر؛ وأما سموروف الذي يسير إلى جانبه فإنه يلتفت من حين إلى آخر نحو مجموعة البائعات اللواتي كن يلوّحن بأيديهن صائحات. إن سموروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجـاً كبيراً، ولكنه يخشى أن يجره كوليا إلى قصة لا تحمد عقباها.

ـ عن أي سابانايف كلمته؟ سأله سمورروف وهو يتنبأ بالجواب.

ـ وهل أنا أعرف؟ سوف يظلون يتشاجرون في هذا الأمر حتى المساء. لشد ما أحب أن أحيِّر وأن أربك الأغبياء من جميع طبقات المجتمع. أنظر! هذا بليد آخر هناك، ذلك الفلاح، هل تراه؟ كثيراً ما يقال: «أغبى الأغبياء غبي فرنسي». أما أنا فأرى أن وجوه الروس تكشف أحياناً عن غباوة يُحسدون عليها. أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد؟ إنني أقصد ذلك الفلاح نفسه. ما رأيك؟

ـ دعه وشأنه يا كوليا. امضِ بنا!

ـ لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال! إنني أشعر باندفاع لا يُقاوم. أنت... هناك! صباح الخير أيها الفلاح الطيب!

ها هو الرجل المنادي، وهو فلاح قوي البنية يزدان وجهه المدوَّر الخالي من المكر بلحية متناثرة، ها هو يرفع رأسه ببطء وينظر إلى الفتى.

ـ طيب، ليكن، صباح الخير، إذا كنت لا تعبث!

ـ وإذا كنت أعبث؟

ـ لك ما تشاء عندئذ، اعبث قليلاً أيها الفتى. مباح للمرء أن يتسلى في هذا العالم. لا يسيء ذلك إلى أحد.

ـ معذرة أيها الطيب، لقد أردت أن أمزح.

ـ سيسامحك الله.

ـ وهل تسامحني أنت؟

ـ من كل قلبي امضِ في سبيلك!

ـ يبدو لي أنك فلاح ذكي.

ـ أذكى منك على كل حال.

قال الرجل على غير توقُّع، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته.

فأجابه مرتبكاً:

ـ أشك في ذلك.

ـ بلى بلى! أنا أذكى منك.

ـ قد يكون هذا صحيحاً.

ـ أرأيت؟

ـ استودعك الله أيها الفلاح.

ـ وداعاً.

ـ الفلاحون أنواع. قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات من الصمت. كيف يمكن أتوقع بأني سأقع على فلاح ذكي. أنا مستعد لأن أعترف بذكاء أبناء الشعب.

وفي البعيد، دقّت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف. فأسرع الفتيان الخطى، وقطعا بسرعة، دون كلام تقريباً، المسافة الطويلة التي كانت ماتزال تفصلهما عن منزل الكابتن سنيغيريف. حتى إذا صارا على بعد عشرين خطوة منه، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليستدعي كارامازوف. وقال لسموروف شارحاً:

ـ أريد أولاً أن أتعرف إليه وإلى جو المكان.

اعترض سموروف قائلاً:

ـ لكن لماذا نستدعيه، ادخل مباشرة، وسوف يستقبلونك جميعهم. فلم تتعرف إلى الرجل على قارعة الطريق في هذا البرد الشديد!

هذا الأمر يعنيني وحدي، أريده هنا في هذا الجو الجليدي: قال كوليا بلهجة استبدادية (كان كوليا يحب هذا النوع من التصرف تجاه من هم أصغر منه مكانة)، فركض سموروف لينفذ الأمر.

# IV

## يوتشكا

كان كوليا مصطنعاً هيئة الوقار، يدير ظهره إلى السياج، منتظراً وصول إيليوشا. نعم، كان يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف إليه. لطالما سَمع التلاميذ يتكلمون عنه، ولكنه كان حتى الآن، حين يُذكر اسم إيليوشا، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشيء من الازدراء، حتى إنه لم يفته، في بعض المناسبات، أن «ينتقد» سلوك إيليوشا. والواقع أنه كان في قرارة نفسه يرغب في أن يلقاه: إن شيئاً ما، في التفاصيل التي تُنقل إليه دائماً عن إيليوشا، كان يحببه به ويجذبه إليه. لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة؛ فقد كان عليه قبل كل شيء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله. فهو يقول لنفسه: «وإلّا فقد يعتبرني صبياً في الثالثة عشرة، ويتعامل معي كما سائر هؤلاء الصّبية الصغار. لماذا يعاشر هؤلاء الصبية؟ سوف اسأله عندما أصبح أقرب إليه. ما الضير إذا كنت قصير القامة. فتوزيكوف أصغر مني سناً وأطول قامةً بقليل. ولكن وجهي ينم عن ذكاء. أعرف أنني لست فتى جميلاً، لا بل أنا دميم. ووجهي ليس وسيماً، ولكنه يعبِّر عن ذكاء. ينبغي لي، من جهة أخرى، أن أحرص على أن لا أسرف

في الإفصاح عن نفسي والإعراب عن مشاعري. لو وثبت إلى عنقه، فمن عسى يظنني؟ يا للقذارة!...».

هكذا، كان كوليا مضطرباً، يحاول أن يبدو مستقلاً. خصوصاً وأن قصر قامته هو الذي يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه «المحروم من الوسامة». نعم، قصر قامته. لقد رسم منذ العام الماضي، على الجدار، في بيته، خطاً بقلم الرصاص، يشير إلى طول قامته؛ وهو منذ ذلك الحين، يقف تحت هذا الخط كل شهرين، بانفعال شديد ليعرف هل زاد طوله أم لا. ولكنه من المؤسف أن طوله كان لا يزداد إلّا ببطء. وذلك ما كان يملأ نفسه في بعض اللحظات يأساً. والحق أن قسمات وجهه لم تكن «محرومة من الوسامة»، بل كانت لطيفة محببة. إن وجهه أبيض شاحب، فيه بقع احمرار. وإن عينيه الشهباوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً، وتنظران نظرات جريئة، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة في بعض الأحيان. وإن وجنتيه عريضتان، وشفتيه صغيرتان دقيقتان، ولكنهما في مقابل ذلك حمراوان جداً. أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك، وكان أقنى. فكان كوليا إذا نظر إلى وجهه في المرآة، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم: «أنف أفطس، أفطس تماماً». وكان يتساءل في بعض الأحيان، وقد راوده الشك حتى في هذا: «هل لي حقاً وجه ذكي؟». يجب أن لا نظن مع ذلك أن همَّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره. فإن الأمر لم يكن كذلك أبداً. فمهما تكن اللحظات التي كان يقضيها أمام المرآة قاسية، فقد كان ينساها بسرعة، وحتى لفترة طويلة «ينشغل كلياً عنها بالأفكار والحياة الواقعية»، على حد التعبير الذي كان يحلو له أن يعرِّف به نشاطه وعمله.

ظهر إيليوشا بسرعة، واقترب من كوليا. فلاحظ كوليا، من بعد، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير. تساءل مغتبطاً: «هل بسببي هو مسرور إلى هذه الدرجة؟». لا بد أن نقول هنا إن إيليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه في

اللحظة التي تركناه فيها: هو لا يرتدي الآن ثوب الدير، بل بدلة أنيقة، ويضع على رأسه لبادة رمادية، وقد قصَّ شعره قصيراً، وكان هذا الزيّ يناسبه كثيراً، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً. وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً. وكأنه متجمع على نفسه. وقد دُهش كوليا حين رأى إيليوشا يخرج إلى الشارع بدون معطف، ولا شك أن إيليوشا قد نسي من تعجّله أن يرتدي معطفه. مدَّ إيليوشا يده إلى كوليا بغير تكلف.

ـ ها إنك قد عدت أخيراً! لقد انتظرنا جميعاً أن نراك.

ـ سأشرح لك أسباب ذلك فيما بعد. على كل حال، يسعدني أن أتعرف إليك. لطالما تمنيت أن تتاح لي هذه الفرصة، لأنني سمعت عنك كثيراً. قال كوليا بصوت مضطرب، لأن الانفعال قد قطَّع أنفاسه.

ـ كنا سنتعارف على كل حال. أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً. ولكنك أسرفت في التأخر عن المجيء إلى هنا، أسرفت كثيراً.

ـ قل لي: كيف الحال هنا؟

ـ حالة إيليوشا سيئة جداً. سيموت.

ـ حقاً؟ هلّا اعترفت أن الطب كريه مقيت يا كارامازوف! هتف كوليا بحرارة.

ـ هل تعلم أن إيليوشا قد نطق باسمك مراراً؟ حتى لقد كان في بعض الأحيان يتكلم عليك في أحلامه، وفي لحظات هذيانه أيضاً. واضح جداً أنه كان متعلقاً بك بشدة في السابق قبل ذلك الحادث... حادث الموسى. يبدو أن لهذا سبباً آخر... قل لي: أهذا كلبك؟

ـ نعم، هو «برزفونه».

ـ أليس هو «يوتشكا» إذن؟ فهل فُقد «يوتشكا» إلى الأبد؟

كذلك قال إيليوشا وهو ينظر إلى عيني إيليوشا حزيناً.

فقال إيليوشا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة:

ـ أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون في «يوتشكا» وتحلمون به. إني مطلع على هذا الأمر. اسمع يا كارامازوف، سأشرح لك كل شيء، من أجل هذا قد جئتُ إلى هنا، واستدعيتك، لأشرح لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت.

في هذا الربيع يا كارامازوف دخل إيليوشا الصف التحضيري. وأنت تعلم ما هو الصف التحضيري: صبية، أولاد صغار. فسرعان ما أخذوا يعاكسون ايليوشا. وأنا أتقدمه بصفين، كنت أرقب ذلك، من بُعد طبعاً. رأيت صبياً صغيراً، هزيلاً، ولكنه لا يخضع، حتى قد يصل إلى حد الضرب بالأيدي. لقد كان ذا أنفة وكبرياء، وكانت عيناه تقدحان شرراً. إنني أحب الصبيان الذين هم على هذه الشاكلة. وكان الآخرون يشاكسونه بسبب هذه الكبرياء: وكانت ثيابه بخاصة هي التي تحتمل الاستهزاء به حينذاك: سروال مشمور، حذاء متثائب. كان الصبية يندفعون إلى التهكم عليه فرحين، ويحاولون إذلاله. بدأ ذلك يسوؤني، فسرعان ما تدخلت وأدبتهم. إنني أضربهم متى وجب أن أضربهم، وهم مع ذلك يعبدونني، هل تعرف ذلك يا كارامازوف؟ (أضاف كوليا متفاخراً). وأنا أعبد الأطفال على كل حال. وأعلم أن عندي في البيت، في هذه اللحظة نفسها، طفلين أُعنى بهما، وهما اللذان أخَّراني. هكذا كفَّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشا، وأصبحت أحميه. كان الولد شديد الكبرياء، صدِّقني، شديد الكبرياء جداً، ولكنه أذعن لي أخيراً وكأنه عبد، فهو ينفذ أوامري، ويصغي إليَّ إصغاءه إلى إله، ويحاول أن يقلدني في كل شيء. كان في أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يسرع إليَّ، فنذهب نتروّض معاً. وكذلك في أيام الآحاد. والتلاميذ في مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط بهذا الشكل بولد صغير، ولكن تلك آراء سخيفة. لقد كانت معاشرته تسرني، أفليس هذا سبباً كافياً؟ وحاولت أن أعلّمه، لأنمّي ثقافته، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً إلى نفسي! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت

بجميع هؤلاء الصبية الصغار. فأنت تريد إذن أن تحدث أثراً في الجيل الجديد، أن تغيّره، أن تكون مفيداً له. إنني أعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التي عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هي التي شاقتني فيك أكثر من أي شيء آخر. ولكن فلنعد إلى الوقائع: لقد عرفت أن الصبي أخذ يفرط في الحساسية، في العاطفية. وأنا أكره جداً هذه «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، أكرهها وأمقتها منذ ولدت، فاعلم هذا! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض في وضعه: فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء، وهو من جهة ثانية مخلص لي إخلاص عبد. كان يطيعني في كل أمر خاضعاً، ثم إذا بعينيه تقدحان فجأة شرراً، فلا يريد أن يوافقني، بل هو يناقش ويغضب. كان يتفق لي أن أعرض له بعض الآراء. لن أقول إنه كان يعارض عندئذ هذه الآراء، فلقد كنت أرى بوضوح أن معارضته كانت تستهدفني أنا شخصياً، وأنه كان يتمرد ويعصي لأنني كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود. عندئذ قررت، كي أعطيه درساً، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوِّي تحفُّظي تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بي. كان ذلك من جانبي موقفاً مقصوداً، يتناسب ومبادئي. لقد أردت أن أنشىء طبعه، أن أقوي عزيمته، أن أصلِّب إرادته، أن أصنع منه رجلاً. الخلاصة: لا شك أنك تفهمني بنصف كلمة. وفي ذات يوم، لاحظت فيه اضطراباً غريباً. كان يبدو منهاراً مصعوقاً. وبقي على هذه الحال أياماً. أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردُّه إلى ضعف عاطفتي وحدها، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأرفع. تساءلت ما عسى أن تكون الدراما التي تجري في نفسه. ولاحقته بالأسئلة، فإذا أنا أعرف الحقيقة: لقد تعرَّف، لست أدري كيف، إلى سمردياكوف خادم المرحوم أبيك الذي كان ما يزال حياً في تلك الفترة. فعمد سمردياكوف إلى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية، بل مزحةً وحشية حقيرة هي أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً إلى كلب تائه، إلى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التي تبلع، دون مضغ،

كل ما يقع تحت أنيابها. وذلك ليرى ما عسى أن يحدث بعد ذلك. هكذا أعدَّا لقمة من خبز، وألقياها إلى «يوتشكا» ذاك الكلب الضخم طويل الشعر الذي كثيراً ما جرى الحديث عنه منذ ذلك الحين. هو كلب من تلك الكلاب التي ينسى الناس أن يطعموها، والتي تقضي النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبي يا كارامازوف؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله). انقض الكلب المسكين على لقمة الخبز، فبلعها، وسرعان ما أخذ يعوي متلوياً من الألم، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوي على شيء، وهو يئنّ متوجعاً. هكذا اختفى ذلك الكلب، على حسب الرواية التي رواها لي إيليوشا نفسه. لقد اعترف لي إيليوشا بفعلته وهو يبكي، فهو ينتحب بقوة ويعانقني متشنجاً، وما ينفك يكرر قوله: «كان الكلب يعدو ويعوي، يعدو ويعوي»، فإلى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر! لاحظت أن عذاب الضمير ينهكه، وأن الندم يهده. أخذت الأمر مأخذ الجد. كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق، فعمدت إلى الحيلة. أعترف لك بذلك. تظاهرت باستياء شديد من فعلته، استياءٍ أشد كثيراً من استيائي في الواقع. قلت له: «لقد ارتكبت عملاً حقيراً، عملاً جباناً. أنت نذل! لن أشي بك طبعاً، ولكنني أنهي الآن علاقات الصداقة بيننا. وسأفكر في الأمر، ثم أبلغك بواسطة سموروف «هو الصبي الذي صحبني إلى هنا، وكان مخلصاً لي على الدوام» هل قررت أن أعيد العلاقة بيني وبينك، أم قررت أن أتخلَّى عنك إلى الأبد فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام». أحدثت هذه الأقوال في نفسه أثراً رهيباً. وسرعان ما أحسست ـ أعترف لك بذلك ـ أنني أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو. ولكن ما العمل؟ لقد كنت أعمل بوحي من قناعتي. وفي الغد، أرسلت إليه سموروف لأبلغه أنني «لن أكلمه بعد اليوم أبداً». تلك هي الاصطلاحات التي نستعملها في المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين. والحقيقة أنني كنت أريد أن أهجره بضعة أيام فقط، ثم أمد إليه يدي عندما أرى ندامته. تلك كانت نيتي الجازمة على كل حال.

ولكن ماذا تظن أنه حدث؟ أصغى إلى الرسالة التي بلغه إياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً: «أبلغ كراسوتكين أنني سألقي بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس إلى جميع الكلاب، إلى جميع الكلاب!». قلت لنفسي عنذئذ: «ها. لقد استيقظت فيه روح التمرد، فيجب أن تُقمع وتُقهر». وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً بسخرية. وفي تلك الآونة إنما وقعت لأبيه تلك الحادثة، حكاية الليفة كما تعلم. إنك تقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف. وإذ رأى التلاميذ أنني هجرته فقد هاجموه من جديد، صائحين له من أجل إغاظته وإخراجه عن طوره: «الليفة، الليفة». كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها، ذلك أنني أعتقد أنه قد كيلت له الضربات ذات مرة. وفي يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها. وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأرقبه. أقسم لك أنني لم أكن قد سخرت منه. بالعكس: لقد أيقظ في نفسي عندئذ شفقةً كبيرة، شفقة كبيرة جداً. وكنت أوشك أن أهب إلى نجدته. ولكن نظرتينا تلاقتا فجأة. ولست أدري ما الذي ظن ما يقرأه في عينيَّ، ولكنه استل سكينه فجأة، وهجم عليَّ، فأغمد السكين في وركي، هنا، فوق الساق اليمنى قليلاً. لم أتحرّك. أعترف لك يا كارامازوف أنني أبرهن في بعض الظروف على شجاعة. نظرت إليه باحتقار، وكانت نظرتي تقول بوضوح: «أهذا كل شيء؟ ألا تريد أن تضربني أيضاً، عرفاناً منك بالصداقة التي حملتها لك؟ هيَّا، افعل بي ما تشاء!». ولكنه أخفى سكينه، وفقد شجاعته فجأة، وخاف، ثم لم يملك زمام نفسه، فإذا هو يتفجر باكياً، ثم ولَّى هارباً. لم أشِ به طبعاً. حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بأن يكتموا ما وقع بغية ألّا يصل الأمر إلى مسمع الادارة. ولم أقل لأمي شيئاً كذلك، ولم أقصّ عليها الواقعة إلّا بعد أن التأم الجرح التئاماً تاماً. وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال. وقد علمت بعدئذ أنه في ذلك اليوم نفسه، رمى رفاقه بالحجارة، وعض إحدى

أصابعك أنت. لكنك تدرك في أي حالة نفسية كان حينذاك. لكن ما العمل؟ لقد تصرفت بشكل أحمق. فحين مرض لم أزره لأسامحه. أقصد لأتصالح معه. وأنا الآن نادم على ذلك. ولكن ينبغي لي أن أقول مع ذلك كانت لدي أسبابي الخاصة، هذه هي القصة بكاملها... لكنني أعتقد أنني كنت غبياً...

ـ آه! يا لها من خسارة. إنني لم أعرف قصة علاقاتكما. صاح إيليوشا بانفعال شديد. وإلّا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبني إليه. تصور أنه كان يتكلم عليك أثناء مرضه وهذيانه. كنت أجهل أنك عزيز على نفسه إلى ذلك الحد. هل يمكن فعلاً ألّا تكون قد عثرت على «يوتشكا»؟ ألم تجده حقاً؟ إن أبا إيليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب في المدينة كلها. هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضوري، قال له باكياً وهو مريض: «لئن كنت أتألم يا بابا، فلأنني قتلت يوتشكا. إن الله يعاقبني». لا سبيل إلى إخراج هذه الفكرة من رأسه! لو استطعنا على الأقل أن نجد يوتشكا وأن نريه إياه حتى يعرف أن الكلب لم يمت، إذن لبُعث حياً من شدة الفرح. ولقد كنا جميعاً نعوِّل عليك في هذا.

ـ لماذا اعتمدتم عليّ كي أعثر على «يوتشكا»؟ لماذا عليَّ أنا وليس على أحد غيري؟ سأل كوليا بفضول شديد.

ـ سرت إشاعة أنك تبحث عن الكلب وأنك ستعيده إلى ايليوشا متى وجدته. سمعنا من سموروف شيئاً من هذا القبيل. ونحن جميعاً نحاول أن نقنع ايليوشا بأن «يوتشكا» حيّ، بأنه رُئي في مكان ما. وقد جاءه رفاقه بأرنب لست أدري من أين حملوه، فنظر ايليوشا إلى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة، وطلب أن تُردّ إلى الأرنب حريته. فعلنا ذلك. وفي تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً كلباً صغيراً غير مفطوم من كلاب الحراسة. كان الأب يعتقد

أن هذا سيواسي ابنه. ولكنني أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك...

ـ قل لي يا كارامازوف: إلى أي نوع من الرجال ينتمي أبوه؟ إنني لا أعرفه إلّا بالنظر. فما هو رأيك؟ أهو مهرِّج؟

ـ لا! إن هناك أناساً لديهم حساسية عميقة، ولكنهم مسحوقون. وما تهريجهم عندئذ إلّا نوع من الانتقام المرِّ الساخر إزاء أولئك الذين لا يجرؤون على أن يواجهوهم، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل، ولا على أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه. ثق يا كوليا أن هذا التهريج يمكن أن يكون له، في بعض الحالات، أساس مأسوي جداً. إن أفكاره كلها وحياته كلها قد تركزت الآن على ايليوشا. يكفي أن يموت ايليوشا حتى يُجنَّ من الحزن أو ينتحر. إنني ما نظرت إليه مرة إلا وتأكدت من ذلك.

ـ أفهمك يا كارامازوف قال كوليا بلهجة قاطعة. ألاحظ الآن أنك خبير في معرفة النفس الإنسانية.

ـ لقد اعتقدت عندما رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بيوتشكا.

ـ مهلاً يا كارامازوف. قد نعثر على ذلك الكلب. أما هذا فهو «برزفون». سأدخل إلى غرفة ايليوشا، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذي أتاه به أبوه. اسمع يا كارامازوف. سأذكر لك بعض الأمور. ماذا أفعل؟ هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً. أؤخرك في هذا البرد الشديد وأنت من دون معطف! إنك ترى مدى أنانيتي. نحن جميعاً أنانيون، مع الأسف!

ـ لا تقلق. صحيح أن الجو بارد. ولكنني لا أصاب بالزكام بسهولة. لكننا نحسن صنعاً إذا نحن دخلنا المنزل. بالمناسبة: ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا، ولكن كوليا ماذا؟

ـ اسمي نيقولا، نيقولا إيڤانوف كراسوتكين، أو نيقولا إيڤانوف بن كراسوتكين، إذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين.

قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة. ثم أسرع يضيف:

ـ لعلك تقدِّر أنني أكره اسم نيقولا هذا الذي أحمله؟

ـ لماذا؟

ـ لأنه مبتذل، تافه...

ـ أأنت في السنة الثالثة عشرة من عمرك؟

ـ بل في الرابعة عشرة. سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين. وسأعترف لك بضعفي يا كارامازوف حتى تعرف طبيعتي منذ البداية: إنني أكره أن أُسأل عن عمري، بل أمقت ذلك... ثم... يجب أن أقول لك... ثمة نميمة في حقي تجري الآن وتشيع. إنهم يدعون أنني لعبت في الأسبوع الماضي مع تلاميذ الصف التحضيري لعبة اللصوص. صحيح أنني لعبت هذه اللعبة. لست أنكر ذلك. أما أن يُقال إنني لعبتها لنفسي، لمسرتي أنا، فذلك تشنيع قبيح. هناك أسباب تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك. فاعلم إذن أنني لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصي، وإنما لعبتها ليفرح الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدوني. إن الناس في هذه المدينة يحبون الأقاويل. وهذه المدينة لا تعيش إلّا على الثرثرات، أؤكد لك ذلك.

ـ فما المشكلة إذا لعبت لعبتك الخاصة؟

ـ من أجلي؟ لن تلعب لعبة الحصان مثلاً؟

ـ في المسرح تُمثِّل التمثيليات للكبار، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال، ومعارك وحروباً، وقطاّع الطرق في بعض الأحيان. أليس اللعب نفسه في حقيقة الأمر، وقد اكتسى صورة أخرى؟ ولعبة الحرب بالنسبة إلى الصبيان الصغار، أو لعبة اللصوص، أثناء فترات الاستراحة بين الدروس، أليس فيها نوع من العمل الفني أيضاً على طريقتهم الخاصة. هذا فن ناشئ، هذه تطلعات

فنية تتجلى في نفوس الصغار. وإن هذه الألعاب لتكون في بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح. الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون إلى المسرح ليروا الممثلين، بينما الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون في آن. هذه سلوى مشروعة تماماً.

ـ أتعتقد بذلك حقاً؟ سأل كوليا وهو ينظر إلى إيليوشا بانتباه شديد: أهذه قناعتك؟ إنك تعبِّر عن فكرة شائقة جداً، هل تعلم ذلك؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترُّها حين أعود إلى منزلي بعد قليل. لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة، أعترف لك بذلك. إنني أودّ أن أتعلم منك يا كارامازوف. بهذا أنهى كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة. فأجابه إيليوشا وهو يبتسم له ويصافحه:

ـ وأنا أيضا أريد أن أتعلم منك.

كان كوليا مفتوناً بإيليوشا. ولقد أرضاه خاصة أن يعامله إيليوشا معاملة الند للند، كما يعامل «شخص كبير».

ـ سأريك حيلة يا كارامازوف، هي نوع من التمثيل المسرحي. قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية. لهذه الغاية جئت إلى هنا.

ـ لندخل أولاً إلى أصحاب المنزل، في اليمين. لقد خلع جميع رفاقك معاطفهم، لأن جو الغرفة خانق، والمكان ضيق.

ـ لكني سأمكث لحظة فقط، سأدخل وأحتفظ بمعطفي. وسيبقى «برزفون» هنا، ويتظاهر بالموت. تعال يا «برزفونه». نم ومت. أترى، قد مات. أنا، سأدخل أولاً، أتفحص الجو، ثم أصفر في اللحظة المناسبة: تعال يا «برزفون». وسوف ترى كيف يدخل الكلب كالسهم. ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب في اللحظة المناسبة. أنا سأتدبر أمري وسترى اللعبة...

# V

## قرب سرير إيليوشا

الغرفة التي سبق أن رأيناها والتي تستخدم مسكناً لأسرة الكابتن المتقاعد سينغريف، صديقنا القديم، كانت في تلك اللحظة، مليئة بالزوار وجوها خانقاً. كان يوجد هذه المرة عدة صبيان عند إيليوشا. ورغم أنهم كانوا جميعاً مستعدين، أن ينكروا، مثل سموروف، أن يكون ايليوشا هو من صالحهم، فلقد كان الأمر كذلك في الواقع. فالبراعة في هذا كانت تكمن في حبهم لإيليوشا واحداً بعد آخر، من دون اندفاعات عاطفية، وإظهار الأمر كأنه محض صدفة. لقد شعر إيليوشا بارتياح هائل من آلامه. وأثرت في نفسه هذه الصداقة القوية وهذا الاهتمام الكبير من قبل هؤلاء الصبية، أعدائه القدامى. ليس ينقصه الآن إلّا كراسوتكين. إن غياب هذا الأخير يثقل على صدره كثيراً. فسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين كراسوتكين، صديقه الوحيد وحاميه، وهو بين ذكرياته المرة. ذلك ما أدركه سموروف (وهو فتى ذكي جداً كان أول من جاء يصالح إيليوشا). ولكنه حين أبلغ كراسوتكين، بكلمات مغطاة، أن إيليوشا يودّ أن يراه «لأمر من الأمور»، فإن كوليا قد أسرع يقطع حديثه معه، وكلفه بخشونة أن يقول لكارامازوف إنه يعرف بنفسه ما الذي يجب عليه أن يفعله وإنه ليس

في حاجة إلى نصائح أحد. وأضاف إلى ذلك أنه إذا قرر أن يزور المريض فسيفعل ذلك في الوقت الذي يراه مناسباً، لأن له «آراءه الخاصة» بهذا الصدد. حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً. وذلك هو السبب في أن إيليوشا لم يزره كما كان ينوي. وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف إلى كراسوتكين مرتين، ولكن كوليا أجاب في المرتين كلتيهما بخشونة وتذمُّر، وأبلغ إيليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا إلى الأبد إذا ارتأى إيليوشا أن يجيء إليه؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن. وكان سموروف نفسه يجهل إلى آخر يوم أن كوليا قد قرر المجيء إلى ايليوشا في هذا الصباح. وفي عشية ذلك الأحد، حين ودَّع كوليا صاحبه سموروف، أمره بأن يكون بانتظاره صباح اليوم التالي لينطلقا سوية إلى عائلة سنيغيريف. وقد ألحَّ عليه بألّا يخبر أحداً بأمر هذه الزيارة، لأنه يريد أن يحضر على غير توقُّع أو انتظار. وأطاعه سموروف. كان سموروف يرجو في سرِّه أن يجيء كوليا بالكلب «يوتشكا»، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه ذات مرة، بحضور سموروف، كلمات مفادها «أنهم جميعاً حمير، لأنهم لم يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب، إذا كان الكلب مايزال حياً». ومع ذلك، حين سمح سموروف لنفسه ذات يوم، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية، بأن يشير بشكل غامض إلى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين، فإن هذا الأخير غضب وصرخ يقول: «أأنا حمار حتى أضيِّع وقتي في التفتيش في أرجاء المدينة عن كلاب الآخرين، بينما أنا أملك كلبي «برزفون»؟ هل يمكن أن نأمل بأن كلباً بلع دبوساً يمكن أن يبقى حياً؟ دعونا من عاطفيات العجول هذه!».

مع ذلك أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً تقريباً، غير قادر على النهوض من سريره الموضوع في زاوية الغرفة تحت الأيقونات. وهو لم تطأ رجلاه المدرسة منذ اليوم الذي التقى إيليوشا وعضَّ له إصبعه. لقد صادف

أنه مرض في ذلك المساء نفسه، حتى وإن بقي أثناء الشهر الأول من مرضه غير قادر على النهوض إلا في بعض الأحيان ليسير بضع خطوات في الغرفة أو المدخل. غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه. وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه، حتى لقد توقف عن الشراب، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون. وكثيراً ما كان يتفق له، بعد أن يروِّض صغيره في الغرفة ممسكاً به من ذراعه، وبعد أن يساعده على النوم ثانيةً في سريره، أن يهرب إلى زاوية مظلمة من المدخل، فيضع جبينه على الجدار ويبكي متشنجاً، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها ايليوشا.

عندما عاد إلى الغرفة حاول أن يسلِّي عزيزه الصغير وأن يفرحه، قاصاً عليه حكايات هزلية أو روايات غريبة أو مقلداً أمامه كل أنواع الأشخاص الهزليين الذين صدف أن التقاهم، أو مقلداً له أصوات حيوانات مختلفة. لكن ايليوشا لم يكن يحب أن يقوم أبوه بهذا التمثيل وخاصة بدور المهرِّج أمامه. كان يحاول أن يخفي الضيق الذي يحسه، ولكنه كان يدرك في قرارة قلبه المحطم، أن أباه قد أذلَّه المجتمع، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب في الكاباريه تحاصره ولا تبارحه لحظة. وكانت نينا الكسيحة، أخت ايليوشا، الوديعة، تكره هي أيضاً أن ترى ما يقوم به أبوها من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت إلى سان بطرسبورغ منذ زمن طويل لتتابع دراستها)، على عكس الأم البلهاء، التي كانت تجد في ذلك لذة كبيرة، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرِّي عنها. وهي في كل ما عدا ذلك من وقت، لا تكف عن الشكوى والبكاء، قائلةً إن الجميع قد نسَوها، وإن أحداً لا يحترمها، وإن الإساءات والإهانات تنصب عليها، الخ. غير أن تبدلاً لم يكن في الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام. أصبح يتفق في كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً إلى

ايليوشا في زاوية، فإذا هي تطرق وتغوص في التفكير. لقد أصبحت أقرب إلى الصمت، وبدا عليها شيء من الهدوء، فإذا بكت حاولت ألّا يسمع أحد بكاءها. وقد لاحظ الكابتن هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة. ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايق الأم الخرفة في أول الأمر، تثير غضبها. ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذ تسرِّي عنها، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد، حتى أصبح وجودهم ضرورة لا مناص منها، فإذا غابوا هوت إلى حزن مرهق. كانت إذا قصَّ التلاميذ حكايات أو بدأوا يلعبون، تضحك أو تصفق بيديها، وتناديهم إليها في بعض الأحيان فتقبلهم. وكان الفتى سمورروف يحظى بإيثارها إياه على غيره. أما الكابتن فكان مجيء التلاميذ يملأه فرحاً عظيماً في كل مرة، وكان يأمل في تلك اللحظات أن يسرِّي وجودهم عن ايليوشا، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن. كان لا يشك لحظة، رغم جميع المخاوف التي توقظها في نفسه حالة ابنه، في أن ابنه سيسترد عافيته، وكان هذا الاقتناع هو الذي شد أزره حتى في هذه الأيام الأخيرة. إنه يستقبل هؤلاء الزوَّار الصغار باحترام وتأثر، وينهمك حولهم، ويضع نفسه في خدمتهم، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا. لذلك توقفوا أخيراً عن هذه الألعاب. لكن الأب قد عوَّض الأولاد عن هذا، فأصبح يشتري لهم سكاكر وفطائر وجوزاً، ويحضّر لهم شاياً وحلوى بالفاكهة. والجدير بالذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه في هذه الفترة. فقد قبل أن يأخذ المئتي روبل التي أرسلتها إليه كاترينا إيڤانوفنا بعد رفضه الأول، قبلها في هذه المرة بغير عناء، كما أن ما تنبأ به إيليوشا في هذا الصدد قد ثبت صدقه، فقد جاءت إليهم كاترينا إيڤانوفنا بنفسها لتتعرف إليهم، واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء، واستمرت منذ ذلك الحين في مساعدتهم، ونسي الكابتن كبرياءه القديمة

وارتضى أن يتلقى هذه المعونات خوفاً من أن يفقد ابنه. وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يزور المريض كل يومين بطلب من كاترينا إيڤانوفنا، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج طيبة كثيرة رغم الأدوية الكثيرة التي حشا بها المريض. غير أنهم ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو، ويتمتع بشهرة واسعة. لقد طلبته كاترينا إيڤانوفنا خصيصاً، لقاء أجور باهظة. صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا، وإنما هي استدعته لغرض آخر ستتحدث عنه فيما بعد، ولكنها انتهزت فرصة وجوده في مدينتنا، فطلبت إليه أن يزور المريض الصغير أيضاً، وأبلغت الكابتن ذلك في الوقت المناسب. ولكن الكابتن، في مقابل ذلك، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذي تكلم عليه ايليوشا بكثير من الحنين، وكان أمره يعذبه بشدة. حين فتح كراسوتكين باب الغرفة، كان الكابتن والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير، ويتأملون كلب الحراسة الرضيع الذي وُلد يوم أمس. كان والد ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع، آملاً أن يسرِّي به عن ابنه الذي لم يستطع أن ينسى اختفاء «سكارابه». وكان ايليوشا الذي يعرف منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير، كلب أصيل، كلب من أهمّ أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام للغاية) كان يتظاهر، لباقةً، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية. ومع ذلك كان جميع الحضور، الأب والأولاد، قد أدركوا أن هذا الكلب الجديد أذكى في قلب المريض تلك الذكرى الأليمة، ذكرى الآلام التي سببَّها للكلب المسكين «يوتشكا». كان الكلب الصغير مُقعياً قرب ايليوشا يتحرك، وكان هذا الأخير بابتسامة ممزوجة بالألم، يداعبه بيده الشاحبة الناحلة. كان واضحاً أنه معجب بالحيوان الصغير. ولكن يوتشكا لم يكن موجوداً والحيوان الصغير ليس «يوتشكا»!... ولو أن يوتشكا وهذا الكلب الصغير وجدا معاً، لاكتملت السعادة!

ـ كراسوتكين! صاح أحد الفتية وقد لمح كوليا. حدث اضطراب خلال لحظة، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبي السرير كاشفين بذلك عن ايليوشا، وهُرع الكابتن يستقبل كوليا:

ـ أرجوك، تفضل... أيها الضيف العزيز! يا صغيري ايليوشا، هذا السيد كراسوتكين قد جاء لزيارتك...

لكن كراسوتكين سارع يمد يده إليه، مظهراً بذلك معرفته بقواعد الآداب الاجتماعية. والتفت أولاً نحو زوجة الكابتن، الجالسة على مقعد (وكانت في تلك اللحظة مستاءة جداً، فهي تعبّر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير ايليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الصغير)، فانحنى يحيّيها بكثير من الاحترام، ثم التفت نحو نينا فحيَّاها كما تُحيًّا سيدة بكثير من الأبهة؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر جيد جداً في نفس البلهاء. فانبرت تقول بصوت عال وهي تباعد ذراعيها:

ـ يُعرف المرء فوراً أنه رجل مهذب. شتان بينه وبين زوارنا الآخرين الذين يركب بعضهم فوق بعض!

ـ كيف هذا يا عزيزتي؟ يركب بعضهم فوق بعض؟ ماذا تقصدين؟ تمتم الكابتن بحنان يخالطه قلق بشأن حالة زوجته.

ـ طبعاً، هكذا يصلون جميعاً. في المدخل يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر، ويتواقحون فيدخلون راكبين إلى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا. أهؤلاء زوار محترمون!

ـ ولكن من دخل على هذا النحو يا عزيزتي، من؟

ـ هذا الولد ركب على ذاك، اليوم. وهذا ركب على الآخر أيضاً...

كان كوليا أثناء ذلك واقفاً بالقرب من سرير ايليوشا. كان المريض شاحب الوجه، استقام من سريره وحدَّق إلى كوليا. إن هذا الأخير لم يره منذ

شهرين فوقف أمامه مذهولاً من منظر رفيقه القديم الصغير: كان لا يتوقع أن يراه بوجهٍ نحيل أصفر اللون وسطعت فيه عينان محمرتان قد اتسعتا. وخطف بصره هزال يديه أيضاً. إنه يتأمله الآن في دهشة أليمة، بينما ايليوشا، المتيبس الشفتين، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً. تقدم كوليا خطوة نحوه، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد إليه يده:

ـ ... كيف حالك يا عزيزي؟

واختنق صوته، واضطرب اضطراباً شديداً. تقبضت قسمات وجهه، واختلجت أطراف شفتيه. وكان ايليوشا، الذي ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة، يبتسم له ابتسامة ضعيفة. رفع كوليا يده، ومررها في شعر ايليوشا دون أن يدري لماذا.

ـ لا بأس، تمتم بصوت ناعم، يشجعه. صمتا كلاهما لحظة.

ـ أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر؟ سأل كوليا بصوت كابٍ.

ـ نــ... ـعــ... ـم. أجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة.

قال كوليا برصانة، كأن للملاحظة التي يقولها خطورة خاصة:

ـ إن بوزه أسود، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً.

والحق أن كوليا كان عاجزاً عن السيطرة على انفعاله، رغم جميع الجهود التي يبذلها، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل «طفل».

ـ سيكون من المؤكد ربطه بسلسلة حين يكبر. أنا أعرف هذا. قال أحد الفتيان:

ـ سيكون ضخماً.

فقالت أصوات أخرى:

ـ حتماً... ما دام من أفضل أنواع كلاب الحراسة. سيكون حجمه كحجم عجل.

ـ ضخامة عجل، نعم، ضخامة عجل حقاً، ردد الكابتن بهدوء. لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً: إنه من نوع شرس جداً... أبواه أيضاً ضخمان شرسان. يصل طولهما إلى هنا... اجلس، تفضل اجلس... اجلس على سرير ايليوشا، أو اجلس هنا على هذه الدكة. أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذي انتظرناه مدة طويلة... هل جئت بصحبة ألكسي فيودوروفتش؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا. لا شك أنه قد أعدَّ أثناء الطريق كل ما كان ينوي أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث، ولكنه فقد تسلسل الكلام... فها هو يجيب عن سؤال الكابتن قائلاً:

ـ كلا... مع «برزفون»... عندي الآن كلب يسمى هكذا... هو اسم سلافي تماماً. إنه ينتظر هناك... فمتى صفرت له أسرع يأتي. والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له:

ـ أنا أيضاً عندي كلب.

ـ هل تتذكر «يوتشكا» يا عزيزي؟ سأله ايليوشا.

فما إن سمع ايليوشا هذا السؤال حتى تقبّض وجهه بألم ظاهر، وألقى على كوليا نظرة مليئة بالمرارة، وكان إيليوشا واقفاً قرب الباب، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا كيلا يأتي على ذكر «يوتشكا»، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً.

ـ أين هو «يوتشكا...»؟ سأل ايليوشا بصوت محطَّم.

ـ دعك من «يوتشكا» يا عزيزي... «يوتشكا» لا يساوي شيئاً... يوتشكا ضاع...

صمت ايليوشا وحدَّق إلى كوليا مجدداً. وتمكّن إيليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بإلحاح، مهيباً به ألّا يستمر، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً.

ـ اختفى «يوتشكا» ولم يترك أثراً. وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة بالفاكهة كتلك الفطيرة؟

تابع كوليا كلامه دون رحمة، بصوت أصبح لاهثاً لا يدري أحد لماذا. ثم أردف:

ـ ولكنني اصطحبت «برزفونه»... هذا اسم جميل... لقد جئت بهذا الكلب.

ـ لا أريده! قال ايليوشا.

ـ بلى بلى. أحب أن تراه، يجب أن تراه. سوف يسلّيك. لقد جئت به خصيصاً... إن له شعراً طويلاً كالآخر... هل تأذنين لي يا سيدتي بإدخال كلبي؟

ـ لا، لا أريد. صاح ايليوشا بصوت محطم من الألم.

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب.

عندئذ تدخَّل الكابتن الذي كان جالساً على سحارة قرب الجدار.

ـ ربما كان الأفضل... ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر...

ولكن كوليا أصرَّ، والتفت إلى سموروف وقال يأمره:

ـ افتح الباب!

فما إن نفذ سموروف الأمر حتى صفَّر كوليا، فإذا «برزفونه» يسرع فيصير في الغرفة.

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه:

ـ اقفز يا «برزفونه»، تبختر!

فإذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، قرب سرير ايليوشا. فحدث عندئذ شيء لم يكن في الحسبان: ارتعش المريض الصغير، ونهض بكثير من الجهد، ومال على «برزفونه» يتفحصه وقد اصفر من شدة الانفعال، ولكن هذا «يوتشكا»! هتف بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً.

ـ فماذا كنت تظن إذن؟ صرخ كراسوتكين هو أيضاً بصوتٍ مجلجل سعيد وانحنى على الكلب، فأحاطه بذراعيه، وقرَّبه من وجه ايليوشا، وهو يقول له:

ـ أنظر يا عزيزي، انظر. إنه أعور ومصلوم الأذن. تلك هي بعينها العلامات التي ذكرتها حين وصفت لي «يوتشكا». وبفضل هذه العلامات استطعت أن أجده. ولم أحتج من أجل ذلك إلى زمن طويل. كان كلباً لا صاحب له، لا صاحب له! أضاف يقول شارحاً وهو ينقل نظره بسرعة من ايليوشا إلى الكابتن فإلى زوجة الكابتن، فإلى إيليوشا، ثم يعود إلى ايليوشا. كان هذا الكلب يعيش في الحوش خلف منزل آل فيدوتوف، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى، ولكنهم كانوا لا يقدمون له الأكل، فكان يتيه في البرية على غير هدى. ووجدته آخر الأمر... أرأيت يا صاحبي؟ إن هذا الكلب لم يبلع لقمتك وإلّا لمات من ذلك حتماً. لقد لفظها دون أن يبلعها، لذلك ما يزال حياً. أنت لم تلاحظ أنه لم يبلع الدبوس. لقد لفظه. ولكن الدبوس قد وخز لسانه. ولهذا السبب أخذ يعوي، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة. ولا بد أنه بقي يعوي فترة طويلة، لأن للكلاب في فمها أغشية حساسة جداً... أشدَّ حساسية من أغشية أفواه البشر... أشد كثيراً. صاح كوليا وقد احمر وجهه وأشرقت حماسته.

أما ايليوشا فكان لا يستطيع حتى أن يتكلم، كان ينظر إلى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون. لو أن كراسوتكين الذي لم يدر في خلده شيء، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التي يمكن أن يعانيها ايليوشا في هذه الدقيقة، ومدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض، لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحي. ولعل إيليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذي ربما خطر بباله ما قد ينتج من هذا من أثر. أما الكابتن فقد كان يتصرف كطفل صغير. فهو يهتف بصوت فرح سعيد:

ـ يوتشكا! هذا يوتشكا إذن! ايليوشا، عزيزي ايليوشا، إنه هنا، صاحبك يوتشكا! ماما! هذا يوتشكا!

وكان الكابتن كمن يبكي.

ـ ما أغباني حين لم يخطر ببالي شيء قال سموروف بمرارة! ألم أقل لكم إن كراسوتكين سيجد «يوتشكا»؟ فها هو قد وجده.

ـ وجده! قال صوت آخر فرح.

ـ مرحى كراسوتكين! ارتفع صوت طفل ثالث يقول.

وانطلقت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم:

برافو! برافو!

لحظة، لحظة. قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة بصراخ أقوى من صراخهم، أصغوا إليَّ. سأروي لكم كيف حصل ذلك. اللعبة أنها كيف حصل ذلك فحسب. لقد عثرت عليه، فأخذته إلى بيتي، وخبأته في غرفتي، دون أن أُظهره على أحد حتى هذا اليوم. سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندي كلباً، ولكنني أوهمته أن الكلب هو «برزفون» فصدَّق ما قلته له. وفي أثناء هذا الوقت علَّمت «يوتشكا» أنواعاً من الحيل. سوف ترون كيف أصبح «يوتشكا» عالماً. لقد روَّضته من أجل أن آتيك به مهذباً يا عزيزي! سوف ترى كيف أصبح صاحبك «يوتشكا». هل عندكم قطعة لحم؟ سوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك. قليلاً من اللحم، أليس عندكم قليل من اللحم؟

أسرع الكابتن إلى المدخل، وذهب إلى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها. ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين، أسرع كوليا يأمر «برزفونه» قائلاً له: «مت». فإذا بالكلب يدور ويدور، ثم يستلقي على ظهره، ويسكن سكوناً تاماً، رافعاً قوائمه الأربع في الهواء. أخذ الأولاد يضحكون. واستمر ايليوشا ينظر إلى الكلب بابتسامة أليمة. ولكن الأم خصوصاً هي

التي كان يبدو أنها تجد فرحاً كبيراً في رؤية «برزفونه» متظاهراً بالموت، فهي تضحك بصخب، وتنادي الكلب صافقةً بأصابعها: «برزفونه، برزفونه!.

ـ لن ينهضه شيء في الدنيا كلها! صاح كوليا باعتزاز. مهما تنادوه جميعاً، فلن يتحرك. ولكن يكفي أن آمره أنا حتى ينهض فوراً. تعال يا «برزفونه»!

فما إن سمع الكلب نداء كوليا حتى أخذ يقفز فرحاً. وأسرع الكابتن في تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق.

ـ أليس اللحم ساخناً جداً؟ قال كوليا بوقار.

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه، وأضاف:

ـ لا، ليس ساخناً جداً، وإلّا... الكلاب لا تحب السخونة. انظروا الآن جميعاً! أنظر يا ايليوشا. هلّا نظرت! لماذا لا تنظر؟ أأجيئك به، ثم ترفض حتى أن تهتم؟

إن المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم في طرف بوزه الممدود، على أن يبقى الكلب ساكناً. إن على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع، واللحم في متناول فمه، طالما سيده يطلب منه ذلك، فلا يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة. غير أن الكلب لم يُحمل على الانتظار إلّا دقيقة قصيرة.

ـ هيّا! صاحِ كوليا.

فإذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم «برزفونه» بسرعة البرق. وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً.

ـ هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجيء لا لهدف غير ترويض الكلب؟ قال إيليوشا متعجباً بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه.

ـ طبعاً. هذا هو الهدف الوحيد. أردت أن أعرضه بكل روعته.

هكذا أجاب كوليا بسذاجة.

ـ «برزفونه، برزفونه!». قال ايليوشا ينادي الكلب وهو يصفق بأصابعه النحيلة ليلفت انتباهه إليه.

ـ لا حاجة بك إلى أن تناديه. قال كوليا سوف يقفز إلى سريرك من تلقاء نفسه.

ثم أمر الكلب قائلاً له، وهو يضرب السرير بيده:

ـ هنا يا برزفونه!

فإذا بالكلب يثب إلى قرب ايليوشا.

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه، فلعق الحيوان وجهه عرفاناً بالجميل. وشد ايليوشا نفسه إلى الكلب، وتمدد على سريره، وأخفى وجهه في جزائز شعره الكثيفة.

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا، وقال له:

ـ ايليوشا! ثم شيء أستطيع أن أريك إياه. لقد جئتك بمدفع صغير. سبق أن حدثتك عنه، هل تتذكر؟ لقد قلت لي عندئذ: «أحب أن أراه!». ها أنا جئتك به اليوم.

قال ايليوشا ذلك، وسلَّ المدفع البرونزي الصغير من كيسه بسرعة. كان كوليا يُسرع، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة. ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذي أحدثه ظهور «برزفون». ولكنه كان في هذه المرة يتعجل إظهارهم على اللعبة غير عابىء بأي رزانة، ولسان حاله يقول: «ها أنتم أولاد سعداء، سأوفر لكم مزيداً من السعادة!». كان كوليا يشعر بافتنان قوي.

ـ لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل. فتمنيت الحصول عليها، ولكن من أجلك أنت يا عزيزي، من أجلك أنت. لقد أخذها من أخيه، وهو لا يستعملها. ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه «ابن عم محمد أو الجنون الشافي». إنه كتاب فاسق

ظهر في موسكو منذ مئة عام، أيام لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد. وموروزوف من عشاق هذه الأمور، حتى لقد شكر لي هذه المقايضة...

كان كوليا يمسك المدفع بيده إمساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يُعجَبوا به. ونهض ايليوشا، وأخذ يتأمل اللعبة مسروراً مع استمراره في معانقة «كاريون» بيده اليمنى. وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً، وأن في وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع، «هذا إذا كانت السيدات لا يرين في ذلك بأساً». فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر في اللعبة من قرب، فلُبِّي طلبها فوراً. أعجبها المدفع البرونزي الصغير المركب على عجلات إعجاباً شديداً، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها. ولم تتردد في أن تأذن بإطلاق النار من المدفع، دون أن تفهم الموضوع جيداً في الواقع. وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهرهما على الحضور. وتولى الكابتن، بصفته عسكرياً قديماً، حشو المدفع، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح. أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة. تمَّ تركيز المدفع على أرض الغرفة، ووُجِّهت فوهته نحو فضاء خالٍ، وأشعل البارود بعود ثقاب. فانطلقت النار. ارتجفت «ماما» في اللحظة الأولى، ثم أخذت تضحك مسرورة. وكان الصبيان ينظرون إلى اللعبة بإعجاب صامت. غير أن الكابتن كان أسعدهم جميعاً، وكان لا يحوّلُ نظره عن ايليوشا. وتناول كوليا المدفع، فأهداه فوراً إلى ايليوشا، كما أهدى إليه البارود والخردق.

ـ هذا لك، قال له بفرح، هذا لك، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه إليك.

ـ كلا، هذا لي، أعطنيه أنا. قالت البلهاء ضارعة بصوت كصوت طفل.

كان وجهها يعبر عن المرارة، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها. فاضطرب كوليا؛ واهتز الكابتن، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها:

ـ عزيزتي، عزيزتي، هذا المدفع لك، لك أنت. فليحتفظ به ايليوشا إلى

حين، ما دام قد أهدي إليه، ولكنه لك أنت طبعاً. سيسمح لك ايليوشا بأن تلعبي به كلما أردت ذلك. هو لكما كلاكما، لكما كلاكما...

ـ لا، لا أريد أن يكون لنا كلينا. أريد أن يكون لي وحدي، وليس لإيليوشا. قالت الأم وهي توشك أن تبكي.

ـ ماما، خذيه، إنني أهديه إليك. صاح ايليوشا.

وكأنما خشي أن يسيء إلى كوليا إذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر، فسأله متوسلاً:

ـ هل أستطيع أن أهديه إلى ماما يا كراسوتكين؟

ـ لمَ لا؟ قال كوليا موافقاً.

وتناول المدفع من بين يدي ايليوشا، فقدّمه بنفسه إلى الأم وهو يحيّيها أرق تحية. ولقد بكت الأم من شدة التأثر.

ـ ايليوشا، بنيَّ الصغير، أنت تحبني حقاً، أنت على الأقل. صاحت الأم بانفعال.

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها.

ـ عزيزتي، هلّا أذنت لي أن أقبّل يدك؟ قال زوجها وقد أدرك رغبتها فوراً.

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهي تومىء إلى كراسوتكين.

ـ هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان.

وقال كوليا:

ـ أما البارود يا ايليوشا، فسأجيئك منه بالقدْر الذي تشاء. إننا نصنعه بأنفسنا. لقد تعلّم بوروفيكوف الطريقة: أربعة وعشرون جزءاً من النطرون، وعشرة أجزاء من الكبريت، وستة من فحم الحطب. يطحن هذا كله معاً، ثم يُصب عليه ماء ليصبح عجينةً تُحَكُّ بعد ذلك على جلد حمار. هكذا يتم الحصول على البارود.

ـ حدثني سموروف عن بارودك. قال إيليوشا. ولكن بابا يقول إن هذا ليس هو البارود الحقيقي.

ـ ليس هو البارود الحقيقي؟ قال كوليا محتجاً وقد احمر وجهه كيف ذلك؟ على كل حال، لست أدري...

ـ لا، لا... أنا لم أقل شيئاً. أسرع الكابتن يصحح مُحرجاً. ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقي يُصنع بطريقة أخرى، ولكن ليس لهذا أي قيمة... إن من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً.

ـ أنت أعلم منا على كل حال. لقد أشعلنا بارودنا في وعاء، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلِّف إلّا قليلاً من السناج. وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها إلّا إمرارها من خلال جلد... ومهما يكن من أمر، فأنت أعلم بهذه الأمور مني... بالمناسبة: لقد ضُرب بولكين بسبب بارودنا، ضربه أبوه، هل بلغك هذا؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا. فأجابه ايليوشا.

ـ بلغني هذا الأمر.

وكان ايليوشا يصغي إلى كوليا باهتمام شديد وبلذة فائقة.

ـ كنا قد حضَّرنا زجاجة من بارود، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال: «قد تحدث انفجاراً» وجلد ابنه بحزامه على الفور. حتى لقد كان في نيته أن يشكوني إلى إدارة المدرسة. وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يراني. أصبحوا لا يسمحون لأحد بمعاشرتي. حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد اتّسخت سمعتي، فقالوا إنني «متهور» ـ قال كوليا ذلك وهو يبتسم بازدراء. ويعود هذا إلى زمان قصة السكة الحديد.

ـ لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديد هذه. صاح الكابتن، كيف تمكنت من

الصمود بين القضيبين؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد أُصبت بالرعب عندما مر القطار من فوقك؟

كان الكابتن يتفنن في تملُّق كوليا.

أجاب هذا الأخير بلهجة فيها إهمال:

ـ شعرت بالخوف؟ لا. لم أخف كثيراً. ولكن تلك الإوزة اللعينة هي التي جاءتني بسمعة التهور هذه.

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا مجدداً.

كان كوليا يحاول أن يصطنع في كلامه هيئة عدم المبالاة، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود في هذا السبيل، لم يتمكن من العودة إلى السيطرة على نفسه، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة.

ـ سمعت أيضاً بقصة الإوزة هذه! قال ايليوشا مشرق الأسارير حكَوها لي. ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً. هل صحيح أنهم أخذوك إلى القاضي؟

ـ تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة في هذه المدينة على عادة الناس هنا. قال كوليا يشرح منطلقاً: كنت أجتاز «السوق» حين كان يؤتى إليه بالإوزّ، فوقفت أنظر إلى الإوز. فإذا بفتى من هنا، اسمه فشيناكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً في متجر آل بلوتنيكوف، أخذ يحدّق إليّ ويسألني: «مالك تنظر إلى الإوز هكذا؟». رفعت بصري نحوه. إنه شاب في نحو العشرين من العمر، له وجه مدوَّر غبي. إنني لا أحتقر الشعب أبداً، اعلموا هذا. إنني أحب البسطاء من الناس... نحن متخلفون كثيراً عن الشعب، تلك بديهية أؤمن بها... يُخيَّل إليَّ أنك تضحك يا كارامازوف، أليس كذلك؟

ـ أبداً! بالعكس: أنا أصغي إليك بكثير من الانتباه.

هكذا أجابه إيليوشا بلهجة طيبة ساذجة، فسرعان ما استرد كوليا شجاعته، وراح يكمل كلامه بفرح فقال:

ـ نظريتي واضحة يا كارامازوف. إنني أؤمن بالشعب، وأشعر بالسعادة عندما أنصفه، ولكن ليس لأتملقه طبعاً، هذا شرط لا بد منه. ها... نعم... كنت أتكلم على تلك الإوزة. ثم التفت نحو ذلك الأبله وأجبته: «أنا أقول ما أفكر فيه، فبمَ تفكر هي الإوزة؟» فحملق في بغباء، ثم استأنف يسألني: «وما الذي تفكر فيه هذه الإوزة، في رأيك؟» قلت: «هل ترى تلك العربة المحمَّلة شوفاناً؟ إن الشوفان يتساقط من الكيس، وقد مدت الإوزة رقبتها لتنقر الشوفان، واقفةً تحت العجلة تماماً، هل لاحظت ذلك؟»، قال: «طبعاً لاحظته!» قلت: «فإذا دفعنا العربة الآن قليلاً، قطعت العجلة رقبة الإوزة، أصحيح أم لا؟». قال: «طبعاً ستقطع العجلة رقبة الإوزة!» قال ذلك فاتحاً فمه من الفرح، فإلى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة. قلت: «فهيَّا بنا أيها الشجاع!» فردَّد يقول: «هيَّا بنا!». ولم يطل الأمر. وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد، ورابطت أنا جانباً لأوجِّه الإوزة. أما صاحب العربة فلم ينتبه إلينا، لأنه كان يتحدث مع أحد الناس. ولم أحتج إلى التدخل من أجل أن أوجه الإوزة، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان، وأومأتُ إلى الفتى، فشد اللجام، فما هي إلّا لحظة حتى كانت رقبة الإوزة قد قُطعت. وشاءت المصادفة أن يرانا في تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين في الساحة، فأخذوا يصيحون بصوت واحد قائلين له: «فعلت هذا عمداً»، فقال لهم: «لا، لم أفعله عمداً»، فقالوا: «بل فعلته عمداً»؛ وازداد صراخهم، وقالوا: «قودوه إلى قاضي الصلح!». واقتادوني أنا أيضاً قائلين: «كنت أنت حاضراً، فأنت الذي حرّضته، إن جميع الناس يعرفونك في السوق». والواقع أنني معروف جداً في السوق، لا أدري لماذا (أضاف كوليا قائلاً باعتزاز). وذهبنا إلى قاضي الصلح. فجيء بالإوزة أيضاً. خاف صاحبي الفتى وأخذ ينتحب. حقاً، كان يبكي كامرأة. أما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً: «على هذا

يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من إوز.». وكان ثمَّة شهود كثيرون. وفصل قاضي الصلح في القضية بسرعة: حكم بتعويض قدْره روبل لصاحب الإوزة، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالإوزة، وختم قاضي الصلح كلامه قائلاً: «فلا مزاح من هذا النوع في المستقبل!» ولكن الشاب كان يبكي ويتشكى قائلاً وهو يشير إليَّ: «لست أنا. هو الذي علَّمني»، فأجبت، دون أن أفقد هدوء أعصابي، بأنني لم أعلِّمه شيئاً أبداً، وإنما عبَّرت عن فكرة هذه المزحة بشكل عام، كمشروع لا أكثر. فابتسم قاضي الصلح نيفيدوف، ثم ندم لأنه تبسم، وقال لي: «سأرسل تقريراً عنك إلى إدارة المدرسة فوراً، حتى لا تندفع بعد الآن في مشاريع من هذا النوع بدلاً من الانكباب على التحصيل وتحضير دروسك». والواقع أنه لم يشِ بي إلى إدارة المدرسة، وإنما كان ذلك منه تهديداً. غير أن القضية ذاعت في المدينة حتى وصلت إلى آذان السلطات المدرسية. إنكم تعلمون أن للمسؤولين في المدرسة آذاناً طويلة! استاء الأستاذ كولباسنيكوف استياءً شديداً، ولكن داردانيلوف دافع عني من جديد. وكولباسنيكوف راح يزيد من الغضب. إنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج وأخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً، لكن خطيبته هي مصيبة كبيرة من الدرجة الأولى. فنظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة في هذه المناسبة.

بلوعة وأسف شديد
بلغ الخبر تلامذة الصف الثالث
أن الأستاذ كولباسنيكوف
أخطأه التوفيق فتزوج.

حسناً وهلم جرا. هي قصيدة فكهة، سآتيك بها فيما بعد. الآن لن أقول شيئاً عن داردانيلوف: إنه رجل واسع المعرفة، ومعارفه جدية. إنني أحترم أمثاله من الناس، ولكن ليس لأنه دافع عني.

ـ ومع ذلك تغلّبت عليه أنت في السؤال عن إنشاء مدينة طروادة. هنا انبرى سموروف الذي كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين.

ـ كانت حكاية الإوزة قد فتنت سموروف.

ـ غلبته حقاً؟ قال الكابتن بلهجة المديح والتملُّق؟ كان ذلك في موضوع إنشاء مدينة طروادة، أليس كذلك؟ لقد قيل لنا فعلاً إنك كنت أقوى منه في هذه النقطة. حدثني ايليوشا عن هذا في ذلك اليوم نفسه.

قال ايليوشا:

ـ إنه يعرف كل شيء يا بابا، إنه يعرف أكثر منا جميعاً! هو يتواضع، لكنه أول التلاميذ في جميع المواد...

كان ايليوشا ينظر إلى كوليا بسعادة لا نهاية لها.

أجاب كوليا باعتزاز متواضع:

ـ أما حكاية طروادة هذه فهي في الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها.

لقد توصل كوليا أخيراً إلى إيجاد اللهجة المناسبة، ومع ذلك كان مايزال قلقاً جداً: كان يشعر أنه مهتاج قليلاً، وأنه قد روى حادث الإوزة بحرارة مفرطة. لقد كان إيليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة. فها هو كوليا الحساس الأذيّ يتعذب الآن إذ يتساءل: «أتراه قد سكت احتقاراً لي، لاعتقاده بأنني أستجدي المديح والاطراء؟ إن كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك، فسوف أعرف كيف...».

ـ في رأيي إن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية. قال مرة ثانية بتكبّر.

ـ أنا أعرف من أنشأ طروادة! قال، على حين غرة وبشكل غير متوقع، فتى لم يكن قد فتح فمه بكلمة حتى ذلك الحين صبي صموت خجول، جميل الوجه جداً، في نحو الحادية عشرة من عمره، اسمه كارتاشوف. كان جالساً قرب الباب. دُهش كوليا، وتفرس في الطفل مصطنعاً هيئة الوقار. الواقع أن

ذلك السؤال هو: «من أنشأ مدينة طروادة؟»، كان قد أصبح سراً، وكان لا بد لمعرفة ذلك من الرجوع إلى كتاب سماراغدوف. وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب. ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا، فأسرع يفتح كتاب سماراغدوف الذي كان ملقًى بين كتب كوليا المدرسية، فوقع عرضاً على الصفحة التي يتكلم فيها الكتاب على إنشاء مدينة طروادة. وحدث ذلك منذ مدة طويلة، ولكن الفتى كان شديد الخجل، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة. كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج، وأن يربكه كوليا. لكنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه، فانطلق يتكلم، مرضياً بذلك حاجةً في نفسه تعذبه منذ أسابيع.

ـ قل لنا من أنشأ مدينة طروادة! قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح.

لقد عرف كوليا، من تعبير وجه الفتى، أنه يعرف السرَّ، فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج. وحدث شيء من الكدر في مزاج الحضور.

ـ بنى مدينة طروادة: توسر، وداردانوس، وإيليوس، وتروس. قال الفتى بسرعة.

واحمر وجهه فوراً؛ وأصبح منظره يثير الشفقة. حدَّق إليه الفتيان الآخرون، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة، ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة. بقي كوليا ينظر إلى المنافس الجريء باحتقار دون أن يفقد هدوءه، ثم تنازل فقال له:

ـ قل لنا كيف بنوها؟ قل لنا ماذا يعني على وجه العموم بناء مدينة أو دولة؟ هل وضع كل منهم آجُرَّةً مثلاً؟

ضحك الجميع. واصطبغ لون الصبي المذنب بلون كلون القرمز في هذه

المرة. وصمت، وأوشك أن يبكي. وتركه كوليا جالساً على كرسي الاتهام دقيقة أخرى. ثم قال له بقسوة، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً:

ـ يجب ألا يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية من هذا النوع، إلّا إذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال. لكنني من جهتي لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه.

وأضاف يقول بإهمال، مخاطباً جميع الحضور:

ـ ثم إنني لا أقدر التاريخ العام كثيراً.

ـ لا تقدر التاريخ العام؟ سأله الكابتن بنوع من الذعر.

ـ نعم، لا أقدر التاريخ العام. إنه دراسة الحماقات البشرية، لا أكثر.

وبدأ يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً إلى إيليوشا، لأن هذا الأخير هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذي يتهيب كوليا رأيه.

ـ أنا لا أحترم إلّا الرياضيات والعلوم الطبيعية.

بقي إيليوشا صامتاً محافظاً على رصانته. فلو أبدى رأياً في تلك اللحظة لاختُتِمت المناقشة. غير أنه لم يفتح فمه، ومن الجائز «أن يكون صمته احتقاراً»، لذلك اغتاظ كوليا بشدة، وأردف يقول: وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة جنون محض. ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفني في الرأي مجدداً، أليس كذلك؟

قال إيليوشا بهدوء وهو يبتسم بتحفظ:

ـ حقاً، لست أوافقك على رأيك.

قال كوليا وقد عاد يلهث:

ـ إذا شئت أن تعرف رأيي، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو في نظري إجراء بوليسي للقمع والاضطهاد. تلك هي الغاية الوحيدة التي استهدفت من تعليم اللغات القديمة. إنهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبِّل

العقل. كانت الحياة حزينة، فأرادوا لها مزيداً من البلادة والغباء. كان السخف يحكم العالم، فرأوا أن يفاقموا ذلك قدر الإمكان. هذا هو السبب في أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية. ذلك رأيي أنا على كل حال، وإني لآمل ألّا أغيِّره وألّا أحيد عنه في يوم من الأيام. بهذا ختم كوليا كلامه جازماً.

ـ هذه هي الحقيقة. قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد، وكان قد أصغى إلى كلام رفيقه بانتباه.

فصاح أحد الصبيان:

ـ هو مع ذلك أول التلاميذ في اللغة اللاتينية!

ـ نعم يا بابا قال ايليوشا مؤيداً: إنه يقول هذا الكلام مع أنه أفضل تلاميذ الصف في اللغة اللاتينية.

اعتقد كوليا أن عليه أن يسوِّغ ذلك، رغم أنه سُرَّ كثيراً بهذا المديح، فقال:

ـ لا يبرهن هذا على شيء! إنني أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك، ولأنني وعدت أمي بأن أتم دراستي. وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أحتقر، في قرارة نفسي، كل الكلاسيكيين، وكل هذه الدناءة... ألست موافقاً أيضاً يا كارامازوف؟

أجاب إيليوشا وهو يبتسم من جديد:

ـ ولكن أين الدناءة التي تتحدث عنها؟

ـ أين؟ ألا تفهم؟ لقد تُرجمت مؤلفات الكلاسيكيين إلى جميع اللغات. فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية إذن هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات، وإنما هنالك أسباب بوليسية، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس هذا دناءة؟

ـ ولكن من الذي حشا في رأسك هذه الأفكار؟ صاح إيليوشا يسأله مدهوشاً.

ـ أولاً، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسي دون أن يدسها أحد في رأسي؛ ثانياً، أعرف جيداً أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذي شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن.

ـ وصل الطبيب!

صاحت نينوشكا، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة.

إن مركبةً خاصة تملكها السيدة خوخلاكوفا قد وقفت فعلاً أمام المنزل. أسرع الكابتن إلى لقاء الطبيب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح. وأصلحت ماما زينتها واصطنعت وضع الوقار. واقترب إيليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتِّب وسادة المريض، فكانت نينوشكا تنظر إليه من مقعدها قلقة. أما الفتيان فقد أسرعوا يودِّعون، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء. ونادى كوليا «برزفونه»، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير. وقال كوليا لايليوشا مسرعاً:

ـ لكنني لن أنصرف. سأنتظر في المدخل ثم أعود متى رحل الطبيب. سأعود مع «برزفون».

وكان الدكتور قد دخل الغرفة. إنه شخص مهيب المظهر، يرتدي معطفاً من فراء، وعلى عارضيه لحيتان قاتمتان، وحليق الذقن بكثير من العناية. فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف فجأة متردداً: لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل.

ـ ما هذا؟ أين أنا؟ دمدم يقول دون أن يخلع معطفه، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً. إن هؤلاء الناس، وهذا المسكن الفقير، وهذا الغسيل المنشور على حبل في زاوية الغرفة، إن ذلك كله قد حيَّره.

انحنى الكابتن أمامه انحناءة طويلة، وتمتم يقول مفرطاً في الترحيب.

ـ أنت هنا يا سيدي، هنا، عندي، أنت آتٍ إليَّ...

ـ هل أنت سنيغيريف؟ إذن أنت السيد سنيغيريف؟ قال الطبيب بصوت عالٍ أجش.

ـ نعم، أنا...

ـ آ!...

ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى، وخلع المعطف عن كتفيه. فظهر في عنقه وشم هام خطف جميع الأنظار. تناول الكابتن المعطف، بينما كان الطبيب يخلع قبعته.

ـ أين هو المريض؟ سأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر.

# VI

## تطور مبكر

ـ ماذا تعتقد سيقول له الطبيب؟ تمتم كوليا متعجلاً. يا له من وجه كريه! لا بأس، أليس كذلك؟ أنا لا أتحمل الطب.

ـ ايليوشا سيموت. فأجابه إيليوشا بحزن. أعتقد أن لا شك في هذا.

ـ يا للسفلة! الطب سفالة! أنا سعيد بأنني تعرفت إليك يا كارامازوف. لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل. ولكن يؤسفني أن لقاءنا قد تم في ظروف حزينة كهذه...

ودَّ كوليا لو يقول شيئاً أكثر حرارة وعاطفة، ولكنه شعر بشيء يزعجه. لاحظ إيليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً.

ـ لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك إنساناً نادراً. تمتم ايليوشا من جديد متلعثماً من التأثر: قيل لي إنك صوفي وإنك عشت في الدير. أعرف أنك صوفي، ولكن... هذا لا يصدمني ولم يمنعني من أن أشعر نحوك بعاطفة ومودة. إن الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك... ذلك ما يحدث دائماً في الطبائع التي تشبه طبيعتك.

ـ ماذا تعني بقولك «صوفي»؟ من أي شيء تريد أن تشفيني؟ سأله إيليوشا بشيء من الدهشة.

ـ جيد، من الله، وهلم جرّا...

ـ كيف؟ ألأنك لا تؤمن بالله؟

ـ بالعكس، لا اعتراض لي على الله. بالطبع. الله ليس إلّا فرضية... ولكنني أعترف بأننا بحاجة إليه، للمحافظة على النظام... نظام العالم، وهلم جرا... وأضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة: إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه.

ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن إيليوشا ربما اعتقد أنه يحب أن يُظهره على معلوماته، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش «كشخص كبير». فقال كوليا لنفسه متضايقاً: «أنا لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتي أمامه». وشعر بحسرة شديدة. وقال يحسم الأمر:

ـ أعترف لك بأنني أكره المناقشات في هذا الموضوع. ألا يمكن أن يحب المرء البشرية دون أن يؤمن بالله؟ ما رأيك؟ لقد كان فولتير مثلاً، لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب البشرية. (وقال لنفسه باستياء: «أيضاً، أيضاً!»).

قال إيليوشا في رفق، بصوت هادىء، كما لو كان يحادث رفيقاً من عمره، أو شخصاً أكبر منه سناً:

ـ لقد كان فولتير يؤمن بالله، ولكن أعتقد، ليس كثيراً، وكان كذلك لا يحب البشرية كثيراً. دُهش كوليا من تردد إيليوشا في الافصاح عن رأيه في فولتير، ومن هذه الطريقة في مخاطبته متكلاً على رأيه هو الصغير كوليا.

سأله إيليوشا.

ـ بالمناسبة، هل قرأت فولتير؟

ـ لا، ليس هذا ما قرأته.. قرأت «كانديد» في ترجمة روسية... ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة («أيضاً! أيضاً!»).

ـ وهل فهمته؟

ـ طبعاً. فهمت كل شيء... أقصد... لماذا تعتقد أنني قد أكون ما فهمته؟ هناك فقرات صعبة طبعاً... أنا قادر على أن أفهم أن هذه رواية فلسفية تهدف إلى البرهان على فكرة.قال: أنا اشتراكي يا كارامازوف، أنا اشتراكي عنيد.

ـ اشتراكي؟ قال إيليوشا ضاحكاً. متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك، أليس كذلك؟

شعر كوليا بامتعاض شديد، وقال محتجاً بقوة:

ـ أولاً: عمري ليس ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة. ثانياً: لست أفهم ما شأن عمري هنا. الأمر الآن أمر آرائي لا عدد سنوات عمري، أليس كذلك؟

ـ حين تتقدم في السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر في آرائنا. ثم إنني أحس أنك تردد آراءً سمعتها. قال إيليوشا بلهجة معتدلة هادئة، ولكن كوليا قاطعه بحمية.

ـ من فضلك! إنك من أنصار الخضوع والصوفية!. ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع إلّا الأغنياء والأقوياء، إذا سمحت لهم بإبقاء الطبقات الاجتماعية على حالة العبودية. أليس هذا صحيحاً؟

ـ لحظة! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة. أجابه إيليوشا لا شك أن أحداً قد حشا رأسك بهذا. دعك من هذا الكلام! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام في موضع ما؟ ثم إن أحداً لم يدخلني في عقيدة. أنا قادر على أن أفكر بنفسي... واعلم من جهة أخرى أنني لا آخذ على المسيح شيئاً. إن المسيح إنسان له آراء واسعة محترمة، ولو عاش في عصرنا لانضم إلى الحركة الثوريه، ولربما قام فيها بدور مرموق... بل هذا مؤكد.

ـ من أين جئت بهذه الفكرة؟ من هو ذلك الغبي الذي ارتبطت به؟ صاح إيليوشا.

ـ الحقيقة لا تخفى. أعترف لك بأنني كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين

في قضية من القضايا، ولكن يقال إن بيلنسكي العجوز كان يؤمن بهذه الأفكار نفسها.

ـ بيلنسكي؟ لا أتذكر ذلك. وهو على كل حال لم ينشرها.

ـ إذا لم يكن قد كتبها، فقد عبَّر عنها في أحاديثه، على ما يقال. سمعت ذلك من... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذي...

ـ هل قرأت بيلنسكي؟

ـ الحقيقة... لا... لم أقرأه كله... قرأت كلامه عن تاتيانا وكيف رفضت أن تسافر مع أونيجين.

ـ لماذا رفضت أن تسافر مع أونيجين؟ هل تعرف... وهل هذا...

ـ كأنك تظن أنني صبي صغير من نوع سموروف. قال كوليا محتجاً وهو يبتسم بغضب. لا تظن، على كل حال، أنني ثوري. إنني كثيراً ما أختلف في الرأي مع راكيتين. وإذا ذكرتُ تاتيانا، فلا تظن أنني من أنصار تحرر المرأة. إنني أعترف بأن المرأة مرؤوسة وأن وظيفتها الطاعة. «النساء للحياكة»، كما قال نابوليون. أضاف كوليا مبتسماً بلا سبب ظاهر: ففي هذه النقطة على الأقل، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً. وأنا أيضاً، من جهتي، أعتبر أن الهجرة إلى أميركا هروباً من الوطن خسة ودناءة، بل هي أكثر من ذلك أيضاً: هي حماقة! علام نذهب إلى أميركا في حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها في بلادنا لنخدم البشرية في عصرنا هذا خصوصاً؟ ليس يعوزنا العمل. هنالك عمل خصب يجب القيام به. ذلك ما أجبت به.

ـ كيف، ما أجبت به؟ على ماذا؟ هل عرض عليك أحد أن تسافر إلى أميركا؟

ـ أعترف بأنهم حاولوا، ولكنني رفضت. هذا سر بيننا بطبيعة الحال. لا تقل عنه كلمة لأحد. مفهوم يا كارامازوف؟ إنني لا أفضي بهذا السر إلى أحد

غيرك. لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد «الشعبة الثالثة»، وأن أتلقى دروساً في «جسر السلاسل»:

لن تنسى ذلك المبنى

قرب جسر السلاسل

هل تتذكر؟ إنه رائع. لماذا تضحك؟ هل تظن أنني كذبت عليك؟ (قال كوليا ذلك، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق: «ماذا لو علم أنني لم أقرأ إلّا هذا العدد من مجلة «الناقوس»، الذي وجدته في مكتبة أبي، وأنني لا أعرف شيئاً آخر غيره في ميدان الأدب الثوري؟»).

ـ لا، لا، أنا لا أضحك، ولم يخطر ببالي إطلاقاً أنك كذبت عليَّ. المصيبة هي أنك لا تكذب. قل لي الآن: هل قرأت بوشكين؟ هل قرأت قصة «أونيجين» أريد أن أقول... أنت الذي تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة؟

ـ لا، لم أقرأه بعد، ولكنني أريد أن أقرأه. واعلم يا كارامازوف أنني لا أحمل أفكاراً سابقة، وأنني أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً. لماذا هذا السؤال؟

ـ لا لشيء!

ـ قل لي يا كارامازوف: أنت تحتقرني كثيراً! هتف كوليا فجأة بصوت قاطع، وانتصب واقفاً أمام إيليوشا كأنه يتخذ وضع التأهب. هيَّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران!

ـ إذا كنت أحتقرك؟ نظر إليه إيليوشا بدهشة: لماذا أحتقرك؟ كل ما هنالك أنه يحزنني أن تفسد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك في فجر حياتها.

قاطعه كوليا بنوع من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته.

دعك من طبيعتي الآن. الواقع أنني سريع التأذي، أنا أعرف هذا. إنني سريع التأذي بغباوة، بابتذال. لقد ابتسمت أنت منذ لحظة، فتخيلت أنا أن...

ـ ابتسمت لأسباب أخرى. سأشرح لك الأمر. لقد قرأت في الفترة الأخيرة انطباعات رجل أجنبي، ألماني، عاش في روسيا وعبَّر عن رأيه في شبيبة مدارسنا على النحو التالي: «لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل، لأعادها إليك غداً مصحَّحة»: نقص كبير في المعرفة وغرور شديد لا حدَّ له، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا في رأي هذا الألماني.

ـ ولكن هذا صحيح كل الصحة: صاح كوليا وهو يضحك مقهقهاً! هذه هي الحقيقة صافية. مرحى للألماني! ولكن هذا الرأس المربَّع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا. إنني أسلِّم بأن فينا غروراً؛ ولكن هذه آفة من آفات سنِّ الشباب يُصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن يصلحها. ونحن نملك في مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً، هي ميزة استقلال الفكر. نحن نملك جرأة التصور والاقتناع، بينما هم، لا يعرفون تجاه أي سلطة إلّا عبودية كعبودية البقالين... ورغم كل شيء، فإن ذلك الألماني قد رأى صواباً. مرحى للألماني! رغم أن جميع الألمان يجب أن يُشنقوا. ربما هم أقوياء في العلوم لكن يجب أن يشنقوا مع ذلك...

ـ لماذا؟ سأل إيليوشا مبتسماً.

ـ لعلني قلت حماقة، أعترف لك بذلك. إنه يحدث لي في بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع، وحين أبتهج أفقد سيطرتي على نفسي، فأقول أنواعاً من السخافات. ولكنني ألاحظ أننا نثرثر هنا في تفاهات بينما يبدو أن الطبيب تأخر هناك. ربما انتهز الفرصة ليعاين الأم في الوقت نفسه، وكذلك نينا الكسيحة. لقد أعجبتني نينا هذه كثيراً، هل تعلم حين خرجتُ دمدمت تقول لي بصوت خافت جداً: «لماذا لم تجئ قبل الآن؟». قالت ذلك بلهجة تزخر عتباً. يخيَّل إليّ أنها طيبة جداً، وأنها كذلك شقية جداً جداً.

ـ نعم، سوف ترى حين تعود أي إنسانة هي. قال إيليوشا بكثير من الحرارة: إنه ليفيدك كثيراً أن تتردد إلى أناس مثلهم، فتتعرف على أشياء كثيرة ما زلت تجهلها في هذه الحياة، أشياء ستظهر لك وتنجلي لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أفضل وسيلة من أجل أن تتبدل.

ـ آه، كم أنا آسف لأنني لم أجئ قبل هذا الوقت! قال كوليا بحرارة. إنني ألوم نفسي على ذلك.

ـ شيء مؤسف حقاً. لا بد أنك لاحظت كم هو فرح هذا الصغير المسكين بزيارتك. لقد عذبه انتظارك سدى!

ـ لا تذكرني بهذا. فهو يعذّبني جداً. هذا خطأي على كل حال. لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التي لا أستطيع التخلص منها، رغم كل الجهود التي بذلتها طوال حياتي. إنني أعرف الآن يا كارامازوف أنني تافه في شؤون كثيرة.

ـ بالعكس: طبيعتك رائعة. قال إيليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً: وإن يكن قد أصابها شيء من الزيف. إنني أفهم الآن كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير في ذلك الصغير المسكين الذي يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية.

ـ وتقول هذا لي أنا؟ هتف كوليا قائلاً، تصور أنني ظننت غير مرة، منذ جئت إلى هنا، أنك تحتقرني! ليتك تعلم مدى اهتمامي برأيك وحرصي عليه!

ـ لكنك حقاً مفرط الحساسية سريع التأذي إلى هذه الدرجة؟ أفي مثل سنك؟ لقد تصورت فيك هذا. منذ قليل، في الغرفة، حين كنت أصغي إلى الحكايات التي قصصتها، قلت لنفسي: لا بد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذي.

ـ أنت فكرت في ذلك؟ إنني معجب بك. لقد كانت يدي في النار حين

قصصت أنا حكاية الإوزة. لقد أحسستُ في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخري بالمكر. وقد أخذت أكرهك عندئذ، وأخذت أطيل في الحديث عمداً. وبعد ذلك ـ ونحن في هذا المكان ـ أحسست بعد أن قلت عبارتي: «إذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه»، أحسست أنني تسرعت كثيراً في عرض معرفتي وإظهار علمي، لاسيما وأنني كنت قد قرأت هذه العبارة في كتاب. ولكنني أقسم لك على أنني إن سارعت إلى إظهار معرفتي فما كان ذلك مني حباً بالظهور، وإنما صدر هكذا عفواً، لست أدري لماذا، ولعله صدر عن فرح، بل إنه قد صدر عن فرح حتماً... لكنني أعلم أن من الغباء جداً ومن العار جداً أن يرتمي المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح. ولكنني مقتنع الآن بأنك لا تحتقرني، وأن الأمر كله كان من تصور خيالي وحده. آه، لو تعلم مدى شقائي يا كارامازوف! إنني أتخيل أحياناً، لا يدري إلّا الله لماذا، أن جميع الناس يسخرون مني، وأني أشعر في مثل تلك اللحظات بأنني مستعد لتحطيم كل ما هو موجود.

ـ وأنت تعذب الذين يحيطون بك طبعاً. قال إيليوشا مبتسماً.

ـ نعم، ولا سيما أمي. قل يا كارامازوف: هل تجدني مضحكاً جداً؟ في هذه اللحظة!

ـ لكن لا تفكر في كل هذا، لا تفكر! صاح إيليوشا: الله يعرف جميع المناسبات حيث يمكن أن يبدو الإنسان مضحكاً! إن الأفراد الذين يملكون مواهب عالية، في هذا العصر، يخشون أن يعتبرهم الناس مضحكين، وهم أشقياء لهذا السبب ولكن ما يدهشني هو أنك عانيت هذا الشعور في هذه السن المبكِّرة، وإن كنت قد أتيح لي أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين. فالأطفال أنفسهم قد أخذوا في أيامنا هذه يقاسون هذا الخوف الغبي. يوشك ذلك أن يكون جنوناً. إن في هذا إفراطاً في حب الذات، ولا شك أن

الشيطان قد استقر فيه... نعم، هو الشيطان... أضاف إيليوشا دون أي مزاح، كما توهم كوليا الذي كان ينظر إليه محدقاً. أنت تشبه الآخرين في هذه النقطة. في حين يجب ألا تكون كالآخرين. صدقني مع ذلك: ينبغي ألّا يشبه الإنسان جمهرة الناس.

ـ حتى ولو كان كل الناس هكذا؟

ـ نعم. حتى ولو كان الجميع هكذا، حتى ولو صرت وحيداً. الواقع أنك لا تشبه الآخرين: فإنك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة. فأي الناس يملك هذه الجرأة اليوم؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة إلى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً. فلا تتردد في أن تتميز عن جمهرة الناس. لا تكن كسائر أولئك الملأ، ولو أمسيت وحيداً في نوعك.

ـ ما أروع هذا الكلام! إن ظني فيك لم يخطىء. آه يا كارامازوف، طالما انتظرت التعرف إليك. لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً. هل صحيح أنك أردت أن تتعرف إليَّ أيضاً؟ لقد قلتَ منذ قليل إنك فكَّرتَ فيَّ.

ـ نعم، سمعت عنك وفكَّرت فيك أنا أيضاً... افترض حبَّ الذات هو الذي أوحى إليك بذلك السؤال، فأي سوء في هذا؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال والخجل.

ـ هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام. أليس هذا مضحكاً، مضحكاً جداً؟

ـ ليس مضحكاً أبداً! وهبه مضحكاً. أجاب إيليوشا وعلى محياه ابتسامة مشرقة فأي بأس في ذلك، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً؟

ـ أعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معي... إنني أقرأ هذا في عينيك.

ـ ممَّ عساي أخجل؟ قال كوليا بابتسامة ماكرة مع نوع من السعادة.

ـ إذن لماذا احمر وجهك؟

ـ أنت من جعل وجهي يحمر. صاح إيليوشا ضاحكاً.

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة. ثم تمتم شبه مضطرب:

ـ حسناً... أشعر ببعض الخجل، لا يعرف إلّا الله لماذا. أنا نفسي لا أعرف السبب.

قال كوليا بحماسة، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه:

ـ ما أعظم حبي واحترامي لك في هذه اللحظة، لأنك تشعر بخجل معي! ذلك أنك تشبهني...

ـ اصغ إليَّ يا كوليا: لا شك أنك ستشقى كثيراً في هذه الحياة. قال إيليوشا دون أن يدري لماذا.

ـ أعرف ذلك. ما أصدق تنبؤك بالمستقبل! قال كوليا مؤيداً كلامه.

ـ مع ذلك سوف تحب الحياة.

ـ صحيح، صحيح! مرحى! إنك نبيّ! نحن متفاهمان يا كارامازوف. وما يعجبني خاصةً فيك هو أنك تخاطبني مخاطبة الند للند، مع أننا لسنا ندين متكافئين، لا، لا، فأنت أرفع مني! ولكننا سنتفاهم. طوال الشهر الماضي، ظللت أقول لنفسي: «إما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد، وإما سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات!».

ـ منذ قلت لنفسك هذا الكلام، كنت تحبني، هذا أكيد. قال إيليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة.

ـ كنت أحبك، كنت أحبك حباً رهيباً، وكنت أحلم بك! كيف تعرف كل ذلك مسبقاً؟ هذا هو الطبيب! يا إلهي، ما الذي سيقوله لنا؟ انظر إلى هذا الوجه، وجهه؟

# VII

## إيليوشا

خرج الطبيب من العزبة مرتدياً فراءه معتمراً قبعته. كان وجهه يعبر عن الغضب والقرف، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ما لا نعرف من. ألقى على المدخل نظرة خاطفة، ثم ألقى في الوقت عينه، نظرة قاسية على إيليوشا وكوليا. أعطى إيليوشا إشارة للحوذي، فاقتربت العربة التي أقلت الطبيب من مدخل البيت. فأسرع الكابتن ليدرك الطبيب، فانحنى له انحناءة كبيرة، واستوقفه ليطرح عليه بعض الأسئلة. فبدا وجه المسكين محطماً ونظرته خائفة.

ـ يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة... أهذا ممكن؟...

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه، واكتفى بأن عقف يديه عاجزاً حتى ولو كانت الأقوال التي سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحتوم لابنه المسكين.

ـ لا حيلة لي في الأمر! أنا لست الله. أجاب الطبيب في إهمال، بصوتٍ تخالطه لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه.

ـ دكتور... صاحب السعادة... هل هذا وشيك، هل هو وشيك؟

ـ كونوا مستعدين لكل شيء. أجاب الطبيب مشدداً على كل كلمة، وهو متأهب للصعود إلى السيارة.

ـ صاحب السعادة، تابع الكابتن، ناشدتك بالمسيح! هل يمكن حقاً أن لا يكون هناك أي شيء، أن لا يكون هناك أي شيء يستطيع إنقاذه بعد الآن؟

ـ هذا لا يتوقف عليَّ الآن. أجاب الطبيب نافدَ الصبر.

ثم توقف فجأة وقال متمتماً: ومع ذلك، إذا كنتم تستطيعون مثلاً أن ترسلوا مريضكم، فوراً، دون إضاعة أي يوم (كلمات «فوراً، دون اضاعة أي يوم» قالها الطبيب بصوت لا يقال إنه قاسٍ، ولكن شبه غاضب بحيث أن الكابتن بدأ يرتجف)، إلى سيراكوز... فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغيير، ولكن...

ـ إلى سيراكوز؟ هتف الكابتن وقد بدا عليه أنه لم يفهم.

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر:

ـ سيراكوز هي في جزيرة صقلية.

ـ في جزيرة صقلية؟ صاح الكابتن وهو يلطم خديه.

ثم أضاف وهو يحرك يديه بحركة دائرية ليشير إلى فقر مسكنه:

ـ أما رأيت إذن؟ وامرأتي، وأسرتي؟ ما الذي يصيرون إليه؟

ـ لا، لا، لن يكون على الأسرة أن تذهب إلى صقلية. أرسل أسرتك إلى القفقاس في بداية الربيع... يجب أن تقيم ابنتك زمناً في منطقة القفقاس... أما زوجتك فلن تعالج هنالك إلّا مدة قصيرة في مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم... ثم عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً إلى باريس، عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية. وفي إمكاني أن أزودك كلمة إليه... إن من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن في هذه الحالة.

ـ دكتور، دكتور، رأيت بعينيك! عاد الكابتن فجأة يقول وهو يلوِّح بذراعيه عاجزاً، ويشير إلى ألواح الخشب التي تتألف منها جدران مسكنه.

ـ آه، لم يعد هذا شأني أنا. قال الطبيب. أنا لم أزد على أن ذكرت لك، في الاجابة عن سؤالك، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولةً أخيرة بعد اليأس... أما فيما عدا ذلك... فأنا آسف... ولكن...

ـ لا تخف أيها «المداوي» لن يعضك كلبي. قال كوليا بصوت جهوري وقد لاحظ النظرة القلقة التي ألقاها الطبيب على «برزفونه» المرابط أمام العتبة. كان صوت كوليا يرتعش غضباً، وقد تعمد أن يسميه باسم «المداوي» بدلاً من اسم «الطبيب»، إهانةً له، كما شرح ذلك فيما بعد.

ـ عفواً؟ قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدّق إلى إيليوشا مدهوشاً. ثم أضاف يسأل إيليوشا، كأنه يعتبره مسؤولاً.

ـ أنا صاحب «برزفون». قال كوليا من جديد، مشدِّداً على كلماته. لا تهتم بشخصي أيها المداوي.

ـ «برزفونه»؟ قال الطبيب الذي لم يفهم ما معنى برزفونه.

ـ إلى اللقاء أيها المداوي، سوف نلتقي مرة أخرى في سيراكوز.

ـ من هذا الـ... من هذا.. الوقح؟ قال الطبيب غاضباً.

ـ هو تلميذ من هنا يا دكتور. قال إيليوشا بسرعة وهو يقطّب حاجبيه. إنه هازل، فلا تلق إليه بالاً. وصاح إيليوشا يخاطب كوليا قائلاً: اسكت يا كوليا. ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاد الصبر في هذه المرة: لا تأبه له يا دكتور.

ـ إنه يستحق السوط، السوط، السوط، يجب تأديبه!

ـ هل تعلم أيها المداوي أن كلبي «برزفونه» يستطيع أن يعض؟ اصفر وجه كوليا، وقدحت عيناه شرراً، وقال للطبيب بصوت مرتعش. هنا يا «برزفونه»!

ـ إذا قلت كلمة واحدة، وقع فراق بيني وبينك!

ـ اعلم أيها المداوي أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يمكنه أن يأمر

نيقولا كراسوتكين. هو هذا الرجل. قال كوليا ذلك وهو يومىء إلى إيليوشا. ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة. واندفع «برزفونه» وراءه.

بقي الدكتور جامداً بضع ثوانٍ، كأنما قد استبد به ذهول، وهو ما يزال شاخصاً إلى إيليوشا. ثم بصق على الأرض، وتقدم إلى جهة العربة بخطًى سريعة وهو يردد بصوت عال: عجيب، عجيب، عجيب! لا أعرف ما هو هذا؟ أسرع الكابتن يساعده في ركوب العربة. أما إيليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة. كان كوليا قد وصل إلى سرير ايليوشا ووقف عنده، فتناول ايليوشا يده، ونادى أباه، فما هي إلّا دقيقة حتى عاد الأب.

ـ بابا، بابا، تعال إلى هنا... نحن... تمتم ايليوشا في اضطراب شديد. ثم لم يقوَ على إتمام كلامه، فدفع ذراعيه الناحلتين إلى أمام، وطوق بهما أباه وكوليا معاً في حركة متشنجة، وضم أحدهما إلى الآخر بعناق واحد، شاداً جسمه إليهما بقوة. فأخذ الكابتن عندئذ ينشج بصمت. أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش.

ـ بابا، بابا، ما أشد ألمي عليك! قال إيليوشا بمرارة.

ـ بنيَّ ايليوشا... صغيري... قال الكابتن متمتماً قال الطبيب إنك... ستشفى... وسنسعد جميعاً...

ـ بابا، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عني! صاح ايليوشا... فهمته من النظر إليه! وشدَّ إليه أباه وكوليا من جديد، بكل قواه، مسنداً وجهه إلى كتف الكابتن.

ـ بابا، بابا، لا تبكِ... حين سأموت ستأخذ صبياً آخر، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان، وتسميه باسم ايليوشا مثلي، وتحبه كما تحبني...

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت ملؤه اللوعة:

ـ لا تقل سخافات يا عزيزي! وتابع ايليوشا كلامه فقال:

ـ أما أنا يا بابا، فلا تنسني أبداً، تعال إلى قبري زائراً. اسمع يا بابا: أريد أن تدفنني قرب تلك الصخرة الكبيرة التي كنا نتجه إليها أثناء نزهاتنا. وزرني هنالك مساءً في صحبة كراسوتكين... ومع «برزفونه» أيضاً... سأنتظركم هنالك... بابا، بابا!

اختنق صوت ايليوشا. بقي الثلاثة متعانقين صامتين. وفي مقعدها، كانت نينوشكا تبكي بكاءً رفيقاً. وإذ لاحظت الأم أن الجميع يذرفون الدموع، انفجرت تبكي هي أيضاً، وصاحت تنادي:

ـ صغيري ايليوشا، صغيري ايليوشا!

انسلَّ كراسوتكين من عناق ايليوشا، وقال يشرح بسرعة:

ـ إلى اللقاء يا عزيزي. أمي تنتظرني على الغداء. من المؤسف أنني لم أنبئها. لسوف تقلق الآن... لكنني سأجيء إليك بعد الغداء، وسأمكث معك طوال النهار، وطوال المساء أيضاً. سأقص عليك حكايات كثيرة. سأرجع مع «برزفونه». أما الآن فسأصطحبه، وإلّا أخذ ينبح فيزعجك. إلى اللقاء!

وخرج راكضاً. كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكي. ولكن دموعه تفجرت في المدخل. وعلى هذه الحال وجده إيليوشا. قال له ملحاً:

ـ كوليا، عليك أن تفي بعهدك، وأن تعود كما وعدته، وإلّا حزن حزناً شديداً.

ـ بالتأكيد. آه... كم يحزنني أنني لم أجئ قبل الآن. تمتم يقول كوليا باكياً، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة. وفي تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة كالمجنون، وأغلق الباب وراءه بسرعة. كان في وجهه تعبير غريب، وكانت شفتاه تختلجان. وقف أمام الشابين، ورفع ذراعيه في الهواء، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً على أسنانه:

ـ لا أريد صبياً صغيراً طيباً! لا أريد صبياً آخر! ألا فليُعقل لساني إذا نسيتك يا أورشليم... وتوقف عن الكلام كأنما قد خنقه الانفعال، وتهاوى على الأرض راكعاً، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً أنات مشوَّشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد في الغرفة.

ـ إلى اللقاء يا كارامازوف! هل تأتي أنت أيضاً؟ هرع كوليا إلى الشارع. وصاح لإيليوشا بصوت جاف قاس.

ـ سأجيء هذا المساء حتماً.

ـ ماذا قال عن أورشليم... ما معنى هذا؟

ـ هذا قول من التوراة «إذا نسيتك يا أورشليم»، معنى هذا: إذا نسيت ما هو عندي أعز شيء وأغلى شيء، إذا خنت من ذكرياتي أقدسها، فلتنزل عليَّ عندئذ...

ـ كفى! لقد فهمت! أنت، تعالى!. هنا يا «برزفونه»! صاح كوليا ينادي الكلب بصوت حانق، واتجه نحو بيته بخطًى واسعة ومتينة.

# الكتاب الحادي عشر

## الأخ إيفان فيودوروفتش

# I

## عند غروشنكا

اتجه إيليوشا نحو ساحة الكاتدرائية باتجاه منزل التاجرة موروزوفا عند غروشنكا. لقد أرسلت إليه هذه الأخيرة، في الصباح الباكر، فينيا، تتوسَّل إليه بإلحاح أن يجيء إليها. وقد علم إيليوشا أن عشيقته تعاني منذ البارحة قلقاً عميقاً وخاصاً. وكان إيليوشا، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال ميتيا، قد زارها مراراً، تارةً بمهمة قام بها بطلب من ديمتري، إذ كانت غروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد سجن ميتيا بثلاثة أيام، وظلت تعاني منه خمسة أسابيع، أمضت الأسبوع الأول فاقدةً وعيها. فتبدلت ملامح وجهها كثيراً، فاصفرت ونحلت، حتى بعد أن أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من أسبوعين. لكن ذلك الوجه في نظر إيليوشا أصبح أكثر جاذبية وهو الذي كان يحب كثيراً أن يلتقي نظرتها حين يجيء إليها. إن شيئاً ما في تعبير عينيها قد أصبح أقوى ثباتاً وأكثر تروياً وتأملاً. نوع من التبدُّل الروحي، حيث تظهر عزيمة راسخة، متواضعة، لكن جيدة وثابتة. إن غضناً قصيراً عمودياً ارتسم على جبينها بين الحاجبين فأصبح يسبغ على وجهها معنى التأمل العميق، ويضفي عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوةً في الوهلة الأولى. لم يبقَ هنالك،

في الظاهر، أثرٌ لما كان يُرى فيها من خفة. ومع ذلك كان يُدهش إيليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتي رغم المصيبة التي ضربتها، رغم اعتقال الرجل الذي تحبه، رغم حبس هذا الرجل في اللحظة التي أوشكت أن تصبح فيها خطيبته، رغم اتهامه بجريمة خطيرة، وكذلك رغم مرضها الذي تلا ذلك، ورغم قرب محاكمة الرجل. وإن عينيها اللتين كان فيهما كثير من الكبرياء في الماضي، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادىء، وإن كان يتفق من حين إلى آخر أن يسطع في نظرتها لهيب مقلق، ولا سيما في اللحظات التي يراودها فيها ذلك العذاب القديم الذي لم يهدأ في قلبها أثناء تلك الفترة، بل كان يشتد باستمرار. ما يزال موضوع القلق المؤلم هو نفسه: إنه كاترينا إيڤانوفنا التي طالما ذكرت غروشنكا اسمها في هذيانها أثناء المرض. كان إيليوشا يدرك أن غروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة، رغم أن كاترينا إيڤانوفنا لم تزر ميتيا في السجن مرة واحدة، كما كان في وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء في كل آن. وكان ذلك كله قد تحول إلى نوع من المسألة المعقدة لأنه الوحيد الذي كانت أمام إيليوشا، غروشنكا لا تفضي بآلامها إلّا إليه، وما تنفك تسأله النصح، وهو في بعض الحالات كان عاجزاً عن أن يقول لها أي شيء.

لذلك كان إيليوشا مهموماً حين دخل منزلها. كانت غروشنكا، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة. وعرف إيليوشا، من الحركة السريعة التي قامت بها لتنهض عن مقعدها وتهب إلى لقائه، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر. وكان هنالك على الطاولة ورق لعب أُعدَّ لشخصين. إن كنبة الجلد التي كانت في الجهة الأخرى من الطاولة قد حوّلت الآن إلى سرير، وها هو العجوز ماكسيموف، المريض، ولكن على تبسم متكلف ومتصنع، ينام على هذا السرير نصف رقاد، مرتدياً ثوب المنزل، واضعاً على رأسه طاقية. إن هذا العجوز الذي ليس له مأوى لم يترك غروشنكا منذ عودتها من موكرويه قبل

شهرين، وهو يعيش في منزلها منذ ذلك الوقت. لقد رجعا من موكرويه معاً في المطر والوحل، فلما وصلا إلى مسكنها كان البرد قد تسلَّل في جسمه حتى العظام، وكان يعاني خوفاً شديداً، فما إن دخلا المنزل حتى جلس على الديوان وأخذ يحدِّق إلى المرأة الشابة صامتاً، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة. وكانت غروشنكا عندئذ مصعوقة من المصيبة التي حلَّت بها، وكانت ترتجف من الحمّى منذ تلك اللحظة، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى، مهتمة بإصدار أوامرها إلى خدمها. ثم ألقت عليه نظرها مدهوشة، فضحك العجوز ضحكة قصيرة تثير الشفقة، ونظر إلى عينيها دون أن ينطق بكلمة. فنادت عندئذ فينيا، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعاماً. وأمضى العجوز طوال ذلك النهار في مكانه، ويمكن القول إنه لم يتحرك، حتى إذا هبط الليل، وأغلقت النوافذ، سألت فينيا سيّدتها:

ـ هل سيبيت الليلة هنا هذا السيد؟

ـ نعم، أعدّي الكنبة سريراً له. أجابتها غروشنكا.

وبعد أن تحرت غروشنكا عن وضعه بالتفصيل، علمت أنه أصبح لا يعرف الآن إلى أين يأوي، لأن السيد كالغانوف، المحسن إليه، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن في منزله، وأعطاه خمسة روبلات زاداً.. فقالت له بحزن وهي تبتسم شفقة: «إذن فابقَ هنا». فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال، واختلجت شفتاه في نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل. ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها. لقد وجد الطفيلي التائه مأوًى. ولم تطرده فينيا وجدَّتُها طباخةُ غروشنكا، بل ظلتا تطعمانه وترتبان له سريره على الكنبة. حتى أن غروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك فكانت إذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تشفى من مرضها تماماً)، جلست إلى جانب «ماكسيموشكا»، وبدأت بالثرثرة معه، تقصّ

تفاهات سخيفة، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر في شقائها. وقد اتفق أن كان العجوز يتقن قصَّ الحكايات المضحكة في المناسبات، فإذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها. وكانت غروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا إيليوشا الذي كان مع ذلك لا يزورها كل يوم، ولا يمكث عندها إلّا قليلاً. أما صاحبها التاجر العجوز فقد كان في تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً وهو طريح الفراش. كان «بسبيل أن يرحل»، كما يقول سكان المدينة، وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بثمانية أيام. وإذ أحسَّ بقرب نهايته، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد إليه أبناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره؛ وفي الوقت نفسه أصدر أوامره إلى خدمه بأن لا يستقبلوا غروشنكا في بيته، وفي حال عادت أن يبلغوها ما يلي: «إن سيدنا يتمنى لك حياة مديدة وسعيدة وأن تنسيه كلياً». ومع ذلك كانت غروشنكا ترسل، كل يوم تقريباً، من يتسقط أخباره.

عندما دخل إيليوشا على غروشنكا، رمت ورق اللعب، ومدت إليه يدها فرحةً وهي تصيح:

ـ ها أنت أخيراً! إن «ماكسيموشكا» المسكين كان يتسلى بتخويفي زاعماً أنك لن تجيء. ليتك تعرف مدى حاجتي إليك! اجلس إلى الطاولة. ماذا تريد؟ قهوة؟

ـ لمَ لا. بدأت أشعر بجوع شديد. أجاب إيليوشا وهو يجلس قرب الطاولة.

ـ فينيا، هاتي قهوة بسرعة! إن الماء يغلي منذ مدة طويلة ينتظرك، هاتي فطائر باللحم أيضاً، ولتكن ساخنة جـداً. هل تعلم يا إيليوشا أن قصة رهيبة قد وقعت لي اليوم مع هذه الفطائر؟ حملتها له إلى السجن، فردَّها إليَّ بخشونة، ورفض أن يمسَّها، هل تصدق؟ حتى لقد رمى إحداها على الأرض ثم داسها بقدمه. قلت له: «سأتركها عند الحارس، فإذا لم تأكلها حتى هذا المساء، كان

معنى ذلك أنك تؤجج في نفسك الشر والغضب»، قلت له ذلك وانصرفت. فها أنت ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى. وفي كل زيارة يكون لنا شجار.

كانت غروشنكا تتكلم متعجلة وهي فريسة انفعال شديد. وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضاً نظره.

ـ ولأي سبب تشاجرتما اليوم؟ سألها إيليوشا.

ـ لكنني لم أتوقع ذلك أبداً. تصور أنه أصبح يغار من «القديم». لقد سألني: «لماذا تعطينه مالاً؟ أبدأت تعيلينه؟»، هي الغيرة، الغيرة دائماً. إنه يغار حين يأكل، حين ينام. حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها في الأسبوع الماضي، بصدد العجوز كوزما.

ـ ولكنه كان يعلم بوجود «القديم»!

ـ طبعاً كان يعلم بوجوده. افهم إذا كنت تستطيع ذلك! كان على معرفة بهذه العلاقة منذ البداية، وها هو يهينني اليوم لهذا السبب. إنني أخجل أن أردد على مسمعك ما قاله لي صارخاً. يا له من أحمق! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت. من يدري؟ لعل راكيتين هذا هو الذي يثيره عليَّ، ثم أضافت تقول بذهول: ما رأيك؟

ـ رأيي أنه يحبك، يحبك كثيراً. ولكن أعصابه ثائرة الآن.

ـ أدرك أن تكون أعصابه ثائرة، ما دام سيُحكم عليه غداً. وذلك هو السبب الذي من أجله أردت أن أزوره اليوم، لأحدِّثه عن يوم الغد هذا. تقول لي إنه ثائر الأعصاب. أفليس من حقي أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً؟ ثم هو يحدثني عن ذلك البولندي... يا له من أحمق! إنه يغار من ماكسيموشكا أيضاً!

ـ كانت زوجتي تغار عليَّ كثيراً. تدخّل ماكسيموف قائلاً.

ـ عليك أنت؟ دعك من هذا الكلام! أجابته غروشنكا ضاحكة رغم إرادتها ممن يمكن أن تغار عليك؟

ـ من الخادمات.

ـ اسكت يا ماكسيموف، لست اليوم في مزاج يمكنني من الضحك. إن غضباً شديداً قد استحوذ عليَّ. أما الفطائر، فلن يفيدك النظر إليها هكذا. لن تصيب منها شيئاً. إن أكلتها آذتك. ولن أعطيك خمراً كذلك. فأنا مضطرة إلى العناية بهذا الرجل أيضاً. ألا يمكن أن يقال إن منزلي أصبح ملجأ خيرياً للإحسان؟ قالت غروشنكا ضاحكة.

ـ أنا لست أهلاً لإحسانك. أنا إنسان تافه لا قيمة لي. قال ماكسيموف بصوت متباك. الأَولى أن تغدقي مساعداتك على من قد يكونون أحوج إليها مني.

ـ كل إنسان هو مفيد في هذا العالم يا ماكسيموف. هل يعلم المرء في الواقع إلى من يحتاج أو لا. إن ذلك البولندي يقع الآن على عاتقي كذلك يا إيليوشا. تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً. وقد زرته. نعم، سأرسل إليه الفطائر عامدةً، عامدةً. لم يكن يخطر ببالي أن أفعل ذلك. ولكن ميتيا اتهمني بأنني أرسلت إليه فطائر. لذلك سأرسل إليه منها اليوم قصداً، قصداً! هذه فينيا تجيء برسالة. هي رسالة من البولندي. لا شك أنه يطلب مالاً من جديد!

إن «السيد» موزيالوفكتش يرسل إليها رسالةً طويلة ومتصنعة، وفيها يرجو أن تقرضه ثلاثة روبلات. كانت الرسالة مرفقة بسندٍ بالمبلغ يتعهد فيه بردِّ المال في غضون ثلاثة أشهر، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع «السيد» فروبلفسكي أيضاً. وكانت غروشنكا قد تلقت قبل ذلك من صديقها «القديم» عدداً كبيراً من مثل هذه الرسائل مع مثل هذه السندات. بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين، ولكن غروشنكا علمت أن «السيدين» قد جاءا يسألان عن صحتها مراراً. كانت الرسالة الأولى التي أرسلها البولندي طويلة، كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب عائلته. وكان مضمون

الرسالة غامضاً جداً وفيه تكلّف كثير، فلم تستطع غروشنكا أن تقرأ إلّا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً. ثم إنها كانت في تلك الآونة لا تهتم كثيراً بما قد يُكتب إليها! وفي الغد أُتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجو فيها «السيد» موزيالوفكتش بأن تسلفه ألفي روبل، متعهداً بدفعها بعد فترة وجيزة. ولم تردَّ غروشنكا لا على الرسالة الأولى ولا على الثانية. ثم تتالت رسائله كل يوم، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفالية، ولكن المبلغ الذي يلتمس أن تقرضه إياه ينخفض شيئاً بعد شيء، فيهبط إلى مئة روبل، ثم يهبط إلى خمسة وعشرين روبلاً، ثم إلى عشرة روبلات. وأخيراً تلقت غروشنكا رسالةً جديدة يرجو فيها «السيدان» أن تسلفهما روبلاً واحداً، وقد ضمَّا إلى الرسالة سنداً وقَّعاه كلاهما. عندئذ شعرت غروشنكا بشيء من الشفقة. وذهبت تزور «السيد» عند الغسق، وجدت البولنديين في عوز يشبه أن يكون تاماً، فلا طعام، ولا تدفئة، ولا سجائر، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة المنزل التي يسكنان عندها. إن المئتي روبل التي كسباها في موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد تبخرت بسرعة. وما كان أشد دهشة غروشنكا حين رأت «السيدين» يستقبلانها استقبالاً فيه كثير من التعاظم والادعاء، مهتمين بقواعد الكياسة الاجتماعية، مسترسلين في كلام متفخم. ضحكت غروشنكا من تكلفهما، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات. وقد قصت هذا المشهد على ميتيا في ذلك اليوم نفسه ضاحكة، فلم يخطر ببال ميتيا أن يستاء أو أن يمتعض. غير أن «السيدين» قد تشبثا منذ ذلك اليوم بغروشنكا، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يتوسلان فيها إليها أن تمدهم بالمال، وهي كانت ترسل إليهم في كل مرة مبلغاً ضئيلاً. وها هو ميتيا في ذلك اليوم، يضع في رأسه أحداث أزمة غيرة قاسية.

قالت غروشنكا مضطربة:

ـ أنا أيضاً غبية، ذهبت لأزوره اليوم، لبضع دقائق، قبل أن أذهب إلى ميتيا، لأنه مرض هو أيضاً، وقد حكت ذلك لميتيا ضاحكة. قلت له: «تصور أن صاحبي البولندي قد أخذ يغنّي لي أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة، آملاً أن يؤثر في نفسي وأن يردَّني إليه». فإذا بميتيا يغضب فجأة، يرشقني بإهانات فظيعة. أقسم لأرسلن للبولنديين فطائر! يا فينيا، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد، أليس كذلك؟ فأعطيها ثلاثة روبلات لهما، وحمِّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق. أما أنت يا إيليوشا، فأريد حتماً أن تروي لميتيا أنني أرسلت إليهما فطائر.

ـ لا، لن أروي له ذلك أبداً. قال إيليوشا مبتسماً.

ـ أتتخيل أنه يهتم بأمري ويتعذب من أجلي، بينما هو يتظاهر بالغيرة لا أكثر؟ قالت غروشنكا بمرارة.

ـ يتظاهر؟ قال إيليوشا.

ـ أنت غبي يا صغيري إيليوشا! إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك. إن ما يجرحني، ليس أنه يغار عليَّ، أنا كما أنا. إن ما يؤلمني هو عدم غيرته. هكذا أنا. لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً، فأنا نفسي قاسية القلب شديدة الغيرة. ولكنني شقية لأنه لا يحبني، وإنما هو يتظاهر اليوم بالغيرة عليَّ. ذلك كل شيء. لست بالعمياء. إنني أرى كل شيء بوضوح. لقد أخذ يكلمني عن الأخرى، عن كاتيا تلك، ممتدحاً ما صنعته في سبيله، مثنياً على ما قامت به من أجله. قال لي: «لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك في المناقشات أمام المحكمة إنقاذاً لي. واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم، وأعلمهم في الوقت نفسه». هو إذن يحبها ولا يحبني، يحبها هي، ولا يحبني أنا، ما دام يتغنى بمدائحها أمامي ناظراً إليَّ بعينيه الوقحتين! فهو المذنب في حقي والذي تعلق بي إلى هذا الحد، ليلقي الذنب على عاتقي،

على عاتقي وحدي: «لقد كنت على صلةٍ بذلك البولندي قبلي، فمن حقي إذن أن أهجرك في سبيل كاتيا»، هذا هو الموضوع. إنه يريد أن يلقي الذنب كله عليّ وحدي. ويتعمد أن يشاجرني، يتعمد ذلك تعمداً، ولكنني أقول لك...

لم تكمل غروشنكا كلامها لتشرح ما تنوي أن تقوم به. وإنما أخفت عينيها بمنديل، وأخذت تبكي في نشيج يثير الشفقة.

ـ إنه لا يحب كاترينا إيڤانوفنا. قال إيليوشا بصوت جازم.

ـ سوف أعرف بنفسي أهو يحبها أم لا. أجابت غروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهي تزيح المنديل عن عينيها. لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب. ولاحظ إيليوشا، على حزن وحسرة، أن ما كان يشيع في وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح قد حل محلَّه الآن عنف وشر.

ـ كفى سخافات! قالت. إنني لم أستدعك لأتحدث معك في هذا، يا إيليوشا، يا عزيزي! قل لي: ما الذي سيحدث غداً، ما الذي سيحدث غداً؟ ذلك ما يقلقني. أنا وحدي أفكر في هذا وأقاسي منه. إنني أنظر إلى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث. هل فكرت في الأمر أنت على الأقل؟ غداً سيُحكم عليه مع ذلك! قل لي كيف ستجري الأمور أمام المحكمة! إن الخادم هو الذي قتل، إن الخادم هو الذي قتل! هل يُعقل أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم، دون أن يتدخل أحد لإنصافه؟ إنهم لم يعمدوا حتى إلى إزعاج هذا الخادم بشيء، أليس كذلك؟

ـ استجوبوه استجواباً محكماً. قال إيليوشا مفكراً. ولكنهم خلصوا جميعاً إلى أنه ليس مجرماً. وهو الآن فريسة مرض شديد. إنه منذ وقوع ذاك الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع.

وأضاف إيليوشا يقول: إنه مريض جداً.

ـ يا إلهي! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي، وأن تشرح له القضية بنفسك. يقال إنه استقدم من بطرسبورغ لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل.

ـ دفعنا المبلغ نحن الثلاثة: كاترينا إيڤانوفنا وأخي إيڤان، وأنا. وضع كل منا ألفاً. أما الطبيب فإن كاترينا إيڤانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو. والمحامي فيتوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها، ونشرتها جميع الصحف، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر، لا طمعاً في المال، بل سعياً إلى المجد. ستبقى هذه القضية شهيرة، وسيبقى اسمه مقترناً بها. ولقد كلمته أمس.

ـ كلمته؟ فماذا قال لك؟ سألته غروشنكا متعجلة.

ـ أصغى إلى كلامي، ولكنه امتنع عن إبداء أي ملاحظة. قال إنه قد كوَّن رأياً شخصياً في الموضوع، ووعدني مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح.

ـ يحسب حساب ما قدمت له من شروح؟ ما معنى هذا الكلام؟ إنهم جميعاً سواسية! هؤلاء المحامون كلهم أوغاد! سوف يضيعونه في النهاية. والطبيب، لماذا استقدموا الطبيب؟

ـ استقدموه خبيراً. أجاب إيليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة يريدون أن يقرروا أن أخي مجنون، وأنه قد ارتكب جريمة القتل في نوبة جنون لا يدري ماذا يفعل. ولكن أخي لن يوافق على ذلك أبداً.

ـ سيكون هذا صحيحاً إذا كان قد قتل.. قالت غروشنكا لا شك في أنه كان فاقداً وعيه، فاقداً عقله تماماً، ولا شك أنني مسؤولة عن ذلك أنا المسكينة. ولكنه لم يقتل، لم يقتل! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل. المدينة كلها تعتقد ذلك. وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يُستخرج منها إلّا أنه قاتل. وجميع الأشخاص الذين كانوا في المتجر، وذلك الموظف أيضاً! وهناك زبائن الكاباريه الذين ينقلون كل كلمة من كلماته، إنهم جميعاً ضده، ويتبارَون في إغراقه بالصراخ.

ـ نعم، تكاثرت الشهادات بشكل يدعو إلى القلق. قال إيليوشا بلهجة فيها يأس.

ـ ثم غريغوري، غريغوري فاسيلتش الذي يصر على أن الباب كان مفتوحاً. إنه لم يتزحزح عن هذه الشهادة. هو يدعي أنه رأى الباب بعينه مفتوحاً. يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك. لقد ذهبت إليه وتكلمت معه. كاد يشتمني.

ـ لشهادته شأن كبير، وهو أخطر الشهود على أخي. قال إيليوشا.

ـ أما عن جنون ميتيا، فيخيَّل إليَّ أنه في هذه الساعة، لا يملك كل عقله، قالت غروشنكا بلهجة غريبة وقلقة. هل تعلم أنني أردت أن أكلمك في هذا الأمر منذ مدة طويلة يا إيليوشا؟ إنني أذهب إليه كل يوم، فما ينفك يزداد عجبي من سلوكه. قل لي رأيك: ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التي يحدثني بها بدون انقطاع؟ إنه يتكلم، ويتكلم، فلا أتوصل إلى إدراك ما يقوله لي. قدَّرت في البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج إلى ذكاء نافذ، لا أستطيع أن أدركها. ولكنه أخذ يحدثني عن صبي، عن ولد صغير لا أعرفه. سألني: «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟ إنني أرتضي أن أذهب إلى سيبيريا بسبب هذا الصبي. صحيح أنني لم أقتل، ولكن يجب أن أذهب إلى سيبيريا». أي صبي يعني؟ إنني لا أفهم من هذا الكلام شيئاً. ومع ذلك طفقت أبكي وأنا أسمع له، لأنه أجاد الكلام إجادة رائعة. كانت في عينيه دموع، فانفجرت أنا منتحبة. عندئذ قبلني، ورسم عليَّ إشارة الصليب. ما معنى هذا كله يا إيليوشا؟ قل لي. أيَّ ولد أنت؟

ـ إني أتساءل أليس في هذا مكيدة يدبرها راكيتين؟ أجاب إيليوشا مبتسماً. لقد أخذ يتردد إليه في السجن. ولكن لا... ليس هذا من راكيتين. أنا لم أزر ميتيا أمس، ولكنني سأذهب إليه اليوم.

ـ لا، ليس هو راكيتكا! قالت غروشنكا وقد اضطربت. إن أخاه إيڤان فيودوروفتش هو الذي يبلبل عقله. إنه هو الذي يزوره في السجن.

حدَّق إليها إيليوشا كالمذهول وقال:

ـ ماذا تقولين؟ إيڤان يزوره؟ لقد أكد لي ميتيا أن إيڤان لم يزره إلّا مرةً واحدة.

سكتت غروشنكا مضطربة وقد احمرّ وجهها بشدة.

ـ انظروا كيف أنا، لقد أسرفت في الكلام! لحظة... اسكت يا إيليوشا! مادمت قد زلَّ لساني ببعض الحقيقة، فسأقول لك الحقيقة كلها: لقد زاره مرتين. مرةً منذ وصل، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث، ولم أكن قد مرضت بعد. ومرةً منذ أسبوع. وقد طلب من ميتيا ألّا يقول لأحد شيئاً عن هاتين الزيارتين. حظّر عليه أن يذيع أمرهما لأي مخلوق. لقد زاره سراً.

كان إيليوشا يفكر تفكيراً عميقاً. إن شيئاً ما يشغل باله الآن. لقد صعقه هذا النبأ.

ـ إن أخي إيڤان لم يحدثني أبداً في قضية ميتيا خلال هذين الشهرين. قال ببطء. وكان يبدو ممتعضاً من زيارتي كلما زرته. لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع. هِمْ... إذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع، فذلك غريب حقاً... لقد حدث في ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة.

ـ لقد تغير، لقد تغير؟ أسرعت غروشنكا تقول. حدث فيه تغير، هذا صحيح. إن بينهما سراً. قال لي ميتيا نفسه ذلك، قال إن الأمر سر. وهو سر يعذبه كثيراً، هل تعلم؟ إن ميتيا ما يزال مرحاً في بعض اللحظات: ولكن حين يهز رأسه، ويسير في زنزانته، ويحك شعر صدغه بإبهامه اليمنى، أدرك أن هناك شيئاً في قلبه. أنا أعرف هذا. كان قبل ذلك مرحاً جداً. وما يزال مرحاً حتى الآن في الواقع، ولكن...

ـ ولكنك قلت لي إنه ثائر الأعصاب جداً.

ـ نعم، هو مرح وثائر الأعصاب في آن. تثور أعصابه فجأة، ثم يصفو

مزاجه بعد دقيقة واحدة، ثم يهتاج مجدداً. إنه يدهشني يوماً بعد يوم يا إيليوشا. إن ما ينتظره رهيب، ومع ذلك يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل.

ـ هل صحيح أنه أراد ألّا تكلميني على إيڤان؟ هل قال لك: «لا تحدثيه في هذا الأمر»؟

ـ ذلك بعينه هو ما قاله لي: «لا تحدثيه في هذا الأمر!» هو خائف منك أنت بخاصة. ذلك أن هناك سراً. وهو نفسه يعترف بذلك. هناك سر يا إيليوشا، يا عزيزي، فامضِ إليه، وحاول أن تعرف الحقيقة: ما هو ذلك السر الذي بينهما؟

وأضافت غروشنكا تقول متوسّلة:

ـ ثم عد إليَّ وأخبرني. خلصني من قلقي وهمي، أنا المخلوقة التي تستحق الرثاء، فعسى أن أعرف مصيري الملعون! من أجل هذا استدعيتك.

ـ هل تعتقدين أن هذا السر يتعلق بك؟ لو كان كذلك، لما كلمك فيه أبداً.

ـ هل أدري؟ لعله أراد أن يحدثني في الأمر، ولكنه لم يجرؤ، فاكتفى بالتنبيه. لقد أسمعني أن هناك سراً ولكنه لم يوضح.

ـ ما هو افتراضك؟

ـ ماذا أفترض؟ أفترض أن الأمر أمر ضياعي أنا. لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعي، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة. إن كاتيا هي التي دبَّرت كل شيء. لقد أطرى مزايا هذه المرأة، قال: «هي كذا وكذا». معنى ذلك أنني لست مثلها. إنه يمهد. إنه يحذرني. ذلك أنه قرر أن يتركني. هذا هو السر كله. لقد تآمروا هم الثلاثة: ميتيا وكاتيا وإيڤان فيودوروفتش. اسمع يا إيليوشا: ثمة سؤال أريد أن أطرحه عليك منذ مدة طويلة: لقد أعلن لي فجأة في الأسبوع الماضي أن إيڤان يحب كاترينا إيڤانوفنا. فهل هذا صحيح؟ أجبني بصدق وإخلاص، دون مراعاة.

ـ لا أكذب عليك. إن إيڤان لا يحب كاترينا إيڤانوفنا. ذلك رأيي أنا على الأقل.

ـ هذا ما قدَّرته أنا أيضاً. لقد كذب عليَّ. يا له من وقح! واضح أنه كذب عليَّ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة، ليتمكن بعد ذلك من أن يلقي الذنب كله عليَّ. إنه لغبي. إنه لا يجيد حتى التمثيل. إنه بطبيعته صريح مسرف في الصراحة... ولكنني سألقنه درساً، سألقنه درساً! لقد صرخ يقول لي: «أنت تؤمنين بأنني قاتل». صرخ يقول هذا الكلام لي أنا. إنه يأخذ هذا عليَّ أنا. حسناً. أما كاتيا تلك، فويل لها. سأعرف كيف «أدبرها» أمام المحكمة. سوف أروي لهم قصة صغيرة... سوف أقول كل ما أعرف!

وأخذت غروشنكا تبكي بكاءً مراً.

ـ إليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين. قال إيليوشا وهو ينهض. أولاً: هو يحبك، يحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم، ولا يحب أحداً غيرك على الإطلاق، تستطيعين أن تصدقيني. أنا أعرف هذا. أنا على يقين من هذا. ثانياً: أحب أن تعرفي أنني لن أحاول أن أستخرج منه سرَّه. وإذا أفضى إليّ به اليوم من تلقاء نفسه، فسوف أنبِّهه فوراً إلى أنني قد وعدتك بإبلاغك هذا السر. وسوف أعود إليك في هذا اليوم نفسه، فأقول لك كل ما أكون قد علمته. على أنني... يخيل إليّ أنه لم يعد الأمر يتعلق بكاترينا إيڤانوفنا، فهذا السر يتعلق بشيء آخر غير هذا تماماً. وأعتقد أنني على حق. لا يبدو الأمر أمر كاترينا إيڤانوفنا. هذا هو تقديري. أما الآن فإلى اللقاء!

صافحها إيليوشا. بكت غروشنكا مجدداً. أدرك أنها لم تصدِّق تعزياته إلا قليلاً جداً. ولكن الذي كان جيداً هنا، هو أنها استطاعت أن تخفف من حزنها، وأن تتكلم، لقد أسف لاضطراره إلى تركها في هذه الحالة. ولكنه كان على عجلة من أمره. لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها في ذلك اليوم.

# II

## القدم الصغيرة المريضة

كان أول الأمور لديه الذهاب إلى بيت السيدة خوخلاكوفا، فأسرع الخطى كيلا يصل متأخراً إلى ميتيا. كانت السيدة خوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع: لقد تورمت إحدى قدميها لسبب مجهول، فهي تقضي أيامها في مقصورتها متمددةً على كنبةٍ، مرتديةً غلالةً جذابة لكنها محتشمة، لأنها لم تضطر إلى ملازمة فراشها. كان إيليوشا قد لاحظ، في يوم من الأيام، بابتسامة مسلية، أن السيدة خوخلاكوفا، رغم مرضها، قد أخذت تتغندر منذ زمن وتتزين. وقد شوهد في عنقها عقد جميل وأشرطة وقمصان مطرزة. وتساءل إيليوشا عن سبب عنايتها هذه بملابسها، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه، ويعتبرها عبثاً لا طائل فيه. والواقع أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت، منذ شهرين، تستقبل بين من تستقبل من معارف وأصحاب، ذلك الموظف الشاب برخوتين. وحين وصل إيليوشا الذي لم يزر السيدة خوخلاكوفا منذ أربعة أيام، إلى منزلها الآن، أسرع يتجه إلى غرفة ليزا كونها هي التي كانت معنية بهذا الأمر الهام الذي أشرنا إليه، ولأنها هي من أوفدت إليه خادمتها بالأمس ترجو أن يجيء إليها بأقصى سرعةٍ ممكنة، «لأمر خطير جداً»، وذلك

ما عزز رغبة أليوشا في المجيء. ولكن حين ذهبت الخادمة إلى ليزا لتبلغها وصول إيليوشا، علمت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفةً، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها «دقيقة واحدة». فرأى إيليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلّا فمن الممكن أن ترسل إليه من يستدعيه من عند ليزا أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا. كانت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفةً، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها «دقيقة واحدة». فرأى إيليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلّا فمن الممكن أن ترسل إليه من يستدعيه من عند ليزا أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا. كانت السيدة خوخلاكوفا متمددة على كنبتها، مهتمةً بحسن ملبسها، وكان واضحاً أنها مضطربة. فلما دخل عليها إيليوشا استقبلته بصيحات الحماسة.

ـ منذ قرون، حقاً منذ قرون لم أرك! أسبوع كامل، كيف يمكن هذا؟ مع أنك جئت منذ أربعة أيام، يوم الأربعاء. هل أنت ذاهب إلى ليزا؟ لا شك أنك كنت تريد أن تذهب إليها سائراً على رؤوس الأصابع حتى لا أسمعك. يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيودوروفتش، ليتك تعلم مدى القلق الذي تسبِّبه لي حالة ابنتي! ولكنني سأكلمك على هذا الأمر فيما بعد. إن تلك المسألة تشغل بالي أكثر من كل المسائل، ولكن فيما بعد، فيما بعد! عزيزي ألكسي فيودوروفتش، إنني أعهد إليك بابنتي ليزا. إنني منذ موت الراهب المرشد زوسّيما، رحمه الله (وهنا رسمت السيدة إشارة الصليب)، أعتبرك ناسكاً، رغم أنك ترتدي ثوبك الجديد. أين عثرت على خياط بارع؟ ولكن لندع هذا الآن، ليس هذا أهم شيء، سنتحدث عنه فيما بعد. سامحني إذا ناديتك أحياناً باسم إيليوشا فقط. أنا امرأة عجوز، فكل شيء جائز لي، قالت المرأة العجوز وهي تبتسم في دلال. ولكن لندع هذا الآن. سنتحدث عنه فيما بعد. إن الشيء الأساسي هو أن لا أنسى المسألة الهامة. ذكرني بذلك عند

الضرورة، فإذا ثرثرتُ وخرجت عن الموضوع، فعليك أن تقاطعني سائلاً: «والأمر الأساسي؟». ولكن كيف لي أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسي! منذ نقضت ليزا العهد الذي قطعته لك ـ ولم يكن ذلك إلّا لغو طفلة يا ألكسي فيودوروفتش، أعني عهدها بأن تتزوجك في يوم من الأيام ـ فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن إلّا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها. الحمد لله أنها أصبحت قادرة على أن تمشي الآن! إن ذلك الطبيب الجديد الذي استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذي سوف يحاكم غداً!... ولكن فيمَ الكلام على الغد! إنني متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت خوفاً. ذلك من الفضول خاصة. المهم أن هذا الطبيب قد جاء إلينا أمس وعاين ليزا... ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً. ولكن لا، إنني أبتعد عن المسألة مرة أخرى... لقد فقدت تسلسل أفكاري تماماً كما ترى. ذلك أنني متعجلة. لماذا أتعجل؟ لست أدري. مخيف كم أصبحت لا أعرف شيئاً الآن. لقد اختلط كل شيء في ذهني أخيراً، حتى صار أشبه بغيوم. إنني أخشى أن تفر من لحظة إلى أخرى ضجراً مما أقول، مع أنني لم أكد أراك. آه يا إلهي! ولكن ماذا نفعل هنا، في البدء يجب أن نشرب القهوة. يا يوليا، يا غرافيرا، هاتوا القهوة.

أسرع إيليوشا يشكرها قائلاً إنه قد شرب قهوة منذ قليل.

ـ عند من؟

ـ عند أغرافينا ألكسندروفنا.

ـ عند... عند تلك المرأة؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً. لست أدري على كل حال. يقال إنها أصبحت أشبه بقديسة، وإن جاء هذا متأخراً في رأيي. كان ينبغي أن يخطر ببالها ذلك من قبل، يوم كان ذلك ضرورياً. أما الآن، فما فائدة قداستها؟ اسكت، اسكت يا ألكسي فيودوروفتش، ثمة أشياء كثيرة أريد أن

أقولها لك، أشياء تبلغ من الكثرة أنني أخشى أن أفقد تسلسل أفكاري. وتلك المحاكمة أيضاً... سوف أحضرها مهما كلف الأمر. إنني أستعد لحضورها، سوف يأخذونني إلى المحكمة على كرسي. ثم إنني أستطيع أن أبقى جالسة. وسيكون بقربي أناس يسندونني. لا شك أنك تعلم أنني استدعيت إلى الشهادة. ماذا أقول لهم، ماذا أقول لهم؟ إنني لا أعرف أبداً ما أستطيع قوله. سوف يكون عليَّ أن أقسم، أليس كذلك؟ قل لي؟

ـ نعم، ولكنني أعتقد أنك في حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة.

ـ أستطيع أن أبقى جالسة. آه، ولكنك تُفقدني تسلسل أفكاري. تلك المحاكمة، تلك الجريمة البشعة، ثم ذلك الرحيل إلى سيبيريا التي سيذهبون إليها جميعاً. سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك! ما أسرع ما تمضي الحياة! كل شيء يجري، كل شيء يتغير، ثم لا يبقى أخيراً شيء، لا يبقى إلّا عجائز يتربص بهن الموت. ليكن، ليكن. إنني أشعر بإعياء. إن كاتيا هذه ـ هذه الإنسانة الفتانة ـ قد حطمت جميع آمالي: إنها تنوي الآن أن تلحق بأحد أخويك إلى سيبيريا. وسيلحق بها الثاني إلى هناك، فيعيش في مدينة مجاورة. وبذلك يضرب بعضهم بعضاً. وهذا يفقدني صوابي، أؤكد لك. ولا سيما بسبب ما نشرته الصحف عن هذه القضية. إن جرائد سان بطرسبورغ وموسكو حافلة بأخبارها منذ أسابيع. تخيل أنهم كتبوا في هذه الصحف عني أنا أيضاً، زاعمين أنني كنت «الصديقة العزيزة جداً» لأخيك! إنني أشمئز من استعمال الألفاظ النابية. هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا، قل لي، هل تستطيع أن تتصوره؟

ـ مستحيل. أين قرأت هذا الكلام؟

ـ سأريك فوراً. لقد نشر في جريدة «الشائعات» التي تصدر في سان بطرسبورغ، وقد وصلتني الجريدة أمس، فأسرعت أقرأها. إن هذه الجريدة بدأت صدورها في هذا السنة وأنا أحب الأقاويل كثيراً، لذلك

اشتركت في الجريدة. هل كان في وسعي أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولني أنا؟ إقرأ، إقرأ الكلام هنا، في هذا العمود.

قالت السيدة خوخلاكوفا ذلك وناولت إيليوشا ورقة جريدة كانت قد خبأتها تحت وسادتها.

كانت السيدة خوخلاكوفا في حالة إحباط شديد، وكانت محطمة كلياً، وربما أصبح كل شيء مدعوكاً في رأسها كطابة من ورق. إن الشائعة التي نشرت في الجريدة المذكورة كانت تعريفية ولا بد أن تترك في نفسها أثراً أليماً. ومن حسن حظها، مع ذلك، أنها كانت في تلك اللحظة عاجزةً عن تركيز فكرها على موضوع واحد. لذلك كانت تستطيع أن تنسى تلك الجريدة بعد دقيقة، وأن تنتقل إلى موضوعات أخرى. ولا شك أن إيليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نُشر في صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء التي تفتق عنها خيال بعضهم والتي لا تمتّ إلى الواقع بصلة، إلى جانب المعلومات الصحيحة، عن أخيه، وعن آل كارامازوف جملةً، وعنه هو أيضاً. من ذلك مثلاً ما نشرته إحدى الصحف من أن إيليوشا قد بلغ من الذعر عقب الجريمة الرهيبة التي اقترفها أخوه أنه اعتصم بأحد الأديرة، ليعيش حياة الرهبان. وقد أكدت جريدة أخرى هذا النبأ، ولكنها أضافت إليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع راهبه المرشد زوسّيما، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً. أما الشائعة التي نشرت في جريدة «الشائعات» فقد كان عنوانها ما يلي: «مراسلنا في سكوتوبريجيو نيفسك يكتب إلينا عن قضية كارامازوف» (ذلك هو فعلاً اسم مدينتنا الصغيرة التي لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن). إن المقالة قصيرة، ولم تُذكر فيها السيدة خوخلاكوفا اسماً. ولم يذكر على وجه العموم جميع أسماء الأشخاص، واقتُصر على الإشارة إلى أن المجرم الذي أحدثت جريمته ضجة كبرى،

والذي سيحاكم عما قريب، هو ضابط محال متقاعد برتبة كابتن، متغطرس كسول عنيف رجعي التفكير، هذا إلى أنه زير نساء مستهتر، كان له بعض التأثير في «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة»، فمن هؤلاء السيدات «أرملة» متصابية وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها ابنة راشدة، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنيء أنها عرضت عليه قبل حدوث الجريمة بساعتين في أكثر تقدير، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل، ليوافق على اختطافها والسفر معها إلى مناجم الذهب فوراً. ولكن الشقي آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل، أملاً بألّا تُكشف جريمته، بدلاً من أن يرحل إلى سيبيريا في صحبة السيدة التي تنعم بمفاتن سن الأربعين. واختُتمت المقالة على نحو ما يجب أن تختتم بأشد استنكار لعدم أخلاقية الجريمة والعبودية القديمة. قرأ إيليوشا المقالة باهتمام واستطلاع، ثم طوى ورقة الجريدة وردَّها إلى السيدة خوخلاكوفا.

ـ هذا عني أنا، عنّي أنا، أليس كذلك؟ تمتمت تقول من جديد. لا شك أبداً في أنه عني أنا. لقد نصحته فعلاً، قبل وقوع الجريمة بساعة، أن يذهب إلى مناجم الذهب. فانظر ماذا خرج من ذلك: «مفاتن سن الأربعين»! هل كان ذلك هدفي؟ هل خطر ببالي هذا؟ أسأل الله أن يسامحه على هذه التخرصات مثلما أسامحه أنا. ذلك أن كاتب هذه المقالة هو... لا بد أنك تعرف من هو... إنه صديقك راكيتين.

ـ هذا جائز جداً. قال إيليوشا. ولكنني كنت أجهل ذلك.

ـ إنه هو، إنه هو، ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب أنني طردته من منزلي... أظن أنك علمت بهذا الحادث.

ـ أعرف أنك طلبت منه ألّا يتردد إلى منزلك. أما السبب الذي دفعك إلى هذا القرار، فأعترف أنني لم أعلم به. لم أعلم به منك على الأقل.

ـ إذن علمت به منه هو. أهو حاقد عليَّ كثيراً، أهو غاضب عليّ جداً؟

ـ نعم، هو غاضب، ولكن غضبه يشمل جميع الناس. أما السبب الذي من أجله أغلقت بابك دونه، فإنه لم يذكره لي. وأنا على وجه العموم لا أراه إلّا نادراً. ليس هو صديقي.

ـ حسناً. سأقول لك الحقيقة كلها. لا بأس. ثم إنني نادمة على شيء في هذه المسألة، أن هناك عنصراً صغيراً أنا مسؤولة عنه. هو أمر بسيط، بسيط جداً، حتى إن وجد، فهو غير موجود. اسمع يا بني العزيز (هنا بشَّ وجه السيدة خوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وإن تكن لا تفهم كأنها لغز)... اسمع... إنني أشتبه في أنه... سامحني يا إيليوشا، فأنا أخاطبك كما تخاطب أمّ ابنها... أقصد... لا... إن عكس هذا هو ما أردت أن أقوله... إنني أخاطبك كما يخاطَب كاهن... إذ لا مجال للحديث هنا عن أم... لا قيمة لهذا على كل حال... المهم أنني أكلمك كما كنت أكلم الراهب زوسّيما عندما أعترف. ذلك هو أفضل تشبيه هنا. ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك؟... فاسمع إذن: إن هذا الشاب الشقي، صاحبك راكيتين... أوه... يا إلهي! إنني لا أستطيع أن أغضب عليه حقاً! أنا مستاءة كثيراً بل وغاضبة جداً... ولكن على ضعف... الخلاصة: إن هذا الشاب الطائش قد أولع بي... تصور! أنا لم ألاحظ ذلك إلّا فيما بعد. في البداية، أي منذ شهر، أصبح يكثر من زيارتي، وأصبح يجيء إليَّ كل يوم، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل. لم أشتبه في شيء. لم يخطر ببالي شيء. ولكني بدأت ألاحظ قبساً من نور، أنتبه إلى بعض الأشياء مدهوشة. أنت تعرف أنني أصبحت منذ شهرين أستقبل في كثير من الأحيان ذلك الشاب الطيب الرائع، بيوتر إيلتش برخوتين، الموظف في مدينتنا. لقد التقيته أنت عندي مراراً على كل حال. إنه شاب جاد، لائق، ألا ترى ذلك؟ إنه يجيء إلى بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام، ولست أجد أي سوء في أن يأتي يومياً على كل

حال. هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام. وأنت لا تجهل يا إيليوشا أنني أحب الشباب. أنا أحب الشباب المتواضعين الذين يتمتعون بمواهب عظيمة، من أمثالك أنت يا إيليوشا. إن لهذا الشاب ذكاءً يجعله مساوياً لرجل دولة. وما أجمل حديثه! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا. نعم، نعم، سوف أتوسط له حتماً. سيكون في المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول. وقد أنقذ حياتي تقريباً في ذلك اليوم الرهيب. أنقذني من موتٍ محقق حين جاء إليَّ في الليل. أما صديقك راكيتين، فإنه يجيء دائماً بحذائه الضخم يجرّه على السجاد جراً. الخلاصة: أخذ راكيتين يسمعني تلميحات مستخفية في أول الأمر، وفي ذات يوم شدّ على يدي بقوة حين انصرف. فما إن شدَّ على يدي حتى شعرت بألم في ساقي. وقد التقى عندي بيوتر إيلتش، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب. واقتصرت أنا على مراقبتهما إذ كان يسليني أن يوجدا معاً. ذات مرة وجدت وحيدة فجأة، أي كنت نائمة، وحدي هنا، إذن أنا وحدي نائمة هنا، إذا بميشيل إيڤانوفتش يجيئني حاملاً قصيدة صغيرة أوحت إليه بها ساقي المريضة. انتظر. سأنشدك الأبيات:

هذه الساق الصغيرة، آه، هذه الساق الصغيرة

قيل لي إنها مريضة!

أو كيف؟. يصعب عليَّ أن أتذكر الأبيات. لا بأس على كل حال. لقد خبأت القصيدة في مكان قريب جداً. سوف أطلعك عليها فيما بعد. ولكنها أشعار رائعة، حقاً. هي لا تتحدث عن قدمي فحسب، بل تتحدث عن أكثر من ذلك، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً. يؤسفني أنني لا أتذكر الآن تلك الفكرة. أستطيع أن أُجمل رأيي فأقول إن هذه القصيدة تستحق أن تحفظ في ألبوم. وقد شكرته طبعاً، فسُرَّ بذلك كثيراً. وفي تلك اللحظة عينها دخل بيوتر إيلتش، فسرعان ما تجهم وجه ميشيل يافانوفتش. أدركت أن وصول بيوتر

إيلتش قد أفسد عليه مشاريعه. ذلك أنه كان ينوي، ولا شك، أن يقول لي شيئاً بعد قراءة القصيدة. لقد أحسست أنا بذلك، ولكن ها هو بيوتر إيلتش يدخل في تلك اللحظة نفسها. أطلعت بيوتر إيلتش على القصيدة طبعاً، ولكن دون أن أقول له من الذي نظمها. لكنني على ثقة، أنه سرعان ما عرف الحقيقة، وإن كان ينكر ذلك حتى الآن. هو يدعي أنه لم يحزر شيئاً. ولكنه يزعم ذلك عمداً. انفجر بيوتر إيلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة، ثم نقدها نقداً لاذعاً، فقال: «هي أشعار تافهة، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت في أكثر تقدير». لقد ثار على رداءة القصيدة القصيرة. وهذا صاحبك يستبد به غضب شديد، بدلاً من أن يضحك. قلت لنفسي: «آه... يا إلهي! لسوف يتضاربان!». قال راكيتين: «أنا من نظم القصيدة. لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح، لأنني أرى أنه لا يليق برجل أن يضيّع وقته في النظم. ولكن قصائدي جميلة مع ذلك. إن في النية إقامة نصب تذكاري لبوشكين الذي تغنى بجمال أقدام النساء. وإن لقصائدي أنا اتجاهاً أخلاقياً. أما أنت (قال ذلك مخاطباً بيوتر إيلتش)، فما أنت إلّا رجل رجعي عاجز عن فهم الصبوات العميقة للإنسانية. لقد بقيت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن. لقد مرَّ التقدم بقربك دون أن يلامسك، لأنك لست إلّا موظفاً مرتشياً!» أخذت أصرخ أنا أيضاً، متوسلة إليهما أن يسكتا ويهدأا. وليس بيوتر إيلتش هذا بالرجل الهيَّاب، هل تعلم ذلك؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة، فبعد أن أصغى إلى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً: «كنت أجهل أنك أنت من نظم هذه الأبيات، ولو عرفت ذلك لما قلت هذا الكلام، بل لأطريت الأبيات. يقال إن الشعراء شديدو الانفعال سريعو التأذي...». الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة. لقد شرح لي هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً، لأنني كنت ظننت في أول الأمر أنه تكلم جاداً

لا هازلاً. ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعةً مثلي الآن أمامك، وكنت أتساءل هل يليق بي أو لا يليق أن أطرد ميشيل إيڤانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ في منزلي وأن يهين ضيفي. فهل تصدّق ما سأقوله لك؟ كنت مستلقية وقد أغمضت عيني وأخذت أفكر: «أمن اللياقة أن أطرده أم لا؟ هل أصرخ طالبةً إليه الانصراف أم لا؟». كان هناك صوت يهيب بي: «اصرخي!»، وكان هناك صوت آخر ينصحني بألّا أصرخ. فما إن سمعت هذا الصوت الثاني الذي ينصحني بألّا أصرخ حتى أخذت أصرخ، وسقطت مغشياً عليَّ. وعمّت الفوضى البيت. ونهضت بعد لحظات فقلت لميشيل إيڤانوفتش: «يؤسفني أن أقول لك إنني لا أحب أن أراك بعد اليوم في منزلي.». هكذا طردته من منزلي. آه يا ألكسي فيودوروفتش، إني أعرف أنني أسأت التصرف. ولقد كذبت من جهة أخرى، لأنني لم أكن غاضبة منه في الحقيقة. ولكنني أحسست أن تدخُّلي هذا سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز، فاستسلمت لإغراء ما في ذلك المشهد من جمال. لكن وضعي كان طبيعياً، فقد بدأت أبكي، وظللت أبكي عدة أيام. ومع ذلك كنت قد نسيت بعد الغداء كل شيء. وقد انقطع راكيتين عن زيارتي منذ أسبوعين، فكنت أتساءل: «هل يُعقل حقاً ألّا يأتي بعد الآن أبداً؟». هذا ما قلته يوم أمس، حين جاؤوني عند المساء بجريدة «الشائعات» هذه. قرأت المقالة وأوشكت أن أنقلب على ظهري. من يا ترى قد كتب هذه المقالة هو من كتبها، لقد عاد إلى مسكنه وكتب هذا، ثم أرسلها إلى الجريدة التي سارعت تنشرها. لأن هذا قد حدث منذ أسبوعين تماماً. ولكن يا إيليوشا، ما أقوله هو مخيف، وأنا لا أقول دائماً ما يجب أن أقول. أليس كذلك؟ آه، الأمور تعبر عن نفسها.

ـ أنا اليوم مستعجل جداً لأصل إلى عند أخي في الساعة المحددة. قال أليوشا.

ـ صحيح، صحيح. لقد ذكّرتني بالأمر. قل لي: ما هو المسّ؟

ـ أي مسّ؟ سألها إيليوشا مدهوشاً.

ـ المسّ القضائي. المسّ الذي من أجله يسامح كل شيء. فمهما يقترف المرء من جرم، يسامح على الفور.

ـ لكن عمّ تتكلمين؟

ـ إليك الأمر: إن كاتيا هذه... آه، ما أروعها من إنسانة! ما أجملها، ولكنني لم أتمكن من معرفة أيهما تحب. لقد كانت عندي منذ مدة، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً. جهد ضائع، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني وضعاً سخيفاً جداً. إنها لا تكلمني إلّا عن صحتي، ولا شيء غير ذلك. لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت لنفسي: «لا بأس، لا بأس، أسأل الله أن يحفظك يا عزيزتي!...» آه، نعم... كنت أسألك عن المس. وذلك بمناسبة وصول الطبيب. هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيباً جديداً؟ لا بد أنك تعرف ذلك، فهو واحد من أطباء الأمراض العقلية، وأنت الذي استقدمته... أقصد... لا أنت، بل كاتيا... كاتيا أيضاً! إليك المسألة: هذا رجل ليس مجنوناً، ولكنه يُصاب فجأة بمسّ. لقد احتفظ بوعيه، وهو يعلم ماذا يفعل، ولكنه ممسوس. لعل هذا ما جرى في حالة ديمتري فيودوروفتش... لا بد أن مساً قد ألم به. هذه نظرية حديثة اكتُشفت منذ إعادة تنظيم محاكمنا. إن إعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت إلينا جميعاً، ولولاها لم نعرف المسّ. لقد زارني الطبيب الجديد، وسألني عما حدث في تلك الأمسية، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك: كان يريد أن أصف له الحالة التي كان عليها أخوك. حقاً لقد كان أخوك في حالة مس واضحة. جاء إليَّ صارخاً: «أريد مالاً، أريد مالاً، أنا في حاجة إلى ثلاثة آلاف روبل، فأعطني ثلاثة آلاف روبل»؛ ثم ذهب، وأصبح قاتلاً. كان يقول: «لا أريد أن أقتل، لا أريد أن أقتل». ولكنه قتل. فلهذا السبب سوف يسامحونه، لأنه قاوم المسّ، ثم قتل بعد ذلك.

قاطعها إيليوشا بلهجة فيها شيء من الازعاج ولكنه لم يقتل.

وأحسّ بتبرُّم وقلق يستوليان عليه شيئاً فشيئاً.

ـ أعرف أنه لم يقتل. إن العجوز غريغوري هو الذي قتل. قالت السيدة خوخلاكوفا.

ـ كيف؟ صاح إيليوشا.

ـ نعم، نعم، هو غريغوري. فبعد أن صرعه ديمتري فيودوروفتش، بقي مُغمى عليه فترة من الوقت، ثم وقف فرأى الباب مفتوحاً، فأسرع ليقتل فيودور بافلوفتش.

ـ ولكن لماذا، لماذا؟

ـ انتابه مسٌّ. لقد ضربه ديمتري فيودوروفتش على رأسه، فلما أفاق من غيبوبته، كان المسُّ قد استحوذ على عقله، فقتل. ولئن كان ينكر أنه القاتل، فإن ذلك لا يبرهن على شيء، لأن من الجائز جداً أنه لم يعد يتذكر. ولكن صدقني إذا قلت لك إن من الأفضل، من الأفضل كثيراً أن يكون ديمتري فيودوروفتش هو الذي ارتكب الجريمة. إن القاتل هو ديمتري فيودوروفتش في الواقع، رغم أنني أؤكد أنه غريغوري، وذلك أفضل، أفضل كثيراً. لا تسئ فهمي. أنا لا أدّعي أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه. لست أثني على قتل الابن أباه. هيهات أن أفعل ذلك. بالعكس: أنا أؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم. ولكن من الأفضل أن يكون هو القاتل. ولن تكون في حاجة إلى أن تشكو وتستنكر، ما دام قد قتل بغير وعي. أقصد أنه كان واعياً، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل. لا، لا، يجب أن يسامحوه. أنا أؤيد براءته. لسوف تكون تبرئته مثلاً إنسانياً جميلاً، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات إعادة تنظيم القضاء. كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذي يقال إنه وجد منذ زمن. فما

إن علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بأنني أردت استدعاءك فوراً. وفي المستقبل، متى بُرِّىء أخوك، سيجب عليه حتماً أن يأتي إلى الغداء في منزلي فور خروجه من المحكمة. سأدعو جميع معارفي وأصحابي، وسنشرب نخب إعادة تنظيم القضاء. لا أعتقد أن أخاك خطر. ثم إنني سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين كبيراً، فإذا حدث شيء كان في الامكان إخراجه من المنزل. وبعد ذلك يمكنه أن يستقر في مدينة أخرى قاضيَ صلح، أو أن يُعيَّن لوظائف من هذا القبيل، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون من أفضل القضاة. وأي إنسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من المسّ. إننا جميعاً مصابون بالمس، أنت وأنا وسائر الناس. ليست تعوزنا الأمثلة على ذلك: هذا رجل يبدو في الظاهر هادئاً ويغني أغنية عاطفية. وفيما هو كذلك إذا بشيء من الأشياء لا يرضيه، فيُخرج مسدساً ويقتل أول قادم ثم يشفى. لقد قرأت في الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة. إن الأطباء في أيامنا هذه يؤكدون دائماً. لكن تصور أن ابنتي ليزا مصابة بمسّ. أمس اضطرتني إلى البكاء، وأمس الأول أيضاً. واليوم إنما اكتشفت الحقيقة، وهي أنها تحت تأثير المس. آه... ليتك تعلم كم تسبب لي ليزا من عناء! أعتقد أنها تفقد عقلها؟ تُرى لماذا استدعتك؟ أهي التي استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك؟

ـ بلى هي استدعتني، وأنا ذاهب إليها، قال إيليوشا وهو ينهض.

ـ ولكن يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيودوروفتش، الآن وصلنا إلى الأمر الأساسي. صاحت السيدة خوخلاكوفا وهي تبكي شهد الله أنني صادقة في إيكال ليزا إليك. أن تستدعيك ليزا على غير علم أمها،

فليس هذا بالأمر الخطير جداً. وما كان لي أن أكل ابنتي بمثل هذه الطمأنينة إلى أخيك إيڤان فيودوروفتش، سامحني إذا قلت هذا، رغم أنني أعتبره، حتى اليوم، شاباً من ذوي الفروسية. هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا، من دون علمي أنا؟

ـ ماذا؟ كيف؟ متى زارها؟ قال إيليوشا مدهوشاً.

ومع ذلك لم يجلس، بل استمع إلى شروح السيدة خوخلاكوفا واقفاً.

ـ سأقص عليك كل شيء. ومن أجل هذا استدعيتك فيما أظن. لأنني أصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك. إليك الأمر: لقد زارني إيڤان فيودوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو. في المرة الأولى، جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر. وأما في المرة الثانية، وهي ليست حديثة، كانت كاتيا عندي، فعلم بذلك، فجاء هو لأنه علم أنها عندي. لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء إلى منزلي كثيراً، لأنني أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة... بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعة... ولكنني أعلم أنه عاد إلى منزلي لا ليزورني أنا، بل ليزور ليزا. حدث ذلك منذ ستة أيام. حضر إليها، ومكث خمس دقائق، ثم انصرف. لم أعرف بهذا إلّا بعد ثلاثة أيام. علمت من غرافيرا، فدهشت. أسرعتُ أنادي ليزا، ولكنها ضحكت. وقالت تشرح لي: «كان يظن يا ماما أنك نائمة، فجاء إليَّ يسأل عن صحتك». والأرجح أن هذا صحيح. ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لي ليزا من قلق! آه... يا إلهي! تصوّر أنها ذات ليلة ـ حدث هذا منذ أربعة أيام، عقب زيارتك الأخيرة ـ قد انتابتها نوبة عصبية: فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستيريا. لماذا لا أُصاب أنا بنوبات عصبية؟ بإمكاني أنا أيضاً أن أنعم بهذا الترف. وتكرر ذلك في الغد، وفي اليوم الذي تلاه؛ وأمس حدث فصل جديد، ومساءً بدأت تظهر عليها أعراض المس. صرخت تقول لي: «أنا أمقت إيڤان فيودوروفتش. يجب ألّا تستقبليه

يا ماما، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا!». ذُهلت، وأجبتها بأن من المستحيل أن نعامل بهذه الطريقة شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة، وشقيٌّ فوق ذلك. لأن هذه القصص كلها هي شقاء لا سعادة، ألا ترى هذا الرأي؟ فلم يكن من ابنتي إلّا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها إهانة جارحة لي. ومع ذلك قلت لنفسي: «لا بأس، ما دمت قد استطعت أن أفرحها، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن». وكنت أنوي أنا نفسي، من جـهة أخرى، أن أطرد إيڤان فيودوروفتش بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتي بدون إذني. حتى لقد كنت أودّ أن يعطيني تفسيراً لذلك. ولكن ها هي ليزا تثور على يوليا بشكل عنيف في هذا الصباح منذ استيقظت، حتى لقد صفعتها، هل تتصور هذا؟ أليس هذا شذوذاً غريباً؟ لاحظ أنني أنا لا أنادي خدمي أبداً بصيغة المفرد. وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق يوليا وتقبّل قدميها. وفي مقابل ذلك أرسلت تبلغني أنها لن تأتي إلى منزلي، لن تجيء إليَّ أبداً، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا؟ فلما جررت نفسي إلى غرفتها يائسة، ارتمت عليَّ وغمرتني بقبلاتها وهي تبكي؛ وفيما هي تقبلني دفعتني إلى خارج الغرفة دون أن تقول كلمة واحدة، فلم أعرف في نهاية الأمر شيئاً. إنني أضع الآن جميع آمالي فيك، يا عزيزي ألكسي فيودوروفتش، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أتوسل إليك أن تذهب إلى ليزا، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها. ثم عُدْ إليَّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها، ولتقص عليَّ كل شيء، أنا أمها. ذلك أنني سأموت، نعم سأموت إذا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً، وإلّا فسأهرب من هذا المنزل تاركةً كل شيء. لقد نفدت قدرتي على الاحتمال، وخارت قوتي. صحيح أن صبري واسع، ولكن لهذا الصبر حدوداً، يمكن أن تقع أمور فظيعة. آه، يا إلهي، بيوتر إيلتش. صاحت السيدة خوخلاكوفا، عندما لمحت الموظف برخوتين داخلاً

إلى الغرفة:

ـ هذا بيوتر إيلتش يصل أخيراً! لقد تأخرت عن المجيء. هيه! اجلس، تكلم، قرر مصيري. ماذا قال المحامي؟ إلى أين تذهب يا ألكسي فيودوروفتش؟

ـ إلى ليزا.

ـ نعم، صحيح! لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك، أليس كذلك؟ إنها مسألة مصير، نعم مصير!

ـ بالطبع لن أنسى، هذا إذا استطعت أن... دمدم إيليوشا وهو يستعجل الخروج.

ـ لا، لا، عليك أن تعود إليَّ حتماً. وليس إذا استطعت... وإلّا مت! صاحت السيدة خوخلاكوفا، ولكن إيليوشا كان قد خرج.

# III

## الشيطان الصغير

عندما دخل إلى غرفة ليزا وجدها مستلقية على الكرسي القديم الذي كانوا ينقلونها عليه حين لم تكن تستطيع أن تمشي. لم تقم بأيّ بحركة لتنهض إلى لقائه، وإنما حدقت إليه بنظرة ثاقبة حادة. كان نظرها ملتهباً قليلاً، وكان وجهها الشاحب يبدو مصفراً. دُهش إيليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها خلال ثلاثة أيام. ولاحظ أنها نحلت بعض الشيء. لم يمدَّ إليها يده، بل اقتصر على ملامسة أصابعها الطويلة التي كانت جامدةً على ثوبها. ثم جلس إلى جانبها دون أن يقول كلمة.

ـ أعرف أنك تستعجل الذهاب إلى السجن. قالت ليزا بصوت جاف. لقد احتجزتك ماما ساعتين، تكلمك عني وعن يوليا.

ـ كيف عرفت هذا؟ سألها إيليوشا.

ـ تنصت على الباب. أجابته. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ أريد أن أتجسس، سأتجسس، لست أرى في هذا أي بأس، ولن أعتذر.

ـ ثمة ما يعكر مزاجك؟

ـ بالعكس، إنني مسرورة جداً. لقد قلت لنفسي، للمرة الثلاثين، إنني قد

أُلهمت حقاً حين تراجعت عن وعدي ورفضت أن أصبح زوجتك. أنت زوج لا يطاق. افترض تزوجتك، ثم كلفتك أن تحمل رسالة إلى عشيقي: لسوف تقوم بهذه المهمة، ولن تقتصر على حمل الرسالة إليه بل ستجيئني بالرد أيضاً. وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك ذلك.

وأخذت ليزا تضحك.

ـ إن فيك شيئاً شريراً وبسيطاً في آن. قال إيليوشا مبتسماً.

ـ ما هو بسيط هو أني لا أخجل منك. لا بل، ليس فقط لا أخجل منك، لكن لا أريد أن أخجل منك أنت بالذات. قل لي يا إيليوشا: لماذا أنا لا أحترمك؟ إنني أحبك كثيراً، ولكنني لا أحترمك. وإلّا لما استطعت أن أقول لك هذا في وجهك دون أن أخجل، أليس كذلك؟

ـ صحيح.

ـ هل تعتقد أنني لا أشعر بالخجل أمامك؟

ـ لا، لا أعتقد ذلك.

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى. كانت تتكلم بسرعة، بلهجة سريعة.

ـ أرسلت سكاكر إلى أخيك ديمتري فيودوروفتش في سجنه. إيليوشا، ليتك تعلم كم أنت لطيف! سوف أحبك كثيراً لأنني أبحت لنفسي أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة.

ـ لماذا استدعيتني اليوم يا ليزا؟

ـ أردت أن أنقل إليك رغبة. إنني أتمنى أن أعذَّب. أتمنى أن يتزوجني أحد، وأن يعذب روحي بعد ذلك: يخونني ويهجرني ويسافر. لا أريد أن أكون سعيدة.

ـ أتحبين الفوضى الآن؟

ـ نعم، أحب الفوضى. أحلم دائماً بإحراق المنزل. أتخيل كيف سأقترب من المبنى، وأشعل فيه النار دون أن يراني أحد. يجب أن يتم هذا بالسر حتماً. ويهب الآخرون هنا وهناك محاولين إطفاء النيران، ولكن اللهب ما ينفك يشتد. وأكون هناك، أراقب كل شيء، ولا أنطق بكلمة. هوه! تلك سخافات! إنني ضجرة بشكل رهيب!

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة بإشارة اشمئزاز.

ـ إنك تعيشين في الثراء. قال إيليوشا في رفق.

ـ أيكون من الأفضل أن أعيش في الفقر؟

ـ نعم، ذلك أفضل.

ـ إن صاحبك الراهب المتوفَّى هو الذي دسَّ في رأسك هذه الأفكار. ذلك خطأ. فلبيق الآخرون فقراء؛ أما أنا فأريد أن أكون غنية. آكل سكاكر، وأشرب قشدة، ولا أعطي من ذلك شيئاً لأحد. لا، لا، لا تقل لي شيئاً. قالت ليزا ذلك وهي تحرك يدها بإيماءة تمنع إيليوشا عن الكلام، مع أنه لم يفتح فمه. لقد سبق أن قصصت عليَّ تلك الحكايات. إنها مضجرة. لو كنت فقيرة لقتلت أحداً. ولو كنت غنية لقتلت أيضاً. لماذا أعيش دون أن أعمل شيئاً؟ أريد أن أحصد، هل تعلم! أريد أن أجني محصول القمح. سوف أتزوجك، وسوف تصبح أنت فلاحاً، لا فلاحاً حقيقياً، وسيكون عندنا مُهر، مهر صغير جميل، هل تريد هذا؟ بالمناسبة: هل تعرف كالغانوف؟

ـ أعرفه.

ـ إنه يحلم طوال الوقت. يقول: «لماذا أحيا؟ الأَوْلى أن أحلم». إن الإنسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية، أما الحياة فهي مضجرة دائماً... لكنه سيتزوج قريباً. لقد صارحني بحبه، هل تتصور؟ صارحني أنا أيضاً. هل تعرف كيف تدوِّم خذروفاً؟

ـ أعرف.

ـ هو شبيه بخذروف: يكفي أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور بضربات سوط. الخذروف يُضرب بسوط صغير، فإذا هو يدور، ثم يدور. ذلك ما سأفعله. سأتزوجه ثم أظل أدوّمه طوال حياته كخذروف. ألا تشعر بخجل من الثرثرة معي!

ـ لا.

ـ لا بد أنك حانق جداً، لأنني لا أحدثك عنه أشياء مقدسة. أنا لا أحب أن أكون قديسة، هل تعلم؟ ما هو العقاب الذي سأناله في الحياة الآخرة على الخطيئة العظيمة؟ لا بد أن تكون عالماً بدقة بهذه الأمور.

ـ سوف يحكم الله عليك. قال إيليوشا وهو يتأمل وجه الفتاة بانتباه.

ـ سوف يُحكم عليَّ. ذلك بعينه ما أتمناه. أمثل أمام المحكمة، فيحكم عليّ، فأنفجر ضاحكةً وأنا أحدق إلى أعين الجميع. ما أعظم شوقي إلى إحراق المنزل، إلى إحراق منزلنا يا إيليوشا! أنت لا تصدق، أليس كذلك؟

ـ لم لا؟ ثمة أطفال في الثانية عشرة من أعمارهم يتمنون إحراق شيء ما، ثم يفعلون ذلك. هذا نوع من المرض.

ـ خطأ، خطأ! أعرف أن هناك أطفالاً، ولكنني أتكلم عن شيء آخر.

ـ أنت تعتبرين الشر خيراً. هذه نوبة طارئة لن تدوم، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم.

ـ لا بد أنك تحتقرني كثيراً كي تقول هذا الكلام. الحقيقة أبسط من ذلك. أنا لا أحب عمل الخير، بل أفضّل الشر. ذلك كل ما في الأمر، وليس في هذا أي مرض.

ـ لماذا تحبين عمل الشر؟

ـ لأدمر كل شيء. آه، ما أجمل أن أفتح عيني، فأرى أن كل شيء قد زال!

اعلم يا إيليوشا أنني أحلم دائماً بأن أقترف سيئات كثيرة فظيعة. أظل أعمل زمناً طويلاً في الظلام والسر، ثم يكتشفون الحقيقة فجأة. سيهبُّون عندئذ جميعاً ضدي، وسيشيرون إليَّ بالأصابع. فأتأملهم بهدوء. ما أمتع هذا! لماذا يكون هذا ممتعاً يا إيليوشا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا؟

ـ لست أدري، ولكنني أعرف أن الأمر كذلك. هذه هي الحاجة إلى تحطيم شيء ما، أو إلى إشعال النار في المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة. هذه المشاعر توجد في نفوسنا أحياناً.

ـ أنا لم أقل كلاماً عابثاً، سوف أنفّذ ما قلت.

ـ أصدِّقك.

ـ آه، كم أحبك لأنك قلت إنك تصدقني. أنت لا تكذب أبداً، أبداً، أليس كذلك؟ أم لعلك ظننت أنني قلت ذلك عمداً لأغيظك؟

ـ لا، لا أظن ذلك، وإن كان من الممكن أن يكون فيك إلى جانب هذا شيء من حب الإغاظة.

ـ صحيح. هنالك قليل من الإغاظة في هذا. أعترف لك بذلك.

ثم صاحت وقد قدحت في نظرتها شرارة:

ـ لن أكذب أمامك أبداً.

دُهش إيليوشا مما كان في الفتاة من جدٍّ. لم يكن في وجهها أثر لسخرية أو «شيطنة»، بينما كان المرح والابتسام العنيد لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى في «أخطر» اللحظات.

ـ ثمة لحظات يحب فيها البشر الجريمة. قال إيليوشا مفكراً.

ـ صحيح صحيح. هذا هو تماماً. لقد عبّرت عن تفكيري نفسه. البشر يحبون الجريمة. جميع البشر يحبون الجريمة. يحبونها دائماً، لا في بعض «اللحظات» فحسب. وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب في هذا

الأمر. ما من أحد يحب أن يكون صادقاً مخلصاً في هذه النقطة. جميعهم يؤكدون أنهم يكرهون الشر، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم.

ـ أما تزالين تقرأين كتباً سيئة؟

ـ نعم، أمي تقرأها، وتخفيها تحت وسادتها. ومن هناك أسرقها.

ـ ألا تخجلين أن تدمِّري نفسك هكذا؟

ـ أحب أن أدمر نفسي، في هذه المدينة فتى نام تحت خطَّي السكة الحديد ومرَّ القطار فوقه. إنني أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته. أنظر مثلاً: سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله.

ـ الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه؟

ـ هم يحبون ذلك، يحبونه! صحيح أنهم يصيحون قائلين إن ذلك فظيع، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون. وأنا نفسي مفتونة، أنا أول المفتونين.

ـ هناك جانب من حق فيما ذكرته عن مشاعر الناس وعواطفهم. قال إيليوشا بهدوء.

صاحت ليزا بصوت فيه كثير من الحماسة:

ـ ما هذه الأفكار التي تحملها؟ من الذي يصدق أن راهباً هو الذي يقول هذا الكلام؟ لا تستطيع أن تتصور يا إيليوشا مدى ما أكنه لك من احترام لأنك لا تكذب أبداً. اسمع: يجب أن أروي لك حلماً مضحكاً أراه في بعض الأحيان. إنني أرى في الحلم شياطين. أكون في الليل وحدي مع شمعة في الغرفة، وفجأةً تبرز الشياطين من جميع الزوايا. إنهم في كل مكان، حتى تحت الطاولة. ها هم يفتحون الباب، وها أنا ذا أرى أن في الخارج منهم مجموعة كبيرة أيضاً. إنهم يريدون أن يدخلوا ليقبضوا عليَّ. لقد اقتربوا ومدُّوا مخالبهم. وأرسم إشارة الصليب فإذا هم يتراجعون جميعاً وقد استولى عليهم

الخوف. ولكنهم لا ينصرفون، بل يختبئون قرب الأبواب وفي زوايا الغرفة، كأنهم ينتظرون. وأشعر عندئذ برغبة قوية في أن أشتم الله بصوت عالٍ. وأبدأ بشتمه، فإذا بالشياطين يقتربون مني، فرحين، يقبضون عليَّ. وأنا أعيد رسم إشارة الصليب مرة أخرى، فيتراجعون مذعورين. ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفاسي تنقطع في بعض الأحيان.

ـ أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً. قال إيليوشا.

ـ صحيح؟ صاحت ليزا بدهشة. لا تمزح يا إيليوشا، رجاءً، لأن ما أقوله جدّ لا مزاح. هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه؟

ـ يمكن جداً، نعم!

ـ إيليوشا، أعيد القول: هذا أمر هام جداً. تابعت ليزا. ليس الحلم نفسه هو الذي يدهشني، وإنما يدهشني أن ترى أنت في الحلم ما أرى أنا. أنت لا تكذب عليَّ أبداً، فقل لي الحقيقة هذه المرة أيضاً: أصحيح ما قلته الآن؟ ألم تكن مازحاً؟

ـ إيليوشا، زرني كثيراً، زرني أكثر مما تزورني الآن. قالت ليزا بتوسُّل.

ـ سأزورك دائماً، سأزورك طوال حياتي. قال إيليوشا بلهجة جازمة.

عادت ليزا تقول:

ـ أنت الإنسان الوحيد الذي أفتح له قلبي هكذا. أنا لا أتكلم بصدق إلّا معك. أنت الإنسان الوحيد الذي لي ثقة به في هذا العالم. أحب أن أتحدث إليك أكثر مما أن أتحدث إلى نفسي أيضاً. زد على ذلك أنني لا أخجل منك إطلاقاً يا إيليوشا. لماذا لا أخجل أبداً؟ هل صحيح يا إيليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم في عيد الشكر؟

ـ لست أدري.

ـ عندي كتاب يصف محاكمة يهودي يقال إنه قطع أصابع يدي طفل

صغير في الرابعة من عمره، ثم صلبه على جدار، ودق مسامير في يديه. وقد أكد أمام المحكمة أن الصبي الصغير مات بسرعة، بعد أربع ساعات. هذا سريع حقاً! ويقال إن الصبي استمر يئن بدون توقف، وكان اليهودي ينظر إليه متمتعاً بالمشهد. ما أجمل هذا!

ـ أهذا جميل؟

ـ نعم، جميل. أقول لنفسي في بعض الأحيان إنني أنا التي صلبت هذا الطفل. أراه معلقاً يئن، وأرى نفسي جالسةً أمامه آكل الأناناس بالسكر. أنا أحب الأناناس كثيراً. وأنت؟

كان إيليوشا ينظر إليها صامتاً. وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة، وهذا لهب يطوف بعينيها.

ـ عندما قرأت تلك القصة عن اليهودي، رحت أبكي طوال الليل، هل تعلم؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأنّاته (إن طفلاً في الرابعة من عمره يدرك كل ما يحدث له)، ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بالأناناس. فلما انبلج الصبح بعثت برسالة إلى أحدهم أطلب إليه أن يجيئني حتماً. جاء. قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس. قلت له كل شيء، كل شيء، وأضفت: «هل هذا جميل». فانفجر في قهقهة صاخبة، وأعلن أن هذا جميل جداً في الواقع، ثم نهض وانصرف. لم يمكث عندي إلّا خمس دقائق. احتقرني، هه؟ قل لي يا إيليوشا: هل هو احتقرني أم لا؟

هكذا صاحت ليزا وهي تنتصب على كرسيها المتحرك، وقد لمعت عيناها ببريق ساطع.

ـ قولي: هل أنت التي استدعيته؟ قاطعها إيليوشا يسألها وقد اضطرب بشدة.

ـ أنا التي استدعيته.

ـ برسالة؟

ـ نعم، برسالة.

ـ ألكي تسأليه عن أمر ذلك الطفل؟

ـ لا، ليس من أجل هذا، ليس من أجل هذا أبداً. ولكن حين دخل غرفتي أسرعت أطرح عليه سؤالاً عن موضوع الطفل. فأجابني ضاحكاً، ثم نهض وخرج.

ـ لقد أحسن التصرف معك. قال إيليوشا في رفق.

ـ ولكنه احتقرني، أليس كذلك؟ لقد سخر مني؟

ـ لا، لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا الأناناس. إنه مريض جداً يا ليزا، هو أيضاً.

ـ نعم، هو مقتنع بذلك. قالت ليزا وقد التمعت عيناها.

وتابع إيليوشا كلامه:

ـ إنه لا يحتقر أحداً، ولكنه لا يؤمن بأحد أيضاً. ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً.

ـ وأن يحتقرني أنا إذن أيضاً؟ أيحتقرني أنا أيضاً؟

ـ أنت أيضاً.

ـ حسناً. قالت ليزا وهي تصرف على أسنانها. عندما خرج من منزلي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يحسّ بأنه محتقر. إن الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع؛ وجميل جداً أن يُحتقر المرء...

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهي تحدِّق إلى إيليوشا في عينيه، وصاحت وهي تنتصب على كرسيها وتطوّقه بذراعيها بقوة:

ـ هل تعلم يا إيليوشا؟ هل تعلم؟ أود لو... أنقذني يا إيليوشا!

ثم كررت بصوت شبيه بالأنين:

ـ أنقذني يا إيليوشا. من الذي كان يمكنني أن أفضي إليه بما قلته لك اليوم؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة، كان هو الحقيقة صافية. أوه! سوف أقتل نفسي، لأنني أشمئز من كل شيء. أصبحت لا أريد أن أعيش، لأني سئمت كل شيء. لقد سئمت. لقد ضجرت. كل شيء يثير في نفسي الكره. إيليوشا، لماذا لا تحبني؟ أنت لا تحبني.

بهذا أنهت ليزا كلامها جائشة النفس. فقال إيليوشا محتجاً بحرارة.

ـ بل أنا أحبك.

ـ أفسوف تبكي عليَّ؟

ـ نعم.

ـ لا أريد أن تبكي عليَّ لأنني رفضت أن أتزوجك، ولكنني أريد أن تبكي عليَّ لغير سبب، هكذا، هل تفهم؟

ـ نعم.

ـ شكراً. أنا ظمأى إلى أقوالك. أما الآخرون فليحكموا عليَّ، وليدينوني، ليسحقوني جميعاً، جميعاً، دون استثناء أحد. لأنني لا أحبّ أحداً. هل سمعت؟ لا أحب أحداً، لا أحب أحداً أبداً. إنني أكرههم كلهم. ثم أضافت وهي تتركه فجأة: واذهب الآن يا إيليوشا. لقد آن أن تذهب إلى أخيك.

ـ كيف أتركك وأنت في هذه الحالة؟ أجاب إيليوشا مذعوراً.

ـ اذهب إلى أخيك. سوف يغلقون السجن بعد قليل. أسرع. إليك قبعتك. قبِّل ميتيا. انصرف. انصرف الآن.

قالت ليزا ذلك ودفعته إلى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون إخراجاً بالقوة. فكان إيليوشا ينظر إليها بدهشة وبألم، ثم إذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع في يده اليمنى. إنها رسالة مغلقة صغيرة. ألقى نظرة على العنوان فقرأ: «إلى إيڤان فيودوروفتش كارامازوف». فشخص بنظره إلى ليزا بقوة،

ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون تهديداً. وأمرته بصوت مندفع، وهي ترتجف من رأسها إلى قدمها:

ـ أعطه هذه الرسالة، أعطِهِ إياها حتماً، أعطه إياها اليوم، فوراً. وإلّا شربتُ سماً. من أجل هذا استدعيتك.

وأغلقت الباب بسرعة. وسُمع صوت المزلاج. وضع إيليوشا الرسالة في جيبه، وهبط السلّم دون أن يمر بالسيدة خوخلاكوفا التي كان قد نسي أنها موجودة. فما إن ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج مجدداً، وشقت الباب قليلاً، فأدخلت إصبعها في الشق، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة. انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها إصبعها واتجهت تجلس على أحد المقاعد بخطى بطيئة. جلست على المقعد منتصبة القامة تماماً، وأخذت تتفرس في إصبعها التي اسودت وفي الدم الذي تفجر تحت ظفرها. كانت شفتاها تختلجان، وتمتمت تقول مراراً بسرعة:

ـ شريرة، شريرة، شريرة، شريرة!

# IV

## النشيد والسرّ

كان الوقت متأخراً (نهارات تشرين الأول طويلة؟) عندما طرق إيليوشا باب السجن. كان قد بدأ الليل بالهبوط. ولكن إيليوشا كان يعرف أنهم لن يضعوا عقبات في سبيل دخوله عند ميتيا. كان كل شيء، في مدينتنا الصغيرة، يجري كما تجري الأمور في أي مكان آخر. فبعد الآونة الأولى التي أعقبت الاعتقال، وبعد التحقيق التمهيدي، كان الوصول إلى السجن صعباً، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون في رؤية السجين أن يقوموا ببعض الإجراءات الرسمية. ولئن لم تهمَل هذه الأنظمة بعد ذلك، فقد استُثنى منها عدد من الأشخاص. حتى لقد أصبح يُسمح لميتيا في بعض الأحيان أن يكلم زواره في غرفة المقابلات دون رقيب. على أن يكون عدد هؤلاء المستثنين محدوداً. إنهم: غروشنكا، وإيليوشا، وراكيتين. لكن غروشنكا كانت تحظى من رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش بعطف خاص. كان هذا العجوز يريد إصلاح خطأه الذي اقترفه حين شتمها في موكرويه. وحين عرف حقيقة الأمر فيما بعد، غيَّر رأيه فيها. ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً بجزم بارتكاب ميتيا الجريمة، قد رقَّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله، وكان يقول لنفسه: «إنه

رجل طيب تفيض نفسه خيراً، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أوصلاه إلى الهلاك!». إن نوعاً من الشفقة قد حلَّ في نفس رئيس الشرطة محل الكراهية التي أحس بها في بادئ الأمر. وأما إيليوشا، الذي يعرفه رئيس الشرطة منذ مدة طويلة فقد كان يحبه كثيراً. وأما راكيتين الذي أخذ يزور ميتيا في سجنه كثيراً منذ زمن، فقد كان على علاقات طيبة متصلة «بآنسات رئيس الشرطة»، كما كان يسميهن، وكان يتواجد في منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً. بالإضافة إلى أنه كان يعطي دروساً لأولاد مفتش السجن، وهو عجوز لطيف، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له قناة. وكان إيليوشا، هو أيضاً، على صلة وثيقة بهذا المفتش، فهو يعرفه منذ مدة طويلة، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه في «شؤون مقدسة». أما إيڤان فيودوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه، ويهاب قوة فكره خاصة، رغم أنه كان يعتبر نفسه فيلسوفاً، ويتباهى بأنه «يفكر تفكيراً حراً». وفي مقابل ذلك، كان المفتش يشعر نحو إيليوشا بمحبة لا تقاوم. لقد بدأ أثناء هذه السنة الأخيرة بدراسة الأناجيل المزيفة، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول في ذهنه من أفكار. حتى لقد كان في الماضي يسعى إليه في الدير، يناقش الرهبان ساعات. جملة القول إنه لم يكن على إيليوشا حين يصل إلى السجن متأخراً إلّا أن يذهب إلى مفتش السجن، فإذا بكل شيء يجري على ما يرام. أضف إلى ذلك أن جميع موظفي السجن حتى أصغر حارس، كانوا قد ألفوا إيليوشا. والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها. وكان ميتيا يخرج من زنزانته متى نودي، وينزل إلى القاعة التي تتخذ مكاناً للمقابلة. فلما دخل إيليوشا هذه الغرفة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذي يتهيأ للانصراف. كان راكيتين يتحدث بصوت عالٍ إلى ميتيا الذي يشيِّعه ضاحكاً بينما راكيتين يتذمر. إن راكيتين قد أصبح، في الأيام الأخيرة، يمتعض من لقاء إيليوشا، ويتجنب أن يكلمه، ولا يحييه إلّا

على مضض، فلما رأى إيليوشا في هذه المرة، قطب حاجبيه وأشاح عينيه، متظاهراً بانهماكه في عقد أزرار معطفه الشتوي ذي الياقة الفرائية، ثم ينهمك بعد ذلك في البحث عن مظلته.

ـ أرجو ألّا أنسى شيئاً يخصني. ودمدم كي يقول شيئاً ما.

ـ إياك أن تنسى خصوصاً أمور غيرك! أجابه ميتيا مازحاً.

وأسرع يضحك من كلمته هو.

ـ أسدِ هذه النصيحة إلى ذويك آل كارامازوف، لا إلى راكيتين، أيها المستغلون! صاح فجأة بغضب.

ـ ماذا دهاك؟ أنا كنت مازحاً. أجابه ميتيا: لعن الله الشيطان. ثم أضاف يخاطب إيليوشا، مشيراً برأسه إلى راكيتين الذي كان يبتعد مسرعاً: هم جميعاً كذلك. لقد كان هنا مرحاً صافي المزاج، فإذا هو يغضب الآن فجأة. لقد رفض أن يحيّيك حتى بإيماءة. هل أنتما متخاصمان؟ لقد تأخرت اليوم، وأنا أنتظرك نافدَ الصبر منذ الصباح. لا بأس، سنتدارك ما فات.

ـ لماذا يزورك هذا كثيراً؟ هل توثقت الصداقة بينك وبينه؟ سأله إيليوشا وهو يشير بعينه إلى الجهة التي خرج منها راكيتين:

ـ وهل يمكن أن تتوثق الصداقة بيني وبين ميشيل؟ لا... هذا وغد حقير. هو يظن أنني شقي مسكين. ثم إنه لا يفهم المزاح، ذلك ما يغيظني منه أكثر. فهو لا يملك روح الفكاهة. نفسه واحدة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتُها حين وصلتُ إلى هنا. ولكنه في مقابل ذلك رجل ذكي. هيه يا ألكسي، ها أنا ذا قد تعبت الآن!

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس إيليوشا إلى جانبه. قال إيليوشا خجلاً:

ـ نعم، سيُحكم عليك غداً. ولكن ألم يبقَ لك أي أمل فعلاً يا أخي؟

ـ ماذا تقصد؟ قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة. فهمت... تقصد تلك المحاكمة! ولكن هذه القصة لا تعنيني. إننا لم نتحدث حتى الآن إلّا في تفاهات، كهذه المحاكمة التي تبدأ غداً، وقد سكتُّ أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن. صحيح أنني سيُحكم عليَّ غداً، ولكن ليس هذا ما جعلني أقول إنني هلكت. ليس رأسي هو الذي يتهدده الخطر حتى الآن، بل ما في داخل رأسي. لماذا تنظر إليَّ نظرة استياء؟

ـ إنني لا أفهم قصدك يا ميتيا.

ـ أقصد أفكاري، أقصد «الإيطيقا». ماذا تعني هذه الكلمة: «الإيطيقا»؟ سأله إيليوشا بدهشة:

ـ نعم. ذلك نوع من العلم فيما يبدو.

ـ نعم، هناك علم يسمى بهذا الاسم... ولكن... أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم.

ـ أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم. إن راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة. لعنه الله. إنه لن يصبح راهباً. فهو يفكر في الذهاب إلى سان بطرسبورغ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد، ولكن في اتجاه أخلاقي رفيع. على كل حال، قد يكون مفيداً في هذا المجال، وقد يصبح شخصاً مرموقاً في الوقت نفسه. إنه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره. هل تعلم أنني هلكت يا ألكسي، يا رجلاً تقياً من رجال الله! إنني أحبك أكثر مما أحب سائر الناس. إن قلبي يتألم حين أفكر فيك. من ذلك العالم الذي يسمى كارل برنار؟

ـ كارل برنار؟ سأله إيليوشا مدهوشاً.

ـ لا، ليس كارل، لقد أخطأت. لحظة. أقصد كلود برنار. من كلود برنار هذا؟ لعله كيميائي؟

ـ هو عالم من العلماء. أجاب إيليوشا. ولكن أعترف لك بأنني لا أستطيع

أن أقول أشياء كثيرة عنه. لقد سمعت أنه عالم، ولكن لا أعرف في أي ميدان من ميادين العلم.

ـ طيب، لعنه الله. استأنف ميتيا كلامه قائلاً: أنا أيضاً لست أدري. لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم في أيامنا هذه. أما راكيتين فسيعرف كيف يشق طريقه وينجح. إنه يحسن التسلل إلى كل مكان. هو في نوعه برنار آخر. أوه! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار في هذا العالم الآن!

ـ هلّا قلت لي ماذا دهاك؟ سأله إيليوشا ملحاً.

ـ إنه ينوي أن يكتب مقالاً عني، عن قضيتي، فيكون ذلك بداية نشاطه الأدبي. ولهذا الغرض يزورني. لقد شرح لي هو نفسه ذلك. إنه يرجو أن يكتب مقالةً يتناول فيها بعض الآراء الأخلاقية، كأن يقول، إذا صدق فهمي: «ما كان يمكنه إلّا أن يقتل، لأن بيئته قد أفسدته». وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكي فيما يقول. شيطان يأخذه. وليقل ما يشاء، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به. فذلك كله لا يعنيني في شيء. إنه لا يحب أخانا إيڤان بل يكرهه. وليست عاطفته نحوك خيراً من عاطفته نحو إيڤان. أما أنا فأحتمل زياراته لأنه رجل ذكي. ولكنه مع ذلك مغرور. قلت له منذ لحظات: ليس آل كارامازوف أشقياء، بل هم فلاسفة، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة. أما أنت فإنك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك، لأنك لست إلّا فلاحاً. وقد ضحك بخبثٍ حين سمعني أقول هذا الكلام. فأضفت عندئذ: «لا جدال في الآراء» نكتة حلوة، هه؟ أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً إذا أردت.

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً.

ـ لماذا تقدِّر أنك هالك؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة؟ قاطعه إيليوشا سائلاً.

ـ لماذا أنا هالك؟ الواقع... إذا أردت أن أقول الحقيقة، إنني آسف على الله! هذا هو الأمر!

ـ آسف على الله؟ كيف؟

ـ تصوّر: أن هناك أعصاباً في موضع من الرأس. أقصد في الدماغ. هذه الأعصاب. والأعصاب ألياف، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز، أقصد يكفي أن أنظر إلى شيء من الأشياء بعيني حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً... ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة، لا على الفور، بل بعد لحظة... تنقضي دقيقة فتحدث لحظة، ليس لحظة. الشيطان يأخذ اللحظة! أقصد تحدث صورة، أي يحدث شيء أو فعل... الشيطان يأخذهما! فذلك هو السبب في أنني أدرك ثم أفكر. ليس السبب أن لي نفساً، وأنني خلقت على صورة الله. سخافات هذه الأفكار كلها! لقد شرح لي ميخائيل كل شيء أمس، فشعرت بما يشبه الحرق في قلبي. العلم شيء رائع يا إيليوشا! هي إنسانية جديدة ستولد. إنني أدرك الآن هذا إدراكاً تاماً. ولكنني مع ذلك آسف على الله.

ـ أنت آسف على الأقل. هذا وحده شيء ذو بال. قال إيليوشا.

ـ أن أكون آسفاً على الله؟ هي الكيمياء يا أخي، الكيمياء! لا حيلة لك يا محترم، الكيمياء تتقدم، تنحَّوا، إفسحوا المكان، إفسحوا المكان! أما راكيتين هذا فإنه لا يحب الله! هو لا يحبه. ذلك ضعفهم جميعاً على كل حال. ولكنهم يكتمونه. إنهم يكذبون. إنهم يمثلون. سألته: «استعرض هذه الأفكار في مقالات نقدية؟» فأجابني ضاحكاً: «لن يُسمح لي بذلك، هذا مؤكد»، فسألته بعد ذلك: «ولكن كيف سيحيا الإنسان، بغير الله، وبغير حياة آخرة؟ هل نستنتج من هذا أن كل شيء سيكون مباحاً بعد الآن، وأن في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء؟»، فأجابني ضاحكاً مجدداً: «هل كنت لا تعرف هذا إذن؟»

ثم أضاف قائلاً: «إن الإنسان الذكي يمكنه أن يسمح لنفسه بكل شيء، لأنه سيتمكن دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يلقوا القبض عليك. ولذلك تتعفن الآن في زنزانة». ذلك ما قاله لي، لي أنا. هذا خنزير قذر حقاً! هؤلاء الأوغاد، كنت فيما مضى أطردهم. أما الآن، فأنا أصغي إليه، أسمع له. إن في ما يقوله كثيراً من الأشياء المنطقية. وهو عدا هذا يجيد الكتابة. في الأسبوع الماضي، بدأ يقرأ عليَّ إحدى مقالاته. فسجلت ثلاثة أسطر منها عمداً. لحظة. إليك ما سجلته.

وأسرع ميتيا فسحب من جيب صِداره ورقة وقرأ:

«من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه في تعارض مع واقع حياته.». هل تفهم معنى هذا؟

ـ لا، لا أفهم. قال إيليوشا الذي كان يتأمل ميتيا بدهشة.

ـ وأنا أيضاً لا أفهم. إن هذه الجملة مبهمة جداً، ولكنها تبدو لي عميقة. وقد أسرَّ إليَّ «أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة. فالبيئة هي التي تفرضها... إنهم يخافون البيئة. وهو ينظم قصائد، هذا الوغد. لقد تغنى بقدم خوخلاكوفا، هاهاها».

ـ أعرف ذلك. قال إيليوشا.

ـ ذكر لك هذا؟ هل قُرئت لك تلك الأبيات؟

ـ لا.

ـ هي عندي. سأقرأها لك. أنت لا تعرف ذلك، لم أخبرك به. هذه حكاية طويلة، سأقصها عليك. يا للوغد! منذ ثلاثة أسابيع فكَّر في أن يغيظني. قال لي: «ما أغباك! أنت ضيعت نفسك في سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط. أما أنا فسأجني مئة وخمسين ألف روبل، سوف أتزوج أرملة غنية. وبعد ذلك أشتري منزلاً جميلاً من حجر، في سان بطرسبورغ.». وأسرَّ إليَّ عندئذ أنه يغازل السيدة

خوخلاكوفا، التي لم تكن ذكية حتى في ريعان صباها، ثم لم يبقَ لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها. وأضاف قوله: «وهي فوق ذلك حساسة عاطفية، ومن هنا سآتيها. سوف أتزوجها، وآخذها إلى سان بطرسبورغ، فأنشىء هنالك جريدة.». وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة شبقة وهو يقول لي هذا الكلام، ولكن لا بسبب خوخلاكوفا طبعاً، لأن خيال المئة وخمسين ألف روبل هو الذي كان يُسيل لعابه. ومنذ ذلك الحين أصبح يسرُّ إليَّ كل يوم بأشياء جديدة، قائلاً: «إن الأمور تسير بصورة جيدة!»، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك. ولكن ها هو يُطرد فجأةً من منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد غلبه بيوتر إيلتش وانتصر عليه. مرحى! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت طرده من منزلها. في فترة حماسته إنما نظم تلك القصيدة. وقد اعترف لي قائلاً: «تلك أول مرة أغض فيها من قيمتي فأرضى أن أنظم شعراً. لقد ارتضيت ذلك لأغوي امرأة حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد إنجازه. فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز، استطعت أن أكون بعد ذلك مفيداً للمجتمع». إن هؤلاء الناس يجدون في جميع الأحيان عذراً يسوِّغون به حقاراتهم ودناءتهم، هو عذر المنفعة الاجتماعية. وقد قال لي: «ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبكم بوشكين، لأنني استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً في بضعة أبيات شعرية صغيرة هي في ظاهرها سارة مرحة». على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لي معقولاً. فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً، فإنه ما كان له أن يقتصر على التغني بأقدام صغيرة جميلة! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التي نظمها! هؤلاء الشعراء جميعاً! إن العنوان الذي تخيله هذا «الفيلسوف الوضيع» لقصيدته هو التالي: «لشفاء قدم المحبوب الصغيرة».

هذه القدم، آه من هذه القدم،

قيل لنا إنها مريضة
الأطباء حولها منهمكون
ليضمدوها بحب وحنان
أكيد، هذه القدم تقلقني
لكن بوشكين هو الشاعر.
لكنني أشكو من الرأس
شعرنا بوجود بادرة.
حين تمردت القدم فأوقفتها!
فلتشفَ القدم
كي يعود الرأس إلى طبيعته.

إنه وغد، وغد حقاً، ولكن أشعاره مرحة. ثم إن فيها «فكرة وطنية»، كما يقول. لقد غضب حين طُرد. كان يصرف بأسنانه من شدة الغضب!

قال إيليوشا: لقد انتقم منذ الآن. نشر مقالة عن السيدة خوخلاكوفا.

وروى إيليوشا على ميتيا بسرعة، قصة المقالة التي نشرت في جريدة «الشائعات». فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه:

ـ إنه هو، إنه هو! هو كاتب المقالة. ليس في ذلك شك! آه من تلك الأقاويل! أنا على علم... ما أكثر ما نشروا من تفاهات حقيرة حتى الآن، عن غروشنكا مثلاً! وعن الأخرى أيضاً، عن كاتيا... هِمْ!

وأخذ يمشي في الغرفة مهموم البال.

ـ لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخي. تابع إيليوشا بعد صمت: إن غداً ليوم رهيب بالنسبة إليك: غداً تتم إرادة الله... يدهشني مع ذلك أنك في عشية ذلك الغد تضيع وقتك في الكلام على تفاهات...

ـ لا يدهشنك هذا. قاطعه ميتيا بحرارة. أتُراك تؤْثر أن أتكلم على ذلك

الشقي العفن النتن، على القاتل؟ لقد سبق أن تكلمنا عليه، وأسرفنا في الكلام. لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف، النتن ابن المومس، لسوف يعاقبه الله، سوف ترى.

واقترب من إيليوشا وقد تملكه اضطراب شديد، وقبَّله. كانت عيناه تسطعان. وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره:

ـ لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا، أما أنت فسوف تفهمه. ومن أجل ذلك كنت أنتظر أن أراك. هل تعلم أنني، منذ زمن طويل، أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة، هنا، بين هذه الجدران المتقشرة، ولكنني لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن؟ يبدو أنه لم يكن قد آن لي أن أبوح إليك بكل ما في نفسي بعد. لقد انتظرت، انتظرت إلى آخر لحظة، لأفتح لك قلبي. أخي، أخي، إنني في أثناء هذين الشهرين الأخيرين، أصبحت إنساناً آخر. لقد وُلد فيَّ كائن جديد. الحق أنه كان موجوداً فيَّ منذ الأزل، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة. شيء رهيب! إنني لا أخشى أن أعمل في المناجم عشرين عاماً. ذلك لا يهمني. هناك شيء آخر هو الذي أخشاه الآن. إنني أخشى أن يزول، من جديد، الإنسانُ الذي بُعث حياً في نفسي. يستطيع الإنسان أن يجد حتى في سجون الأشغال الشاقة، وفي جحيم المناجم، سجيناً آخر يخفق فيه قلب إنساني وإن يكن رجلاً قاتلاً. يستطيع المرء أن يصادقه، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يعيش وأن يحب وأن يتألم! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين، ليضرم في قلبه مرةً أخرى شعلة الحب التي أطفأها الظلم، يستطيع أن يحيطه بالعناية والحب والعطف خلال سنين، إلى أن تظهر أخيراً من ظلمات وجوده نفسٌ أحياها الألم وطهَّرها ونقَّاها وأسبغ عليها حلة النبل والكرم، فإذا هي تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء. إن في وسعنا أن نحيي الملاك في الشيطان، وأن نبعث البطل في الجبان. إنهم كُثُر هنالك، أولئك الذين سقطوا؛ إنهم

مئات ومئات، ونحن جميعاً مسؤولون عن مصيرهم. لماذا رأيت في حلمي «الطفل»، وأنا أجتاز من حياتي مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة؟ «لماذا يجب أن يتألم الطفل»؟ تلك إشارة من السماء نزلت عليَّ في ساعة المحنة القاسية. سأمضي إلى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الطفل. إن جميع البشر متضامنون في أخطائهم، وكل إنسان مسؤول عن آثام سائر الناس. «الطفل الصغير» يتعذب في سبيل الآخرين، لأن في هذا العالم أطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار. «الطفل الصغير» موجود في كل مكان. سأمضي في سبيل الآخرين، لأنه لا بد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم. أنا لم أقتل أبي، ولكن من واجبي أن أضحي بنفسي. إنني أرضى ما كُتب عليَّ! هنا، في هذا السجن، أدركت هذه الأشياء كلها... هنا، بين هذه الجدران المتقشرة. إنهم كثيرون هناك، تحت الأرض، يحفرون في المنجم. صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال، وصحيح أنهم سيحطمون إرادتنا. ولكن، هناك، في ذلك الألم الفظيع، سنبعث إلى الفرح، إلى الفرح الذي لا يمكن بدونه أن يحيا الإنسان، إلى الفرح الذي بدونه لا يوجد الله، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هي الخاصة التي ينفرد بها الله. رباه! ألا فليفنِ الإنسان نفسه في الصلاة! كيف يمكنني أن أعيش تحت الأرض بدون الله؟ إن راكيتين يكذب! وحين يطرد الله البشر من على سطح الأرض، سنهتدي إليه نحن في باطن الأرض، ونعود إليه. إن السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يستطيع أن يحيا بدون الله، وهو أعجز عن ذلك من الإنسان الحر! وفي هذه اللحظة، نحن الذين نعيش تحت الأرض، سنغنّي من عمق أحشاء الأرض نشيداً حزيناً يمجد الخالق ينبوعَ السعادة والضياء. تبارك الرب، وتبارك فرحه! إنني أحبه!

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات. كان قد اصفر وجهه، وتقبضت شفتاه بعصبية، وانهمرت من عينيه دموع. واستأنف كلامه يقول:

ـ لا، إن الحياة غنية، وهي موجودة تحت الأرض أيضاً. لا تستطيع أن تصدق يا إيليوشا إلى أي حد أحب الآن أن أعيش، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي القوية في أن أوجـد وأن أعرف، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التي سيطرت علي وأنا بين هذه الجدران المتقشرة! لن يفهم راكيتين هذا في يوم من الأيام، لأنه لا يفكر إلّا في جمع المال، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام. لذلك انتظرتك نافد الصبر. لا يهمني الألم. لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن عظيماً. كنت أخافه في الماضي، ولكنني أصبحت لا أخافه. هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الإجابة أمام المحكمة؟ يخيَّل إليَّ في بعض الأحيان أن بي من القوة ما سوف يمكنني من تذليل جميع الصعوبات، والانتصار على كل المحن، لا لشيء إلّا أن أقول لنفسي في كل لحظة سعيداً: «أنا كائن، أنا موجود». لسوف أردد وأنا في العذاب الذي لا نهاية له: «أنا موجود». سأصرخ حين يتشنجني الألم: «أنا كائن». سأشعر إذا رُبطت بالعمود وشددت إليه، بأنني ما زلت أحيا، وسوف أرى الشمس. وإن لم أرها، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم. أن تعرف أن الشمس تتلألأ فذلك هو الحياة كلها. إيليوشا، صغيري الحبيب، إن أفكارهم الفلسفية تقتلني، تعساً لهم! إن أخانا إيڤان...

ـ ما له، إيڤان؟ قاطعه إيليوشا:

ولكن ميتيا لم يسمع.

ـ كنت في الماضي أجهل جميع هذه الشكوك، ولكنها كانت موجودة في نفسي من دون علم مني. ولعلني لم أندفع في الشراب، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف إلّا لأن تلك المعاني كانت تلتهب في داخلي. ولكي أخنقها وأسحقها كنت أتخبط ذلك التخبط. إن أخانا إيڤان ليس مثل راكيتين. إنه يخفي في نفسه فكرة يكتمها سراً. إن أخانا إيڤان يشبه أبا الهول. إنه يصمت،

يصمت دائماً. أما أنا فإن فكرة الله تعذبني، وهي عذابي الوحيد الحق. ما عسى أن يحدث إن لم يكن الله موجوداً؟ لنفرض أن راكيتين على حق، لنفرض أن الدين من صنع خيال الإنسان. إذا لم يوجد الله كان الإنسان هو سيد الأرض، ورئيس الكون! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الإنسان صالحاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال، وأنا لا أنفك ألقي على نفسي هذا السؤال. من الذي سيحبه الإنسان إذا لم يوجد الله؟ قل لي: إلى من سيندفع الإنسان بشكران روحه، ولمن سنغني أنشودة فرح؟ إن راكيتين يسخر من هذا كله. هو يرى أن الإنسان يمكنه أن يحب البشرية مستغنياً عن الله. لا يستطيع إلّا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام. أما أنا فلن أفهمه في يوم من الأيام. تبدو الحياة سهلةً لراكيتين. قال لي اليوم: «الأَوْلى بك أن تهتم الآن بازدياد الحرية في العالم، موسِّعاً حرية المواطن السياسية. فإذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم. فبذلك تخدم الإنسانية خدمةً أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها.». أجبته قائلاً: «إنك إذا أنكرت الله، تنتهي إلى زيادة سعر اللحم أنت نفسك، فتربح بالكوبيك روبلاً». عندئذ غضب راكيتين. ما هي الفضيلة؟ اشرح لي الفضيلة يا ألكسي. أنا في ذهني فكرة عن الخير، ولكن الصيني في ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتي أنا. فالخير فكرة نسبية، أليس كذلك؟ أليس الخير فكرة نسبية؟ هذه مشكلة مقلقة. لن تسخر مني، أنت على الأقل، إذا قلت لك إن هذه المشكلة قد أرّقتني ليلتين، فلم أستطع النوم. إنني أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا في هذه المشكلة. إن إيفان لا يؤمن بالله. إنه لا يؤمن إلّا بالأفكار. ذلك يفوق مستواي. ولكنه يصمت. أعتقد أنه ماسوني. سألته فلم أظفر منه بجواب. ملت إليه ميلي إلى نبع حقيقة لأروي ظمأي، ولكنه لم يجبني، مرةً واحدة، قال لي كلمة صغيرة فقط.

ـ ماذا قال؟ سأل إيليوشا مستعجلاً.

ـ سألته: «أكلُ شيء مباح إذن؟»، فقطب حاجبيه وقال: «كان أبونا فيودور بافلوفتش رجلاً متهتكاً، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً». ذلك كل ما قاله لي. لم يقل شيئاً آخر. على الأقل، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين.

ـ حقاً؟ متى جاء إليك؟ قال إيليوشا بمرارة.

ـ سأحدثك عن هذه في مرة أخرى. أما الآن، فما حان الوقت بعد. أنا لم أكد أكلمك عن إيڤان حتى هذه الساعة. أرجأت الحديث عنه إلى النهاية. فمتى انتهت القضية وصدر الحكم، سأقص عليك شيئاً. سأقول لك عندئذ كل شيء. هناك حكاية رهيبة. ستكون حكماً عليَّ في هذه المسألة. أما الآن فلا أريد أن تعالج هذا الموضوع. أعرف كيف تصمت بانتظار ذلك. كنت تكلمني منذ برهة على يوم الغد، على المحاكمة، فهل تصدِّق أنني لا أعرف شيئاً؟

ـ هل تكلمت مع ذلك المحامي؟

ـ المحامي؟ دعك من هذا! لقد أخبرته بكل شيء. إنه وغد لطيف من أوغاد العاصمة، إنه برنار! إلا أنه لا يصدِّق كلمة واحدة مما أقوله له. تصور أنه مقتنع بأنني أنا القاتل! أرى ذلك في نظرته إليَّ. سألته: «فلماذا توليت إذن مهمة الدفاع عني؟». إنني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً. وقد استدعوا كذلك طبيباً، بهدف أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون! أنا لا أحتمل ذلك، ولن أقبله! إن كاترينا إيڤانوفنا هي التي تعتقد أنها بذلك تقوم «بواجبها» حتى النهاية. لكنها ترغم ذاتها على ذلك، وتحمل نفسها عليه حملاً (قال ميتيا هذا وهو يبتسم بمرارة). إنها قطة، قاسية القلب! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه، وتعرف أنني وصفتها بأنها امرأة «ذات غضب شديد». لقد نُقل إليها هذا الكلام. نعم، لقد تكاثرت الشهادات عليَّ حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى. ما يزال غريغوري يتهمني. هو رجل شريف، لكنه غبي. ما أكثر الشرفاء

عن غباوة! هذه فكرة عبَّر عنها راكيتين. لقد أصبح غريغوري عدوي اللدود. أصبح عدوِّي. وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه. أقول هذا وأنا أقصد كاترينا إيڤانوفنا. أخشى، بصورة خاصة، أن تقصَّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمئة روبل. إنها لن تعفيني من قصِّ هذه الحكاية، معتقدةً أنها بذلك تبرىء ذمتها تجاهي! آه... لسوف تمضي إلى نهاية الشوط... أنا أعرفها. ولكنني لا أريد تضحيتها هذه! سوف أشعر من ذلك بالعار أمام قضاتي. كيف يكون في إمكاني أن أحتمل هذا؟ اذهب إليها يا إيليوشا لتطلب إليها ألّا تروي هذه الحكاية على الناس. أتظن أن هذا مستحيل؟ لا بأس إذن. سيان عندي أن ترويها أو لا. سأرتضي مذعناً. أما هي فلا أشفق عليها ولا أرثي لحالها. هي التي أرادت ذلك. لن تنال إلّا ما تستحقه. وأما أنا يا ألكسي، فسوف أقول ما يجب أن يقال. اعرف هذا. (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم ابتسامةً بمرارة مجدداً). ولكن... ولكن هناك غروشا، غروشا يا إلهي!... لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا؟ صاح ميتيا والدموع في عينيه. إن غروشا تقتلني، يقتلني التفكير فيها، تقتلني! هذا يقتلني! لقد جاءت منذ فترة.

ـ حكت لي كل شيء. لقد أهنتها إهانةً شديدة.

ـ أعرف هذا. تباً لطبعي ما أردأه! لقد عذبتها بالغيرة. وحين ودَّعتها ندمت وقبّلتها ولكنني لم أستغفرها.

ـ لماذا لم تستغفرها؟ سأل إيليوشا.

ـ حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها، على خطيئة ارتكبتَها فعلاً، لا سيما المرأة التي تحبها، التي تحبها، مهما تكن أخطاؤك في حقها، لأن النساء مخلوقات لا يعرف إلّا الشيطان ما في أنفسهنّ. أنا خبير في هذا على الأقل. حاول مرةً أن تعترف لها بأنك أخطأت في حقها، وأن تقول لها:

«أنا مذنب، فسامحيني، سامحيني... لتسمعنَّ منها عندئذ سيلاً من ملامات. لن ترضى أبداً أن تسامحك ببساطة، بل سوف تذلُّك وتخفضك إلى الأرض، معدِّدة جميع أخطائك، حتى تلك التي لم تقترفها. لن تنسى شيئاً، وستضخم كل شيء، وستختلق أخطاءً جديدة عند الحاجة، وبعد ذلك فقط سترضى أن تسامحك. وخير النساء هنَّ اللواتي يسامحن على هذا الشكل. ولكنها ستفرغ أولاً أعماق أدراج أحقادها وتلقيها على رأسك. تلك هي قسوتهن المفترسة. هن جميعاً كذلك. اعلم هذا. كذلك خُلقن، من أولاهن إلى آخرهن، هؤلاء الملائكة اللواتي لا تستطيع أن تحيا بدونهن. سأطلعك بدون تكلُّف على حقيقة كبرى يا صغيري الطيب: إن كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة. ذلك هو اقتناعي العميق. بل هو أكثر من اقتناع: هو شعور عميق وعاطفة حميمة. إن على الرجل أن يكون كريماً، وهذا لن يحطَّ من قيمته أبداً، ولو كان قيصر. أما أن يستغفر، فكلّا ثم كلّا! يجب على الرجل ألّا يستغفر امرأة بحال من الأحوال. تذكر دائماً هذه القاعدة التي علمك إياها اليوم أخوك ميتيا، أخوك ميتيا الذي أوردته النساء موارد الهلاك. لا، لا، إنني أؤثر أن أصلح أخطائي في حق غروشنكا بطريقة أخرى، دون أن أطلب المغفرة. إنني أعظمها حقاً يا ألكسي، إنني أشعر نحوها بإعجاب لا حدود له. وهي تعرف ذلك مع الأسف، ثم ترى أنني لا أمحضها حباً كافياً. هي تعذبني بحبها. لم يكن هذا أمراً ذا بال في الماضي. كنت في الماضي لا أحبها إلّا بسبب منحنيات وخطوط جسمها الجهنمية. أما الآن فإن روحها هي التي نفذت في نفسي فصرنا روحاً واحدة. بها أصبحت كائناً بشرياً. هل يزوجوننا في السجن؟ إن لم يزوجونا فسأموت غيرةً. إنني كل يوم أحلم بأمور رهيبة... ماذا قالت لك عني؟

ردَّد له إيليوشا أقوال غروشنكا. أصغى ميتيا بانتباه شديد، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة، وبقي راضياً فرحاً، وقال:

ـ هي إذن لا تحقد عليَّ لأنني غيور. تلك امرأة حقاً. قالت لك: «أنا قلبي قاسٍ»، أليس كذلك؟ إنني أحبهن، هؤلاء النساء القاسيات، رغم أنني لا أحتمل أن يعذبنني بالغيرة. إنني لا أحتمل هذا. سيكون بيننا شجار كثير، أنا وهي، ولكنني سأحبها حباً لا نهاية له. هل سيزوجوننا؟ هل يزوجون السجناء؟ تلك هي المسألة كلها. سوف يستحيل عليَّ أن أحيا بدونها...

سار ميتيا في الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه. وكان الظلام قد خيَّم أثناء ذلك. وفجأةً ظهر على ميتيا القلق، كأن فكرة ثقيلة قد هاجمته.

ـ قلت لك إن هذا سر بيننا؟ قالت إننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من «كاتكا»؟ لا يا عزيزتي غروشنكا! لقد أخطأت الظن. أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه إلّا النساء الحمقاوات! لا بأس يا إيليوشا، يا عزيزي الصغير، سأكشف لك عن سرّنا.

نظر ميتيا حواليه، ثم اقترب من إيليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس في أذنه وقد بدت في وجهه معاني السر، رغم أن أحداً لا يستطيع في الواقع أن يسمعهما: فالعجوز غافٍ على دكة في إحدى زوايا الغرفة، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا مباغتتهما أثناء الحديث.

ـ سأكشف لك عن سرنا. همس ميتيا. كنت أنوي أن أطلعك على هذا السر فيما بعد، لأنه كيف يمكنني اتخاذ قراري بدونك؟ أنت كل شيء في نظري. ومهما أقل إن إيڤان يفوقنا، فأنت في نظري ملاك، ولقرارك وحده قيمة حقيقية. من يدري؟ لعلك أنت المتفوق لا إيڤان. اسمع: إن المسألة مسألة ضمير، مسألة ضمير أخلاقي. هذا سرٌّ خطير جداً، وخطورته أنني لا أستطيع أن أحمله وحدي، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه. فأنا أعتمد عليك. على أن اتخاذ القرار لم يحن وقته بعد. وإنما يجب انتظار صدور الحكم. فمتى

أصدرت المحكمة حكمها، كان عليك أن تقطع برأي في الأمر فتقرر مصيري. أما الآن فلا تقل شيئاً. سأشرح لك الموضوع، فتصغي إلى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأي. عليك أن تصمت ولا تتحرك. لن أقول لك كل شيء اليوم. سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل. عليك ألّا تقول شيئاً، ألّا تنطق بكلمة: لا سؤال، ولا حركة! اتفقنا؟ ولكنني نسيت: هناك عيناك، فما أصنع بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك؟ آه من عينيك! إنني أخشى أن تقولا لي رأيك ولو سكت. اسمع يا إيليوشا: لقد اقترح عليَّ إيڤان «أن أهرب». لن أقصَّ عليك التفاصيل: لقد تصورنا كل شيء، وسيُدبِّر كل شيء. أسكت، لا تنطق بكلمة. سأسافر إلى أميركا مع غروشنكا. هل أستطيع أن أعيش بدونها؟ إنهم لن يستطيعوا منعها من اللحاق بي. هل يزوِّجون السجناء؟ إيڤان يؤكد أنهم لا يفعلون. فما عساي أن أفعل بدون غروشنكا، تحت الأرض، في المناجم، مع المطرقة؟ ولكن من جهة أخرى هناك الضمير. سأكون قد هربت من الألم. لقد تلقيت إشارة من السماء، فإذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة، وأُعرض عن طريق التطهر الذي فُتح أمامي. إيڤان يؤكد أنني سأستطيع أن أصبح في أميركا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع مني في المناجم تحت الأرض. حسناً! ولكن أين يصبح النشيد الذي سننشده من تحت الأرض، إذا أنا سافرت إلى أميركا؟ إن أميركا هي العودة إلى هذا العالم الباطل. لا بد أن أميركا ملأى بأنواع الدناءة. أعتقد أن الأمر هنالك كذلك. هل أهرب من التكفير عن ذنوبي؟ هل أهرب من درب الصليب؟ إنني أفضي إليك بما في نفسي يا ألكسي، لأنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني. أما الآخرون فإن ما قلته لك في هذه اللحظة ليس في نظرهم إلّا حماقة وسخفاً. سيقولون إنني مجنون، أو إنني أبله. إن إيڤان يدرك، هو على الأقل، ماذا يعني ذلك النشيد، ولكنه لا يجيبني، بل يلزم الصمت. إنه لا يؤمن بالنشيد. لا تقل شيئاً! اسكت! إنني

أرى كيف تنظر إلي: لقد حسمت أمرك. لا تعلن هذا القرار، ارحمني، لأني لا أستطيع أن أعيش بدون غروشنكا. انتظر صدور الحكم!

أنهى ميتيا كلامه منقلبَ السحنة. كان يمسك إيليوشا من كتفه بقوة، ويوجّه إلى عيني أخيه نظرة ملتهبة مثقلةً.

ـ هل يزوِّجون السجناء؟ ردد للمرة الثالثة بصوت مستعطف.

أصغى إليه إيليوشا بدهشة عميقة، وأحس باضطراب شديد. وسأله:

ـ قل لي: هل يلح إيڤان على مشروع الهرب هذا؟ ومن الذي فكّر في هذا المشروع أولاً؟

ـ هو الذي فكَّر فيه. وهومن يلح. لم يكن قد زارني قبل ذلك. ثم إذا به يجيء إليّ فجأة منذ أسبوع، فيتحدث معي عن مشروع الهرب هذا. إنه يلحُّ. هو لا يتوسل إليَّ، بل يأمرني. ولا يشك في أنني سأطيعه، رغم أنني فتحت له قلبي كما فتحته لك الآن، وحدثته عن النشيد. عرض لي خطته بالتفاصيل. لقد حصل على جميع المعلومات اللازمة. سأبسط لك هذا فيما بعد. إنه يلح. وهو يعرض عليَّ المال: عشرة آلاف روبل للهرب، وعشرين ألفاً للاستقرار في أميركا. يقول إننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين إلى النجاح.

ـ وهل طلب منك ألّا تحدثني في هذا الأمر؟ سأله إيليوشا.

ـ أمرني بألّا أقول كلمة واحدة لأي إنسان، وخصوصاً لك أنت، خاصةً لك أنت، بأية حال من الأحوال! وأظنّ أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي. لا تذكر له أنني أفضيت إليك بهذا السر. لا تقل له أي كلمة في هذا الشأن، أتوسل إليك!

ـ أنت على حق، قال إيليوشا. لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، عرفتَ أنت نفسك ما الذي

يجب أن تقوم به. سيكون قد وُلد فيك إنسان جديد، وهذا الأخير هو الذي سيقرر.

ـ إنسان جديد أو برنارٌ يقرر كما يمكن أن يقرر برنار! لعلني أنا نفسي واحد من أمثال برنار. بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم بمرارة.

ـ لكن يا أخي، هل يمكن حقاً ألّا يكون لك أي أمل في تبرئتك؟ قال إيليوشا يسأل أخاه:

فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة، وهزَّ رأسه، وقال متعجلاً:

ـ إيليوشا، ملاكي، آن لك أن تنصرف. لقد سمعت الآن صوت المفتش في الفناء، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى. تأخرنا كثيراً، وهذا يخالف النظام. قبِّلني بسرعة، وارسم عليَّ إشارة الصليب يا ملاكي. ارسم عليَّ إشارة الصليب لنازلة الغد...

تعانق الأخوان وقبَّل كل منهما الآخر.

ـ إن إيڤان، تمتم ميتيا يقترح عليَّ الهرب، ولكنه مقتنع بأنني القاتل.

ظهرت على شفتيه ابتسامة حزينة.

ـ لقد سألته، هل يعتقد أنك القاتل؟ سأله إيليوشا.

ـ لا، لم أسأله عن هذا. أردت أن أسأله، ولكنني لم أتجرأ. لكن لا داعي إلى سؤاله، لأنني أقرأ رأيه في عينيه. والآن أستودعك الله!

تعانق الأخوان وقبَّل كل منهما الآخر مرةً ثانية. وأسرع إيليوشا ينصرف. ولكن ميتيا ناداه، لحظةَ همَّ أن يخرج من الغرفة، وقال له وهو يمسكه من كتفيه:

ـ إيليوشا، أنظر جيداً إلى وجهي، هكذا!...

كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مخيفاً في الظلام. وتقبضت شفتاه، وغارت نظرته في عيني إيليوشا:

ـ إيليوشا، قل لي الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك في هذه اللحظة.

هل تعتقد أنني قتلت؟ هل تعتقد أنت، نعم أنت، أنني قتلت؟ أريد أن أعرف الحقيقة، لا تكذب، لا تكذب. صاح ميتيا خارجاً عن طوره.

ـ ما هذا الكلام؟ ما هذا الكلام؟ ماذا أصابك؟... تمتم إيليوشا زائغ النظر.

ـ قل الحقيقة، أريد الحقيقة، لا تكذب. ردّد ميتيا مجدداً.

فقال إيليوشا بصوت متهدج مرتجف:

ـ أنا لم يخطر على بالي لحظةً أنك قاتل.

كان الانفعال يخنقه، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يقسم. فأشرق في وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة. وقال ببطء كأنه يعود إلى ذاته بعد إغماء:

ـ شكراً. لقد رددت إليَّ الحياة. تصور أنني كنت أخاف حتى الآن أن أطرح عليك هذا السؤال. كنت أخاف أن أسألك، أن أسألك أنت، أنت خصوصاً! اذهب الآن. إنك قد أمددتني بقوى ليوم الغد، باركك الله! انصرف الآن. حان أن تنصرف.

ـ وأضاف. أحِبَّ إيڤان!

خرج إيليوشا والدموع تنهمر من عينيه. إن هذا المستوى من الشك لدى ميتيا، وهذه الدرجة من إساءة الظن فيه هو إيليوشا، قد بينت لإيليوشا هوّة يأس وألم سحيقة في نفس أخيه الشقي، هوة لم يسبق أن فكر فيها. وشعر إيليوشا مجدداً بذلك الألم الحاد الذي يكاد يكون جسدياً «أحبَّ إيڤان» تلك هي الكلمات التي قالها ميتيا، والتي تذكرها فجأة. وكان إيليوشا ذاهباً إلى إيڤان على كل حال، فلقد كان يحتاج إلى أن يراه منذ هذا الصباح. لم يكن إيڤان يعذبه كما يعذبه التفكير في ميتيا. والآن، بعد زيارته لأخيه، أصبحت أقوى منها في أي وقت مضى.

# V

## ليس أنت، ليس أنت!

وهو ذاهب إلى إيڤان كان عليه أن يمر أمام المنزل الذي تسكنه كاترينا إيڤانوفنا. كانت النوافذ مضاءة. توقف فجأة وقرّر الدخول. إنه لم ير كاترينا إيڤانوفنا منذ أكثر من أسبوع، وخطر على باله أن إيڤان يمكن أن يكون عندها الآن، ولا سيما عشية يوم كهذا. قرع الجرس، وصعد السلَّم الذي يضيئه مصباح صيني بنور ضعيف، فلمح رجلاً يهبط السلَّم، فما إن وصل هذا الرجل إليه حتى عرف أنه أخوه. إذن كان إيڤان يخرج من عند كاترينا إيڤانوفنا.

ـ آ، أهذا أنت؟ قال إيڤان فيودوروفتش بلهجة جافة. طاب يومك، وإلى اللقاء. أنت ذاهب إليها؟

ـ نعم.

ـ لا أنصحك بذلك، لأنها «مضطربة جداً»، وزيارتك سوف تفاقم اضطرابها.

لا، لا. صاح صوت يقول من أعلى، من خلال بابٍ قد فُتح:

ـ بل اصعد، اصعد. هل أنت آت من عنده يا ألكسي فيودوروفتش؟

ـ نعم، رأيته منذ لحظة.

ـ هل بعث معك رسالةً إليَّ؟ ادخل يا إيليوشا. وأنت أيضاً يا إيڤان، ارجع، من كل بد. هل سمعت!

كان صوت كاترينا إيڤانوفنا يبلغ في تلك اللحظة من الصرامة أن إيڤان فيودوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد، أن يصعد ثانيةً في صحبة إيليوشا.

ـ كانت تصغي من الباب! تمتم يقول بينه وبين نفسه بغضب، لكن إيليوشا سمعه.

ـ اسمحي لي ألّا أخلع معطفي. قال إيڤان فيودوروفتش وهو يدخل الصالة ثم إنني لن أجلس، لأنني لا أنوي أن أبقى أكثر من دقيقة واحدة.

ـ اجلس يا ألكسي فيودوروفتش. قالت كاترينا إيڤانوفنا. وبقيت هي نفسها واقفة.

إنها لم تتغير كثيراً منذ شهرين، ولكن وميضاً قاسياً يسطع الآن في عينيها السوداوين. سوف يتذكر إيليوشا فيما بعد أنها بدت له في تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً.

ـ ما الذي كلفك بأن تقوله لي؟

ـ كلفني بأن أقول لك شيئاً واحداً. قال إيليوشا وهو يحدِّق إلى عينيها. إنه يرجو أن تهتمي بنفسك، وألّا تذكري أمام المحكمة ـ وهنا اضطرب قليلاً ـ... ألّا تذكري أمام المحكمة... ما جرى بينكما أثناء أول لقاء... في تلك المدينة...

ـ آ... يقصد تلك التحية وذلك المال؟ قاطعته كاترينا إيڤانوفنا وهي تضحك بمرارة: أهو خائف على نفسه أم عليَّ؟ قل لي! من أراعي في هذا الأمر؟ هل أراعي نفسي أم أراعيه هو؟ تكلم يا ألكسي فيودوروفتش:

كان إيليوشا يحدق إليها بانتباه ويحاول أن يفهمها.

قال بصوت لطيف:

ـ هو يرجو أن تراعي نفسك وأن تراعيه أيضاً.

قالت بلهجة مسعورة وقد احمر وجهها فجأة:

ـ هكذا إذن إنك لا تعرفني بعد يا ألكسي فيودوروفتش! وربما كنت لا أعرف نفسي أنا أيضاً. من يدري؟ قد تتمنى أن تسحقني في الغد بعد إدلائي بشهادتي أمام المحكمة.

ـ أدلي بشهادة شريفة. قال إيليوشا. لا حاجة إلى أكثر من ذلك.

ـ المرأة هي غالباً شريفة. أجابت بقسوة. منذ أقل من ساعة كنت لا أخشى إلا من الكلام على هذا المسخ، على هذا الشخص الكريه... ولكن لا! إنه ما يزال في نظري إنساناً. ثم هتفت تسأل بصوت تمازجه هستيريا وهي تلتفت نحو إيڤان فيودوروفتش: هل هو من قتل؟ هل هو بذاته؟

أدرك إيليوشا في تلك اللحظة أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على إيڤان منذ دقائق قليلة قبل وصوله، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة، للمرة المئة في أغلب الظن، قد انتهت بمشاجرة.

ـ لقد ذهبتُ إلى سمردياكوف... أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه! بسببك صدقت أنا ذلك. تابعت مخاطبةً إيڤان أيضاً بصيغة المفرد. فضحك إيڤان ضحكةً حمل نفسه عليها. وقد ارتعش إيليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد. لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة إلى هذا الحد.

ـ حسناً، لا بأس. قال إيڤان بجفاف وخشونة. أنا ذاهب. سأرجع غداً. ودار على عقبيه، وخرج من المنزل. فأسرعت كاترينا إيڤانوفنا تمسك يدي إيليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة:

ـ اتبعه! لا تتركه وحده لحظةً واحدة. إنه مجنون. ألا تعرف أنه فقد عقله؟ لقد أصيب بحمى حارة، صدّقني! طبيبي هو الذي قال لي ذلك. هيًّا، أسرع! أركض لندركه...

قفز إيليوشا من مكانه واندفع في أثر إيڤان فيودوروفتش. لم يكن إيڤان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة.

ـ ماذا تريد؟ صاح إيڤان ملتفتاً إلى الوراء فلمح أن أخاه يريد اللحاق به. أمرتك بأن تتبعني لأنني مجنون، أليس كذلك؟ لقد حفظتُ هذه القصة على ظهر القلب.

ـ واضح أنها مخطئة في هذا. ولكنها على حق عندما تقول إنك مريض. لقد تفرستُ في وجهك منذ قليل، فلاحظت أنك مريض، مريض جداً، يا إيڤان!

كان إيڤان يسير دون أن يتوقف، وكان إيليوشا يتبعه.

سأله هذا الأخير بصوت هادئ.

ـ لأنك تعرف يا ألكسي فيودوروفتش ماذا يحدث عندما يصبح المرء مجنوناً؟

ـ لا، لا أعرف. أجابه إيليوشا. ولكن يخيَّل إليَّ أن الجنون أشكال شتى.

ـ هل بوسع المرء أن يعرف هو نفسه أنه قد جُنَّ؟

ـ أعتقد أن المرء لا يستطيع في مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه. أجاب إيليوشا مدهوشاً.

ـ إذا كنت تحب أن تكلمني فأرجو أن تغيّر موضوع الحديث.

ـ صحيح. قال إيليوشا في خجل. كدت أنسى. معي رسالة لك.

وأخرج من جيبه رسالة ليزا وناولها إلى أخيه. كانا في تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع، فسرعان ما عرف إيڤان خط صاحبة الرسالة.

ـ نعم... رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة. قال وهو يضحك بخبث. ثم مزّق الرسالة قطعاً ورماها في الهواء دون أن يفض الظرف، فتناثرت أجزاؤها. وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره:

ـ كيف ذلك هي تعرض نفسها.

ـ كأية امرأة فاسقة.

ـ غير صحيح؟ قال إيليوشا يحتج في ألم: إنها طفلة! أنت تهين طفلة. هي مريضة، مريضة جداً. لعلها جُنَّت هي أيضاً... ما كان يمكنني أن أرفض نقل رسالتها إليك... وكنت أحب أن أعرف صحة الأمر منك أنت... حتى يمكن إنقاذها.

ـ لن تسمع مني شيئاً. إذا كانت هي طفلة فلست أنا حاضنتها. أسكت يا ألكسي. كفى! إنني لا أفكر فيها، حتى ولا تخطر على بالي.

وصمتا كلاهما بضع لحظات. ثم تابع إيڤان:

ـ سوف تصلّي الليل كله وتبتهل إلى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تلهمها ما يجب أن تقوله غداً في المحكمة.

ـ يعني... كاترينا إيڤانوفنا؟

ـ نعم. إذا كانت تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيعه. سوف تصلّي من أجل أن تهتدي إلى الرأي الصحيح. إنها لا تعرف هي نفسها حتى الآن ما الذي ستقوله، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتحضَّر للأمر. فهي تعتبرني حاضنةً لها، وتريد أن أهدهدها!

ـ كاترينا إيڤانوفنا تحبك يا أخي. قال إيليوشا بحزن.

ـ جائز. ولكن هذا لا يعنيني.

ـ إنها تتألم. لماذا قلت لها إذن... في بعض المرات... كلاماً يمكن أن يحيي في نفسها أملاً؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل.

ـ سامحني إذا قلت لك هذا الكلام! قال إيليوشا بصوت فيه شيء من لوم خجول.

ـ لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغي، أقول لها الحقيقة بقسوة، وأقطع

صلتي بها قال إيڤان بمرارة. يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً. لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام. ذلك أنها تكرهه، وهي تعلم أنها تكرهه. كل شيء هنا كذب. ليس بها أي صدق! هي الآن، وإلى أن أقطع صلتي بها، ستظل تأمل، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان، لعلمها بأنني أحاول أن أخرجه من المأزق. فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين؟

كان لكلمتي «القاتل» و «الشيطان» في قلب إيليوشا صدى أليم موجع.

وسأل إيليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ إلى معنى أقوال إيڤان:

ـ ماذا يمكن أن تقول كي تضيِّع أخانا؟ ما هي الأشياء التي يمكن أن تقولها في شهادتها فتنزل بديمتري كارثة؟

ـ أنت تجهل هذا حتى الآن. إنها تملك ورقة مكتوبة بخط ديمتري نفسه، ورقة تثبت إثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيودور بافلوفتش.

ـ مستحيل! صاح إيليوشا.

ـ لماذا؟ لقد قرأت الورقة بنفسي.

أجاب إيليوشا بقوة:

ـ لا يمكن أن يكون هناك وثيقة من هذا النوع. ذلك مستحيل إطلاقاً، لأن ديمتري لم يقتل. ليس هو قاتل أبينا، ليس هو قاتله!

توقف إيڤان فيودوروفتش عن المشي. وسأل أخاه بلهجة فيها شيء من الاستعلاء:

ـ فمن عسى أن يكون القاتل في رأيك؟

ـ أنت تعرفه. قال إيليوشا بصوت خافت نافذ:

ـ من؟ أيظل يُتصور ذلك الاتهام الغبي لرجل أبله مصاب بالصرع؟ أتقصد سمردياكوف؟

شعر إيليوشا برعدة تهز جسمه كله. وقال:

ـ أنت تعلم حق العلم أنه هو القاتل.

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير إرادة، وكان يلهث.

فقال إيڤان يصرخ في هذه المرة وقد ألمَّ به ما يشبه أن يكون غضباً مسعوراً:

ـ لكن من هو؟ من؟ تكلم! قال إيڤان وقد فقد كل سيطرة له على نفسه.

عاد إيليوشا يقول بهمس مختنق:

ـ أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت. ليس أنت، ليس أنت!

ـ «ليس أنت»؟ ماذا تريد أن تقول؟ سأله إيڤان مذهولاً.

فكرر إيليوشا قوله:

ـ ليس أنت قاتل أبينا، ليس أنت!

وخيم الصمت لحظة. ثم قال إيڤان وهو يبتسم ابتسامة ليس فيها إلّا انفراج الشفتين:

ـ أعلمُ أن القاتل ليس أنا طبعاً.

وغرز نظراته في عيني إيليوشا. وكان الأخوان قد وصلا إلى أحد مصابيح الشارع من جديد.

ـ اسمع يا إيڤان: لقد اتهمت نفسك بنفسك غير مرة، اتهمت نفسك بأنك أنت القاتل.

ـ متى قلت أنا هذا؟ متى؟ تمتم إيڤان زائغ النظرة تائهاً لقد كنت بموسكو في تلك الفترة. متى قلت أنا هذا الكلام؟

ـ قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها إلى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين. قال إيليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت، ولكنه كان ينطق

كل كلمة من كلماته واضحة. كان يتكلم كمن تدفعه إلى الكلام قوة لا تغالب، قوة غريبة عن إرادته. اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً إن القاتل الحقيقي هو أنت. ولكنك لست القاتل يا إيڤان. أنت على خطأ. لست أنت القاتل. هل تسمعني؟ ليس أنت، ليس أنت! الله قد أرسلني لأقول لك هذا.

سكت الأخوان. وساد صمت ثقيل خلال دقيقة طويلة. إن كلاً منهما يحدِّق إلى عيني أخيه منكفىء اللون شاحب الوجه. وفجأةً أخذت أعضاء إيڤان كلها ترتجف، وأمسك إيليوشا من كتفه، ودمدم يقول كازاً أسنانه:

ـ جئت إلى منزلي إذن في السر، في الخفاء. جئت ليلاً بينما كان هو عندي، هو... هيَّا اعترف! رأيتَه، رأيته، أليس كذلك؟

ـ من تعني... ميتيا؟ سأله إيليوشا مذهولاً.

ـ لا، ليس ميتيا. صاح إيڤان خارجاً عن طوره. ليأخذ الشيطان ميتيا. قل: من أين عرفت «أنه» جاء إليَّ؟ كيف عرفت ذلك؟ تكلم!

ـ من تقصد؟ قال إيليوشا مذعوراً. من الذي تعنيه بقولك إنه جاء إليك؟ من هو هذا؟ إنني لا أعرف من الذي تشير إليه بهذا الكلام.

ـ بل تعرف، تعرف. ولولا ذلك ما استطعت أن... يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر.

وسكت إيڤان في وسط الجملة، وتوقف عن الكلام. بدا أنه يفكر في شيء ما. وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

ـ أخي، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدّقني دائماً. قال إيليوشا بصوت مختلج. قلت لك ما قلت لتتذكر قولي إلى الأبد: لست أنت القاتل. تذكر هذا طوال حياتك، هل تسمع؟ لقد أمرني الله بأن أقول لك هذا الكلام، ولو جعلك ذلك تكرهني بعد اليوم..

ـ ولكن إيڤان فيودوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه في سلوكه.

ـ أنا لا أطيق يا ألكسي فيودوروفتش، الأنبياء ولا المرضى بداء الصرع. بدأ يقول بسخرية باردة. أما الذين يرسلهم الله فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم بشدّة أنت تعلم ذلك. إنني أقطع منذ الآن كل علاقة لي بك، أقطع كل علاقة لي بك إلى الأبد فيما يخيَّل إليَّ. أرجو أن تتركني فوراً، عند هذا المفترق. وليس لك على كل حال إلّا أن تسير في هذا الشارع الصغير الذي يفضي بك إلى مسكنك. وحاذر أن تجـيء إليَّ اليوم. هل سمعت؟

أدار ظهره، وابتعد بخطًى ثابتة دون أن ينظر إلى الوراء.

ـ أخي، صاح إيليوشا إذا حدث لك أمر ما في النهار، فاذكرني أنا قبل كل شيء!...

لم يجب إيڤان. وانتظر إيليوشا، عند مفترق الطرق، قرب المصباح، غياب شبح أخيه في الظلام. وعندئذ ابتعد هو أيضاً متجهاً إلى مسكنه بخطًى بطيئة. كان الأخوان يسكنان منفصلين في منزلين مختلفين. لم يشأ أحد منهما أن يقيم في المنزل المهجور الذي خلفه فيودور بافلوفتش. كان إيليوشا يسكن في غرفة مؤثثة عند عائلة من صغار سكان المدينة. وكان إيڤان يقطن في شقة واسعة بعيدة عن مسكن أخيه استأجرها من منزل امرأة ثرية هي أرملة أحد الموظفين. لم يكن يخدمه هنالك إلّا عجوز صغيرة صماء مصابة بالروماتزم تنام كل يوم في الساعة السادسة مساءً، وتنهض من نومها كل يوم في الساعة السادسة صباحاً. ولكن إيڤان كان قد أصبح قليل المطالب في شؤون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين، وأصبح يميل إلى الوحدة والاعتزال في مسكنه، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التي ينام فيها، ولا يدخل سائر غرف شقته إلّا نادراً. فلما وصل إلى باب منزله وضع يده على الجرس ولكنه أمسك عن قرعه فجأة. كان ما يزال يشعر بغضب شديد يُرعش جسمه كله. فما هي إلّا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً، واستدار على

عقبيه، واتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة، على بعد فرسخين من منزل صغير من خشب، تسكنه ماريا كوندراتيفنا، جارة فيودور بافلوفتش القديمة، التي كانت تأتي لتطلب الحساء من مطبخه، كان سمردياكوف ينشدها أغانيه عازفاً على القيثارة. لقد باعت هذه المرأة منزلها الصغير، وهي تسكن الآن مع أمها في كوخ حقير، بينما سمردياكوف المصاب بمرض مميت، استقر عندها منذ موت فيودور بافلوفتش. فإلى عند سمردياكوف كان إيڤان فيودوروفتش متجهاً الآن، تدفعه فكرة مفاجئة وصعبة.

# VI

## أول لقاء مع سمردياكوف

هذه المرة الثالثة التي يزور فيها إيڤان فيودوروفتش سمردياكوف، منذ عودته من موسكو. كان قد التقاه للمرة الأولى بعد وقوع الكارثة، وتحدث معه يوم عودته بالذات. ثم زاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين؛ لكنه قطع زياراته له بعد تلك المقابلة الثانية، بحيث أنه لم يره منذ أكثر من شهر وحتى لم يسمع عنه شيئاً. إن إيڤان فيودوروفتش لم يرجع من موسكو إلّا بعد موت أبيه بأربعة أيام، وكان أبوه قد دُفن عشية رجوعه. ويعود سبب هذا التأخر إلى أن إيليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه في موسكو فطلب إلى كاترينا إيڤانوفنا أن تتولى إبلاغه نبأ الوفاة ببرقية؛ وكانت تجهل هي أيضاً أين كان عنوان إيڤان على وجه الدقة، فأبرقت إلى عمتها وإلى أختها وفي تقديرها أن إيڤان فيودوروفتش سيزورهما إثر وصوله. إلا أن إيڤان لم يزرهما إلّا في اليوم الرابع، فلما قرأ البرقية أسرع عائداً إلى مدينتنا. وكان إيليوشا أول شخص التقاه إيڤان. لكن بعد أن حدثه عن الفاجعة، ذهل إذ رأى أخاه إيليوشا يرفض أن يشتبه بديمتري، يتهم سمردياكوف مباشرة بأنه هو القاتل، على عكس كل الآراء الأخرى في مدينتنا. فلما تحدث إيڤان بعد ذلك مع رئيس الشرطة ووكيل النيابة واطلع

على تفاصيل الاتهام والتحقيق، ازدادت دهشته من موقف إيليوشا، فنسب هذا الموقف إلى عاطفة الإخوة القوية، وإلى العطف والشفقة على شقيّ مسكين، ذلك أن إيڤان كان يعرف في الواقع أن إيليوشا يحب ديمتري كثيراً. ولنقل في هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف إيڤان نحو أخيه ديمتري فيودوروفتش: كان إيڤان يكره أخاه ديمتري بقوة ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة إلّا نادراً، وهي شفقة مرتبطة باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز. لقد شعر إيڤان دائماً بنفور من ميتيا، وكان ينفر حتى من شكله، ويسوؤه ما تكنه كاترينا إيڤانوفنا لهذا الشاب من حب. وقد زار ميتيا في السجن يوم وصوله، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل، بل عزَّزته. لقد وجد أخاه فريسة اضطراب شديد وجيشان مرضي. كان ميتيا يتكلم كثيراً، مع بقائه ذاهلاً مشوشاً، وكان يعبِّر عما في نفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة. كان يتهم سمردياكوف، وما ينفك يخبط في كلامه، عائداً فجأة إلى مسألة الثلاثة آلاف روبل التي «سرقها» منه المتوفَّى، قائلاً من حين إلى آخر: «كان هذا المال مالي أنا، هبْني سرقته فلا جناح عليَّ». أما القرائن التي تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها، حتى إذا عرض الوقائع التي كان يرى أنها دليل على براءته، اضطرب كلامه واختلطت الأمور في حديثه بكثير من الخراقة، وكأنه كان يحب أن لا يبرىء نفسه في نظر أخيه أو في نظر أي امرئ آخر؛ فهو يغضب ويثور، ويحتقر الاتهامات مستعلياً، ويرد عليها بشتائم، ويتهكم باحتقار على شهادة غريغوري بشأن الباب المفتوح، مؤكداً أن «الشيطان هو الذي فتح الباب»، دون أن يحاول البحث عن أي تعليل ممكن لهذه الواقعة. حتى لقد وجد السبيل، أثناء هذا الاجتماع الأول بأخيه إيڤان فيودوروفتش، إلى أن يهينه ويجرح شعوره، مردداً في جفاء أن الذين يدعون «أن كل شيء مباح» ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه.

وجملة القول أنه لم يظهر لإيڤان شيئاً من مودة، بل خاشنه وأغلظ له القول. وبعد هذا الاجتماع فوراً ذهب إيڤان فيودوروفتش إلى سمردياكوف.

كان إيڤان، حين غادر موسكو، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار، وفكَّر في الحديث الذي جرى بينهما عشية رحيله. إن عدداً كبيراً من التفاصيل كان يوقظ فيه الشبهات ويقلقه بشدة. ولكن إيڤان، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق، قد آثر أن يسكت موقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف. كان إيڤان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف. وكان هذا الأخير يومئذ في مستشفى المدينة. وقد صرَّح الدكتور هرتسنشتوبه لإيڤان، وكذلك الطبيب فارفنسكي الذي التقاه إيڤان في المستشفى، جازمين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً، حتى لقد استغربا هذا السؤال: «ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض يوم وقوع حادثة القتل؟». وقد أفهما إيڤان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة، لأنها دامت عدة أيام، وتكررت مراراً عديدة، حتى كادت تودي بحياته؛ وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدماها والاجراءات التي عمدا إلى اتخاذها أصبح من الممكن أن يقال الآن إن المريض لن يموت من هذه النوبة الأليمة. وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله: «على أن قواه العقلية ستبقى مضطربة مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل». وإذ كان إيڤان يسأل بشيء من نفاد الصبر «هل يجب أن يعتبر الخادم مجنوناً»، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً تماماً، وإنما لديه أنواع من الشذوذ. فقرر إيڤان أن يتحقق بنفسه بدقة من طبيعة هذه الاضطرابات. وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل. وكان سمردياكوف ينام على سريره في غرفة ذات سريرين. أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء، وكان قد بلغ درجة قصوى من

الضعف، فلن يعيش أكثر من يوم أو يومين، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث. فابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة حين رأى إيڤان فيودوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجل؛ أو هذا ما شعر به إيڤان على الأقل. ولكن ذلك الوجل سرعان ما زال، حتى لقد دُهش إيڤان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك. واستطاع إيڤان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً. لقد كان سمردياكوف ضعيفاً، ويتكلم ببطء كأنه يجد عناءً في تحريك لسانه، وكان قد هزل جسمه كثيراً، واصفر لونه. ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه. وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد صغر، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً، ولم يبق من ذؤابته إلّا خصلة متناثرة في قمة الرأس. ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضِّن قليلاً، والتي تغمز من حين إلى آخر لتوحي بمعان ماكرة، خانت سمردياكوف القديم. وتذكر إيڤان جملته التي سبق أن قالها له ذات يوم: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع إنسان ذكي». وجلس إيڤان على اسكملة من جهة قدمي المريض. فاستدار سمردياكوف على فراشه متألماً، ولكنه لم يكن أول من يتكلم، بقي صامتاً. وحتى نظره لم يبدُ أنه متحمساً للفضول.

ـ هل تستطيع أن تتحدث معي؟ سأله إيڤان. ألا يتعبك ذلك؟

ـ طبعاً أستطيع أن أتكلم. تمتم سمردياكوف بصوت واهن.

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك:

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة؟

ـ وصلت اليوم... جئت لأوضح الموقف.

تنهد سمردياكوف. فأسرع إيڤان يسأله:

ـ لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر.

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر. ثم قال:

ـ كيف كان يمكن ألّا أعلم؟ كان سهلاً معرفة ما سيحدث. ولكنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر.

ـ أي أمر؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران. ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل إلى القبو؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك إلى القبو!

سأله سمردياكوف بهدوء:

ـ هل ذكرت هذا في الشهادة التي أدليت بها؟

ـ كلا، بعد، ولكنني سأذكره حتماً. غضب إيڤان فيودوروفتش وأجابه بقوله: هناك نقاط كثيرة عليك أن توضِّحها لي، واعلم أنني لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معي!

ـ لماذا ألعب الدور الذي تطلبه ما دام أملي كله معقوداً عليك، وعلى الله! قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه، مكتفياً بإغماض عينيه لحظة.

ـ في البدء، قال إيڤان، أنا أعلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع. لقد سألت عن هذا الأمر، فعلمت أن ذلك مستحيل، لذلك أنصحك بألّا تراوغ. يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التي يُصاب بها بنوبة من هذا النوع. فكيف أمكنك أن تحدِّد لي سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة، وكيف استطعت أن تحدد المكان الذي ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول إنه القبو؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك في القبو، إذا لم تكن قد اصطنعتها وتظاهرت بها؟

ـ على كل حال، كان عليَّ أن أنزل إلى القبو، أجاب سمردياكوف ببطء، جاراً كلماته. بل كان عليَّ أن أنزل إليه عدة مرات في اليوم. وفي ظروف كهذه

سقطت من الشونة في العام الماضي. صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم والساعة التي توافيه فيها نوبة صرع، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه.

ـ ولكنك أنت تنبأت باليوم والساعة!

ـ فيما يتعلق بمرضي، من الأفضل أن تسأل أطباء هذا المستشفى. سلهم عن نوبة الصرع هل كانت مصطنعة أم لا! أما أنا فلا أرى أن عليَّ أن أزيد على ما قلت شيئاً.

ـ والقبو؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك في القبو؟

ـ هذا القبو يقلقك! المسألة بسيطة: حين كنت نازلاً إلى القبو ألمَّ بي خوف وقلق، أصابني ذعر خصوصاً، لأنك كنت غائباً فلم يبقَ لي أحد يحميني. نزلت إلى ذلك القبو وأنا أقول لنفسي: «الآن ستجيئني النوبة، الآن! أَسأقع؟ أسأقع؟» وبسبب ذلك القلق الذي شعرت به عندئذ أحسست بذلك التشنج اللعين في حلقي... ثم تدحرجت! هذه التفاصيل كلها، وذلك الحديث الذي جرى بيني وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل، حين أخبرتك عن مخاوفي بشأن القبو، ذلك كله رويته بأمانة للدكتور هرتسنشتوبه، ولقاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش، فسجَّلا جميع تصريحاتي في المحضر. أما الدكتور فارفنسكي فقد ألحَّ عندئذ على أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو، وعلى أن نوبة الصرع التي أصابتني كان سببها حتماً خوفي منها، وتوقُّعي لها: «سأسقط أم لا؟»، فإذا بالنوبة توافيني في تلك اللحظة بعينها. ذلك ما سجَّلوه في المحضر، وأضافوا إليه أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف.

قدّم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس بعمق، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب.

ـ هل ذكرت أنت هذه التفاصيل في شهادتك؟ سأله إيڤان فيودوروفتش مبلبلاً.

ذلك أن إيڤان كان ينوي أن يخيف الخادم بتهديده بإفشاء أمر الحديث الذي جرى بينهما عشية الجريمة، فإذا هو يعرف الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه إلى ذكر كل التفاصيل.

قال سمردياكوف بصوت ثابت.

ـ ماذا كنت أخشى؟ إنني أحرص على أن تُسجَّل الحقيقة كلها في المحضر.

ـ هل ذكرت الحديث الذي جرى بيننا كلمة كلمة؟

ـ لا، لم أذكره كلمة كلمة.

ـ هل قلت لهم أيضاً إنك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامي؟

ـ لا، لم أقل لهم ذلك.

ـ قل لي الآن لماذا كنت حريصاً على أن أسافر إلى تشرماشنيا؟

ـ كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو. إن تشرماشنيا أقل بعداً من موسكو على كل حال.

ـ كاذب! كنت تريد أن أبتعد عن هنا. «سافر، أهرب من الاثم». ذلك ما كنت تقوله لي.

ـ لئن قدَّمت لك هذه النصيحة، فإنما فعلت ذلك من باب الصداقة، والاخلاص لشخصك، لأنني كنت أتوقع المصيبة التي كانت ستحل بهذا المنزل، فكنت أشفق عليك وأرثي لك. غير أن اهتمامي بسلامتي غلب عليَّ، فقلت لك «اهرب من الاثم»، وذلك لكي تعرف أن شراً يتربص بالمنزل، فأحملك على البقاء هنا لتحمي أباك.

ـ كان عليك أن تقول لي ذلك ببساطة دون لف ودوران! صاح إيڤان غاضباً.

ـ كيف كان يمكنني أن أكلمك مباشرة أكثر مما فعلت؟ كان الخوف قد شلَّني، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك. صحيح أن هناك ما كان يجعلني أخاف أن يرتكب ديمتري فيودوروفتش حماقة ما، وأن يستولي على ذلك المبلغ لأنه كان يعتبره ملكاً له، ولكن كيف كان بإمكاني أن أتنبأ بأن الأمر سينتهي إلى جريمة قتل؟ كنت أعتقد أنه سيكتفي بأخذ الثلاثة آلاف روبل التي كان سيدي يخبئها في ظرف تحت الفراش. ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك. هل كان في وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع؟

ـ إذا كنت تقول أنت نفسك إن التنبؤ بذلك كان مستحيلاً، فكيف كان يمكنني أن أتنبأ أنا به، فأبقى هنا؟ إنك تخلط الأمور وتتخبط في الكلام. قال إيڤان فيودوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر.

ـ كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأنني كنت أَلِحُّ عليك كي تسافر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو.

ـ كيف كان يمكنني أن أتنبأ؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد، فسكت بضع لحظات من جديد، ثم قال:

ـ كان يمكن أن تتنبأ بذلك، نظراً إلى كوني كنت أوجهك في تشرماشنيا لا في موسكو. فإذا عرف ديمتري فيودوروفتش أنك قريب من هنا، فلعله كان سيتردد؛ وكان في وسعك إذا كنت في تشرماشنيا أن تسارع فتجيء لتحميني عند الحاجة لأنني قد حدثتك عن مرض غريغوري فاسيلتش وعن توجسي نوبة الصرع التي ستوافيني. وقد أطلعتك، عدا ذلك، على الإشارات التي يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب. وحين أسررت اليك أن ديمتري فيودوروفتش كان يعرف هذه الاشارات لأنني أطلعته عليها، كنت أقدِّر أنك ستدرك ما يتربص بالمنزل من شر، وأنك ستعدل حتى عن السفر إلى تشرماشنيا، وأنك ستبقى هنا.

«إنه يحسن صياغة جمل متماسكة. فأين هي إذن تلك الاضطرابات العقلية التي تكلم عليها الدكتور هرتسنشتوبه؟». قال إيڤان لنفسه.

ـ أتحاول أن تخدعني؟ يا لك من قاطع طريق! هتف إيڤان غاضباً.

ـ وأنا أعترف لك بأنني كنت قد أيقنت أنك فهمتني أثناء ذلك الحديث. أجابه سمردياكوف وقد لاح في وجهه أقصى البراءة.

ـ لو قد فهمت لبقيت. صاح إيڤان غاضباً مجدداً.

ـ وأنا اعتقدت أنك فهمت كل شيء، وعرفت كل شيء، وأنك أسرعت تسافر لكي تبتعد عن الاثم، والنأي عما يتهيأ هنا من شر، بالهرب إلى مكان بعيد، من قبيل الخوف.

ـ هل تعتقد أن جميع الناس جبناء مثلك؟

ـ معذرة يا سيدي. كنت أظن أنك مثلي!

ـ لنسلِّم أنه كان في إمكاني أن أحزر قال إيڤان مضطرباً.. لقد كنت أقدِّر حقاً أنك تهيىء شراً ما.

ولكن إيڤان صاح وقد تذكّر نقطة معينة من الحديث الذي جرى بينهما قبل رحيله:

ـ لكنك تكذب! تكذب! هل تتذكر أنك اقتربتَ من عربتي لحظةَ رحيلي لتقول لي: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي»؟. إذن لقد سرَّك أن تراني راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لي المديح!

تنهد سمردياكوف وهو يبذل جهداً واضحاً لكي يسترد أنفاسه:

ـ لئن سُررت، فإن سروري لم يكن له من سبب إلّا أنني رأيتك لا تسافر إلى موسكو بل إلى تشرماشنيا التي هي أقرب من موسكو على الأقل. أما ما اعتبرته مديحاً، فإنه في الحقيقة تأنيب.

ـ تأنيب؟ لومي على ماذا؟

ـ على أنك رغم توجُّسك الشر، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا لحمايتنا. ذلك أنني كنت أنا أيضاً معرَّضاً لأن أُقحم في القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التي كان يمكن أن يُظن أنني سرقتها.

ـ ليأخذك الشيطان! قال إيڤان غاضباً... هل حدثت قاضي التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الإشارات، عن تلك الضربات على النافذة؟

ـ حدثتهما عنها. قلت لهما كل شيء.

دُهش إيڤان فيودوروفتش بينه وبين نفسه مجدداً. ثم استأنف كلامه:

إذا كنتُ قد ارتبت في شيء أثناء ذلك الحديث، فقد كان دار ارتيابي بأن ترتكب أنت حقارةً ما. صحيح أن ديمتري كان يمكن أن يقتل، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلِّم به حينذاك. ولا كذلك أنت، فإنني كنت أتوقع منك كل شيء. ألم تسرَّ إليَّ أنت نفسك أن في وسعك أن تصطنع نوبة صرع؟

ـ قلته عن بساطة. إنني لم أتظاهر بنوبة صرع في يوم من الأيام. وإنما أردت أن أتباهى أمامك. وهذا غباء مني. كنت أحبك كثيراً، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة.

ـ إن أخي يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت.

ـ ماذا بقي له أن يقول؟ أجابه سمردياكوف بابتسامة مرة. الذي سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه كل تلك الأدلة؟ الباب الذي رآه غريغوري فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال... كيف يمكنه أن يتهمني بعد هذا؟ سامحه الله! إنه يحاول إنقاذ نفسه بأية طريقة!...

سكت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثم أردف:

ـ هو الأمر نفسه. إنه يريد أن يلقي الجرم على عاتقي مدعياً أنني أنا الذي قمت بالضربة. أعرف القصة. ولكن فكِّر قليلاً: لقد ذكرت لك مازحاً أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع. أفكان يمكن أن أقول لك إنني قادر على

ذلك التظاهر لو كنت أنوي قتل أبيك؟ هل يتخيل أحد أن إنساناً يبيِّت جريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدَّ فضح نفسه سلفاً، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة، بالتحدث في هذا الأمر إلى ابن الضحية نفسه؟ ذلك شيء لا يمكن تصديقه إطلاقاً. ما من أحد يسمعنا في هذه اللحظة، ما من أحد يسمعنا إلّا الله. ولكنك، حتى لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضي التحقيق، فسوف تخدمني: هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة؟ ذلك ما سيقوله جميع الناس.

دهش إيڤان فيودوروفتش من هذه الملاحظة الأخيرة:

ـ اسمع، إنني لا أشتبه أبداً في أنك ارتكبت هذه الجريمة، بل إنني أرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك.

ـ وإني شاكر لك أنك طمأنتني في هذا الموضوع، قال إيڤان وهو ينهض. إنني أتركك الآن، ولكنني سأزورك مرة أخرى. إلى اللقاء. أتمنى لك شفاء سريعاً. هل أنت في حاجة إلى شيء؟

ـ شكراً يا سيدي! شكراً لك على كل شيء. إن مارفا إينياتيفنا تهتم بأمري، وتجعلني في غير حاجة إلى شيء، على عادتها في الشهامة. لا شيء يعوزني. هناك أناس طيبون يزورونني كل يوم.

ـ إلى اللقاء. أنا لن أكشف شيئاً مما ذكرته لي عن حذقك في اصطناع الصرع والتظاهر به. وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا في شهادتك أنت أيضاً. أضاف إيڤان دون أن يعرف لماذا.

ـ أفهمك جيداً. ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت، فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذي جرى بيننا حينذاك أمام المنزل.

خرج إيڤان فيودوروفتش من غرفة المريض مسرعاً، ولم يدرك ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التي قالها سمردياكوف من إهانة له، إلّا بعد

أن قطع نحو عشر خطوات في الممشى، فأوشك عندئذ أن يقفل راجعاً إلى المريض، ولكن هذه النية التي هجست في نفسه نصف ثانية، لم تلبث أن تبددت، واكتفى بأن دمدم قائلاً: «هذه سخافات!»، ثم أسرع يغادر المستشفى. كان الأمر الأساسي في نظره هو أنه تأكد أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف، رغم أنه كان يتوقع عكس ذلك. لماذا انقلبت تنبؤاته إلى هذا الحدّ؟ كان إيڤان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته، حتى لقد ينفر من تحليل نفسه في هذه النقطة. كان يحاول، فيما يبدو، أن ينسى شيئاً ما. وقد اقتنع أثناء الأيام التالية بأن ميتيا هو الجاني، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التي تجمعت على أخيه. وكان عدد من الشهادات يدينه إدانة خاصة، رغم صدور هذه الشهادات عن أشخاص غرباء عن المأساة وضيعي الظروف الاجتماعية، من ذلك شهادة فينيا وجدّتها. أما تصريحات برخوتين وروّاد الكباريه ومستخدمي متجر بلوتنيكوف وأهل موكرويه، فقد كانت خطورتها واضحة تماماً. وكانت التفاصيل تدعو إلى القلق. إن المعلومات التي تتعلق بالاشارات السرية قد أثرت في قاضي التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة غريغوري عن الباب المفتوح إن لم يكن أكثر. وقد أجابت زوجة غريغوري، مارفا إينياتيفنا، عن سؤال ألقاه عليها إيڤان فيودوروفتش فقالت إن سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز نائماً على حصيرة «تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه»، وأنها رغم أنها نامت نوماً عميقاً، قد استيقظت مراراً عديدة لدى سماعها أنّات المريض. وأضافت تقول: «إنه لم ينقطع عن الأنين، لم ينقطع عن الأنين». وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذي أطلعه إيڤان على انطباعاته عن سمردياكوف، قائلاً إنه لا يصدق أبداً أن سمردياكوف مجنون، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة: «هل تعرف ما الذي يشغله الآن؟ تصور أنه يقضي وقته في حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب. إنه يخفي تحت وسادته

دفتراً سجَّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية. هئ هئ!». هكذا عدل إيڤان أخيراً عن شكوكه، وأصبح لا يفكر في أخيه ديمتري إلّا ويشعر باشمئزاز. ومع ذلك بقي هنالك شيء يبدو له غريباً: إن إيليوشا مايزال يدَّعي، في إصرار، أن الجريمة لم يرتكبها ديمتري، وأن «أغلب الظن» أن سمردياكوف هو الجاني. ولقد كان إيڤان يحترم دائماً، في قرارة نفسه، آراء إيليوشا، لذلك كان موقف إيليوشا في هذه القضية يدهشه كثيراً. ومن الغريب أيضاً أن إيليوشا لم يسع يوماً إلى انتهاز فرصة يتحدث فيها إليه عن ميتيا، لا ولا كان البادىء في الكلام عن هذا الموضوع أبداً، وكان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التي يلقيها عليه أخوه. ذلك أمر أدهش إيڤان. جدير أن نلاحظ على كل حال أن إيڤان كان في تلك الفترة منهمكاً في مشاغل غريبة عن دعوى أخيه. فمنذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترينا إيڤانوفنا. ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذي استبد بإيڤان فيودوروفتش والذي سيؤثر في مجرى مصيره. فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى، موضوع رواية أخرى لست أدري بعد هل أكتبها في يوم من الأيام. ولكنني لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيله هذه الملاحظة الآن: وهي أن إيڤان حين رجع من منزل كاترينا إيڤانوفنا ليلاً بصحبة إيليوشا، قال لأخيه بأن هذه لا تهمه ولا يعنيه أمرها، إنما كان يكذب بلا حياء. فالحق أنه كان يحبها بجنون، رغم أنه صدق حين قال إنه يكرهها في بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن ينوي قتلها. ولهذا أسباب كثيرة: منها أن كاترينا إيڤانوفنا التي هزتها المأساة وهزها اعتقال ميتيا بقوة قد استقبلت إيڤان فيودوروفتش لدى عودته من موسكو استقبالها لمنقذ. كانت تشعر بأن الأحداث التي جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها، وها هو رجل كانت تحبه منذ زمن طويل ـ آ... نعم، هي تعرف أنها تحبه منذ زمن طويل ـ رجل كانت تحترم ذكاءه

وقلبه على كل حال، ها هو يعود إليها. ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم كلياً رغم ما يتصف به هيام صديقها من عنف مضطرب ـ وهو واحد من آل كارامازوف في هذه الناحية ـ ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة. وكانت في الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها باستمرار، لأنها خانت ميتيا، وكانت في اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع إيڤان (وهي مشاجرات كانت تتكرر كثيراً في ذلك الأوان)، لا تتردد عن أن تصرخ في وجهه غاضبةً بشدة. وبسبب هذا الموقف الذي كانت تتخذه اتهمها إيڤان، في حديثه مع إيليوشا، بأنها تتلذذ بالكذب ويحلو لها أن تسترسل فيه. والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب اللاشعوري، وذلك ما كان يغضب إيڤان فيودوروفتش بصورة خاصة... ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد. وحسبنا أن نقول الآن إن إيڤان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت. غير أن الخواطر الغريبة التي سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف. ويكفي أن نقول إنه راح يتساءل بدون انقطاع، لماذا في هذه اللحظة بالذات، وفي ليلته الأخيرة، في منزل أبيه، وقبل سفره تماماً، نزل خفية، كالسارق، على السلم، ليتنصت على ما كان يفعل والده. لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر، ولماذا اجتاحت نفسه فجأة عند وصوله إلى موسكو كآبة عميقة، حتى قال في نفسه: «أنا وغد!»؟ وقد تبادر إلى ذهنه، ذات يوم، بسبب هذه الأفكار المعذبة التي ترهقه أن بإمكانه أن ينسى حتى كاترينا إيڤانوفنا بسبب عظم القوة التي كانت تستبد به. وفيما هو يجيل هذا الخاطر في رأسه في تلك اللحظة، التقى إيليوشا في الشارع، فاستوقفه ثم سأله:

ـ هل تذكر أنني في عصر اليوم الذي اقتحم فيه ديمتري منزل أبينا بعد

الغداء، وضربه، قد قلت لك بعد ذلك إنني أحتفظ لنفسي «بحق الرغبة والتمني»؟ هل قدَّرت في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى موت أبينا؟ أجب!

ـ نعم قدَّرت ذلك. قال إيليوشا بصوت خافت.

ـ كان ذلك هو الحقيقة على كل حال، ولا حاجة بالمرء إلى كبير مكرٍ حتى يدرك هذه الحقيقة. ولكن ألم تشعر في ذلك اليوم أنني كنت أتمنى فعلاً أن أرى «السراطين يلتهم بعضها بعضاً»، أي أن يقتل ديمتري أبانا، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة... وأنني ما كان يسوؤني أن أساهم من جهتي في هذا الحادث؟ قل!...

اصفر لون إيليوشا قليلاً وحدَّق إلى عيني أخيه صامتاً.

صاح إيڤان يقول:

ـ هلّا تكلمت أخيراً؟ أريد أن أعرف، بأي ثمن، ما فكرت فيه يومذاك. أريد أن أعرف الحقيقة، الحقيقة، هل سمعت؟

وتنفس إيڤان تنفساً شاقاً، ونظر إلى أخيه إيليوشا بنوع من غضب مستبق.

ـ سامحني. تمتم إيليوشا. لقد قدَّرت ذلك أيضاً.

ولكن إيليوشا لم يلبث أن سكت دون أن يضيف ذكر أي «ظرف مخفف».

ـ شكراً. قال له إيڤان بجفاف، تاركاً إيليوشا ومتابعاً طريقه.

ومنذ ذلك اليوم أحسَّ إيليوشا أن أخاه يحاول أن يتجنبه، بل وأنه يشعر نحوه بشيء من الكره، بحيث أنه كفَّ هو نفسه عن زيارته. ولكن، في تلك اللحظة، مباشرة بعد لقائهما، ذهب إيڤان فيودوروفتش فجأة إلى سمردياكوف.

# VII

## الزيارة الثانية إلى سمردياكوف

في هذه اللحظة، كان سمردياكوف قد خرج من المستشفى. وكان إيڤان فيودوروفتش يعرف عنوانه الجديد: في ذلك البيت الخشبي الصغير الذي تداعى جزء منه، والذي يتألف من غرفتين اثنتين يفصل بينهما ممر مشترك. كانت إحدى الغرفتين تؤوي ماريا كوندراتيفنا وأمها، والغرفة الأخرى سمردياكوف. والله وحده يعلم على أي أساس سكن عندهما: أبصفته صديقاً أم مستأجراً؟ وقد افترِض، فيما بعد، أنه اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا، وبالتالي كان لا يدفع أجراً. والأم وابنتها كانتا تحترمانه كثيراً وتعتبرانه رجلاً متفوقاً. وبعد أن قرع إيڤان فيودوروفيتش الباب طويلاً، دخل الممر المشترك؛ ورافقته ماريا كوندراتيفنا إلى «الغرفة الجميلة» التي يسكنها سمردياكوف، فاتجه إليه قدماً لا يلوي على شيء مباشرة إلى اليسار. الغرفة مدفأة تدفئة شديدة بموقد من خزف. والجدران مغطاة بورق أزرق ممزق في مواضع عديدة، حيث تعيش حشراتٌ أصوات حركاتها لا تنقطع. والأثاث بائس: دكتان على طول الجدارين، وكرسيان قرب طاولة من خشب، بسيطة جداً، لكنها مغطاة بشرشف مشجَّر وردي اللون. وتزدان كل من النافذتين

الضيقتين بأصص أزهار. وفي إحدى الزوايا تُرى إيقونات. وعلى الطاولة سماور من نحاس، صغير الحجم، كثير التقعّر، مع صينية وفنجانين. كان سمردياكوف قد انتهى من شرب الشاي، فالسماور قد أطفىء... وسمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو الطاولة، عاكف على كتابة شيء في دفتر. هذه محبرة صغيرة موضوعة في متناول يده، وتلك شمعة في شمعدان من البرونز تلقي ضوءاً ضعيفاً على طاولته. أدرك إيڤان فيودوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أنه قد شُفي من مرضه. أصبح لونه أكثر نضارة، وخداه أقل خسوفاً، واسترد ذؤابة رأسه، وعاد يدهن شعره من جديد. يرتدي الآن معطفاً منزلياً زاهي الألوان مبطناً بقطن، لكنه «مهترىء» جداً. وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لإيڤان أن رآهما من قبل، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن أغضب إيڤان. قال إيڤان لنفسه: «أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين». ورفع سمردياكوف رأسه ببطء، وشخص بنظره إلى الزائر من خلال النظارتين محدّقاً. ثم خلعهما على مهل، ونهض متكاسلاً، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام، كأنه يقوم بواجب تمليه اللباقة التي لا يملك أن يستغني عنها. سرعان ما أدرك إيڤان معنى هذا الوضع، وقد لاحظ نظرة سمردياكوف التي كانت تعبِّر عن الاستياء وعداوة وقحة، فكأنه يقول له: «ما الذي يحملك على إزعاجي هنا وقد سبق أن تكلمنا على كل شيء؟». كبح إيڤان جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً. وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه:

ـ الحَرُّ شديد في غرفتك.

ـ اخلع معطفك إذن. أجابه سمردياكوف متلطفاً.

خلع إيڤان معطفه ورماه على الدكة، ثم تناول كرسياً بيد ترتجف غضباً، فأدناه من الطاولة بحركة عنيفة وجلس عليه. وكان سمردياكوف قد جلس قبله.

ـ قبل أن نبدأ: هل نحن وحدنا هنا؟ سأله إيڤان بلهجة قاسية ألا يسمعنا أحد في الجهة الأخرى؟

ـ لا أحد يسمع شيئاً في الممر!

ـ اسمع يا صديقي: الكذبة التي قلتها لي في المرة الماضية عندما تركتك في المستشفى بأنك لن تخبر القاضي بكل ما جرى بيننا أمام المنزل إذا أنا لم أتكلم على حذقك في اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها؟ ما هي تلك «التفاصيل» التي أردت أن تشير إليها؟ إلى ماذا أردت أن تلمح؟ أردت أن تهددني؟ هل تريد أن تزعم أنني كنت متواطئاً معك وأنني اليوم خائف منك؟

كان إيڤان يتكلم بغيظ وغضب مكبوح، وكأنه كان يريد أن يبرهن بإلقاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة والدوران، وأنه يحب أن يلعب بالورق مكشوفاً على الطاولة. لمع التماعٌ خبيث في نظرة سمردياكوف، وبدأت عينه اليسرى تطرف، وأسرع يجيب قائلاً: لما عُهد فيه من تحفظ واعتدال، وكانت هيئته تشبه أن تقول: «أتريد الحقيقة؟ إذن سأقولها لك».

ـ ما أردت أن أقوله؟ إن ما أردت أن أقوله هو التالي تماماً: إنك تركت أباك بغير حماية، مع علمك سلفاً بمشروع قتله. لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، وأن لا أقول للسلطات شيئاً، حتى لا تستخرج منها نتائج سيئة في موضوع مشاعر الحقد التي كانت تجيش في نفسك، وربما في موضوع أمر آخر أيضاً.

قال سمردياكوف هذه الكلمات على مهل، مسيطراً على نفسه تماماً فيما يبدو، ولكن لهجته كانت قد تغيرت، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات وإصرار، وشيء من شر وتحدٍّ في الوقت عينه. وحدَّق بوقاحة إلى إيڤان فيودوروفتش الذي أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه في الوهلة الأولى. قال إيڤان صائحاً:

ـ ماذا؟ كيف؟ هل أنت مجنون أو ماذا؟

ـ ثق أنني أملك عقلي كاملاً.

ـ ولكن لم يكن بإمكاني أن أتنبأ بجريمة القتل. قال إيڤان فيودوروفتش وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ضربة عنيفة: وماذا تعني بهذه الكلمات: «وربما في موضوع أمرٍ آخر أيضاً»؟ تكلَّم أيها الوغد؟

كان سمردياكوف صامتاً، مصراً على النظر إلى إيڤان فيودوروفتش بنظرة وقحة.

ـ تكلم أيها الوغد العفن! صاح إيڤان فيودوروفتش: ما الذي تعنيه بالأمر «الآخر»؟

ـ الأمر الآخر الذي أردت قوله هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك.

قفز إيڤان فيودوروفتش من مكانه، ووجَّه إلى كتف الخادم لكمة عنيفة، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار، وغرق وجهه بالدموع، وتمتم قائلاً: ألا تخجل يا سيدي أن تضرب إنساناً لا يملك دفاعاً عن نفسه. ثم غطى عينيه بمنديل قذر ذي مربعات زرقاء، وراح يبكي بكاء صامتاً. وانقضت على ذلك دقيقة.

ـ كفى! كفَّ عن البكاء الآن. قال له إيڤان فيودوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود إلى الجلوس: إياك أن تُفقدني صبري! أزاح سمردياكوف المنديل عن عينيه. كانت جميع قسمات وجهه الرث تعبِّر عن الإهانة التي أُلحقت به.

ـ أتخيلتَ إذن أيها الشقي أنني كنت أتمنى موت أبي، متفقاً مع ديمتري؟

ـ لم يكن في وسعي أن أعرف أفكارك حينذاك، أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة. لذلك استوقفتك أمام المنزل لأمتحنك في هذه النقطة بعينها.

ـ ماذا تعني؟

ـ أردت أن أعرف هل أنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التي يصر هذا الخادم على ألّا يتخلى عنها تثير غضب إيڤان فيودوروفتش.

ـ أنت الذي قتلته! صاح يقول له فجأة.

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة، وقال:

ـ أنت تعلم جيداً أنني لست القاتل، قال سمردياكوف باحتكار. كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من إكثار الكلام في هذا الموضوع.

ـ ولكن لماذا، لماذا قامت في ذهنك شبهة كتلك الشبهة عني؟ قل لي: لماذا؟ تساءل إيڤان.

ـ كما تعرف جيداً. هو الخوف وحده. كنت في وضع يحملني الخوف فيه على الاشتباه في كل إنسان. لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً، قائلاً لنفسي: إذا صدق أن إيڤان فيودوروفتش يتمنى ما يتمناه أخوه، فقد سوِّي الأمر، وسأهلك أنا في هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً.

ـ اسمع: إنك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين.

ـ في المستشفى أردت أن أُفهمك هذا كله أثناء الحديث الذي دار بيننا، ولكنني افترضت أنك تفهم بلا أقوال زائدة، وأنك ما كنت تريد نقاشاً مباشراً.

ـ عجيب. ولكن أجبني، أجبني، إنني أصرُّ: كيف أمكن أن تنبت في نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة؟ على ماذا أقمت ذلك الاشتباه ضدي؟

ـ بالنسبة إلى القتل، لم تكن تريد أن تقتل أباك بنفسك. وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد كنت تتمنى ذلك!

ـ ويقول هذا الكلام بهدوء، بهدوء! لأي غرض كان يمكنني أن أتمنى ذلك؟ ما الذي كنت أرجوه من مقتل أبي؟

أجاب سمردياكوف بلهجة انتقامية:

ـ لأي غرض؟ ما هذا السؤال؟ هو الميراث طبعاً. كان كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل في أقل تقدير، وربما أكثر من ذلك. ولكن لو تزوج فيودور بافلوفتش تلك المرأة، أقصد أغرافينا ألكسندروفنا، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزواج، ولما نلتم منها أنتم الإخوة الثلاثة حتى ولا ألفي روبل. معنى ذلك لو تمَّ هذا الزواج لشنقكم من أنوفكم. لقد كان هذا الزواج أمراً يسيراً: كان يكفي أن ترفع تلك المرأة إصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم إلى الكنيسة صاغراً طائعاً.

استطاع إيڤان فيودوروفتش أن يكظم غيظه بكثير من العناء. وقال له أخيراً:

ـ جيّد. أنت ترى أنني لم أثب من مكاني لأضربك، وأنني لم أقتلك بسبب أقوالك هذه. أتمم كلامك: أنت تتصور إذن أنني تركت لأخي ديمتري مهمة ارتكاب الجريمة، وأنني في قرارة نفسي قد عوَّلت عليه، أليس كذلك؟

ـ وكيف لا تعوِّل عليه؟ المسألة واضحة: حين يقتل أخوك أباه، فإنه يفقد امتيازات النبالة، ويفقد رتبته وثروته ويُنفى إلى سيبيريا. وبذلك تعود إليك وإلى أخيك ألكسي فيودوروفتش حصّته من ميراث أبيه، ويقسَّم بينكما، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً. لا شك أبداً في أنك عوَّلت على ديمتري فيودوروفتش لتحقيق هذه الغاية والوصول إلى هذه النتيجة!

ـ عجيب أنني أحتمل أقوالك! اعلم أيها الشقي أنني لو عوَّلت على أحد لعوَّلت عليك أنت لا على ديمتري! وأقسم أنني أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... إنني أتذكر ذلك الاحساس الذي هجس في قلبي بوضوح تام!

ـ أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوِّل عليَّ. أجاب سمردياكوف ساخراً: لقد خطر هذا على بالي لحظة عابرة، ولكن ما كان لهذا الأمر إلّا أن يزيدني اقتناعاً برغبتك في وقوع الجريمة. فما دمت قد قدَّرت أنني أبيِّت جريمة، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعني إلّا أنك تقول لي: «اقتل أبي إن شئت، فلست أعارض في هذا».

ـ أنت وغد حقير! أهكذا فهمت سلوكي إذن؟

ـ السبب هو ذلك السفر إلى تشرماشنيا يا سيدي. فكِّر قليلاً: كنتَ قد قررت أن تسافر إلى موسكو، ورفضت رغم إلحاح أبيك أن تذهب إلى تشرماشنيا؛ ثم إذا بك توافق فجأة على أن تذهب إلى تشرماشنيا استجابةً لبضع كلمات سخيفة قلتها أنا، فلماذا ارتضيت السفر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو؟ ما دمت قد غيَّرت قرارك بدون سبب إلّا ما أوحيت به أنا إليك، فلا معنى لهذا غير أنك كنت تنتظر شيئاً مني أنا.

ـ لا، لا، أقسم لك. صاح إيڤان «كازاً» على أسنانه.

ـ كيف لا؟ لقد كان من واجبك، خلافاً لما حدث، أن تستدعي الشرطة وتطلب منها اعتقالي فوراً لأنني قلت تلك الأقوال لك أنت، ابن فيودور بافلوفتش! كان من واجبك على الأقل أن تقتلني في مكاني! ولكنك بدلاً من ذلك، ودون أن تغضب، غيَّرت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التي أسديتها إليك. ثم إن ذلك السفر إلى تشرماشنيا كان سخيفاً، كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج؟

بقي إيڤان جالساً، متجهّم الوجه، قابضاً كفيه على ركبتيه.

ـ كان عليَّ أن أضربك حينذاك. قال وهو يبتسم بمرارة: أما أن تعتقلك الشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً: لم يكن في إمكاني أن أتهمك بأي شيء محدد، ولو اتهمتك لما صدقوني. ولكن كان يجب عليَّ أن أضربك، نعم كان

يجب عليَّ أن أضربك. وكان في وسعي أن أحطم وجهك مسروراً، رغم أن ذلك محظور.

كان سمردياكوف يتأمله وقد لاح في وجهه ما يشبه الافتتان.

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية التي كان يصطنعها في الماضي أثناء مناقشاته عن الإيمان مع غريغوري فاسيلتش عندما كان يحاول أن يشاكسه في خلافات لاهوتية وهو يقف قرب طاولة فيودور بافلوفتش:

ـ صحيح أن استخدام القوة أمر يحظره القانون، وأن الناس قد عدلوا عن هذا في أيامنا هذه. ذلك في الأحوال العادية. أما في الأحوال الاستثنائية فالناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر، تماماً كما كانوا يفعلون في عهد آدم وحواء. وهذا لا يجري في بلادنا وحدها، بل في العالم بأسره، وحتى في أجمل الجمهوريات، كالجمهورية الفرنسية، وسيظل الأمر كذلك. وأنت لم تجرؤ أن تضربني في تلك الحالة الاستثنائية التي نحن بصددها.

ـ لماذا تتعلم كلمات فرنسية؟ سأله إيڤان وهو يومىء إلى الدفتر الموضوع على الطاولة.

ـ ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية؟ أريد إتمام تحصيلي، فربما قادتني الظروف إلى أن أعيش ذات يوم، أنا أيضاً، في تلك البلاد السعيدة، بلاد أوروبا.

ـ اسمع أيها المسخ! صاح إيڤان وقد سطعت عيناه وارتعد غضباً. أنا لا أخشى اتهاماتك، وبإمكانك أن تشهد عليَّ كما تشاء. ولئن لم أضربك حتى الموت في هذه اللحظة نفسها، فإن السبب الوحيد الذي يجعلني أغيِّر رأيي هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني، ولا أريد أن أنقذك من العدالة. سأعرف كيف أنزع عنك القناع، صدقني!

ـ أنا أرى أنه من الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً. ما الذي يمكنك أن تستند إليه لاتهام بريء، ومن الذي يمكن أن يحمل كلامك على محمل الجد؟

أحذرك منذ الآن: إذا أنت تصرفت هذا التصرف، فلأقولنَّ من جهتي كل شيء، إذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي.

ـ أتظن أنني أخاف منك؟

ـ افترض أن المحكمة لم تقم أي وزن لأقوالي ولم تهتم بأيّ شيء مما قلته لك في هذه اللحظة: سيصدق الناس كلامي، فيُطعن من هذا شرفك، وتُلطخ بالسوء سمعتك.

ـ هو الأمر نفسه دائماً: يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي. أهذا ما تعنيه بتلك العبارة إذن؟ سأله إيڤان وهو يصرف بأسنانه:

ـ هو بعينه. ستتصرف كرجل ذكي.

نهض إيڤان فيودوروفتش وهو يرتجف استياءً، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردِّ على سمردياكوف، وحتى دون أن ينظر إلى الوراء. وقد أحسن إليه الهواء الطري الذي يشيع في جو المساء. كان القمر يضيء السماء. وكان إيڤان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والاحساسات المضطربة التي تجيش في نفسه: «هل أمضي أشي بسمردياكوف فوراً؟ ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله ضدَّه؟ ليس هو القاتل على كل حال. بالعكس: هو الآن يتهمني أنا... حقاً، لماذا سافرت إلى تشرماشنيا؟ لأي غرض، لأي هدف؟ نعم نعم... هذا صحيح، هذا واضح، لقد كنت أتوقع شيئاً... إن ذلك الوغد على حق فيما قال...». بهذا كان إيڤان يحدث نفسه. وتذكّر، ربما للمرة المئة، أنه تجسس على حركات أبيه، متسللاً على السلّم أثناء الليلة الأخيرة التي قضاها عنده، ولكن هذه الذكرى بلغت من إيلامه أنه تجمد في مكانه كأن طعنةً نفذت في قلبه، وقال يخاطب نفسه: «هذا صحيح، لقد تمنيت ذلك. لقد توقعته... صحيح! نعم، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه، كنت أريد وقوعها! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة

فعلاً، هل كنت أتمناها حقاً أم لا؟... يجب قتل سمردياكوف... إذا لم تسعفني الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف، فإن الحياة لن تستحق مني أن أعيشها». لم يعد إيڤان إلى منزله، بل ذهب مباشرة إلى منزل كاترينا إيڤانوفنا التي روَّعها ظهوره: كان زائغ النظرة تائهاً، فإذا رآه أحد أحس أنه قد جُن. قصَّ على كاترينا إيڤانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف، لم يُسقط منها كلمة واحدة، ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائحها، وكان لا ينفك يروح ويجيء في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة. ومع ذلك جلس آخر الأمر، واضعاً كوعيه على الطاولة، جاعلاً رأسه بين يديه، وقال هذه الحكمة الغريبة:

ـ إذا لم يكن ديمتري هو القاتل بل سمردياكوف فإنني أكون عندئذ شريكه في هذه الجريمة، لأنني أنا الذي حرضته على القتل. الواقع أنني لا أعرف أنا نفسي بعدُ هل دفعته إلى الجريمة أم لا. ولكن إذا كان هو الذي قتل، لا ديمتري، فعندئذ أكون أنا القاتل.

عند سماع هذه الكلمات، نهضت كاترينا إيڤانوفنا دون أن تقول شيئاً، فاقتربت من مكتبها، ففتحت درجاً صغيراً أخرجت منه ورقة وضعتها أمام إيڤان. هي الوثيقة عينها التي سيقول إيڤان فيودوروفتش لأخيه إيليوشا فيما بعد إنها تثبت بيقين رياضي أن ديمتري هو الذي ارتكب جريمة قتل أبيهما. إنها رسالة كتبها ميتيا إلى كاترينا إيڤانوفنا وهو في حالة سكر، مساءَ التقائه إيليوشا في الحقول حين كان إيليوشا راجعاً إلى الدير بعد المشهد الذي أهانت فيه غروشنكا غريمتها كاترينا إيڤانوفنا. فإن ميتيا، بعد أن ترك إيليوشا في ذلك اليوم، أسرع إلى غروشنكا. لا ندري هل وجدها في منزلها. ولكنه شوهد تلك الليلة في كاباريه «العاصمة الكبرى» يفرط في الشراب، حتى إذا أخذ منه السكر مأخذه، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه. هي رسالة ملتهبة، هي سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكير حقاً،

تذكِّرُ قليلاً بالخطب التي يلقيها السكارى حين يرجعون إلى منازلهم فيقصون على زوجاتهم بحرارة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا إهانات خطيرة، وأن الذي أهانهم إنسان حقير، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذي اعتدى عليهم. كتب ميتيا هذه الرسالة مفيضاً، وهو في حالة هياج شديد، فكان يرصف جملاً لا ترابط بينها، ويضرب على الطاولة بقبضة يده من حين إلى آخر، ويبلل الورقة بدموع من بلغ به السكر أشده. وكانت الورقة التي أُعطيت له في الكاباريه رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة، ملأ ميتيا هوامشها، حتى إن العبارات الأخيرة التي انطلقت تعبر عن عواطفه في إطناب السكارى قد خُطَّت عرضاً لا طولاً. وإليكم مضمون تلك الرسالة: «كاتيا المقدّرة! سوف أجد المال غداً، وسوف أرد إليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك، يا امرأة شديدة الغضب! لننته من هذا الأمر! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أوفق، فلك عليَّ عهد الشرف أن أذهب إلى أبي فأهشِّم جمجمته، وأستولي على المال الذي يخبئه تحت وسادته... شريطة أن يكون إيڤان غائباً! إنني أرتضي أن يُحكم عليَّ بالسجن مع الأشغال الشاقة، ولكنني سأرد إليك الثلاثة آلاف روبل. أما أنت، فوداعاً! إنني أنحني أمامك حتى الأرض، لأن الذي يحييك إنسان شقي! سامحيني. لا... لا تسامحيني! ذلك أسهل، عليَّ وعليك! إنني أفضّل السجن على حبك، لأنني أحب امرأة أخرى، وأنت استطعت أن تعرفيها اليوم، فكيف يمكنك أن تسامحيني بعد هذا؟ سأقتل الرجل الذي سرقني! سأبتعد عنكم جميعاً، إلى المشرق حيث لا أعود أعرف أحداً، حتى هي، لأنك لست الإنسانة الوحيدة التي تعذبني، هي أيضاً، العذاب نفسه. وداعاً!.

«حاشية: إنني ألعنك، وفي الوقت نفسه أعبدك! أشعر بقلبي يخفق في

صدري! ما يزال هنالك وتر يهتز لك. أفضّل أن يتحطم هذا القلب. سأقتل نفسي، ولكنني سأقتل ذلك الكلب أولاً. سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل، وأرميها إليك. ربما أكون وغداً أمامك، لكني لست سارقاً! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل. المبلغ مخبأ عند ذلك الكلب تحت الوسادة، يلفه شريط وردي اللون. أنا لست لصاً، لكنني سأقتل اللص. لا تحتقريني يا كاتيا: ليس ديمتري لصاً بل هو قاتل. قتل أباه وضيَّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة، وحتى لا يكون عليه أن يواجه كبرياءك، وأن يكف عن حبك.

حاشية: أقبِّل قدميك. وداعاً.

حاشية: كاتيا! صلِّي إلى الله أن يقرضوني المال، فما أضطر إلى أن أسفح دماً. أما إذا لم يقرضوني فسوف يجري الدم! اقتليني!

**خادمك وعدوّك د. كارامازوف**

قرأ إيڤان «الوثيقة» واتضح له الآن أن القاتل هو أخوه وليس سمردياكوف. وما دام الخادم بريئاً، فليس عليه هو إيڤان، أن يتهم نفسه بشيء. ومنذ تلك اللحظة أصبح يحمِّل هذه الرسالة دلالة رياضية، وأصبح لا يساوره أي شك في أن ميتيا هو القاتل. يجدر بالذكر هنا أنه لم يخطر ببال إيڤان في أيّ لحظة أن يفترض أن جريمة القتل التي ارتكبها ميتيا قد تمَّت بالتواطؤ مع سمردياكوف. ثم إن مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع. خلاصة القول إن هذه الرسالة قد حملت إلى إيڤان طمأنينة تامة، فلما أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر إلّا باحتقار، حتى إنه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم من الغمزات المهينة التي وجهها إليه سمردياكوف. وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينساه. ثم لم يسأل عن سمردياكوف أحداً ممن

يعرفونه بعد ذلك، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمردياكوف مريض جداً وأنه فقد عقله؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكي، وفي ذات يوم، إنه «سيهوي إلى الجنون»، فحفظ إيڤان هذه العبارة. وخلال الأسبوع الأخير من هذا الشهر بدأ إيڤان يشعر هو نفسه بأنه مريض، فقرر أن يستشير الطبيب الذي استقدمته كاترينا إيڤانوفنا من موسكو. وفي تلك الفترة بعينها كانت علاقاته بها قد توترت جداً، فهما يتعاملان كعدوَّين يحب كل منهما الآخر. كانت رجعات كاترينا إيڤانوفنا إلى الهيام الشديد بميتيا، وهي رجعات طارئة لكنها عنيفة تُخرج إيڤان عن طوره وتغضبه. شيء غريب: إن إيڤان، إلى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترينا إيڤانوفنا حين زارها إيليوشا بعد زيارته ميتيا، لم يسمع كاترينا إيڤانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر، تعبِّر عن أي شك في أن ميتيا هو القاتل، رغم «رجعاتها» إلى هيامها به من حين إلى آخر، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأةعلى نفس إيڤان. ومن الأمور البارزة أن إيڤان، رغم إحساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم، كان يدرك تماماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه «رجعات كاتيا» هذه إلى التوله بها، بل كان سببه أن «أخاه قد قتل الأب». كان إيڤان يعي ذلك تماماً، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام، عارضاً عليه خطةً للهرب، وهي خطة كان واضحاً أنه أعدها منذ مدة طويلة. وإنما قرر إيڤان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الغضب الشديد الذي أثاره في نفسه قول سمردياكوف، غامزاً، إنه، هو إيڤان، جنى نفعاً من اتهام أخيه ديمتري بالقتل، لأن نصيبه ونصيب إيليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين ألفاً إلى ستين ألفاً. إن الجرح الصغير الذي أصاب قلبه من هذا الكلام الذي قاله سمردياكوف لم يندمل. لذلك قرر أن يضحي وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا. وعندما رجع إيڤان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه، أحسَّ بحزن شديد واضطراب يستوليان

عليه: لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحي بثلاثين ألف روبل وأن يشفي جرح قلبه، لا لهذا فحسب، بل لسبب آخر أيضاً. لقد تساءل: «تُرى ألست أتمنى ذلك لأنني في قرارة نفسي قاتل «كأخي سواء بسواء؟»». وهذا ألم غامض بعيد، ولكنه لاذع، يستيقظ في قلبه. وكانت كبرياؤه خصوصاً هي التي قاست كثيراً خلال هذا الشهر، لكننا سنعود إلى ذلك فيما بعد... حين أمسك إيڤان جرسَ بيته بعد أن ترك إيليوشا، قرر فجأة أن يرجع بسرعة ليذهب إلى سمردياكوف. وعندما قرر ذلك إنما خضع لغضب مفاجىء مردُّه إلى سبب خاص. ذلك أنه تذكر في تلك اللحظة أن كاترينا إيڤانوفنا قد صرخت تقول له أمام إيليوشا منذ دقائق إنه هو وحده الذي حاول أن يقنعها بأن ميتيا هو القاتل. فحين تذكر إيڤان هذا الكلام أصيب بذهول شديد: لم يحاول أن يقنعها في يوم من الأيام بأن القاتل هو ميتيا. بالعكس: لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته لسمردياكوف. إنها هي، هي التي وضعت أمام عينيه الوثيقة وبرهنت له أن القاتل هو ميتيا. وها هي تصرح له فجأة أنها ذهبت هي نفسها إلى سمردياكوف! متى ذهبت إلى سمردياكوف إذن؟ إن إيڤان لا يعرف عن ذلك شيئاً. لم تكن واثقة كثيراً بأن ميتيا هو القاتل؟ ما الذي يمكن أن يكون سمردياكوف قد قال لها؟ ما الذي قاله لها على وجه الدقة؟ استولى الغضب على إيڤان، واستغرب كيف سمح قبل نصف ساعة، لتلك الكلمات أن تمر، ولم ينفجر حينذاك؟ أرخى جرس منزله، وأسرع إلى سمردياكوف. وهو يردد أثناء الطريق: «ربما أقتله في هذه المرة!».

# VIII

## اللقاء الثالث والأخير مع سمردياكوف

كان في منتصف الطريق عندما هبَّت ريح جافة وقارصة تشبه الريح التي هبت في الصباح. وأخذ ينهمر ثلج جاف كثيف يغطي الأرض. كان الثلج يسقط على الأرض دون أن يلتصق بها، فتكنسه الريح ثم تهب بسرعة عاصفة قوية. إن الحيَّ الذي يقيم فيه سمردياكوف من المدينة لا يوجد فيه مصابيح. فكان إيڤان يمشي بخطى طويلة في الظلام غير عابىء بزوبعة الثلج، متبعاً طريقه على هدي غريزته. كان في رأسه صداع، والدم يطرف في صدغيه بشكل مؤلم، ويداه تتشنجان. وعلى مسافة قصيرة من بيت ماريا كوندراتيفنا التقى إيڤان فيودوروفتش فلاحاً صغيراً سكران، يلبس معطفاً مرقعاً، ويسير مترنحاً، ومتوعداً، ويقطع سبابه من حين إلى آخر فيأخذ في الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى:

سافر فانكا إلى بطرسبورغ
ولست أنا من ينتظره!

ولكنه كان يتوقف عن الغناء كلما وصل إلى البيت الثاني من الأغنية، فيستأنف شتم أحد الناس، ثم يعود إلى لازمته. كان إيڤان قد سمع أصواته منذ

برهة، فشعر نحوه بحقد عنيف لا شعوري حتى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب حقده، فودَّ لو يقتل الرجل بضربة يهوي بها على رأسه. وبينما هو كذلك إذ أصبح الاثنان جنباً إلى جنب، وكان الفلاح الصغير يترنح في مشيته فصدم إيڤان صدمة قوية، فما كان من هذا الأخير إلّا أن دفعه غاضباً، فسقط السكران على الأرض المتجلدة بعد أن أطلق أنةً أليمة ثم لبث صامتاً. مال إيڤان على الرجل، فرآه نائماً على ظهره مغشياً عليه. فقال في نفسه: «سيتجمد من البرد»، ثم تابع طريقه باتجاه سمردياكوف.

وفي مدخل منزل سمردياكوف، همست له ماريا كوندراتيفنا التي أسرعت تستقبله حاملةً بيدها شمعداناً، أن بافل فيودوروفتش (أي سمردياكوف) مريض جداً، وأنه إن لم يلزم فراشه حتماً، فإنه لا يبدو مالكاً عقله، حتى لقد رفض شرب الشاي الذي قُدِّم إليه.

ـ لماذا، أهو عنيف أو ماذا؟ سألها إيڤان بلهجة فظة.

ـ بالعكس: إنه هادىء جداً، ولكنك تحسن صنعاً إذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه... قالت ماريا كوندراتيفنا.

فتح إيڤان فيودوروفتش الباب، ودخل غرفة الخادم.

كانت الغرفة مدفأة كما في الزيارة الأخيرة، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث: أُبعدت إحدى الدكتين ووُضعت في مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد، لها مسند من خشب يشبه خشب الأكاجو؛ وجُعلت هذه الكنبة سريراً عليه وسائد نظيفة. كان سمردياكوف جالساً على تلك الكنبة مرتدياً معطف المنزل ذاك الذي كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين. وقد دُفعت الطاولة نحو الكنبة، فأصبح المكان في الغرفة ضيقاً. وكان على الطاولة كتاب سميك ذو غلاف أصفر، لكن سمردياكوف لم يكن يقرأ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأي عمل أبداً. استقبل إيڤان بنظرة طويلة صامتة، ولم

يظهر عليه أي استغراب لهذه الزيارة. وكانت قسمات وجهه قد انقلبت كلياً أثناء تلك الفترة. كان وجهه ناحلاً أصفر اللون، وكانت عيناه غائرتين، وجفناه السفليان مزرقّين. قال إيڤان فيودوروفتش للخادم وهو يقف أمامه:

ـ إنك تبدو مريضاً حقاً! لن أمكث مدة طويلة، ولن أخلع معطفي. هل من كرسي لي؟

ودار حول الطاولة، وتناول كرسياً فدفعه نحو الكنبة وجلس.

ـ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ قال إيڤان لقد جئت لألقي عليك سؤالاً واحداً في هذه المرة. ولكنني أقسم لك أنني لن أنصرف قبل أن تجيبني. هل جاءت إليك كاترينا إيڤانوفنا؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يحدِّق إلى إيڤان بهدوء. ثم حرك يده بإشارة تململٍ، وأشاح وجهه.

ـ ما بك؟ سأله إيڤان.

ـ لا شيء!

ـ كيف لا شيء؟

ـ لقد جاءت! حسناً؟ دعني وشأني يا سيدي!

ـ لا، لن أدعك. متى جاءت؟

ـ لم أعد أفكر في ذلك. ثم التفت نحو إيڤان، وألقى عليه نظرة مثقلة بحقد هو ذلك الحقد الشديد نفسه الذي سبق لإيڤان أن رآه في عينيه خلال اجتماعه السابق به منذ شهر.

ـ يبدو أنك مريض. قال سمردياكوف. عجيب! إن خديك خاسفان، وإن قسمات وجهك منقلبة.

ـ دعك من صحتي وأجب عن سؤالي.

ـ ولماذا اصفرت عيناك؟ لقد اصفر بياض عينيك يا سيدي. لعل ذلك يرجع إلى أنك تتألم كثيراً.

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد، ثم راح يقهقه صراحةً.

ـ اسمع: لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبني. صاح إيڤان وقد بلغ ذروة الغضب.

ـ لماذا تعذبني؟ ماذا تريد مني؟ قال سمردياكوف بلهجة أليمة.

ـ ليأخذك الشيطان. أنا لا أهتم بك أنت. أجبني فأنصرف حالاً.

ـ لن أجيبك! قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد.

ـ سأعرف كيف أرغمك على أن تجيبني. صدّقني!

سأله سمردياكوف وهو يحدِّق إليه، معبراً في هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً:

ـ لماذا أنت مضطرب؟ أبسبب تلك المحاكمة التي تبدأ غداً؟ ولكن لا خوف عليك أنت، اطمئن أخيراً. ارجع إلى منزلك، ونم هادىء البال، ونم مرتاحاً لا يساورك أي خوف!

ـ لا أفهمك... ما الذي يمكن أن أخشاه أنا من الغد؟ قال إيڤان بدهشة، ثم لم يلبث أن شعر بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً في ظهره. ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، ثم قال له بلهجة بطيئة ملؤها العتب:

ـ آه.. لا... تفـ... ـهم؟ أية لذة يجد الرجل الذكي في تمثيل مهزلة كهذه؟

نظر إليه إيڤان صامتاً. إن هذه اللهجة غير المتوقعة، المليئة بتعال غير معهود، التي كلمه بها خادمه القديم، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه، لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه حتى الآن، حتى أثناء اجتماعيهما السابقين، أن يصطنع هذا الوضع.

ـ أكرر أن لا خوف عليك، فلا تخشَ شيئاً؛ لن أشهد ضدَّك، وليس هناك

أي برهان يمكن الاستناد إليه لاتهامك أنت. ما هذا؟ لماذا ترتجف يداك؟ لماذا ترتجف أصابعك هكذا؟ عد إلى منزلك. لست أنت القاتل!

ارتعش إيڤان متذكراً كلمات إيليوشا.

ـ أعرف هذا. لست أنا... تمتم يقول.

ـ تعرف هذا؟ كرر سمردياكوف.

فوثب إيڤان وأمسكه من كتفه.

ـ تكلم، قل الحقيقة أيها الثعبان! قل كل ما تعرفه!

لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أبداً، واكتفى بأن ألقى على إيڤان نظرة مثقلةً بحقد شديد. ثم انطلق قائلاً بصوت مسموم:

ـ حسناً؟ اعلم إذن أنك أنت الذي قتلته.

فتهالك إيڤان على كرسيه، وبدا عليه الغوص في أفكاره.

ثم ابتسم بغضب.

ـ أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها؟ تلك الاستنتاجات الغبية التي حدثتني فيها المرة الماضية؟

ـ تماماً. ثم إنك قد فهمتني في المرة الماضية جيداً، وأنت تفهمني اليوم أيضاً.

ـ أفهم فقط أنك مجنون.

ـ ألم تكتفِ بعد؟ نحن هنا وحيدان، وليس ثَمَّة شهود. فلماذا يخادع أحدنا الآخر؟ اللهم إلّا أن تكون ما تزال تنوي أن تلقي التبعة كلها عليَّ، عليَّ وحدي! ألا تشعر بخجل مني؟ إنك أنت القاتل، القاتل الحقيقي، أما أنا فلم أكن إلّا مساعدك، لم أكن إلّا خادمك الأمين. لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك.

ـ أأنت الذي قتلته إذن؟ سأله إيڤان وهو يشعر بأنه قد تجمد.

أحسَّ إيڤان بصدمة في رأسه، وسرت في جسمه ارتعاشات باردة. فنظر إليه سمردياكوف عندئذ بدهشة. كان صدق الخوف الذي أصاب إيڤان قد خطف بصره أخيراً.

ـ هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً؟ تمتم سمردياكوف وهو مايزال ينظر إليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة.

ظل إيڤان يتفرس في الخادم، وكأنه أصبح أبكم لا يستطيع الكلام. وترجَّعت في رأسه هذه اللازمة:

سافر فاتنكا إلى بطرسبورغ

لكنني لن أنتظره!

ثم قال أخيراً:

ـ إني أتساءل. أخشى أن أكون في حلم؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لي؟

ـ لا شبح هنا. لا أحد إلّا نحن الاثنين، وثالثاً أيضاً. وهو الآن هنا ذلك الثالث، هو حاضر بيننا حتماً في هذه اللحظة.

ـ من «هو»؟ من؟ «من هنا»؟ عن أي «ثالث» تتكلم؟ سأله إيڤان فيودوروفتش مذعوراً، وهو ينظر حوله، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحدٍ في الزوايا.

ـ الثالث هو الله. أليس كذلك؟ قال سمردياكوف. إن الله حاضر بيننا الآن. ولكن لا تبحث عنه، لأنك لن تراه.

انفجر إيڤان وصاح:

ـ كذبتَ حين زعمت أنك أنت الذي قتلته. أمران لا ثالث لهما: فإما أنك مجنون، وإما أنك تسخر مني كما فعلت في المرة السابقة!

بقي سمردياكوف هادئاً. ولم يحفل بغضب إيڤان، وإنما كان يتفرس فيه

بانتباه. لم يستطع أن يتغلب على شكه، لأنه كان يتصور، حتى في هذه اللحظة، أن إيڤان «يعرف كل شيء»، وأنه يتظاهر بالجهل، «بغية أن يلقي التبعة كلها عليه، هو سمردياكوف، وأن يجبره على قبول هذا الوضع».

ـ انتظر قليلاً. قال بصوت ضعيف. وسحب ساقه اليسرى من تحت الطاولة، وأخذ يشمر بنطاله.

ظهرت قدمه في حذاء المنزل، ثم ظهر جورب طويل أبيض. وبدون تعجل، حلَّ حمّالة الجورب، وغطس يده إلى القاع. كان إيڤان فيودوروفتش ينظر إليه وهو يفعل ذلك، فإذا هو يأخذ بالارتعاش، وإذا بذعر متشنج يستولي عليه.

ـ لقد جُنَّ! صاح قائلاً.

ثم قفز عن مكانه. وتراجع إلى الوراء بحركة قوية جعلته يصدم الجدار بظهره، ثم لبث لاصقاً بالجدار، متصلباً كعصا.

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له. لم يضطرب سمردياكوف من ذعر إيڤان، واستمر يفتش في قاع جوربيه، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك. ووجد هذا الشيء أخيراً، فأخرجه. رأى إيڤان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزمة من أوراق. ووضع سمردياكوف الحزمة على الطاولة.

ـ هو ذا! قال بصوت خافت.

ـ ما هذا؟ سأله إيڤان الذي كان يرتعش.

ـ تفضَّل انظر فترى. أجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً.

اقترب إيڤان من الطاولة، وتناول الحزمة، وأخذ يفضّها. فإذا هو يسحب أصابعه، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً.

ـ أصابعك ترتجف يا سيدي! قال سمردياكوف.

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجيل. فظهرت تحت الورقة التي تلف الحزمة، ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المئة روبل.

ـ المال كله هنا وأضاف سمردياكوف وهو يومىء إلى المبلغ. ثلاثة آلاف روبل تماماً. لا داعي إلى العد.

تهاوى إيڤان على الكرسي، وقد اصفر وجهه بشدة. ثم دمدم يقول بضحكة غريبة:

ـ روَّعتني... بسبب جوربك...

ـ هل يُعقل، هل يمكن حقاً ألّا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن؟ عاد سمردياكوف يسأله:

ـ كنت أجهل كل شيء. كنت أعتقد أن ديمتري هو القاتل.

ثم صاح إيڤان وهو يمسك رأسه بيديه:

ـ أخي! أخي! آه! اسمع: هل قتلته وحدك؟ هل قتلته بمساعدة أخي أم بدون مساعدته؟

ـ لم يكن لي شريك في الجريمة سواك. أنا قتلت بالتواطؤ معك. أما ديمتري فيودوروفتش فهو بريء براءة الحمل.

ـ طيب، طيب... ستتحدث عني أنا فيما بعد. ما لي أرتجف هكذا... إنني لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة.

ـ كنتَ في الماضي أكثر جرأة حين كنتَ تقول: «كل شيء مباح». قال سمردياكوف مدهوشاً. وها أنت اليوم مذعور. هل تقبل أن تشرب كأساً من شراب الليمون؟ سآمر لك بكأس من شراب الليمون، فإنه يفيدك. ولكن يجب أولاً إخفاء هذا.

قال سمردياكوف ذلك وهو يومىء إلى حزمة الأوراق المالية.

واتجه نحو الباب بهدف استدعاء ماريا كوندراتيفنا ليطلب منها إعداد شراب الليمون وإحضاره. ولكن غيَّر رأيه، وحاول أن يبحث عن شيء يمكنه أن يخفي به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة، فأخرج في أول الأمر

منديله، ولكنه لاحظ أن المنديل وسخ جداً فأعاده إلى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذي رآه إيڤان على الطاولة عندما دخل؛ فجعله غطاءً يخفي تحته الحزمة. واستطاع إيڤان فيودوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية: «مواعظ أبينا المقدس اسحق سيرين».

ـ لا أريد شيئاً من شراب الليمون قال إيڤان. سنتحدث عني أنا فيما بعد. اجلس الآن وقصَّ عليَّ: ماذا فعلت لتقتله؟ قل الحقيقة كلها...

ـ يجب أن تخلع معطفك وإلّا شعرت بحر شديد ونضح منك العرق.

خلع إيڤان فيودوروفتش معطفه بسرعة، كأنه لم يخطر بباله ذلك إلّا في تلك اللحظة، ورمى المعطف على البنك دون أن يتحرك من مكانه.

ـ تكلم الآن، أرجوك، تكلم!

كان قد هدأ روعه، فهو ينتظر بثقة أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة «كلها».

ـ ماذا فعلت؟ قال سمردياكوف وهو يتنهد. الأمر بسيط جداً. استوحيت أقوالك أنت، فـ...

قاطعه إيڤان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل، ولكنه ينطق الآن بكلماته واضحةً جداً، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً:

ـ سنتحدث عن أقوالي أنا فيما بعد. أما الآن فاشرح لي بالتفصيل كيف تدبرت الأمر. أبسط الوقائع مرتبةً ولا تُسقط أي تفصيل. أريد أن تذكر التفاصيل، التفاصيل خصوصاً. أنا مصغ إليك.

ـ بعد سفرك سقطت في القبو...

ـ أسقطت بنوبة صرع أم متظاهراً بنوبة صرع؟

ـ متظاهراً طبعاً. تظاهرت بنوبة الصرع إلى النهاية. هبطت سلَّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته، ثم استلقيت على الأرض بهدوء أيضاً.

حتى إذا صرت مستلقياً على الأرض أخذت أصرخ، وظللت أتخبط عندما نقلوني.

ـ لحظة. إذن كنت تتظاهر طوال الوقت، أليس كذلك؟ وفي المستشفى بعدئذ أيضاً؟

ـ لا. ففي صباح الغد، قبل نقلي إلى المستشفى أصبت بنوبة صرع حقيقية، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين. وبقيت يومين كاملين مغمياً عليَّ.

ـ جيد، جيد... أكمل.

ـ أرقدوني على مضجع وراء حاجز غرفة غريغوري فاسيلتش. كنت أتوقع ذلك، لأن مارفا إينياتيفنا قد اعتادت أن ترقدني هناك، على مقربة منها، حين أمرض. لقد أحاطتني دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت. وفي الليلة التالية كنت أئن أنيناً ضعيفاً، بانتظار ديمتري فيودوروفتش.

ـ كيف كنت تنتظر مجيئه إليك في غرفتك؟

ـ لا. ليس في غرفتي؟ كنت أنتظر وصوله إلى المنزل. لأنني كنت واثقاً بأنه سيجيء في تلك الليلة. كان لا بد له، وقد حُرم من معونتي وانقطعت عنه الأنباء التي أزوده بها، كان لا بد له حتماً من أن يتسلل إلى المنزل متسلقاً السور كما يجيد ذلك، ليعرف من الذي أتى، وليتصرف على ضوء ذلك.

ـ فماذا لو لم يجيء؟

ـ لم لو يجيء لما وقع شيء. لولا أنه جاء لما عزمت أمري.

ـ جيد، جيد. تكلم بمزيد من الدقة، ولا تتعجل. ولا تُسقط أي تفصيل!

ـ كنت أتوقع أن يقتل فيودور بافلوفتش. ذلك أمر ما كان يمكن ألّا يحدث. كنت قد أثرته بقوة في الأيام الأخيرة... ثم لقد كان يعرف الاشارات السرية... فلم يكن يمكنه، وهو فيما هو فيه من شك قوي وغضب مسعور، إلّا

أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل. كان هذا مرتباً من قبل. لذلك كنت أنتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة...

ـ قاطعه إيڤان لو قتل لاستولى هو على المال. أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة؟ لست أفهم.

ـ ما كان له أن يعثر على الظرف المودع فيه المال. أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش. ولكن ذلك كان كذباً مني. كان فيودور بافلوفتش يخبىء المال قبل ذلك في صندوق صغير. ولما كنت الوحيد الذي يثق به فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الإيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها، ولا سيما إذا كان سارقاً يتعجل الهروب. فهناك، وراء الإيقونات، كان المال مخبأً لحظة وقوع الجريمة. أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش، فهو فكرة غبية أفضلُ منها أن يوضع المبلغ في الصندوق الصغير. لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش. ذلك تفكير أخرق. نعود إلى ديمتري: لو قتل ديمتري أباه لما عثر على المال، ولكان هرب متجنباً أن يحدث ضجة. هكذا يتصرف القاتل دائماً. وإلّا اعتُقل. وكيف جرى الأمر، فإنني أستطيع في الغد أو حتى أثناء الليلة نفسها أن أذهب وآخذ المال من خلف الإيقونات، فأحمله إلى مسكني. وكانت السرقة ستُنسب عندئذ إلى ديمتري فيودوروفتش. يحق لي أن أتوقع ذلك.

ـ فإذا لم يقتل أباه، ولم يزد على أن يضربه؟

ـ إذا لم يقتله، لا أجرؤ أن آخذ المال طبعاً. هذا بديهي. وتكون خطتي قد باءت بالفشل. لكنني كنت أفترض، فيما أجريته من حسابات، أن ديمتري كان سيبلغ من ضربه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط مغمياً عليه. وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال، ثم أوهم فيودور بافلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع ديمتري، وأن ديمتري قد سرق المال بعد أن ضربه.

ـ لحظة أخرى... إنني لا أفهم بوضوح! هل ديمتري هو الذي قتل إذن، وأنت سرقت المال؟

ـ لا، ليس هو الذي قتل. كان سهلاً عليَّ، حتى في هذه اللحظة، أن أزعم أنه هو القاتل... ولكنني لا أريد أن أكذب عليك، لأنني... أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً أبداً حتى هذه اللحظة، وأنك لم تكن تمثل لتلقي التبعة كلها عليَّ، ولتجعلني أرضى هذا الوضع. ومع ذلك فإنك أنت القاتل الأكبر في هذه القضية، لأنك كنت على علمٍ بما كان يتحضَّر، وقد كلفتني بأن أقتل أباك. وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث. لهذا أصرُّ على أن أؤكد لك جازماً، في هذا المساء، أن القاتل هو أنت، أنت وحدك! أما أنا فلست إلّا معاون قاتل، معاوناً ثانوياً، رغم أن القتل قد تم بيدي. أنت القاتل شرعاً، أنت، أنت!...

ـ لماذا، لماذا أكون أنا القاتل؟ قال إيڤان أخيراً وقد نفد صبره، ناسياً أنه منذ اللحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه إلى ما بعد. آه يا إلهي! أبسبب سفري إلى تشرماشنيا أيضاً؟ قل لي: لماذا كنت تحرص على موافقتي إذا كنت تؤول سفري وحده على أنه موافقة؟ هل لك أن توضح لي هذا التناقض؟

ـ عندما أثق بأنك موافق، أعرف أنك لن تحدث فضيحة لدى عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل، إذا اشتبهت فيَّ السلطات بدلاً من أن تعتقل ديمتري فيودوروفتش، أو إذا هي اعتبرتني شريكاً له في الجريمة، حتى لقد تدافع عني في هذه الحالة. ثم إنك بعد أن تأخذ حصتك من الميراث قد تكافئني أثناء حياتك. ألم تنل هذا الميراث بفضلي أنا؟ فلو قد تزوج أبوك أغرافينا ألكسندروفنا، لما آل إليك كوبيك واحد من تلك الثروة كلها!.

ـ ها! كنت تنوي أن تضطهدني طوال حياتي! دمدم إيڤان وهو يصرف أسنانه ولكن ما الذي كان يحدث لو أنني أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر؟

ـ لا تملك دليلاً ضدي. لا يكفي لاتهامي أن أكون قد حرضتك على السفر إلى تشرماشنيا. وهذا كله سخافات على كل حال! هناك أمران: إما أن تسافر بعد الحديث الذي جرى بيننا، وإما أن تبقى هنا. فلو بقيت لما حدث شيء أبداً، لأنني أفهم عندئذ أنك لا تريد حدوث جريمة القتل، فأمتنع عندئذ عن البدء بالعمل. أما إذا سافرت فتجعلني أوقن أنك لن تشي بي إلى القضاء وأنك ستغفر لي سرقة الثلاثة آلاف روبل. ومن جهة أخرى، فإنك لم تكن تستطيع ملاحقتي، لأن من الممكن أن أكشف أمام المحكمة عن كل شيء، وأن أذكر لا أنني سرقت وقتلت ـ فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة ـ وإنما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل، وأنني رفضت ذلك. لقد كنتُ إذن في حاجة إلى موافقتك لكي لا تزعجني بعد ذلك، فما هي الأدلة التي تملكها ضدي؟ ولا كذلك أنا، فإنني أستطيع أن أزعجك في كل لحظة، بالكشف عن رغبتك القوية في قتل أبيك. وأقسم أن جميع الناس سيصدقون كلامي، وكانت سمعتك ستسوء إلى الأبد، وأن شرفك سيلطخ مدى الحياة.

ـ أنت تزعم إذن أنني أتمنى بحرارة أن يموت أبي. فهل صحيح أنني تمنيت ذلك؟ سأله إيڤان بغضب.

ـ لا شك إطلاقاً في أنك تمنيت ذلك أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة محدقاً إلى إيڤان، ولقد كلفتني ضمناً ارتكاب هذه الجريمة، دون أن تطلب مني بكلام صريح. كان سمردياكوف ضعيفاً جداً، يتكلم بصوت متعب، ولكن نوعاً من هوى متأجج سرى كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه. كان واضحاً أنه يهدف إلى غاية ما. وقد أحسَّ إيڤان بذلك.

ـ تابع. قُصَّ تفاصيل وقائع تلك الليلة. قال له.

ـ ماذا أقول أيضاً؟ كنت مستلقياً هنا. فإذا يتراءى لي أنني أسمع صوتاً يطلقه أبوك. كان غريغوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات، وسُمع يصرخ،

ثم ارتد كل شيء إلى صمت مطبق. كنت أنتظر في الظلمات راقداً، وكان قلبي يخفق بقوة ويكاد ينشق له صدري. لم أطق صبراً، فنهضت أخيراً وخرجت. في اليسار، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة. سرت بضع خطوات لأتجسس على أبيك، ولأعرف أهو ميت أم حيّ. سمعته يضطرب ويتنهد. قلت لنفسي: «إذن ما يزال حياً! إذن أخفقت الخطة». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً: «هذا أنا، لا تخف!». فأجابني: «لقد جاء، جاء ثم هرب!». كان يقصد ديمتري فيودوروفتش. وأضاف يقول: «لقد قتل غريغوري فاسيلتش». سألته هامساً: «أين وقع هذا؟» فأجابني بهمس أيضاً: «هناك، في الزاوية». قلت له: «انتظر لحظة». واتجهت نحو الزاوية التي دلني عليها، فاكتشفت غريغوري فاسيلتش عند أسفل السور ممدداً على الأرض، مضرجاً بالدم، مغمياً عليه. «صحيح إذن أن ديمتري فيودوروفتش قد جاء». هاجمتني هذه الفكرة فوراً، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسي إكمال المهمة، لأن غريغوري فاسيلتش، حتى ولو كان ما يزال حياً، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو في هذه الحالة من الإغماء. والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا إينياتيفنا فجأة. شعرت بوضوح، في تلك اللحظة، بالخطر الذي أتعرض له إذا استيقظت مارفا إينياتيفنا، ولكن الإغراء كان أقوى من أن أتراجع، وشعرت باندفاع مسعور يقطِّع أنفاسي. عدت إلى النافذة التي كان أبوك واقفاً عندها وقلت له: «جاءت، جاءت أغرافينا ألكسندروفنا. هي هنا، وتطلب أن تدخل». فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير، وراح يسألِني: «أين؟ أين هي؟». كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من شدة الهياج، ومع ذلك لم يصدِّق بعد بشكل تام. أجبته: «هي هنا. إنها تنتظر. هلّا فتحت الباب». كان ينظر إليَّ من النافذة حائر النظرة مرتبكاً، متسائلاً هل يجب عليه أن يصدقني أم لا، ولكنه تردد في فتح الباب. قلت في نفسي: «هو الآن خائف مني أنا». أمر غريب: خطر ببالي في

تلك اللحظة أن أطرق زجاج النافذة بالاشارات المتفق عليها إيذاناً بوصول غروشنكا. قمت بذلك، فإذا به، هو الذي لم يصدِّق أقوالي، يقتنع بإشاراتي فيسرع ويفتح الباب فوراً. فتح الباب، فأردت أن أدخل، ولكنه وقف أمامي يمنعني من الدخول ويسألني مرتعشاً: «أين هي؟ أين؟ أين؟». قلت لنفسي: «إذا كان خائفاً مني، فمعنى ذلك أن الأمور تجري بشكل سيئ». وفي تلك اللحظة، أحسست بساقيَّ تخوران إذ تصورت أنه لن يدعني أدخل غرفته، أو أنه سيأخذ في الصراخ، أو أن مارفا اينياتيفنا ستأتي مسرعة، أو ما لست أدري أيضاً. لا أتذكر الآن جيداً ما حدث في نفسي عندئذ. لا بد أن وجهي كان قد اصفر بشدة. دمدمت أقول: «هي هناك، أمام النافذة، كيف لاتراها؟». قال: «إئتِ بها إلى هنا، إئتِ بها إلى هنا». قلت: «لقد خافت. روَّعتها الصرخة التي أطلقها غريغوري فاسيلتش، فاختبأت وراء الأشجار. هيَّا، نادها أنت من النافذة». دخل إلى البيت، ومضى إلى غرفته، واقترب من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة، وصاح ينادي: «غروشنكا! غروشنكا! هل أنت هنا؟». ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عني، وذلك بسبب خوفه. كان يخشاني في تلك اللحظة، لذلك لم يبتعد عني قيد أنملة. قلت له وأنا أقترب من النافذة وأميل بنفسي إلى الخارج: «ها هي! وراء تلك الأشجار. هل رأيتها؟ إنها تبتسم لك. انظر!». صدقني، وأخذ يرتجف، لأنه كان مغرماً بها جداً! عندئذ مال من على النافذة تماماً. لم أضيِّع ثانية واحدة، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التي كانت على المنضدة، لا شك أنك تتذكرها. إنها تزن ثلاثة أرطال تقريباً. رفعتها، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة. فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة. كل ما حدث أنه تهاوى. وضربته مرة ثانية، فمرة ثالثة؛ وفي المرة الثالثة شعرت أنني حطمت جمجمته. سقط على الأرض مضرجاً بدمه. نظرت إلى نفسي لأرى هل تلطخت، فلاحظت

أن ثيابي نظيفة لم يظهر عليها أثر من الدم. مسحت ضاغطة الورق، وأرجعتها إلى مكانها. ثم اتجهت نحو الإيقونات، فأخرجت المال من الظرف، ورميته على الأرض، وحرصت على أن أضع جانباً، الشريط الوردي الذي كان يلف الظرف. وبعد ذلك نزلت إلى الحديقة وأنا أرتجف، فمضيت مباشرة إلى الشجرة المجوَّفة الساق، تلك التي تعرفها... كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأً منذ مدة طويلة، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم. لففت الأوراق المالية بالورقة، ثم غلفت الورقة بالخرقة، ودسست الرزمة في جوف الشجرة. بقيت الرزمة هناك أسبوعين. ولم أخرجها إلّا بعد مدة، بعد خروجي من المستشفى. عدت إلى منزلي، فرقدت على فراشي، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً: «إذا كان غريغوري ميتاً، فقد فسد كل شيء وسيكون الأمر سيئاً، أما إذا كان حياً وصحا من إغمائه فسوف يجري كل شيء على ما يرام، لأنه سيشهد عندئذٍ بأن ديمتري قد جاء فعلاً، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذي قتل وسرق المال». هنا، أخذت أئنّ في الشك وقلة الصبر، لأوقظ مارفا إينياتيفنا بأقصى سرعة. فاستيقظت مارفا أخيراً وأسرعت إليّ. لكن عندما لاحظت أن غريغوري فاسيلتش غائب، أسرعت إلى الحديقة وقد سمعتها تصرخ. أما أنا فشعرت باطمئنان كامل.

هنا توقف الراوي عن الكلام. وكان إيڤان يصغي إليه طوال الوقت صامتاً، لا يتحرك ولا يحول عنه بصره لحظة واحدة. وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر إليه إلّا نادراً، وإذا نظر إليه فخلسة. لقد كان واضحاً أن سمردياكوف يفضّل أن يتحاشى نظرة إيڤان فيودوروفتش. فلما انتهى من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً، وأصبح يتنفس بصعوبة، وظهرت على جبينه قطرات عرق. ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف هل هو يشعر بندم أم لا.

ـ قال إيڤان. والباب؟ إذا كان أبي لم يفتح الباب إلّا لك وحدك، فكيف

رآه غريغوري مفتوحاً قبل ذلك؟ إن غريغوري يؤكد أنه رأى الباب مفتوحاً قبلك.

شيء غريب: إن إيڤان يلقي الآن أسئلته بلهجة هادئة دون أي اهتياج أو غضب، فلو دخل شخص إلى الغرفة في تلك اللحظة، وألقى من العتبة نظرةً على المتحادثين، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً ودياً يدور بين الرجلين على شؤون عادية وإن تكن هذه الشؤون تعنيهما بعض الشيء.

ـ أما بصدد الباب الذي يزعم غريغوري فاسيلتش أنه رآه مفتوحاً، فذلك وهم منه لا أكثر. أجاب سمردياكوف مبتسماً بمكر وسخرية. أؤكد لك أن غريغوري ليس رجلاً، بل هو حمار عنيد. إنه لم يرَ شيئاً إطلاقاً، ولكنه يتخيل أنه رأى الباب مفتوحاً، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا. من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة في رأسه، لأن هذه الواقعة تدين ديمتري فيودوروفتش بصورة حاسمة.

ـ اسمع. قال إيڤان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما. أردت أن ألقي عليك أسئلة أخرى... ولكنني نسيت ما كنت أريد أن أسألك عنه... لقد شرد عقلي تماماً... نعم...! اشرح لي هذه النقطة على الأقل: لماذا فتحت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال؟ لقد تراءى لي، أثناء حديثك، أنك قد فعلت ذلك عمداً، وأن ذلك كان أمراً ضرورياً... ولكنني لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة...

ـ إذا كنت قد فعلته فذلك لسبب معيَّن. لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك، مثلي أنا، شخص سبق أن رأى المال، ولعله شهد صرَّه أو حتى ساهم في صرِّه، فإن ذلك الشخص لم يكن ليحتاج إلى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة، لا سيما وهو يستعجل الهروب لأنه يعرف أين يوجد المال. لو كان القاتل واحداً من أهل المنزل، مثلي أنا، لاكتفى بدسِّ

الظرف في جيبه دون أن يفضَّه، ولاذ بالفرار بأقصى سرعة. ولا كذلك شأن أخيك ديمتري فيودوروفتش: فلقد كان لا يعرف بوجود هذا الظرف إلّا عن طريق السماع، ولم يرَه بعينيه في يوم من الأيام. فإذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش، كان عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه، ثم كان لا بد أن يرمي الظرف على الأرض بسرعة، دون أن يتسع وقته للتفكير في أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادةً عليه. إن هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين، فهم لا يفكرون في الأمور ولا يفكرون في العواقب. يجب ألّا ننسى أن ديمتري فيودوروفتش نبيل، وأنه لم يسرق في يوم من الأيام حتى ذلك الحين. وإذا قرر أن يسرق في هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة أبداً، وإنما هو استردادٌ لمالٍ يخصه شرعاً. كان ديمتري فيودوروفتش قد أعلن ذلك في المدينة كلّها مسبقاً، حتى لقد تباهى أمام شهود بأنه سوف يسترد حقه من فيودور بافلوفتش. إنني لم أفصح عن هذا التفكير صراحةً في شهادتي أمام وكيل النيابة، ولكنني جعلته يدركه بإشارات وتلميحات، دون أن يبدو عليَّ أنني أفهم ما أقول، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه إلى هذه الأفكار التي أوحيتها إليه. ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل من شفتيه...

ـ هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله في لحظة الجريمة نفسها؟ قال إيڤان وقد بلغ من الدهشة أوجها. ونظر إلى سمردياكوف مرتاعاً من جديد.

ـ طبعاً لا. لم يكن ممكناً أن يخطر هذا كله ببالي في لحظة كتلك. وإنما رُتِّب كل شيء مسبقاً.

ـ صاح إيڤان فيودوروفتش متعجباً. إذن لقد ساعدك الشيطان نفسه! لا، لستَ غبياً. بل أذكى كثيراً مما كنت أعتقد...

ونهض إيڤان ينوي أن يمشي بضع خطوات في الغرفة. كان يشعر بانهيار

نفسي شديد. ولكن الطاولة كانت تسد الطريق، والمكان الخالي بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشي فيه كما يشاء. لذلك اضطر إيڤان أن يقتصر على أن يدور في مكانه، ثم عاد فجلس. ولعل عدم تمكّنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه، فإذا هو يعود إلى الكلام بلهجة مهتاجة كالتي تكلم بها حين وصوله. قال:

ـ اسمع أيها الشقي، أيها الإنسان الحقير البائس! ألم تفهم حتى الآن أنني إن امتنعت عن قتلك منذ بضع دقائق فما ذلك إلّا لأستطيع أن أسلمك إلى المحكمة غداً؟ فليشهد الله عليَّ (قال ذلك وهو يَرفع يده كمن يحلف يميناً). ربما كنت أنا نفسي جانياً. لعلني كنت أشعر سراً برغبة في... أن يموت أبي... من يدري؟ ولكنني أقسم لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتخيّل، وأنني لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة فيما يخيَّل إليَّ. لا، لا، لم أحرِّضك! على كل حال، ليس هذا بالأمر الهام! لسوف أتهم نفسي غداً، أياً كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي، فإنني أقبلها منذ الآن، ولا أخشاك. بالعكس: سأؤيد كل ما تقوله. ولكن يجب عليك أن تعترف غداً أنت أيضاً. هذا واجب يقع على عاتقك. يجب عليك أن تعترف، يجب عليك، سنذهب معاً. قررت هذا!

قال إيڤان هذه الكلمات بلهجة حازمة، وكان واضحاً في بريق عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه.

ـ أرى أنك مريض، مريض جداً. إن عينيك صفراوان تماماً. قال سمردياكوف، ولكن دون سخرية في هذه المرة، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف.

ـ سنذهب معاً. كرر إيڤان فإن رفضت، فلا بأس! سأذهب وحدي!

ـ لن يكون شيء من هذا. لن نذهب إلى المحكمة. ولن تذهب أنت. قال سمردياكوف أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً.

ـ أنت لا تفهمني. قال إيڤان بلهجة عتب.

ستخجل من اتهام نفسك، لن يكون لهذا أي فائدة على كل حال، لأنني سأصرِّح عندئذ تصريحاً قاطعاً بأنني لم أُجر معك أحاديث من هذا النوع في يوم من الأيام، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامي لما يبدو عليك من مرض)؛ أو أقول أيضاً إنك قلتَ ما قلت إشفاقاً على أخيك ورأفةً به، مؤثراً اتهام نفسك في سبيل إنقاذه، وإنك ألقيت الذنب عليَّ لأنك لم تعتبرني في يوم من الأيام إنساناً كسائر البشر، بل عاملتني طوال حياتي كما يعامَل مخلوق حقير. فمن الذي سيصدق كلامك بعد هذا؟ فكِّر قليلاً: أين الأدلة؟

إسمع قال إيڤان. أنت أريتني هذا المال الذي كنت تخبئه عندك، لتقنعني بصدق ما رويته لي، أليس كذلك؟

فأبعد سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذي كان يغطي حزمة الأوراق المالية، وقال متنهداً:

ـ خذ المال واحمله معك.

ـ سأحمله طبعاً! ولكن لماذا ترده إليَّ الآن وأنت قتلت لتحصل عليه؟ سأله إيڤان وهو ينظر إليه بدهشة كبيرة.

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل.

ـ لا أريد هذا المال! لقد قدَّرت خلال مدةٍ ما أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة في موسكو، أن أسافر إلى الخارج. كان لي هذا الأمل، ولا سيما أنك كنت تقول: «إن كل شيء مباح». أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير، وأن أمضي في الأمور على هذا النحو. كنت تقول لي دائماً: «إذا لم يوجد الله الذي لا نهاية له، فلا جدوى من الفضيلة ولا داعي إليها». هكذا كنت تفكر أنت، ولقد استندت أنا إلى أقوالك واعتمدت عليها.

ـ ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك في هذه الجريمة، أليس كذلك؟ سأله إيڤان بابتسامة ساخرة.

ـ نعم، مستوحياً آراءك.

ـ والآن هل عدت إلى الايمان بالله، ما دمت ترد إليَّ المال؟

ـ لا، أنا لا أؤمن بالله. دمدم سمردياكوف.

ـ فلماذا ترد إليَّ المال إذن؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة مللٍ من جديد:

ـ كفى! فيم يهمك هذا؟ أما كنت تقول عندئذ إن كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن بهذا الشكل، حتى لتنوي أن تشي بنفسك؟ لكنك لن تفعل ذلك، لا، لن تشي بنفسك، لن تشي بنفسك. ردَّد سمردياكوف بصوت جازم ينمّ عن اقتناع كامل.

ـ سترى! أجابه إيڤان.

ـ هذا مستبعد تماماً. أنت أذكى من أن تفعل ذلك. أنت تعبد المال، أعرفُ هذا؛ وأنت تحرص كثيراً على أن يحترمك الناس، لأنك متكبر. ثم إنك عدا ذلك تتأثر جداً بمفاتن الجنس اللطيف، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد. أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص على أي شيء آخر. ولن تريد أن تفسد حياتك بتلطيخ شرفك إلى الأبد أمام المحكمة. أنت تشبه فيودور بافلوفتش. أنت بين سائر أبنائه أكثرهم شبهاً به، لأنك قد ورثت عنه نفسه.

ـ لستَ غبياً. كنتُ أظنك في الماضي أبله. قال إيڤان وقد ظهر عليه الاعجاب بملاحظات سمردياكوف، وتدفق الدم إلى وجهه:

ثم أضاف وهو يتفرس في الخادم بفضول.

ـ أرى أنك تتكلم الآن في جد.

ـ بسبب زهوك وكبريائك كنتَ تعتبرني غبياً. خذ المال. هلّا أخذته!

جمع إيڤان رزم الأوراق المالية الثلاث، ودسَّها في جيبه، حتى دون أن يهتم بلفِّها. وقال:

غداً سأُظهرها للمحكمة.

ـ لن يصدقك أحد، لأنك الآن غني، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت.

نهض إيڤان وقال:

ـ لم أقتلك اليوم، فما ذلك إلّا لأنني سأحتاج إليك غداً. تذكر هذا!

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقي على إيڤان نظرة عجيبة:

ـ اقتلني إذا شئت، اقتلني في هذه اللحظة.

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم بمرارة:

ـ ولكنك لن تجرؤ. لن تجرؤ على شيء بعد اليوم، يا من كنت في الماضي رجلاً جسوراً.

ـ إلى اللقاء غداً. قال إيڤان.

وتقدم خطوة نحو الباب.

ـ انتظر... أرِنيه مرة أخرى، هذا المال...

أخرج إيڤان الأوراق المالية من جيبه، وأراه إياها. فتأملها سمردياكوف بضع ثوان، ثم قال وهو يحرك يده بشيء من الملل:

ـ حسناً. اذهب الآن!

فلما همَّ إيڤان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف:

ـ إيڤان فيودوروفتش!

ـ ماذا تريد؟ سأله إيڤان.

فقال له الخادم:

ـ الوداع يا سيدي!

ـ بل إلى اللقاء، إلى الغد! أجابه إيڤان.

وخرج من المنزل.

كانت عاصفة الثلج في الخارج ما تزال تعصف. وراح إيڤان يمشي بخطى ثابتة، ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح. فقال لنفسه وهو يبتسم: «هذه لحظة تعب». وسيطر عليه نوع من فرح. كان يحس في نفسه ثباتاً لا يتزعزع: هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التي كانت تعذبه منذ زمن طويل. قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسي كبير: «قررت. ولن يتغير قراري». وفي تلك اللحظة صدم شيئاً على الأرض، فكاد يتعثر. توقف عن السير، فإذا هو يرى الفلاح الصغير الذي كان قد صرعه قبل وقت قصير، نائماً على الأرض، جامداً على ذلك الوضع نفسه، مغمياً عليه. وقد غطّى الثلج وجهه تقريباً. رفعه إيڤان وحمله على كتفيه. وإذ رأى نافذة مضاءةً في منزلٍ على يمينه، اقترب من النافذة وطرقها، فأجابه صاحب المنزل، فعرض عليه إيڤان ثلاثة روبلات ليساعده في نقل الرجل إلى أقرب قسم تابع للشرطة. قبل صاحب المنزل. سأصرف النظر عن التفاصيل، فلا أذكر إلّا أن إيڤان فيودوروفتش قد استطاع أخيراً، بتوزيع بقاشيش كبيرة، أن يضع الفلاح الصغير في مقر الشرطة، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور. واستغرقت هذه المسألة قرابة ساعة. ولكن إيڤان كان يشعر برضًى عن نفسه. كان فكره يعمل بعنف، رغم تشتُّت أفكاره. قال يحدّث نفسه مسروراً: «لولا أن كان قراري فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً، لما ضيّعت ساعةً كاملة في الاهتمام بهذا الفلاح السكران، ولمررت به دون أن اكترث لمصيره، ودون أن أفعل شيئاً في سبيل ألّا يتجمَّد من البرد...» ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والارتياح: «ولكن كيف أمكن أن أكون قادراً على تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق. ما أغبى

أولئك الأطباء الذين يدعون أنني على وشك أن أصبح مجنوناً!». حتى إذا وصل إلى منزله هاجمه شك. فقال لنفسه: «أليس الأفضل أن أذهب إلى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شيء؟». ولكنه أبعد هذه الفكرة، واتجه نحو الباب قائلاً: «غداً، غداً يتم هذا كله». شيء غريب: بينما كان إيڤان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة، إذا بالفرح الذي كان يملأ نفسه منذ قليل، يتبدد في طرفة عين. وحين اجتاز عتبة غرفته شعر ببرد في قلبه، كأنه تذكر شيئاً مقزِّزاً موجوداً في هذه الغرفة بعينها، في هذه اللحظة نفسها، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن. وتهالك على كنبته منهك القوى. وجاءته الخادمة العجوز بالسماور. فحضَّر لنفسه قليلاً من الشاي، ولكنه لم يشربه، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده إلى الغد. كان يشعر بدوار وهو جالس على ديوانه. كان يشعر بأنه مريض خائر القوى. حاول أن ينام. ولكنه نهض ثانيةً وهو في حالة قلق شديد، وأخذ يمشي في غرفته بغية أن يطرد عنه النعاس. وخيِّل إليه في بعض اللحظات أنه بدأ يهذي. على أن المرض ليس هو الذي كان يشغل باله في تلك الساعة. وعاد يجلس، ونظر إلى جميع الجهات كأنه يراقب المكان. وأجال بصره حوله عدة مرات. وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معيَّن، وأخذتا تحدقان إلى نقطة بعينها في أقصى الغرفة. وابتسم إيڤان. ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه. وبقي جامداً خلال مدة طويلة، ضاغطاً رأسه بيديه بقوة، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان إلى تلك النقطة نفسها في جهة الكنبة الموضوعة قرب الحائط أمامه. واضح أن شيئاً ما كان يقلقه ويعذبه.

# IX

## الشيطان، كابوس إيفان فيودوروفتش

لست طبيباً لكنني أشعر، بأن أقدم للقارىء بعض الإيضاحات عن طبيعة مرض إيڤان فيودوروفتش. وكي لا أستبق التتمة، سأقتصر على القول هنا إنه كان في ذلك المساء نفسه على وشك أن يُصاب غداً بنوبة حمّى حارة. قد تؤدي إلى أن يتغلب المرض أخيراً على جسمه الواهن الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم. وبما أنني أجهل الطب، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع، بفضل توتر إرادتـه، أن يُبعد، إلى حين، ذلك المرض، آملاً أن يتجاوزه كلياً. كان يعرف أنه مريض، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الفترة الحاسمة من حياته حيث يجب عليه أن يملك جميع قواه، ليتكلم بوضوح، «ليبرر نفسه أمام نفسه». مع ذلك ذهب إلى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة، والذي استدعته كاترينا إيڤانوفنا بدافع إحدى نزواتها التي سبق وتكلمت عنها. فبعد أن أصغى الطبيب إلى كلامه، وبعد أن عاينه، استنتج أنه مصاب باضطراب دماغي، ولم يستغرب أبداً الاعترافَ الذي قام به إيڤان فيودوروفتش على مضض. قال الطبيب: «من الممكن جداً، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغي، أن توافيك هلوسات، رغم أن

الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقق... فلا بد إذن من أن تبدأ بمعالجة نفسك بغير إبطاء، خشية حدوث أسوأ العواقب». ولكن إيڤان فيودوروفتش، حين خرج من عيادة الطبيب، لم يلقِ إلى هذه النصيحة وزناً، ولم يتابع العلاج. قال يحدث نفسه: «ما أزال قادراً على المشي، وما أزال أملك من القوة ما يمكنني من أن أهتم بشؤوني. ويوم أسقط فليصنعوا بي ما يشاؤون، وليعاملوني كما يحلو لهم». بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده بإشارة الملل. فجلس وهو مدرك أنه في تلك اللحظة يمر في حالة هذيان. كان كما قلت يحدق بشدة إلى شيء قرب الجدار المقابل من الغرفة. ذلك أنه على الكنبة المستندة إلى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يعلم إلّا الله كيف، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين دخل إيڤان فيودوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف. إن هذا الشخص سيد روسي، أو هو يشبه أن يكون كذلك، متقدم في السن قليلاً، يناهز الخمسين من العمر، كما يقول الفرنسيون. شعره قاتم طويل كثيف، أشيب في بعض المواضع، وكذلك لحيته الصغيرة المروَّسة. وهو يرتدي صِداراً بنّي اللون، رائع التفصيل، ولكنه عتيق قليلاً، قد بليت «موضته». لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين، وما من أحد بين رجال المجتمع الثري يرتدي مثل هذه الثياب في هذا الزمان. إن القميص وربطة العنق الطويلة التي تشبه أن تكون منديلاً، أنيقان أيضاً، فهما مما يرتديه عادة سادة يهتمون بهندامهم بعناية، ولكنك تشك في نظافتهما إذا أنت أنعمت فيهما النظر من قرب. وتبدو ربطة العنق مهترئة. والرجل يرتدي بنطالاً ذا مربعات، يناسبه كثيراً، رغم أن لونه فاقع جداً، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته. ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة. باختصار، إن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك إلّا موارد محدودة. فلا شك أنه ينتمي إلى فئة ملاكي الأراضي القدماء

الذين كانت أوضاعهم مزدهرةً في عهد القنانة. وهو يجيد الآداب الاجتماعية، فلا شك أنه عاشر المجتمع الراقي، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات. غير أن هذا السيد، وقد صار شيئاً فشيئاً إلى فقرٍ سببَّه تبذيره في إبان شبابه، وفاقمه إلغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة، قد تردَّى الآن إلى حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أرفع الناس قدراً وأوسعهم جاهاً، شريطة أن يُعيَّن له مكان متواضع بطبيعة الحال. وإن الطفيليين الذين هم من هذا النوع الذين يرجعون إلى محتد طيب ويملكون طبعاً مميزاً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر، ويجيدون المشاركة في لعبةٍ بالورق، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يطلب كي يقوموا بمثل ذلك، إن هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين. وقد يكون لهم أولاد، لكن أولادهم يعيشون دائماً بعيدين عنهم. تربِّيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه. وبمضي الزمن فينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريباً، ويتلقون منهم في أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون.

كانت هيئة زائر إيڤان فيودوروفتش المفاجئة، لطيفة، لكن أيضاً محببة، وجاهزة لحظة لأي تعبير متعاطف. ولم يكن يحمل ساعة، ولكنه في مقابل ذلك يضع على عينه نظارةً لها حمالة من صدف، مربوطةً بشريط أسود. وكانت إصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب، له فَصٌّ من حجر بخس الثمن. تأمل إيڤان فيودوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة، ورفض أن يبدأ الحديث. كان الضيف ينتظر، وبقي كطفيلي نزل من الغرفة المخصصة له في الطابق الأول ليحتسي الشاي مع صاحب الدار، لكنه يلزم الصمت إذا لاحظ

أن صاحب الدار منهمك بأعماله أو مقطب حاجبيه بجدية. ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع في حديث لطيف حلو متى أتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن همّ، وقال يخاطب إيڤان فيودوروفتش:

ـ اعذرني! فقط على سبيل التذكير: لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترينا إيڤانوفنا له، ولكنك تركته دون أن تطّلع على شيء. أغلب الظن أنك نسيت...

ـ صحيح! قال إيڤان وقد أظلم وجهه، نعم، قد نسيت... لا بأس، سيتم هذا كله غداً. تمتم وكأنه يحدث نفسه. واستأنف يقول في حنق وهو يلتفت إلى زائره، أنا من كان يجب أن يتذكر، لأن القلق كان يرهقني بسببه. ما تدخلك أنت في الأمر؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذي ذكَّرتني مع أنني تذكرت من تلقاء نفسي؟

ـ لكن لا تصدق، قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً. هل يمكن أن نؤمن تحت الضغط؟ ثم إن البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان، ولا سيما البراهين المادية. إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث، بل لأنه كان ظامئاً إلى الإيمان قبل ذلك. انظر مثلاً إلى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح... أنا من جهتي أحبهم كثيراً... تخيل أنهم يتصورون أنهم يفيدون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين إلى آخر. هم يقولون: «ذلك برهان، مادي في أقل تقدير، على وجود العالم الآخر». فانظر إلى هذا التفكير: يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية. ثم... هبهم برهنوا على وجود الشيطان، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً؟ في نيتي أن أنتسب إلى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشىء فيها حزباً معارضاً. سأقول لهم: «أنا واقعي، لا مادي». ها ها!

ـ اسمع قال إيڤان وهو ينهض بقوة. يخيَّل إليَّ أنني الآن أهذي... أنا

أهذي حقاً... فتكلم واكذب ما شاء لك... سيان عندي... لن تنجح في إثارة غضبي كما فعلت في المرة الماضية. ولكنني خجل... لست أدري لماذا... أتمنى أن أمشي في الغرفة... هناك لحظات تغيب فيها عني، فلا أراك ولا أسمع صوتك، تماماً كما في المرة الماضية، ولكنني أعرف دائماً ما ستقوله لي، «لأنني أنا، أنا وحدي، الذي أنطق بهذه الأقوال، لا أنت»! وإني لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت في المرة الماضية فرأيتك في الحلم، أم أنت ظهرت لي في الواقع أثناء اليقظة؟ سأغطس هذه الخرقة في الماء البارد فأضعها على رأسي. فلعلك تتبخَّر عندئذ.

اتجه إيڤان فيودوروفتش نحو زاوية الغرفة، وتناول منشفة بللها بالماء ووضعها على جبينه. وأخذ يمشي بعد ذلك في الغرفة ذهاباً وإياباً.

ـ إنه ليسرني حقاً أن نتحدث الآن بصيغة المفرد من دون كلفة.

ـ أنت غبي! أجابه إيڤان ضاحكاً. هل تتخيل أنني سأستعمل الآن ميم الجمع في مخاطبتك؟ أنا في هذه اللحظة منشرح النفس حسن المزاج، لكنني أحس بأوجاع في صدغيَّ... وأشعر بصداع في مؤخرة رأسي... فرجاءً... لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت في ذلك اليوم. إذا لم يكن في وسعك أن تغيب، فتكلم في أمور فرحة. قصَّ عليَّ نمائم وشائعات. ذلك يناسبك ما دمت طفيلياً. يا له من كابوس فظيع ألّا أستطيع التخلص من هذا الشخص! ولكنني لا أخشاك. سأنتصر عليك آخر الأمر. لن أُقاد إلى مستشفى المجانين.

ـ أنا طفيلي... كلام جميل! حقاً، ما هو دوري على هذه الأرض. هل أنا في الواقع إلّا طفيلي؟ بالمناسبة؟ لقد شعرتُ حين أصغيت إلى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب. لكأنك أخذت تعتبرني شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت في المرة الماضية بعناء شديد...

ـ ما حسبتك لحظة واحدة حقيقة واقعية. هتف إيڤان يقول حانقاً. أنت

تكذب. إنك مرضي. لست إلّا شبحاً. ولكنني لا أعرف كيف أتحرر منك، وألاحظ أن عليَّ أن أحتمل حضورك زمناً. أنت هلوسة في دماغي المتعب. أنت تجسِّدُ ذاتي، ولكنك تجسِّد جانباً واحداً من طبيعتي... إنك تمثل جانباً من أحط عواطفي وأفكاري. وكان يمكن، من هذه الناحية ولهذا السبب، أن يعنيني أمرك قليلاً، وأن أهتم بك، لو كان في وقتي متسع...

ـ اسمح لي... سوف أفضحك إذا سمحت: منذ قليل، قرب مصباح الشارع، ثرت على أخيك إيليوشا صارخاً: «هل علمت هذا منه هو؟ فمن أين عرفت أنه يزورني؟». لقد كنت تقصدني أنا إذن. معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودي، وتعتبرني شخصاً موجوداً في الواقع.

ـ نعم! كانت تلك لحظة ضعفٍ طبيعيٍ جداً... قال السيد ذلك وهو يبتسم بلطف. ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم. إني لأتساءل هل أنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية. فلعلني لم أرك عندئذ إلّا في الحلم لا في الواقع.

ـ ولمَ كنت قاسياً مع أخيك إيليوشا منذ قليل؟ إنه فتى لطيف جداً! وإني أشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الراهب زوسّيما تلك.

قال إيڤان ضاحكاً:

ـ لا تقل شيئاً عن إيليوشا. كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الدنيء!

ـ تشتمني وتضحك في آن واحد. تلك علامة حسنة. ثم إني ألاحظ أنك اليوم لطيف في معاملتي أكثر مما كنت في المرة السابقة. إنني أفهم سبب هذا: هو ذلك القرار النبيل الذي اتخذته.

ـ لا تقل كلمة واحدة عن قراري. صاح إيڤان وقد عصف به الحنق من جديد.

ـ أفهم، أفهم تماماً. هذا عمل نبيل، هذا عمل رائع. إنك تنوي أن تدافع عن أخيك، وأن تضحي بنفسك في سبيله... هذه فروسية!...

ـ اسكت وإلّا ركلتك بالقدم!

ـ إن ذلك يسرني وبه يتحقق هدفي. ذلك أن لجوءك إلى استعمال العنف معي سيكون برهاناً على أنك أصبحتَ تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً. هل يركل أحد شبحاً؟ ولكن دعنا من هذه المزحات. اشتمني إذا كان يلذ لك ذلك، سيّان عندي. ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والتهذيب حتى في معاملتي أنا. لقد قلت بأنني غبي ودنيء! فما هذه التعابير! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ!

ـ بإهانتك أهين نفسي. قال إيڤان ضاحكاً. لست أنت إلّا أنا، أنت نفسي، أنت روحي، ولكن في وجه غير وجهي. أنت دائماً تعبر عن أفكاري في اللحظة نفسها التي توافيني فيها هذه الأفكار... أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه فأنت عاجز عن ذلك تماماً!

ـ شاركتك في أفكارك فهذا ليشرفني. قال السيد بوقار فيه رقة ورهافة.

ـ لكنك لا تختار من أفكاري إلّا أردأها، وأغباها خاصة. أنت غبي ودنيء. أنت غبي بشكل رهيب في الواقع. لا، لا، لا أطيق أن أحتمل حضورك! ما العمل؟ ما العمل؟ قال إيڤان بغضب.

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلي، إلى مسكنةٍ واستعدادٍ لما يجب من تنازلات:

ـ من جهتي أحرص على أن أبقى رجلاً مهذباً وأن أُعرف بذلك. صحيح أنني فقير... ولكن دون أن أزعم أنني أشرف من غيري... أستطيع القول إن من المسلَّم به في المجتمع عموماً، كبديهية أنني ملاك سقط. شهد الله أنني لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً. واعتبر أنني كنت في الماضي ملاكاً، فإن ذلك يرجع إلى عهد بعيد أُعذر إذا أنا نسيته. وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عني أنني رجل محترم، ثم أن أعيش

كما يمكنني أن أعيش محاولاً أن أسرَّ أقراني البشر. آه! إنني أحب الناس حباً صادقاً، وطالما رُوِّجت في حقي النمائم من هذه الناحية. حين أجـد نفسي بينكم وحين أقيم عَرَضاً عند واحدٍ من أمثالكم، فإن وجودي يتخذ عندئذ صورة واقعية، وذلك ما يحلو لي أكثر من أي شيء آخر في الأمر كله. لأنني أنا أيضاً مصاب مثلك بخيال مختل، ولهذا أقدر واقعيتكم الأرضية السليمة. إن كل شيء في نظركم محدد بدقة، وإن كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة، فالهندسة هي المنتصرة. أما عندنا! أما نحن، فإننا نظل ضائعين إلى الأبد في معادلات غير محددة. أنا هنا أحلم وأتنزه. أحب أن أحلم. ثم إنني متى وجدت على الأرض أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام. لا تسخر مني: يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام. إنني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا. لقد أصبحت أحب الذهاب إلى الحمّامات العامة، ويحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والكهنة. أن أخفي رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) في تاجرة بدينة تزن مئة كيلوغرام، وأن أؤمن بكل ما تؤمن به: وسيكون مثلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسةً فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من الروح. سيكون ذلك خاتمة آلامي. وإني لأجد لذةً كبيرة كذلك في أن أُداوي كما تُداوَوْن. في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري، فذهبت ألتمس أن أُلقَّح كسائر الناس، لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم، حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة إخوتنا السلافيين!... لكنك لا تصغي إلى كلامي. وبعد لحظة صمت أضاف السيد المهذب، أنت تبدو مريضاً. وأنا أعرف أنك ذهبت إلى الطبيب أمس. فماذا قال لك الطبيب؟ كيف حال صحتك؟

ـ أبله! قال إيڤان.

ـ أما أنت فذكي جداً. لقد عدتَ إلى الفظاظة: أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف والمودة، وإنما لأقول أي شيء. لا تجبني إن شئت. لقد أصبحت أوجاع الروماتزم موضة...

ـ أبله! كرر إيڤان.

ـ أبله إذا شئت. ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى اليوم.

ـ دعك من هذا الكلام! هل يمكن أن يعاني شيطان آلام روماتزم؟

ـ لِمَ لا، ما دمت أتجسد أحياناً؟ إنني أقبل جميع نتائج تجسداتي. «أنا شيطان، ولا شيء مما هو إنساني غريبٌ عني».

ـ كيف؟ كيف؟ «أنا إنسان ولا شيء مما هو إنساني...» ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان!

ـ يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك.

ـ ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا! قال إيڤان مذهولاً وقد توقف عن المشي، إن هذه الجملة لم تخطر ببالي قطّ! هذا غريب مع ذلك...

ـ كلام فيه جدة وطرافة، أليس كذلك؟ لكنني سأكون أميناً شريفاً في هذه المرة، فأشرح لك هذا اللغز. كثيراً ما يحدث في الأحلام، ولا سيما في الكوابيس ـ كتلك الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً، أو عن أي سبب آخر، قطعٌ حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركباً معقداً، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط بينها وتشد بعضَها إلى بعض فكرة موجَّهة، وتملأها تفاصيل غير منتظرة، تراوح بين أعلى تجليات الوجود الإنساني كما تقولون، وبين أحقر التفاهات، كزر كمٍّ مثلاً. إن القصص التي يعيشها المرء على هذا الشكل في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوي نفسه لا يستطيع أن يتخيلها. ومع ذلك فليس الكتّاب على وجه

العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع، وإنما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادي جداً، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحافيين أو كهنة... والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتطرح سؤالاً: لقد صرَّح لي وزير ذات يوم أن أخصب الأفكار إنما توافيه عادةً وهو نائم. ذلك بعينه ما يحدث لك في هذه الساعة. حاولت أن أكون مجرد هلوسة صادرة عن دماغك، لكن هذا لا ينفي أنني أقول أشياء مميزة، لا تخطر في بالك، كما يحدث في كابوس. وهذا ليس ترداداً لأفكارك أنت، ومع ذلك لست إلّا كابوسك ولا شيء آخر.

ـ أنت تكذب! كي تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكري. ثم ها أنت تعلن أنت نفسك أنك لست إلّا حلماً.

ـ لقد اصطنعت اليوم أسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة. سأشرح لك هذا في ما بعد. لحظة، إلى أين وصلت من حديثي؟ قلت لك إنني أصبت ببرد. ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض، وإنما حدث هناك أيضاً...

ـ هناك؟ أين؟ قل لي: هل ستمكث عندي زمناً طويلاً؟ قال إيڤان وقد كاد يبلغ ذروة اليأس. وتوقّف عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على الطاولة، ضاغطاً رأسه بين يديه. ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف: لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء.

ـ أعصابك مريضة. قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن ودية. تلومني لأنني أصبت ببرد، مع أن هذا قد حدث لي بشكل طبيعي جداً. كنت ذاهباً إلى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة من بطرسبورغ تستقبل شخصيات ذات نفوذ، وتكاد ترى أنها لا تقلّ خطورة شأن ورفعة عن وزير من الوزراء. كنت مرتدياً ثياباً رسمية مع ربطة عنق بيضاء وقفازين. ولكنني كنت قد تأخرت، لأنني اضطررت أن أذهب قبل ذلك إلى مكان ما، فكان عليَّ حتى أصل إليكم على الأرض أن أقطع فضاءات واسعة... المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً. ومع

ذلك أنتم تعرفون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل إلى الأرض. كنتُ ـ لا تنسَ هذا ـ أرتدي ثياباً رسمية مع صِدارٍ مفتوحٍ جداً. إن الأرواح لا تتجلد من البرد، هذا معروف. غير أن تجسد الروح يعرّضها أحياناً لبعض العواقب الوخيمة. الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش حين مضيت في طريقي إلى الأرض مرتدياً تلك الثياب. وليتك تعلم كم هو شديد البرد في تلك الفضاءات، في الأثير. إنه برد فظيع، بردٌ لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا. الصقيع؟ هه... تصوَّر أن درجة البرودة كانت مئة وخمسين تحت الصفر! إن بنات قراكم قد تخيلن مزحةً شائعة جداً. فحين يشير الترمومتر إلى الثلاثين تحت الصفر، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس، فإذا بلسانه يتجلد فوراً، وإذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد. هذا إذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب. أما إذا بلغت مئة وخمسين، فأحسب أنه يكفي أن تقترب الإصبع من الفأس حتى تزول شرط أن يكون في الأثير فأس طبعاً...

ـ لأنه يمكن أن يكون في الفضاء فأس؟ سأله إيڤان مذهولاً بلهجة متقززة. كان يقاوم بكل قواه لكي لا يصدِّق أنه يهذي، وذلك حتى لا يتردى إلى الجنون نهائياً.

ـ فأس؟ سأله الزائر مدهوشاً.

ـ ماذا سيحدث للفأس هناك؟ فهتف إيڤان بعناد غاضب.

ـ ماذا يحدث للفأس في الفضاء؟ يا لها من فكرة عجيبة. لو رُميت إلى مسافة بعيدة، فأظن أنها ستدور حول الأرض دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر، كما يحدث لواحد من التوابع، كما يحدث لقمر من الأقمار؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً؛ وسيدوِّن جاتسوك ذلك في التقاويم، وهذا كل شيء.

ـ أنت غبي، غبي غباءً فظيعاً قال إيڤان مغتاظاً: حاول أن تكذب بفطنة على الأقل، وإلّا كففت عن الاستماع لك. إنك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك، وأن تجعلني بذلك أسلم بوجودك. إعلم أنني لا أريد أن أسلِّم بهذا، إنني أرفض أن أصدّقه! لن أصدّقه!!

ـ أنا مع ذلك لا أروي أكاذيب. إن كل ما أقوله صحيح. من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة. أنت مثلاً تتوقع مني، فيما ألاحظ، أفكاراً خارقة، وربما رائعة. يؤسفني هذا كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أعطي إلّا ما أستطيع...

ـ دعك من التفلسف يا حماراً أبله!

ـ أنت تتكلم عن الفلسفة والجنب الأيمن كله من جسمي مشلول، وأنا أئن وأتوجع! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء: إنهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض، ويشرحونه بأدق التفاصيل. أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه. حتى لقد أتيحت لي فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب، فقال لي فرحاً: «هبك متَّ من هذا المرض. لسوف يتيح لك ذلك في أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذي أماتك». وانظر بعد ذلك إلى طريقتهم تلك في إرسالك إلى اختصاصيين حين يقولون لك: «مهمّتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض. بقي عليك الآن أن تذهب إلى الاختصاصي فلان أو فلان، فهو الذي سيشفيك». إن الطبيب الجديد القديم الذي عرفناه في الزمان الماضي وكان يعالج من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً، تماماً، أؤكد لك! لم يبق اليوم إلّا الاختصاصيون، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم. إذا شعرت بآلام في الأنف، أرسلوك إلى باريس: يظهر أن في باريس اختصاصياً له شهرة في أوروبا كلها، يعرف معرفة ممتازة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف. وتذهب إلى باريس فيفحص الاختصاصي أنفك، فيقول لك: «أنا لا أستطيع أن أشفي إلّا منخرك الأيمن، لأنني لا أهتم

أبداً بالمنخر الأيسر، فهو لا يدخل في دائرة اختصاصي. فعليك بعد اتباع معالجتي أن تذهب إلى فيينا حيث يوجد اختصاصي حاذق جداً سيفعل لك كل ما يجب لمعالجة منخرك الأيسر.. ما العمل في هذه الحالة؟ لجأت عندئذ إلى استعمال الأدوية التي تنصح بها النساء العجائز. وصف لي طبيب أن أدلك جسمي بعد الحمّام بمزيج من عسل وملح. ذهبت إلى الحمامات العامة لا لشيء إلّا لأستمتع بوجودي مرةً في غرفة البخار، وهنالك وسَّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يجدني نفعاً. فلما يئست كتبت إلى الكونت ماتيئي في ميلانو: فأرسل إليَّ نشرة وقطرة. سامحه الله! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذي ينتجه هوف هو الذي شفاني تقريباً. كنت قد اشتريته عرضاً، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأنني شفيت، حتى لقد تمنيت أن أرقص. زالت أوجاعي كلها. فأقسمت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الانتاج. كان يدفعني إلى ذلك شعور صادق بالامتنان، ولكن لهذا قصة جميلة جداً! تصوَّر أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى بنشر شكري... قالوا لي: «إن تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية. ثم إن أحداً لن يصدقك. فالشيطان لا وجود له». ونُصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها. ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد، فقلت لهم: «إن الايمان بالله هو الذي يمكن أن يعدَّ شيئاً رجعياً في زماننا هذا. أما أنا الشيطان، فإنه مباح تماماً أن أصدَّق». فأجابوني: «إننا نفهمك. فمن الذي لا يؤمن بالشيطان؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذي تلتزمه جريدتنا. اللهم إلّا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل!». لكنني قلت لنفسي، على سبيل المزح، لا بد من بعض الفكاهة. وهكذا، بقيت مجهولاً. صدقني، لم أستوعب ذلك. إن أنبل عواطفي، كعاطفة الشكر مثلاً، قد حُكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي.

ـ ها أنت تسترسل في التفلسف من جديد! قاطعه إيڤان مغتاظاً.

ـ ليحفظني الله! لا يمكن للمرء ألّا يشتكي من حين إلى آخر. أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة، لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي. هذا موقف يقفه شاب. اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمَّ شيء. لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع. «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية». يبدو أنك تعتبرني هلستاكوفاً دبَّ فيه الهرم، مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك بكثير. إنني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه، لأنه كُتب عليَّ قبل خلق هذا العالم، أن أظل «أجحد» بغير انقطاع، أن أجحد كل شيء، مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية لا أستطيع إنكار المنظم المذهبي. «لا مفر. يجب عليك أن تنكر وأن تجحد رغم كل شيء. فبدون إنكار لا يكون نقد، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من زاوية موقوفة على النقد. إن الكون لن يكون بغير النقد إلّا تسبيحاً متصلاً مستمراً. ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسبيح الله فقط، وعلى تمجيد خلقه فحسب. لا بد لاندفاع البشر إلى شكر الله من أن يمر بحفرة الشكوك» لكنني لا أطمع في أن أقضي برأي في هذا النظام، فلست أنا من تخيله ووضعه، ولست مسؤولاً عنه إطلاقاً. كل ما هنالك أنني جعلتُ كبش فداء، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقدٍ أبدي. على هذا النحو إنما نشأت الحياة الأرضية. إننا نحن أيضاً نشعر شعوراً كاملاً بدناءة هذه المهزلة التي أريدَ لنا أن نمثلها. وإنني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد إلى العدم. فأُجاب: «بل يجب عليك أن تحيا، فبدونك لن يجري أي شيء. إذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً، لما حدث ما في الأرض شيء أبداً. بدونك لن يكون ثمَّة أحداث، وهل عن الأحداث غنى؟». أنا إذن أقوم بوظيفتي وأحقق مهمتي محطَّم القلب، من أجل أن يكون ثمَّة أحداث، وأشيع الضلال في هذا العالم بأمرٍ أعلى. والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة على محمل الجد، رغم

ما لديهم من ذكاء نافذ. وذلك هو ما يجعل مصيرهم كارثياً، وحياتهم أليمة. إنهم يعانون عذاباً لا نهاية له. هذا صحيح... ولكنهم في مقابل ذلك يعيشون حياة واقعية، لا وهمية. لأن العذاب هو الحياة. ما عسى أن تصير إليه الفرحة بالحياة في هذا العالم إذا لم يوجد الألم؟ لن يكون هنالك عندئذ إلّا نشيد متصل ولطف لا ينتهي. وذلك شيء نبيل جداً، مقدس جداً، ولكنه باعث على أشد الملل والسأم. وأنا؟ أنا أيضاً أتألم، ومع ذلك لا أحيا. أنا حرف «س» في معادلة غير ذات حدود. أنا شبح، أنا طيف أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى إلى نسيان اسمه الحقيقي. أتضحك؟ لا. أنت لا تضحك. وإنما تغضب من جديد. إنك تغضب دائماً. يلزمك بعض الذكاء. ولكنني أعود وأكرر: إنني مستعد لأن أتنازل، عن كل حياتي السماوية، وعن جميع امتيازاتي العالية وألقابي الرفيعة، كي أتجسد في نفسِ بائعةٍ تزن مئة كيلو وأقدِم شموعاً للرب.

ـ يعني أنك لا تؤمن بالله أنت أيضاً؟ سأله إيڤان وهو يبتسم بكره.

ـ ماذا أقول لك؟ إذا كنت جاداً؟

ـ هل الله موجود أم لا؟ صاح إيڤان مجدداً بإلحاح.

ـ آه أنت جادٌ إذن؟ شهد الله يا بني العزيز أنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. وتلك كلمة كبيرة أفلتت مني.

ـ لا تعرف لكن هل ترى الله بعينيك؟ لا، ليس لك وجود واقعي؛ أنت أنا، ما أنت إلّا أنا، ما أنت إلّا أنا... أنت دخان لا أكثر، أنت ثمرة خيالي أنا.

ـ بل قل إن فلسفتي هي فلسفتك. ذلك أصوب. «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، تلك هي القضية الوحيدة اليقينية. أما كل ما عداي، وكل ما حولي، وتلك العوالم البعيدة، أما الله، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة أهذه وقائع موجودة بذاتها، أم هي صادرة عن فكري تحققاً مادياً تدريجياً للأنا، لهذه

الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد. جملة القول... ولكنني أتوقف عن الكلام، لأنني أرى أنك تهمُّ أن ترتمي عليَّ لتشبعني ضرباً.

ـ لو تروي لي نكتة مسلية! قال إيڤان بألم.

ـ أعرف نادرة حول هذا الموضوع. والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الحقيقي، بل هي أسطورة. إنك تأخذ عليَّ ترددي، وتريد بسرعة الجواب: هل تؤمن أم لا؟ فاعلم أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي، وأننا جميعاً، نحن معشر الذين نعيش في المناطق السماوية، تهزنا روح الاضطراب، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة. إنكم حين تقتصرون على تعليل العالم بالجواهر الفردة، والحواس الخمس، والعناصر الأربعة، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء. ثم إن الأقدمين كانوا يعرفون الجواهر. ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول إنكم قد اكتشفتم الذرة الكيماوية، والبروتوبلازما، وما لست أدري أيضاً، فإن أصحابنا قد شدوا على أذنابهم بسيقانهم، وحدث في صفوفنا اضطراب نفسي شديد، وأصبحنا في فوضى شاملة، وانتشرت في بيئتنا الخرافات، وازدهرت الأقاويل. لاحظ أن عندنا نمائم بقدرما عندكم وأكثر. ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات تعيث فساداً في أرجائنا السماوية. يجب أن تعلم، في هذه المناسبة، أن عندنا نحن أيضاً «شعبة خاصة»، أن عندنا نحن أيضاً «مخابرات» تجمع بعض «المعلومات»... والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها إلى قروننا الوسطى ـ أقول قروننا الوسطى نحن، لا قرونكم الوسطى أنتم ـ وهي أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن، باستثناء البائعات السمينات اللواتي يزنَّ مئة كيلو، لا البائعات البدينات اللواتي عندكم أنتم، بل اللواتي عندنا نحن. إن كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا. ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة، رغم أن هذا محظور علينا.

والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنَّة: يُقال إنه كان يعيش على أرضكم في ذات زمان فيلسوف «ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والايمان»، ويرفض خاصةً أن يسلِّم بوجود الحياة الآخرة. وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياهب العدم، فإذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة. كانت دهشته من ذلك عظيمة، وأعظمَ منها كان استياؤه. صاح يقول: «لست أريد الحياة الآخرة هذه، لأنها تخالف عقيدتي». فحوكم وحكم عليه بسبب هذه الكلمة الطائشة. معذرةً إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليَّ. وما هذه إلّا أسطورة على كل حال... حكم على الرجل بأن يسير في الظلمات، مسافة كادريون كيلومتر وعندما يجتازها تُفتح له أبواب الجنة، ويُغفر له كل أخطائه...

ـ أي عذاب لديك في الحياة الآخرة، عدا هذا الكادريون من الكيلومترات؟ قاطعه إيڤان بانتعاش قوي غريب.

ـ أعمال التعذيب؟ لا أريد أن أسمع! في الماضي كان هناك من كل الأنواع. أما الآن فقد اعتقدوا أن عليهم أن يركزوا على الأخلاق و«آلام الضمير»، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم، وهو إحدى ثمرات ما وصلت إليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورقة». فمن الذي جنى من هذا النظام فائدة، في رأيك؟ إن الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه. أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا «آلام الضمير» وليس لهم ضمير؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم! ذلك ما يحدث حين يراد إدخال إصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية بشكل أعمى. أمر يستحق الرثاء! إن نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا. ولنعد إلى فيلسوفكم الذي حُكم عليه بأن يقطع مسافة كادريون كيلومتر: لقد رفع

كتفيه غير مبالٍ، ثم نام على الطريق بالعرض قائلاً: «أرفض أن أمشي، حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ!». خذ نفس ملحدٍ روسي مثقف، وامزجها بنفس النبي يونان الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال متتالية، فتجد طباع المفكر الذي نام على الطريق بالعرض.

ـ على أي شيء نام؟

ـ كان هنالك شيء ما. أأصبحت لا تضحك الآن؟

قال إيڤان وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغي الآن بنهمٍ غير متوقع):

ـ مرحى لذلك المفكر! ألا يزال نائماً على الطريق بالعرض حتى الآن؟

ـ لا. بقي على ذلك الوضع قرابة ألف سنة، ثم عاد ينهض وأخذ يمشي.

ـ يا له من حمار! صاح إيڤان بضحكة عصبية. ثم بدا عليه أنه يفكر تفكيراً عميقاً، ثم استأنف كلامه: ولكن أليس يستوي، على كل حال، أن يبقى نائماً إلى الأبد وأن يقطع مسافة كارديون كيلومتر؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك إلى بليون سنة، أليس كذلك؟

ـ أكثر بكثير! لو كان معي قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة. على كل حال، لا قيمة لهذا، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل. وعند ذلك تبدأ النادرة أو النكتة.

ـ انتهى من اجتياز المسافة؟ كيف هذا؟ من أين جاء ببليون سنة؟

ـ أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم. والواقع أن هذه الأرض ربما قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالي. وهي في كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت في كل اتجاه ثم تحللت ورجعت إلى عناصرها الأولى، فساد ملكوت المياه مجدداً، ثم ظهر مذنَّب جديد فشمس جديدة ولَّدت بدورها أرضاً. وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له

في المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل عينها. ذلك ضجر قاتل بغير حياء...

ـ حسناً، حسناً، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكادريون كيلومتر؟

ـ لكن ما إن فُتحت له أبواب الجنَّة ودخلها، فما إن انقضت على دخوله ثانيتان ـ حسب ساعة يده، نعم، أُلح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون في رأيي قد فسدت في جيبه أثناء رحلته) ـ أقول ما إن انقضت على ذلك ثانيتان حتى قال إن هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادريون كيلومتر فحسب، بل تعدل قيمتهما كادريون الكادريونيات مرفوعةً إلى أساس الكادريون أيضاً. الخلاصة أنه قد بدأ يرتل تسبيحته، وبلغ من الغلوِّ في التسبيح أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً ونبلاً، قد رفضوا في الآونة الأولى أن يصافحوه، لاعتقادهم بأنه قد بالغ في الانحدار إلى حضيض النزعة المحافظة. تلك هي طبيعة الروس. ولكنني أعود فأكرر لك أن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علّاتها. تلك هي المفاهيم السائدة عندنا اليوم في هذه الشؤون.

ـ لقد كشفتك! هتف إيڤان بفرح كأنه فرح طفل، كأنه قد تذكر في هذه اللحظة شيئاً ما فجأة: إن هذه النكتة التي ترويها عن الكادريون من السنين إنما اخترعتها أنا نفسي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنت في المدرسة الثانوية... تخيلت هذه النكتة وقصصتها في تلك الآونة على أحد رفاقي اسمه كوروفكين. كان ذلك في موسكو... إن هذه النكتة تبلغ من تميز أفكاري بها أنني ما كان لي أن أستمدها من غير أفكاري هذه، ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان... وقد عاودت ذاكرتي الآن بدون شعور مني. فأنا الذي تذكرتها إذن، ولم تقصّها عليَّ أنت! يحدث هكذا أن تنبجس من النسيان مجموعة من الأشياء فجأة عند الإنسان حين يُقاد إلى التعذيب أو حين يحلم

وهو راقد في سريره. فما أنت إذن إلّا حلم، إلّا صورة فكري وليس لك وجود واقعي.

ـ إن حماستك لإنكار وجودي تؤكد لي أنك تؤمن بي مع ذلك. قال السيد الراقي وهو يضحك مشرق المزاج.

ـ أبداً! أنا لا أؤمن بك أبداً، أنا لا أؤمن بك حتى ولا بجزءٍ من مئة جزء من الإيمان!

ـ لنقل جزءاً من ألف جزء! إن المقادير الصغيرة في الأدوية التي تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هي الأقوى أثراً. هلّا اعترفت، هلّا اعترفت بأنك تؤمن بي، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً!...

ـ ولا لحظة! هتف إيڤان بغضب.

ـ لكنني أود لو أؤمن بك. أضاف بعد ذلك بصوت غريب.

ـ على الأقل، هذا اعتراف له قيمة كبيرة! اعلمْ أنني طيب القلب وأنني أريد أن أهبَّ إلى نجدتك. اسمع: أنا الذي ضبطتك، لا أنت الذي ضبطتني. لقد تعمدت أنا أن أروي لك نكتتك التي كنت قد نسيتها، وإنما فعلتُ ذلك لكي أقودك إلى أن تشك فيَّ شكاً نهائياً.

ـ أنت تكذب! أنت ظهرت لي لتقنعني بوجودك.

ـ بالضبط. ولكن الشكوك والقلق والصراع بين الإيمان وعدم التصديق يمكن أن يرينا الإنسان الذي يملك شعوراً مرهفاً مثلك عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها. ولما كنتُ أعلم أنك تؤمن بي قليلاً، فقد زرعت الشك في نفسك برواية تلك النادرة لك. فبذلك أقودك من الايمان إلى الشك ومن الشك إلى الإيمان مرة بعد مرة على التناوب. وحين أفعل ذلك أهدف إلى غاية. وأنا أطبِّق هنا منهجاً جديداً: فمتى شككت في وجودي شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لي على أنني لست إلّا حلماً وأنني غير موجود في الواقع. ذلك أنني

أعرفك. فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفي، وهو في الحقيقة هدف نبيل جداً. فأنا أرمي في الواقع إلى أن أضع في نفسك بذرة إيمان متواضعة فإذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة في المستقبل، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش في حماها حياة ناسك وقديس. والحقيقة أن لديك رغبة خفية مكتومة لكن قوية، سوف تأكل الجراد ساعياً إلى تحقيق خلاصك في الصحراء!

- إذن في سبيل خلاص روحي حمّلت نفسك هذا العناء كله؟

- لا بد لي، أنا أيضاً، من أن أقوم بعمل خير ولو مرة في حياتي. ولكنني أرى أنك تغضب، تغضب غضباً شديداً!

- هل أغريتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يُصلون وتغطيهم الطحالب؟

- لكن، هذا هو عملي الرئيسي يا عزيزي. ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التي لا تُحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً. إن نفساً واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه. لدينا في هذا الشأن جدول أسعار. إن نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة. أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاءً، رغم أنك لا تريد أن تسلِّم بهذا، أنا أعرف ذلك... وهم قادرون على أن يسبروا، في لحظة واحدة بعينها، أعماقاً من الشك والإيمان، حتى ليظنّ المرء في مثل تلك اللحظات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم في الفضاء» على حد تعبير الممثل غوربونوف.

- أراك تتدخل بما لا يعنيك؟

- من الأفضل يا صديقي. أجاب الزائر بلهجة الواعظ. أن يكون المرء طويلَ الأنف بدلاً من أن يكون بغير أنف، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة

مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعي (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه إلى عناية اختصاصي). صاح المركيز وهو يلطم صدره: «رُدَّ إليَّ أنفي»، فقال له الكاهن الطيب هامساً: «يا بني، إن أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تُدرك حكمتها أحياناً. فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وإن لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً. لئن شاء حظ قاسٍ أن يحرمك من أنفك، إن في ذلك ميزةً واحدة على الأقل، هي أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرَّك من طرف أنفك»، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً: «ذلك عزاء هزيل!. لسوف يسرني ويسعدني أن أُجرَّ كل يوم من طرف أنفي، شرط أن يكون أنفي في مكانه»، فأجابه الكاهن متنهداً: «يا بني، لا يمكن أن يملك المرء جميع الخيرات في آن واحد؛ فهذه في حد ذاتها معصية لله الذي لم ينسك في هذه الحالة، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرَّ كل يوم من طرف أنفك، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة، فإنما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر: لأنك إذ فقدت أنفك تكون احتفظت به مع ذلك، بالمعنى المجازي...».

ـ ما أغبى هذا الكلام! صاح إيڤان.

ـ يا صديقي، كانت غايتي الوحيدة عندما رويت لك هذه النادرة هي أن أضحكك. ولكنني أقسم لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتي الذي يمارسه اليسوعيون. إن هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً، كلمة بكلمة. وهو حالة وقعت في الآونة الأخيرة وأحدثت لي متاعب جمة وأورثتني هموماً كثيرة. إن ذلك الشاب المسكين الذي حدثتك عنه قد انتحر في تلك الليلة نفسها لدى عودته إلى البيت بعد الاعتراف. وقد بقيت بقربه إلى آخر لحظة... أما كراسي الاعتراف لدى اليسوعيين فإنني أعرفها جيداً، وتلك في الواقع تسلية من تسلياتي المفضلة، حين يوافيني ضجر ويلمُّ بي حزن. وسأقص عليك الآن حالةً أخرى يعود عهدها إلى بضعة أيام خلت. استقبل كاهن يسوعي عجوز

على كرسي الاعتراف فتاة شقراء، نورماندية، صبية في العشرين من عمرها، جميلة يفتن جمالها العقل. أما جسمها فيسيل لعابي عندما أتصورها. ولها عدا هذا طبيعة من تلك الطبائع... جثت على ركبتيها، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان. هتف الكاهن الصارم يقول: «هل يمكن حقاً، يا ابنتي، أن تكوني قد سقطت من جديد؟ أوه! يا مريم العذراء! ماذا أسمع؟ مع رجل آخر؟ إلى أين تمضين يا بنيتي؟ ألا تخجلين؟»، فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في الدموع ندماً: «آه يا أبتاه! إن في ذلك لذة عظيمة له، ولا يُحدث لي أنا إلّا ألماً قليلاً!». جواب عظيم؟ ما رأيك؟ لقد دُهشت أنا نفسي من هذا الجواب. كانت تلك صيحة الطبيعة. بدا لي ذلك أطهر من البراءة نفسها. غفرت لها خطيئتها فوراً، وبينما كنت أهم بالانصراف، رأيتني أُضطر إلى أن أعود أدراجي: ماذا أسمع؟ الكاهن يتواعد مع الفتاة من خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء. الكاهن العجوز! لقد سقط في لحظة. إن الطبيعة، حقيقة الطبيعة هي التي انتصرت. ما لك تكشِّر؟ أراك تقلب شفتيك؟ لقد أصبحت لا أدري ماالذي يجب أن أقوم به كي أرضيك...

ـ دعني وشأني! إنك تطن دماغي كالكابوس. صاح إيڤان بصوت موجع فيه أنين، لأنه كان يشعر أنه عاجز عن التخلص من هلوسته: إن حضورك يضجرني ضجراً قاتلاً. لقد أصبحت لا أحتملك. إنني مستعد لأن أعطي كثيراً في سبيل أن أتخلص منك!

ـ أرجوك للمرة الألف أن تخفف من غلوائك، كفَّ عن توقع أفكار «رفيعة عظيمة» مني، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك. الواقع أنك حانق عليَّ لأنني لم أمثُل أمامك في إطار أكثر مهابةً، تحفُّ بي هالة حمراء، وتحيطني بروق، وتصحبني رعود. كنت تود لو تراني بجناحين كبيرين محمرَّين بنار جهنم، ولا تغفر لي أنني جئت إليك بثياب متواضعة. إنك تشعر بأنك أوذيت، أوذيت في

مشاعرك الجمالية الفنية أولاً، وفي كبريائك ثانياً: كيف يستقبل رجل عظيم ـ أليس كذلك؟ ـ كيف يستقبل مثل هذا الرجل زيارة شيطان مسكين لا تستحق الرثاء؟ صحيح! أنا لا أنكر ذلك! إن هذه السمة الرومانسية التي طالما ندَّد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك. ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيب؟ منذ قليل، حين كنت آتياً إليك، خطر ببالي أن أرتدي ثياب مستشار دولة متقاعد سبق له أن خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس». وكانت هذه الفكرة محببةً إلى النفس، ولكنني لم أجرؤ أن أنفذها، فلو قد فعلت لضربتني حتماً لأنني وضعت على صدري وسام «الأسد» و«الشمس» بدلاً من أن أضع «نجمة القطب» و «نجمة الأبرق». وأنت إلى هذا لا تكف عن تذكيري بأنني غبيّ. شهد الله مع ذلك أنني لم يخطر ببالي أن أنافسك في الذكاء. حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل إلّا الخير. ذلك شأنه هو. أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت في الكون بأسره الإنسان الوحيد الذي يحب الحقيقة مخلصاً ويهدف إلى الخير صادقاً. لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» إلى السماء، بعد موتها على الصليب، وهي تحمل على صدرها روح لص اليمين المصلوب. وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكروبيين مسبحين الله، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيون الذين هزُّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها. فيميناً بكل ما أقدس في هذا العالم، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمَّ إلى جوقة المنشدين لكي أسبّح الله أنا أيضاً. كان صدري يرتفع، وكانت كلمات الثناء تندفع إلى شفتي... ذلك أنني ـ أعلم هذا ـ حساس جداً، وأنني قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة. ولكن العقل ـ هذه الملكة اللعينة في طبيعتي ـ قد صدتني في تلك المرة أيضاً، واضطرتني إلى الاعتدال، فأفلتت مني اللحظة الرائعة، أفلتت مني الفرصة الوحيدة. تساءلت عندئذ: «ما عسى أن يحدث بعد

أن أرتّل نشيد تمجيد الرب؟ سوف ينطفىء حينذاك كل شيء في هذا العالم، فلا تجري بعد ذلك أحداث». فبسبب وظائفي وحدها ومن أجل وضعي الاجتماعي وحده خنقت إذن في نفسي ذلك الاندفاع الطيب الكريم، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة. إن شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد، ولم تُترك لي أنا إلّا خسة الشر. ولكنني لا أحسد أولئك الذين يعيشون في السهولة واليسر، فما أنا بالطماع. ولكنني أتساءل مع ذلك: لماذا كُتب عليَّ وحدي، من دون سائر مخلوقات الكون، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس، بل وأن أحتمل ركلات أرجلهم في بعض الأحيان، لأن عليَّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد. أنا أعرف أن في هذا سراً، ولكنهم يرفضون أن يطلعوني على هذا السر. ربما كانوا يعرفون أنني، يومَ أعرف السر، سأسبح أنا أيضاً الله، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما في هذا العالم من عيوب ضرورية، وسرعان ما ينتصر الرشاد، فيكون ذلك نهاية كل شيء، حتى الصحف والمجلات، إذ من الذي يخطر بباله عندئذ أن يشترك في الصحف والمجلات إذا هي أصبحت خاضعة لسلطان العقل. لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة، وأنني بعد أن أقطع ما يجب عليَّ من مسافة تبلغ كادريون كيلومتر، سأعرف السرَّ الذي يخفونه عني. ولكن إلى أن يتحقق ذلك، سأظل معتكفاً أقوم بعملي على مضض، أقتل ألوفاً لأنقذ واحداً. كم نفس وجب إهلاكها وكم سمعة وجب تلطيخها، من أجل الوصول إلى رجل مثل أيوب. ما دام السر مكتوماً عني، سيبقى هنالك حقيقتان في نظري: حقيقة السماء التي أجهلها الآن جهلاً تاماً، وحقيقتي أنا. ولا يدري أحد حتى الآن أي الحقيقتين أفضل... هل نمت؟

ـ إنني أفكر فيك، قال إيڤان وهو يرتعش غضباً. إن أغبى ما في طبيعتي من أمور، إن أسخف ما كان في ذهني من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها مثل القاذورات، تأتي أنت الآن فتقدمها لي كما لو كانت شيئاً جديداً.

ـ لقد فشلت في إرضائك مرة أخرى. أعتقد مع ذلك أنني أجدت وصف التسبيح الذي أنشدته الأصوات في السماء. ما رأيك في هذه اللهجة الساخرة التي تقتفي آثار هايني؟ يخيَّل إليَّ أنها تناسبني. ألا ترى ذلك؟

ـ لا، أنا لم أكن أبداً خادماً من هذا الطراز! أيعقل أن تلد نفسي خادماً مثلك؟

ـ يا صديقي، أعرف شاباً روسياً من أسرة أرستقراطية، فتى أقسم لك أنه رائع: هو فيلسوف، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن. وقد ألَّف قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن، عنوانها: «المفتش الكبير»... وفيه وحده إنما كنت أفكِّر.

ـ أمنعك من الكلام عن «المفتش الكبير»!. صاح إيڤان وقد احمرَّ خجلاً.

ـ حسناً! و «التحول الجيولوجي»؟ ألا يزال يتذكره؟ تلك قصيدة!

ـ اسكت وإلّا قتلتك!

ـ أنت تقتلني؟ دعني أولاً أن أقول كل شيء. فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة إنما جئت. إنني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حماسة وحياة. كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء إلى هذه المدينة: «سأجد هنالك أناساً جدداً. إنهم ينوون تحطيم كل شيء والعودة إلى البداية، أي من أكل لحوم البشر! يا لهم من حمقى! لماذا لم يستشيروني؟ لا حاجة إلى التحطيم في رأيي، ويكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الإله. بهذا ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا. ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً. فمتى رفضت الإنسانية الايمان بالله دفعةً واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آتٍ لا ريب فيه، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن)، فإن المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضروري أن نعود إلى عهد أكلة لحوم البشر. وستزول الأخلاق

القديمة خاصةً، وسيُبنى عالم جديد بعد أن يُمحى الماضي. سوف يتحد البشر ليردوا إلى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة، ولكن في هذا العالم وحده. وسيشعر الإنسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله، لأنه يكون قد أصبح «إلهاً ـ إنساناً». إن ما سيحققه الإنسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود، بفضل إرادته المتحالفة مع العلم، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي. سيعرف كل إنسانٍ أنه فانٍ، وأنه لا قيامة بعد الموت، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة، كأنهم آلة. سيعدل الإنسان يومئذ، من شدة كبريائه، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الإنسان أخاه الإنسان حباً مبرأً من المنفعة، لا يرجو أن ينال على حبه ثواباً فيما بعد. صحيح أن الحب لا يُفرح إلّا لحظات قصيرة، ولكن مجرد وعي تلك اللحظة يقوي لهيبها بالقدر نفسه الذي كان يتحول فيه إلى حب أبدي لا ينتهي. بينما كان في الماضي يضيع في صبوات غامضة إلى حب أبدي ولو من خلف القبر»... وهلمَّ جراً على المنوال نفسه.

كان إيڤان قد سدَّ أذنيه بيديه، وأطرق إلى الأرض وهو جالس على الديوان، وأخذ جسمه كله يرتجف.

ـ «والآن، هذه هي المسألة المطروحة ـ تابع. هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب ـ هي: هل يأتي عصر من هذا النوع أم لا؟ فإذا كان الجواب عن هذا السؤال بنعم، فسوف تحل المشكلة، وسوف تنتظم الإنسانية على أسس جديدة. ولكن لما كان من المستحيل، بسبب حماقة البشر، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى، فإنه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد، وقد وعى الحقيقة منذ الآن، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه دون أن يهتمّ بالمفاهيم البالية. وبهذا المعنى يمكن أن يقال «إن كل

شيء مباح». وأفترض أن ذلك العصر الجديد لن يأتي في يوم من الأيام، فإنه يبقى صحيحاً أنه لا وجود لله، ولا خلود للنفس، فمن المباح إذن للإنسان الجديد أن يصبح «إلهاً إنساناً» ولو وجب عليه أن يكون الوحيد في الكون كله. وواضح أنه سيستطيع، في دوره الجديد، أن يتحرر فَرِحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها «الإنسان العبد» في الماضي، وسيكون عليه أن يتحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً. فلا قوانين تُفرض على إله، لأن الإله على حق دائماً؛ فأي شيء يفعله الإله فهو الصواب، وأي مكان يكون فيه الإله فهو مكانه. إن كل ما سأفعله بعد اليوم فهو خير، وسأحتل المكان الأول... كل شيء مباح، وكفى!» ـ هذا كله جميل جداً، ولكنني أتساءل لماذا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يعيش وأن يخادع؟ فيم هذا التأييد للحقيقة؟ هذا هو إنساننا الروسي المعاصر: من دون عقاب لا يقوم حتى بخدعة واحدة. فإلى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة...

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته. فهو يرفع صوته أكثر فأكثر، وينظر إلى صاحب البيت فاحصاً في دهاء. ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه، فإن إيڤان تناول الكأس الموضوعة على الطاولة، ورمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتي من قوة.

ـ آه! إن هذا لغباء أخيراً! فصاح الخطيب وهو ينهض بسرعة ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه: لقد تذكر محبرة لوثر. هو يدّعي أنني لست إلّا حلماً، فيقذف الكؤوس إلى رأس الخيال الذي ظهر له في هلوسته! لكأنه امرأة حقاً! يا لهذا المنطق ما أغربه! لقد كنت أعتقد فعلاً أنك تتظاهر بسدِّ أذنيك بينما كنت في الواقع تسمعني وتصغي إليَّ...

وفي تلك اللحظة سُمعت طرقات ملحّة على زجاج النافذة، فنهض إيڤان عن ديوانه واثباً.

ـ هل سمعت؟ خير لك أن تفتح صاح الزائر. فهو أخوك إيليوشا يطرق النافذة حاملاً إليك نبأً لست تتوقعه أبداً، نبأً هاماً جداً، صدقني...

ـ اسكت أيها الدجّال! قال إيڤان بغضب. لقد عرفتُ قبلك أنه أخي إيليوشا. وكنت أحس أنه سيأتي، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجيء. إنه يحمل إليَّ « أنباءً»، هذا بديهي.

ـ فافتح إذن، افتح له. إن في الخارج عاصفة ثلج. وهو أخوك. هل تعرف يا سيدي رداءة الطقس في الخارج؟ إن الجو يبلغ من الرداءة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك!...

واستمر الطرق على النافذة. أراد إيڤان أن يسرع فيفتح الباب، لكنه أحس فجأة كأنه مشلول، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد، وأن يحطم هذه الحبال التي تشده، ولكنه لم ينجح. وصارت الطرقات على النافذة أقوى. فشعر إيڤان بأنه يتخلّص من عوائقه، فنهض منتفضاً، ونظر حواليه حائراً. كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا، وكانت الكأس التي رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال في مكانها على الطاولة. وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته جانب الجدار. ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بإلحاح، فإن الطرقات بدت لإيڤان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه، حتى لقد كانت خفيفة.

ـ لم يكن ذلك حلماً! لا... أقسم أنه لم يكن حلماً. كل ذلك حصل تواً. هتف إيڤان فيودوروفتش وهو يندفع نحو النافذة. أنا لم أحلم! وفتح فرجة النافذة، وصرخ يقول لأخيه لكنني قلت لك ألا تأتي:

ـ إيليوشا قل بكلمتين: ماذا تريد مني؟ أجب، هل تسمع؟

ـ شنق سمردياكوف نفسه من ساعة. أجابه إيليوشا من الخارج.

ـ تعال إلى المدخل. قال له إيڤان.

ومضى يفتح الباب.

# X

## «هو الذي قال ذلك!»

عندما دخل إيليوشا، قال لإيڤان فيودوروفتش أن ماريا كوندراتيفنا قد جاءته مسرعةً منذ أقل من ساعة، فأبلغته أن سمردياكوف قد انتحر، وأضافت: «دخلت إلى غرفته لآخذ السماور، فإذا بي أراه مشنوقاً على وتدٍ معلق على الحائط»، فلما سألها إيليوشا هل أبلغت من يجب إبلاغه، أجابت بأنها لم تحدّث أحداً في هذا الأمر بعد. لكني: أسرعت إليك فوراً، وكنت أركض طوال الطريق». تركض كالمجنونة وترتعش من قدميها حتى رأسها. ولما رافقها إلى منزلها، وجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل. ورأى رسالة على الطاولة: «أنهيت حياتي برغبتي وإرادتي كي لا أتهم أحداً». ترك إيليوشا الرسالة على الطاولة، ومضى فوراً إلى رئيس الشرطة، فأطلعه على الحادث. وختم إيليوشا كلامه لأخيه إيڤان قائلاً: «ومن هناك جئت إليك مباشرة»، وكان أثناء ذلك يحدِّق بانتباه إلى ملامح وجهه التي أدهشه تعبيرها.

ـ أخي! لا بد أنك مريض جداً، صاح فجأة. فأنت تنظر إليَّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم كل ما أقوله.

ـ من الجيد أنك جئت. قال له إيڤان مفكراً، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه: لكنني كنت أعلم أنه شنق نفسه.

ـ من أخبرك؟

ـ لا أعلم، ولكنني كنت أعلم. أكنت أعلم أم لا؟ بل كنت أعلم. هو قال لي ذلك.

كان إيڤان واقفاً في وسط الغرفة، وكان يتكلم وهو يفكر، ويحدِّق إلى الأرض.

سأله إيليوشا وهو ينظر حواليه على غير إرادة منه ـ من «هو»؟

ـ اختفى.

رفع إيڤان رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة.

ـ لقد خاف منك، نعم خاف منك أنت. أنت «كروبي طاهر». ديمتري يسميك كروبي. رعود أغاني الحماسة التي يغنيها الساروفيون... ما الساروفي؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله في آخر الأمر إلّا ذرة كيميائية بسيطة... هناك برج «الأسد» وبرج «الشمس»، هل تعلم ذلك؟

ـ اجلس يا أخي همس إيليوشا يقول خائفاً: اجلس على الديوان، بحق السماء! أنت تهذي. نم هنا، ضع رأسك على المخدة، هكذا. هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة؟ قد يفيدك هذا.

ـ أعطني المنشفة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك. لقد رميتها عليه منذ قليل.

ـ ليست على الكرسي. لا تهتم. أعرف أين تضعها. قال إيليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، حيث رأى، قرب الحوض، منشفة نظيفة لم تُمسَّ وما تزال مطوية. نظر إيڤان إلى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب. كأن الذاكرة أخذت تعود إليه.

ـ انتظر. قال وهو ينهض عن الديوان. إنني منذ ساعة ـ أتذكر ذلك ـ قد أخذت هذه المنشفة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد، ووضعتها على

جبيني، ثم رميتها إلى هناك. فكيف تصبح الآن ناشفة ومطوية؟ لم يكن في غرفتي منشفة أخرى.

ـ أتقول إنك وضعت هذه المنشفة على جبينك؟ سأله إيليوشا.

ـ نعم، ومشيت في الغرفة منذ ساعة والمنشفة على جبيني... لماذا ذابت الشموع؟ كم الساعة الآن؟

ـ قريباً منتصف الليل.

ـ لا، لا، لا. صاح إيڤان. لم يكن ذلك حلماً! كان هو هناك، كان جالساً هناك، على تلك الكنبة الأخرى. فلما طرقت أنت زجاج النافذة، رميتُ رأسه بكأس... هي هذه الكأس نفسها.. لحظة! في المرة الماضية أيضاً، كنت قد نمت، ولكن الحلم في هذه المرة ليس حلماً. الأمر في هذه المرة كما في المرة الماضية. هل تعلم يا إيليوشا أن الأحلام تلازمني في هذا الوقت؟... ولكنها ليست أحلاماً... أنا يقظ، أنا أمشي وأتكلم وأرى... ومع ذلك فأنا نائم... ولكنه كان هناك، كان هناك، نعم، على تلك الكنبة. إنه غبي جداً، يا إيليوشا. أضاف إيڤان وقد أخذ يضحك، وراح يمشي في الغرفة.

ـ من هو الغبي؟ عمَّن تتكلم؟ سأله إيليوشا مرة أخرى بقلق.

ـ الشيطان. لقد بدأ يزورني. جاءني مرتين، مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات. قال لي ليزعجني إنني أغضب لأنه شيطان عادي لا إبليس محمرٌّ الجناحين، معتاد الظهور تحيط به بروق ساطعة. ولكنه ليس إبليساً إذن. لقد كذب عليَّ. إنه دجال. هو شيطان عادي تماماً، شيطان حقير، من فئة دنيئة. إنه يرتاد الحمّامات العامة! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذي لا بد أن يكون طويلاً جداً، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر... ذنب أشقر أملس... ذنب غير مهيب، كذنب كلب خسيس! إيليوشا، أرى أنك متجمد من شدة البرد! لقد مشيت في الثلج مدة طويلة. هل تريد قدحاً من الشاي؟ ما رأيك؟

الجو بارد، أليس كذلك؟ هل تريد أن آمر بإعداد شيء من الشاي لك؟ الجو بارد جداً، إلى درجة أن المرء لا يرضى أن يترك في الخارج كلباً...

أسرع إيليوشا إلى المغسلة، فبلل المنشفة بالماء البارد، ثم حمل إيڤان على أن يجلس ووضع المنشفة المبتلة على جبينه، ثم جلس إلى جانبه.

ـ ماذا قلت لي، منذ لحظة، عن ليزا؟ استأنف إيڤان الكلام وقد أصبح ثرثاراً. إنها تعجبني، ليزا هذه! أظن أنني أسأت قولاً في حقها. لم أكن صادقاً. إنها تعجبني. أنا خائف من الغد، خائف على كاتيا قبل كل شيء، وفوق كل شيء. وخائف على المستقبل أيضاً. ستهجرني في الغد نهائياً، وتركلني بقدميها. هي تتخيل أنني أريد هلاك ميتيا بسببها! نعم، ذلك ما تتصوره. ولكن لا، هذا خطأ. غداً يكون الصليب، ولكن لن يكون الشنق. لأنني لن أشنق نفسي. هل تعلم يا إيليوشا أنني عاجز عن أن أشنق نفسي؟ لعلك تظن أن هذا جبن مني، أليس كذلك؟ ولكن لا، أنا لست جباناً. فلأنني أحب الحياة حباً قوياً أرفض الانتحار! كيف عرفتُ أن سمردياكوف شنق نفسه؟ آ، نعم. «هو» الذي قال لي ذلك...

ـ هل أنت واثق بأن أحداً قد زارك؟ سأله إيليوشا.

ـ نعم. على تلك الكنبة، في الزاوية. كنت ستطرده. على كل حال لقد طردته!. لقد غاب في اللحظة التي وصلت فيها أنت. إنني أحب وجهك يا إيليوشا. هل كنت تعلم أنني أحب وجهك؟ أما «هو» فإنه أنا يا إيليوشا، أنا وحدي. هو كل ما فيَّ أنا من دناءة وحقارة! صحيح أنني «رومنسي»، وقد لاحظ هو ذلك... ولكن هذه نميمة كاذبة. إنه غبي بشكل فظيع. وهو ماكر، ماكر كحيوان. كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبي. زعم أنني أؤمن به ليغضبني، وبهذه الوسيلة جعلني أستمع وأصغي إليه. ولكنه ذكر لي أيضاً حقائق كثيرة عني، أشياء ما كنت لأعترف بها في يوم من الأيام. أضاف بلهجة جدية وسرية:

ـ أتعلم يا إيليوشا أنني كنت أتمنى حقاً أن يكون «هو» لا أنا؟

ـ لقد أرهقك. قال إيليوشا وهو ينظر إلى أخيه في شفقة.

ـ أرهقني. كان داهية! «الضمير؟ ما هو الضمير؟ أنا من صنعه. لماذا يشعر الإنسان بعذاب الضمير؟ على سبيل العادة، نتيجةً لطريقة في التفكير تكونت في البشرية خلال سبعة آلاف سنة، فمتى تحررنا من هذه العادة، أصبحنا آلهة». هو الذي قال ذلك، هو الذي قال ذلك!

ـ ألم تكن أنت الذي قلت ذلك؟ قال إيليوشا وهو يحدِّق إلى أخيه. دعه الآن، لا تفكر فيه، إنسه. فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه، ولا يعود بعد الآن أبداً.

ـ نعم. ولكنه شرير. لقد ازدراني جهاراً. كان وقحاً، صدقني يا إيليوشا. ولكنه افترى عليَّ، افترى عليَّ في أمور كثيرة. قال: «أنت تنوي أن تقوم بعمل نبيل! هأ! أنت تنوي أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك...».

ـ توقف يا أخي! قاطعه إيليوشا: أنت لم تقتل أباك. هذا ليس صحيحاً!

ـ هو الذي قال ذلك، ولا بد أنه على علم به «أنت تنوي أن تقوم بعمل فاضل، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة؛ ذلك ما يعذبك، ذلك هو سبب شراستك». هكذا تكلم، وهو يعرف ما يقول... هذه أقوالك أنت لا أقواله هو. قال إيليوشا بمرارة. إنك مريض، إنك تهذي، وتعذب نفسك في هذيانك!

ـ لا، إنه يعرف ما يقول. قال لي مؤكداً: «أنت تصدر عن زهو وخيلاء، تريد أن تمثُل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء: «أنا القاتل، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروِّعة؟ إنكم كاذبون. إنني أسخر من ذعركم هذا!»». تلك هي الخواطر التي نسبها إليَّ، ثم أضاف: «هل تعرف ماذا تتمنى؟ أنت تتمنى أن يمدحونك قائلين: «هو مجرم، نعم، هو قاتل، ولكن تحركه عواطف سامية

رفيعة! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه!». أما هذا يا إيليوشا فهو كذب (قال إيڤان وقد سطعت عيناه). أنا لا أتمنى أبداً أن يُعجب بي بُلهاء! لقد كذب في هذا يا إيليوشا، كذب في هذا، أقسم لك! وبسبب ذلك ضربته بكأس فتحطّمت على وجهه القذر!

ـ هدىء روعك يا أخي، كفَّ عن الكلام هكذا! توسل إليه إيليوشا.

ـ لا، إنه يجيد التعذيب، إنه قاس. أردف إيڤان قائلاً دون أن يصغي إليه. كنت أقرِّر دائماً لماذا كان يجيء. كان يقول: «إن الزهو هو الذي يحركك ويدفعك. ولكنك تأمل رغم كل شيء أن يفتضح أمر سمردياكوف، فيرسل إلى السجن، ويُبرَّأ ميتيا، ولا يُحكم عليك أنت إلّا حكماً «أخلاقياً» (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة، هل فهمت؟)، بينما يُكبر آخرون عظمة نفسك. ولكن ها هو سمردياكوف قد مات! لقد شنق نفسه، فمن الذي سيصدقك أمام المحكمة، من الذي سيؤمن بأقوالك بعد أن أصبحت وحيداً؟ ومع ذلك ستذهب إلى المحكمة، وتقف أمام القضاة. لقد قررتَ ذلك، وستفعل. لماذا ستذهب إلى المحكمة بعد الآن؟». شيء فظيع يا إيليوشا! إنني لا أحتمل هذه الأسئلة. من الذي يحق له أن يستجوبني بهذه الطريقة؟

ـ أخي. قاطعه إيليوشا وقد تجمد من الذعر. ولكنه ما يزال يأمل أن يرجع إيڤان إلى الواقع: كيف يمكن أن يكون قد كلمك على موت سمردياكوف قبل وصولي، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه؟.

ـ هو من قال لي ذلك. قال إيڤان بصوت قاطع. بل ظل يكلمني في هذا طوال الوقت إذا شئت أن تعرف الحقيقة، ولم يكلمني إلّا في هذا. كان يقول لي: «يا ليتك تؤمن بالفضيلة! إن أحداً لن يصدقني، ولكن ذلك لا يهمني، أنا أصدر عن مبدأ. إنك تسخر من الفضيلة، لأنك خنزير، مثل فيودور بافلوفتش!

فعلام ذهابك إلى المحكمة، ما دامت تضحيتك لن تجدي؟ الحقيقة أنك أنت نفسك لا تعرف لماذا تريد أن تذهب إلى المحكمة! آه إنك على استعداد أن تعطي كثيراً لكي تعرف ذلك. أتظن أن هذا ما قررته؟ إنك لم تقرر شيئاً بعد. ستقضي الليل كله غائصاً في التفكير متسائلاً هل تذهب أم لا. وأنك تعرف بحقّ مهما يكن قرارك، أن الحل النهائي لا يتوقف عليك. سوف تذهب لأنك لا تجرؤ إلّا أن تذهب. أما لماذا لا تجرؤ، فذلك سؤال عليك أنت أن تعرف جوابه. هذا لغز حاولْ أن تتسلى بحله!». قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف. وصلت أنت، فغاب هو. ولقد وصفني بأنني جبان يا إيليوشا! إن ذلك اللغز هو أنني جبان. لقد أضاف قائلاً: «لستَ من تلك النسور التي تحلّق عالياً في السماء». نعم، أضاف هذه الجملة. وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه. يجب قتله. إن كاتيا تحتقرني. لاحظت أنا ذلك. وسوف تحتقرني ليزا أيضاً. «ستذهب إلى المحكمة لتحظى بالإعجاب». هذا كذب دنيء. أنت أيضاً تحتقرني يا إيليوشا. سوف أكرهك الآن من جديد. والمسخ أيضاً، لعن الله المسخ. لا أريد أن أنقذ المسخ. لقد غنى نشيده. أوه! سأذهب، سأذهب غداً. سأمثُل أمامهم، وسأبصق في وجوههم جميعاً!

ونهض إيڤان وقد استبد به غضب شديد، فنزع المنشفة عن جبينه وراح يمشي في الغرفة. تذكّر إيليوشا أقواله: «أنام وأنا أحس بأنني يقظ... أمسي وأتكلم وأرى، وأنا مع ذلك أحلم». ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن. لم يشأ إيليوشا أن يترك أخاه. وخطر بباله أن يذهب ليستدعي طبيباً، ولكنه عدل عن ذلك خشية أن يترك إيڤان وحيداً. كان من جهة أخرى لا يعرف إلى من يعهد به. وأخيراً بدأ إيڤان يفقد الذاكرة. كان ما يزال يتكلم بدون توقف، وكانت أقواله مبعثرة، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناءً في النطق. وترنح، ولكن إيليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب، ومضى به نحو السرير، فانقاد

إيڤان دون مقاومة؛ وبعد أن نزع إيليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق، وضعه على السرير، ثم جلس قربه، وبقي ساهراً ساعتين. نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك، وكان تنفسه منتظماً. فلما لاحظ إيليوشا أن أخاه ينام نوماً هادئاً تناول وسادة ونام على الديوان دون أن يخلع ثيابه. وقبل أن ينام، دعا الله لميتيا وإيڤان. لقد كان إيليوشا يعرف الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض إيڤان: «هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء، هذا قلق صادر عن ضمير قوي!». إن الله الذي كان إيڤان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان إيڤان، وإن الحقيقة الإلهية تشق طريقها إلى قلبه الذي ما يزال عصياً. نعم، قال إيليوشا لنفسه وهو مضطجع على الوسادة: «لقد مات سمردياكوف، ولن يصدِّق أحدٌ شهادة إيڤان. ولكنه سيذهب ويشهد». وابتسم إيليوشا ابتسامة رقيقة وقال بمرارة: «سينتصر الله!». «إما أن يُبعث إيڤان بنور الحقيقة، وإما... أن يموت في الحقد منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها.».

وعاد إيليوشا يصلّي من أجل إيڤان.

# الكتاب الثاني عشر

# الخطأ القضائي

# I

## اليوم المشؤوم

غداة الأحداث التي وصفتها الآن، افتتحت في الساعة العاشرة صباحاً، جلسة محكمة مقاطعتنا، وبدأت محاكمة ديمتري كارامازوف.

أقول مسبقاً بإلحاح: إنني لا أعتبر أنني أملك القوة على تحمل كل ما جرى أثناء المحاكمة، ليس من حيث الكمال فحسب، بل من حيث التسلسل الزمني أيضاً. وما زلت أعتقد أنني لو كان عليَّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها بشكل مناسب، لوجب كتاب بكامله، ومن أكبر الكتب. لذلك ليعذرني القارئ إذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التي أثارت اهتمامي شخصياً وتلك التي بقيت في ذاكرتي. ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية كما لو أنها أساسية، وربما أكون قد أسقطت بعض الوقائع الهامة... لكنني أعدل الآن عن تسويغ نفسي. فلسوف أبذل قصارى جهدي، وسوف يدرك القارىء أنني قدمت له كل ما استطعت أن أقدّم.

في البداية، وقبل الدخول إلى قاعة المحكمة، سأروي كل ما أثار دهشتي بشكل خاص، في ذلك النهار. علماً بأنني لم أكن الوحيد الذي دهش حسبما تبين فيما بعد. إذن: الكل كان يعرف أن قضية هذه الجريمة قد أثارت اهتمام

عدد لا حصر له من الناس، وكانوا يحترقون شوقاً لبدء المحاكمة. وأن مجتمع المدينة كان منذ شهرين لا يفعل شيئاً غير التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات دهشة. وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد انتشرت في روسيا كلها. إلّا أن أحداً لم يكن يتصوَّر أن الاهتمام الذي أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزَّ بعمق لا سكانَ مدينتنا فحسب، بل سكان مناطق أخرى أيضاً. وقد أدركنا هذه الحقيقة في ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة.

جاء المستطلعون الفضوليون لا من مركز إقليمنا وحده، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً، وحتى من موسكو ومن بطرسبورغ. كان بينهم رجال القانون، وشخصيات مشهورة، ونساء من المجتمع الراقي. وقد اختُطفت تذاكر حضور المحاكمة. بسرعة وعلى خلاف ما جرت به العادة، جرى حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة، يُخصُّ بها بعض الزائرين من أصحاب الرتب العليا. هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل أبداً. وكانت النساء كثيرات، سواء كنَّ من سيدات مجتمعنا المحلي أو من سيدات الطبقة العليا في مدن أخرى. أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا أين يضعونهم لأن الأماكن المتوافرة كانت قد وُزِّعت فأُعطيت أو وُعد بها منذ مدة طويلة. وقد رأيت بعيني قيام العمال على عجل ببناء حاجز موقت في آخر القاعة وراء المنصة، فبذلك حُدِّد مكان خصَّ به رجال القانون الذين اعتبروا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة وقوفاً، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر. بحيث ظل الجمهور واقفاً طوال مدة المحاكمة كتفاً إلى كتف. وقد ظهرت بعض السيدات، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا، في قاعة

المحكمة في أبهى الحلل وأجمل زينة، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن. وكان يُقرأ في وجوههن فضول قوي شره يشبه أن يكون مرَضياً. ومن خصائص هذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة التي تستحق أن تُذكر أن الكثرة الغالبة من النساء ـ كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد ـ كنَّ متحزبات لميتيا، وكنّ يتمنين على المحكمة أن تبرئه. وربما كان السبب الأساسي في هذا، ما اشتهر به من أنه شاب يفتن المرأة ويسيطر عليها؛ ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان فيه وستتجابهان في سبيله أثناء المحاكمة. فأما أولاهما وهي كاترينا إيڤانوفنا، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس. كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن عشقها لميتيا عشقاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة. وكانت تُذكر عن هذا الموضوع تفاصيل مذهلة. وكانت كبرياء كاترينا إيڤانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (أن كاترينا إيڤانوفنا لم تكد تزور أحداً)، ويتحدث الناس عن صلاتها الأرستقراطية، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة إذناً بأن تصحب الجاني إلى السجن، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض. وأما المرأة الثانية، وهي غروشنكا، منافسة كاترينا إيڤانوفنا، فقد كان الناس يتلهفون على ظهورها باهتمام لا يقل حماسة عن هذا الاهتمام. وكانت المجابهة التي ستتم بين المرأتين ـ الفتاة الأرستقراطية المتكبرة و «الهيتائير» ـ تثير في الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعاً. ثم إن سيدات مدينتنا كنَّ يعرفن غروشنكا أكثر مما يعرفن كاترينا إيڤانوفنا. لقد رأينا مراراً «تلك المخلوقة التي كانت سبب هلاك فيودور بافلوفتش وابنه المسكين»، وكن يدهشن بقوة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما بحب هذه «البورجوازية الروسية الصغيرة التي هي امرأة عادية جداً، حتى أنها ليست جميلة». خلاصة القول إن التعليقات كانت مستقرة. وإني أعرف من مصادر مطلعة موثوقٍ

بها أن انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت في مدينتنا بسبب ميتيا. إن عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد تشاجرن في ذلك الوقت مع أزواجهن بعنف، لاختلاف رأيهن في هذه القضية المؤلمة عن رأي أزواجهن. فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجيء أزواج هؤلاء السيدات إلى المحكمة متحيزين ضدَّ المتهم ومعادين له صراحةً؛ حتى نستطيع أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة، على نقيض العنصر النسائي في ذلك الجمهور، كانوا قد تحيزوا ضدَّ المتهم، فبعضهم عابس الوجه قاسي النظرة، وبعضهم الآخر، وهو الأكثرية الغالبة، كان يظهر العداوة بمزيد من الوضوح. والحق أن ميتيا، أثناء إقامته في مدينتنا، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال. وكان هنالك، في مقابل ذلك، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح، فهم لا يكترثون لمصير ميتيا، وإنما تهمهم النتيجة التي ستنتهي إليها المحاكمة، ولا يفكرون إلّا في الحكم الذي سيصدر، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجاني بشكل صارم، باستثناء رجال القانون مع ذلك، فلقد كان هؤلاء لا يعنيهم الجانب الأخلاقي من القضية، وإنما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها. وقد أحدث وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش هزةً عنيفة في النفوس. فقد كانت موهبته الخطابية معروفة في كل مكان، وقد سبق أن ترافع في الأقاليم مراراً في قضايا كان لها دويّ عظيم. وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت في روسيا كلها، ويحتفظ الناس بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً. وكانت تُروى كذلك نوادر كثيرة عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة. ويقال مثلاً إن وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويتجنّبه، وإن بينهما عداوةً يعود تاريخها إلى أول عهده بالوظيفة، إلى الفترة التي كان فيها هيبوليت كيريلوفتش المندفع، وهو في مدينة بطرسبورغ، يشعر دائماً بجراح في كبريائه لأن كفاياته لم تكن تقدر حق قدرها. ولقد أعادت إليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً، فيما

يقال، حتى أنه كان يحلم أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته الخطابية التي خبا وهجها، ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه هماً. لكن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير. إن وكيل النيابة في مدينتنا لا ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل كان، على نقيض ذلك تماماً، من أولئك الذين تلتهب كبرياؤهم على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم والحواجز التي تقف في وجههم. يجدر أن نضيف إلى ذلك أن هيبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة ومزاج جياش، كان شديد التأثر إلى درجة المرض. كان يضع نفسه كلها في بعض مطالعات النيابة التي يعدها، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيره الشخصي وتتوقف ثروته على النتيجة التي ستنتهي إليها الدعوى. وكان الناس في الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من طبعه التي جلبت له شهرة إن لم تكن واسعة كثيراً فهي أكبر ما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله في محكمتنا. وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا. وبرأيي، جميع الناس كانوا مخطئين فوكيل النيابة في مدينتنا يتمتع بفكر أقرب إلى الجد مما كان يتخيل الناس عندنا عامة. ولكن هذا الرجل بحساسيته المرضية لم يعرف كيف يقدم نفسه في خطواته الأولى في أول عهده بالمهنة، وبقي هذا الخطأ ملازماً له مدى حياته.

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه فقط، إنه مثقف، وإنساني، وإنه كان يعرف مهنته بالملموس، ويتبنّى آراء العصر المتطورة. إنه قوي الشعور بنفسه، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته، كان أكبر طموح يهزُّه هو أن يُعرف عنه أنه رجل تقدمي. وكانت له صلات مرموقة وكان يتمتع بثروة ضخمة. وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بدعوى كارامازوف، كما عرفنا ذلك فيما بعد، ولكنه لم ينظر

إلى هذه القضية إلّا من زاوية عامة تماماً، فهو يرى فيها، بشكل خاص، ثمرةً من ثمرات ظروفنا الاجتماعية، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية، أي ظاهرة عليه أن يحكم عليها وأن يصنفها بشكل مناسب. أما الجانب الشخصي من الدراما، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدراما، وأما المصير الفردي الذي ينتظر الأشخاص الرئيسيين في هذه الدراما، وعلى رأسهم المتهم، فتلك كلها أمور لا يهتم بها رئيس المحكمة كثيراً،ولا ينظر إليها إلّا من أفق مجرد. وربما كان ذلك مطلوباً في مركزه ووضعه.

غصّت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بوقت طويل. إنها أفضل قاعة في مدينتنا: فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً. وعلى يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة، قد وُضعت منضدة ووضع صفّان من المقاعد للمحلّفين. وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه. وعلى منضدة أخرى في وسط القاعة، غير بعيدة من المنصة، جُمعت ثبوتيات الاتهام، فمن بينها الثوب الأبيض الذي كان يرتديه فيودور بافلوفتش ساعة الجريمة في منزله وكان ملطخاً بالدم؛ ومدقُّ الهاون النحاسي، وهو السلاح المزعوم أنه استخدم في ارتكاب الجريمة؛ وقميص ميتيا الملطّخ أحد كمَّيه ببقع دماء؛ وصِداره الملطخ بدم كثير من الجهة الخلفية، في موضع الجيب الذي دسَّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر؛ ومن بينها أيضاً المسدس الذي كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار، وقد جرَّده منه تريفون بوريستش خلسةً في قرية موكرويه، والظرف الذي كان قد ضمَّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لغروشنكا، وعليه كتابة بخط المجني عليه، والشريط الوردي الدقيق الذي رُبط به ذلك الظرف، ومجموعة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن. وعلى مسافة من هناك، في عمق القاعة، يبدأ المكان

المخصص للجمهور. لكن عدداً من المقاعد قد صُفَّ أمام المنصة، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا في القاعة بعد إدلائهم بشهاداتهم. دخل أعضاء المحكمة في الساعة العاشرة. إنهم رئيس، وقاض، وقاضي صلح شرفي. وطبيعي أن وكيل النيابة وصل في الوقت نفسه تقريباً. الرئيس رجل متين البنية متورد اللون، قامته أقصر من متوسط قامة الرجال، في نحو الخمسين من عمره، له وجه محتقن، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً في بعض المواضع وقُصَّ قصيراً. وهو يتوشح بشريط طويل لوسامٍ نسيت اسمه الآن. أما وكيل النيابة فقد بدا لي شاحب اللون في ذلك اليوم شحوباً خاصاً، كما بدا كذلك لكثير آخرين. كان لون وجهه يميل إلى زرقة بل وإلى خضرة، وكأنه قد أصيب بهزال فجأةً في ليلة واحدة، لأنني كنت قد رأيته أمس الأول معافًى تماماً. وبدأ الرئيس بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلفين... ولكنني ألاحظ أنه يستحيل عليَّ أن أستمر في سرد الوقائع سرداً مفصلاً، لأن هناك أموراً لم أسمعها بدقة، وأموراً أخرى لم أنتبه إليها بشكل كافٍ، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد أفلتت من ذاكرتي تماماً منذ ذلك الحين. ثم إنني ـ وتلك هي الصعوبة الكبرى ـ لا يتوفر لي الزمان والمكان الكافيان لأن أروي هنا كل ما جرى في أثناء ذلك اليوم، وهذا ما سبق أن قلته. ولكنني أعرف أن عدد المحلَّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين، أعني وكيل النيابة والمحامي، كان قليلاً جداً. وقد حفظت من جهة أخرى تشكيل هيئة المحلَّفين: كانت هيئة المحلَّفين تضم أربعة موظفين من مدينتنا، وتاجرين، وستة فلاحين وبورجوازيين صغاراً من البلدة. وإني أتذكر أن الناس في مجتمعنا الصغير، ولا سيما السيدات، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بفترة طويلة، بكثير من الدهشة والانفعال: «كيف يمكن أن يُعهد بالفصل في مثل هذه القضية إلى بضعة موظفين مغمورين وإلى قبضة من الفلاحين؟ ما

الذي يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف، ناهيك عن فلاح؟». والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين في هيئة المحلَّفين كانوا أناساً صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية، وكانوا جميعاً متقدمين في السن بيض الشعور، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم. وكانوا مجهولين في مجتمع مدينتنا، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة حياة مغمورة، وأنهم قد كانت لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع. ولا بد أنهم كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين إلى آخر. وطبيعي أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً. صحيح أن اثنين من المحلَّفين، وهما تاجران، قد كان في هيئتهما شيء من مهابة، ولكنهما بقيا صامتين بصورة غريبة، واستمرا جامدين لا يحركان ساكناً. فأما أحدهما فكان حليقاً ويرتدي ثياب الطراز الأوروبي؛ وأما الثاني، وهو ذو لحية شائبة، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علِّق به وسام. وأما الفلاحون والبورجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلَّفين، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم. إن البورجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم. كان اثنان من هؤلاء البورجوازيين الصغار يرتدون ثياباً على الزي الأوروبي، ومما جعلهم يبدون أكثر وساخة من الآخرين. الأمر الذي جعل كثيرين، أنا واحد منهم، يتساءلون: «كيف يستطيع هؤلاء المساكين أن يفهموا ما يقال؟». ومع ذلك بدا لنا على وجوههم نوع من الانطباع القوي والتهديدي. لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين.

وأخيراً طلب الرئيس دعوى مقتل الموظف المتقاعد فيودور بافلوفتش كارامازوف ـ وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التي استعملها عندئذ. وأمر

الحاجب بإدخال المتهم فظهر ميتيا في القاعة، فإذا بصمت مطبق يخيم عندئذ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها. لست أدري ما الذي دار في خواطر الحضور، ولكنني أستطيع أن أقول إن المتهم قد أحدث في نفسي شعوراً سيئاً جداً. والأمر الذي ساءني منه خاصة هو إفراطه في السعي إلى أناقة هندامه. لقد ظهر أمام المحكمة يومئذٍ ببدلة جديدة أنيقة للغاية. وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد، أوصى بها خياطه بموسكو الذي كان يحتفظ بمقاسه. وكان المتهم يلبس قفازين جديدين، مصنوعين من جلد ملمَّع، وقميصاً بالغ الرهافة والبذخ. وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة، ناظراً إلى أمام بجمود غريب، جلس في مكانه بكثير من الثقة. وفي الوقت نفسه، ظهر محاميه، فيتوكوفتش الشهير، فإذا بهمهمة تطوف في أرجاء القاعة من أولها إلى آخرها. إن هذا المحامي اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر، له ساقان طويلتان نحيلتان، وأصابع ضاوية، وشعر قصير قد صفِّف بدون عناية. وشفتاه الرقيقتان تلتويان في بعض اللحظات، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن مكر أم عن ابتسامة. وكان يبدو في نحو الأربعين من عمره. ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير، ولكنهما متقاربتان جداً إحداهما من الأخرى، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما إلّا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل، لولا عيناه هاتان لكان يمكن أن يُعدَّ وجهه لطيفاً محبباً. الخلاصة أن سحنته كان فيها شيء من سحنة عصفور، بحيث كانت تلفت الانتباه. وكان يرتدي رداء رسمياً مع ربطة عنق بيضاء. إنني أتذكر بوضوح الأسئلة الأولى التي ألقاها الرئيس على ميتيا، وهي تتناول هُويته، ورتبته، وما إلى ذلك. وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بجفاف، ولكن بصوت قوي يثير الاستغراب حتى إن الرئيس هزَّ رأسه ونظر إليه في دهشة. وبعد ذلك قرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين إلى الإدلاء بأقوالهم

شهوداً أو خبراء. وكانت القائمة طويلة جداً. واتضح أن أربعة من الشهود غائبون، وهم: ميوسوف الذي كان قد سافر إلى باريس، ولكن أقواله قد سجِّلت أثناء التحقيق التمهيدي؛ والسيدة خوخلاكوفا، والمالك ماكسيموف، وكلاهما مريض؛ وأخيراً سمردياكوف الذي مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُرِّرت وفاته بشهادة من الشرطة قُدِّمت إلى المحكمة. وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ووشوشات في القاعة. ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد. ولكن الشيء الذي أدهش الناس خاصةً هو انفجار ميتيا: فما إن علم بخبر سمردياكوف حتى صرخ من مكانه بصوت دوَّى في القاعة كلها:

ـ عاش كلباً ومات ميتة كلب!

أذكر كيف اندفع نحوه محاميه حينئذ، وتوجه رئيس المحكمة إليه مهدداً باتخاذ إجراءات صارمة في حقه إذا هو كرر فعلته هذه. وقد كرر ميتيا لمحاميه، عدة مرات، بصوت هامس، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً، ولكن دون أن يبدو عليه أنه آسف لصرخته أو نادم عليها:

ـ سأتوقف، سأتوقف! لم أقصد ذلك!

قد يكون هذا الحادث الطارىء لم يخدم ميتيا في ذهن المحلفين وفي ذهن الجمهور. فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف في هذه الفعلة عن طبعه. وبذلك أساء هذا الانفجار إلى الصورة القائمة في الأذهان عنه. وفي هذا الجو السيِّىء تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام، وهو نص مقتضب رغم اشتماله على وقائع القضية، يقتصر على عرض الأسباب الداعية إلى الاتهام، الباعثة على الادانة. وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً في نفسي أيضاً. كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جليّ. فانبعثت صورة المأساة في أذهان الحضور مرةً أخرى ببروز يأسر العقل، كأنما انصبت عليها والتقت عندها أضواء ساطعة

صادرة من عدة جهات. وإني أذكر أنه ما إن انتهى كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوي نافذ:

ـ المتهم... هل تعترف بذنبك؟

ـ أعترف بأنني مذنب بالسكر والعربدة والفجور، صاح ميتيا قائلاً. أعترف بأنني امرؤ كسول سيِّئ الخلق والسلوك. ولقد كنت أنوي أن أصلح أمري وأن أصبح إلى الأبد إنساناً شريفاً، في اللحظة التي حطمني فيها القدر. ولكنني بريء من مقتل العجوز، عدوي وأبي. أنا لم أسرقه، لا، لا! لم أفعل ذلك، ولا كان لي أن أفعل ذلك: إن ديمتري كارامازوف إنسان شقي ولكنه ليس لصاً!

على ذلك، جلس ديمتري في مكانه وهو يرتجف بكل جسمه. فتوجه إليه الرئيس من جديد يطلب منه بإيجاز وحزم صارم ألا يجيب إلا عن الأسئلة، وألا يلقي خطباً ويطلق صيحات هستيرية. وبعد ذلك انتقل إلى سماع أقوال الشهود. فأُدخل الشهود ليقسموا اليمين، هناك، رأيتهم جميعاً. إلا أن أخوي المتهم قد سُمح لهما أن يدليا بشهادتيهما دون قسم. وبعد نصائح الرئيس الكاهن، أُخرج الشهود، وأجلسوا بعيدين بعضهم عن بعض. ثم تمت مناداتهم واحداً واحداً.

# II

## شهود خطرون

لست أدري إذا كان شهود النائب العام وشهود الدفاع قد انفصلا إلى فئتين متميزتين، وما هو الترتيب الذي اتبعه في استدعائهم. هذا ما كان يجب أن يحصل. ولكنني أعرف أن شهود الاتهام هم الذين تم استدعاؤهم أولاً. أعود فأكرر أنني لا أنوي أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة. ثم إن مثل هذا الوصف قد يكون لا داعي له، لأنه عندما جاء وقت الدفاع، وجهت كل المسيرة وكل المعنى الذي أعطي لشهادات الشهود في ذلك اليوم إلى نقطة واحدة وتحت ضوء ساطع ومميز. وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين حرفياً، وسأعرضهما في الزمان والمكان، كذلك حادثاً وقع أثناء المحاكمة على غير توقُّع، وقع فجأة قبل بدء الدفاع وكان له تأثير كبير في النهاية المشؤومة. أما الآن فسأقتصر على الإشارة إلى وجه خاص من وجوه هذه «القضية» تكشَّف دفعةً واحدة وخطف أبصار الجميع، وهو قوة الاتهام غير العادية بالمقارنة بالوسائل التي كان يملكها الدفاع. وأدرك جميع الحضور عندما بدأت عناصر الاتهام تتجمع وتتركز كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود مزيداً من الاتضاح، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً بوضوح. ثم إن

جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية واضحة، وأنه لا مجال لأي شك، حتى لكأن المناقشات لا لزوم لها، وأنها لن تجري إلّا من باب التقيد بالشكل، إذ كان واضحاً أن المتهم هو الجاني، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا يمكن إنكاره. وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنَّ يتمنين بشدّة وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق، أعتقد أن هؤلاء السيدات كنَّ مقتنعات جميعاً، دون استثناء، بشكل مطلق بأن المتهم هو القاتل. وأكثر من ذلك إنهن كنَّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك، لأن الخاتمة تكون عندئذٍ أقل إثارة للمشاعر، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثراً وأقلّ بهاءً. والغريب أن السيدات كن واثقات أنه سيُبرَّأ: «صحيح أنه هو الجاني، ولكنه سيُبرَّأ باسم الإنسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن»، الخ. وعلى هذا الأمل كانت جموعهن الغفيرة قد أسرعت إلى حضور المحاكمة، وكنَّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات. أما الرجال فكان يهمهم، خاصةً، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير. كان الرجال يستغربون ما الذي سيعمد إليه المحامي ليدافع عن هذه القضية الخاسرة سلفاً، وما الذي سيتوصل إلى الظفر به فيها. لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته وإشاراته وأوضاعه بانتباه كلي. ولكن فيتوكوفتش بقي حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته، إلى أن حان وقت المرافعة. وكان أهل الخبرة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه، وأنه يسعى إلى هدف معيَّن، ولكن يستحيل عليهم أن يعرفوا ما هو ذلك الهدف. وفي أثناء ذلك كانت ثقته وطمأنينته واضحتين تخطفان البصر. يضاف إلى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التي قضاها في مدينتنا، وهي ثلاثة أيام، لأن يدرس القضية بعمق، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها». وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف تمكّن أن يربك كل شهود الاتهام

في الوقت الملائم، وكيف استطاع خاصةً أن يدمِّر سمعتهم الأخلاقية بحذق شديد، ويحطم بذلك قيمة الشهادات التي أدلوا بها. على أنهم كانوا يرون أنه قام بذلك كله من قبيل اللعب في الدرجة الأولى، حباً بالفن، وشغفاً بالمهنة، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية. وكان الجميع مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوِّل على كسب أية فائدة ذات بال من تلك «التشهيرات»، وأنه لا بد أن يكون على معرفة بهذا أكثر من أي إنسان آخر، فلعله كان يدَّخر واحدة من الأفكار، لعله كان يخبىء سلاحاً خفياً آخر، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد، ولكنه سيخرجها فجأة في اللحظة المناسبة. وبانتظار ذلك كان يبدو معتزاً بقوته، وكان يجد لذة في التلاعب بالشهود. كان من يراه يشعر أنه يتسلى. من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور غريغوري فاسيلتش، خادم فيودور بافلوفتش، الذي أدلى بشهادة خطيرة في موضوع «الباب المفتوح» المطل على الحديقة، أمسك المحامي بتلابيبه إن صح التعبير، منذ أتيح له أن يطرح عليه بعض الأسئلة. يحسن أن نذكر هنا أن غريغوري مَثَل أمام المحكمة دون أن يضطرب أبداً، دون أن يبدو عليه أي تهيُّب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذي يصغي إليه. كان هادىء المظهر، بل كان فيه شيء من مهابة، وقد أدلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك التي يخاطب بها امرأته مارفا إينياتيفنا فيما يجري بينه وبينها من أحاديث، ولكن باحترام. كان يبدو أن إرباكه مستحيل. سأله وكيل النيابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التي تحياها أسرة كارامازوف، فرسم غريغوري لهذه الحياة صورة حية جداً. وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد إنسان ساذج متحيز. فإن ما أظهره من احترام عميق لذكرى سيده الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عادلاً نحو ميتيا، وأنه «لم يحسن تنشئة أولاده». وحين تحدث عن سني طفولة ميتيا ذكر أن الطفل «كان سيأكله القمل لولا أن عُني هو به»، وأضاف إلى ذلك أنه «ما كان ينبغي

للأب أن يحرم ابنه من حقه في ميراث أمه». فلما سأله وكيل النيابة عن الوقائع التي تسمح له بأن يقول إن فيودور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب، عجز غريغوري عن ذكر وقائع دقيقة. وهذا ما أدهش الجميع. ولكنه أصرَّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن «ميتيا كان من حقه فعلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات». أحب أن أضيف أن هذا السؤال ـ أعني السؤال عن الغبن الذي لحق بميتيا ـ قد طرحه وكيل النيابة بإلحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول هذا الموضوع، ولم يستثن من هؤلاء الشهود إيليوشا وإيڤان فيودوروفتش، ومع ذلك لم يتمكن أيّ شاهد أن يعطي وقائع مقنعة في هذه النقطة. لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يجيء ببرهان قاطع. وحين وصف غريغوري المشهد الذي جرى في غرفة الطعام لحظة اقتحمها ديمتري وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد، خرج من سرده لهذه الوقائع شعور بإدانة المتهم، لا سيما وأن الخادم العجوز كان يتكلم بهدوء، لا يسترسل في عبارات غير ضرورية، وإنما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده، فكان بذلك بليغاً جداً دون أن يقصد إلى البلاغة. أما فيما يتعلق بالإهانة التي ناله بها ميتيا ـ كان ميتيا قد لكمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة ـ فقد قال غريغوري إنه لا يحمل لميتيا حقداً وإنه غفر له هذه الإساءة منذ مدة طويلة. ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف، رسم إشارة الصليب أولاً، ثم قال إن الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا، لكنه كان غبياً، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله؛ وأخذ عليه خاصةً أنه كان ملحداً، دون أن ينسى أن يقول إن فيودور بافلوفتش وإيڤان بافلوفتش هما اللذان لقَّناه الإلحاد. وفي مقابل ذلك ألحَّ بشيء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتًى أميناً، وروى كيف أن هذا الخادم، حين عثر على الأوراق المالية التي ضيَّعها مولاه

في فناء المنزل، لم يخطر بباله أن يستولي عليها، وإنما ردَّها إلى فيودور بافلوفتش الذي كافأه على أمانته بروبل ذهبي، وازدادت ثقته بخادمه منذ ذلك الحين بصورة مطلقة. وأكد غريغوري من جهة أخرى، بعنادٍ، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً. هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل عليَّ أن آتي على ذكرها كلها. وأخيراً جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد، قبل كل شيء، عن الظرف الذي «يُزعم» أن فيودور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل «لشخص ما»: «هل رأيت هذا الظرف بعينيك، أنت الذي تعيش في صميم حياة سيدك خلال تلك السنين الطويلة كلها، وكنت قريباً منه جداً؟». فأجابه غريغوري بأنه لم يرَ ذلك الظرف، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ «إلى اللحظة التي أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه». وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يطرحه عليهم، بإلحاح كإلحاح وكيل النيابة على السؤال عن اقتسام الميراث. فتلقى من جميع الشهود، جواباً واحداً، بأنهم لم يروا الظرف، وإن يكن معظمهم قد سمع عنه. وقد لاحظ الجميع منذ البدء إلحاح المحامي على هذا السؤال.

ـ هل أستطيع الآن أن أطرح عليك سؤالاً إذا سمحت لي. سأل فيتوكوفتش. هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم، أو إن شئت عن تركيب ذلك السائل المغلي الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام، كما يظهر من التحقيق الأوّلي، في تدليك كليتيك الموجعتين، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة؟

نظر غريغوري إلى المحامي نظرةً بلهاء، وصمت بضع ثوان، ثم قال:

ـ يدخل في تركيبه نبات القويسة.

ـ فقط نبات القويسة؟ لا تتذكر شيئاً آخر؟

ـ لسان الحَمَل أيضاً.

ـ وربما قليل من الفلفل؟

ـ كان فيه فلفل كذلك.

ـ عظيم. وكل ذلك مع الفودكا، أليس كذلك؟

ـ في الكحول.

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة.

ـ عظيم، إذن، حتى في الكحول. وبعد أن دلكت ظهرك شربت ما بقي في الزجاجة من هذا السائل، وأنت تتلو صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصَّها إلّا زوجتك، أليس كذلك؟

ـ نعم شربته.

ـ هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل؟ كم شربت، مثلاً؟ أقدحاً صغيراً أم ربما قدحين؟

ـ لنقل؟ قدحاً كاملاً؟ أم قدحاً ونصف قدح إذا شئت؟

صمت غريغوري. كأن ضياءً قد بزغ في ذهنه.

قال المحامي:

ـ قدح ونصف قدح من كحول صاف. ليس هذا قليلاً؟ إن الإنسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب، بل أن يرى كذلك «أبواب الجنة» كلها مفتوحة.

بقي غريغوري صامتاً. وسُمعت في القاعة ضحكات قصيرة من جديد. فاضطرب الرئيس قليلاً.

عاد فيتوكوفتش يسأل بإلحاح وهو يحدِّق إلى فريسته:

ـ ألست واثقاً أنك غفوت حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحاً.

ـ كنت واقفاً.

ـ هذا لا ينفي أن تكون في حالة وسَنٍ (ضحكات قصيرة في القاعة). هل كان في وسعك عندئذ أن تجيب في تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم، كأن يسألك مثلاً في أي سنة نحن؟

ـ لست أدري!

ـ وفي أي سنة من العصر المسيحي نحن الآن؟ هل تعرف ذلك؟

بدت الحيرة على غريغوري الذي كان لا يحوِّل نظره عن جلاده. ومن الغريب أنه كان يجهل فعلاً في أي سنة نحن.

ـ هل تستطيع أن تقول لي ما عدد أصابع يديك؟

ـ أنا رجل أحترم السلطة. قال غريغوري بصوت قوي واضح وقد تعودت أن أطيع، فإذا حلا لمن هم أعلى مني مقاماً أن يسخروا مني، فمن واجبي أن أتحمل ذلك.

بدا على فيتوكوفتش شيء من الغضب، ولكن الرئيس تدخل فطلب من المحامي أن يلقي أسئلةً تتعلق بالدعوى بشكل مباشر. فلما سمع المحامي طلب الرئاسة انحنى بوقار، وأعلن أنه ليس لديه سؤال آخر يلقيه. واضح أن شكاً خفيفاً قد زُرع الآن في أذهان الجمهور وفي أذهان المحلفين، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلي بها رجل يمكن أن «يرى أبواب الجنة» بتأثير دواء، عدا أنه يجهل السنة التي نحن فيها من العصر المسيحي. في إمكاننا القول إذن إن المحامي قد حقق هدفه على كل حال. وقبل أن ينصرف غريغوري وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه إلى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة، فصاح ميتيا يقول بصوت قوي:

ـ باستثناء ما قاله عن الباب، فإن كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذني من القمل، وأنا أشكر له ذلك. ولقد سامحني على

اللطمات، فأنا أشكر له ذلك أيضاً. إن هذا العجوز كان رجلاً شريفاً صادقاً طوال حياته، وكان وفياً لأبي وفاء سبعمئة كلب.

ـ المتهم! راقب كلامك. قال الرئيس بلهجة قاسية.

ـ أنا لست كلباً. قال غريغوري.

ـ إذن أنا الكلب. صاح ميتيا، إذا كان إهانةً أن يكون المرء كلباً فإنني أصف نفسي أنا بهذه الصفة، وأطلب منه الصفح والعفو. لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه. ومع إيزوب أيضاً.

ـ مع أي إيزوب؟ قال الرئيس برزانة.

ـ أتكلم على بييرو... أبي. فيودور بافلوفتش.

فطلب الرئيس من ميتيا، أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن، وقال له:

ـ إنك تسيء إلى سمعتك لدى قضاتك.

أظهر المحامي البراعة نفسها في استجواب الشاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام، والذي كان وكيل النيابة يعوِّل عليه كثيراً. لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء، وأنه مطلع على الأمور بشكل غريب، وأنه اختلف إلى جميع الأشخاص، وأنه رأى كل شيء، وتحدث مع كل واحد، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيودور بافلوفتش، كما يعرف تفاصيل سِيَر آل كارامازوف جملةً. صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل، لم يكن قد سمع شيئاً عن هذا الأمر، هو أيضاً، إلّا من ميتيا، ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في كاباريه «العاصمة الكبرى» وصفاً دقيقاً، ونقل أقواله وذكر إشاراته وحركاته، وروى حادثته مع الكابتن سينغيريف. أما عن أن فيودور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض المال تصفيةً لحساب الميراث، فإن راكيتين نفسه لم يذكر شيئاً واضحاً، واكتفى بقول بضع عبارات غامضة فيها احتقار: «من الذي يستطيع أن يقول أيهما

كان مذنباً في حق الآخر، وأنَّى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما في ظل هذا النظام المنزلي العجيب الذي تعيشه أسرة كارامازوف، وفي ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً أبداً!». لقد صوَّر راكيتين المأساة التي أدت إلى الجريمة على أنها ثمرة عاداتنا وأخلاقنا المتخلفة، وثمرة نظام القنانة، وثمرة الفوضى التي تسيطر على بلادنا روسيا التي تعاني شقاء كبيراً وتفتقر إلى أنظمة لا غنى لها عنها. خلاصة القول إنه سُمح لراكيتين أن يلقي خطاباً مسهباً. وبمناسبة هذه الدعوى اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة. كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوي أن ينشر مقالاً عن القضية في إحدى الصحف، حتى لقد أورد في مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التي يعبر عنها ذلك المقال، فكان إذن مطلعاً على مضمون المقال. كانت الصورة التي رسمها راكيتين مظلمة قاسية يخرج منها شعور يعزز «الاتهام» بقوة. ونستطيع القول إجمالاً إن العرض الذي قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأي وحرية التفكير، وبما أكده من نبل العواطف وسمو المشاعر. حتى لقد سُمع في القاعة تصفيق انطلق تلقائياً، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة، وعن روسيا الشقية التي تهيمن عليها الفوضى. ولكن راكيتين، الذي لم يكن إلّا شاباً على كل حال، لم يستطع أن يتجنب خرافةً سرعان ما استغلها المحامي استغلالاً يدل على مقدرة فائقة في انتهاز الفرص المناسبة. لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن غروشنكا، فإذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى إليه، إذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم على أغرافينا ألكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف»، كان على استعداد لأن يدفع غالياً كي يسحب هذا التعبير، لأنه أوقعه في فخ المحامي.

وذلك كله لأن راكيتين لم يكن يعتقد أبداً أنه استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يستوعب هذا الموضوع بهذا التفصيل والدقة.

ـ اسمح لي أن أسألك. قال المحامي حين جاء دوره لاستجواب الشاهد، وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والاحترام. هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيِّباً عنوانه «سيرة الأب السعيد المرشد الروحي زوسّيما»، وهو كتيِّب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة، ومُهدى بكثير من التبجيل إلى صاحب العظمة سيادة الأسقف؟ لقد قرأت هذا الكتيّب مؤخراً باهتمام جدي.

ـ أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر، وإنما نُشرت بعد ذلك دون علمي. تمتم راكيتين وقد بدا عليه الاضطراب كأنه يشعر بالعار:

ـ هذا رائع!! إن مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر إلى الأمور، تجاه جميع جوانب الحياة الاجتماعية. وقد قُيِّض لكتيِّبك الممتاز، بفضل حماية صاحب العظمة الأسقف، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة... ولكنني أحب من جهتي، دون أن أكون مسرفاً في الفضول، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: لقد ذكرتَ منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (ليلاحظ القارىء أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة غروشنكا هو سفيتلوفا. ولقد سمعت هذا الاسم في هذه المناسبة لأول مرة).

ـ لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتي بجميع من أعرف من الناس... أنا شاب... ومن الذي يتحمل تبعة جميع ما يعرض له من لقاءات؟ أجاب راكيتين وقد احمر وجهه.

ـ مفهوم! قال فيتوكوفتش مشوشاً وحريصاً على الاعتذار: إنها متعة أن تجتذبك، كما تجتذب أيَّ إنسان آخر، امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل

في بيتها زهرة شبان المدينة... ولكنني... أريد أن توضح لي نقطة واحدة: نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شهرين، بكثير من الإلحاح، أن تتعرف إلى ألكسي فيودوروفتش، أصغر الإخوة كارامازوف، وأنها رجت منك أن تجيئها به، وهو يرتدي ثوب الرهبان، وقد وعدتك إذا أنت نجحت في أن تجيئها به، بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلاً. ونحن نعلم أنك لبيت طلبها، وأن الزيارة تمّت في تلك السهرة نفسها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى. لقد قدت ألكسي فيودوروفتش إلى منزل السيدة سفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذي وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلاً، هل هذا كله صحيح؟ ذلك ما أحب توضيحه لنا الآن.

ـ كانت تلك مزحة لا أكثر... ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر. وقد أخذت المبلغ من باب العبث... وعلى نية ردِّه إليها بعد ذلك...

ـ ولكنك قبلت المبلغ، ولم تردَّه حتى الآن... أم تُراك رددته...؟

ـ هذه تفاهات. تمتم راكيتين. وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع... طبيعي أنني سأرد هذا المال.

تدخل الرئيس، ولكن المحامي أعلن أنه لم يبقَ لديه سؤال آخر يلقيه على راكيتين. وانصرف راكيتين مهزوماً. لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بأنه إنسان نبيل، فسد هذا الشعور بشكل لا صلاح له بعده... وكأن فيتوكوفتش الذي لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له: «انظروا إلى شهود الاتهام هؤلاء، ما قيمتهم!» وإني لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً في هذه المناسبة أيضاً. فإنه وقد أغضبته اللهجة التي تكلم بها راكيتين على غروشنكا، صاح يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب: «برنار»، وحين اتجه الرئيس، بعد استجواب راكيتين، اتجه إلى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد إبداءها، صرخ ميتيا يقول بصوت قوي:

ـ لقد جاء إلى السجن عدة مرات واقترض مني مالاً. هذا برنار حقير، لا يؤمن بالله، وقد ضلل صاحب العظمة الأسقف وغرَّر به.

طبيعي أن ميتيا قد أُمر مجدداً بالتزام النظام، وتجنّب الألفاظ النابية، ولكن السيد راكيتين كان قد فقد مهابته.

ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالي، وهو الكابتن سينغيريف، أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين، ولكن بسبب آخر. لقد جاء سينغيريف إلى المحكمة شعث الثياب وسخ الهيئة موحَّل الحذاء، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران تماماً رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم «تقرير الخبير». فلما سئل عن الاهانة التي ألحقها به ميتيا رفض بإصرار أن يجيب. وقال:

ـ لا أهمية لذلك. إن صغيري إيليوشا لا يريد هذا. سينصفني الله في الآخرة.

ـ من الذي لا يريدك أن تتكلم؟

ـ ايليوشا، ابني الصغير: «بابا... حبيبي بابا... ما أكثر ما أَذلَّك!». هكذا كلّمني قرب الصخرة. وهو الآن يموت.

قال الكابتن ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً، وسجد أمام قدمي الرئيس. فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوِّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين.

واستمر المحامي يستعمل جميع أساليب فنه، ويُدهش الناس أكثر فأكثر بسعة اطّلاعه على القضية بأدق تفاصيلها. هكذا أحدثت الشهادة التي أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً في بادىء الأمر، وكانت هذه الشهادة تُدين ميتيا طبعاً. خصوصاً أنه حسب، كوبيكاً كوبيكاً، النفقات التي أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى إلى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر، فبيَّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل، أو ما يقارب

من ذلك. ما أكثر ما رمى للغجريات من مال! «أما فلاحونا المقمِّلون فإنه لم يكتفِ بأن ينفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبيكاً بل كان يوزع عليهم أوراقاً مالية لا تقل واحدة منها عن خمسة وعشرين كوبيكاً! ناهيكم عما سُرق منه في تلك الليلة!! إن اللصوص لم يتركوا بطاقات زيارة، ولا كان يمكن أن يخطر ببال أحد أن يبحث عنهم ويعثر عليهم بينما كان ميتيا نفسه يتلف المال ويبدده. إن فلاحينا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان. والبنات! بنات قريتنا! إنه لم ينسهنَّ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة». الخلاصة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات، وبدا أنه يجري حساباً دقيقاً. وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق إلّا ألفاً وخمسمئة روبل، وأنه خبأ بقية المبلغ في كيس صغير، بذلك يكون ذلك الافتراض مرفوضاً. «رأيت الثلاثة آلاف روبل بعينيَّ، أنا لا أُخدع في مثل هذه الأمور!». كان يصيح تريفون بوريستش، وكان واضحاً أنه يفعل ذلك حباً بإرضاء السلطات؛ ولكن حين جاء دور المحامي لإلقاء الأسئلة على الشاهد، اكتفى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن في شهادة صاحب الفندق، قال: إن الحوذي تيموفي وفلاحاً آخر اسمه آكيم عثرا على ورقة مالية بمئة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو في حالة سكر، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها إلى تريفون بوريستش الذي كافأ كلاً منهما بروبل، «فهل أُرجعت المئة روبل هذه إلى السيد كارامازوف أم لا؟ أجب!». فحاول تريفون بوريستش أن يتهرب من الجواب، ولكنه بعد سؤال الفلاحين اللذين عثرا على الورقة المالية، كان مضطراً أن يعترف بالواقعة، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية إلى ديمتري فيودوروفتش فوراً، وأنه فعل ذلك بدافع الأمانة والشرف، ولكن المتهم كان قد بلغ منه السكر أوجه حينذاك، فمن الجائز أن يكون قد نسي أن المال أعيد إليه في حينه». ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل إلى حين مثول الفلاحين ينكر العثور

على ورقة نقدية على أرض الدهليز أصلاً، فإن ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أُرجعت إلى ميتيا السكران، أصبح مطعوناً فيه. هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته كلياً. وكذلك كان شأن «السيدين» البولنديين. لقد أظهرا في البداية كبرياءً وغروراً، وأكدا بصوت قوي أنهما «خدما التاج» بأمانة وإخلاص وأن «السيد» ميتيا عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ في يديه بأعينهما. وقد استعمل «السيد» موزيالوفكتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية في جمله، فلما لاحظ أن ذلك قد زاد قيمته في نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة، شعر بارتياح وسرور وبدأ يتكلم بالبولندية. ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه: فرغم أن تريفون بوريستش، الذي استدعي إلى القاعة مرة أخرى، قد حاول الإنكار، فقد اضطر أخيراً أن يعترف بأن «السيد» فروبلفسكي قد استبدل بورق اللعب الذي أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسةً، وأن «السيد» موزيالوفكتش قد غش في اللعب أثناء استلامه دور «البنك». وقد جاءت أقوال كالغانوف الذي أدلى بشهادته بعد ذلك، مؤيدةً لصحة هذه «التفاصيل»، فخرج «السيدان» البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيّعهما قهقهات الحضور.

حصل الأمر نفسه لجميع الشهود الآخرين الخطرين. فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية. وقد أُعجب رجال القانون والهواة ببراعته، ولكنهم كانوا يتساءلون إلى ما كان يهدف من ذلك. ذلك لأنهم ـ أكرر هذا ـ كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام غير قابل للنقاش، وهذا الانطباع كان يتزايد أكثر فأكثر. لكن ثقة «المجوسي الكبير»، جعلته يبدو هادئاً مطمئناً، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة. ليس عبثاً أن يزعج هذا الرجل نفسه بالمجيء إلى بلدتنا من بطرسبورغ، فليس هو حتماً بالرجل الذي يرجع خائباً من دون نتيجة.

# III

## التقرير الطبي وليبرة من بندق

لم يقدم التقرير الطبي أي مساعدة للمتهم. وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوِّل كثيراً عليه، كما تبين فيما بعد. وإنما لم يقدم بالأساس إلا نتيجة إلحاح كاترينا إيڤانوفنا التي استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو. كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدامه شيئاً، وفي أحسن الحالات قد يكون مفيداً له. ومع ذلك، فقد كانت النتيجة مضحكة بسبب اختلاف الأطباء في الرأي. لقد تم تعيين ثلاثة أطباء هم الاختصاصي الشهير الذي استُقدم من موسكو، ثم طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكي. على أن هذين الطبيبين الأخيرين قد مَثَلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضاً، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك. فأما الخبير الأول الذي استُدعي للإدلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشتوبه. إنه عجوز في السبعين من عمره، أشيب أصلع، مربوع القامة قوي البنية، كان الناس في مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً. كانوا يعرفون أنه صاحب ذمة وضمير، وأنه طيب القلب رفيع الأخلاق. حتى لقد كانوا يزعمون أنه ينتمي إلى ملّة دينية هي ملة «الإخوان المورافيين» إذا لم يخطىء ظني. وهو يقيم في مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار. وكان رجلاً طيباً وإنسانياً، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً،

ويعودهم في أكواخهم ويعطيهم مالاً لشراء الأدوية، ولكنه كان في الوقت نفسه عنيداً عناد بغل. كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأي قام في ذهنه.

كان جميع الناس يعلمون أن الاختصاصي الشهير القادم من موسكو قد تمكّن خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي قضاها في مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن في كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطبية بشكل جارح. ورغم أن هذا الاختصاصي قد تقاضى خمسة وعشرين روبلاً على الأقل عن كل كشف طبي، فكثيرون من مدينتنا قد ابتهجوا لوصوله، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير ضانّين بالمال. وطبيعي أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتور هرتسنشتوبه قبل ذلك، فكان الاختصاصي الشهير ينتقد المعالجة التي وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً، حتى لقد صار آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين إليه بهذا السؤال: «هيه! أليس الدكتور هرتسنشتوبه هو الذي أوصلك إلى هذه الحال؟ هه، هه! وقد أنبىء الدكتور هرتسنشتوبه طبعاً بما كان يقوله عنه هذا الطبيب. وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد الآخر كخبراء! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعةً واحدة أن «المتهم لا يملك كامل قواه العقلية، وأن هذا يُرى من أول نظرة». وحين بسط آراءه في هذا الموضوع (وهي آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول إن الشذوذ النفسي الذي يعانيه المتهم يظهر لا في مجموعة كبيرة من الأعمال التي سبق أن ارتكبها فحسب، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً ـ وهذا أهم ـ في سلوكه في جلسة المحاكمة هذه بالذات. فلما طُلب إلى الدكتور هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن، أجاب الطبيب العجوز بالسذاجة المعهودة فيه أن المتهم حين دخل القاعة «كان يمشي مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها، فهو يسير قدماً لا يلوي على شيء، كما يسير جندي، وهو يحدِّق بعينيه بشكل ثابت لا ينظر يَمنةً ولا يَسرة، مع أن الشيء الطبيعي بالنسبة إليه هو أن ينظر يَسرةً، حيث توجد النساء من الحضور،

لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حباً عظيماً، فلا بد أن يقيم وزناً كبيراً لرأي السيدات، لما عسى أن يكون رأي السيدات فيه حينذاك». وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة أصيلة خاصة به. والجدير بالذكر هنا أنه كان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شيء ألماني لست أدري ما هو، وذلك أمر لم يكن يقلقه أبداً، لأنه اعتاد طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية، وأن روسيته «خير من روسية الروس أنفسهم». وكان يحب كثيراً أن يروي أمثالاً روسية، ويؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث ـ عن ذهول في أغلب الظن ـ ينسى ألفاظاً هي أكثر الألفاظ استعمالاً، ألفاظاً يعرفها حتماً، ولكنها تبخّرت من ذهنه فجأة. على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضاً. وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك، يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت، وما من أحدٍ يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدي إلى اللفظة الضائعة. وأثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال إنه كان عليه أن ينظر إلى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة، أثارت في جمهور الحضور دمدمات ضاحكة. لقد كانت نساؤنا كلهنّ يحببن كثيراً هذا العجوز، كما كن يعرفن أنه قد عاش طوال حياته عازباً، رحيماً وطاهراً، ويعتبر النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية. لذلك بدت ملاحظته غير المتوقعة، لجميع الناس مثيرةً للدهشة.

عندما سئل الاختصاصي القادم من موسكو، صرَّح بلهجة قاطعة أن حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سويّة، بل هي «غير سوية إلى أقصى حد». وتكلم في إسهاب عن مرض «المسّ» وعن «المانيا»، وبرهن بالاستناد إلى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة مسّ؛ فإذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكب الجريمة واعياً بما يفعل، فمما

لا شك فيه أنه فعل فعلته بغير إرادة تقريباً، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضي الذي كان قد سيطر عليه. هكذا قال الاختصاصي شارحاً. ثم أضاف: على أن المريض كان مصاباً، عدا مرض الحصار، بداء «المانيا»، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدي به إلى الجنون الكامل (ملاحظة: إنني أنقل هنا بلغتي أنا، أقوال ذلك الطبيب الاختصاصي في الأمراض العقلية الذي استعمل عندئذ لغة تكنيكية فيها كثير من التفقُّه). وتابع الطبيب كلامه: «لقد كان يتصرف في جميع الأحوال تصرفاً منافياً للعقل. لن أقول شيئاً عما لم أره بنفسي، أعني الجريمة وتلك المأساة كلها؛ ولكن يجب عليَّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته، أمس الأول، أثناء حديث جرى بيني وبينه، كان فيها جمود غريب لا تفسير له. يضاف إلى هذا أنه كان يضحك بدون أي سبب. وقد لاحظت لديه غضباً مستمراً غير مفهوم، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل «برنار»، «إيطيقا»، وغير ذلك من ألفاظ لا محل لها إطلاقاً». على أن أبرز شيء يتميز به مرض «المانيا» لدى المتهم، في نظر الطبيب، هو أنه كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التي يعتقد أن أباه حرمه منها، وإلّا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع، بينما يكون قبل ذلك هادئاً تماماً أثناء كلامه عن إخفاقات أخرى أو إهانات أخرى تحملها أثناء حياته وهو يتذكرها الآن دون أي اضطراب ظاهر. هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر غضبه كلما ذُكرت هذه الثلاثة آلاف روبل، رغم أنه، على ما يقوله الشهود، لا يعد متهافتاً على المنفعة ولا يُعد طماعاً. ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو بلهجة ساخرة خاتماً كلامه: «أما عن رأي زميلي العالم الذي يقول إن المتهم كان ينبغي له عند دخوله القاعة أن ينظر إلى جهة السيدات لا أن ينظر إلى أمام، فإنني أعتقد أن من واجبي أن أؤكد، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الفكاهة، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش.

فإنني على موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن المتهم ما كان ينبغي له أن ينظر إلى أمام، أثناء دخوله قاعة المحكمة التي سيتقرر فيها مصيره، وعلى موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن فعلة المتهم هذه يجب أن تعد عرضاً من أعراض حالته العقلية المختلة، أقول إنني من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً إلى جهة السيدات، بل أن ينظر يمنةً إلى جهة محاميه باحثاً عنه في تلك اللحظة بعينيه، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامي.». أعرب الطبيب الاختصاصي عن رأيه هذا بلهجة جازمة. لكن الخلاف المضحك الذي قام به الأطباء الخبراء وصل إلى أوجه حين جاء دور الدكتور فارفنسكي الذي سئل عن رأيه آخرَ من سئل من الأطباء، فأخذ يدلي بآرائه ويقدّم تفسيراته. قال هذا الطبيب إن المتهم هو، الآن وفي الماضي على السواء، رجلٌ حالته النفسية سليمة تماماً؛ ولئن كان قبل اعتقاله في حالة عصبية، وكان مضطرباً بشدة، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً، كالغيرة، والغضب، والإسراف المستمر في الشراب وما إلى ذلك. فهذه الحالة العصبية لا تحمل أي أثر لهذا المسّ الخاص الذي جيء على ذكره؛ أما فيما يتعلق بمعرفة الجهة التي كان ينبغي للمتهم أن ينظر إليها لحظة دخوله القاعة، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم «بحسب رأيه المتواضع» أن ينظر إلى أمام، كما فعل تماماً، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره، كانوا أمامه في تلك اللحظة. «وهو، إذ نظر إلى أمام فعلاً، قد برهن على قدراته العقلية سليمة في هذه اللحظة». بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب «رأيه» المتواضع.

ـ برافو يا طبيب! صرخ ميتيا من مكانه. هذا صحيح!

طلب من ميتيا طبعاً أن ينضبط، ولكن رأي الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً في أعضاء المحكمة وفي الحضور على السواء، لأن جميع الناس في

مدينتنا قد انحازوا إلى رأيه، كما ظهر فيما بعد. ثم إن الدكتور هرتسنشتوبه، حين استُجوب كشاهد، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا بشكل لم يتوقعه أحد. إن الدكتور هرتسنشتوبه، وهو يسكن مدينتنا منذ زمن بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل، قدَّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً، ولكنه أضاف وكأنه تذكر شيئاً ما:

ـ ومع ذلك فإن هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل، لأنه كان في طفولته طيب القلب، وكان طيب القلب بعد ذلك أيضاً، أنا أعرف هذا. لكن هناك مثلاً روسياً يقول: «حسن أن يكون المرء ذا عقل، ولكنْ أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد...».

ـ تريد أن تقول إن في اتحاد العقول قوة لها...

كذلك تدخّل الرئيس متمَلملاً وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز في بطء الكلام وجرِّ الألفاظ دون أن يكترث لأثر ذلك في مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء إليه (حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة، ويستعملها مبتهجاً بوضوح. وكان إلى ذلك يحب الأقوال الحلوة كثيراً).

ـ نعم، ذلك هو ما قلته. استأنف الطبيب العجوز كلامه معانداً. عقلان اثنان خير من عقل واحد. ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر، فمضى عقله هو... مضى يعمل ماذا؟ نسيت الكلمة التي تعبِّر عما يفعله عقله. نسيت تلك الكلمة (ردَّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آه نعم. تذكرت. مضى عقله يتنزه.

ـ يتنزه؟

ـ نعم يتنزه. ذلك ما قلته أيضاً. مضى عقله يتنزه، فوصل إلى مكان بعيد تائه لا يستطيع فيه أن يهتدي إلى نفسه ويجد ذاته. ولكنه كان فتى نبيلاً حساساً. أوه، إنني أتذكره يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجري في فناء المنزل حافي القدمين ولا يمسك بنطاله إلّا زرٌّ واحد.

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنّة انفعال صادق. فارتعش فيتوكوفتش إذ أوجس مؤاتاة الفرصة الجيدة، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد.

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال:

ـ نعم، نعم، أنا أيضاً كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت... كان عمري... نعم كان عمري خمسة وثلاثين عاماً. وكنت قد جئت إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة. فأحسست بشفقة على الصبي وتساءلت: «لماذا لا أشتري له ليبرة من...» نعم، ليبرة من...، ولكن ليبرة من ماذا؟ نسيت الكلمة... ما اسم ذلك النوع؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيراً... هوه! كيف نسيت؟... كيف نسيت؟ (وحرَّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد)... هو ينبت على الأشجار، على الشجيرات فيُقطف ويوزَّع على الجميع...

ـ من تفاح؟

ـ أوه! لا، لا! ليبرة، قلت ليبرة. التفاح يباع بالدسته لا بالليبرة... عجيب!... هو متوفر جداً، وهو صغير الحجم... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق!...

ـ بندق؟

ـ نعم، بندق، هذا ما قلته. أكد الطبيب العجوز بهدوء تام، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة، يقول: جئت الصبي بليبرة من البندق، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشيء من قبل ذلك. رفعت إصبعي وقلت له: «اسمع أيها الصبي الصغير العزيز، باسم الإله الأب...» فضحك وردَّد: «باسم الإله الأب»، فقلت: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن»، فردَّد ضاحكاً من جديد: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن»، فقلت: «باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدس»، فضحك وراح يردد عدة مرات «باسم الإله الروح القدس». ثم انصرفت. ومررت قرب الصبي غداة غدٍ. فصرخ يقول: «سيدي! باسم الإله الأب، باسم

الإله الابن!» ولكنه نسي الروح القدس. فذكرته بها، ورثيت لحاله وأشفقت عليه مجدداً. ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أره بعد ذلك. ومضت ثلاثة وعشرون عاماً، ففيما أنا في عيادتي ذات صباح، وكان شعري قد ابيضَّ، إذا بي أرى شاباً مزهر الوجه طلق المحيّا يدخل عليَّ. لم أعرف من هو هذا الشاب. وها هو يرفع يده ويقول: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدس. لقد وصلت إلى هذه المدينة منذ قليل، وأحب أن أشكر لك ليبرة البندق الذي أهديته إليَّ فيما مضى. ما كان أحدٌ قد أهدى إليَّ شيئاً منه من قبل. أنت وحدك أهديتني ليبرة من بندق». تذكرت عندئذ شبابي الغابر السعيد، وتذكرت الصبي الصغير الذي كان يتنقل في فناء الدار حافي القدمين. وتأثر قلبي فقلت له: «أنت شاب نبيل النفس، لأنك لم تنس ليبرة البندق الذي جئتك به في طفولتك». وقبَّلته، وباركته باكياً. فكان يضحك، ويبكي أيضاً... إن الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء. ولكنه بكى، أنا متأكد من ذلك، رأيته يبكي. والآن، مع الأسف!...

ـ والآن إبكِ أيها الألماني الشهم! نعم إبكِ، أنت إنسان شهم. صاح ميتيا من مكانه.

مهما يكن من أمر، فإن هذه القصة الصغيرة قد أحدثت في الحضور أثراً طيباً. غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترينا إيڤانوفنا والتي سأتحدث عنها بعد قليل، هي التي كان لها التأثير الرئيسي على قضية ميتيا. على وجه العموم ومنذ بدأ توافد شهود النفي، أي تلك التي كان يستدعيها الدفاع، لأسباب لم يكن يتوقعها أخذ الحظ يبتسم فعلاً لميتيا، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر. لكنه قبل كاترينا إيڤانوفنا تم استجواب إيليوشا الذي تذكر واقعةً بدت له برهاناً إيجابياً، يدحض أحد أكثر أهم النقاط الأساسية في الاتهام.

# IV

## الحظ يبتسم لميتيا

حدث ذلك بشكل فجائي تماماً حتى بالنسبة لإيليوشا. فقد استدعي دون أن يقسم اليمين. والطرفان قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الأولى من شهادته. فقد سبقته سمعته إلى قاعة المحكمة. قدم إيليوشا مداخلة متواضعة، لكنها أظهرت عن غير قصد تعاطفاً حاراً مع أخيه البائس وجواباً عن سؤال ألقي عليه رسم صورة عن طباع أخيه كأنها لرجل عنيف شديد الاندفاع في أهوائه، وفي الوقت نفسه نبيل كريم النفس سخي قادر على التضحية حين يُطلب منه. ولكن إيليوشا اعترف أن توله أخيه بغروشنكا، وتنافسه مع أبيه، قد جعلاه في الأيام الأخيرة صعب المراس، ووضعاه في حالة لا تطاق. لكن إيليوشا رفض الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع في المال، وحتى اعترف بأن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولّدت في نفس ميتيا شيئاً يشبه المسّ، يفكر فيها دائماً، ويعتبرها جزءاً من ميراثه الذي حرمه أبوه منه زوراً، وهو على كونه زاهداً في الربح قليل الاهتمام بالمنفعة، لا يستطيع أن يتكلم في شأن هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به غضب شديد ملتهب. أما التنافس الذي أشار إليه وكيل النيابة بين «المرأتين»، أي بين

غروشنكا وكاترينا إيڤانوفنا، فقد تكلم على إيليوشا متهرباً، ورفض أن يجيب عن بعض النقاط.

ـ ألم يخبرك أخوك، على الأقل، أنه كان ينوي أن يقتل أباه؟ سأله وكيل النيابة. تستطيع الامتناع عن الإجابة إذا كنت تؤْثر الامتناع.

ـ لم يقل لي ذلك بشكل مباشر. أجاب إيليوشا.

ـ كيف قاله إذن؟

ـ حدَّثني عن الكره الذي يحمله لأبينا، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمتنع عن قتله... ذات يوم... في لحظة اندفاع شديد... إذا استبد به تقزز لا سبيل إلى التغلب عليه.

ـ هل صدَّقته حين سمعته يقول هذا الكلام؟

ـ أخشى أن أقول إنني صدقته. ولكنني كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه في اللحظة الحاسمة، وقد أنقذته فعلاً لأنه ليس هو الذي قتل أبي. هكذا ختم إيليوشا كلامه بصوت ثابت ترجَّع في القاعة كلها. ارتعش وكيل النيابة كحصان في ساحة القتال سمع صوت البوق.

ـ كن على ثقة أنني مقتنع بصدقك، دون أن أنسب هذا إلى ما تشعر به من حب نحو أخيك المسكين. وقد اطلعنا من التحقيق الأوّلي على نظرتك الخاصة إلى الأحداث المفجعة التي جرت في أسرتك؛ إن رأيك يبدو لنا غريباً إلى أبعد الحدود، وهو يناقض جميع الشهادات الأخرى التي جمعها الاتهام. ذلك هو السبب في أنني أرى من واجبي أن أطلب إليك ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذي تبني عليه رأيك حين تؤكد باقتناعٍ جازم أن أخاك بريء، وحين تسند هذه الجريمة إلى شخص آخر سبق لك أنْ أسميته بشكل غير مباشر في التحقيق التمهيدي.

ـ في التحقيق التمهيدي، أجبت عن الأسئلة التي طرحت عليَّ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسي. قال إيليوشا بصوت هادىء رقيق.

ـ ولكنك أشرت إليه، أليس كذلك؟

ـ ذكرتُه مستنداً إلى أقوال ديمتري. لقد ذُكر لي، قبل ذلك الاستجواب، ما قد حدث عند اعتقال أخي، وقيل لي إن أخي اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك. إنني مقتنع تماماً ببراءة أخي. وإذا لم يكن هو القاتل، فقد لا يكون القاتل إلّا...

ـ إذن سمردياكوف؟ لماذا سمردياكوف بالذات؟ وما الذي يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك؟

ـ لم أستطع ألا أصدقه. أنا أعلم أنه لن يكذبني بحال من الأحوال. ثم إنني رأيت في عينيه أنه كان يقول الحقيقة.

ـ في عينيه فقط؟ أليس لديك براهين أخرى؟

ـ ليس لديَّ براهين أخرى.

ـ وبالنسبة إلى اتهام سمردياكوف، أليس عندك من البراهين أيضاً إلّا أقوال أخيك وتعابير وجهه؟

ـ صحيح.

هنا توقف وكيل النيابة عن استجواب إيليوشا. فقد أثارت أجوبة هذا الأخير كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور الذي قد تكلم على سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة. وكان هناك أشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور، قد ألقوا في روع الناس أن إيليوشا جمع أدلة قوية جداً تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجاني. فإذا بكل شيء يتبدد الآن. إن إيليوشا لم يأت بأي عنصر حاسم، ولم يجئ إلّا باقتناع نفسي وهو أمر طبيعي عند أخي المتهم.

لكن فيتوكوفتش بدأ استجواب الشاهد، بسؤال إيليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله، وهل أفضى إليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة؟.

وفيما كان إيليوشا يجيب عن هذا السؤال، إذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما في تلك اللحظة نفسها.

روى إيليوشا كأن فكرة مفاجئة قد ومضت في ذهنه، كيف أن أخاه، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة، في المساء، قد لطم صدره عدة مرات، «أعلى صدره» عدة مرات، مردداً بإلحاح أنه يملك الوسيلة لاستعادة شرفه؛ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا، في هذا الموضع، على الصدر... «ظننتُ عندئذ أنه حين لطم صدره على ذلك النحو كان يشير إلى قلبه». قدَّرت أن قلبه كان قوياً بما يكفي لاتقاء عارٍ رهيب يهدده، عارٍ لا يجرؤ أن يعترف لي به. أعترف أنني افترضت أنه كان يلمح إلى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف. ولكنني أتذكر الآن أنه كان يشير إلى شيء ما على صدره، حتى إنني خطر ببالي في تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه، فالقلب يوجد تحت ذلك، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب؛ كان يلطم هنا، تحت العنق، ويظل يشير إلى ذلك الموضع نفسه دائماً. لقد بدا لي هذا غباءً حينذاك فلم أعبأ به، ولكنني أتساءل الآن ألم يكن يشير لي إلى الكيس الصغير الذي خاطه على الألف وخمسمئة روبل؟...»

ـ تماماً! صاح ميتيا من مكانه. لقد حزرتَ يا إيليوشا. هو ذاك. كنتُ ألطم الكيس الصغير في تلك اللحظة.

أسرع فيتوكوفتش يهدىء ميتيا متوسلاً إليه أن يهدأ؛ ثم التفت نحو إيليوشا يتابع الاستماع إلى شهادته متشبثاً بها بقوة. فعرض إيليوشا فكرته بحرارة، قائلاً إن العار الذي حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا، رغم أنه يملك الألف وخمسمئة روبل، أي نصف المبلغ الذي يدين به لكاترينا إيڤانوفنا، ورغم أن في وسعه أن يردَّ إليها هذا الجزء من دينها عليه، قد آثر ألّا يردّ المبلغ، وذلك

ليستخدمه في غرض آخر هو أن يملك ما يمكّنه من الرحيل مع غروشنكا متى وافقت على الذهاب معه.

ـ هو ذاك، هو ذاك تماماً. صاح إيليوشا بحماسة. لقد ذكر لي أخي في ذلك المساء أن في وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار، نعم من نصفه، لقد قال لي ذلك (ردَّد إيليوشا كلمة «نصفه» مراراً)، ولكن ضعف إرادته يمنعه من الاقدام... كان يعرف سلفاً أنه لن يستطيع الإقدام، فهو لا يملك القوة اللازمة لذلك!

ـ أنت متأكد، أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً. سأله فيتوكوفتش بنهم.

ـ تساءلت عندئذ: «لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالي مع أن القلب يقع تحت هذا الموضع؟». وأذكر أن هذا بدا لي غبياً... أتذكر ذلك بوضوح. وبسبب ذلك التساؤل الذي ومض في ذهني تذكرت الآن هذه الواقعة. فكيف نسيتها حتى الآن؟ أذكر أنه كان يشير عندئذ إلى الكيس الصغير برهاناً على أن في وسعه أن يردَّ الألف وخمسمئة روبل، ولكنه لن يفعل. وبعد ذلك، حين قُبض عليه في موكرويه، صاح يقول ـ أنا أعلم هذا فقد ذُكر لي ـ إنه يرى أن أكبر عار في حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردَّ إلى كاترينا إيڤانوفنا نصف دينها (نعم، ذكر كلمة النصف)، فلا يكون في نظرها بعد ذلك لصاً، لم يحزم أمره على ردِّ المبلغ، مؤْثراً أن يعتبر لصاً في نظرها على أن يتنازل عن المال. ومع ذلك، كان يعذبه هذا المال! أوه! ما أشدَّ ما كان يعذبه! بهذا ختم إيليوشا كلامه.

هنا تدخل وكيل النيابة طبعاً، فطلب من إيليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحَّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً إلى شيءٍ موجود على صدره حين لطم صدره. لعله كان يضرب صدره بقبضة يده

غضباً؟ لم يضرب صدره بقبضة يده. قال إيليوشا. وإنما كان يشير إلى الموضع بأصابعه، بأصابعه، وكان يريني الموضع، هنا، فوق، عالياً جداً... كيف أمكن أن أنسى هذا، وأن لا أتذكره إلّا في هذه اللحظة المحددة!

استدار الرئيس نحو ميتيا وسأله إن كان لديه ما يقول بالنسبة إلى هذه الشهادة، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، وأنه قد أشار بيده إلى الألف وخمسمئة روبل التي كانت معلقةً في صدره، تحت الرقبة بقليل. وأن هذا كان عاراً. «عار لا أنكره، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي! كان في امكاني أن أردَّ المال، ولكنني لم أفعل، آثرت أن تعتبرني لصاً، ولم أرجع المال. وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردَّ المال. صدق إيليوشا. شكراً يا إيليوشا!».

هكذا انتهى استجواب إيليوشا. إن أهمَّ وأبلغ عنصر في شهادة إيليوشا هو أنه اكتُشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو شبه برهان، ولو بداية برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمئة روبل التي يحويها. فمن المحتمل إذن ألّا يكون ميتيا قد كذب أثناء التحقيق الأولي حين صرح، في موكرويه، أن هذه الألف وخمسمئة روبل «هي له». فشعر إيليوشا بسعادة. ومضى يجلس في المكان الذي دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال، وبقي دقائق معدودة يتمتم بصوت خافت: «كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة! كيف أمكن أن تخرج من رأسي! ما أغرب ألّا أتذكّرها إلّا الآن!».

بدأ استجواب كاترينا إيڤانوفنا، وما إن ظهرت حتى اجتاح الحضور انفعالٌ قوي. فالسيدات وجّهن نحوها نظاراتهن، والرجال اضطربوا في أماكنهم؛ ونهض بعض الحضور كي يروها جيداً. وقد رُوي فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه في تلك اللحظة، وشحب شحوباً شديداً. كانت ترتدي ملابس سوداء كلها؛ وتقدمت إلى المكان الذي دُلَّت عليه، بتواضع أو ربما بخجل.

بقيت قسمات وجهها هادئة ساكنة، فلا شيء مما تشعر به قد ظهر للعيان. غير أن عزيمةً لا تنثني كانت تلمع في عينيها السوداوين المهيبتين. وقد أكَّد عدد من الناس فيما بعد أنها كانت جميلة للغاية في تلك اللحظة. كانت تتكلم بصوت خافت، ولكنه واضح ومتميز، فكان الناس يسمعونها في عمق القاعة. وكانت تتحدث هادئة، أو على الأقل تحاول أن تبقى هادئة. استجوبها الرئيس بكثير من التأني وأظهر لها كثيراً من المداراة، كأنه كان يخشى أن يمس «أوتاراً معينة»، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة. ولكن كاترينا إيڤانوفنا أسرعت تؤكد بقوةٍ، منذ البداية، جواباً عن سؤال أُلقي عليها، أنها كانت خطيبة المتهم «إلى اللحظة التي هجرني فيها من تلقاء نفسه» (كذلك أضافت تقول بصوت خفيض). فلما سئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت إلى ميتيا أن يرسلها إلى قريباتها بالبريد، أجابت بحزم وثبات قائلة: «أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فوراً. لقد شعرت حينها أنه كان في حاجة ماسة إلى المال... فأعطيته الثلاثة آلاف روبل شرط أن يرسلها في غضون شهر إذا شاء. ولقد أخطأ حين عذَّب نفسه بسبب هذا الدين...».

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التي أُلقيت عليها، وجميع الأجوبة التي أجابت بها، وإنما سأقتصر على إجمال الأمور الأساسية في شهادتها. واصلت كاترينا إيڤانوفنا كلامها فقالت:

ـ كنت على ثقة تامة بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه، أنا لم يساورني أي شك في نزاهته وأمانته يوماً... لم يساورني أي شك في شدة نزاهته وأمانته.. في شؤون المال... لقد كان على ثقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل، وحدثني في ذلك مراراً. كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات، وكنت مقتنعةً وما أزال أن أباه قد حرمه من حقه. لكنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه، بحضوري

على الأقل لم يتكلم بهذه الطريقة أبداً. إنني لم أسمعه يهدِّد ويتوعد في يوم من الأيام. ولو قد جاءني في تلك الآونة لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مديناً بها لي. ولكنه لم يرجع منذ ذلك الحين... ورأيتني أنا نفسي في وضعٍ لا يمكنني من أن أبادر إلى استدعائه. ثم أضافت وقد دوَّت في صوتها عندئذ نبرة قوية: ثم إنني ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضوع هذا الدين. فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغاً أكبر كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم أنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ في ذلك الحين أنني سأصبح في يوم من الأيام قادرة على أن أردَّه إليه...

قالت كاترينا إيڤانوفنا ذلك بنبرة تحسّر. وفي تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

ـ لم يحصل في مثل هذا في مدينتنا، إلا أثناء لقائكما؟ لأنه، شعر في اللحظة نفسها حصول شيء إيجابي. (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلي: رغم أن المحامي قد استدعي من بطرسبورغ بمبادرة كاترينا إيڤانوفنا تقريباً، فلقد كان يجهل كل شيء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التي أعطاها ميتيا للمرأة الشابة في المدينة التي كانت ترابط فيها كتيبته، وكان يجهل كل شيء عن «التحية الساجدة» التي حيَّاها بها عندئذ. إن كاترينا إيڤانوفنا لم تحدّث المحامي عن هذا الأمر، واعتقدت أن من واجبها أن تخفي عنه تلك الوقائع حتى ذلك الحين. وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً. ولكن من الممكن أن نقدِّر مع ذلك أنها كانت هي نفسها تجهل حتى آخر دقيقة هل تكشف للمحكمة عن وقائع تلك الفترة أم لا، وأنها كانت تتوقع نوعاً من الوحي لتعزم أمرها وتتخذ قرارها).

لن أستطيع أبداً أن أنسى تلك اللحظات. لقد بدأت كاترينا إيڤانوفنا

قصتها فكشفت عن كل شيء، عن جميع التفاصيل التي أفضى بها ميتيا إلى أخيه إيليوشا التحية الساجدة، والأسباب والدوافع التي قادتها، والحالة التي كان عليها أبوها، ومجيئها إلى منزل ميتيا. ولكنها في مقابل ذلك، لم تذكر أن ميتيا كان قد أوحى إلى أختها بأن ترسل إليه كاترينا إيڤانوفنا لتأخذ المال.». لم تقل عن هذا كلمةً واحدة، وسكتت عن سلوك ميتيا نحوها قبل ذلك. لم تخجل أن تؤكد أنها هي التي أسرعت من تلقاء نفسها إلى بيت ضابط شاب آملةً لست أدري ماذا... للحصول منه على مال. كانت تلك لحظات رهيبة. شعرتُ ببرد يسري في ظهري وبدأت أرتجف وأنا أصغي إلى كلام كاترينا إيڤانوفنا. وسكت جمهور الحاضرين بشكل مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها. كان في وضع هذه المرأة الشابة شيء لا عهد لأحد بمثله من قبل، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تتميّز بالكبرياء والتسلط، أن تدلي بشهادة فيها كل هذه الصراحة، تضحيةً وفداءً. ولماذا تضحي بنفسها؟ في سبيل من تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل إنقاذ رجلٍ كان يخونها ويهينها، في سبيل أن تساهم في إنقاذه على قدْر طاقتها الضعيفة، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر في نفوس الناس تأثيراً حسناً. وذلك ما حدث فعلاً: فإن الصورة التي رسمتها، صورةَ ضابط يهَب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها ـ أي كل ما تبقى له من ثروة ـ يهَبها لفتاة بريئة ثم ينحني لها احتراماً إلى درجة السجود، أقول إن هذه الصورة قد أعجبت الجميع وفتنتهم! وقد أحسست عندئذ أنها بذلك تعرِّض نفسها للأقاويل، وأن تخرصات كثيرة ستسري بين الناس في حقها. وذلك ما حدث كما تتوقعون. فقد أخذ أهل مدينتنا يومئون في أحاديثهم بعد ذلك، وهم يبتسمون بخبث، إلى أن القصة التي روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة جداً، ولا سيما في الموضع الذي يتضمن أن الضابط تركها تنصرف «مكتفياً ـ فيما ادعت ـ بأن حيَّاها ساجداً».

فأغلب الظن أنها «أسقطت» هنا جزءاً مما جرى. وقالت السيدات المحترمات في مجتمع مدينتنا: «افترضها لم تُسقط من القصة شيئاً، هبها قالت الحقيقة كلها كاملةً، فإن هذا لا يمنع من التساؤل: هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف على هذا النحو وأن تسلك مثل هذا السلوك، ولو لإنقاذ أبيها؟». كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن كاترينا إيڤانوفنا، بما لها من ذكاء حاد، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستنتشر بين الناس في حقها؟ لا شك في أنها توقعت ذلك حتماً، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء! وطبيعي أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد إلّا فيما بعد. أما أثناء إدلاء كاترينا إيڤانوفنا بشهادتها فقد سيطر على جميع الناس انفعال حاد. فأعضاء المحكمة أصغَوا إلى كلام كاترينا إيڤانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون. ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بإلقاء أي سؤال في هذا الشأن. وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها احتراماً. أوه! انتصر المحامي! إن هذه الشهادة رصيد كبير له: هل يتصوّر عقل أن الرجل الذي وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها، في وثبة كريمة من قلبه، هل يتصوّر عقل أن يكون من الممكن أن يقتل هذا الرجل أباه، ليلاً، في سبيل أن يجرِّده من ثلاثة آلاف روبل؟ إن في سلوكٍ كهذا تناقضاً لا يمكن فهمه. على الأقل أصبح بإمكان فيتوكوفتش بعد الآن، أن يستبعد تهمة السرقة. لقد اكتست «القضية» نوعاً من الإضاءة الجديدة. وخيم على القاعة جو من التعاطف مع ميتيا. لكنه قيل إنه أثناء إدلاء كاترينا إيڤانوفنا بشهادتها هتف بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه، ثم سقط على المقعد ويداه حول رأسه. ولما انتهت سألها منتحباً:

ـ كاتيا، لماذا تسببت بهلاكي؟

ثم أخذ ينتحب بقوة، لكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه، وصاح:

ـ الآن قضي عليّ!

ثم سكن جامداً، صارفاً أسنانه، مصلِّباً ذراعيه على صدره. وطُلب من كاترينا إيڤانوفنا أن تبقى في القاعة، فجلست على الكرسي الذي عُيِّن لها. كانت شاحبة اللون حانيةً رأسها. وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعش بكل جسمها، كأن بها حمًّى. واستُدعي الشاهد التالي، غروشنكا.

إنني أقترب هنا من لحظة الكارثة التي بانفجارها فجأة أدت عملياً إلى ضياع ميتيا. لأنني من جهتي كنت مقتنعاً بأنه لولا ذلك الحادث الذي وقع ـ وذلك رأي يشاركني فيه الجميع، ويشاركني فيه رجال القانون خاصةً ـ لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفِّفة على الأقل. سأعود إلى ذكر هذا الحادث بعد قليل، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة غروشنكا أولاً.

دخلت هي أيضاً، بثياب سوداء، وشالها الأسود الرائع على كتفيها. وتقدمت بمشيتها الصامتة الهادئة، مع شيء من ذلك الاهتزاز الذي نراه أحياناً في النساء البدينات بعض الشيء، إلى المكان الذي يقف فيه الشاهد، محدِّقة إلى الرئيس تحديقاً ثابتاً، لا تنظر يمنةً ولا يسرة. في رأيي إنها كانت في تلك اللحظة جميلة جداً، ولم تكن شاحبة اللون أبداً، كما زعمت، فيما بعد، السيدات اللواتي شهدن جلسة المحاكمة. وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلُّص يعبّر عن خبث وشر. ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغضب، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول التي كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التوّاق إلى الفضيحة. إن غروشنكا ذات شمم وكبرياء، فهي لا ترضى الاحتقار. وإن فيها كذلك خجلاً مع شعور خفي بالخزي من هذا الخجل في الوقت نفسه، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء إدلائها بشهادتها، وإنما تكلمت بغضب تارة، وباحتقار تارة أخرى، مصطنعةً في الحالتين لهجة خشنة

قاسية؛ ثم إذا هي بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتروح تلقي اللوم على نفسها. كانت في بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط في هوة ولا يبالي بالعواقب، وكأنها تقول لنفسها: «ليكن ما يكون! ليحدث ما يحدث! فسأقولها...» صرَّحت تقول فيما يتعلق بصلاتها بفيودور بافلوفتش، بلهجة قاطعة: «هذه كلها تفاهات! هل ذنبي أنا أنه تعلق بي؟» ثم بعد ذلك بدقيقة واحدة أخذت تقول: «أنا الآثمة، أنا المسؤولة عن كل شيء. لقد عبثت بهما كليهما ـ عبثت بالعجوز وعبثت بهذا ـ فدفعتهما بذلك إلى الكارثة. الذنب ذنبي أنا في كل ما حدث.» ولما ذُكر اسم سامسونوف، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة: «ليس لأحد أن يتدخل في هذا. إنه الرجل المحسن إليَّ. لقد انتشلني من وهدة البؤس حين طردني أهلي». فذكَّرها الرئيس، ولكن بلهجة مهذبة جداً، بأن عليها أن تقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي تُلقى عليها دون الخوض في تفاصيل لا داعي إليها. فاحمرت غروشنكا، والتمعت عيناها.

صرحت بأنها لم ترَ الظرف والمال المودع فيه، وإنما عرفت من ذلك «الوغد» أن فيودور بافلوفتش قد أعدَّ لها ثلاثة آلاف روبل.

ـ عدا ذلك، كل ذلك سخافات، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد، وما كان لي أن أذهب إليه بأية حال، هذا مؤكد...

ـ من هذا الذي وصفته بأنه «وغد»؟ سألها وكيل النيابة.

ـ هو سمردياكوف ذاك الذي قتل سيده، ثم شنق نفسه أمس.

طبيعي أنها سئلت فوراً عن الأساس الذي تبني عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح، ولكن اتضح أنها هي أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة. قالت:

ـ هذا ما قاله لي ديمتري فيودوروفتش نفسه وما عليكم إلّا أن تصدِّقوه!

ثم أضافت تقول وهي ترتعد كرهاً وحقداً، إن تلك المرأة هي التي ضيّعته، هذه هي الحقيقة كلها! إنها هي سبب كل شيء، هي وحدها! ذلك واضح!

ـ سئلت عمن تعني.

ـ أعني الآنسة هذه كاترينا إيڤانوفنا الحاضرة هنا! لقد دعتني إلى منزلها، وقدّمت لي شوكولاته، بهدف أن تغريني وأن تفتنني. إنها بلا حياء، هذه المرأة...

هنا أوقفها الرئيس عن هذا الكلام، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها. ولكن قلب المرأة الشابة كان يلتهب غيرة، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي إلى النهاية لا تخشى العواقب...

ـ حين قُبض على المتهم في موكرويه. سأل وكيل النيابة فإن جميع الذين أسرعوا من الغرفة المجاورة، رأوك وسمعوك تصرخين قائلة: «إنك أنت سبب كل شيء وإنك تريدين أن تصحبيه إلى السجن». فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت متأكدة منذ تلك اللحظة أن المتهم قد قتل أباه؟

ـ لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك. أجابت غروشنكا. كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه، فشعرت أن الذنب ذنبي، وأنه قتل أباه بسببي. ولكن عندما أكَّد لي أنه بريء ، صدّقته فوراً، ومازلت أصدقه، وسأظل أصدِّقه إلى الأبد، لأنه ليس من نوع الرجال الذين يكذبون. وجـاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

أذكر أنه أشار عندئذ، بين أمور أخرى، إلى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته إياه، وهو خمسة وعشرون روبلاً، مكافأةً له على أنه أتاها بألكسي فيودوروفتش كارامازوف إلى منزلها. فقالت غروشنكا وهي تضحك بخبث واحتقار:

ـ المدهش هو أنه أخذ المال. لقد كان يزورني دائماً ليستعطيني بعض

المال، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالى ثلاثين روبلاً في الشهر ينفقها على ملذاته الخاصة، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له.

سألها فيتوكوفتش، غير عابىء بالرئيس الذي أخذ يتحرك ويضطرب:

ـ ما الذي جعلك سخيةً إلى هذا الحدّ مع السيد راكيتين؟

ـ ببساطة، إنه ابن خالتي. أمي وأمه أختان. صحيح أنه رجا مني ألّا أقول هنا كلمةً واحدة عن هذه القرابة، إذ يبدو أنه يشعر بالخجل كونه يمتّ إليَّ بقربى!

فوجئ الجميع بهذه الواقعة الجديدة لأنه لم يكن أحد يعرفها في مدينتنا حتى ذلك الحين، ولا حتى في الدير. وكان ميتيا نفسه لا يعرفها. وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر خجلاً على كرسيه حينذاك. وكانت غروشنكا قد علمت، قبل دخولها إلى القاعة، أن راكيتين أدلى بشهادة تسيء إلى ميتيا، فأغضبها ذلك. وها هو الخطاب الجميل الذي كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً في كلام نبيل، ثائراً على نظام القنانة، منتقداً ما يسيطر على روسيا من فوضى، ها هو الخطاب يتحطم، فلا يبقى منه في أذهان الحضور أي أثر. وكان فيتوكوفتش مسروراً: لقد أسعفته السماء. ولم يطل استجواب غروشنكا كثيراً لا سيما وأنها لم تجئ بمعلومات جديدة. وقد تركت شهادتها في النفوس أثراً هو إلى السوء أقرب منه إلى الحسن. مئات نظرات الاحتقار وجهت إليها حين انتهت من الإدلاء بشهادتها. راحت تجلس في القاعة بعيداً عن كاترينا إيڤانوفنا. وفي أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً دائماً كأنه متجمد، مطرقاً بعينيه إلى الأرض.

وظهر إيڤان فيودوروفتش ليدلي بشهادته.

# V

## الكارثة المباغتة

لاحظت أنه استدعي قبل إيليوشا. غير أن حاجب المحكمة أبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع المثول أمام المحكمة بسبب مرض مفاجئ، أو نوبة ما، وأنه مستعد، بعد أن تتحسن حالته للمثول عندما ترغبون. ولم يعرف أحد بهذا الأمر، ولم يعلم به أحد إلّا فيما بعد. وقد مر ظهوره للمرة الأولى من دون اهتمام كبير. فالشاهدون الرئيسيون، ولا سيما المرأتين المتنافستين، كانت قد سُمعت أقوالهم، فارتوى فضول الناس بذلك إلى حين. حتى لقد لوحظ شيء من التعب أصاب الجمهور. وما تزال هنالك شهادات قليلة يجب سماعها، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتي بأشياء جديدة إضافة إلى الأمور الأساسية التي قد قيلت. وكان الوقت يمضي. واقترب إيڤان بخطًى بطيئة، دون أن ينظر إلى أحد، غاضاً نظره مطرقاً إلى الأرض، كأنه يبذل جهوداً شاقة في سبيل أن يجمع شتات أفكاره. كان لباسه سليماً، ولكن تعبير وجهه قد أحدث في النفوس أثراً أليماً، أو أحدث هذا الشعور الأليم في نفسي أنا على كل حال: كان وجهه يبدو بلون التراب وكأنه وجه إنسان يُحتضر. وكانت نظرته مضطربة. رفع عينيه،

وأجال نظره في القاعة ببطء. انتفض إيليوشا عن كرسيّه مرتجفاً. إنني أتذكر هذا بوضوح، رغم أن أحداً لم ينتبه إليه.

أعلن الرئيس بما إنه لن يُحلِّف اليمين، بوسع الشاهد أن يتكلم أو أن يسكت، وإنما ينبغي له أن يقتصر طبعاً على ذكر الحقيقة وحدها فيما يقول، الخ. فكان إيڤان فيودوروفتش يصغي محدِّقاً إليه بنظرة مبهمة. غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً فشيئاً، فما إن انتهى الرئيس الذي كان يراقبه بدهشة، من كلامه، حتى انفجر إيڤان مقهقهاً. وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان:

ـ وماذا أيضاً؟

خيَّم الصمت على القاعة وأحس الناس بأن شيئاً ما سيقع. واضطرب الرئيس.

ـ أتراك ما تزال مريضاً؟ سأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب.

ـ اطمئن يا صاحب السعادة، أنا بخير تماماً، وقادر على أن أذكر لكم أشياء هامة. أجابه إيڤان بصوت هادىء فيه احترام.

ـ هل لديك أشياء هامة تريد أن تنقلها إلينا؟ سأله الرئيس وهو ما يزال في شك من أمره.

فخفض إيڤان فيودوروفتش عينيه، وانتظر بضع ثوان، ثم رفع رأسه وأجاب في تردد:

ـ لا... لا شيء، ليس عندي شيء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة، فكان يجيب عنها على مضض وبإيجاز. ولكن إجاباته كانت متزنة. وأعلن مرات عديدة أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه. من ذلك أنه قال إنه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه وديمتري. وأضاف يقول: «وكان ذلك لا يهمني على كل حال». واعترف بأنه سمع

المتهم يهدِّد بقتل أبيه. أما الظرف الذي كان يضم المال فقد علم بوجوده من سمردياكوف...

ـ لا جديد صاح إيڤان في ملل.. ليس لديَّ شيء خاص أقوله للمحكمة.

ـ أنا أدرك أنك مريض، وأفهم أن... بدأ الرئيس بقوله.

ثم اتجه إلى وكيل النيابة والمحامي يدعوهما إلى استجواب الشاهد.

ـ اسمح لي بالانصراف يا صاحب السعادة، فإنني أشعر بضعف شديد. قال إيڤان فيودوروفتش بصوت منطفىء.

ودون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، اتجه نحو باب الخروج. ولكنه لم يمشِ بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر في شيء ما، وابتسم صامتاً، وعاد إلى حيث كان من مكان الشهود، وقال:

ـ أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التي كانت... كما تعلمون، تقول: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». كانوا قد جاؤوها بثوب الزفاف ليأخذوها إلى الكنيسة، ولكنها كانت تردد بدون انقطاع: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب»... هذا مشهد من مسرحية شعبية...

ـ ما الذي تريد أن تقوله؟ قاطعه الرئيس بلهجة قاسية.

فأجاب إيڤان فيودوروفتش وهو يُخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية:

ـ إليك ما أريد أن أخلص إليه... هذا هو المال، هذا المبلغ كان موجوداً في هذا الظرف (وأشار إلى الطاولة التي جُمعت عليها وثائق الاتهام)، والذي بسببه قُتل أبي. أين تريدون أن أضعه؟ يا سيدي حاجب المحكمة، انقل هذا المال إلى من يجب نقله إليه.

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية كلها وأعطاها إلى الرئيس.

ـ كيف وُجد هذا المال معك؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً؟... سأله الرئيس مندهشاً.

ـ أخذته من سمردياكوف، من القاتل يوم أمس. زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة. إنه هو الذي قتل أبي. ليس أخي القاتل. سمردياكوف هو الذي قتل، وأنا الذي حرضته على ذلك. من الذي لا يتمنى موت أبيه؟

ـ هل أنت بكامل عقلك؟ صاح الرئيس.

ـ العقدة كلها هي أنني ما زلت أملك عقلي كاملاً... وهو عقل قذر شبيه بعقولكم أنتم وبعقول جميع هؤلاء الأغبياء... قال ذلك والتفت فجأة نحو الجمهور. وأضاف يقول صارفاً بأسنانه معبراً عن احتقار مبغض: هم جميعاً قتلوا آباءهم، ثم يتظاهرون بالهول! إنهم يمثِّلون أيها السادة، يضحك بعضهم على بعض... كذبة! إنهم جميعاً يتمنون موت آبائهم. السراطين يأكل بعضها بعضاً. إذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين... إنهم في حاجة إلى مشهدٍ يتسلّون بالنظر إليه! خبزاً وماءً ومشاهد مسرح. ولست أنا خيراً منهم على كل حال. هل عندكم ماء نعم أم لا؟ اسقوني ماءً بحق المسيح! صاح وهو يمسك رأسه بيديه.

أسرع الحاجب يقترب منه. وقفز إيليوشا من مكانه صائحاً: إنه مريض، لا تصدِّقوه، إنه مصاب بنوبة حمى حارة! وانتصبت كاترينا إيڤانوفنا واقفةً وقد جمَّدها الخوف، وحدَّقت إلى إيڤان فيودوروفتش. ونهض ميتيا أيضاً، فتأمل أخاه وهو يبتسم بألم بينما كان يصغي إليه بنهم.

ـ اطمئنوا. لست مجنوناً. أنا قاتل فحسب! استأنف إيڤان.

ثم أضاف لا يدري أحد لماذا:

ـ لا يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً. وضحك ساخراً.

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً؛ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون. كان فينوكوفتش يصغي بانتباه شديد. وسكت الجمهور ينتظر متجمداً. وبدا على الرئيس أنه ثاب إلى نفسه واستعاد ثباته فقال:

ـ أيها الشاهد. إن أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة في هذا المكان. هدىء روعك إذا استطعت، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً... قل لنا ما هي الأدلة التي تقيم عليها مثل هذا الاعتراف.... إذا كنت لا تهذي فحسب؟

ـ ليس عندي شهود هذه هي المشكلة. إن ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل إليكم اعترافه من العالم الآخر... في ظرف. وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف. فلو أرسل إليكم سمردياكوف ظرفاً لكان هذا كافياً. لا، ليس عندي شهود...

ـ اللهم إلّا شاهداً واحداً. أضاف وهو يبتسم بوجوم.

ـ من هو هذا الشاهد؟

ـ إن له ذيلاً يا صاحب السعادة، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا. الشيطان لا وجود له أبداً!

تابع إيفان الكلام، دون أن يضحك هذه المرة. اصطنع لهجة الرجاء: لا تلقوا إليه بالاً، إنه شيطان تعيس. لا شك في أنه مختبئ في مكان ما هنا، ربما تحت طاولة وثائق الاثبات. أين عساه أن يختبئ إن لم يكن هناك؟. اسمعوا، اصغوا إليَّ: لقد قلت له إنني لن أستطيع أن أسكت، وكان هو لا ينفك يحدثني عن ذلك التحول الجيولوجي... سخافات! ماذا تنتظرون لتفكوا أسر المسخ ولتطلقوا سراحه؟... لقد غنى نشيده لأنه كان فرحاً! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانكا المسافر إلى بيتر! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كادريوناً من الكادريونات في سبيل ثانيتين من فرح! أوه! إنكم لا تعرفونني! ما أغبى هذا كله! خذوني أنا بدلاً عنه! لا بد أنني جئت لأمرٍ ما... لماذا، لماذا كل هذا الغباء!...

أجال إيفان بنظره على القاعة، وهو واجم مفكر. اضطرب جميع الناس. اندفع إيليوشا نحو أخيه، ولكن الحاجب كان قد أمسك إيفان من ذراعه.

ـ ما هذا أيضاً؟ صرخ إيڤان وهو يحدق إلى الحاجب. ثم أمسكه من كتفيه، ورماه على أرض القاعة.

هُرع الحرس وسيطروا على إيڤان. فأطلق عندئذ من صدره صراخاً حاداً، وظل يصرخ مطلِقاً عبارات مفككة، بينما كان يُقاد إلى خارج القاعة.

حصل اضطراب شديد. لا أتذكر جميع التفاصيل، لأنني كنت منفعلاً في تلك اللحظة، ولم ألتقط الأحداث. لكنني أعلم فقط أنه حين عاد النظام إلى نصابه، وفهم الجميع ماذا يحصل، تمّ توبيخ الحاجب بقساوة، رغم أنه أفاض في الشرح قائلاً إن الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض، وإنِ الطبيب الذي عاينه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى. وأضاف الحاجب يقول: ثم إنه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له. هذا إلى أنه كان يحرص هو نفسه على أن يدلي بشهادته، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر. ولم يكن الانفعال الذي أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً، حين وقع حادث أليم آخر. لقد أصيبت كاترينا إيڤانوفنا بنوبة عصبية، فأخذت تنشج بقوة، وتطلق صرخات حادة، ولكنها رفضت أن تنصرف، وبقيت تتخبط متوسلة ألّا يبعدوها. ثم صرخت تقول للرئيس:

ـ أريد أن أدلي بشهادة أخرى... أن أقول الحقيقة فوراً... فوراً! إليكم هذه الورقة، إنها رسالة... خذوها واقرأوها، بسرعة! هي رسالة أرسلها إليَّ هذا المسخ، نعم، هذا (وأومأت إلى ميتيا). إنه هو الذي قتل أباه، سترون، لقد ذكر لي ذلك كتابةً. كتب إليَّ أنه سيقتل أباه! أما الآخر فهو مريض، مريض، إنه مصاب بحمّى حارة! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مصاب بحمّى!

هذا ما كانت تقوله وقد خرجت عن طورها. تناول الحاجب الرسالة وأعطاها إلى الرئيس. وتهاوت كاترينا إيڤانوفنا على كرسيها وهي تغطي

وجهها بيديها ويهزها بكاء صامت. وكانت تحاول مع ذلك أن تسكت بكاءها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة. إن الورقة التي تناولها الحاجب من كاترينا إيڤانوفنا هي بعينها الرسالة التي كتبها ميتيا في كاباريه «العاصمة الكبرى»، والتي كان يصفها إيڤان فيودوروفتش بأنها دليل رياضي على الجريمة. ومع الأسف! لقد اعتُبرت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضي فعلاً، فلولا هذه الرسالة البائسة لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية الشقية على الأقل. أعود فأقول: لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شيء بالتفصيل، وما تزال ذكرياتي إلى الآن تختلط في شعورٍ بفوضى عامة. لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحلفين على تلك الرسالة. لست أدري. ولكنني أتذكر أن كاترينا إيڤانوفنا قد أعيد استجوابها. سألها الرئيس في رفق ولطف أهي تشعر بأنها هادئة لتستطيع الاجابة، فهتفت تقول بقوة:

ـ أنا جاهزة للرد على أي سؤال. أضافت وهي تخشى، من أن يرفضوا الاستماع إليها:

طلبوا منها أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها إليها.

ـ وصلتني عشية وقوع الجريمة، وقد كتبها في مقهى، في اليوم السابق، أي قبل ارتكابه الجريمة بيومين. انظروا: إن هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هي نوع من فاتورة حساب (صاحت تقول لاهثة). كان يكرهني في تلك الآونة، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة... ولأنه كان مديناً لي بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً... أوه! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ، لأنه كان يدرك دناءته! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل، فإليكم كيف جرت الأمور. أرجو منكم أن تستمعوا إليَّ، أتوسل إليكم: قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء إليَّ ذات صباح. كنت أعلم أنه في حاجة إلى مال، ولا أجهل سرَّ

حاجته إلى المال. كان يريد، نعم، كان يريد أن يغري هذه المخلوقة وأن يرحل بها. وكنت أعرف منذ ذلك الوقت أنه خانني ويريد أن يهجرني. وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسي. أعطيته المبلغ بحجة أنني أريد منه أن يرسله إلى أختي في موسكو. وحين سلمته المال أعلنت له، وعيني في عينيه، أنه يستطيع أن يرسله «بعد شهر» إذا كان ذلك يناسبه. فكيف يمكن أن لا يكون قد أيقن في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له: «هل أنت في حاجة إلى أن تخونني مع تلك المخلوقة؟ إذن خذ المال، إنني أعطيك المال من تلقاء نفسي. خذه، إذا كنت خالياً من المروءة والشرف إلى درجة تستطيع أن تقبل المال مني». كنت أريد أن أُخجله. فماذا فعل برأيكم؟ لقد أخذ المال ومضى ليبدده بعد ذلك في ليلة واحدة، هنالك، مع هذه المخلوقة. وقد فهم مع ذلك في تلك اللحظة أنني كنت على علمٍ بكل شيء. صدقوني إنه عرف أنني كنت أريد أن أمتحنه حين أعطيته هذا المال، وأنني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ مني هذا المال. كنت أحدِّق إلى عينيه، وكان يحدِّق إلى عينيّ هو أيضاً، لكان يفهم كل شيء، كان يفهم كل شيء. ورغم ذلك أخذ المال، أخذه ومضى به.

ـ هذه هي الحقيقة يا كاتيا صاح ميتيا: كنت أحدِّق إلى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار. ومع ذلك أخذت المال. احتقريني. أنا إنسان شقي، وعليكم جميعاً أن تحتقروني. إنني أستحق هذا الاحتقار!

ـ أيها المتهم! صاح الرئيس يخاطبه. كلمة واحدة أخرى، أخرجك من القاعة.

ـ كان هذا المال يعذبه. واصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية. صحيح، كان حريصاً على إرجاعه، ولكنه كان في حاجة إليه من أجل هذه المخلوقة. لذلك قرر أن يقتل أباه، ولكنه لم يردَّ إليَّ ديني، وإنما ذهب مع هذه المرأة

إلى تلك القرية، فتم القبض عليه هناك. لقد أنفق في تلك القرية، مرةً أخرى، المال الذي سرقه من أبيه بعد أن قتله. وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب إليَّ الرسالة. كتبها وهو سكران، أدركتُ ذلك فوراً. وكتبها عن حقد، لعلمه بأنني لن أطلع عليها أحداً، ولو ارتكب هذه الجريمة، وإلّا لما كتبها. كان يعرف أنني لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه. هلّا قرأتم الرسالة! اقرأوا بإمعان، لكي تعرفوا أنه قد وصف في هذه الرسالة كل شيء سلفاً، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه، وذكر أين يوجد المال مخبأً، ذكر ذلك كله سلفاً. وأحب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى عباراته خاصةً، وأرجوكم أن تقفوا عندها، وتتلبثوا عليها: «شريطة أن يكون إيڤان غائباً». هل رأيتم؟ لقد قتل عن سابق تصور وتصميم، وفكّر في جميع التفاصيل (قالت كاترينا إيڤانوفنا بخبث وسوء، كأنما لتؤثر في عقول القضاة تأثيراً أقوى. واضح أنها كانت قد قرأت وأعادت قراءة كل كلمة في هذه الرسالة المشؤومة، كل سطر فيها). ولولا أنه كان في حالة سكر لما كتب إليَّ بهذه الطريقة. انظروا كيف أن كل شيء مذكور مسبقاً في هذه الرسالة، كل شيء، حتى أدق التفاصيل. كيف قتل فيما بعد، الخطة بكاملها!

هكذا كانت تصيح غضبى؛ وطبعاً كانت لا تبالي في تلك اللحظة بعواقب شهادتها. ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهي ترتعش استياءً: «أيجب عليَّ أن أقرأ هذه الرسالة في جلسة المحاكمة؟». أما وأنها عزمت أمرها، فإنها لا تأسف الآن على شيء، ولا تبالي شيئاً. أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ، فأحدثت في الجميع شعوراً بالإدانة.

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة، فصاح:

ـ هي رسالتي، نعم، هي مني. وما كنت لأكتبها لولا السكر!.. يا كاتيا،

إن كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة. ولكنني أُقسم لك، على أنني، حتى حين كرهتك، كنت لا أزال أحبك. أما أنت فلا!

قال ميتيا ذلك، وارتمى على كرسيه وهو يلوي يديه يأساً. وتناوب وكيل النيابة والمحامي على إلقاء الأسئلة على كاترينا إيڤانوفنا، ملحِّين خصوصاً على الأسباب «التي دفعتها إلى أن تسكت في بداية شهادتها عن وجود رسالة خطيرة إلى هذا الحد، وأن تدلي بتصريحات تختلف في لهجتها ومضمونها عن أقوالها الآن». فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً:

ـ نعم، لقد كذبتُ منذ قليل. كذبت على خلاف ما توجبه أمانتي وضميري. ولكنني أردت أن أنقذه في تلك اللحظة، لأنه كان يكرهني ويحتقرني. أوه! كان يحتقرني احتقاراً فظيعاً؛ كان يحتقرني دائماً! احتقرني منذ اللحظة التي انحنيت فيها أمامه ساجدةً في سبيل ذلك المال. رأيتُ ذلك... أحسست به فوراً، ولكنني بقيت مدة طويلة أتردد في تصديقه. كم من مرة قرأت في عينيه أنه يقول لي: «مع ذلك، أنت التي جئت إليَّ في الماضي». آه... إنه لم يفهمني، إنه لم يفهم شيئاً من سلوكي في يوم من الأيام، إنه لم يدرك سبب مجيئي إليه، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلّا أحقر الدوافع. لقد حكم عليَّ من خلال نفسه هو. وأضافت تقول وهي تصرف بأسنانها غضباً، لأنها كانت في حالة اندفاع شديد: أعتقد أن جميع الناس مثله. ولم يخطر بباله أن يتزوجني بعد ذلك إلّا لأنني ورثت ثروة. ذلك هو السبب، ذلك هو السبب! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقي! آه هذا وحش مفترس. أعتقد أنني سأبقى طوال حياتي أرتعش أمامه خجلاً من أنني ذهبت إليه في الماضي، وأنه سيستطيع أن يحتقرني لهذا وأن يتسلط عليَّ. ذلك هو السبب في أنه أراد أن يتزوجني، ذلك هو السبب! هذا ما حدث، أؤكد لكم أن هذا ما حدث! حاولت أن آخذه بالحب، بحبٍ لا نهاية له، حتى لقد كنت مستعدةً لأن أغفر له خيانته. ولكنه

لم يفهم شيئاً، لم يفهم شيئاً أبداً! وهل هو قادر على أن يفهم أي شيء؟ هذا مخلوق مسخ! وصلتني منه هذه الرسالة في صباح الغد، جاؤوني بها من الكاباريه، بينما كنت في ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شيء، حتى خيانته!

بالطبع حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهِّدئاها. وإني على يقين أنهم جميعاً كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال، ومن الاستماع إلى اعترافاتها. أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها: «نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم، وثقي أننا نشاطرك هذا الألم» الخ. ولكن هذا لا ينفي أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت في حالة هستيرية، ولا تستطيع السيطرة على نفسها ولا تتحكم في سلوكها. ووصفت أخيراً بوضوح تام ـ وهذا ما يظهر في كثير من الأحيان، «ولو بشكل عابر»، في لحظات التوتر النفسي الشديد الذي من هذا النوع ـ كيف أن إيڤان فيودوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التي استبدت به، وهي أن عليه أن ينقذ أخاه، «هذا المسخ، هذا القاتل».

ـ كان يعذب نفسه. هتفت تقول: وكان يريد أن يخفف ذنب أخيه معترفاً لي أنه كان هو أيضاً لا يحب أباه، وأنه ربما كان يتمنى موته. هذا إنسان ذو ضمير حي! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير. قال لي كل شيء، كل شيء إطلاقاً! كان يأتي إلى منزلي يومياً فيتحدث إليَّ حديثه مع صديقته الوحيدة! (هتفت فجأة بنوع من التحدي وقد سطعت عيناها) لقد ذهب إلى سمردياكوف مرتين. وفي ذات يوم جاء إليَّ فقال لي: «إذا لم يكن القاتل أخي بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، كانت قد أُطلقت في الناس)، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً، لأن سمردياكوف كان يعرف أنني حاقد على أبي وأنني أتمنى موته».

وعندئذ أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها. فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل، فإذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً. لم يستطع أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه. وقد لاحظت، منذ أسبوع، أن ذلك أوقعه في المرض فعلاً. وفي الأيام الأخيرة كان يهذي أثناء زيارته لي. وأدركت أنه في الطريق إلى الجنون. كان يهذي وهو يسير، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه في شوارع مدينتنا. وحين عاينه، أمس الأول، تلبيةً لطلبي، الطبيبُ الاختصاصي الذي جاء إلى مدينتنا، قال لي إنه على وشك أن يُصاب بالحمى الحارة. ذلك كله بسببه، بسبب هذا المسخ. وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر، فأحدث هذا النبأ في نفسه أثراً أفقده عقله... وذلك كله بسبب هذا الشيطان، بسبب رغبته في إنقاذ هذا الشيطان المسخ.

إنه معلوم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلي باعترافات من هذا النوع إلّا مرةً واحدة طوال حياته، في اللحظات التي تسبق الموت مثلاً، أو حين يصعد إلى المشنقة. لكن كاتيا كانت في حالة من هذا النوع، كانت لحظة حياتها. إنها في الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التي ارتمت على رجلي رجل فاسق إنقاذاً لأبيها، إنها كاتيا نفسها التي ارتضت منذ قليل أن تضحي على رؤوس الأشهاد بحيائها، هي العفة الطاهرة ذات الأنفة، فقصت قصة «السلوك النبيل الذي سلكه ميتيا»، لا لشيء إلّا أن تخفف المصير الذي ينتظره. وهي بهذه الطريقة نفسها، وعلى هذا النحو، إنما تضحّي بنفسها الآن، ولكن في سبيل رجل آخر، في سبيل رجلٍ لعلها أدركت لأول مرة في تلك اللحظة مدى ما تكنّ له من محبة. تضحّي بنفسها في سبيله مخافة أن يكون قد أساء إلى شرفه وإلى سمعته حين قال إنه هوالقاتل. لقد بدا لها أنه بشهادته قد ضيَّع نفسه، فهي تضحي بنفسها لتنقذه هو، لتنقذ اسمه وسمعته! لكن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه: لقد كذبت قبل ذلك حين تكلمت على عواطفها نحو ميتيا، وهل تجنّت عليه حين وصفت موقفه منها؟ لا، لا، إنها لم تندد به

عمداً حين صرخت قائلة إنه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التي حيته بها في الماضي! لقد كانت تؤمن بذلك بصدق، لقد كانت مقتنعة، ربما منذ حيته بتلك التحية، أن ميتيا، هذا الطفل البسيط الطيب الذي كان يحبها حتى العبادة في ذلك الأوان، قد احتقرها وسخر منها واستهزأ بها. وهي ما تعلقت به ولا أحبته ذلك الحب الهستيري المصطنع إلّا من قبيل الكبرياء فقط. إن ذلك الحب، الذي نشأ عن زهو جريح، كان أقرب إلى الانتقام منه إلى الحنان. صحيح أن هذه العاطفة كان يمكن أن تتحول إلى حب حقيقي، وكانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال، ولكن ميتيا أساء إليها بخيانته إساءة عميقة، وأهانها، فلم تستطع نفس الفتاة المتغطرسة أن تسامحه. وحلَّت ساعة الانتقام، بشكل لم تكن تتوقعه هي نفسها، فإذا بالأحقاد التي تراكمت في قلب المرأة المهانة بشكل مؤلم خلال هذه المدة الطويلة، إذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة فجأة. إن كاتيا تخون ميتيا الآن، ولكنها تخونه بخيانة نفسها! وطبيعي أن التوتر العصبي قد زال منذ أفصحت عما يختلج في قلبها فأخذ يستولي عليها الشعور بالعار. لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة، فتهاوت على مقعدها وهي تبكي وتئن. فاضطروا إلى نقلها من القاعة. وفيما كانوا يبعدونها أسرعت غروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها:

ـ ميتيا! إن هذه الأفعى قد قضت عليك! أضافت وهي ترتجف غضباً وتتجه بكلامها إلى أعضاء المحكمة. ها هي الآن تظهر على حقيقتها. وبأمرٍ من رئيس المحكمة، أُمسكت غروشنكا واقتيدت إلى خارج القاعة. كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا. فأخذ ميتيا يصرخ هو أيضاً، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها. فأمسكوه وسيطروا عليه.

أفترض أن سيداتنا اللواتي جئن إلى جلسة المحاكمة كمشاهدات، كنَّ راضيات: لقد كان المشهد غنياً. أذكر بعد ذلك أن الطبيب الاختصاصي الوافد من موسكو قد ظهر في تلك اللحظة. يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف

الحاجب باستدعائه لإسعاف إيڤان فيودوروفتش. قال الطبيب للمحكمة إن إيڤان فيودوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات حمى حارة، وإن من الواجب صرفه فوراً. وجواباً عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامي، صرَّح بأن المريض قد جاء يستشيره في أمر مرضه منذ يومين، وبأنه قد تنبأ له بنوبة حمى حارة وشيكة الحدوث، ولكن إيڤان فيودوروفتش رفض أن يُعالَج. قال الطبيب: «لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً. واعترف لي هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له، فتارةً يرى في الشارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد، وتارة يزوره في المساء ابليس». وانصرف طبيب الأمراض العقلية بعد أن انتهى من عرض آرائه. وضُمَّت الرسالة التي قدمتها كاترينا إيڤانوفنا، إلى وثائق الإثبات. وتشاور أعضاء المحكمة، فقرروا أن يواصلوا المناقشات، ودُوِّنت الشهادتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعني أقوال كاترينا إيڤانوفنا وإيڤان فيودوروفتش) في محاضر المحاكمة.

لكني لن أسرد تتمة وقائع الاستجوابات. فإن أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشيء جديد، ولم تزد على تكرار ما عرفه القارىء حتى الآن، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية. وأقول مرةً أخرى: إن جميع الشهادات قد لخصتها مطالعة وكيل النيابة التي سأعرض لها حالاً. وحسبي أن أشير هنا إلى أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول المصيبة، وكان الجميع ينتظرون خاتمة المأساة وخطابَي الاتهام والدفاع بقلوب محروقة بنفاد الصبر. وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترينا إيڤانوفنا قد أرهقته. أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. عندما انتهت مداخلات الشهود رُفعت الجلسة نحو ساعة. وأعلن الرئيس فتح باب النقاش. وأظن أنها كانت الساعة الثامنة مساءً حين بدأ المدعي العام، هيبوليت كيريلوفتش إلقاء مطالعته.

# VI

## مطالعة النائب العام

## التمييز

بدأ هيبوليت كيريلوفتش مطالعته وجسده يرتعش بنوبات عصبية، وكان يتصبب عرقاً مرضياً بارداً على صدغيه، ويتعرض لنوبات باردة وحارة. هذا ما وصفه هو نفسه، فيما بعد. كان يرى أن هذا الخطاب هو إنتاجه وأفضل ما أنتجه في حياته، وهو كنشيد البجعة قبيل مماته. وقد مات هيبوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر، من سلٍ خبيث لم يمهله طويلاً، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغني قبل موتها. لقد وضع في هذه المطالعة كل قلبه، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه، وأنه يهتم هو أيضاً «بالمشكلات الحادة»، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين على فهمها. وقد أعجب الناس بصدقه خاصة: كان هيبوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجاني، فكان لا يتهمه ويطالب بإنزال «العقاب» في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب، بل كان مقتنعاً بما يقول، وكان هائماً بعاطفة «إنقاذ المجتمع». إن النساء من

جمهور المشاهدين، وهنَّ يعادين بمشاعرهن هيبوليت كيريلوفتش، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن. ولقد بدأ وكيل النيابة إلقاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً، ثم يدوِّي في القاعة كلها إلى نهايته. ومع ذلك أوشك هيبوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين انتهى من إلقاء الخطاب. بدأ وكيل النيابة مطالعته هكذا:

«سادتي المحلَّفين! إن القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في روسيا كلها. ولكن فيم نُدهش وفيم نروَّع خاصة؟ نحن وخاصة نحن؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل؟ إن أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات مثل هذه قد أصبحت لا تهز نفوسنا! ذلك هو بلاؤنا! وإن هذا التعود على الشر هو ما ينبغي أن نحزن له، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين. فما هي أسباب عدم اهتمامنا، ما هي أسباب عدم انفعالنا إزاء جرائم من هذا النوع، جرائم هي في حقيقة الأمر علامات شر تنذر بمستقبل قاتم؟ هل ترجع تلك الأسباب إلى ما أصبحنا نتصف به من استهتار واستخفاف، هل ترجع إلى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً في مجتمعنا هذا الذي ما يزال فتياً وقد تهرَّأ قبل الأوان؟ أهل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا إلى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت، اللهم إلّا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن، لا يحق له أن يطرحها فحسب، بل يجب عليه أن يطرحها أيضاً. إن صحافتنا التي ما تزال في بداياتها، والتي تُظهر شيئاً من التهيب في بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة، فلولاها لما استطعنا أن نعرف كل ما يعيث في بلادنا فساداً من انحلال الارادة وفساد الأخلاق. إنها تطلعنا

على الأنباء في أعمدتها كلَّ يوم، وبذلك لا تقتصر معرفةُ الواقع المرير على الذين يحضرون المحاكمات التي يُعتبر نشر وقائعها من حسنات النظام القائم، وإنما تتعداهم إلى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا نقرأ كل يوم في هذه الصحف؟ مع الأسف! إننا نقرأ في هذه الصحف أنباءً عن جرائم يفوق هولها هول القضية التي ننظر فيها اليوم، وليست هذه القضية بالقياس إليها إلّا حدثاً تافهاً. وأخطر ما في الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية، قضايانا الروسية، يدل على نوع من سقوط جماعي عام هو بلاء مشترك بيننا جميعاً، بلاء رسخ في أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً، فأصبحت محاربته أمراً عسيراً. ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية. إنه في بداية حياته وبداية مهنته. ها هو ذا لا يتردد، في ذات يوم، في ذبح موظف بسيط متواضع كان قد قدَّم له خدمة، وفي ذبح خادمة هذا الموظف، دون أن يشعر بشيء من الخجل، ودون أن يحس بشيء من عذاب الضمير، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرَّره له اعترافاً منه بدينه عليه؛ ثم هو ينتهز الفرصة، فيسرق ما يجده في منزل القتيل من مال، قائلاً لنفسه: «سيفيدني هذا المال في الاستمرار في معاشرة المجتمع الراقي، وسيسهِّل ارتقائي في وظيفتي تبعاً لذلك»؛ حتى إذا انتهى من الإجهاز على ضحيتيه، لم ينسَ أن يضع تحت رأسيهما وسادة، وانصرف. وإليكم مثلاً آخر: شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته. ها هو يقتل في الطريق، كما يفعل قاطع الطريق، أمَّ رئيسه المحسن إليه؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه في الجريمة، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته في ارتكاب الجريمة، يقول لهم: «إن هذه المرأة تحبني كابنها، ولهذا ستتبع نصائحي دون أن تتخذ أي احتياط». صحيح أنه شاذ. ولكنني لا أجرؤ على أن أقول إنه حالة مفردة في هذا العصر الذي نعيش فيه. وهناك آخرون

قد لا يقتلون، ولكن نفوسهم ملأى بهذه الرغبات نفسها التي تجيش بها نفس ذلك المجرم، وهم خالون من الشرف خلوَّه هو منه، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون: «ما هو الشرف؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة؟». قد تأخذون عليَّ أنني متشائم، وأنني أجتر رؤًى مظلمة، وأشهِّر بالناس بخبث، وأغالي في وصف الشر الذي ألاحظه مغالاة هذيان! آه... كم أتمنى يا إلهي أن يكون هذا المأخذ قائماً على أساس صحيح!. لكم أن لا تصدّقوني إذا شئتم، ولكم أن تعتبروا قلقي هذا وخوفي مرضاً، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم: إذا لم يكن في أقوالي إلّا عُشر من صدق، فذلك وحده رهيب! هل فكرتم، أيها السادة، في العدد المروِّع من الشباب الذين ينتحرون في بلادنا؟ إنهم يقتلون أنفسهم بدون كلام، دون أن يتساءلوا، كما فعل هاملت، عمَّا سيصيرون إليه بعد الموت. كأن مشكلة النفس الإنسانية، مشكلة المصير الذي ينتظرنا في الحياة الآخرة، أصبحت غريبة عن عقولهم، فهم قد نسَوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل. وانظروا، بعدُ، إلى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذي يتجلى لدى الفاسقين من أبناء مجتمعنا. إن فيودور بافلوفتش، الشقيَّ المجنيَّ عليه في هذه القضية، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً إذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين، ولقد عرفناه جميعاً، «وكان واحداً منا»... قد يأتي يوم تنكب فيه عقول متفوقة، في بلادنا وفي البلاد الأخرى، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسي، لأن الموضوع يستحق عناء الدرس طبعاً. ولكن هذه الدراسة ستحصل في المستقبل، حين يهدأ البال ويطمئن العقل، حين تصبح ضروب المآسي التي يعاني منها عصرنا مجرد ذكرى، فيكون من الممكن عندئذ أن تُدرس دراسةً فيها من الإنصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلي في هذا الأوان؛ نحن الآن

مروَّعون، أو نحن نتظاهر بأننا مروّعون، مع تلذذنا بمشهد الجريمة، لأننا نحب الأحاسيس الشاذة العنيفة التي توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستهتار؛ أو قولوا أيضاً إننا أشبه بأطفال صغار، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا، وندفن وجهنا في الوسادة إلى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة، عازمين على أن ننساها فوراً بالأفراح واللعب. ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة على محمل الجد، وعلى أن نفكر في ما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا. لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لكي نتمكن أن نفهم، أو لنحاول أن نفهم، على الأقل، ما يجري في مجتمعنا. إن كاتباً كبيراً من كتّاب عهد قريب، قد شبَّه روسيا، في خاتمة كتابه الرائع، بعربة ترويكا تعدو بسرعة نحو غاية مجهولة، فهتف يخاطبها قائلاً: «أيتها الترويكا، يا طائراً سريعاً، من الذي أوجدك؟» وأضاف يقول في اندفاعة كبرياء وزهو: «إن الشعوب لتتنحى باحترام عن طريق الترويكا الجبارة. ليكن، أيها السادة! لنسلم بأن الشعوب تتنحى أو لا. ولكنني أعتقد، في رأيي المتواضع، أن الفنان العبقري قد استعمل هذه الصورة وهو في حالة اندفاع مثالي طفولي يُغفر له، أو لعله لجأ إلى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد؛ إذ لو أنه لم يشد إلى هذه الترويكا سوى أبطال روايته نفسها، أمثال سوباكيفتش ونوزدريوف وتشيتشيكوف، كان يمكن أن تقودنا الترويكا أياً كان الحوذي الذي يقودها؟ وأشك أن تستطيع هذه الخيول أن تقودنا إلى مكان مقبول. وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد غابر لا تضاهي خيول هذا الزمان. وقد رأينا بعدها كثيراً...».

هنا قطع خطابَ هيبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور. لقد سُرّ الجمهور مما في صورة الترويكا هذه من لبرالية. ولكن التصفيق الذي انطلقت

به الأكف كان متفرقاً هنا وهناك، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن «يهدد بإخلاء القاعة»، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية. غير أن هيبوليت كيريلوفتش قد تشجع. إنه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً في حياته. لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الاصغاء إليه، وها هو يستطيع أن يُسمع صوته روسيا كلها! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال:

«في الواقع ما هي عائلة كارامازوف هذه التي اكتسبت في روسيا كلها، شهرةً سوداء؟ ربما أبالغ قليلاً، ولكنه يبدو لي أن حياة هذه العائلة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر؛ صحيح أنها تعكسها مصغَّرة مكروسكوبياً، كما «تعكس الشمسَ قطرةُ ماء»، ولكننا نجد فيها قبساتٍ ذات دلالة. انظروا أولاً إلى ذلك العجوز الشقي، الفاسق الجريء، ذلك «الأب» الذي لقي مصيراً بائساً. لقد بدأ حياته طفيلياً رغم نبالة مَحْتِده؛ وأتاح له زواج موفق لم يكن يأمله، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به. لم يكن الرجل في ذلك الحين إلّا غشاشاً ضيِّق المدى ومهرِّجاً يتملق الأقوياء، لكنه يملك مزايا ذكاء تُجحد. وهو قبل كل شيء مرابٍ. وتنقضي السنون، فيتضاعف رأس ماله، يرفع رأسه شيئاً بعد شيء. وتختفي المذلة وتزول المراوغة، ولا يبقى من الرجل إلّا إنسان فاجر يغوص في العهر، إنسان شرير خبيث. غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً لا رجعة لها بعده، وأصبح ظمأه إلى اللذة لا حدود له، وأصبح لا يرى في الوجود إلّا المباهج والملذات؛ وبهذه الروح ربَّى أولاده، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فإنه لم يعبأ بها. إنه لا يبالي أبناءه، بل يتركهم في الفناء الخلفي من منزله، ويعتبر نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه. ثم ينسى وجودهم آخر الأمر بشكل تام. إن قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تلخَّص في قول القائل: من بعدي

الطوفان! إن نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن، فهو يعيش خارج المجتمع، في عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع، ولسان حاله يقول: «ألا فليهلك المجتمع كله، شرط أن أكون أنا بخير». ولقد كان بخيرٍ فعلاً، فهو راضٍ عن مصيره، مغتبط بما ناله، يتمنى بقوة أن يعيش عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى. وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه؛ وبالمال الذي آل إلى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردَّه إليه، يحاول الأب أن ينتزع من الابن عشيقته. لا، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامي اللامع الذي وفد إلينا من بطرسبورغ! سأقول الحقيقة بنفسي، لأنني أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب في نفس ابنه. ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً. ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا. أتقولون إنني أهين المجتمع إذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين؟ مع الأسف! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه، في عصرنا هذا، إلّا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه، بينما هم في الواقع يشاطرونه آراءه! لنسلِّم جدلاً بأنني متشائم. لقد اتفقنا على أن تعذروني هذه المرة. فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقونني، ولكنني سأعبِّر عن آرائي تعبيراً حراً، وسأقول كل ما أعتقد به في قرارة نفسي. لكم ألّا تصدقوني. ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى في نفوسكم مهما يكن من بدّ. لننتقل الآن إلى أبناء ذلك العجوز، ذلك الأب الذي هو رب أسرة: إن واحداً منهم يجلس الآن أمامكم على بنك المتهمين، وسأتحدث عنه، فيما بعد، حديثاً أطول. أما الآخران، فسأوجز الكلام عليهما. إن أكبرهما هو واحد من شبابنا الذين يتمتعون بثقافة ممتازة وذكاء عظيم، ولكنه لا يؤمن بشيء، لأنه كان قد نبذ أموراً كثيرة قبل ذلك، كأبيه تماماً. إننا نعرفه جميعاً: لقد استُقبل بحرارة في مجتمعنا،

وأُحسنت وفادته. وكان لا يخفي آراءه. بالعكس: كان يجاهر بها، وذلك يجيز لي أن أتكلم عليه اليوم بشيء من الصراحة، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف. لقد انتحر بالأمس، في الطرف الأقصى من المدينة، رجلٌ شقي ضعيف العقل، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعي لفيودور بافلوفتش. أقصد سمردياكوف. لقد روى لي ذلك المسكين، أثناء التحقيق الأوَّلي، وهو يبكي، كيف أن هذا الشاب كارامازوف، أعني إيڤان فيودوروفتش، قد روَّعه بإباحية تفكيره. كان يقول له: «كل شيء مباح، كل شيء مشروع، كل ما قد يشتهيه الإنسان في هذا العالم حلال، وما ينبغي أن يحرَّم شيء بعد الآن». ذلك ما كان يعلِّمه اياه. ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار، قد أثر في حالته العقلية كذلك، وأن تكون المأساة الرهيبة المروِّعة التي وقعت بالمنزل قد أسهمت في اختلال عقله. ومع ذلك فإن هذا الأبله قد ساق في يوم من الأيام ملاحظة هامة يمكن أن يفاخر بمثلها رجل أذكى منه، ولذلك أذكرها هنا. لقد قال لي: «بين جميع أبناء فيودور بافلوفتش، لا شك أن الذي يشبهه في طبعه أكثر من الآخرين، هو إيڤان فيودوروفتش.». أريد أن أختم، بهذه الملاحظة، التحليل السيكولوجي الذي عرضته لكم، ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب في مقتبل العمر. لقد رأينا في هذه القاعة، أن القوة التي لا سبيل إلى مغالبتها، أعني قوة الحقيقة، ما تزال تؤكد نفسها في قلب هذا الفتى، وأن عواطف التعلق العائلي لم يخنقها الكفر بالدين ولا الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان إلى الوراثة أكثر مما يرجعان إلى تفكيره الخاص. وانظروا بعد ذلك إلى أصغر هؤلاء الأبناء. إن هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً يحاول، على

نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التي تدفع إلى الانحلال والتي أخذ بها أبوه، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه «أسس روح الشعب»، أو ما يطلق عليه في أيامنا هذه، في صفوف بعض الأوساط المثقفة في مجتمعنا، هذا الاسم الذي فيه شيء من الادعاء. لقد وجد النجاة في الاعتصام بدير، وكاد يرتدي هو نفسه مسوح الراهب. يخيَّل إليَّ أنه لا بد أن يكون قد أحس، ربما على غير شعور منه، بذلك الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسي منهما الآن، في بلادنا الشقية، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروِّعهم ما يشيع في مجتمعنا من استهتار، وتحلل الأخلاق. وإذ كان هؤلاء الأشخاص يعزُون الشر كله إلى الثقافة الغربية ظلماً، فإنهم يرجعون، كما يُقال، إلى «تراب الوطن»، ويسارعون إلى الاحتماء بذراعي الأرض الأم التي أرضعتهم، مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روَّعتهم رؤى أشباح، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم على أقل تقدير. وهم يتمنَّون أن يناموا طوال حياتهم، هرباً من منظر الأهوال التي تروِّعهم. إنني، من جهتي، أتمنى أطيب التمنيات لمستقبل هذا المراهق اللطيف المحبب. وآمل ألّا تنقلب مثاليته الشابة وألّا ينقلب ميله إلى الأفكار الشعبية، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان، من وجهة نظر أخلاقية، إلى صوفية ضبابية ومن وجهة نظر وطنية الأخلاق، إلى تعصب قومي أعمى على صعيد السياسة. فهذان ضلالان يهددان ربما مستقبل أمّتنا بمصيبة من الانحلال الأخلاقي المبكر الذي ولَّدته في أخيه ثقافة غربية مفهومة خطأ ومحصلة من دون جهد».

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد، على ذكر التعصب القومي والصوفية الغيبية. وطبعاً إن هيبوليت كيريلوفتش قد استرسل في هذا الكلام بدافع الفصاحة، وإن ملاحظاته لا تمتُّ إلى القضية بأية صلة. ثم لقد كان كلامه

كله غامضاً، ولكن هذا الرجل المصدور الخانق قد أراد أن يفصح عمَّا بنفسه مرةً واحدة في حياته على الأقل. وقد قيل فيما بعد إنه انقاد في تحليله النفسي لإيڤان فيودوروفتش لعاطفة فيها شيء من حقد، لأن إيڤان فيودوروفتش كان قد أحرجه مراراً في الأحاديث التي كانت تدور في صالونات المجتمع، فلم ينسَ هيبوليت كيريلوفتش ذلك، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل. أما أنا فإنني أتساءل هل هذا الرأي صحيح له ما يبرره. مهما يكن من أمر، فإن هذا الجزء من خطابه لم يكن إلّا استهلالاً، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب. واصل وكيل النيابة إلقاء خطابه فقال:

«لكن هذا هو الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة اليوم. إنكم ترَونه أمامكم جالساً على بنك المتَّهمين، وأمام أبصاركم. وأمامكم أيضاً مآثره وحياته وأعماله وسلوكه: لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء. إنه يمثّل، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية، يمثّل روسيا على حالتها الطبيعية، ولكن ليس روسيا كلها من حسن الحظ! ولكننا نجد روسيا فيه، نشم رائحتها المألوفة، نكتشف حضورها! نعم، نحن أناس على حالة الطبيعة، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً. نحب الثقافة ونعجب بشيللر، ولكننا نتحدث عن الفضائح في الكاباريهات ونجد لذةً في جرِّ رفاق السكر من لحاهم. صحيح أننا نعرف كيف نكون أخياراً طيبين وأسخياء في المناسبات، ولكن ذلك لا يحدث لنا إلّا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا. نحن نحب الأفكار النبيلة، ونلتهب حماسةً لها، نعم، نلتهب حماسةً لها، ولكن شرط أن تهبط علينا من السماء دون أن نبذل جهداً، وأن لا تكلفنا شيئاً. نحن لا نريد أن نبذل لها شيئاً، نحن نكره أن نكون مجبرين على العطاء. ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ، نحب الأخذ في جميع الميادين. لسان حالنا

يقول: أعطونا، أعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا نرضى بأقل من ذلك)، ولا تعارضوا رغباتنا في شيء، تروا عندئذ كيف نستطيع أن نكون محببين؛ لسنا من الطماعين طبعاً، ولكننا نريد أن تُعطونا مالاً، أن تعطونا مالاً كثيراً، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال: وسوف تَرَون عندئذ كيف نستطيع، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس، أن نبدِّده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم. فإذا شاء سوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال، أظهرنا ما نحن قادرون على القيام به للحصول عليه متى اشتدت حاجتنا إليه. ولكنني أرى أنني أستبق الأمور. فلنعمد إلى عرض الأشياء مرتبة منظمة. هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه، «فيتسكع في الفناء الخلفي حافي القدمين»، على حد تعبير مواطننا المحترم، الذي يرجع إلى أصل أجنبي مع الأسف! أعود فأقول: إنني لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم. سوف أكون المتهِم له والمحامي عنه في آن. ذلك أننا بشر نحن أيضاً، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلّفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من بصمات على الطبع. ويكبر الصبي، فيصبح مراهقاً، ثم يصبح شاباً، ويخدم في الجيش ضابطاً. وفي أعقاب أعمال عنفٍ قام بها، وعلى أثر استفزاز إلى مبارزة، نُفي إلى مدينة صغيرة نائية، تقع قرب حدود وطننا الغني الشاسع. وهناك واصل حياته العسكرية، واسترسل في إفراطه طبعاً، فهو يلهو ويقصف ويعبث. ويلزمه الكثير من المال، لا بد له من المال قبل كل شيء. لذلك قرر، بعد مناقشات طويلة أن يتساهل مع أبيه، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً. لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرِّح فيها أنه يتنازل عن بقية الميراث، وأنه يعتبر استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لخلافاته مع أبيه في شأن هذا الميراث. وفي تلك

الفترة يلتقي فتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة. أوه! أعفوني من الدخول في التفاصيل، فقد سمعتم هذه القصة هنا! أن المسألة مسألة شرف ومروءة، مسألة تضحية، فلا يسعني إلّا أن أسكت باحترام وإجلال. إن الصورة التي رُسمت لكم عن شاب هو إنسان طائش ولكنه يعرف كيف ينحني أمام نفس نبيلة صادقة، أمام مثل أعلى كريم، إن هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها. ولكنكم قد اطّلعتم بعد ذلك بلحظات، في هذه القاعة نفسها، بشكل غير متوقع، اطّلعتم على قفا الصورة. سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض، ولن أحلل الأسباب التي دفعت الشاهدة إلى تغيير موقفها. وهي أسباب موجودة حتماً. لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها، وهي تبكي من آلام طال إخفاؤها، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذي قامت به، العمل الذي ربما كان فيه طيش وعدم تبصُّر، ولكنه نبيل كريم الهدف على كل حال. ففي منزل هذا الشاب، خطيبها، رأت هذه الفتاة، لأول مرة، تلك النظرة التي تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية، تلك النظرة التي لم تستطع هذه الفتاة أن تتحمّلها. وحين عرفت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شيء، حتى الخيانة)، تعمَّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهي تُفهمه بوضوح، وربما بوضوح مفرط، أنها تعطيه هذا المال لتتيح له أن يذهب في خيانته إلى نهايتها. وكانت نظرتها الفاحصة تسأله: «هيه! أتقبل المال أم لا؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف؟» وقد قرأ هو نظرتها، وأدرك ما يخفيه تفكيرها إدراكاً تاماً (ألم يعترف في هذا المكان نفسه، أمامكم، أنه أدركه؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد، وأنفقها خلال يومين على لهوه في حبه الجديد. فماذا نصدق؟ هل الحقيقة قائمة في الصورة الأولى التي رُسمت لنا عنه، هل الحقيقة قائمة في أسطورة تلك الاندفاعة الكريمة التي حملت

الضابط الشاب على أن يضحّي بآخر ما يملك، وعلى أن ينحني أمام الفضيلة؛ أم الحقيقة تكمن في ظهر تلك الصورة، في ظهرها الذي يبعث على الاشمئزاز؟ إنه ليحدث في الحياة عادةً أن توجد الحقيقة في الوسط، حين يكون هناك عنصران متناقضان. ولكن الأمر ليس كذلك في الحالة التي ننظر فيها الآن. وأغلب الظن أن الشاب كان صادقاً في المرة الأولى بقدر ما كان صادق الخسة في المرة الثانية. فإذا سألتموني: لماذا؟ قلت لأننا إزاء طبائع واسعة هي طبائع آل كارامازوف ـ وذلك ما أريد أن أصل إليه ـ أعني أننا إزاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة، وعلى أن يرنوا بأنظارهم إلى الهوّتين كلتيهما في آن، الهوة العليا التي تحلق فيها أنبل الصبوات وأرفع الأشواق، والهوة السفلى التي تغوص فيها أحقر المخازي وأدنأ أنواع السقوط. تذكروا تلك الفكرة اللامعة التي عبَّر عنها، منذ قليل، السيد راكيتين، هذا الشاب الذي أوتي موهبة الملاحظة الدقيقة، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب، وذلك حين قال: «إن هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج إلى الإحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها إلى أرفع النبل». هذا صحيح: إن هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التي يقتضيها طبعهم بغير انقطاع. لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو إليهما معاً في آن، وإلّا شعرنا بالشقاء، لأن حياتنا بحاجة إلى الامتلاء عندئذ. نحن واسعون، واسعون سعة أمنا الطيبة روسيا؛ نحن نستطيع أن نضم في أنفسنا كل شيء، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء! بالمناسبة، أيها السادة: لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل، فاسمحوا لي أن أستبق الأمور قليلاً. هل بإمكانكم أن تتصوروا أن هذا المتهم، الذي وصفت لكم طبعه، قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه الذي أخذ فيه المال من خطيبته ـ لقاء مذلة كبيرة، وخزي

قذر ـ هل في وسعكم أن تتصوروا أنه قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك في عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفتح الكيس ويأخذ المال، رغم الإغراءات التي لا حصر لها والحاجات التي لا سبيل إلى مغالبتها، رغم هذه الإغراءات وهذه الحاجات التي تحفل بها حياته؟ كيف يمكنه ألّا يمس هذه الذخيرة لا أثناء إفراطه في السكر في الكاباريهات، ولا في اللحظة التي قام فيها بمساع لا يعلمها إلّا الله في سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة لكي يتمكن من السفر مع حبيبته التي يريد أن يقيها ما يريده منها أبوه، غريمه ومنافسه؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفتح الكيس، ولو لم يكن له من هدف إلّا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذي يغار هو منه، وأن يبقى إلى جانبها يحرسها بانتظار اللحظة التي تقول له فيها أخيراً «أنا لك»، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها إلى حيث يبعد بها عن هذه البيئة القذرة. ولكن لا، إنه يأبى أن يمس حرزه؛ وما حجته في ذلك؟ إن الباعث الأول الذي ذكره، كما قلنا منذ قليل، هو رغبته في أن يدخر هذا المال للحظة التي ستقول له فيها: «أنا لك، فخذني إلى حيث تشاء»، فيكون في وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال. ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس على الحجة الثانية، وذلك باعتراف المتهم نفسه. كان المتهم يحدث نفسه قائلاً: «ما دمت أحمل هذا المال، فإنني أكون شقياً ولكنني لا أكون لصاً، لأنني أكون قادراً في كل لحظة على أن أذهب إلى خطيبتي التي أهنتها، وأن أضع أمامها نصف المبلغ، وأن أقول لها: «انظري! لقد أتلفت نصف مالك في اللهو والقصف، مبرهناً بذلك على أنني ضعيف مخلٌ بما تتطلّبه الأخلاق، وعلى أنني شقي إن شئت (إنني أستعمل تعابير المتهم نفسها)، ولكني، مهما أكن شقياً، لست بسارق! فلو

كنت سارقاً لما رددت إليك النصف الذي بقي لي من مالك، وإنما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول.». يا لغرابة هذا التعليل! إن هذا الرجل العنيف، ولكن الضعيف، إن هذا الرجل الذي لم يستطع مقاومة إغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلطِّخ شرفه، يجد في نفسه فجأة قوةً تمكّنه من أن يعلّق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ في لحظة من اللحظات! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم؟ إنني لا أتردد في رفض هذا التعليل؛ وسأجيز لنفسي أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف، في رأيي، ديمتري كارامازوف الحقيقي، إذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره. إنه في سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً، كان سيفتح الكيس فيأخذ منه ولو مئة روبل، مثلاً، في أول الأمر، قائلاً لنفسه عندئذ: «علام أدَّخر نصف المبلغ تماماً، أي ألفاً وخمسمئة روبل؟ يكفي أن أرد إليها ألفاً وأربعمئة، فالأمران واحد» لأنه سوف يبقى قادراً على القول لها: ـ أنا شقي ولكنني لست لصاً، فهأنا ذا أردّ إليك ألفاً وأربعمئة روبل، بينما اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً». وبعد مدة من الوقت، يفتح الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مئة روبل أخرى، ثم ليأخذ منه مئة ثالثة، فمئة رابعة، وهكذا دواليك؛ فما ينقضي الشهر إلّا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمئة ألف روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المئة روبل قائلاً لنفسه: «يكفي أن أردَّ إليها مئة روبل، أليس الأمران واحداً؟» ـ أنا شقي، ولكنني لست لصاً. لقد أتلفت في اللهو والقصف ألفين وتسعمئة روبل، ولكنني أرد إليك مئة روبل رغم كل شيء، وما كان اللص أن يرد إليك شيئاً.». وفي النهاية، بعد أن يتلف تلك المئة السابقة على الأخيرة، كان سيهتف قائلاً: «علام أرد إليها مئة روبل؟ فلأنفقها كما أنفقت غيرها!» ذلك هو التصرف الذي كان سيتصرفه ديمتري

كارامازوف الحقيقي، الذي نعرفه. على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع إلى درجة يصعب تخيلها. يستطيع المرء أن يتخيل أي شيء لكن ليس هذا. ولكننا سنعود إلى هذا الأمر فيما بعد».

وبعد أن عرض هيبوليت كيريلوفتش، بالترتيب، كل ما تبيَّن من التحقيق الأوّلي كل ما يمكن معرفته عن المنازعات الارثية والعلاقات العائلية بين الابن وأبيه، وبعد أن استنتجنا، أيضاً وأيضاً، أنه حسب كل الوقائع المتوفرة لدينا، ليس هناك أية وسيلة للحسم في موضوع الإرث، من حصل حصة أكبر أو أصغر. كما تحدث هيبوليت أيضاً عن التقرير الطبي، وعلاقته بالثلاثة آلاف روبل التي كانت تسيطر على أفكار ميتيا. انتقل هيبوليت كيريلوفتش إلى الكلام على الحالة النفسية التي كان عليها ميتيا حين أصبح اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه، فجاء في هذه المناسبة على ذكر تقرير الخبرة الطبية.

# VII

## لمحة تاريخية خاطفة

حاول تقرير الخبراء الطبيين أن يبرهن لنا على أن المتهم لم يكن يتمتع بقواه العقلية وكان ممسوساً. أنا أؤكد أن المتهم يتمتع بكل قواه العقلية، وذلك هو الأسوأ. فلو كان لا يملك قواه العقلية، لكان تصرف بشكل أكثر ذكاء. لكن كونه مصاباً بمرض «المسّ»، فذلك أمر أسلِّم به، ولكن مرض «المسّ» لا ينصب على نقطة واحدة هي تلك التي أشار إليها التقرير الطبي، أعني الفكرة التي رسخت في ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم. ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحقد الذي يجتاح نفسه كلما جرى الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل، يمكننا أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن لدى المتهم استعداداً للجنون. إنني، من جهتي، أوافق الطبيب الشاب على رأيه الذي يقول إن المتهم كان يملك وما يزال جميع قواه العقلية، وأنه طبيعي سليم من الناحية السيكولوجية، ولكنه منفعل غاضب. تلك هي عقدة القضية: ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من غضب. إن هناك سبباً آخر كان يثير غضبه، وهو سبب خاص: إنه الغيرة!».

أفاض هيبوليت كيريلوفتش بشكل واسع على الرغبة القاتلة التي شدَّت المتهم إلى غروشنكا؛ وبدأ باللحظة التي ذهب فيها المتهم إلى «تلك المرأة الشابة» كي يضربها ـ على حد تعبيره ـ فإذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها. قال وكيل النيابة: «تلك كانت بداية هذا الحب. وفي ذلك اليوم نفسه ألقى العجوز، أبو المتهم، نظرة على هذه المخلوقة. تلك بداية ذلك الحب. مصادفة مشؤومة مدهشة. لقد اشتعل القلبان حباً في آن واحد، في ساعة واحدة تقريباً، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة. وكان الحب الذي ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف. وبالإمكان أن نصدِّق أقوال هذه المرأة الشابة التي ذكرت لنا، في هذا المكان بالذات، أنها قد سخرت الرجلين كليهما. وتلك هي الحقيقة: لقد أحبت أن تضللهما وأن تغرر بهما. لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل، ولكن هذه الفكرة استهوتها، فإذا بالرجلين يزحفان عند قدميها. فالعجوز الذي كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً إلّا المال، هيّأ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديه إليها متى ارتضت أن تتكرم عليه بزيارة في منزله، بزيارة لا أكثر؛ ثم إذا هو يعلن أنه مستعد لأن يلقي على قدميها اسمه وثروته متى وافقت أن تصبح زوجته الشرعية. إن أمامنا شهادات واضحة جداً في هذا الموضوع. أما المتهم فإن المأساة التي صار إليها وضعُه واضحة لنا. وهي «لعبة» هذه المخلوقة مع ذلك. إن المغوية الخطرة لم تهَب لهذا الشاب ولو أملاً، لأنه لم يعرف أملاً، أعني لم يعرف أملاً حقيقياً، إلّا في آخر لحظة، حين ركع أمام المرأة التي سببت له تلك الآلام كلها ومدَّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه، غريمه ومنافسه. وقد قُبض عليه في تلك اللحظة نفسها، فلما رأت أنه يعتقل، سيطرت عليها ندامة حقيقية، فصاحت: «اسجنوني معه، أريد أن أتبعه، لأنني أنا التي أوردته موارد الهلاك، لأنني أنا المذنبة!». إن السيد راكيتين، الشاب

الذي يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذي تحدثت عنه منذ قليل، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية، ووصف طبع بطلتنا في بضع جمل مقتضبة، فقال: «خيبة الآمال وتبدُّد الأوهام في ميعة الصبا؛ والمقاساة من كذب البشر في سنٍّ مبكرة؛ ثم السقوط؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها؛ وأخيراً موكب البؤس والفقر، ولعنات أسرة محترمة، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعتبره إلى هذا اليوم محسناً إليها. هكذا تجمَّع الغضب في قلبها الذي لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة. فنشأ عن ذلك طبع ماهر في التخطيط، وميل إلى جمع المال، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح الخداع والاحتقار والثأر.». إن هذا التحليل السيكولوجي يتيح لنا أن ندرك كيف تمكنت هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما في آن، بدافع النزوة وحدها، لتعبث بهما بخبث ولو أدى ذلك إلى تدميرها. وفي أثناء ذلك الشهر المليء بحب لا يعرف الأمل، وبسقوط أخلاقي، وبالخيانة للخطيبة، وبالاستيلاء على مبلغ أؤتمن عليه وليس له، لا بد أن يكون المتهم قد عرف، عدا هذا، غضباً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه بقساوة؛ وممن كانت غيرته؟ من أبيه نفسه! وأخطر ما في الأمر أن العجوز الطائش كان يحاول أن يفتن المرأة التي تولَّه بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذي كان ابنه يعتبره حقاً آل إليه من ميراث أمه، ويريد أبوه حرمانه منه. نعم، إنه أمر لا يحتمل. كان يمكن أن يصاب بالمس. فليست المسألة مسألة مال لكن في الواقع، هذا المال نفسه قد يُستخدم في تحطيم سعادته!».

بعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة. قال:

«في أول الأمر كنا نصرخ في الكاباريهات، ونستمر شهراً بكامله لا نعمل

شيئاً غير الصراخ. إنه يحب صحبة الناس، ويحلو له أن يفضي، إلى جميع من يلقاهم، حتى بأشد أفكاره خطراً وايذاءً، متوقعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يسمعون لبوحه إلى حين، أن يبدوا عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره. كان يقتضيهم، لا يدري أحد لماذا، أن يشاركوه في همومه وهواجسه، وأن يؤيدوه بشكل كلي، فلا يعارضوه في شيء، وإلّا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الكاباريه (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع الكابتن سنيغيريف). وقد انتهى الأمر بالذين رأوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر إلى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة، وأن ديمتري كارامازوف، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الوقت (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عُقد في الدير، وذكر أحاديث المتهم مع إيليوشا، وصوَّر ذلك المشهد البشع الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يومَ اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه العنف ثم تابع وكيل النيابة كلامه). لست أمضي إلى حد الادعاء أن المتهم كان، قبل وقوع مشهد العنف هذا، قد فكر في الجريمة ملياً، وعزم قاطعاً على ارتكابها. ولكنني أقول إن فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها بكامل وعيه، وهذا ما تشهد عليه الوقائع، وأقوال الشهود، كما اعترافاته هو نفسه. إنني أعترف لكم، يا سادتي المحلَّفين، أنني ظللت حتى هذا اليوم أتردد في اتهام الرجل بأنه ارتكب، عن سابق تصور وتصميم، جريمة القتل هذه التي كان يشعر بأنه مدفوع إليها. صحيح أنني كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً في أن يقدم في المستقبل على إنهاء القضية بهذه الخاتمة المأسوية، ولكنني كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر في هذا الحل إلّا على أنه احتمال قد يتحقق، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه، وطريقة بعينها. وقد زالت اليوم تردداتي هذه، عندما قرأت تلك

الوثيقة الحاسمة التي قدمتها الآنسة فرخوفتزيفا إلى المحكمة. لقد سمعتم يا سادتي كيف صاحت تقول: «هذه خطة قتل!» بهذا وصفت تلك الرسالة المشؤومة التي كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو في حالة سكر. والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت بتصميم. لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين، ومعنى هذا أن المتهم قد أقسم، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثماني وأربعين ساعة، أنه إذا لم يتمكن من الحصول على المال في الغد، فسيقتل أباه ليستولي على المبلغ المخبأ تحت الوسادة في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، «شرط أن يكون إيڤان غائباً». هل سمعتم؟ «شرط أن يكون إيڤان غائباً». كان إذن في تلك اللحظة قد حدَّد جميع تفاصيل التنفيذ، وقدَّرجميع الاحتمالات. ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذي ورد وصفه في الرسالة! إن التصور والتصميم واضحان: لقد ارتُكبت الجريمة بقصد السرقة. المتهم نفسه أعلن هذا وكتبه بخط يده وذيَّله بتوقيعه. ولم يُنكر المتهم توقيعه. فإذا قيل إنه كان في تلك اللحظة سكران، قلت إن ذلك لا يقلل من خطورة الأمر شيئاً. بالعكس: لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكر فيه ملياً وهو في حالة اليقظة. فلولا أنه اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر، لما أظهر نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر. وقد يقال أيضاً: فلماذا أعلن نياته قبل ذلك جهاراً في الكاباريهات؟ إن الذين يريدون ارتكاب جريمة عن سابق تصور وتصميم حقاً، يسكتون في العادة، ويكتمون ما يجول في أذهانهم! هذا صحيح، ولكن المتهم لم يكن يقوم بذلك الصراخ إلّا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر، وإنما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل إلى القتل. ولقد أصبح بعد ذلك لا يتكلم على هذا الأمر إلّا قليلاً. وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة، بعد أن سكر في كاباريه «العاصمة الكبرى»، بدا صامتاً على غير عادته، ولم

يلعب البلياردو، وبقي منتحياً لا يقترب من أحد، ولا يخاطب أحداً، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجاري. ثم إنه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد في كاباريه. صحيح أن المتهم، حين قرَّر ارتكاب الجريمة، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادةً عليه بعد تنفيذ خطته، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يستعيد الأقوال التي أفلتت من لسانه. وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين، فما يزال يعتمد على الحظّ. لقد كان أملنا كبيراً بنجمنا! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة في سبيل أن يتحاشى اللحظة المشؤومة، وأنه بذل جهوداً كبيرة كي يتجنب الحل الدموي. كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به: «سأحاول في الغد أن ألتمس ثلاثة آلاف روبل لدى جميع الناس، فإن لم يتجاوبوا معي، فسوف يسيل الدم». مرة أخرى، كتب وهو في حالة السكر ومرة أخرى، أنجز في حالة الصحو، بالوضوح نفسه الذي كتب فيه.».

انتقل هيبوليت كيريلوفتش إلى الدراسة التفصيلية لكل الجهود التي قام بها ميتيا في سبيل الحصول على المال وتجنب الجريمة. روى مساعيه لدى سامسونوف، والرحلة التي قادته إلى عند لياغافي، مستنداً بذلك إلى الوثائق. عاد إلى المدينة أخيراً وقد انهارت قواه، وأرهقه التهكم عليه، وأنهكه الجوع، وباع ساعته ليدفع للحوذي أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمئة روبل، في زعمه!)، ومزقته الغيرة لأنه ترك حبيبته التي تلهب نار قلبه، ويخاف أن تذهب أثناء غيابه إلى فيودور بافلوفتش. عاد إلى المدينة أخيراً. الحمد لله! لم تذهب حبيبته إلى فيودور بافلوفتش. وها هو يرافقها بنفسه إلى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف. تلك سمة

سيكولوجية خاصةٌ تتميز بها هذه القضية). ثم يسارع إلى المرابطة في مرصده خلف الحديقة. وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التي أصابت سمردياكوف، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر. كانت الساحة إذن خالية. وهو يعرف «الاشارات السرية». أليس في هذا إغراءٌ قوي له؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شيء، ويذهب إلى خوخلاكوفا، السيدة المحترمة التي تقيم في مدينتنا موقتاً، والتي نكنّ لها جميعاً هنا أعمق الاحترام. إن هذه السيدة تشفق عليه وتهتم بمصيره منذ زمن، فها هي تسدي إليه بنصيحة عاقلة، وهي أن يعدل عن هذا الحب المخزي، وأن ينقطع عن هذا التنقل بين الكاباريهات، وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه في هذه الترهات الباطلة، فيسافر إلى سيبيريا، إلى مناجم الذهب. وقالت له: «هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التي تفور وتغلي في باطنك، وهنالك ستجد متنفساً لطبيعتك المولعة بالمغامرات.». وبعد أن وصف وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث، وعندما وصل إلى اللحظة التي علم فيها المتهم أن غروشنكا لم تمكث عند سامسونوف، وصف الغضب الذي استولى على المسكين، والغيرة التي تأججت في قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه، وأنها الآن عند فيودور بافلوفتش. واعتقد هيبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا إلى الدور الذي لعبته الصدفة، فقال: «لو اتسع وقت الخادمة لأن تقول له إن حبيبته موجودة في موكرويه مع «الصديق القديم المشروع»، لكان من الجائز ألّا يحدث شيء إطلاقاً. ولكن الخادمة، وقد ارتعبت، أخذت تقسم له أغلظ الأيمان على أن لا علاقة لها بالأمر، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً، فما ذلك إلّا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة في الحال. ولكن لاحظوا هذه النقطة: إن المتهم، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً، لم ينسَ أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسي. فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر؟ ما دام قد فكر في ارتكاب الجريمة خلال

شهر كامل، فمن الطبيعي أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً. لذلك عرف أن هذا المدق يفي بالغرض. معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشؤوم على غير إرادة منه. وها هو الآن في حديقة أبيه: الساحة خالية، لا شهود، لا شيء إلّا الليل المظلم، والظلمات، والغيرة. وتصوَّرَ أنها الآن هناك، قرب غريمه، مع منافسه، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزىء به. استولت هذه الفكرة على المتهم. ليس الأمر في هذه المرة أمر شكوك وشبهات، ليس الأمر أمر خوف مبعثه التخيُّل، مع الأسف! قال لنفسه: «الخيانة واضحة!» هي هنا، هنا، في هذه الغرفة التي يرى نافذتها مضاءة. إنها تختبئ وراء الستائر. ويتسلل المسكين نحو النافذة. هل تريدون منه أن يكتفي بأن يلقي على الغرفة نظرة احترام، ثم يهدأ على الفور، وينصرف في تعقل وحكمة، تجنباً لمصيبة وتحاشياً للاندفاع في عمل خطر مناف للأخلاق؟ ذلك هو ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التي كان عليها في تلك الدقيقة! إننا نعرف الحالة النفسية التي كان عليها، نعرفها من وقائع ثابتة، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالإشارات التي يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب، فيدخل إلى المنزل!».

هنا، بالنسبة إلى الإشارات تخلى هيبوليت كيريلوفتش موقتاً عن اتهامه واعتبر من الضروري التوسع بالنسبة إلى سمردياكوف، بشكل يستنفر كلياً هذا المشهد التمهيدي المتعلق بالشك في الجريمة الذي يقع على سمردياكوف، والانتهاء نهائياً من هذه الفكرة. قام بذلك بشكل مناسب وأدرك الجميع أنه على الرغم من كل الاحتقار لهذه الفرضية. كان يعتبرها مع ذلك مهمة جداً.

# VIII

## بحث عن سمردياكوف

بدأ هيبوليت كيريلوفتش كلامه بهذا السؤال: من أين أتى احتمال شك كهذا؟ إن أول من أعلن أن سمردياكوف هو القاتل، هو المتهم نفسه لحظة القبض عليه، على الأقل، منذ صرخته الأولى حتى اللحظة الحالية من الدعوى لم يستطع أن يقدم واقعة واحدة تدعم اتهامه. وليس فقط واقعة بل حتى تلميحاً إلى واقعة مهما كان ضعيفاً تطابقها مع المنطق الإنساني. ثم لم يؤكد هذا الاتهام إلّا ثلاثة أشخاص هم: أخو المتهم والسيدة سفيتلوفا. ولكن الأخ الأكبر لم يفصح عن شكوكه حول هذا الموضوع إلّا في هذه الجلسة، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحمّى حارة. أما خلال الشهرين الماضيين، فقد بقي مقتنعاً، كما نعلم بأن أخاه هو القاتل، ولم يحاول أبداً أن يدحض هذه الفكرة. وإن لنا عودة إلى تصريحاته على كل حال. ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوي المتهم، منذ قليل أنه لا يملك أيّ دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو القاتل؛ وإنما هو يبني اتهامه على هذيان المتهم، وعلى «تعبير وجهه». نعم أيها السادة، إن هذا الشاهد قد قدَّم لنا هذا الدليل مرتين! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب أيضاً، قالت: «ما عليكم

إلّا أن تصدقوا المتهم، فليس هو الرجل الذي يكذب!». تلك هي جميع الأدلة الملموسة التي أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن، وقد قدمها إلينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمُّهم كثيراً. ومع ذلك، أيها السادة، فإن الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال، رغم كل ما في ذلك من غرابة، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يتصوره العقل.».

وهنا اعتبر هيبوليت كيريلوفتش أنه من المفيد أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفَّى سمردياكوف، الذي «أنهى حياته إثر نوبة جنون وهستيريا عقلية مرضية»، فصوَّره على أنه امرؤ ضعيف العقل، يملك مبادىء ثقافة، ولكن المفاهيم الفلسفية التي تتجاوز حدود ذكائه قد هزَّت عقله، كما أن بعض الآراء الحديثة في الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روَّعته. وقد تعلم هذه النظريات، على الصعيد العملي، من حياة الفجور التي يعيشها سيده فيودور بافلوفتش الذي ربما كان أباه أيضاً، وتعلمها على الصعيد النظري من الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين إيڤان فيودوروفتش، الابن الثاني من أبناء سيده. كان إيڤان فيودوروفتش يتسلى من حين إلى آخر، من قبيل التندر، والضحك على هذا المسكين في أغلب الظن، وذلك حين لا يكون لديه شيء آخر يسرِّي به عن نفسه». هنا واصل هيبوليت كيريلوفتش كلامه قائلاً: «لقد وصف لي هو نفسه الحالة النفسية التي كان عليها طوال الأيام الأخيرة التي قضاها في منزل سيده. وأيَّد ذلك أشخاص آخرون: أيَّده المتهم نفسه خاصةً، وأيَّده أخو المتهم، بل وأيده غريغوري أيضاً، أي جميع أولئك الذين يعرفونه عن كثب. ثم إن سمردياكوف، الذي هدَّه مرض الصرع، «كان خائفاً كدجاجة». لقد أسرَّ إلينا المتهم في وقت لم يكن يتصور فيه، بعدُ، ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من أذًى له: «كان يرتمي على قدميَّ ويقبّلهما»، وقال لنا في يوم آخر، بهذه اللغة الخاصة به: «هو دجاجة مصابة بداء الصرع». ومع ذلك فإن هذا

الرجل الضعيف هو الذي يتخذه المتهم نجياً له يُفضي إليه بأسراره ويبوح له بخفايا نفسه (وذلك ما اعترف هو به)، ويبلغ من ترويعه أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً يزوّده بالأخبار، فلما وافق أن يكون «مخبراً»، خان سيده وأطلع المتهم على وجود الظرف الذي يحوي المال، وعلَّمه في الوقت نفسه الإشارات التي سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل. وهل كان في وسعه ألّا يطلعه عليها؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتجف أمامنا خوفاً، رغم أن جلّاده كان قد قُبض عليه في ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن ينال منه، قال لنا: «لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلني، رأيت بعينيَّ أنه سيقتلني لو كتمتها عنه. كان لا ينفك يشتبه فيَّ ويشك في صدقي؛ فكنت حين يهددني أبوح له بجميع الأسرار التي أعرفها، لأدفع عن نفسي غضبه، مبرهناً له على براءتي، لكي أنقذ حياتي». تلك هي الألفاظ التي استعملها المسكين في كلامه بنصّها، وقد دوَّنتها. «كنت إذا أخذ يصرخ، أرتمي جاثياً على ركبتيَّ أمامه». وكان الخادم المسكين، وهو بطبيعته أمين جداً، قد حظي لي بثقة سيده الذي أيقن من صدقه وأمانته يوم ردَّ إليه الأوراق النقدية الضائعة. ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان سيده هذا الذي كان يحبه ويرى أنه محسن إليه. ويعرف أطباء الأمراض العقلية البارزين أن الأشخاص المصابين بداء الصرع يميلون إلى اتهام أنفسهم بغير انقطاع، ويقاسون عذاباً أليماً من شعورهم بأنهم «مذنبون» في حق أحد أو في حق شيء، وأن تبكيت الضمير يرهقهم دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك في كثير من الأحيان، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يعتقدون أنهم ارتكبوها. فكيف بإنسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالإرهاب.

أضف إلى ذلك أن سمردياكوف كان يشعر سلفاً أن الأحوال التي يرى

تطورها في منزل سيده قد تؤدي إلى بلاء عظيم. فحين أراد الابن الثاني من أبناء فيودور بافلوفتش أن يسافر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة، توسل إليه سمردياكوف أن يبقى، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح عن المخاوف التي تساوره، واكتفى بالتلميح إليها، ولكن إيڤان لم يفهم. يجب أن نلاحظ أن وجود إيڤان فيودوروفتش في المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له، كأنه على يقين من أن شيئاً لن يحدث ما دام إيڤان حاضراً. تذكروا ما كتبه ديمتري كارامازوف في «رسالة السكر» التي بعث بها إلى كاترينا إيڤانوفنا: «شرط أن يكون إيڤان غائباً». كان حضور إيڤان إذن ضمانة لاستتباب الأحوال في نظر الجميع. ولكنه سافر. وبعد رحيله بساعة واحدة انتابت سمردياكوف نوبة صرع. وذلك أمر مفهوم معقول. يجب ألّا ننسى أن سمردياكوف كان، خلال الأيام الماضية، وقد هدَّه الخوف وأضناه نوع من اليأس النفسي، كان يحس بدنوٍّ نوبة من نوبات الصرع هذه التي سبق أن انتابته مراراً في ساعات التوتر العصبي. صحيح أن من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا سلفاً باقتراب حدوثها. ما إن ابتعدت عربة إيڤان فيودوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف إلى القبو لشأن من شؤون الخدمة. وكان في تلك اللحظة يرزح تحت وطأة الشعور بالعزلة، ويشعر بأنه أعزل لا يملك عن نفسه أيّ دفاع، وكان يتساءل وهو يهبط السلَّم: «هل ستوافينني نوبة؟ ماذا يحدث لو سقطت الآن؟».

بسبب هذه الحالة النفسية، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذي ألقاه على نفسه، حدث له تقلُّص في الحلق هو ذلك الذي يسبق موافاة النوبة دائماً، ثم إذا هو يتدحرج إلى القبو مغمياً عليه. إن هذا الحادث، الطبيعي تماماً، قد ولَّد شكوكاً، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيَّتة، وادعى أن هذا الرجل قد

اصطنع النوبة وتظاهر بها. فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح. غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه علينا وهو: ما عسى أن يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم؟ ما عسى أن يكون الحساب الذي أجراه، وما هو الغرض الذي سعى إلى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها؟ لنترك الطب جانباً. يقال إن الطب يمكن أن يخطىء، وكثيراً ما يؤدي إلى ضلال الرأي وفساد الحكم، وإن الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض حقيقي ومرض مصطنع. لنسلم بأن هذا صحيح. ولكنني أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال: ما هي الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع؟ لو كان قد صمّم على ارتكاب الجريمة، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت إليه انتباه جميع من في المنزل مسبقاً بنوبة صرع يفتعلها؟ لاحظوا، يا سادتي المحلفين، أنه كان في منزل فيودور بافلوفتش، ليلةَ حدوث الكارثة، خمسة أشخاص لا أكثر: الأول هو فيودور بافلوفتش نفسه. ولكن من الواضح أن فيودور بافلوفتش ليس هو القاتل، والثاني هو خادمه غريغوري، ولكن هذا الأخير أوشك أن يكون قتيلاً هو نفسه؛ وأما الثالث فهو زوجة غريغوري، الخادمة مارفا إينياتيفنا، ولكن من المضحك أن نتصور أن تكون هي التي قتلت سيدها. لم يبق هنالك إذن إلّا شخصان، هما المتهم وسمردياكوف. ولما كان المتهم يدعي أنه بريء، فلا يمكن إذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد إلّا سمردياكوف. ليس هناك حل آخر، إذ يستحيل اكتشاف شخصٍ يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين. على هذا النحو نشأ إذن ذلك الافتراض «البارع» الذي سمح بتوجيه هذا الاتهام الرهيب إلى أبله مسكين هو ذلك الشقي الذي انتحر بالأمس. وذلك لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يتهموه! ولو كانوا يملكون ولو ظلَّ شبهة، ولو شك واحد ضد أي كان، أي إنسان سادس، أنا

على ثقة أن المتهم نفسه كان خجل من اتهام سمردياكوف، واتهم هذا الرجل السادس، لأن الاشتباه في سمردياكوف سخف محض!».

«أيها السادة، دعونا من السيكولوجيا، ودعونا من الطب، ودعونا حتى من المنطق، ولنقتصر على النظر في الوقائع وحدها، ولا شيء غير الوقائع، ولنترك الوقائع تتكلم. لنفرض أن سمردياكوف قد قتل، ولنتساءل كيف قتل؟ أقتل وحده، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم. لننظر في الافتراض الأول، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده. من البديهي أنه إذا كان قد قتل، ففي سبيل أن يكسب منفعة ما، ولما كان لا يجيش في نفسه أي باعث من البواعث التي يمكن أن تدفع المتهم على القتل، كالحقد والغيرة وما إلى ذلك، فإن سمردياكوف لم يكن ليرتكب هذه الجريمة إلّا بدافع الطمع في المال طبعاً، وذلك ليستولي على تلك الثلاثة آلاف روبل التي رأى سيده يودعها في ظرف؛ حتى إذا عزم على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضي إلى شخص آخر ـ إلى شخص يعنيه الأمر كثيراً، أعني إلى المتهم ـ بجميع التفاصيل المتعلقة بالمال، وبالإشارات السرية، وبالمكان الذي خُبِىء فيه الظرف، وبالكتابة التي كتبت على الظرف، وبالطريقة التي تسمح بدخول المنزل. هل قال هذا الكلام ليفضح نفسه؟ هل قاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولي عليه ويحرمه منه؟ ربَّ من يقول إنه تكلم من شدة خوفه! عجيب! هل يقبل رجلٌ لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة، جريئة، أن يدلي ـ عن خوف! ـ بمعلومات لا يعرفها أحد في العالم سواه، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد إذا هو كتمها؟ لا، لا، إن الرجل مهما يكن شديد الخوف، ما كان له أن يبوح لأحد، بعد أن صمَّم على ارتكاب مثل هذه الجريمة، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والإشارات، ولو فعل ذلك لكان يشي بنفسه سلفاً. إن هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر، أن يكذب وأن يخترع إذا هو أُجبر على الكلام،

أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا! ولو لم يذكر شيئاً عن المال، ثم استولى على الظرف لنفسه، لما خطر ببال أحد في العالم ـ أكرر هذا ـ أن يتهمه بالقتل طمعاً في المال، لأن أحداً غيره في العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ، ولا رأى هذا المبلغ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً في المنزل. وإذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه إلى ارتكاب الجريمة. ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أي سبب يمكن أن يدفعه إلى الجريمة، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن سيده يحبه ويكرِّمه، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله، ولكان آخر من يمكن أن تُوجَّه نحوه الشكوك، ولفكَّر الناس عندئذ في اتهام ذلك الذي تجيش في نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها في كل مكان، ولم يكتمها عن أحد، بل كان يصارح بها أول قادم، أي لا يتهم الناس عندئذ ابنَ المجني عليه، أعني ديمتري فيودوروفتش. سمردياكوف ربما سيتقبل السرقة لكن المتهم كان سيكون ابنه، القاتل سمردياكوف كان سيعتبر ذلك مفيداً له. والحال هذه، أنه مع هذا الابن، مع ديمتري فيودوروفتش الذي نظم الجريمة، يتحدث مسبقاً عن المال والكيس والإشارات ـ يا لهذا المنطق، يا لهذا الوضوح.

«ويجيء يوم ارتكاب الجريمة التي أرادها سمردياكوف، ويتدحرج إلى أرض الدهليز «متظاهراً» بنوبة صرع. ولكن ما هو هدفه من ذلك؟ هل يكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم غريغوري، الذي كان قد قرر أن يعالج مرضه، عن هذه المداواة وأن يرجئها إلى وقت آخر، ليتولى بنفسه حراسة المنزل، إذ يلاحظ أن المنزل أصبح بدون حراسة؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر صاحب المنزل، حين يلاحظ أنه لم يبقَ هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذي يخاف أن يدهمه ولا يكتم خوفه هذا، أن يبادر صاحب المنزل إلى مزيد من الحذر والتيقظ؟ أكثر من ذلك: هل كان سمردياكوف يستهدف، من التظاهر

بنوبة الصرع، أن يُنقل من المطبخ الذي كان ينام فيه عادةً والذي كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد، هل كان يستهدف أن يُنقل إلى الطرف الآخر من المبنى الملحق، إلى غرفة غريغوري ليُمدَّد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوزوامرأته إلّا ثلاث خطوات، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافته نوبة من الصرع، بأمرٍ من صاحب المنزل ومن مارفا إينياتيفنا الرحيمة، حتى إذا وُضع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل، ليحسن تمثيل دوره، فإذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك ما حدث فعلاً، بشهادة غريغوري وزوجته)؟ هل يكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله، قد تخيل هذه التمثيلية كلها، ليتسنى له أن ينهض فيمضي يقتل سيده؟

«قد يقال، ربما، تظاهر سمردياكوف بنوبة الصرع كي يبعد عن نفسه الشبهات كونه مريضاً، ولأنه أطلع المتهم على المعلومات المتعلقة بالظرف والإشارات السرية، ليغري المتهم بأن يجيء فيتولى القتل بنفسه، حتى إذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان المنزل، نهض سمردياكوف، نعم، نهض ومضى يفعل ماذا؟ مضى ليقتل سيده مرةً أخرى، وليسرق مرة أخرى المال الذي سبقه إليه المتهم وذهب به. أتضحكون أيها السادة؟ إني لأعترف لكم بأنني أشعر أنا نفسي بالخجل حين أراني مضطراً إلى النظر في افتراضات من هذا النوع. ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذي يقدمه لنا المتهم. فتصوروا! إن المتهم يدعي أن سمردياكوف قد قام بقتل سيده وبسلبه ماله، في الوقت الذي كان هو قد غادر المنزل بعد أن قتل غريغوري. لن أطيل الكلام على هذا التساؤل: كيف تسنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شيء، وأن يحسب حساباً دقيقاً أن الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيأتي لا لغرضٍ

آخر غير أن يلقي من خلال النافذة نظرة احترام، وأنه على علمه بالإشارات السرّية سينصرف في الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف؟ أيها السادة، إني أسألكم جاداً: في أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة؟ دلُّوني على تلك اللحظة، لأنه من دون ذلك لا يمكن اتهامه.

لكن لعل نوبة الصرع كانت صحيحة. ولعل المريض صحا من غيبوبته فجأة، فسمع صراخاً فخرج. وماذا بعد ذلك؟ نظر حواليه فعزم أمره فجأة وقال: «لديّ فكرة! سأمضي وأقتل سيدي!». ولكن أنَّى لسمردياكوف أن يكون قد عرف ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغمياً عليه؟ إنني أتوقف عن الاسترسال في مثل هذا الكلام، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً.

«وقد يقول أشخاص ممن أوتوا فكراً مرهفاً: ربما كان هذا كله صحيحاً، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة، فارتكباها معاً واقتسما المال؟

«نعم، في الواقع اشتباه خطير فهو يستند إلى قرائن قوية جداً، كما سترون: الأول يقتل ويتحمل كل العناء، بينما الثاني يبقى نائماً متظاهراً بنوبة صرع، لا لشيء إلّا ليثير الشكوك، والقلق في نفس سيده في نفس غريغوري! إنه مثير للفضول أن تعرف الأسباب التي ارتكز الشريكان لاختراع خطة حمقاء إلى هذا الحد! لكن، ربما لم تكن مشاركة سمردياكوف في الجريمة فعَّالة، بل سلبية معذبة قبلها على مضض، فلعل سمردياكوف ارتضى أن لا يعيق ارتكاب الجريمة، وذلك من شدة الخوف من أن يتهم بأنه سهَّل مقتل سيده لأنه لم ينبِّه ولم يسارع إلى الدفاع عنه، فتوسَّل إلى ديمتري فيودوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يبقى نائماً بسبب نوبة صرع قائلاً له: «أنت، اقتل من شاء، فذلك أمر لا شأن لي به». ولكن لو صحَّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبِّه المنزل كله حتماً، ولما قبل ديمتري كارامازوف الذي لا بد أن

يتنبأ بذلك، تدبيراً من هذا النوع. ومع ذلك فلنسلّم بأن ديمتري قد ارتضى هذا التدبير. سوف ينتج من ذلك في هذه الحالة أن ديمتري كارامازوف يكون هو القاتل، هو المحرِّض والفاعل في آن، أما سمردياكوف فلا يكون إلّا شريكاً مستتراً، بل إنه يكون أقلَّ من شريك، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم إرادته من شدة الخوف؛ ولن يفوت المحكمةَ عندئذ أن تحدد درجة مسؤولية كل من الرجلين. ولكن ما الذي رأيناه بالفعل؟ رأينا المتهم، ما إن قُبض عليه، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف، واتهمه بأنه «وحده» الفاعل. إنه لم يش به شريكاً له في الجرم، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل. قال صائحاً: «هو القاتل، هو وحده القاتل، هو الذي قتل وسرق!. الجريمة من صنع يديه وحده!». فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن. وانظروا أيضاً إلى الخطر الذي يعرِّض ديمتري كارامازوف نفسه له حين يتصرف على هذا النحو: إنه هو القاتل الرئيسي، بينما الآخر ليس له من المشاركة في الأمر إلّا دور بسيط، فما هو إلّا شاهد لم يحرك ساكناً، وبقي نائماً على حصيرته وراء الحاجز؛ فحين يلقي ديمتري كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل، يعرِّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر إلى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور، ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها. كان سمردياكوف سيروي عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً، ولكنه لم يتولَّ هو تنفيذ القتل، بل اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل. ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة في الجريمة ضئيل، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه، إذا هو عوقب، أخفَّ كثيراً من العقاب الذي ستنزله المحكمة في الفاعل الأساسي الذي يحاول أن يلقي الجرم كله على عاتقه. فلو كان

الأمر كذلك، إذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع إلى الاعتراف بكل شيء. ولكننا لم نرَ شيئاً من هذا. لم يتفوّه سمردياكوف بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم، رغم أن القاتل قد اتهمه بشكل صريح، وكان يسمِّيه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذي ارتكب الجريمة. وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه «هو» الذي زوَّد المتهم بالمعلومات التي تتعلق بالمبلغ، وبالإشارات السرية، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً. فهل كان يمكن أن يكشف لقاضي التحقيق عن هذه الحقائق كلها، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه، لو كان شريكه في الجرم فعلاً؟ لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها. ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً. ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف إلّا إنسان بريء، لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك في الجريمة. وها هو يشنق هذا الرجل نفسه وهو في حالة انهيار مرضي مرده إلى داء الصرع وإلى المصيبة التي ألمت بذويه؛ وقبل موته كتب رسالة بأسلوبه الخاص: «أنهيت حياتي بإرادتي ورغبتي، كي لا تتهموا أحداً». فلماذا لم يضف إلى ذلك قوله: «أنا القاتل، وليس كارامازوف»؟ لكنه لم يضف هذا الكلام، لأن عنده من الضمير ما يكفي لدفعه إلى قتل نفسه، لكن ما كان عنده ما يكفي لتبرئة بريء؟

«على ذلك: لقد استلمت المحكمة منذ قليل مبلغاً من المال هو ثلاثة آلاف روبل (المبلغ الشهير ذاته الذي كان مودَعاً في الظرف الموجود الآن على منضدة وثائق الاتهام، وقد استلمته أمس من سمردياكوف). مع ذلك، كان المحلفون يتذكرون ما وقع هنا منذ قليل. لن أذكر تفاصيل هذا المشهد، وسأكتفي بأن أذكر ملاحظتين أو ثلاثاً في هذا الصدد، الأتفه بينها، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تُهمل؛ فأقول أولاً: إن المفروض

هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردَّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير. (فلولا عذاب الضمير لما ردَّ المال). وبالأمس إذن يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لإيڤان كارامازوف لأول مرة، كما ذكر لنا إيڤان كارامازوف ذلك في شهادته؛ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته، فإنني أعود فأسأل: لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر في حقه غداً حكم فظيع؟ إن المال وحده ليس دليلاً على شيء. مثلاً إنني علمت منذ أسبوع، بطريق الصدفة وحدها، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران في هذه القاعة أن إيڤان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة في المئة، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل. وإذا كنت أذكر هذا فإنني لا أذكره إلّا لأبيِّن أن أيّ إنسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة، وأن إبراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذي كان مودعاً في درج معين أو في ظرف معيَّن. ثم إنني أتساءل أخيراً: لماذا لم يبادر إيڤان كارامازوف، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقي على اعترافات بمثل هذه الخطورة، أقول لماذا لم يبادر إلى القيام بعملٍ ما على الفور، لماذا لم يبادر إلى إبلاغ القضاء في الحال؟ لماذا أرجأ تصريحه إلى الغد؟ لماذا؟ أعتقد أنني أعرف: إنه وهو مريض منذ ثمانية أيام، ويعاني هلوسات ويرى أشباحاً وتهجس في نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل، أنه وهو في عشية إحدى نوبات حمّى حارة رأيتم كيف صرعته منذ قليل، أنه وهو في تلك الحال قد علم بأن سمردياكوف مات، فإذا هو يفكر التفكير التالي: «لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه. أما أخي فسوف أنقذه. وعندي مال: سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته».

قد تقولون لي إن هذا مجاف للشرف، ومجاف للشرف أيضاً الكذب عن رجل ميت وحتى لإنقاذ أخيه. ولكن لعله كذب على غير شعور منه متصوِّراً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو، لأن عقله قد اختل نهائياً حين علم بنبأ موت ذلك الخادم. لقد شهدتم المشهد الذي جرى هنا، ورأيتم الحالة التي كان عليها هذا الشاهد. كان واقفاً وكان يتكلم، ولكن أين كان عقله؟ وبعد الأقوال التي أوردها هذا الرجل المريض، قُدِّمت إلينا وثيقة هي رسالة كتبها المريض قبل وقوع الجريمة بيومين، وأرسلها إلى الآنسة فرخوفتزيفا، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة. فهل من الضروري بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن في التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذي جاء وصفه في هذه الرسالة تماماً، فلا يمكن أن يكون القاتل إلّا ذلك الذي كتب الرسالة. نعم، يا سادتي القضاة، «ذلك مكتوب!». لم يترك المتهم منفذاً لأبيه يلوذ منه بالفرار في احترام، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته في المنزل مع أبيه. والواقع أنه دخل المنزل، ونفذ خطته حتى النهاية. من الجائز أن يكون قد قتل وهو في حالة اهتياج شديد وغضب سيطرت عليه منذ رأى غريمه الذي يكرهه. يجوز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحة بالهاون النحاسي، ثم أدرك بعد ذلك، حين فتش جميع زوايا الغرفة، أن تلك المرأة غير موجودة هناك. ولكنه لم ينس، بعد أن نفذ جريمة القتل، أن يدس يده تحت الوسادة، فيأخذ الظرف الذي يحتوي على المال، ذلك الظرف الممزق الذي هو الآن على منضدة وثائق الإثبات. وأنا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم إلى أمر هو في نظري من الأمور الهامة جداً. لو كان القاتل مجرماً ذا خبرة، لو كان قاتلاً يهدف إلى سرقة مال، هل كان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة، قرب الجثة، حيث عُثر عليه فيما بعد؟

إذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بهدف السرقة، أفما كان يكتفي سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفتحه، لأنه متأكد من أن المال مودع فيه، فقد رأى سيده يضع المال في الظرف ويغلق الظرف على المال؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل لأخذ الظرف قائلاً لنفسه: متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة. إنني أسألكم يا سادتي المحلَّفين: هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذي تكشف عنه وقائع القضية؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة؟ لا، إن هذا التصرف لا يمكن أن يكون إلّا تصرف قاتل خارج عن طوره، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً، قاتل لم يجئ من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك، قاتل لا يتصرف حتى في تلك اللحظة، حين دس يده في السرير ليأخذ المال، تصرفَ سارق يسطو على غنيمة، وإما يتصرف تصرفَ رجل يسترد مالاً كان قد سُلب منه؛ وتلك هي في الواقع أفكار ديمتري كارامازوف في هذا الشأن، التي كادت تتحول في ذهنه إلى هوس يحاصره. لذلك فإنه حين أمسك الظرف الذي لم يسبق أن رآه قبل ذلك، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً، ثم وضع المال في جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير في أنه يخلّف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض.

ذلك كله من فعل كارامازوف، لا من فعل سمردياكوف، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر! ويهرب إيڤان كارامازوف، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذي لحق به فأمسكه، وكان سيقبض عليه، فإذا بالعجوز يتهاوى بضربة من المدق؛ وعندئذ يقفز المتهم من على السياج، ويميل على العجوز. هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف؟ ذلك ما يدعيه، تخيلوا!... إنه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً، ليرى هل في

وسعه أن يسعفه! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالشفقة والحنان فعلاً؟ لا، وإنما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذي عرف جريمته ما يزال حياً؟ إن كل باعث آخر، وكل عاطفة أخرى، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما في مثل تلك اللحظة. لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب غريغوري، وأنه مسح رأسه بمنديله، فلما تأكد أن الخادم قد مات، انصرف كمجنون، ملطَّخاً بالدماء، ليتوجّه مرة أخرى إلى منزل حبيبته. كيف لم يخطر بباله في تلك الدقيقة أنه ملطَّخ بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه فيه؟ إن المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه إلى الدم الذي كان ملطخاً به. بإمكاننا أن نصدق كلامه في هذه النقطة. ذلك يمكن قبوله، وهو ممكن جداً، وهذا يحصل مع المجرمين في مثل تلك اللحظات. لأنهم يُجرون حسابات جهنمية من جهة، ويفتقرون إلى التفكير من جهة أخرى. ثم إن سؤالاً واحداً كان يشغل باله في تلك اللحظة، فهو لا يفكر إلّا في ذلك السؤال: أين «هي»؟ كان بحاجة إلى أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون، لذلك أسرع إلى منزلها، فعلم هنالك بنبأ غير متوقَّع وطارئ، سافرت إلى موكرويه، مع «صديقها القديم» الذي لا تتناقش مكانته عندها.

# IX

## سيكولوجية سريعة
## الترويكا تعدو. خاتمة مرافعة وكيل النيابة

حين وصل إلى هذه اللحظة من مرافعته، توقف هيبوليت كيريلوفتش الذي اختار طريقة العرض التاريخي الدقيق الذي يؤْثره بهذا القدر جميع الخطباء العصبيين الذين يستكشفون أنفسهم أطراً ذات حدود دقيقة ليضبطوا اندفاعهم العارم، توقف، إذن، بشكل خاص عند «الأول» وعند «غير القابل للنقاش» وساق في هذا الموضوع سلسلة أفكار شائقة جداً في نوعها. كارامازوف الذي يشعر بغيرة من الجميع حتى الجنون، بدا فجأة كأنه سقط واختفى أمام هذا الحبيب «القديم الذي لا يناقش»؛ وما يثير الاستغراب أكثر هو أنه لم يفكر قبل الآن في هذا الخطر الجديد الذي كان يهدده والذي انفجر لتوه في شخص هذا الخصم غير المتوقع. لكنه كان يتصور هذا الخطر بعيداً، وكارامازوف لا يعيش إلّا في اللحظة الحاضرة. دون شك، كان ينظر إلى ذلك كأنه ضرب من الخيال. لكنه يدرك، بلحظة، بقلبه المريض، أنه ربما لهذا السبب تخفي هذه المرأة عنه هذا المنافس الجديد. ولهذا خانته، وإن هذا المنافس الذي تعتبر رجوعه إلهاماً ربانياً هو كل شيء بالنسبة إليها وليس نزوة ولا خيالاً وهو يمثّل

في الواقع كل آمال حياتها. فلما أدرك هذه الحقيقة استسلم. «ليس في وسعي، يا سادتي المحلَّفين، أن أغفل هذه السمة غير المتوقعة في نفس المتهم الذي كان عاجزاً عن القيام بإعلانه. لقد استولت على نفسه حاجةٌ قوية إلى الحقيقة، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقِّها في أن تحب كما تشاء حرةً طليقة، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد لطخ يديه بدم أبيه من أجلها. ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيَّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض: «ما أنا بالنسبة إليها بعد اليوم، ما الذي أستطيع أن أقدّمه الآن لهذه المخلوقة التي أحبها أكثر من أيّ شيء في العالم؟ ما أنا في نظرها بالقياس إلى الصديق «القديم» الذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل إليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة في حياة شريفة تبعثها من جديد. نعم، ما الذي يستطيع أن يقدمه إليها الآن، ماذا يقترح عليها؟»».

لقد أدرك كارامازوف ذلك كله، أدرك أن جريمته قد سدَّت أمامه كل سبل الحياة، ولم يعد إلّا قاتلاً سينزل فيه العقاب، وليس رجلاً يستطيع أن يعيش. سحقته هذه الفكرة ودمَّرته. وفي تلك اللحظة تصور مشروعاً جنونياً لا بد أن يكون بالنسبة إلى طبع كطبعه المَخرج الوحيد والحتمي من وضعه المخيف. ذلك المخرج هو الانتحار. فأسرع إلى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه؛ وفيما هو في الشارع، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها لطَّخ يديه بدم أبيه منذ قليل! ذلك أنه أصبح الآن في حاجة إلى المال أكثر من أي وقت مضى: فإن كارامازوف سيموت، إن كارامازوف سينتحر، وينبغي أن يتذكر الناس هذا المشهد! ليس عبثاً أننا شعراء، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها.. «يجب أن أراها، يجب أن أراها أولاً وبعد ذلك، سأقصف وألهو، سأحتفل احتفالاً لا

مثيل له من قبل، احتفالاً يظل الناس يتحدثون عنه زمناً طويلاً بعدي. وفي وسط الصرخات الوحشية، والأغاني الغجرية، والرقصات المحمومة، سأرفع كأسي، فأشرب نخب السعادة الجديدة التي ستنعم بها المرأة المعبودة. وبعد ذلك فوراً، أهشم دماغي فأسقط على قدميها مكفِّراً عن ذنوبي! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف، وسترى كم كنت أحبها، وسترثي عندئذ لحال ميتيا!» هكذا كان المتهم يحدث نفسه. إن في هذا المشروع الذي قرّر المتهم تنفيذه غيرَ قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية، وأن فيه كثيراً من ذلك الاندفاع القوي والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف، وأن فيه شيئاً آخر، شيئاً آخر يا سادتي القضاة، شيئاً كان يصرخ في أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه، ألا وهو ضميره، يا سادتي القضاة، ضميره الذي أدانه وحكم عليه، وأصبح يعذبه ويرهقه! ولكن المسدس سيضع حداً لكل شيء، فهو الحل الوحيد، ولا حلَّ سواه. أما عما سيحدث بعد ذلك، فإنني لست أدري هل تساءل كارامازوف في ذلك الأوان عمَّا سيصير إليه في العالم الآخر. لست أدري هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر في حياته الآخرة كما فعل هاملت. لا يا سادتي القضاة، نحن أناس ليس عندنا أمثال هاملت؛ إن بلادنا ليس فيها حتى الآن إلّا أمثال كارامازوف!».

وهنا عرض هيبوليت كيريلوفتش لوحة أكثر تفصيلاً لتحضيرات ميتيا، من زيارته للموظف برخوتين، مروراً بمتجر البقالة، وصولاً إلى مناقشاته مع أصحاب العربات؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته وإشاراته، التي أكدها الشهود. فكان للوحة التي رسمها تأثير كبير على قناعة الحضور. وكان تكامل الوقائع التي سردها هو الذي خطف الانتباه خاصةً، وأصبح واضحاً للجميع ذنب هذا الرجل المجنون، وطائش العقل الذي لم يعد ينتبه لشيء، نفسه هو القاتل فعلاً.

«لم يعد المتهم في حاجة لمن يعتني به، تابع هيبوليت كيريلوفتش. فقد أوشك مرتين أو ثلاث مرات أن يعترف بكل شيء؛ فكان يُلمع إلى جريمته بدون انقطاع، ولكنه لم يتحدث عنها صراحة (هنا ذكر وكيل النيابة بشهادات الشهود)؛ حتى لقد صرخ سائلاً الحوذي وهو في طريقه إلى موكرويه: «هل تعرف أنك تُقلُّ في عربتك قاتلاً؟». ومع ذلك كان لا يذهب في اعترافاته إلى آخرها. المهم أن يصل أولاً إلى موكرويه وأن يكمل القصيدة. ولكن إليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك: لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى، منذ وصوله إلى تلك القرية، أولاً ثم أدرك بعد ذلك أن منافسه الذي «لا يُجحد»، أو الذي كان يظن أنه «لا يُجحد»، ليس بالمنافس الذي «لا يُجحد» حقاً، وأن الحبيبة لا تنتظر منه، هو ميتيا، أن يهنئها بالسعادة الجديدة. على أنكم تعرفون الوقائع يا سادتي المحلَّفين، تعرفونها من نتائج التحقيق. لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً. وعندئذ يا سادتي، بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات قلبه، مرحلة من أفظع المراحل التي عرفها والتي سيعرفها أيضاً. إلّا أننا نستطيع أن نؤكد أن الطبيعة تُنزل فيمن يسيء إليها عقاباً أشد هولاً من العقاب الذي تُنزله فيه عدالتنا على الأرض: ذلك هو عذاب الضمير! بل يمكننا أن نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذي يمكن أن توقعه العدالة الإنسانية يخفف العقاب الذي توقعه الطبيعة، وهو في هذه الأحوال ضروري لنفس المجرم، لأنه السبيل الوحيد إلى خلاص روحه من اليأس. ليس في وسعنا أن نتخيل أنواع الهول وضروب العذاب التي لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها حين عرف أن هذه المرأة تحبه، وأنها تعدل في سبيله عن صديقها «القديم الذي لا يُجحد»، وأنها تدعوه هو إلى أن يبدأ معها حياة جديدة، وأنها تَعِده هو، هو ميتيا، بالسعادة؛ وذلك في اللحظة التي كان فيها كل شيء في

نظره قد انتهى، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأيّ أمل، وأن يتشبث بأي رجاء.
أحب في هذه المناسبة أن أثبت واقعةً أعتقد أنها هامة جداً لفهم الوضع الذي كان عليه المتهم في تلك اللحظات: إن تلك المرأة التي كان يحبها ويشتهيها شهوة عارمة، كانت قد بقيت إلى آخر لحظة، إلى حين القبض عليه، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها. ربَّ سائل: لماذا لم ينتحر إذن، لماذا غيَّر رأيه حتى لقد نسي مسدسه؟ الجواب عن هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجىء في إرضاء هذا الهوى لم يلبثا أن منعاه من تنفيذ ما عقد النية عليه. إنه وهو في سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التي كانت تشاركه في لهوه وقصفه، والتي كانت تبدو له في تلك اللحظات أجمل وأروع وأحق بالحب والعبادة منها في أي وقت مضى، فهو لا يحوِّل عنها نظره، وهو لا ينفك يزداد إعجاباً بها. حتى إن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد إلى الحب قد خنقا في نفسه، أول الأمر، لا الخوف من الاعتقال فحسب، بل عذاب الضمير أيضاً. ولكنهما لم يخنقاهما إلّا لحظات قصيرة أيها السادة، لحظات لا أكثر! إنني أتصوّر حالة المتهم النفسية وقد استبدت به عناصر ثلاثة: أولها أبخرة الخمرة التي صعدت إلى رأسه وضوضاء الرقصات والأغاني التي تدوّي في أذنيه وهذه المرأة التي تخضَّب وجهها بالحمرة من أثر الشراب وبدأت تغني وترقص سكرى هي أيضاً، وكانت تضحك أمامه؛ وثانيها أملٌ في أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة، أو أنها ليست قريبة على الأقل، وأنها لن يأتي موعدها قبل الغداة، وأنه لن يُقبض عليه قبل طلوع الفجر، وأن أمامه ساعتين من الوقت. إن في وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة. إنني أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذي يقاد إلى الميدان الذي سيُشنق فيه، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير بينما

الحصان يسير بخطًى بطيئة أمام ألوف المشاهدين: «ما يزال هناك شارع، شارع طويل سأجتازه»، ثم تنعطف العربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذي نُصبت فيه المشنقة الرهيبة إلّا في نهايته! يُخيَّل إليَّ أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر، في بداية هذه الرحلة، أنه ما تزال أمامه حياة لا نهاية لها. ولكن المنازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر، والعربة تتقدم بغير شفقة، والرجل يقول لنفسه: «ليس هذا بشيء، ما يزال المنعطف بعيداً، ويستمر ينظر رابطَ الجأش، إلى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث، والذين تحدّق أنظارهم إليه. إنه يتصور عندئذ أنه شبيه بجميع هؤلاء الخلق، وأنه ما يزال ينتمي إلى عالم الأحياء. وها هي العربة تنعطف إلى الشارع الآخر. أوه! ليس هذا بشيء، فما يزال هناك الشارع كله. وتخطر المنازل واحداً بعد آخر، ولكنه يظل يردد: «ما يزال هناك منازل كثيرة»، ويستمر على ذلك حتى النهاية، حتى لحظة الوصول إلى الميدان المشؤوم. تلك هي في رأيي الحالة النفسية التي كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات. كان يقول لنفسه: «لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة، وبإمكاني أن أتوصّل إلى تعليل ما. أوه! سوف أهتدي إلى تعليل ما. سوف أهتدي في أثناء هذا الوقت إلى خطة دفاع، إلى وسيلة أُبعد بها الخطر عن نفسي. أما الآن، أما الآن، الآن فما أجملها!». صحيح أنه كان مضطرباً خائفاً، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذي جاء به، وإخفائه في مكان ما ـ ذلك أنني لا أستطيع أن أفسّر بغير هذا كيف أمكن أن يتبخّر نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من تحت وسادة أبيه. كان قد جاء قبل ذلك إلى موكرويه، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبي الكبير القديم، يعرف جميع أركانه، طاف في أروقته، وتجول في غرفه. إنني أفترض

أنه في ذلك المنزل خبأ نصف المال قبل أن يُقبض عليه بلحظات، دسَّه في شق أو تحت وتد، في زاوية معتمة، أو بين القرميد، هل أدري؟ فإذا سألتموني ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ وإخفائه، قلت إن الهدف واضح. فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة إلى أخرى، وهو لمَّا يفكر بعد في وسائل حماية نفسه منها، وليس في وقته متسع للتفكير في ذلك، ما دام رأسه يضج، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق كان يدفعه نحو الحبيبة!. ولكن المرء يحتاج إلى المال في جميع الظروف. ومن ملك شيئاً من مال، فقد ظل في هذا العالم شيئاً مذكوراً. رب قائل إن مثل هذا الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك. ولكنني أسألكم: ألم يقل لنا المتهم نفسه إنه منذ شهر، في ساعة مضطربة أيضاً من حياته، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل، فإن هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد راودته وأنه كان قد درسها؛ حتى ليمكن أن نذهب إلى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه وضع نصف المبلغ في كيس (كيسٍ لم يوجد في يوم من الأيام)، إنما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه، أعني لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ في موكرويه، قبل ساعتين، وخبأه من باب الاحتياط إلى الفجر، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه، خاضعاً في ذلك لوحي مفاجئ... تذكّروا الهوَّتين، تذكروا الهوَّتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء؛ ربما يكون المال ما يزال موجوداً في هذه اللحظة التي أتحدث فيها، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أُخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم. مهما يكن من أمر، فعندما اعتقل المتهم كان قربَ هذه المرأة، جاثياً على ركبتيه أمامها، وكانت هي مستلقية على السرير، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها، وقد بلغ

به النسيان في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاؤوا للقبض عليه. لم يكن قد هيأ بعدُ شيئاً يجيب به عن أسئلتهم. لقد دهموه فجأة.

«وها هو يقف أمام قضاته الذين سيقررون مصيره. سادتي المحلَّفين، إننا، أثناء ممارسة وظيفتنا، نمر بلحظات يعترينا فيها، فجأة، خوف أمام شخص وخوف عليه؛ وهي اللحظات التي تستيقظ فيه فجأة كل غرائز الدفاع الذاتي، فينظر إليك، وأنت تحاول إنقاذه نظرة ثاقبة وأليمة ومتسائلة تسيطر عليك وتتفحصك أنت وجهك وأفكارك، متسائلاً ما هي الجهة التي سنأتيه منها؛ وسرعان ما تقوم في ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط، ومع ذلك يخاف أن يتكلم، فتفلت منه كلمة متسرعة وعجولة. إن الإذلال والشدائد والرغبة البهيمية في الافلات من العقاب، كلها عوامل تولد الألم، وتثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضي التحقيق. شهدنا هذا المنظر حين تم القبض على كارامازوف. بدا في أول الأمر مصعوقاً، خائر القوى منهكاً، فأفلتت من لسانه كلمات تعرّضه للخطر. قال: «سفحت دماً! أستحق هذا المصير!» ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه، فماذا يقول، ماذا يجيب؟ إنه لا يعرف لأنه لم يهيىء شيئاً، فلجأ في أول الأمر إلى الانكار: «أنا لم أقتل أبي!». كان هذا المتراس الوحيد الذي أقامه ارتجالاً ليحتمي به، وهناك متاريس أخرى. قال لنفسه: «سأجد تعليلاً، سأتخيل شيئاً ما!». وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التي لم يكن فيها شيء من التروي، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعتبر نفسه مسؤولاً إلّا عن موت الخادم غريغوري. قال: «صحيح أنني سفحت دمه، ولكن من الذي قتل أبي، من الذي قتله مادمت لست أنا القاتل؟» هل سمعتم: إنه يلقي علينا السؤال، الذي جئنا نطرحه عليه! لاحظوا هذه الطريقة التي يعمد إليها في استباق الأمور: «ما دمت

لست أنا القاتل»، انظروا إلى هذا المكر وإلى هذه السذاجة، التي تدل على نفاد الصبر. لست أنا القاتل، وأحذركم من الوقوف عند هذه الفكرة. ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (إنه يتعجل، يتعجل تعجلاً رهيباً): «كنت أريد أن أقتله أيها السادة، كان في نيتي ذلك؛ ولكن لست أنا الذي قتلته، لست أنا المسؤول عن مقتله!». هو يسلِّم لنا بأنه كان ينوي أن يقتله، فكأنه يقول لنا: انظروا كم أنا صادق، فعليكم أن تصدِّقوني متى أكَّدت لكم أنني لم أقتل. إن المجرمين يبرهنون في مثل هذه اللحظات على خفة وطيش وسذاجة لا يتصورها العقل. وفي تلك اللحظة نفسها سُئل، كأنما بمصادفة، وكأن الأمر عادي طبيعي إلى أبعد الحدود: «ألا يجوز أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟». فاستخدم طريقة هي بعينها الطريقة التي تنبأنا بها: غضب حين لاحظ أننا كشفنا ما يخبىء في نفسه بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لإعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لإلصاق التهمة بسمردياكوف؛ فبادر يندفع إلى الطرف الأقصى الآخر، خاضعاً في ذلك لقوانين الطبيعة، وأخذ يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل. ولكن لا تصدِّقوه، فما كان هذا إلّا حيلة: إنه لم يعدل إطلاقاً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه. بالعكس: سوف يقدِّم سمردياكوف متى آن الأوان، وهل يوجد إلّا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمِّله الجريمة؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد، أما الآن فقد ضاعت الفرصة. قد يخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام. سوف ينتظر الفرصة الملائمة ليصيح قائلاً: «انظروا! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر منكم؟ ولكنني اقتنعت الآن بأنه هو الذي قتل، وأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون مرتكب هذه الجريمة!». أما في تلك اللحظة فقد اصطنع

أمامنا موقف الانكار القاطع والنفي، متظاهراً بكثير من الحنق. ومع ذلك فإن نفاد الصبر وشدة الغضب قد أوحيا إليه بتفسيرٍ لسلوكه هو بين جميع التفسيرات الممكنة أقلُّها براعة وأبعدها عن المعقول، فأخذ يقص علينا كيف أنه اقتصر ـ في زعمه ـ على أن نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام. يجب ألّا ننسى أن المتهم لم يكن على علم في تلك اللحظة بخطورة الأقوال التي وردت في شهادة غريغوري بعد أن صحا هذا الأخير من غيبوبته. وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة، فأغضبه هذا الاجراء، ولكنه شجعه في الوقت نفسه، فإننا لم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً، ولم نجد إلّا ألفاً وخمسمئة روبل. وواضح أنه في أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس. كان هو بالذات، بدون شك، يحس بأن هذا الاختراع غير معقول، ولا شك في أنه كان يُعمل فكره بجهدٍ لكي يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً، دون أن يدري ما يجب عليه أن يتصوره حتى يخترع رواية يقتنع بها العقل. ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين في مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يتركوا له فسحة من الوقت لتحضير إجابته، وأن يقودوه بذلك إلى الكشف عمَّا يضمره من حساب مع كل ما يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة، ومع ما يحتويه من تناقضات. ولا يمكن إكراه المجرم على أن يفضح نفسه هكذا إلّا إذا أُطلع فجأة، بما يشبه الصدفة العابرة، على واقعة لها دلالة بليغة، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع أن يتهيّأ لها. وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة. كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة. ألا وهي شهادة الخادم غريغوري الذي صرَّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذي هرب منه القاتل مفتوحاً. نسي المتهم تماماً أن يفكر في ذلك الباب، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون

غريغوري قد رآه. فلما فاجأناه بهذه الواقعة، كان لها فيه أثر فظيع، فها هو يقفز ويصرخ قائلاً لنا: «سمردياكوف هو الذي قتل! إنه سمردياكوف!». هكذا كشف المتهم عن فكرته السرية، وفضح خطة دفاعه الأساسية، ولكنه أسلمنا ذلك في صورة هي أبعد الصور عن المعقول، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل إلّا بعد أن قتل المتهمُ غريغوري وولّى هارباً. فلما أخبرناه أن غريغوري رأى الباب مفتوحاً قبل أن يسقط على الأرض وأنه حين خرج من غرفته سمع أنين سمردياكوف، صُعق فعلاً. إن زميلي المحترم والمرح نيكولا بارفينوفتش روى لي بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم. وفي تلك اللحظة سارع المتهم، إصلاحاً للموقف، فأفضى إلينا بقصة الكيس العجيبة تلك: «طيب... إليكم الآن هذه الرواية!». السادة المحلفين، سبق أن ذكرت لكم رأيي في هذه القصة، لماذا كنت أعتبر هذا الاختراع المخيط عليه كيس منذ حوالى شهر، ليس سخيفاً فحسب وإنما الاختراع الأكثر غرابة الذي يمكن إيجاده. إن في وسعنا في هذه النقطة أن نربك قصّاصنا المرتجل الواثق بنفسه، وأن نفضح كذبه وندمِّر حجته، بأن نجابهه ببعض التفاصيل، بتفاصيل من تلك التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير إرادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة لا قيمة لها، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً. ولا يتسع وقتهم للاهتمام بهذه التفاهات، وإنما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملة ولكن ها هم يجابَهون بتلك التفاصيل الصغيرة! وعندئذ نستطيع أن نضبطهم. ألقينا على المتهم هذا السؤال: «من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير، ومن الذي خاطه لك؟» فأجابنا: «خِطْته بنفسي». فألححنا نسأله: «والقماش، من أين جئت به؟» فشعر باستياء، كأن الأمر أمر ترهات غير لائقة به. ولقد كان عندئذ

صادقاً، نعم صادقاً! فلا تعذِّبوه. إنهم جميعاً على هذه الشاكلة. هؤلاء المجرمون! قال: «انتزعت قطعة قماش من قميصي». قلنا: «عظيم. سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذي تنقصه قطعة». إنكم تعرفون يا سادتي المحلَّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن ألّا نعثر عليه في حقيبته أو في درج لو كان له وجود حقاً)، لكان ذلك واقعة محسوسة تشهد بصدق أقواله. ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله، واستأنف كلامه يقول: «لست أتذكر جيداً. أعتقد أنني لم أنتزع قطعة القماش من قميص، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذي أسكن فيه». سألناه: «أية طاقية؟» فأجاب: «طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها، هي متاع من تلك الأمتعة القديمة القطنية». قلنا: «هل ذكرياتك دقيقة؟» قال: «لا، ليست دقيقة!»، وأخذ يثور ويثور. إنني أسألكم: كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر؟ إن التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود إلى ذاكرة المرء في أتعس أوقات الحياة، في لحظة الاعدام مثلاً، فإذا بالمحكوم عليه، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك، يتذكر السطح الأحمر من منزل رآه أثناء الطريق، أو يتذكر غراباً أسود رآه جاثماً على صليب، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة إلى الأبد. ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من ذلّ وألم حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتجف خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته ملتبساً بالفعل؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أخفَّ ضجة فيسرع يختبىء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة)... لكنني أتساءل، يا سادتي المحلَّفين، لماذا أذكر لكم هذا كله، لماذا أذكر لكم جميع هذه التفاصيل، وجميع هذه الترهات! بهذا صاح هيبوليت كيريلوفتش، ثم واصل

كلامه قائلاً: إنني مضطر إلى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناده على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة. إنه خلال هذين الشهرين الماضيين، منذ تلك الليلة التي حملت إليه ذلك الشؤم كله، لم يقدّم لنا تعليلاً واحداً مرضياً، ولم يستطع أن يضيف أبسط واقعة محسوسة إلى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب. هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها، ويجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده. والحق أننا لا نتمنى إلّا أن نصدقه، والحق أننا نحب كثيراً أن نثق به وأن نركن إلى كلامه ولو على عهد الشرف وحده. فهل نحن أناس سفاحون متعطشون إلى دماء البشر؟ ألا فأعطونا واقعة واحدة، يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم، فنسرّ بذلك، ونغتبط له. ولكن لا بد لنا من عنصر ملموس، لا بد لنا من عنصر واقعي، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل إن المتهم حين ضرب صدره إنما كان يدل على الكيس المخبأ فيه، إنما كان يشير إلى هذا الكيس، وذلك في ظلمة الليل أيضاً! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع إلى الاعتراف ببراءة المتهم. ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا في هذه الساعة، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التي تدين المتهم، وليس لدينا إلّا أن نطلعكم عليها». هنا وصل هيبوليت كيريلوفتش إلى نهاية مرافعته. كان يرتجف عندئذ من الحمى، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح، دم الأب الذي قتله ابنه «بدافع حقير هو الطمع في المال»؛ وألحَّ بشدة على أن الأدلة القاطعة التي تدين المتهم متوافرة تماماً بشكل لا يترك مجالاً لشك أو تردد. وختم كلامه قائلاً: «أياً كان الكلام الذي سيقوله لكم بعدي وكيلُ المتهم، المحامي المعروف بموهبته (لم يملك هيبوليت كيريلوفتش إلّا أن

يضيف هذه الكلمات) الذي ستترجع في هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم، فلا تنسوا يا سادتي المحلفين أنكم أمام هيكل عدالتنا. تذكروا أن رسالتكم هي أن تدافعوا عن الحقيقة، وأن مهمتكم هي حماية وطننا المقدس روسيا، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية! نعم يا سادتي المحلَّفين، إنكم تمثلون الآن روسيا كلها، تمثلون روسيا التي تشخُص بأنظارها إليكم في هذه الساعة حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها، أو أن يخيب ظنها. فلا تعذبوا روسيا، لا تخيبوا رجاءها، لأن الترويكا الجامحة التي تحمل مصائرنا القومية تعدو بسرعة قصوى ربما هوت بهذه المصائر إلى الهلاك. إن العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم إلى الخيول الهائجة، منذ زمن طويل، ضارعين مبتهلين أن يوقَف اندفاعها العنيف العارم. وإذا كانت الشعوب الأخرى لاتزال تتنحى عن طريق الترويكا الطائشة، فربما ليس من باب الاحترام، كما أراده الشاعر، وإنما من قبيل الخوف فقط، لاحظوا ذلك. بسبب الخوف وربما بسبب الاشمئزاز منه، ولا يزال جيداً أن ينحوا، ولكن أن تنتصب سداً منيعاً أمام هذه الرؤية الجامحة. وهم الذين يوقفون اندفاع سلوكنا المجنون، إنقاذاً لأنفسهم هم وإنقاذاً للحضارة والثقافة. إن هذه الأصوات القلقة التي ارتفعت في أوروبا، فقد سبق ووصلت إلى مسامعنا. إن الاحتجاجات أخذت تنطلق. لا تستسلموا لاغراءاتهم، ولا تزيدوا حقدهم المتصاعد علينا بإصدار حكم يسوِّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه!...».

باختصار إن هيبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وبلاغته، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً، وجاء عملياً خطابه بالغ التأثير. فلما انتهى من مرافعته، أكرر، كاد أن يغمى عليه في الغرفة المجاورة. ولم يصفق

الجمهور، غير أن الجديين شعروا بالارتياح والرضى. وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً بطبيعة الحال، ولكنهن قد تذوقن، هنَّ أيضاً، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغته، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن، فهنَّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية، لأنهن يعوِّلن كثيراً على فيتوكوفتش، فإنه «سيتكلم أخيراً، وسينتصر لا محالة!». واتجهت جميع العيون نحو ميتيا: كان قد أصغى إلى مطالعة النيابة وهو صامت، متشنج اليدين، صارفاً الأسنان، خافض العينين. وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه، ويُصيخ بسمعه. وهذا ما حدث خصوصاً حين ذكر غروشنكا. فحين أورد وكيل النيابة رأي راكيتين فيها، ارتسمت على شفتي ميتيا ابتسامة شريرة محتقِرة، وقال بصوت مسموع: «هؤلاء أناس من أمثال برنار!». وحين روى هيبوليت كيريلتوفتش كيف استجوب وعذب المتهم في موكرويه، رفع ميتيا رأسه، وأصغي بانتباه شديد. وفي لحظة من اللحظات، أراد أن يقفز عن مكانه ليقول شيئاً ما بطبيعة الحال، لكنه عرف كيف يسيطر على نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً. وقد أثارت خاتمة المطالعة، ولا سيما الحديث عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه، مناقشات كثيرة في مجتمعنا؛ وكانوا يسخرون من هيبوليت كيريلوفتش. «إنه لم يستطع مقاومة إغراء التبجح بنفسه». رُفعت الجلسة، ولكن لمدة وجيزة، ربع ساعة أو عشرين دقيقة في أكثر تقدير. سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجُّب كثيرة. إليكم بعض ما حفظته منها:

ـ المرافعة جادة! قال أحدهم:

ـ لقد أكثر من السيكولوجيا! أجابه آخر.

ـ نعم ولكن ما قاله صحيح، هذه هي الحقيقة خالصة!

ـ نعم هو حجة في هذا الميدان.

ـ لقد استخلص العبرة.

ـ ونحن أيضاً، في بداية مطالعته، هل تتذكرون؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيودور بافلوفتش؟

ـ وفي نهاية خطابه كذلك. ولكنه كذب!

ـ ثم إنه لم يكن واضحاً.

ـ أخذ بالفصاحة وبالبلاغة.

ـ كان مخطئاً جداً.

ـ وقد كان بارعاً على كل حال. طال انتظاره ساعة، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً!

ـ ماذا سيقول المحامي.

وفي جماعة أخرى، دار الحديث التالي:

ـ أخطأ حين نال من هذا المحامي القادم من بطرسبورغ: «حتى يؤثر في عواطفكم». لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة.

ـ نعم، لقد أخطأه التوفيق هنا!

ـ أسرف في التعجل.

ـ هو رجل عصبي.

ـ نحن نضحك، نحن، أما بالنسبة إلى المتهم فليس في كلام وكيل النيابة ما يضحك.

ـ مسكين ميتيا!

ـ وددت لو أعرف ما سيقوله المحامي!

وفي جماعة ثالثة جرى هذا الحوار:

ـ من هي تلك السيدة التي تجلس في الزاوية، وتضع على عينيها نظارتين صغيرتين؟

ـ هي زوجة جنرال. إنها مطلَّقة. أنا أعرفها.

ـ آ... لهذا تضع نظارتين.

ـ هي هول مخيف.

ـ أما أنا فأرى أنها مثيرة.

ـ على مقربة منها، بعد كرسيَّين، توجد امرأة صغيرة شقراء. أؤثرها عليها.

ـ لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة في موكرويه، ألا ترون هذا الرأي؟

ـ لا أنكر أنهم كانوا بارعين. لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاغراء الذي يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى. طالما سمعناه يروي هذه القصة مراراً قبل الآن، في منازل بعض الأصدقاء!

ـ لا حيلة له في دفع هذا الإغراء. غلبه حب الظهور.

ـ هو رجل يشعر أنه مغبون! هه!...

ـ وهو إلى ذلك سريع التأذي. وقد أسرف في اصطناع أساليب البلاغة، وكانت عباراته طويلة جداً.

ـ لقد حاول أن يخيفنا، حاول أن يروِّعنا باستمرار. هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا؟ «إن عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت، أما نحن فليس عندنا بعد إلّا أمثال كارامازوف!». تلك براعة منه.

ـ أراد أن يتملق اللبراليين. إنه يخاف منهم.

ـ حتماً! إني أتساءل ما الذي سيقوله السيد فيتوكوفتش.

ـ مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا!

ـ أتعتقد ذلك؟

وفي جماعة رابعة جرى هذا الحديث:

ـ أحببت كثيراً تلك الفقرة التي تكلم فيها على الترويكا، الفقرة التي تكلم فيها على الأمم الأخرى.

ـ لقد قال الحقيقة بعينها ـ هل تتذكر؟ ـ حين أكَّد أن الشعوب الأخرى ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر!

ـ لماذا؟

ـ ظهرت بوادر ذلك منذ الآن. ففي الأسبوع الماضي قام أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي، فقدم سؤالاً إلى الوزارة عن العدميين، وسأل: أما آن الأوان لردع الهمجيين هؤلاء، كي نتمكن أن نعيش. كان هيبوليت كيريلوفتش يتكلم عنه. أنا أعرف ذلك. لقد سبق وحدثنا عن هذه الواقعة الأسبوع الماضي.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ ولم لا. يكفي مينا كرونشتات، ونوقف إمدادهم بالقمح. فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ؟

ـ وأميركا؟ عندهم الآن قمح، في أميركا!

ـ غير صحيح!

ودوّى رنين جرس رئيس المحكمة، فأسرع الجميع إلى أماكنهم. وتقدم فيتوكوفتش لإلقاء مرافعته.

# X

## مرافعة المحامي سلاح ذو حدَّين

سيطر الصمت على القاعة عندما دوَّت الكلمات الأولى التي نطق بها الخطيب الشهير. وكادت القاعة تلتهمه بعيونها. بدأ بشكل مباشر وبسيط ومقنع لكن دون أي غرور. خلا كلامه من أية محاولة لاعتماد البلاغة، وإيثار للألفاظ الرنانة التي تسهِّل التأثير في العواطف. كأنه رجل يتحدث في حلقة ضيقة من الأصدقاء لديهم القناعة نفسها. وكان صوته قوياً محبَّباً لطيفاً ينم جرْسه عن الصدق والبساطة. غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع إلى مستوى الخطابة التي تؤثر في السامعين تأثيراً قوياً حقاً، وأن «يضرب القلوب بقوة مجهولة». لعل كانت أقل سلامةً من لغة هيبوليت كيريلوفتش، لكنه لا يستعمل جملاً طويلة، وكانت حتى أكثر دقة. وهناك أمر لم يعجب السيدات فيه: لقد كان يحني ظهره دائماً، ولا سيما في بداية مرافعته، لا كما يحني المرء ظهره في التحية، وإنما كمن يندفع نحو سامعيه. وأكثر من هذا إنه كان لا يحني إلّا نصف ظهره الطويل الذي كان يبدو كأنه مزوَّد بمفصَّلة في وسطه تتيح له أن ينثني زاويةً تكاد تكون قائمة. وقد تكلم في بداية خطابه كلاماً مبعثراً، دون أن يلاحظ المستمع وجود رابط

ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض، وإنما هو ينتقل من واقعة إلى أخرى بما يشبه الصدفة، غير أنه قد أخرج من ذلك في النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط. بإمكاننا أن نقسم مرافعته قسمين: القسم الأول يشتمل على نقد ودحض للاتهام، وكان في بعض مواضعه لاذع السخرية والتهكم. وأما القسم الثاني فقد غيَّر فيه الخطيب لهجته بل وغيَّر موقفه فجأة، فإذا هو يرتقي دفعةً واحدة إلى نبرة مؤثرة تهز القلوب. وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة، فأخذت ترتعش حماسة. وقد عمد المحامي إلى مواجهة القضية مباشرة، فأعلن قبل كل شيء أنه وإن كان يمارس المحاماة عادةً في بطرسبورغ فقد اتفق له مراراً أن ذهب إلى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلّا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسُّها. وأضاف شارحاً: «وهذا ما حدث لي أيضاً في القضية التي يُنظر فيها الآن. فإنني منذ قرأت أولى المقالات التي نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهي ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم. لكن جانباً قانونياً محضاً هو الذي همني في أول الأمر. لقد رأيت عندئذ، رغم أن الملاحظات التي من هذا النوع كثيرة في ممارسة القضاء، أن الأمور التي تشهد ببراءة المتهم لم تكن في أية قضية واضحة بقوة وضوحها في هذه القضية، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة كثيرة في هذه القضية، فيما يخيّل إليَّ. وربما كان ينبغي لي أن أحتفظ بهذه الآراء إلى آخر المرافعة، حين أكون قد انتهيت من درس الوقائع، ولكنني أفضّل أن أعبِّر عما يجول في فكري منذ البداية، لأن من عيوبي أنني أمضي إلى هدفي مباشرة، غيرَ مبالٍ بما يكون لكلامي من تأثير، وغيرَ مكترث لما يجب على المحامي في مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرُّج فيما يريد أن يحمله إلى نفوس السامعين. وقد أكون في هذا متهوراً، ولكنني صادق على كل حال. إليكم الفكرة التي أريد أن أعبِّر عنها: إننا نرى، من جهة أولى، قرائن قوية ثقيلة

قاطعة تشهد بأن المتهم هو القاتل، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة تُتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأي تفنيد جدي! وقد عزَّز هذا الشعورَ في نفسي كلُّ ما قاله الناس أو نشرته الصحف عن هذه القضية، ثم ها أنذا أتلقى من أهل المتهم، دعوة إلى تولّي الدفاع عنه. سارعت في القبول، وهنا أصبح اقتناعي نهائياً. فمن أجل تهديم تلك القرائن المتراكمة واظهار غياب البرهان والطابع التخيلي لكل واقعة ذكرها الاتهام، قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم.».

هكذا بدأ المحامي مرافعته، ثم أعلن فجأة:

«سادتي المحلَّفين، أنا امرؤ جديد هنا. إن هذا المتهم الذي يتصف بطبع عنيف لم يسئ إليَّ في الماضي كما لعله أساء في هذه المدينة إلى عدد من الأشخاص إساءاتٍ تفسِّر لنا ما يحمله له الناس من شعور العداء. طبعاً إن الرأي العام ليس ثائراً عليه بدون سبب: فالمتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه. ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي، ويُدلَّل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً.

(ملاحظة: أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات قصيرة لم تلبث أن خُنقت، ولكن جميع الناس لاحظوها، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى شائقاً. إن زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة، وهي سيدة فاضلة إلى أبعد الحدود، ولكنها غريبة الطبع قليلاً، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً، ولا سيما في الأمور التي ليس لها شأن كبير فيها. على أن ميتيا لم يزرهما إلّا نادراً).

«ولكنني أستطيع أن أؤكد مع ذلك، تابع المحامي كلامه أن موكِّلي سيِّئ الحظ قد خلَّف أثراً سيئاً حتى في نفسية خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالانصاف والعدل. أنا أعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه

أن يحمل الناس على إساءة الظن به وإساءة الحكم عليه، وأن يحملهم على ألّا يكنّوا له عاطفة طيبة. إن مخالفة الشعور الأخلاقي، ومجافاة الحس الجمالي خصوصاً، أمران لا يُغتفران. لقد سمعنا في المطالعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم؛ وقد حاولت النيابة خاصةً، لكي تُفهمنا جوهر القضية، أن تطلّ بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء أو سوء الظن. لكن هناك، في مثل هذه الحالات، أموراً أكثر شؤماً مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة سيئة، أو ما قد يتخذه منه من موقف معادٍ قصداً وعمداً. ذلك ما يحدث خاصةً حين ننقاد لنوعٍ من العبث الفني، لنوعٍ من الحاجة إلى الخلق الشعري إن صح التعبير، لنوع من الرغبة في إنشاء رواية وتأليف قصة، وهذا أمر مفهوم حين تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية.

عندما كنت في بطرسبورغ أستعد للمجيء إلى هذه المدينة قد نُبِّهت ـ وما كنت أجهل ذلك على كل حال ـ إلى أنّني سأواجه في هذه القاعة خصماً وُهب إحساساً سيكولوجياً خارقاً عميقاً، اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة في هذا الميدان سمعة جيدة لدى الأوساط التي ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة. ولكن السيكولوجيا، يا سادتي، سلاح ذو حدين، مهما تكن عميقة. (هنا سُمعت في الجمهور ضحكات صغيرة). إنني على ثقة بأنكم ستغفرون لي هذا التشبيه العامي، فأنا امرؤ لا أملك ما يملكه غيري من جمال البيان والبلاغة. لنأخذ مثالاً هو الأول الذي يعرض لنا في مطالعة النيابة. إن المتهم، حين هرب في عتمة الليل عبر الحديقة، تسلق السور، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذي تشبث بساقه. وعاد يقفز إلى الحديقة بعد ذلك من جديد، فقضى قرب العجوز الذي قتله خمس دقائق

طويلة محاولاً أن يعرف إن هو قتله أم لا. فالنيابة ترفض قطعاً أن تسلِّم، بحال من الأحوال،أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكَّد أنه قد اهتمَّ بغريغوري شفقةً عليه. يقول خصمي: «لا، إن هذه العاطفة لا محل لها في مثل هذه الحالة، ولا يمكن أن تكون طبيعية، فإنما قفز المتهم إلى الحديقة مجدداً لا لسبب إلّا أن يتأكد من أن الشاهد الوحيد قد مات، فكأنه حين فعل ذلك قد وقَّع اعترافاً بجريمته، فما كان ليحضه على ذلك أيّ باعث آخر أو أية عاطفة أخرى، حين عاد إلى الحديقة». إنني أسلم بأن هذا الكلام هو من السيكولوجيا. ولكن فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة، فنرى أن النتائج التي نصل إليها عندئذ لا تقل إقناعاً عن النتائج التي وصلت إليها النيابة. إن القاتل الذي قفز إلى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات، كان قد ترك، منذ لحظات، في غرفة أبيه الذي قتله، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابة نفسها بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل. فلو أن المتهم قد سرق هذا الظرف، إذن لما خطر ببال أحد أنه كان هنالك ظرف، ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال، ولما استطاع أحد أن ينسب إلى المتهم فعل السرقة. ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة. فمن جهة أولى إذن، نرى رجلاً طاش صوابه، واعتراه الخوف فهرب تاركاً في أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترجع فجأة كل صحو ذهنه وحضور بديهته، ويبرهن على أنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء، ويمضي إلى أقصى آماد النأي عن العاطفة الإنسانية. لنسلِّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، لنسلِّم بأن كل رهافة السيكولوجيا تكمن هنا: ربَّ فرد واحد بعينه يملك في بعض الظروف بصيرة دموية كبصيرة نسر من القفقاس، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى كخلدٍ

مروَّع. ولكن إذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدَّ الوثوب مرة أخرى إلى أسفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل، لا لشيء إلّا لكي نتأكد من أن الشاهد الذي قد يشهد علينا قد مات، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه إلينا شهود آخرون في أغلب الظن؟ لماذا نلطخ منديلنا بالدم الذي يسيل من رأس الضحية، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا؟ ألم يكن من الأفضل لنا، ونحن على هذا القدر من التوحش وقسوة القلب أن نبادر بعد القفز عن السور إلى الحديقة من جديد، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوي بها على رأسه بمدق الهاون لكي نتأكد من موته، ثم نهرب وقد انتهينا من هذا الهمّ وتخلصنا من هذا الخوف! وإليكم تناقضاً آخر: هل أقفز إلى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج، ثم أترك على ممرٍّ في الحديقة دليلاً قاطعاً عليَّ هو ذلك المدق الذي أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأنني أنا الذي أخذته من عندهما؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق في الممر أو أنه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب. لا، فإنما نحن رمينا ذلك السلاح عمداً، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذي كان نائماً فيه غريغوري. فإذا سأل أحدهم لماذا فعلنا ذلك، قلنا نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لقتلنا رجلاً هو خادم عجوز. فلما تملكنا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذي استخدمناه في ارتكاب هذا الذنب، ألقيناه بعيداً عنا. ذلك هو التفسير الوحيد الممكن. وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع. ولكن إذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز، فإن معنى هذا أننا لم نقتل أبانا: فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب، لما ذهبنا إلى الضحية الثانية مشفقين، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن

هذا الشعور كلياً، ولما فكرنا عندئذ إلّا في نجاتنا نحن، ولما أشفقنا على غير أنفسنا أبداً. ذلك أمر بديهي لا سبيل إلى المماراة فيه. بالعكس: كنا سنجهز عندئذ على الضحية، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة! ولئن شعرنا بالشفقة، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيِّرة في تلك اللحظة، فما ذلك إلّا لأن الضمير كان نقياً. سيكولوجياً نحن إذن أمام أخرى. وتعمدت، يا سادتي المحلَّفين، أن أعمد أنا أيضاً إلى السيكولوجيا، لأظهر لكم بوضوح أن في وسع المرء أن يخلص إلى ما يشاء من نتائج. والأمر كله هو في معرفة من سيستخدم هذه النتائج. إن السيكولوجيا، يا سادتي، يمكن أن تغري أحرص الناس وأكثرهم جدية، لتأليف القصص، وذلك رغماً عنهم. وهنا، أنا أقصد المبالغة في السيكولوجيا، أيها السادة المحلفون، وبعض إساءات استعمالها».

هنا، سُمعت مجدداً بعض ضحكات الموافقة من قبل الجمهور على مداخلة النائب العام. لن أعيد هنا مرافعة المحامي بكل تفاصيلها، سوف آخذ مقتطفات منها تعبر عن النقاط الأساسية.

# XI

## لم يكن ثمَّة مال لم تحدث سرقة

ثمَّة نقطة أدهشت الجميع في مرافعة المحامي وهي إنكار المتهم أن هناك مالاً قد سُرق، أي مبلغ ثلاثة آلاف روبل. وما من أحدٍ يعرف هل كان لهذا المبلغ وجوده..

لا أحد إلّا الخادم سمردياكوف الذي زعم أن هذا المال كان مودعاً في ظرف عليه الكتابة التي علمتم. وهذا الخادم هو الذي نقل أيضاً هذا النبأ، قبل وقوع الكارثة، إلى المتهم وإلى أخيه إيڤان فيودوروفتش، وهمّ عنه إلى السيدة سفيتلوفا. لكن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يَروا هذا المال. وما من أحد رآه إلّا سمردياكوف. ولكن لا بد لنا أن نلقي على أنفسنا عندئذ هذا السؤال: لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً فيما قال، فمتى رأى هذا المبلغ للمرة الأخيرة؟ لنتصوّر مثلاً أن سيده قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه في صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك. لاحظوا أن أقوال سمردياكوف تذهب إلى أن المال كان مخبأً في السرير تحت الفراش. فلا بد إذن أن يكون المتهم قد فتش السرير. فهل رأيتم السرير منبوشاً؟ وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق. فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعَّد غطاء السرير

ولو بشكل بسيط، بل كيف يمكن أن يكون قد دسَّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوِّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج، التي وُضعت على السرير في ذلك المساء خصيصاً؟ ربَّ سائل: فما قولك بالظرف؟ فلنتكلم على هذا الظرف قليلاً. لقد دُهشت منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه، في مطالعته اللامعة، حين رأيته هو نفسه ـ نعم هو نفسه أيها السادة ـ يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل: «لولا وجود ذلك الظرف، لولا أن ذلك الظرف كان ملقًى على الأرض دليلاً مادياً، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه، لما خطر ببال أحد في العالم شيء عن وجوده ووجود المال المودع فيه، ولما أمكن أن يُنسب إلى المتهم أنه سرق». معنى ذلك أن هذه القطعة من الورق الممزق، مع العبارة المكتوبة عليها، هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة. فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة قد حدثت، ولما كنا متأكدين من وجود المال. فهل يمكن حقاً أن نزعم أن هذه المزقة الحقيرة من الورق الملقاة على الأرض تكون دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة؟ قد يُعترض على هذا بأن «سمردياكوف قد رأى المال في الظرف»، ولكننا نسأل عندئذ: متى، متى رأى هذا الظرف آخر مرة؟ ذلك هو السؤال الذي ألقيه عليكم. لقد تحدثت في هذا الأمر مع سمردياكوف، فذكر لي أنه رآه قبل حدوث المأساة بيومين. فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن العجوز فيودور بافلوفتش قد خطر بباله، حين كان وحده في الغرفة ينتظر حبيبته قلقاً، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفتحه، قائلاً لنفسه: «إذا كان المال مودَعاً في الظرف فقد يراودها شك، أما إذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المئة روبل، فسوف تقتنع فوراً، وسوف يسيل لعابها طمعاً!». ها هو يمزِّق الظرف ويخرج منه المال، ثم يرميه على

أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب المنزل الذي لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه. هل هناك حقاً، أيها السادة، افتراض أقرب إلى المعقول من هذا الافتراض الذي عرضته عليكم؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا الشكل فعلاً؟ ولكن إذا جرت الأمور على هذا النحو، أو على نحو قريب من ذلك، فقد سقطت تهمة السرقة تلقائياً: فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال. إذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك. وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض إلّا لأنه قد أُفرغ من المال، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً. ربَّ سائل يسأل الآن: «ولكن إذا صحَّ هذا، إذا صحَّ أن فيودور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف، فأين يوجد هذا المال؟ لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل». إن جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عُثر عليه في صندوق القتيل؛ وثانياً من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة، أو قبل ذلك بيوم، ليتصرف فيه تصرفاً آخر، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله إلى أحد؛ وثالثاً يجوز أن يكون قد غيَّر رأيه فيما بعد، فغيَّر خطة عمله بشكل كامل، دون أن يرى اطّلاع سمردياكوف على ذلك سلفاً. فإذا كان هناك أي إمكان لتفسير الأمور على هذا النحو، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار في تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق، وأنه سرق بعد أن قتل؟ ألا إن هذا مجرد رواية مؤلفة! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق، فإنما ينبغي له، على الأقل، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً. أما في هذه القضية فإن الشيء المسروق لم يره أحد. لقد حدث في بطرسبورغ، منذ وقت قصير، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً، في الثامنة عشرة من عمره، يعمل بائعاً متجولاً، دهم محلَّ صراف في وضح النهار، متسلحاً ببلطة، فقتل الصراف بجرأة وسطا على ألف وخمسمئة روبل. ولكنه قُبض

عليه بعد بضع ساعات، فوجدوا المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه إلّا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها. هذا إلى أن أجير الصراف، حين عاد إلى الدكان بعد وقوع الجريمة، تمكن أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب، وإنما ذكر للشرطة أيضاً ما يتألف منه ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها، وعدد القطع الذهبية التي حملها القاتل. وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك القطع نفسها. يضاف إلى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة، فقال إنه قتل وسرق. ذلك يا سادتي المحلَّفين ما أستطيع أن أسميه أدلةً قاطعة. هنا لا مجال للشك: فالمال أمامي، أراه وألمسه، ويستحيل عليَّ أن أزعم أنه لم يوجد. فهل الأمر على هذا الشكل في القضية الراهنة؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت، مسألة مصير إنسان! رب قائل: «حسناً! ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها، وأنه بدَّد المال يمنةً ويسرة، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمئة روبل. فمن أين جاء بهذا المال؟». ولكنني أقول إن هذه الواقعة، وهي أنه لم يُعثر معه إلّا على ألف وخمسمئة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود التي بذلت أن يُكتشف النصف الثاني من المبلغ الذي يُزعم أن المتهم قد سرقه، أقول إن هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودَعاً في ظرف. إن التدقيق في أجزاء الوقت الذي قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الوقت حساباً دقيقاً) قد أوضح أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب إلى منزله بعد أن خرج راكضاً من منزل الخادمتين ليتوجَّه إلى منزل الموظف برخوتين، وأنه لم يذهب إلى أي مكان آخر، وأنه عدا ذلك كان في صحبة أشخاص آخرين طوال الوقت، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد أخذ جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها في مكان ما بالمدينة. وهذه الاعتبارات بعينها هي التي حملت السيد وكيل

النيابة على أن يتخيل أن المال لا بد أن يكون قد أُخفي في إحدى الزوايا أو في شق من الشقوق في قرية موكروويه؟ لماذا لا نقول أيها السادة، إنه مخبأ في أقبية قصر أودولف؟ أليس هذا الافتراض غريباً في الواقع؟ لاحظوا يا سادتي المحلَّفين أنه متى سقط هذا الفرض، أعني متى سقط الفرض الذي يذهب إلى أن المتهم قد خبأ المال في موكروويه، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً، وإلّا فأين ذهبت الألف وخمسمئة روبل الأخرى؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل إلى أي مكان؟ هل بالاستناد إلى روايات يخترعها الخيال على هذا الشكل، يجوز لنا أن ندمِّر مصير إنسان؟ فإذا قيل لي إن المتهم لم يستطع أن يحدّد لنا مصدر الألف وخمسمئة روبل التي عُثر عليها معه، وإنه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك شيئاً قبل تلك الليلة، قلت: من يدري؟ إن المتهم قد قدم لنا، من جهته، تفسيراً واضحاً لمصدر ذلك المبلغ؛ وما أحسب إلّا أنكم تسمحون لي، يا سادتي المحلَّفين، بأن أنادي قائلاً إنه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوالٌ أقرب إلى الصحة والاحتمال من الأقوال التي أدلى بها المتهم حول هذه النقطة، لاسيما وأن ما رواه المتهم يتفق تماماً مع طبعه وخصاله. لقد أعجب الاتهام بالقصة التي ألّفها: رجل ضعيف الارادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل تقدمها إليه خطيبته في ظروف مخزية إلى ذلك الحد، لم يكن باستطاعته أن يقتطع نصف ذلك المبلغ ويخيط عليه كيساً. وفتح على العكس من ذلك، لو أنه فعل ذلك لكان الكيس كل يومين وأخذ منه مئة روبل بعد مئة روبل، إلى أن يعرف المبلغ كله في غضون شهر. لقد قيل لنا ذلك، كما تتذكرون، بلهجة قاطعة. فماذا إذا كانت الأمور لم تجرِ على هذا نحو وإذا كنتم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع! المسألة هي أنكم اخترعتم شخصية مختلفة. أنا أراهن أن هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد دفعة واحدة في موكروويه، قبل وقوع

المأساة بشهر، كل الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من السيدة فرخوفتزيفا، إذن، لا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود؟ إن درجة الثقة بهم، قد اتضحت أثناء المناقشات. ثم إن قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هي في الواقع حين نراها في يد غيرنا. يضاف إلى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعد المبلغ بنفسه، فقد تم تقديره. لقد أكد الشاهد ماكسيموف أنه رأى في يدي المتهم عشرين ألف روبل؟ أترون، يا سادتي المحلَّفين، أن السيكولوجيا سلاح ذو حدين، فاسمحوا لي إذن أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى إلى أين نصل.

«قبل وقوع المأساة بشهر، تسلم المتهم من السيدة فرخوفتزيفا ثلاثة آلاف روبل، كي يرسلها بالبريد.لكن السؤال هو: هل صحيح أن هذا المال قد سُلِّم إليه على النحو المذل الذي وُصف لنا منذ قليل؟ إن الشهادة الأولى التي أدلت بها السيدة فرخوفتزيفا لم تتضمن ذلك، على الاطلاق. أما في شهادتها الثانية فلم نسمع إلا الغضب والانتقام وصرخات الحقد، الذي كان مكبوتاً. ويكفي أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً في تصريحاته الأولى حتى نشك في صدق التصريحات الأخرى التي أدلى بها بعد ذلك. إن السيد وكيل النيابة «لم يشأ ولم يجرؤ» (وتلك كلماته نفسها) أن يمسَّ هذا الجانب من المأساة. ليكن له ذلك، وهاأنذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا والتلبُّث عنده. لكنني أسمح لنفسي مع ذلك بإبداء هذه الملاحظة: حين نرى إنسانة فاضلة مثل السيدة فرخوفتزيفا التي نحترمها جميعاً تسمح لنفسها بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيّع المتهم، فإنه يكون من الواضح عندئذ أن شهادتها الأولى لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية. فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور أن امرأة تجيش في نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر، قد بالغت في كثير من

الأمور، وضخمت كثيراً من الأشياء؟ من الممكن أن تكون قد ضخَّمت طابع الذل وصفة العار في تقديمها المال إلى خطيبها. وإني مقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدِّم إلى المتهم تقديماً يمكِّن من قبوله، لا سيما بالنسبة إلى رجل خفيف مثل صاحبنا المتهم هذا. ويجب ألّا ننسى أن المتهم كان ينتظر أن يتسلَّم من أبيه في القريب العاجل مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذي يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الإرث. صحيح أن ذلك كان منه طيشاً، ولكن الخفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيرد إليه هذا المبلغ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد إلى السيدة فرخوفتزيفا بالبريد المال الذي أعطته إياه وائتمنته عليه، فيسدِّد دينها عليه. ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدِّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع، في ذلك اليوم نفسه، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً؛ فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك «لا يتفق وطبع المتهم، وأن المتهم لم يكن يشعر بمثل هذه العواطف».
ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين إن لأمثال كارامازوف طبيعة واسعة، ألم تتكلموا هنا على الهوَّتين اللتين يمكن أن يتأملهما في آن واحد رجل مثل كارامازوف؟ إن كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لإمكانياته في الاتجاهين، إنه رجل الهوَّتين الذي إذا انقاد لفرحة إتلاف المال واستسلم لظمأ اللهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف. ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً: إنه الحب الذي التهب في نفسه، وكان يحتاج من أجله إلى المال احتياجاً أشد من احتياجه إليه في سبيل اللهو والقصف مع حبيبته. فيومَ تقول له حبيبته: «أنا لك. إنني لا أريد فيودور بافلوفتش» سيرحل معها، وسيكون عندئذ في حاجة إلى مال. وذلك أخطر شأناً من القصف واللهو. إن رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن إلّا أن يعرف هذا. وذلك بعينه ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يتحول إلى

مرض، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره في لحظة من اللحظات. فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادّخره من باب الاحتياط؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيودور بافلوفتش لا يرد إلى المتهم الثلاثة آلاف روبل. والأدهى من ذلك أن المتهم قد عرف أن فيودور بافلوفتش يريد استخدام هذا المبلغ نفسه لإغواء حبيبته بماله هو. فقال لنفسه عندئذ: «إن لم يردَّ إليَّ فيودور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعتبرني كاترينا إيڤانوفنا لصاً». عندئذ برزت في ذهنه تلك الفكرة، وهي أن يمضي في يوم من الأيام بالألف وخمسمئة روبل التي ما يزال يحملها في عنقه، إلى السيدة فرخوفتزيفا فيقول لها: «أنا شقي ولكنني لست لصاً». أصبح هنالك إذن سببان يدفعانه إلى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمئة روبل، وإلى الاحتفاظ بها وإلى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه وإلى أن لا يفض الكيس ليسلَّ مئة روبل بعد مئة أخرى. لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف؟ لا، إن هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف؛ قد يكون في إحساسه بالشرف شيء من البعد عن طريق الصواب، وقد يظهر هذا الإحساس في بعض الأحيان مقلوباً، ولكنه يحس بالشرف إحساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع، ولقد برهن على هذا! ويتعقد الأمر مع ذلك، فهذه تباريح الهوى تبلغ ذروتها، وهذان سؤالان، سؤالان قديمان، مايزالان يلحّان على نفسه المضطربة بشدّة، وما يزالان يؤلمانه كثيراً: «سأرجع إلى كاترينا إيڤانوفنا مالها، ولكن من أين أجيء بعد ذلك بما سأحتاج إليه من مال لأرحل مع غروشنكا؟». ولعل السبب في أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً وأنه كان يُقبل على السكر بدون انقطاع، لعل السبب في هذا هو أن نفسه كانت منقبضة مؤلمة، وأنه لم يستطع السيطرة على ألمه؛ وتفاقمت الخواطر التي كانت تثيرها هذه المسائل في ذهنه حتى أوصلته إلى اليأس. وأوفد أخاه الصغير إلى أبيه يرجو منه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل، ولكن

دهم المنزل دون أن ينتظر جواباً، وانتهى به الأمر إلى ضرب العجوز على مرأى من شهود. وبعد ذلك فقد أيّ أمل في الحصول على هذا المبلغ، لأنه تأكد أن أباه لن يعطيه المال حتماً، حقداً عليه. وفي ذلك اليوم نفسه، حين لقي أخاه في المساء، لطم صدره، لطم أعلى صدره، في المكان الذي فيه الكيس، وأقسم أن بوسعه أن لا يكون شقياً حقيراً، ولكنه سيصبح كذلك، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الإمكان، لافتقاده القوة النفسية التي تتيح له ذلك. إني لأسألكم لماذا يرفض الاتهام الثقة بأقوال ألكسي كارامازوف وأن يركن إلى شهادته التي أدلى بها بريئاً، صادقاً، عفوياً، والتي هي من جهة أخرى معقولة محتملة إلى أبعد الحدود؟ ولماذا يُراد لي، في مقابل ذلك، أن أُقسر على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خبِّىء في شق خفي أو في قبو في قصر أودولف؟ وفي ذلك المساء نفسه، بعد حديثه مع أخيه، كتب المتهم تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة التي هي أقوى قرينة ضده، وأكبر دليل عليه، والتي تشكل الأساس لتهمة السرقة. «سأذهب ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف أقتل أبي، وسوف أستولي على المال المخبأ تحت الفراش في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، شرط أن يكون إيڤان غائباً». هذه خطة قتل. فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه، أليس كذلك؟ «ذلك مكتوب». بهذا صاح السيد وكيل النيابة. ولكنني أقول أولاً إن هذه الرسالة قد كتبت في حالة سكر، بينما كان المتهم في غضب شديد. وأقول ثانياً إن المتهم لا يتكلم في هذه الرسالة على الظرف إلّا بالاعتماد على أقوال سمردياكوف، لأنه لم يرد الظرف نفسه؛ وأقول إن هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً، ولكن ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش، هل وجد فيه المال، هل كان لهذا المال وجود؟ تذكّروا أن المتهم لم يسرع إلى منزل أبيه ليسرق هذا المال، بل ليعرف

فقط أين توجد تلك المرأة التي تفطر قلبه. فهو إذن لم يذهب إلى منزل أبيه لينفذ الخطة المكتوبة، سرقه سرقة مدبرة؛ بل هو أسرع إلى هناك فجأة وبشكل عفوي، بدافع الغيرة المسعورة. لكن، ربَّ قائل: «لكنه مع ذلك، ذهب وقتل وأخذ المال». لكن أخيراً، هنا أيضاً، هل سرق نعم أم لا؟ إنني أرفض تهمة السرقة مستنكراً إذا كنا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة: تلك بديهية. ولكن، بمعزل عن ذلك، هل حقاً قتل، هل قتل دون أن يسرق؟ هل هذا مثبت؟ أليست هذه رواية؟

# XII

## ليس ثمَّة قتل أبداً

اسمحوا لي، يا سادتي المحلَّفين، الأمر يتعلق بحياة إنسان، فيجب أن نكون حذرين. لقد رأينا السيد وكيل النيابة يصرِّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه، في أن ينسب إلى المتهم جريمة قتلٍ عن سابق تصور وتصميم، وأنه ظل يتردد حتى وصول هذه الرسالة المشؤومة التي كتبها وهو «في حالة سكر». «حصل كل شيء كما هو مكتوب». ولكنني أعود فأكرر هنا أيضاً أن المتهم قد تسلل إلى الحديقة يبحث عن تلك المرأة، فقط لكي يعرف أين هي. تلك واقعة ثابتة. فلو أنها كانت في منزلها لما ذهب إلى أي مكان آخر، ولظلَّ إلى جانبها، ولما نفَّذ ما أعلنه في رسالته. لقد أسرع إلى منزل أبيه بحركة مفاجئة لم يكن يتوقعها، ولعله كان في تلك اللحظة قد نسي الرسالة التي كتبها وهو في «حالة سكر». رب قائل: «ولكنه أخذ مدق الهاون، أليس كذلك؟». ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التي اتخذ هذا المدقَّ ذريعة لها، وكيف أريدَ إقناعنا بأن المتهم لا بد أن يكون قد اعتبر هذا المدق سلاحاً، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمة قتل الخ. إن فكرة بسيطة جداً تحضرني في هذه المناسبة:

ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على الطاولة أو على رفٍ رآه المتهم فتناوله، وإنما كان مودعاً في خزانة مثلاً؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يجذب نظر المتهم، ولانصرف هذا الأخير عندئذ خالي اليدين، لا يحمل سلاحاً، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً. فكيف يمكننا بعد هذا أن نعتبر ذلك المدق دليلاً على سابق تصور وتصميم، وبرهاناً على نية التزود بسلاح؟ نعم، ولكن المتهم قد صرخ يقول هو نفسه، في الكاباريهات، إنه سيقتل أباه؛ ومع ذلك فإنه قبل الحادث بيومين، في المساء الذي كتب فيه رسالة في حالة السكر، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً في أحد الكاباريهات مع مستخدم صغير في متجر: «لأن كارامازوف لا يستطيع إلّا أن يتشاجر مع أحد». وأقول في الردِّ على هذه الحجة إن رجلاً فكر في ارتكاب مثل هذه الجريمة وصمم أن ينفذها وفق خطة مرسومة سلفاً، ما كان له أبداً أن يتشاجر مع أحد، ولو مع مستخدمٍ في متجر؛ بل ولا كان له أن يدخل إلى إحدى الكاباريهات أصلاً، لأن الرجل الذي يفكر في اقتراف جريمة من هذا النوع، يطلب الهدوء والعزلة، ويحاول ألّا يراه أحد، يحاول ألّا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد، وكأنه يتمنى في قرارة نفسه أن يقول للناس: «انسوا وجودي، إذا أمكن ذلك»، لا عن حساب وتدبير، بل بغريزته وحدها. إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتي المحلَّفين، وإنا لنحسن استعمالها نحن أيضاً. أما التهديدات التي أطلقها في الكاباريهات طوال ذلك الشهر فما هي إلّا صراخ شبيه بصراخ الأطفال، وما هي إلّا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يتشاجرون فيبدأون بالصراخ قائلين: «لأصرعنك، لأقتلنّك!»، ولكنهم لا يفعلون شيئاً. وأما تلك الرسالة المشؤومة فليست إلّا صرخة سكر وغضب هي أيضاً؛ ليست إلّا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة: «لأقتلنكم، أقسم، لأقتلنكم جميعاً!». لماذا البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل، لماذا

الإصرار على رفض هذا التعليل؟ إن هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة، أفليس الأَولى أن توصف بأنها كلام مضحك؟ ولكن لا، إنهم يريدونها أن تكون دليلاً قاطعاً، لسبب واحدٍ هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفي يده سلاح، وأن هذا الشاهد قد قُتل هو أيضاً بعد ذلك؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لخطة مرسومة مسبقاً، فلا يمكن إذن أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً، ولا يمكن إلّا أن تكون دليلاً قاطعاً؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا إلى النقطة الحاسمة فقالوا: «أما وأنه كان في الحديقة فقد قتل». مع هاتين الكلمتين «أما وأنه» هي في الواقع جوهر الأساس الذي تقوم عليه القضية ويستند إليه الاتهام. «كان في الحديقة، فهو إذن». ماذا لو أسقطنا كلمة إذن». ماذا لو أسقطنا كلمة «إذن» هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان موجوداً في الحديقة؟ إنني أسلِّم بأن الوقائع في هذه القضية متوافقة، وإن كثرتها تخطف البصر وتستأثر بالانتباه. ولكن هلّا حملتم أنفسكم عناء تمحيص كل واقعة من هذه الوقائع في ذاتها على حدة، دون أن تهتموا بتوافقها؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدِّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال إنه انصرف عن نافذة أبيه؟ تذكروا الأسلوب الساخر الذي استخدمه السيد وكيل النيابة حين تكلم في هذا الموضوع فأشار إلى مشاعر الاحترام وعواطف الفضيلة التي اجتاحت نفس القاتل فجأة. أيُّ عجب في أن تكون الأمور قد حدثت على هذا النحو فعلاً، أي في أن يكون المتهم قد استيقظت في نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترامٍ بالضرورة، ولكنها مشاعر فضيلة. لماذا يكون هذا مستحيلاً؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق: «لا بد أن تكون أمي قد تشفعت لي في تلك اللحظة». فالمتهم قد هرب إذن منذ أدرك أن السيدة سفيتلوفا ليست في صحبة أبيه. فإن ردَّت النيابة على هذا قائلة: «ما كان المتهم يستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من

النافذة»، قلت لمَ لا؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن طرق المتهم النافذة بالإشارات المتفق عليها. ومن الجائز أن يكون فيودور بافلوفتش قد أفلتت منه في تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن السيدة سفيتلوفا ليست في المنزل. لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيّلته النيابة أو ما حاولت أن تتخيله؟ إن الواقع يشتمل في كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤية. ربَّ معترض يقول: «حسناً، ولكن هذا لا ينفي أن غريغوري قد رأى الباب مفتوحاً، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل، وعلى أنه قد قتل.». ها نحن وصلنا إلى حكاية الباب هذه، يا سادتي المحلَّفين... تعلمون أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ في حالة خاصة، كان في حالة... ولكن لا داعي إلى الالحاح... لنفترض، إذا كنتم تريدون ذلك، بأن الباب كان مفتوحاً، وبأن المتهم قد كذب في هذه النقطة أثناء التحقيق، يدفعه إلى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه، وهو أمر واضح في مثل وضعه. لنفترض بأنه دخل المنزل، نعم، لنسلِّم بذلك. فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل؟ إن من الممكن أن يكون قد اقتحم المنزل، وراح يركض من غرفة إلى أخرى، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً. فلما تأكد بعد ذلك أن السيدة سفيتلوفا ليست في المنزل ولّى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه. ولئن قفز إلى الحديقة مرة ثانية بعد ذلك بدقائق فمال على المسكين غريغوري الذي قتله في لحظة من غضب شديد، فإنه لم يغفل ذلك إلّا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة بسبب أنه انتصر على إغراء قتل أبيه، فكان قلبه يفيض فرحاً وبراءة. إن السيد وكيل النيابة قد وصف لنا، ببلاغة غامضة، الحالة النفسية التي لا بد أنها كانت حالة المتهم في موكرويه، حين عرف أن السعادة والحب يعرضان

له، ويناديانه إلى حياة جديدة، بينما كان محظوراً عليه أن يحب، لأنه خلَّف وراءه جثة أبيه، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذي لا مناص منه. ولكن السيد وكيل النيابة قد سلَّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم في قلب المتهم، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة وهو يعتمد على تحليلات سيكولوجية مرهفة، فقال: «هذه حالة تشبه السكر، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد إلى ساحة الإعدام، فيحدث نفسه قائلاً إن الطريق ما يزال طويلاً، الخ». ولكنني أتوجه إلى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال: «ألم تخلق هنا شخصية روائية من نسيج الخيال؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعةٌ تبلغ من عدم الإحساس والاستهتار أنه يستطيع، بعد أن سفك دم أبيه، أن يفكر في الحب وأن يبني خططاً خدّاعة للدفاع عن نفسه؟ كلا ثم كلّا! إنني لا أتردد لحظة واحدة في أن أهتف قائلاً: كلا ثم كلا! حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه، وتناديه ليتبعها وتعده بحياة جديدة هانئة، أقسم إنه شعر برغبة مضاعفة في الانتحار لا تقاوم، وكان سينتحر دون أدنى شك، لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه! إنني أعرف المتهم: إن ما ينسبه إليه الاتهام يناقض طبيعته. لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً، هذا محقق! وإذا كان لم ينتحر فلأن «أمه قد تشفعت له» وقلبه غير مثقل بدم أبيه؛ وإذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة في موكرويه، فبسبب غريغوري الذي كان المتهم قد صرعه، فكان يصلي في سرِّه أن يستفيق ذلك العجوز، وألّا تكون ضربة المدقّ غير قاتلة، وأن ينجو هو نفسه من العقاب. لماذا نرفض تفسير الوقائع على هذا النحو؟ ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم يكذب؟ لكن جثة الأب تقول لنا مجدداً: «إذا كان المتهم قد هرب راكضاً، لم يقتل فمن الذي قتل إذن الرجل العجوز؟»».

«أكرر: هذا هو منطق الاتهام: من الذي قتل، إذا لم يكن هو؟... ليس

لدينا أحد نضعه مكانه. فهل هذا صحيح يا سادتي المحلَّفين؟ هل هذا صحيح، هل هذا حقيقي، إنه ليس لدينا أحد؟ لقد سمعنا السيد وكيل النيابة يحصي على الأصابع جميع من كانوا في المنزل ليلة وقوع الجريمة. إنهم خمسة أشخاص، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً: المجني عليه، وغريغوري، وزوجته. لم يبقَ إذن إلّا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هنا المتهم سمردياكوف. وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة: لئن عمد المتهم إلى تسمية سمردياكوف قاتلاً، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يمكنه الوشاية به؛ فلو كان هناك شخص سادس، بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل، إذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف محمرَّ الوجه من الخجل، ولمضى يتهم ذلك الشخص السادس على الفور. ولكن ما الذي يمنعني يا سادتي المحلَّفين من أن أقلب هذا الدليل؟ هناك شخصان: المتهم وسمردياكوف. أفلا يجوز لي أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلي إلّا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون إليه التهمة؟ ولكن لم تجدوا شخصاً آخر توجهون إليه الاتهام فما ذلك إلّا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدة، فاستبعدتم كل شبهة حوله، ورفضتم كل شيء فيه. صحيح أن أحداً لم يسمِّ سمردياكوف قاتلاً، إلّا المتهم وأخويه والسيدة سفيتلوفا. لكن ثمة شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه. إن شائعات غامضة تجري في المدينة عنه، إن أسئلة وشبهات لا يقولها الناس عنها تدور في الخواطر حوله، إن قلقاً مبهماً يساور النفوس ويستحيل إلى توقع عام. ثم إن هناك وقائع مقلقة تشهد عليه رغم غموض دلالتها: أولاً نوبة الصرع تلك التي وافته في يوم وقوع الكارثة نفسه، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه - لست أدري لماذا - أن يهتم بإلحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها. وثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه

أحد. ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التي لم يكن يتوقعها أحد أيضاً، أعني شهادة أخي المتهم، إيڤان فيودوروفتش، الذي بقي إلى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل، فإذا هو يصل اليوم إلى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً إن سمردياكوف هو القاتل! صحيح أنني أوافق المحكمة والنيابة العامة رأيها في حالة الشاهد النفسية. فأنا مقتنع بصورة تامة بأن إيڤان كارامازوف مريض، وأنه مصاب بنوبة حمى حارة، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصوَّرها وهو في حالة هذيان في سبيل أن ينقذ أخاه بإلقاء الجريمة على عاتق رجل مات. ولكن هذا لا ينفي أن اسم سمردياكوف قد ذُكر في هذه المناسبة مرة جديدة، كل الألغاز التي ترتبط باسمه، فكأن هناك، يا سادتي المحلَّفين، أشياء لم تُذكر إلى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه ما زالت ناقصة، ولعلها تكمل فيما بعد. ولكن يجب ألّا نستبق الأمور. لقد قررت المحكمة منذ قليل أن تتابع المناقشات، فبإمكاني، ما دمنا الآن في انتظار ذلك، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التي صوَّرها لنا السيد وكيل النيابة بكثير من البراعة والموهبة. إنني على إعجابي بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن في تخطيط تلك اللوحة النفسية، لا أستطيع أن أوافقه الرأي في هذا الرجل. لقد ذهبت إلى سمردياكوف، رأيته وتحدثت معه، فترك في نفسي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة. لا، إن سمردياكوف ليس ذلك الشخص الضعيف الذي وصفه لنا الادعاء. إنني لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الذي تكلم عليه السيد وكيل النيابة بإلحاح. أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده أبداً. بالعكس: لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً، وإن تخبّأ هذا الحذر وهذا الدهاء بمظهر سذاجة مصطنعة، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة. سادتي المحلَّفين، في رأيي إن السيد وكيل النيابة قد تسرَّع قليلاً حين

ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل. لقد خلَّف سمردياكوف في نفسي شعوراً واضحاً: تركته مقتنعاً بأنه إنسان تفيض نفسه شراً وخبثاً، وحقداً وحسداً، وغروراً وميلاً إلى الانتقام. ومن جهة أخرى، فقد جمعت بعض المعلومات عنه: كان يكره أصله، ويصرف أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة «نتنة». وكان يسيء معاملة الخادم غريغوري وزوجته اللذين أحسنا إليه وأنعما عليه في طفولته. وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها، وكان حلمه هو أن يسافر إلى فرنسا وأن يصبح فرنسياً. وكثيراً ما كان يقول إنه يحتاج إلى مالٍ من أجل أن يرحل. وأعتقد أنه كان لا يحب إلّا نفسه، ويقدّرها أكثر ما تستحق بكثير. كان يعتبر نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءً لماعاً. وإذ كان يعتبر نفسه ابناً غير شرعي لفيودور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً)، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء سيده الشرعيين قد أورثه مرارة وحقداً: كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا، وكان هو لا يتمتع بأية مزية. كانوا يملكون جميع الحقوق ويستطيعون أن يرثوا أباهم، أما هو فلم يكن إلّا طباخاً. لقد أسرَّ إليَّ أنه ساعد فيودور بافلوفتش على إيداع المال في الظرف. والهدف الذي نُذر له هذا المبلغ ـ وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه في تحقيق أغراضه ـ لا بد أن يكون قد أثار في نفسه حنقاً شديداً. ثم إنه رأى في تلك اللحظة ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا خصوصاً)، وأنتم تعلمون، يا سادتي، أنه لا يجوز لنا أن نلألىء مبلغاً ضخماً أمام عيني إنسان حسود ومغرور؛ وكانت تلك أول مرة يرى فيها مالاً يبلغ هذه القيمة من الضخامة في يدي شخص واحد. فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الجديدة قد أحدثت في نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شيء في بداية الأمر. إن السيد وكيل النيابة الذي نعجب بموهبته قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التي يمكن

اللجوء إليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل، وقد ألحَّ خصوصاً على هذا السؤال: لأي سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة إلى ذلك التظاهر، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها، ومن الجائز أن تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً. من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته واستعاد وعيه. صحيح أنه لا يكون قد شفي عندئذ من مرضه، ولكن كان لا بد أن يعود إليه شعوره عاجلاً أو آجلاً، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع. إن الادعاء يسأل: في أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل؟ الحق أن الجواب عن هذا السؤال سهل للغاية، فما أسهل أن نحدّد تلك اللحظة. فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد عاد إلى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط، فإن نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق)، في تلك اللحظة نفسها التي تشبث فيها العجوز غريغوري بساق المتهم (حين كان هذا يحاول الهروب من فوق السياج) فصرخ بصوت حاد ملءَ حنجرته: «يا قاتل أبيه!». فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التي دوَّت في صمت الليل قد أيقظت سمردياكوف من نومه الذي لعله لم يكن عندئذ عميقاً، لأن سمردياكوف لا بد أن يكون قد أخذ يستيقظ منذ ساعة؛ فلما نهض اتجه دون أن يشعر، وبدون أية نية محددة، إلى الجهة التي جاءت منها الصرخة. وكانت أفكاره ماتزال غامضة، وكان خياله ما يزال وسناناً. ولكن ها هو يصل إلى الحديقة، وها هو سيده يقترب من النافذة المضاءة، فإذا هو يعرف بالنبأ الرهيب من فم سيده نفسه، الذي اغتبط لرؤيته طبعاً؛ وإذا بفكرة الجريمة تبرز في رأسه فجأة. لقد أطلعه سيده المذعور على ما حدث. وها هي الفكرة التي برزت في رأسه المريض تظهر إلى النور واضحة المعالم. إنها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها

منطق لا يرحم: وهي أن يقتل العجوز ويستولي على الثلاثة آلاف روبل، ثم يلقي الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل! من الذي يمكن أن يُشتبه فيه الآن، من الذي يمكن أن يُتَّهم، غير هذا الابن الذي تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات؟ من الجائز إذن أن تكون قد استبدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة إلى سرقة المال، وظمأ شديد إلى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب. إلا أننا نعرفها، هذه الاندفاعات المفاجئة التي تشب فجأة في نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة في معظم الأحيان لا يخطر ببالهم أنهم سيقتلون. من الجائز إذن أن يكون سمردياكوف قد دخل إلى غرفة سيده، ونفذ خطته. فإذا سألتموني ما هو السلاح الذي استخدمه في القتل، قلت إن من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه في الحديقة؛ وإذا سألتموني ما هو الهدف الذي قتل من أجله قلت إنه تلك الثلاثة آلاف روبل التي بإمكانها أن تؤمّن مستقبله! لا، إنني لا أناقض نفسي: فمن الجائز أن يكون المال موجوداً. ومن يدري؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذي كان على علم بالمخبأ الذي أخفى فيه سيده المال. ربَّ معترض يقول: «والظرف؟ الظرف الممزَّق الملقى على أرض الغرفة؟»، فأجيب: إن السيد وكيل النيابة قد أورد في موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة، وهي أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة إلّا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً، وليس له خبرة سابقة أي لا يمكن أن يتركه إلّا لص مثل كارامازوف، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له أن يرتكب مثل هذه الغلطة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون دليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل. سادتي المحلَّفين، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدي هذه الملاحظة الدقيقة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندي. تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذي يمكن أن يسلكه كارامازوف

فيما يتعلَّق بهذا الظرف، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لي، منذ يومين، شخص ليس إلّا سمردياكوف نفسه. وعدا ذلك، فإن وضعه في تلك اللحظة قد خطف انتباهي، فشعرت بوضوح بأن سذاجته كاذبة، وأنه كان في حقيقة الأمر يسبقني فيوحي إليَّ بهذه الفكرة لكي تتجسد في نفسي بعد ذلك، فأستخرج منها النتائج التي يريد أن يدخلها بهذه الطريقة في ذهني. أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لَقَّن قاضي التحقيق هذه الفكرة أيضاً؟ أفلا يمكن أن يكون قد أنبتها خلسةً في فكر السيد وكيل النيابة الذي يمتاز بمواهب عظيمة؟ ولكن العجوز زوجة غريغوري قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاث خطوات من سريرها طوال الليل! لست أنكر أنها سمعت أنينه، ولكن هذه الحجة ضعيفة. عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض. وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح في الواقع إلّا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً. إن أمثال هذه الأخطاء طبيعية: هذا إنسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أوقظ من نومه؛ ثم ما يلبث أن يعود لينام فوراً؛ وتمضي على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات، فإذا بأنين جديد ينطلق، فيستيقظ الرجل ثم يعود إلى النوم كما في المرة السابقة؛ وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثاً لا أكثر. ولكن صاحبنا، حين يستيقظ في الصباح، سيشكو من أن أنيناً متصلاً قد حرمه من النوم طوال الليل. ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً، لأنه لن يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التي كان أثناءها نائماً، ولن يحتفظ إلّا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة. لذلك سيتخيل أنه أوقظ إيقاظاً متصلاً غير منقطع. وقد قال السيد وكيل النيابة سائلاً: «ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التي كتبها قبل موته؟ أيكون لديه من الضمير ما يكفي لكي ينتحر، ثم لا يكون

عنده من الضمير ما يكفي لكي يعترف؟». هنا أقفكم لأقول: إن الضمير يتضمن الندم. ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأي ندم حين انتحر، ولعله لم يختر هذا المخرج إلّا وهو يائس. إن الندم واليأس شيئان يختلف أحدهما عن الآخر تماماً. فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما؛ وحين ينتحر سمردياكوف فإنه يستطيع أن يكره بقوة أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته. سادتي المحلَّفين، إياكم والخطأ القضائي! هل في هذا التأويل الذي أضعه بين أيديكم شيء يخالف العقل ويجافي الاحتمال؟ دلُّوني على خطأ واحد فيما عرضته لكم، دلّوني على استحالة واحدة، أو بطلان واحد! ولكن إذا كان هذا الافتراض الذي بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال، ولو على ظل إمكانية، كان عليكم أن تمتنعوا عن إصدار حكم يدين المتهم. فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظلِّ حقيقة! إنني أقسم لكم بكل ما أقدسه في هذا العالم على أنني، من جهتي، مقتنع بصدق تأويل الوقائع على الشكل الذي وصفت فيه. وإني أشعر باضطراب شديد وقلق يخرجاني عن طوري حين تراودني هذه الفكرة التي تلاحقني بدون انقطاع، وهي أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التي جمعها الادعاء قرينةٌ واحدةٌ يمكن اعتبارها واضحة، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض. إن اجتماع هذه القرائن بعضها إلى بعض هو الشيء الوحيد الذي يوشك أن يكون سبباً في هلاك إنسان. أنا أعرف أن اجتماع هذه القرائن رهيب: ذلك الدم السائل من يدي المتهم، ذلك القميص الملوث بالدم، تلك الصرخة التي دوَّت في ظلام الليل قائلة: «يا قاتل أبيه!»، وسقوط الرجل الذي أطلق تلك الصرخة، سقوطه على الفور مهشَّم الجمجمة، ثم جميع تلك الشهادات المتوافقة التي أدلى بها الشهود، وجميع تلك الحركات والصيحات التي صدرت عن المتهم. آه، إن ذلك كله يمكن أن يؤثر في الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأً. ولكن لا في عقولكم أنتم يا سادتي المحلَّفين،

لا في عقولكم أنتم، فأنتم لستم ممن يضلّلون على هذا النحو. تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها، وأنكم قد أُعطيتم حق الربط والحل. وعلى قدر السلطة إنما تكون المسؤولية! إنني لا أتراجع عن حرف واحد مما قلته، ولكن فلنسلم خلال دقيقة، بالرأي الذي يذهب إليه الادعاء حين يزعم أن موكلي قد لطَّخ يديه بدم أبيه. أكرر أن هذا افتراض، فأنا لا أشك لحظة واحدة في براءة موكِّلي. ولكنني أتنازل، فأسلم بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب. فاسمعوا إذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلِّم بهذا الافتراض. إنني أحرص على أن أكلمكم بصراحة في هذه النقطة، لأنني أحس وأقدِّر أن معركة تنشب الآن في نفوسكم وعقولكم... سادتي المحلَّفين، سامحوني على هذا الدخول الذي لا حقَّ لي فيه، إلى مشاعركم الصميمة. فقد آليت على نفسي أن أكون عادلاً وصادقاً إلى النهاية. نعم، لنكن جميعاً صادقين!...

هنا قوطع المحامي بتصفيق متواصل. في الواقع، ذلك أن الكلمات الأخيرة التي قالها بلهجة صادقة، بحيث شعر كل الناس بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً، وأن ما سيقوله الآن سيكون جوهر القضية فعلاً. ولكن رئيس المحكمة قد هدد، أمام هذا التصفيق بإخلاء القاعة إذا «تكرر شيء من هذا مرةً أخرى». فعاد الهدوء إلى القاعة، واستأنف فيتوكوفتش مرافعته بصوت جديد وقاطع، مختلف كلياً عنه الصوت الذي سمعناه حتى ذلك الحين.

# XIII

## شهوانيُّ الفكرة

ليس اجتماع الوقائع فقط هو الذي يدين موكِّلي، يا سادتي المحلَّفين كلا، قال، إن ما يدينه في الواقع هو واقعة فقط: إنها جثة أبيه العجوز! فلو كانت مجرد جريمة قتل بسيطة، أمام عدم أهمية الوقائع، وغياب البراهين وأمام جانبها الخيالي، وإذا تم فحص كل واحدة منها على حدة وليس في تقاطعها. ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة؛ أو لرفضتم على الأقل أن تربطوا مصير إنسان بسبب ما قام برأي سيِّئ فيه، وهو رأي يستحقه في الحقيقة مع الأسف! ولكن الجريمة ليست عادية. إنها جريمة قتل ابن أباه! فهذا الظرف يفرض نفسه على النفوس والعقول بحيث تصبح القرائن التي تدينه دافعة حتى لدى أكثر العقول تحرراً من الأفكار المسبقة. فكيف يبرىء مجرماً من هذا النوع؟ كيف يرتكب جريمةَ كهذه وينجو من العقاب؟ تلك فكرة تثير النفوس. نعم، إنه لشيء رهيب أن يسفح دم أب، دم إنسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه، دم رجل لم يدخر في سبيلنا وسعاً، وكان في طفولتنا يتألم إذا مرضنا، ولم يفكر طوال حياته إلّا في سعادتنا، ولم يعش إلا فرحنا وسعادتنا! إن قتل مثل هذا الأب، أمر لا يتصوره العقل؛ ما الأب الحقيقي يا سادتي المحلَّفين؟ ما الذي في هذه الكلمة

يهز قلوبنا، ما هي الدلالة التي يحملها اسم الأب هذا الذي يستأثر باحترامنا جميعاً؟ لقد وصفنا منذ لحظة، ولو وصفاً ضعيفاً ما يجب أن يكونه أب حقيقي، فهل كان فيودور بافلوفتش كارامازوف، وهو الضحية في هذه القضية التي تشغلناوتدمي قلوبنا، يشبه المثل الأعلى الذي رسخ في أعماق نفوسنا عن الأبوة؟ إنها مصيبة يا سادتي. إن بين الآباء من هم كارثة. فلننظر في هذه المصيبة من قرب، لأننا يجب ألّا نخشى شيئاً وألّا نتراجع أمام شيء، يا سادتي المحلَّفين، فإن القرار الذي ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة. يجب علينا ألّا نخاف عندما نحاول أن نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الذي استعمله الاتهام الموهوب. لكن خصمي المحترم (ولقد كان خصماً لي حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) وقد هتف عدة مرات يقول إنه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم، وإنه لن يترك الدفاع عنه إلى المحامي الوافد من بطرسبورغ، وإنه سينهض بمهمَّتي المدعي والمدافع في آن. لقد نادى بذلك عدة مرات. ولكنه نسي أن يذكر أن هذا المتهم قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر والامتنان بسبب ليبرة من بندق أهداه إليه رجل كان هو الإنسان الذي دلَّله في منزل أبيه. وفي مقابل ذلك لم يكن بإمكان المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافي القدمين في الفناء الخلفي من المنزل، «مرتدياً بنطالاً لا يمسكه إلّا زر واحد»، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الشهم. إني أسألكم يا سادتي المحلَّفين ما الفائدة من دراسة هذه المصيبة وتكرار ما يعرفه جميع الناس؟ أيَّ استقبال لقيه موكلي عندما وصل إلى هذه المدينة ليزور أباه؟ لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلي في صورة عديم الإحساس، أناني، شاذ؟ هو عنيف مندفع، هو متوحش، وبسبب هذا نحكم عليه اليوم.

ولكن من المسؤول عن مصيره، وعلى من يقع الذنب إذا هو ربِّي تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه وقلبه؟ هل تولى أحد في يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله، بأن يكشف له عن جمال العلم؟ هل مال عليه أحد في حب وحنان أثناء طفولته؟ لقد شب موكلي في رعاية الله وحده، تربَّى كحيوان متوحش. لعله كان ظامئاً إلى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها، ولا بد أنه طرد من خياله مئة مرة قبل ذلك، الأشباحَ المقيتة التي ملأت أيام طفولته والتي كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح في سبيل أن يغفر لأبيه بكل قلبه. ولقد أسرع يحتضن أباه بذراعيه. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أن تلقاه بالسخريات عجوزٌ شكاك، لا يخشى على شيء كما يخشى على مال الميراث. ولا بد أن الشاب قد شهد محادثات كان المتوفَّى يعرض فيها فلسفته في الحياة وهي فلسفة تثير في نفوسكم التقزز وكان العجوز يبسطها وهو يشرب «أقداحاً صغيرة من الكونياك». في نهاية المطاف، رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته، هو ابنه، مستعملاً في ذلك مالاً يعتبره الشاب ماله. يا سادتي المحلَّفين، ذلك كله رهيب متوحش قاسٍ إلى أبعد الحدود. وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام له والعاطفة نحوه، وكان لا يتردد في التشهير به في المجتمع، والاساءة إليه بالوشايات، وشراء سندات ديونه لإيداعه السجن! سادتي المحلَّفين، إن الرجال الذين هم من طينة موكلي، إن هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً إلى أبعد حدود، ولكن نوعاً من الحياء يمنعهم من إظهار ذلك. تلك حالة شائعة جداً. آه... لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه إليكم عن طبعه! إن السيد وكيل النيابة الذي أُعجبُ بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة على المتهم وعلى ميله إلى شيللر وحبه

للأمور «النبيلة». ولو كنت في مكان الاتهام لامتنعت، عن الاستهزاء والسخرية. آه! هذه القلوب ـ اسمحوا لي يا سادتي أن أدافع عن أمثال هذه القلوب التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً! ـ إنها ظمأى إلى الحنان والجمال والطهارة. إن هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب، قادرون على الحب إلى درجة الألم، قادرون على أن يحبوا حباً روحياً وسامياً. فذلك ما يحدث، دائماً على وجه التقريب، لدى هذه الطبائع. والبلاء كله أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون في بعض الأحيان عنيفة؛ وما يثير الدهشة هو ما هو خفي فيها، ولا أحد يرى الرجل الداخلي. ومع ذلك فإن أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة، فإذا الرجل الذي يبدو فظاً يبحث عن وسيلة لإصلاح نفسه، آملاً أن يصبح طاهراً هو أيضاً. «النبل والسمو» آه، لماذا الاستهزاء بهاتين الكلمتين؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجيز لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع السيدة فرخوفتزيفا. ولكن يجب مع ذلك أن أشير إلى هذه القصة إشارة سريعة. إن ما سمعناه في هذه القاعة المغلقة لم يكن شهادة شاهد، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنَّ جنونها! لا، ما كان يحق لها أن تتهم موكلي بالخيانة، لأنها هي التي خانته في الواقع! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً، لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة. لا تصدقوها يا سادتي. لا، ليس موكلي بالرجل الذي وصفته بأنه «شيطان رجيم». إن المصلوب الذي كان يحب بني البشر قد صاح قائلاً وهو يصعد التل الذي نُصب عليه الصليب: «أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه. فلن يهلك واحد من الخراف» ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً بشرية! لقد سألت منذ هنيهة: ما الأب؟ وهتفت أقول: هذه كلمة كبيرة، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب إلى غير حد. ولكن على المرء أن يكون صادقاً فيما يقول يا سادتي المحلفين؛ ولهذا

سأسمح لنفسي أن أسمي الأشياء بأسمائها فأقول: إن رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق في أن يسمى أباً، لأنه غير جدير بهذا الاسم. إن حب الابن أباه يصبح سخفاً حين لا يسوِّغه خُلُق الأب. إن مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل. ما كان للحب أن يقوم على العدم، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم. إن الرسول بولس الذي كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول: «وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم». إنني أسمح لنفسي أن أستشهد بهذه الأقوال المقدسة لا لأنني أفكر في موكلي فحسب، وإنما أنا أستشهد بها متجهاً إلى جميع الآباء. من الذي أعطاني حق أن أعظهم بما هو واجبهم؟ لا أحد! ولكنني أناديهم بصفتي إنساناً ومواطناً! إن إقامتنا على هذه الأرض قصيرة، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة. فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه التي تجمعنا في مكان واحد، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات طيبة تؤاسي القلب وتشدّ العزيمة. وذلك ما أفعله الآن: إنني أنتهز الفرصة لأخاطبكم جميعاً. ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر: إن الكلمات التي ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها. فإلى جميع الآباء أتجه بالكلام، لا إلى الآباء الحاضرين في هذه القاعة، فحسب، فأهتف قائلاً: «وأنتم أيها الآباء، لا تغيظوا أولادكم!». يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح، وبعد ذلك يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها. فإذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء أبنائنا بل كنا أعداءهم، وسيصبحون أعداءنا هم أيضاً، سيصبحون أعداءنا بسبب خطئنا نحن. «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم». لست أنا من يقول هذا الكلام، وإنما يقوله الانجيل: كيلوا بالكيل الذي يكال به لكم. فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذي نكيل لهم به؟ لقد وقع في فنلندة، في الآونة الأخيرة، أن اشتُبه في خادمة أنها أنجبت ولداً. فاكتشفوا في عنبر المنزل حقيبةً لها كانوا يجهلون

وجودها، فلما فتحوا الحقيبة وجدوا فيها جثة طفل وليد، الطفل الذي قتلته. ووجدوا في الحقيبة أيضاً هيكلين عظميَّين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما وقتلتهما فور ولادتهما، وذلك ما اعترفت به هي نفسها. فهل يمكننا يا سادتي المحلفين أن نسمي تلك المرأة أماً؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد، ولكن هل كانت أمهم حقاً؟ هل يجرؤ أحد منا أن يعطيها هذا اللقب المقدس، لقب الأم؟ فلنكن شجعاناً يا سادتي المحلَّفين! ولنكن جسورين، لأن من واجبنا في هذه اللحظة أن نكون كذلك، وأن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو أولئك اللواتي يؤمنّ بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت». بالعكس: يجب أن نبرهن على أن التقدم الذي تحقق في هذه السنين قد شمل تطورنا ولنعلن بوضوح أن الأب هو من يعطي الحياة، ويستحق ذلك. أنا أعلم أن هناك معنى آخر وتفسيراً آخر لكلمة أب التي تفرض أن يكون الأب وحشاً إلى أقصى إمكانياته، وحتى بالنسبة لأولاده، ويبقى أن هو الذي منحني الحياة. ولكن هذا التصور تصوُّر غيبي، تصوُّر لا يستطيع أن يدركه العقل، ولا يمكن قبوله إلّا على أنه عقيدة وايمان، مثله كمثل كثير من الأمور التي لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها. ومثل هذا التصور يبقى عندئذ في خارج الحياة الواقعية. أما في واقع الحياة الذي لا يشتمل على حقوق فحسب، بل يفرض علينا واجبات سامية، وإذا أردنا أن نكون إنسانيين ومسيحيين، في نهاية المطاف، يجب ألا نقدِّم، وينبغي ألا نقدم الاقناعات إلا إذا خضعت لامتحان العقل والتجربة؛ أي أن نتصرف كبشر عقلاء، وليس بجنون كما في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى للآخر ولا نؤذي أحداً، وحتى لا نضيع أحداً. ذلك هو الموقف المسيحي حقاً، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب، بل في الوقت نفسه عقلانياً، نعم، عمل حب حقيقي للآخر...».

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة، ولكن

فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده، كأنه يتوسل إليهم ألّا يقاطعوه وأن يأذنوا له بإتمام كلامه. فسرعان ما ساد الصمت من جديد، وواصل الخطيب حديثه فقال:

«هل تعتقدون يا سادتي المحلَّفين أن مثل هذه المسائل توفر أبناءنا المراهقين الذين بدأوا يفكرون؟ كلا، لا يمكن إلّا أن يتساءلوا في هذه الحالة، وليس في وسعنا أن نطلب منهم المستحيل. إن المراهق لا بد أن يشعر باضطراب كبير حين يرى أباه منحطاً، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد الآخرين هم رفاقه، فيلاحظ ما بين السلوكين من تناقض. قد يقال له عندئذ، حسب العادة المألوفة: «لقد وهب لك الحياة، وأنت دم دمه، فعليك أن تحبه». ولكن الفتى سيتساءل عندئذ بدون ارادة منه: «فهل كان يحبني حين وهب لي الحياة؟»، وسيزداد اضطراب الفتى أثناء تأمُلاته، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه: «لا، إنه لم يهب لي الحياة حباً بي أنا؛ إنه لم يكن يعرفني، بل إنه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى في لحظة الخلق تلك، في لحظات الهوى تلك التي لعل الخمرة هي التي كانت توقدها، فلم يورثني إلّا حب الشراب والميل إلى السكر. تلك كانت كل نعمه وآلائه عليَّ... فلماذا يُراد مني أن أحبه لا لسبب غير أنه أنجبني، مع أنه لم يكترث لي بعد ذلك في يوم من الأيام؟». قد تجدون هذا التفكير قاسياً يا سادتي، ولكن لا تطلبوا من عقل مراهق أكثر مما يطيق: «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب تعد إليكم من النافذة». ولنحاذر قبل كل شيء، أن يسيطر علينا الخوف من «المعدن» و«الكبريت»؛ ولنقض في الأمر بما توجبه قوانين العقل الإنسانية، لا بما تفرضه التصورات الغيبية. فما الذي نقرره عندئذ؟ إليكم الأمر: ليتقدم الابن إلى أبيه وليلق عليه في روية هذا السؤال «قل لي يا أبي لماذا يجب عليَّ أن أحبك»، فإذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه أن يحبه، كنا

بصدد أسرة طبيعية سليمة حقاً، أسرةٍ قائمة لا على أوهام غيبية، بل على وقائع واضحة التصور، إنسانية الحدود. أما في غير هذه الحالة، أي إذا عجز الأب عن الإتيان بالبرهان المطلوب، فقد انتهت تلك الأسرة، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر إلى أبيه نظرته إلى غريب، بل إلى عدوّ. إن منبرنا هذا، يا سادتي المحلَّفين، يجب أن يكون مدرسةً للحقيقة والمفاهيم السليمة!».

هنا قوطع الخطيب بعاصفة من التصفيق المسعور. بالطبع لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها، لكن نصف القاعة، مع ذلك، كان يصفق. كما أن صرخات حادة وصيحات إعجاب قد قامت في الجزء الأعلى من القاعة، وهو الجزء الذي فيه السيدات؛ وأخذت الأيدي تلوِّح بالمناديل؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يقرع جرسه بغير انقطاع. كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور، ولكنه لم يجرؤ أن يمضي إلى حد «إخلاء القاعة» عملاً بتهديداته السابقة: كان يشارك في التصفيق والتلويح بالمناديل تحية للخطيب كبار الموظفين الجالسين على كراسٍ خاصة، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين، لذلك اكتفى الرئيس، وبعد هدوء الضجة بالتهديد، بلهجة قاسية بإخلاء القاعة فيما استأنف فيتوكوفتش مرافعته، قائلاً:

«سادتي المحلَّفين، إنكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التي طالما تناولها الحديث أثناء هذه الجلسة، عندما تسلل فيها المتهم إلى منزل أبيه بعد أن تسلّق السور، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام عدوه ومهينه، الرجل الذي أنجبه. إنني ألحُّ: إن المتهم لم يأتِ في تلك اللحظة من أجل المال، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بيَّنت ذلك؛ ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل! كلّا! فلو كان ينوي ارتكاب جريمة، لاحتاط للأمر سلفاً فتزود، على الأقل، بسلاح، بسلاح حقيقي، لا مدقّ الهاون هذا الذي تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك.

لنسلِّم إذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء إلى تلك الإشارات السرية، فدخل البيت. لنسلِّم بهذا، لأنني لم أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات، كما سبق أن قلت ذلك. ولكن فلنسلم، خلال بضع دقائق، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً. إني أقسم لكم يا سادتي المحلفين، أن المتهم، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً واقتنع بأن تلك المرأة ليست في هذا المنزل، لكان هرب مسرعاً دون أن يُلحق بمنافسه أي أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه. لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله. لم يكن يملك الوقت، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين تلك المرأة. لكن الأب، الأب! آه يا سادتي! إن ظهور ذلك الأب هو الذي سبب كل شيء، ذلك الأب الذي كان يكرهه منذ طفولته، عدوه ومهينه، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له في حبه! إن شعوراً بالكره لا يغالَب قد استولى عليه حينذاك واستبد به، فأصبح لا يستطيع أن يفكر. ثار كل ما في نفسه حينذاك. كان ذلك انفجار جنون، ولكنه جنون طبيعي، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الإنسان بدون شعور، شأن كل ما هو من الطبيعة. ولكن القاتل، حتى في تلك اللحظة، لم يقتل! أنا أؤكد هذا وأصيح به هنا! كلا، وإنما هو اكتفى بأن رفع مدقه بحركة استياء، دون أن يكون في نيته القتل، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق في تلك اللحظة، فلربما كان سيكتفي بأن يضرب أباه، أما أن يقتله فلا. وعندما لاذ بالفرار بعد ذلك كان لا يدري هل قتل العجوز الذي ضربه أم لا. إن قتلاً يحدث في هذه الظروف لا يُعتبر قتلاً. وإن قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن أباه أيضاً. لا يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب. إننا لا نستطيع أن نتكلم هنا على جريمة قتل أب إلّا بسبب وهم قائم في الأذهان! ولكنني أعود فأسألكم مرة أخرى وبكل صدق، بكل نفسي: هل كان ثمَّة قتل فعلاً؟ تخيلوا يا سادتي المحلفين أننا

حكمنا على هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك: «إن هؤلاء الناس لم يفعلوا في سبيلي شيئاً من أجل أن يصلحوا أمري. لم يهتموا بتربيتي، ولم يحاولوا أن يجعلوا مني إنساناً أفضل. وإن هؤلاء الناس لم يعطوني ما أشربه ولا ما آكله، ولم يساعدوني يوماً في سجني المظلم، وها هم يرسلونني الآن إلى السجن في المنفى! إني إذن اليوم براء تجاههم، لا أدين لهم بشيء، ولن أدين بشيء لأحد من الناس في هذا العالم بعد هذه اللحظة! إنهم جميعاً أشرار، فسأكون شريراً مثلهم. إنهم جميعاً قساة، فسأكون قاسياً مثلهم». ذلك ما سيقوله يا سادتي المحلفين. أقسم لكم إنكم إذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذي سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره. صحيح أنه سيلعن الجريمة التي ارتكبها، ولكنه لن يشعر بالندامة. إذا حكمتم عليه كنتم تحطمون إلى الأبد ما في نفسه من إمكانيات إصلاح حاله، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر طوال حياته. فلماذا لا تؤْثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هو أفظع عقاب يمكن تصوره، مع إنقاذكم نفسه، ومنحه فرصة أن يُخلق مجدداً إلى الأبد؟ ألا فأرهقوه برحمتكم، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروّع النفس عندئذ، قائلاً: «هل أستطيع أن أحتمل هذه الرحمة، هل أنا جدير بهذا الحب كله، هل أستحق هذا الحب فعلاً؟». هكذا سيكون ردُّه على رحمتكم. إنني أعرف هذا الرجل يا سادتي المحلّفين، إنه متوحش، ولكنه نبيل القلب. لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم، لأنه ظامىء إلى الحب قبل أي شيء آخر، وسيلتهب قلبه عندئذ بشكل رائع، وسيولد من جديد. إن هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل إنسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة. فاشملوا هذه النفس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم، فإذا هي تلعن وضعها السابق وموقفها الماضي، لأن فيها قدْراً كبيراً من الأشواق النبيلة المكبوتة. سوف تتفتح روح هذا الإنسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الإنسان وعدالة

البشر. سوف تروِّعه عندئذ جريمته، فيسحقه عذاب الضمير، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذي يقع على عاتقه بعد الآن. لن يقول بعدئذ: «أنا الآن براء لا أدين لأحد بشيء»، بل سيقول: «أنا آثم أمام جميع الناس، لأنني أحط الناس جميعاً». ومن خلال دموع ندامته، سيصيح وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها نار محرقة: «جميع الناس خير مني لأنهم أرادوا خلاصي لا ضياعي!». سهلٌ عليكم أن تحققوا فعل الرحمة هذا، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً إذا أنتم أصدرتم حكمكم بإدانته رغم عدم توفُّر الأدلة المقنعة! لأن نبرىء عشرة مجرمين خير من أن نجرِّم بريئاً ـ هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذي انطلق في آخر قرن من تاريخنا المجيد؟ هل عليَّ أنا، أنا المخلوق الضعيف، أن أذكِّركم بأن القضاء الروسي لا يهدف إلى العقاب فحسب، وإنما يهدف كذلك إلى إنقاذ الإنسان الذي زلت قدمه فسقط؟ فلتلتزم الشعوب الأخرى بحرفية النص وبالعقاب؛ أما نحن فلنا الروح والمعنى، والخلاص والقيامة للذين خسروا أنفسهم. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان حقاً هذه هي روسيا، وهذا هو قضاؤها، أنت لا تخيفيننا، نعم، لا تخيفيننا بالترويكات إذن، إلى الأمام يا روسيا. خاصتك التي تتجنبها الدول الأخرى تعرف. إنك لست ترويكا مسعورة، إنما مركبة فخمة لروسيا التي ستبلغ هدفها بهدوء وجلال. تتقدم نحو هدفها هادئة مظفَّرة. بين أيديكم مصير موكلي، بل مصير العدالة الروسية أيضاً. يمكنكم إنقاذها وبإمكانكم أن تدافعوا عنها، فتظهروا أن ثمة أناساً يسهرون عليها، وأنها في أيدٍ أمينة!».

# XIV

## الفلاحون لم يتفككوا

هكذا ختم فيتوكوفتش مرافعته، فإذا حماسة المستعمين تنفجر كأنها العاصفة. كان يستحيل احتواؤه: فالنساء ينتحبن، وعدد كبير من الرجال يبكون أيضاً، حتى أن اثنين من كبار الموظفين بكيا أيضاً. فأذعن الرئيس وتأخر في قرع جرسه. «إن محاولة لجم مثل هذه الحماسة يعني تدنيساً للمقدسات!»، ذلك ما هتفت به نساؤنا. المحامي ذاته كان منفعلاً بصدق. وفي تلك الدقيقة، نهض هيبوليت كيريلوفتش مرة أخرى «ليثير بعض الاعتراضات». نظر إليه الناس نظرة غاضبة: «ماذا؟ كيف؟ إنه يجيز لنفسه أن يردَّ؟». تمتمت إحدى السيدات. ولكن لو أن جميع نساء الأرض، وعلى رأسهن زوجة هيبوليت كيريلوفتش، احتججن لما تمكن من أن يوقفن وكيل النيابة عن الكلام في تلك اللحظة. كان هيبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه، يرتجف انفعالاً. إن الكلمات الأولى التي قالها كانت مضطربة غير واضحة، لأن الرجل كان يختنق بكلامه، وكان ينطق بألفاظه بشكل غامض، وكانت عباراته مشوَّشة. ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه. وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردِّه:

«... يلومونا لأننا ألفنا روايات. ولكن ما الذي فعله الدفاع غير تكديس

رواية فوق أخرى؟ لم يكن يعوز مداخلته إلا الأشعار. إن فيودور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته!... وينقلون لنا أيضاً ماذا قال في تلك الواقعة المثيرة للدهشة. أليس هذا شعراً؟ وأين هو البرهان على أنه أخرج المال من الظرف؟ من الذي سمع الكلمات التي قالها حينذاك؟ وهذا الإنسان الضعيف العقل، سمردياكوف، الذي يصوره لنا الدفاع في صورة بطل رومنسي يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية، هل الكلام عليه على هذا النحو إلّا قصيدة من طراز قصائد بايرون؟ والابن الذي دخل منزل أبيه وقتله والذي لم يقتله في الوقت نفسه، ليست حتى رواية، إنها قصيدة. إنه أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلِّها. إذا قتل فقد قتل. لكن كيف يقتل إنسان دون أن يقتل، من يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا؟ ثم يعلنون لنا أن منبرنا هو منبر الحقيقة والأفكار السليمة، ثم ها هم، من على منبر «الأفكار السليمة» هذا، كما يعلمون بديهية من البديهيات، أن إطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أبٍ بيد ابنه هو وهم من الأوهام الاجتماعية! ولكن إذا كانت جريمة قتل الأب حكماً مسبقاً، وإذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الأسباب التي توجب عليه أن يحبه، فما هو مصير بلادنا، ما هو مصير الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا، وما هو مصير الأسرة؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بذلك الخوف الذي تحسُّه النفوس المؤمنة بالخرافات، شبيه بخوف بائعات موسكو من «الكبريت»! إنهم يشوهون أقدس قواعد العدالة الروسية، ويعبثون بمصيرها ومستقبلها، وذلك كله في سبيل الوصول إلى الهدف الحقيقي الذي يسعَون إليه، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه، والعفو عما لا يمكن العفو عنه. لقد صاح المحامي: «حطِّموه برحمتكم!». إن هذا هو كل ما يتمناه المتهم، وسوف ترون غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه! يخيَّل إليَّ أن المحامي كان متواضعاً جداً وقنوعاً جداً حين

اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم. لماذا لم يطالب بإنشاء جائزة تسمى باسم قاتل أبيه، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الجيل الجديد؟ ويريدون أن يصححوا الإنجيل وتعاليم الدين، فيقولون: «هذا من الأمور الغيبية!». إننا نحن الذين نطبّق المسيحية الحقيقية التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة! ومضوا إلى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة! «سيُكال لكم بالكيل الذي كلتم به»: بهذا صاح المحامي، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به. فانظروا إلى ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا! واضح أنهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الإنجيل إلّا عشية إلقائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس، ما احتاجوا إلى ذلك طبعاً! إن المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم فاسد شرير؛ وإنما هو يأمرنا، على خلاف ذلك، أن نغفر الإساءات التي أُلحقت بنا، وأن ندير خدنا الأيسر، بدلاً من أن نكيل للمسيئين إلينا بالكيل الذي كالوا لنا به: ذلك ما يعلّمنا إياه الرب؛ وليس أن منع الأبناء من قتل آبائهم هو حكم مسبق! ونحن لسنا في وارد أن نقوم، من على كرسي الحقيقة والمفاهيم السليمة لانجيل ربنا الذي يتفضل الدفاع ويسميه صديق الإنسانية المصلوب»، خلافاً لروسيا الأورثوذكسية التي تبتهل بهذه التعابير: «أنت إلهنا...!».

هنا تدخل الرئيس ليدعو وكيل النيابة إلى الهدوء، راجياً منه ألّا يبالغ، وألّا يتجاوز الحدود، إلى آخر ما هنالك من معزوفة الرؤساء. وكانت القاعة تضطرب وتتحرك. لقد أصبح الجمهور عصبياً، وأصبحت تُسمع صيحات استياء هنا وهناك. وعدل فيتوكوفتش عن الرد، ولم يزد على أن تقدم واضعاً يده على قلبه، فقال بضع كلمات تفيض رصانة، قالها بلهجة إنسان أوذي

شعوره؛ وعاد يشير إشارة عابرة ساخرة إلى «الروايات» و «السيكولوجيا»، ووجد السبيل إلى أن يستشهد بالقول المأثور: «قد غضبت يا جوبيتر، فأنت إذن على خطإٍ»، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد، لأن هيبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبيتر؛ ثم أعلن يقول برصانة إنه لن يردّ حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم؛ أما فيما يتعلق «بالصورة الباطلة للمسيح»، وبأن المحامي لم يتنازل فيسمي المسيح «إلهاً» وإنما اقتصرعلى تسميته بـ«صديق الإنسانية المصلوب» الأمر الذي يتناقض مع الأورثوذكسية والذي لا يمكن أن يلقى «من على منبر الحقيقة والمعاني المجردة السليمة»، فقد قال فيتوكوفتش إن في هذا «غمزاً»، وإنه حين جاء إلى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا المنبر بحرية، دون أن يتعرض «لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف»... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكّره بالتزام النظام، فما كان من فيتوكوفتش إلّا أن انحنى قائلاً إنه أنهى كلامه، ولم يبق لديه ما يضيفه؛ وعاد إلى مكانه تصحبه تمتمات الاستحسان والتأييد من الجمهور. أما هيبوليت كيريلوفتش فقد كان «منسحقاً انسحاقاً نهائياً» كما أكدت سيداتنا من بعد.

أعطي الكلام إلى المتهم، فنهض ميتيا، ولكنه لم يقل إلّا بضع كلمات. كان يبدو منهار القوى روحاً وجسماً. ومظهر الاستقلال والقوة التي كانت بادية فيه عندما دخل قاعة المحكمة في الصباح قد اختفت الآن أو كادت. كان وكأنه قد عاش في هذا النهار تجربة علمنة وأفهمته شيئاً رئيسياً لم يكن يفهمه قبل الآن. أصبح صوته ضعيفاً، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ في بداية الجلسة؛ وفي كلامه الآن نبرة جديدة، نغمة فيها انكسار ومذلة. قال:

«ماذا أستطيع أن أقول لكم يا سادتي المحلَّفين؟ لقد دقت ساعة حسابي، ووضع الله يده عليَّ. نهاية حياة رجل فاسد! ولكنني كما أعترف أمام الله

أقول لكم أيضاً: «إنني لم أسفح دم أبي»؛ أكرر لكم للمرة الأخيرة «أنني لست الذي قتله». لقد عشت حياة فاسقة، ولكنني كنت أحب الخير. كنت أفكر دائماً في إصلاح نفسي، ومع ذلك بقيت أعيش كما يعيش حيوان متوحش. أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عني أموراً كنت أجهلها أنا نفسي. ولكن قوله إنني قتلت أبي قول خطأ. لقد أخطأ السيد وكيل النيابة! وأشكر للمحامي دفاعه عني أيضاً. لقد بكيت وأنا أصغي إلى كلامه. ولكن من الخطأ أن يُقال إنني قتلت أبي؛ وما كان ينبغي حتى أن يُفترض أنني فعلت ذلك! أما الأطباء فلا تصدقوهم! إنني أملك عقلي كاملاً، ولكن نفسي مرهقة. إن تسامحتم معي فأطلقتم سراحي دعوت لكم وصلّيت من أجلكم؛ وإني لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمري، أقسم لكم أمام الله؛ وإن حكمتم عليَّ توليت بنفسي تحطيم سيفي وقبلت حطامه. ولكن ترفقوا بي: لا تحرموني من إلهي. إنني أعرف نفسي، فلو فعلتم لثرت وتمردت! إن نفسي مرهقة أيها السادة... فترفّقوا بي!».

كاد يسقط في مكانه، تهدم صوته، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة إلّا في كثير من العناء. وانتقلت المحكمة إلى تحرير الأسئلة وطلبت من الأطراف الاستنتاجات. لن أدخل في عرض التفاصيل. ونهض المحلَّفون أخيراً للمداولة. وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه إليهم إلّا جملة واحدة، قال: «لا تتحيزوا، لا تتأثروا بالأقوال البليغة التي تضمنها خطاب الدفاع، بل زنوا قراركم، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة إليكم»، الخ... وعُلِّقت الجلسة بعد خروج المحلفين. أصبح يحق للحضور أن يقفوا، وأن يسيروا، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر مع الأصدقاء، وأن يذهبوا إلى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام. وكان الوقت متأخراً، فالساعة هي الواحدة صباحاً، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف. كانت أعصاب الجميع مشدودة وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر في خلده أن ينصرف ليرتاح. كان الناس ينتظرون قرار

المحكمة بما يشبه الحمّى. على أن القلق لم يكن عاماً؛ إن السيدات خاصةً هنَّ اللواتي سيطر عليهن نفاد الصبر إلى حد الهستيريا. ومع ذلك لم يساورهن أي خوف. كنّ وهنّ يتهيأن للحظة الحماسة المؤثرة، كنّ يقلن: «لا شك أنه سيبرَّأ». ويجب عليَّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً كان يشاطرهم هذا اليقين من أن المتهم سيبرّأ، فرح البعض واسودت وجوه البعض الآخر، بل إن منهم من استطالت أنوفهم امتعاضاً: كان هؤلاء لا يريدون البراءة. أما فيتوكوفش فكان واثقاً بالنصر. وكان الناس يحيطون به، ويهنئونه، ويمدحونه. فقال لجماعة منهم، كما رُوي فيما بعد:

ـ هناك، قال للبعض، كما روي لاحقاً، خيوط غير منظورة تربط المحامي بالمحلَّفين، وهذه الخيوط تنعقد وتدرَك أثناء المرافعة نفسها. لقد ربحنا القضية، لا تخافوا.

قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين عابس الوجه وهو يقترب من جماعة حمي فيها وطيس المناقشة. إنه أحد مالكي الأطيان في ضواحي مدينتنا، إني لأتساءل عما عسى أن يقرره فلاحونا الصغار الآن!

ـ ليس ثمة فلاحون، لديهم أربعة موظفين.

ـ نعم، يوجد موظفون. قال أحد أعضاء «مجلس المدينة» مؤمِّناً وهو ينضم إلى الجماعة.

ـ وبروخور إيڤانوفتش نازارييف، هل تعرفونه، ذلك التاجر، مع وسامه، عضو في هيئة المحلَّفين؟

ـ ولماذا؟

ـ لأنه من أذكى أعضاء الهيئة.

ـ ولكنه يصمت طوال الوقت.

ـ صحيح. لا يقول شيئاً. هذا أفضل. ليس أناس بطرسبورغ هم الذين

يستطيعون أن يلقنوه دروساً. إنه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك. إن له اثني عشر ولداً، تصوروا.

وفي جماعة أخرى هتف أحد الموظفين:

ـ وكيف لا يبرّئونه؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة:

ـ سيبرّئونه حتماً.

ـ عار ألّا يبرّئوه، قال الموظف. صحيح أنه قتل، ولكنه قتل أباه، قتل ذلك الأب. ثم إنه كان في حالة اهتياج شديد... من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدقّ دون أن يكون في نيته أن يقتل، فإذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة. لكنني أرى أن إقحام ذلك الخادم في القضية أمر مؤسف. كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر. لو كنت في مكان المحامي، لصحت أقول صراحة: «نعم قتل، ولكنه ليس مجرماً؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً!».

ـ ولكن هذا ما قاله هو، باستثناء حكاية الشيطان هذه.

فقال ثالث:

ـ بل كاد يقول لهم «فليأخذكم الشيطان» يا ميشيل سيميونتش.

ـ تصوروا يا سادة! لقد برّأوا عندنا، أثناء الصيام، ممثلةً نحرت عنق زوجة عشيقها الشرعية.

ـ نعم، ولكنها لم تقطعه إلى آخره.

ـ أوشكت أن تقطعه على كل حال.

ـ وعن الأبناء؟ كان كلامه رائعاً.

ـ رائعاً!

ـ وعن الغيبية؟

ـ دعوكم من الغيبية قال آخر. ضعوا نفسكم مكان هيبوليت في المصير الذي ينتظره. لسوف تفقأ امرأته عينيه بأظفارها بسبب ميتيا.

ـ لماذا أهي في القاعة؟

ـ ما هذا السؤال؟ لو كانت في القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة. ولكنها في المنزل، لأنها تشكو من أوجاع في أسنانها، هيء هيء!

وفي جماعة ثالثة دار الحديث التالي:

ـ من الجائز أن يُبرّأ ميتيا!

ـ سوف ترى غداً! لسوف يقلب كل شيء في كاباريه «العاصمة الكبرى»، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام.

ـ يا له من شيطان!

ـ الشيطان، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا. أين يوجد الشيطان إن لم يوجد في هذه القاعة؟

ـ كفاكم بلاغة أيها السادة! لا يجوز تحطيم جمجمة أبٍ على كل حال. وإلّا فإلى أين المصير؟

ـ وما قاله عن المركبة، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة؟

ـ نعم، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة!

ـ سيردها في الغد عربة بسيطة «ما أحتاج إلى ذلك»، على حد تعبير وكيل النيابة. لا شيء إلّا الانتهازية!

ـ لقد زادت براعة الناس. قل لي: ألا تزال ثمة حقيقة في روسيا؟

ولكن الجرس بدأ يرن. تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة. ساد صمت عميق منذ عاد الحضور إلى أماكنهم. ها هي هيئة المحلفين تدخل القاعة. لن أذكر، بالترتيب، الأسئلة التي كان عليها أن تجيب عنها، لأنني نسيتها. كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس:

«هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق تصوُّر وتصميم بقصد السرقة؟» (نسيت النص الدقيق). خيَّم على القاعة صمت يشبه الموت. وقال رئيس هيئة المحلفين، وهو أصغر الموظفين سناً، قال بصوت قوي واضح دوَّى في أرجاء القاعة كقرع الناقوس حين ينعى ميتاً:

ـ نعم، إنه مذنب.

وتكرار الجواب نفسه عن كل النقاط: مذنب، مذنب، دون أي ظرف مخفِّف. لم يكن أحد يتوقع ذلك، لأن جميع الناس كانوا يعتقدون أن تكون هنالك أسباب تخفيفية على الأقل. استمر الصمت الذي يشبه صمت الموت، الجميع كان مذهولاً، الذين كانوا يتمنون الادانة كالذين كانوا يتمنَّون أن يُبرَّأ. ولكن هذا السكون لم يدم إلّا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة. فأما الرجال فإن عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدي غبطة وسروراً دون أن يحاول إخفاء فرحه؛ وصُعق المستاؤون منهم فأخذوا يرفعون اكتافهم ويتهامسون، ولكن لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد. وأما السيدات، فيا رب السماء! لقد خيِّل إليَّ أنهن سيقمن بثورة! إنهن في أول الأمر لم يصدّقن آذانهن؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات في جميع أرجاء القاعة: «ما معنى هذا؟ ما هذه الحكاية؟»، وأخذن يقفزن عن أماكنهن. واضح أنه كان يخيَّل إليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر. وفي تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة، وصاح بصوت ممزَّق، ماداً ذراعيه إلى الأمام:

ـ إنني أقسم بالله، وبحكم الآخرة، إنني بريء من دم أبي! أما أنت يا كاتيا فإنني أغفر لك. ويا إخوتي، يا أصدقائي، ترفقوا بالأخرى!

لم يكمل ميتيا كلامه، وانفجر بالبكاء بأعلى صوته، بصوت ليس صوته، بصوت جديد غير متوقع، جاءه فجأة لا ندري من أين. وفي أعلى القاعة، من

ركن مظلم بالشرفة، انطلقت صرخة حادة: إنها غروشنكا. كانت غروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة إلى القاعة، قبل إلقاء مطالعة النيابة. واقتيد ميتيا. وأرجىء إعلان الحكم إلى الغد. ونهضت القاعة في جلبة شديدة، لكنني لم أكن أسمع ولا أصغي. لا أذكر سوى بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة.

ـ سوف يتعفن عشرين عاماً في المناجم.

ـ ليس أقل!

ـ نعم، لم يتراجع فلاحونا.

ـ انتصفوا من ميتينكا!

# I

## مشاريع لإنقاذ ميتيا

في اليوم الخامس بعد صدور الحكم على ميتيا، استقبلت كاترينا إيڤانوفنا في الصباح الباكر قبل الساعة التاسعة، إيليوشا الذي جاء ليتفق نهائياً معها على أمر يهمّهما كليهما كثيراً، والذي كان عدا ذلك مكلفاً بمهمة. استقبلته وتحدثت معه في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها غروشنكا. وفي الغرفة المجاورة كان يرقد إيڤان فيودوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى الحارة. لقد نقلته كاترينا إيڤانوفنا إلى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها. وكانت قد سافرت إحدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها، إلى موسكو إثر نهاية المحاكمة، وبقيت الأخرى في منزل كاترينا إيڤانوفنا. ولكن كاترينا إيڤانوفنا ما كانت لتعدل عن قرارها، ولو كانت وحيدةً في منزلها، ولسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً. وكان الطبيبان فارفنسكي وهرتسننشتوبه يعالجان إيڤان. أما الاختصاصي الذي جاء من موسكو فقد سافر دون أن يفصح عن رأيه فيما عسى تصير إليه حالة المريض، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض. وكان الطبيبان يبذلان لكاترينا إيڤانوفنا وإيليوشا أنواع

التشجيع، ولكنهما لا يجازفان فيقدمان لهما آمالاً قاطعة. وكان إيليوشا يزور أخاه المريض مرتين يومياً. لكنه جاء الآن لأمر محرج ومربك، وهو يشعر بمدى الصعوبة في مواجهة الموضوع، ولا يعرف من أين يأتيه. وكان عدا ذلك في عجلة من أمره، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبءٍ ثان، في حيّ غير هذا الحيّ من المدينة، فكان ينبغي أن يسرع. إنهما يتحدثان منذ ربع ساعة. كانت كاترينا إيڤانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون، منهوكة القوى، ولكنها في الوقت نفسه مليئة بهياج مرضي؛ كانت في الواقع تعرف الهدف الذي جاء إيليوشا ليراها من أجله.

ـ لا تقلق من قراره، قالت لإيليوشا بإلحاح لا يلين. بهذا الشكل أو ذاك سيصل مع ذلك إلى هذا المخرج: يجب أن يهرب. إن هذا المسكين، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير ـ أوه! لا أقصد ديمتري فيودوروفتش، لا، هو الذي وراء هذا الباب، والذي ضحى بنفسه في سبيل أخيه ـ أضافت تقول كاتيا وقد سطعت عيناها ـ لقد أطلعني منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا. ولعلك تعلم أنه اتصل بأشخاص عدة... وقد ألمحت لك بشيء من قبل على كل حال... سيتم الفرار في المرحلة الثالثة من مراحل الطريق في أغلب الظن، أثناء سفر قافلة السجناء إلى سيبيريا. أوه! ما يزال الأمر بعيداً. وقد زار إيڤان فيودوروفتش رئيس المحطة الثالثة. ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذي سيقود القافلة، لأن من المستحيل أن نعرف ذلك مسبقاً. وقد أطلعك غداً على تفاصيل الخطة التي تركها لي إيڤان فيودوروفتش قبل المحاكمة بيوم، احتياطاً لما قد يحدث له... تمَّ هذا في ذلك اليوم نفسه الذي رأيتنا نتشاجر فيه. أنت تذكر هذا. لقد خرج من عندي فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية. تتذكر هذا، أليس كذلك؟ فهل تعرف فيمَ كنا نتشاجر؟

ـ لا، لا أعرف. قال إيليوشا.

ـ لقد أخفى عنك هذا طبعاً: بسبب خطة الفرار هذه. كان قد عرض لي، قبل ذلك بثلاثة أيام، الأمور الأساسية من هذه الخطة؛ وفي تلك اللحظة قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام. فحين أعلن لي أن ديمتري فيودوروفتش سيهرب إلى الخارج مع تلك المخلوقة إذا حُكم عليه، شعرت بغضب لا يوصف. لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت، لأنني أجهل أنا نفسي سبب غضبي... آه! السبب هو تلك المخلوقة طبعاً! فبسببها ثارت ثائرتي، لأن تلك المخلوقة تطمع في أن تسافر إلى الخارج مع ديمتري فيودوروفتش! بهذا صاحت كاترينا إيڤانوفنا وقد أخذت شفتاها ترتجفان من شدة الغضب. وتابعت كلامها فلما لاحظ إيڤان فيودوروفتش أنني غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أنني أغار منها، وأنني ما زلت أحب ديمتري فيودوروفتش. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى في ذلك اليوم. لم أشأ أن أشرح له الأمر، ولا كنت أستطيع أن أعتذر إليه أيضاً. ولكن كان يحز في نفسي أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة إيڤان فيودوروفتش يمكن أن يهجس في نفسه أنني ما زلت أحب ذلك الـ... مع أنني كنت قد أكدت له أنا نفسي منذ مدة طويلة أنني أصبحت لا أحب ديمتري، وأنني لا أحب أحداً إلّا هو إيڤان!... فلما غضبت من تلك المخلوقة، ثارت ثائرته عليّ. وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ذلك المساء نفسه الذي جئت فيه إليَّ، جاءني إيڤان بظرف مختوم وطلب مني ألّا أفض الظرف إلّا إذا وقع له شيء. أوه! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه. وقال لي إن الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار، وإن عليَّ أن أتولى وحدي إنقاذ ميتيا، إذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً. وفي تلك المناسبة نفسها ترك مالاً، قرابة عشرة آلاف روبل ـ هو ذلك المبلغ نفسه الذي جاء على ذكره وكيل النيابة في مطالعته بعد أن علم صدفة أن إيڤان قد كلف أحد الناس إحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدِّلها. وقد أدهشني جداً عندئذ أن ألاحظ أن

إيڤان فيودوروفتش، رغم غيرته عليَّ ورغم اقتناعه بأنني ما زلت أحب ميتيا، لم يبدّل رأيه في إنقاذ أخيه، وأنه يعهد إليّ، إليَّ أنا، بالقيام بهذه المهمة. آه... ما كان أقوى روح التضحية في سلوكه هذا! لا يا ألكسي فيودوروفتش! إنك لا تستطيع أن تدرك كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات! تمنيت لو أرتمي على قدميه، شعوراً بإعجاب لا حدود له. ولكن هجس في نفسي أنه قد يعزو هذه البادرة مني إلى فرحي بإنقاذ ميتيا (كان سيؤوّل بادرتي هذا التأويل حتماً)، فما إن تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم في حقي حتى ثارت ثائرتي مجدداً، واشتد غضبي، فبدلاً من أن أقبل قدميه، رحت أضايقه. آه، ما أشقاني! ذلك هو طبعي. إنه طبع رهيب! سوف ترى، سوف ترى: سوف أعمل كل ما من شأنه أن يبعث في نفسه التعب والضجر مني، فإذا هو يهجرني أخيراً إلى امرأة أخرى يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يتفاهم معي، تماماً كما فعل ديمتري. ولكن في هذه الحالة، لا، لن أحتمل في هذه المرة. سوف أنتحر! وحين دخلتَ عليَّ، بعد أن أمرتُه بالصعود ثانيةً، جُنَّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة. وعندئذ ـ هل تتذكر؟ ـ عندئذ صرخت أقول إنه «هو وحده» الذي جعلني أعتقد بأن أخاه ديمتري قاتل! لقد كذبت عمداً، لكي أجرحه مرة أخرى. والحقيقة هي عكس ذلك: فأنا التي كنت قد سعيت إلى إقناعه بأن ميتيا قاتل. آه. إن طبعي اللعين هو سبب البلاء كله! أنا، أنا المسؤولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة! لقد أراد أن يبرهن لي على نبل أخلاقه، أراد أن يبيِّن لي أنه، رغم حبي أخاه، لن يقبل أن يضيِّعه غيرةً وانتقاماً. لهذا تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة... أنا سبب كل شيء، أنا وحدي المذنبة!

لم يسبق لكاتيا أن قامت في يوم من الأيام بمثل هذه الاعترافات لإيليوشا، فأحس إيليوشا أنها كانت عندئذ تعاني ذلك العذاب الذي لا يطاق،

ذلك العذاب الذي يجعل النفس المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم. ثم لقد كان إيليوشا يدرك أن ثمة سبباً آخر أيضاً لعذاباتها، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه إلى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها، وأن تحدثه عن هذا السبب تلقائياً في هذه اللحظة نفسها: الواقع أن كاتيا كانت تتألم من «الخيانة» التي قارفتها في المحكمة. وأحس إيليوشا أن ضميرها كان يدفعها إلى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً، أن تتهم نفسها بدموع غزيرة وصرخات حادة، وربما برطم جبينها بالأرض في نوبة هستيرية من نوبات عذاب الوجدان. لكنه كان يخشى هذه اللحظة، ويريد أن يواسي هذه المرأة المعذَّبة. ولقد ازدادت صعوبة المهمة التي جاء من أجلها. وعاد يتكلم على ميتيا.

لا تقلق، لا تقلق له! لا تخش من شيء إن معارضته لن تستمر أكثر من دقيقة. أنا أعرفه، أعرف قلبه. ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً. وخاصةً ليس الآن، وسيكون لديه الوقت الكافي لاتخاذ قراره. ومن الآن إلى أن يحين الموعد، يكون إيڤان قد شفي من مرضه، فيتولى القضية بنفسه، ولن يكون عليَّ أنا أن أهتم بها. لا تخف، سيوافق على الهرب. بل إنه لموافق منذ الآن: فأنَّى له أن يترك تلك المخلوقة! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه إلى المعتقل، فلم يبق له إلّا أن يهرب. فهو يخاف منك خصوصاً، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية. فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق، ومن واجبك أن تأذن له مادام هذا الإذن ضرورياً.

ثم أردفت بعد لحظات:

ـ إنه يتحدث في السجن عن نشيد، عن صليب عليه أن يحمله، عن واجب عليه أن يقوم به. ولا أدري أي واجب؟ إنني أتذكر أن إيڤان فيودوروفتش قد

أخبرني الكثير عن هذا الموضوع. ولو تعلم بأي طريقة كان إيڤان يتكلم! هتفت كاتيا في اندفاعة لا تقاوم. ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقي حين كان يتكلم عليه، وكم كان يبغضه ربما في الوقت نفسه أيضاً! أما أنا، فقد استمعت إلى هذه القصة التي رواها لي وهو يبكي، استمعت إليها وأنا أحدّق إليه متكبرة ساخرة! ما أحطَّني من مخلوقة! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة! بسببي أصيب بالحمّى الحارة! أما الآخر، الذي حكم عليه، فإنه غير مستعد لأن يتألم أبداً. وهل في وسع امرىء مثله أن يتألم؟ إن رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً.

إن نبرة اشمئزاز واحتقار برزت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة. في حين أنها هي التي خانته. قال إيليوشا لنفسه: «هي تكرهه في بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت في حقه». كان إيليوشا يتمنى أن لا تكرهه إلّا في بعض اللحظات. وقد لاحظ إيليوشا في الكلمات الأخيرة التي قالتها كاتيا شيئاً من تحد، ولكنه لم يكترث.

ـ كان هدفي من استدعائك اليوم. أضافت كاتيا بلهجة استفزازية. هو أن تعدني بأن تمارس تأثيرك فيه لإقناعه، اللهم إلّا أن تعتبر الفرار عملاً منافياً للشرف، مناقضاً للكرامة، أو ماذا أقول؟... ربما كنت تعتبر الفرار مخالفاً للمسيحية؟

ـ لا لماذا؟ سأقول له كل شيء. تمتم إيليوشا. إنه يطلب إليك أن تجيئي إليه اليوم. وحدَّق في عينيها، فارتعشت بكل جسمها، وتقهقرت قليلاً إلى الوراء، وتمتمت وقد اصفر وجـهها:

ـ أنا؟... ولكن هل هذا ممكن؟

ـ هذا ممكن وضروري، قال إيليوشا بإلحاح. لا بد أن يراك، الآن خاصةً. ولولا أن ذلك واجب حتماً، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أؤلمك في غير طائل. إنه مريض. إنه شبه مجنون. إنه يناديك باستمرار. وهو لا يريد أن

يراك من أجل أن يصالحك. كل ما يطلبه هو أن تذهبي إليه وتظهري له عند باب غرفته. إن تحولاً كبيراً قد حدث في نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم. لقد أدرك مدى الإثم الذي اقترفه في حقك. ليس يسألك أن تسامحيه. هو نفسه يقول: «أنا لا أستحق الغفران». كل ما يرجوه هو أن تظهري له عند عتبة غرفته... أنت تحرجني... تمتمت كاتيا. كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئني طالباً مني ذلك... كنت واثقة بأنه سيدعوني. ولكن لا... مستحيل!

ـ ربما مستحيل. لكن عليك أن تقومي بذلك. تذكري أنه لأول مرة في حياته يدرك مدى الاساءة التي ألحقها بك. يدرك هذا لأول مرة في حياته. إنه لم يدركه في يوم من الأيام كما يدركه الآن. قال لي: «إذا رفضت أن تأتي فسأكون تعيساً طوال عمري». هل تفهمين؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً! أليس هذا مما يستحق الشفقة؟ تذكري أيضاً أنك تزورين إنساناً بريئاً. هتف إيليوشا بلهجة فيها تحدٍ. إن يديه طاهرتان لم يلوثهما دم. فاذهبي إليه، اذهبي إليه بسبب هذه الآلام الذي لا حدود لها!... اذهبي، مدِّي إليه يدك في هذه الليلة... اظهري له على الباب فحسب، على الباب فحسب... هذا واجب عليك، هذا واجب عليك... ختم إيليوشا كلامه ملحّاً على كلمة «واجب» إلحاحاً يكاد يشتمل على عنف.

ـ هذا واجب عليَّ، ولكن... قالت كاتيا بصوت فيه أنين، لا أستطيع. سينظر إليَّ... لا أستطيع.

ـ يجب أن تلتقي نظراتكما. كيف يمكنك أن تعيشي حياتك في المستقبل إذا لم تقرري الآن؟

ـ أؤْثر أن أبقى أتألم طوال حياتي!

ـ يجب أن تذهبي إليه، يجب. قال إيليوشا بإلحاح لا ينثني عن عزمه.

ـ ولكن لماذا اليوم؟ قالت كاتيا لماذا حالاً؟ يستحيل عليَّ أن أترك المريض وحده.

ـ بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات. لن يطول غيابك. ما كنت لأقول لك هذا لولا أنه حق. ليكن في قلبك شيء من شفقة.

ـ أنا أوْلى بالشفقة. أجابت كاتيا بلهجة عتاب مر.

وأخذت تبكي.

ـ معنى هذا أنك آتية. سأبلغه أنك ستجيئين حالاً. قال إيليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها.

هتفت كاتيا مذعورة:

ـ لا، مهما كلف الأمر لا تقل له ذلك. سأذهب إليه، ولكن لا تبلغه ذلك مسبقاً. لأنني سأذهب ولكن ربما لن أدخل... لا أدري بعد...

انقطع صوتها. كانت تتنفس بصعوبة. ونهض إيليوشا لينصرف.

ـ فماذا لو لقيت أحداً هناك؟ فسألته بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد:

ـ لهذا السبب يجب أن تأتي إليه الآن كي لا تجدي أحداً. لن يكون هناك أحد. أنا واثق بما أقول. وختم كلامه يقول بإلحاح: سننتظرك. وخرج من الغرفة.

# II

## صار الكذب حقيقة في لحظة

أسرع الخطى باتجاه المستشفى حيث كان ميتيا الآن. فقد أصيب ميتيا بحمّى عصبية بعد صدور الحكم، فنُقل إلى مستشفى مدينتنا، حيث أودع القسم المخصص للسجناء. ولكن الدكتور فارفنسكي وافق أخيراً بناء على طلب إيليوشا وأشخاص كثيرين (مثل السيدة خوخلاكوفا وليزا وآخرين) أن لا يوضع ميتيا بين السجناء، وإنما في الغرفة الصغيرة، التي أقام بها سمردياكوف. إن على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية، فليس على فارفنسكي أن يتمتع بهذه المعاملة المميزة دون أن يخشى شيئاً. أدرك الطبيب شاباً مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وهو يعيش في وسط قتلة ولصوص، وأنه يحتاج إلى مرحلة انتقالية ليتعود الوضع الجديد. ويمكن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً أن يزوروه، بإذن من الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة. ولكن إيليوشا وغروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين كانا سيزوران ميتيا أثناء تلك الأيام. وقد حاول راكيتين مرتين، لكن ميتيا طلب من الدكتور فارفنسكي أن لا يسمح له بالدخول.

وجـده إيليوشا جالساً على مضجعه مرتدياً معطف المستشفى، محموماً

قليلاً، ورأسه ملفوف بقطعة قماش مبتلة بالخلّ. فلما رأى أخاه إيليوشا حدّق إليه بنظرة غامضة خائفة.

أصبح ميتيا منذ صدور الحكم كثير الوجوم. وكان أحياناً يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر في أمر من الأمور تفكيراً أليما، ناسياً من كان حاضراً. حتى إذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخد يتكلم، استرسل في الحديث ارتجالاً، وعالج موضوعاً يختلف عما كان يهمه أن يقوله في الواقع. وكان يثبّت على أخيه في بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم. ويرتاح إلى وجود غروشنكا أكثر من ارتياحه إلى وجود إيليوشا. صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت.

جلس إيليوشا على سرير أخيه دون أن ينبس بكلمة. وكان أخوه ينتظره في هذه المرة قلقاً، ولكنه يخشى أن يسأله. كان يعتقد أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء إليه، وكان يشعر في الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق. وكان إيليوشا يشعر بعواطفه.

ـ إن تريفون بوريستش، قال ميتيا بعصبية، قد خرب فندقه. فهو يقتلع أخشاب الأرض، وينزع ألواح الجدران، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً. يبدو أنه يبحث عن الكنز، عن الألف وخمسمئة روبل التي اتهمني وكيل النيابة بإخفائها هناك. فمنذ أن عاد إلي بدأ بالهذيان. يستحق هذا الوغد ذلك. علمت هذا من حارس هناك أخبرني ذلك أمس.

ـ اسمع. قال إيليوشا. إنها ستجيء. ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء. ربما اليوم، أو غداً، أو في يوم قريب، لا أعرف تماماً. ولكنها ستجيء، حتماً.

انتفض ميتيا كأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه سكت. لقد هزه هذه النبأ. كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً إلى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين

إيليوشا وكاتيا، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه: فإن كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كسكين.

ـ لقد طلبت مني ملحّةً أن تتمهل فيما يتعلق بالفرار. وستتولى هي تدبير الأمر إذا لم يُشفَ إيڤان من مرضه إلى ذلك الحين.

ـ سبق أن ذكرتَ لي ذلك. قال ميتيا مفكراً.

ـ ونقلتَ أنت هذا الكلام إلى غروشنكا. أجابه إيليوشا.

ـ صحيح. قال ميتيا معترفاً.

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة:

ـ إن غروشنكا لن تأتي إلّا في المساء. عندما عرفت بالأمس أن كاتيا تهيِّئ أمر فراري، سكتت في أول الأمر ثم انقبضت شفتاها وتمتمت: «لها ما تشاء». لقد أدركت أن الأمر جد. لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك. أعتقد أنها تعرف الآن أن كاتيا لا تحبني أنا، بل تحب إيڤان.

ـ هل أنت متأكد من هذا؟ أفلت من إيليوشا هذا السؤال.

ـ ربما كنتُ مخطئاً في ظني.

ـ على كل حال، لن تأتي هذا الصباح. لقد كلفتها مهمة ستقوم بها. أما إيڤان فإنه خير منا جميعاً. هو الذي يستحق الحياة، لا نحن. وسيُشفى.

ـ تصوَّر أن كاتيا رغم خوفها الشديد هي واثقة بأنه سيُشفى. قال إيليوشا.

ـ إذن هي واثقة بأنه سيموت. فمن الخوف تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيُشفى.

ـ إن أخانا إيڤان قوي الجسم متين البنية. قال إيليوشا في قلق. أنا أيضاً أتمنى أن يشفى من مرضه.

ـ سوف يشفى من مرضه. ولكنها، هي، واثقة بأنه سوف يموت.

وساد السكون بضع لحظات. كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلاً يعذب ميتيا.

ـ إيليوشا، قال ميتيا بصوت مرتجف مثقل بالدموع. إنني أحب غروشنكا حباً رهيباً.

ـ لن يسمحوا لها بأن تتبعك! أسرع يقول له إيليوشا.

فاستأنف ميتيا كلامه بصوتٍ أصبح مختلجاً:

ـ إليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضاً تابع ميتيا بصوت محتج، إذا ضربوني أثناء الطريق، أو «هناك»، فلن أسمح لهم بذلك: سأقتل أحداً فيرمونني بالرصاص. كيف لي أن أحتمل عشرين سنة! لقد بدأوا يخاطبونني منذ الآن بصيغة المفرد هنا. الحرس ينادونني بقولهم «أنت». مكثت أفكر وأتساءل طوال الليل. لا، لست مستعداً، لا أستطيع أن أتحمل هذا المصير! لقد أردت أن أنشد «نشيداً»، وها أنا أعجز عن احتمال أن يخاطبني حارس بصيغة المفرد! لو كانوا سيأذنون لغروشنكا أن تصحبني لاحتملت كل شيء في سبيلها... إلّا الضرب طبعاً... ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك.

ـ اسمع يا أخي. ابتسم إيليوشا ابتسامة رقيقة عذبة. إليك رأيي في هذا الموضوع. وأنت تعلم جيداً أنني لن أكذب عليك. فاسمع إذن: أنت غير مهيأ، وذلك الصليب لم يُخلق لك. أكثر من ذلك: لست بحاجة ولست مستعداً لتحمل صليب الشهادة. لو كنت قد قتلت أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة. ولكنك بريء، وهذه الكفارة فوق ما تحتمل. كنت تريد أن تتألم لتحلق نفسك من جديد، ولتصبح إنساناً آخر. في رأيي إنه يكفيك أن تبقى طوال حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يبقى هذا الإنسان الآخر ماثلاً أمامك أينما وُجدت، وأينما هربت. ذلك كافٍ من جهتك. وإن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه إلّا أن يعزز شعورك بواجبك،

وهذه الفكرة الدائمة التي ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم في خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك «هناك»؛ ذلك أنك لن تستطيع أن تتحمّل نظام الحياة هناك، فإذا أنت تثور وتتمرد وتقول لنفسك في آخر المطاف فعلاً: «هاأنذا الآن براء تجاه المجتمع». لقد صدق المحامي حين قال هذا الرأي. إن من المحن القوية ما لا طاقة لكل إنسان به. إن من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن. تلك هي آرائي ما دمت حريصاً على معرفتها. إذا كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون ـ كالضباط أو الجنود ـ فلن أسمح لك بأن تهرب. ولكن في إمكاننا، بشيء من البراعة، أن نجنبهم المتاعب، وفي إمكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (ضابط المحطة نفسه أكد هذا لإيڤان). صحيح أن رشوة الموظفين عمل غير شريف، حتى في حالة من هذا النوع؛ ولكنني أمتنع هنا عن إبداء رأي. فلو كلفني إيڤان أو كلفتني كاتيا أن أتولى هذا الأمر من أجلك، لما امتنعت عن استخدام الرشوة. أنا أعرف ذلك. إن من واجبي أن أقول لك الحقيقة كلها في هذا الموضوع. ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله. ولكن كن على ثقة أنني لن ألومك ولن أدينك. وأنّى لي أن أكون قاضيك في هذه المسألة؟ حسناً، الآن، أعتقد أنني قلت كل ما كان يجب عليَّ قوله في هذا الصدد.

ـ ولكنني سأدين نفسي بنفسي.. قال ميتيا. سوف أهرب، هذا أمر تقرر دون معرفتك. وهل يستطيع ميتكا كارامازوف إلّا أن يهرب؟ ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد ذلك، وسأكفّر عن هذا الذنب طوال حياتي في البلد الذي سألجأ إليه. قل لي: أليس يفكر اليسوعيون هكذا؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن؟

ـ بلى. أجاب إيليوشا بابتسامة عذبة.

ـ أحبك لأنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفي شيئاً. قال ميتيا وهو يضحك

بفرح. لقد فاجأت، إذن، إيليوشا متلبساً بإخفاء ما يفعله! كان يجب أن أقبّلك من أجل هذا، هل تعلم؟ اسمع ما أريد أن أقوله لك أيضاً، لأنني أريد أن أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك. إليك القرار الذي اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من كل النواحي: هبني هربت، بمال وجواز سفر، فأقمت في أميركا. سوف يعزيني ويقوي عزيمتي أن أتصور أنني إذ أهرب لا لأكون سعيداً، وإنما أهرب لألقي نفسي في سجن آخر مختلف عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا، ولكنه سجن على كل حال، سجن يشبه السجن هنا أو هو أسوأ منه. أوه! إنني أكره أميركا هذه منذ الآن وستكون غروشنكا معي. ولكن فكِّر قليلاً: ما الذي في غروشنكا من امرأة أميركية؟ فيم تشبه غروشنكا امرأة أميركية؟ إنها روسية، روسية حتى النخاع من عظامها، وستشعر هنالك بالحنين الأليم إلى الأرض التي ولدت فيها. وسوف أرى في كل لحظة أنها من أجلي تحملت عذاب النفس هذا، وأنها في سبيلي حملت ذلك الصليب، هي التي لم تقترف ذنباً. وأنا؟ هل تظن أنني سأتمكن أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا كلهم خيراً مني؟ إنني أكرهها، أميركا هذه! إن سكانها ولو كانوا جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، تكنيكيين من الطراز الأول أو أي شيء آخر، فليسوا هم الناس الذين يحبهم قلبي، أنا أحب روسيا يا ألكسي، أنا أحب الإله الروسي، رغم أنني إنسان شقي. ولكنني سأموت هنالك!

ـ فإليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسي قال وعيناه مغرورقتان بالدموع. أصغ إليَّ: سأذهب مع غروشا، فمتى وصلنا إلى هناك اندفعنا نعمل فوراً: نستصلح الأرض ونحييها في مكان بعيد لا تجاورنا فيه إلّا الدببة، مكان هو أبعد ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان. لا بد أن هنالك أماكن مقفرة! يُقال إنه ما يزال في أميركا أناس حمر يعيشون في أقاصي البلاد. فإلى هناك

سنذهب، إلى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ وسنبدأ فوراً، أنا وغروشا، في دراسة قواعد اللغة، لا نضيِّع يوماً واحداً. ونقضي في ذلك ثلاث سنوات: نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة. وفي نهاية تلك السنين الثلاث، نكون قد أتقنا اللغة الإنكليزية، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين. فمتى أتقنّا اللغة الإنكليزية بشكل جيد قلنا لأميركا وداعاً، وعدنا إلى روسيا كمواطنين أميركيين. ولكن لا تخف: لن نرجع إلى هذه المدينة. بل سنختفي في مكان ما، بعيد عن هنا،بالشمال، وربما بالجنوب. وإلى أن نعود يكون قد تغير مظهري، وتبدلت هيئتي، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك. ثم إن أحد أولئك الأطباء الأميركيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي، كأن يزرع في خدي شامة اصطناعية مثلاً! إنهم هناك بارعون في التكنيك! وسأفقأ إحدى عيني إذا اقتضى الأمر، وسأرخي لحيتي طويلة جداً، بيضاء كلها، (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ما أكون قد قاسيت من حنين إلى الوطن). وبذلك آمل ألّا أُعرف حين أعود. وإذا افتضح أمري، فسيرسلوني عندئذ إلى المنفى، لا بأس، هذا يكون قدري. وهنا أيضاً، في روسيا، سنحرث الأرض في مكان بعيد، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أميركي. لكننا نموت في وطننا على الأقل. تلك هي خطتي، وذلك هو قراري الذي لن أرجع عنه. هل تؤيدني؟

ـ بكل قوة. قال إيليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه.

سكت ميتيا لحظة ثم تمتم:

ـ كيف قاموا بذلك، في المحاكمة!

ـ بكل الأحوال كانوا سيحكمون عليك. قال إيليوشا وهو يتنهد.

ـ نعم، قال ميتيا بألم، لقد ضاقوا بي في هذه المدينة؛ سامحهم الله، ولكن هذه قسوة قطيعة.

وساد الصمت مرة أخرى. ثم قال ميتيا:

ـ إيليوشا، يجب أن أعرف حتماً: أهي آتية أم لا؟ أجب! ماذا قالت لك؟ بماذا وعدتك؟

ـ وعدتني بأن تأتي. قال إيليوشا. ولكنني لست أدري هل تستطيع أن تأتي اليوم.

ـ ليس هذا سهلاً عليها. أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلى.

ـ أعتقد أن هذا ليس سهلاً عليها. قال ميتيا. وكيف يكون سهلاً! إيليوشا، إنني أكاد أُجن. إن غروشنكا لا تكف عن التفرس فيَّ. يبدو أنها تعرف. يا إلهي! ألهمني الصبر! أنظر ماذا أطلب الآن: إنني أطلب كاتيا، لا بد لي من كاتيا. هل أنا أعرف ما الذي أريده بهذا؟ هذه حمى آل كارامازوف! هذا هو اندفاعنا المخزي! لا، لا أستطيع أن أتألم، مع الأسف! لست إلّا إنساناً شقياً تافهاً، ذلك كل شيء!.

ـ ها هي! صاح إيليوشا.

كانت كاتيا في تلك اللحظة قد ظهرت في عتبة الباب. وتوقفت بضع لحظات تتأمل ميتيا بنظرة تائهة. فقفز هو واقفاً على قدميه، وعبَّر وجهه عن ذعر، ولكن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مُذلّة، ومدَّ ذراعيه نحو كاتيا بحركة لا تقاوَم. فاستجابت كاتيا لهذه البادرة، واندفعت إليه، فأمسكت يديه، وأجلسته على سريره عنوةً، وجلست إلى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه، وأخذت تضغط عليهما بقوة تشبه التشنج. وأرادا أن يتكلما عدة مرات، ولكنهما توقّفا عن الكلام في كل مرة، لينظر كل منهما إلى الآخر صامتاً، مبتسماً ابتسامة غريبة، وكأن كلاً منهما قد شُدَّ إلى صاحبه والتصق به.

ـ هل سامحتني أم لا؟ تمتم ميتيا أخيراً.

والتفت في اللحظة نفسها نحو إيليوشا، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم:

ـ هل تسمع ماذا أسألها؟

ـ لهذا أحببتك، كم أنت كريم القلب، هتفت كاتيا. لست أنا من يغفر لك، لأنني أنا التي أحتاج إلى غفرانك. ولكن ليس هذا بالأمر الهام. لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طوال حياتي سواء أغفرت أم لم تغفر. ستكون أنت عذابي، وسأكون أنا عذابك. حسن هذا... ثم استأنفت تقول متعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة. لماذا أتيت إليك؟ لأقبِّل قدميك، لأشد على يديك، هكذا، إلى حد إيلامك، كما كنتُ أفعل في موسكو، لأقول لك مرةً أخرى إنك أنت إلهي، إنك أنت فرحي، ولأصرخ أمامك ملء حنجرتي: إني أحبك حب الجنون. صاحت بصوتٍ كأنه الأنين، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا، وأخذت تنهمر من عينيها الدموع.

بقي إيليوشا صامتاً متحيراً: لم يكن يتوقع مشهداً كهذا المشهد أبداً.

ـ الحب قد انقضى، يا ميتيا!، تابعت كاتيا غير أن ما انقضى يبقى عزيزاً في نفسي إلى حد الألم. تذكّر هذا إلى الأبد.

ثم تمتمت وعلى شفتيها ابتسامة متشنجة، وتحدّق إلى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح:

ـ لنفرض، خلال لحظة، أن ما حلمنا به قد تحقق. أنت تحب الآن امرأة أخرى، وأنا أحب رجلاً آخر. سأظل أحبك مع ذلك إلى الأبد وستظل تحبني أنت أيضاً. هل كنت تعرف ذلك؟ هل تسمع؟ أريد أن تحبني، أريد أن تحبني مدى الحياة! صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفي صوتها ارتعاشة تشبه التهديد.

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة ليسترد أنفاسه:

ـ سأحبك، نعم... هل تعلمين أنني كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام، في ذلك المساء... حين أُغمي عليك ونُقلت من قاعة المحكمة... سأحبك طوال حياتي! ذلك ما سيكون، إلى الأبد...

هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة، ولعلها تفيض كذباً. ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة، وكانا كلاهما مخلصين بدون شك.

ـ كاتيا، صاح ميتيا. أتعتقدين بأنني قتلت؟ أنا أعرف أنك لا تعتقدين الآن بذلك... ولكن في تلك المرة... أثناء إدلائك بشهادتك أمام المحكمة... هل يمكن حقاً أن تكوني قد اعتقدت بأنني قتلت؟

ـ لا، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك! لم أعتقد بذلك أبداً! كنت أكرهك في تلك الآونة، ثم أقنعت نفسي خلال لحظات بأنك القاتل... أقنعت نفسي بذلك في تلك الدقيقة ذاتها التي أدليت فيها بشهادتي... أقنعت نفسي بذلك، فسرعان ما اقتنعت... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الإدلاء بشهادتي. أريد أن تعرف هذا. لقد نسيت أنني جئت إلى هنا لأعاقب نفسي. أضافت كاتيا ذلك وقد تبدل تعبير وجهها وأصبح صوتها لا يشبه في شيء ذلك الصوت الذي كان يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل.

ـ هذا قاس عليك يا امرأة. قال ميتيا وقد فقد كل تحفُّظ.

ـ دعني أنصرف. تمتمت كاتيا. سأعود إليك.

فما إن نهضت من مكانها، حتى أطلقت صرخة حادة وتراجعت إلى الوراء. كانت غروشنكا قد دخلت بغير ضجة، ولم يكن يتوقع أحد أن يراها. توجهت كاتيا نحو الباب مسرعةً، ولكنها ما إن وصلت إلى مستوى غروشنكا حتى توقفت فجأة، ودمدمت تقول لها بصوت فيه أنين وتوجُّع وقد صار وجهها أصفر كالشمع:

ـ سامحيني!

فحدقت إليها غروشنكا متفرسةً، حتى إذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره:

ـ كلنا شريرات. نحن متساويتان في الشر. فعلام تسامح كل منا الأخرى. أنقذيه، فأصلّي لك كل أيامي!

ـ لكنك لا تريدين أن تغفري؟ صرخ ميتيا لغروشنكا بلهجة عتاب شديد.

ـ لا تخافي! سأنقذه. تمتمت كاتيا بسرعة.

وأسرعت راكضةً.

ـ كيف رفضت أن تسامحيها؟ عاد ميتيا يقول بمرارة.

فتدخل إيليوشا يقول بحرارة:

ـ لا تلمها يا ميتيا! ليس من حقك أن تلومها!

وأجابت غروشنكا باشمئزاز:

ـلم يصدر كلامها من أعماق نفسها، وإنما أوحاه إليها العجب والصلف. فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء!

وسكتت كأنما لتكبت العواطف التي كانت تجتاح نفسها. لم تكن قد عادت إلى هدوئها، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك فيما بعد، دون أن تتوقع لقاءً كهذا اللقاء.

ـ إيليوشا، حاول أن تلحق بها. قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه. واشرح لها... قل لها... لا أدري ماذا... ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال!

ـ سأعود إليك هذا المساء! صرخ إيليوشا وقد اندفع في إثرها.

وأدركها في الشارع. كانت تسير بخطى سريعة، وتبدو مستعجلة، ولكنها حين رأت إيليوشا قالت له بلهجة حادة:

ـ لا، يستحيل عليَّ أن أذل نفسي أمام تلك المرأة! وإنما سألتها أن تغفر لي، لأنني أردت أن أمضي في التضحية إلى نهايتها، أن أشرب الكأس حتى

الثُّمالة. وقد منعت عني غفرانها. إنني أحبها لموقفها هذا!... أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج، وطاف بعينها لهيب من كره!

ـ لم يكن يتوقع أخي حضورها. تمتم إيليوشا. كان واثقاً بأنها لن تأتي!

فقالت تحسم الحديث:

ـ لا أشك في ذلك. دعنا من هذا. اسمع: لا أستطيع أن أرافقكم الآن إلى الجنازة. لقد أرسلت إليهم أزهاراً. وأظن أنه لا يزال معهم بعض المال. وإذا احتاجوا في المستقبل قل لهم، إنني لن أتركهم أبداً... وأما الآن فدعني، رجاءً! لقد تأخرت الآن، سيبدأ القدّاس الثاني... اتركني، أرجوك!

# III

## جنازة إيليوشيشكا. التأبين أمام الصخرة

وصل إيليوشا متأخراً إلى الجنازة، حيث قرروا بعد طول انتظار أن يذهبوا إلى الكنيسة بدونه، حاملين النعش الصغير المزيَّن بالأزهار. إنه نعش إيليوشا، الصبي الصغير المسكين. لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين. استُقبل إيليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق إيليوشا. كانوا جميعاً ينتظرونه بفارغ الصبر، وابتهجوا أخيراً بوصوله. كانوا اثني عشر صبياً جاؤوا جميعهم مع حقائب المدرسة على ظهورهم. كان إيليوشا قد قال لهم قبل موته: «سيبكي بابا، فابقوا إلى جانبه»، والأطفال لم ينسوا وصيته. وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين.

ـ كم أنا سعيد بكونك هنا، يا كارامازوف! هتف كوليا وهو يمد يده إلى إيليوشا. إن ما يجري هنا رهيب. أقسم لك أن رؤيته تفطر القلب. سنيغيريوف ليس سكراناً. واثقون أنه لم يشرب اليوم شيئاً، ولكنه كالسكران... إنني رابط الجأش، ولكن هذا رهيب. يا كارامازوف، إذا لم أكن أؤخرك، ولكن أطرح عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل؟

ـ ماذا يا كوليا؟ سأله إيليوشا وقد توقف عن السير.

ـ هل أخوك مذنب أم بريء؟ أهو من قتل أباك، أم الخادم؟ ما ستقوله تكون الحقيقة. إن هذا السؤال قد حرمني النوم أربع ليال.

ـ الخادم هو الذي قتل. أخي بريء. أجابه إيليوشا.

ـ ذلك هو رأيي أنا أيضاً. صاح فجأة سموروف الصغير.

ـ إذن سيسقط بريء ضحية العدالة. صاح كوليا. حتى هكذا، هو سعيد. إنني، من جهتي، لمستعد أن أحسده!

ـ كيف؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟ قال إيليوشا بدهشة.

ـ نعم! أستطيع أن أضحي بنفسي يوماً في سبيل الحقيقة. أجابه كوليا بحماسة.

ـ ولكن ليس في قضية من هذا النوع، فيما أتخيل. قال إيليوشا. لا في مثل هذا الجو من الخزي والهول!

ـ طبعاً... أتمنى أن أموت في سبيل الإنسانية كلها. أما هذا العار الذي تشير إليه فلا قيمة له! سحقاً لأسمائنا! إنني أحترم أخاك!

ـ وأنا أيضاً أحترمه. قال صوت آخر في جماعة التلاميذ، بشكل لم يكن متوقعاً. إنه صوت ذلك الصبي الذي أكد في الماضي أنه يعرف أسماء بناة طروادة؛ وكما حدث في المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل إيليوشا الغرفة. كان إيليوشا مسجًّى في نعش صغير أزرق مزين بتخريم أبيض، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه. لم تكد ملامح وجهه الناحل تتغير. والأمر الغريب أنه ما من رائحة تفوح من جثته. وكانت يداه جميلتين متصالبتين على صدره، كما لو أنهما مقدودتان من مرمر. وقد وضعت بين أصابعه أزهار، وكان النعش كله، من جهة أخرى، مزداناً في الداخل والخارج بأزهار أرسلتها ليزا خوخلاكوفا منذ الصباح. وقد وصلت الآن أزهار أخرى أرسلتها كاترينا إيڤانوفنا، ففي اللحظة التي فتح فيها إيليوشا الباب كان الكابتن

ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيدٍ ترتجف. لم يكد ينظر إلى إيليوشا. وكان لا يبالي بأحد على كل حال، حتى ولا بزوجته الخرفة التي كانت تبكي وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب. أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش، فهي الآن مستندةٌ رأسها إلى النعش، ولا شك أنها تبكي هي أيضاً في صمت. وكان وجه سنيغيريوف يعبِّر عن حركة ونشاط، غير أن فيه شراسة على شيء من قسوة. كان في إشاراته وحركاته جنون، وكذلك في الأقوال التي تنطلق من فمه. كان يصيح في كل لحظة قائلاً: «بنيَّ الصغير الشهم، بنيَّ الصغير الشجاع!». لقد كان يحب، حتى أثناء حياة ابنه، أن يناديه بقوله: «بنيَّ الشهم الشجاع!».

ـ بابا عزيزي، أعطني بعض الأزهار. خذ منه هذه الزهرة البيضاء التي يمسكها بيده، وأعطني إياها! قالت الأم الخرفة وهي تنتحب. هل كانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هي التي أعجبتها، أم كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التي يمسكها ابنها بيده، ذكرى منه؟ لا أحد يعرف، ولكن الأم كانت مضطربة بشكل رهيب. وهي تمد يديها نحو الزهرة.

ـ لن أعطيها لأحد، لن أعطي شيئاً. صرخ سنيغيريوف بلهجة قاسية. هذه الأزهار له هو، ليس لك أنت! كل شيء له هو، وليس لك شيء إطلاقاً!

ـ بابا، أعط ماما زهرة! قالت نينوشكا وهي ترفع وجهها المبلل بالدموع.

ـ لن أعطي شيئاً، لن أعطيها هي خاصةً، لأنها لم تكن تحبه! لقد أخذت منه هذا المدفع الصغير من قبل، وارتضى هو أن يهديه إليها. قال الكابتن وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذي تنازل فيه إيليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه. غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها، وأخذت دموعها تنهمر.

وإذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه، مع أنه آن أوان نقله، فقد تحلقوا حول الميت الصغير حلقة كثيفة، وأخذوا يرفعون النعش.

ـ لا أريد دفنه في المقبرة. صاح سنيغيريوف سوف أدفنه أمام الصخرة، أمام صخرتنا. هذا ما أراده ايليوشا. لن أسمح بنقله!.

الواقع أن سنيغيريوف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه أمام الصخرة. احتج الحاضرون. وأخذ إيليوشا وكراسوتكين وصاحبة المنزل وأختها وسائر الصِّبية يحاولون إقناعه.

ـ لكن، ماذا يخترع! قالت صاحبة البيت العجوز. كيف يُدفن قرب صخرة وثنية كأنه منبوذ. المقبرة فيها صليب وأرضها مباركة مقدسة. والناس يجيئون إليها فيصلون على روحه. وأناشيد الكنيسة تصل إلى هناك، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبي كأنها تُتلى على قبره قصداً.

وأخيراً حرَّك الكابتن وأشار بيده قائلاً: «خذوه حيث شئتم!». رفع الصبية النعش وساروا به، حتى إذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وحنوه لتستطيع أن تودّع ايليوشا الوداع الأخير. فلما رأت الأم، من قرب، ذلك الوجه الصغير المحبوب الذي كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد، أخذت ترتعش وهي ترجِّح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام إلى وراء، فوق النعش.

ـ ماما، ارسمي عليه إشارة الصليب وباركيه وعانقيه. صرخت نينوتشكا تقول للأم.

بقيت المجنونة تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير إرادة، وقد تشنج وجهها على ألم شديد؛ وفجأةً أخذت تلطم صدرها بقبضة يدها. وابتعد الصِّبية بالنعش. فلما مروا بأخته نينوتشكا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتي أخيها المتوفَّى

مرة أخيرة. وعندما خرجوا من الدار اتجه إيليوشا إلى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت:

ـ أعرف واجبي. لن أتركهم. نحن أيضاً مسيحيون! وكانت العجوز تبكي أثناء كلامها.

كانت الكنيسة تبعد ما يقارب ثلاثمئة خطوة في أكثر تقدير. وكان النهار مضيئاً هادئاً، مع شيء من الصقيع. وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤْذنةً بالصلاة. راح سنيغيريوف يركض وراء النعش مضطرب الحركة، زائغ البصر، تائهاً، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذي يشبه أن يكون كساءً صيفياً، حاسرَ الرأس يمسك بيده قبعته المهترئة الطويلة الحواف، المصنوعة من لباد. كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا يمكن حلُّها؛ هو تارةً يمد ذراعه ليساعد في حمل النعش فيعوق أولئك الذين يحملونه، وهو تارةً أخرى يسرع إلى جانب محاولاً أن يصطف في الموكب. وسقطت زهرة على الثلج، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة لا يعلم إلّا الله ما هي!

ـ رغيف الخبز! نسينا الرغيف! صرخ مذعوراً. لكن الصّبية نبهوه إلى أنه قد أخذ الرغيف، وأن الرغيف هو الآن في جيبه. فأسرع يخرجه، حتى إذا تأكد من وجوده اطمأن باله. وقال لإيليوشا.

ـ إن إيليوشا هو الذي أمر بهذا. كان لا ينام الليل، وكنت أجلس قربه، وفجأة أمرني قائلاً: «بابا، حين يهيلون على قبري التراب، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير، فأسمع صوتها، فلا أشعر بأنني وحيد.».

ـ جيد. يجب فعل ذلك غالباً. قال إيليوشا.

ـ كل يوم. سأفعل هذا كل يوم! أجاب الأب متحمساً.

وصل الموكب أخيراً إلى الكنيسة، ووُضع النعش في وسطها، أحاط به الصِّبية بأبهة وجلال إلى آخر القداس. كانت الكنيسة قديمة فقيرة، معظم

إيقوناتها معلق بغير أُطر. ولكن في كنائس من هذا النوع يُصلى في أكثر الأحيان. بدا على سنيغيريوف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً، غير أن قلقاً لا شعورياً ليس له سبب ظاهر، كان يعتريه من حين إلى آخر. فيقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء أو ليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت. ومرة أخرى إذا سقطت إحدى الشموع يسرع ليعيدها إلى موضعها. وعاد إليه الهدوء بعد ذلك من جديد، فوقف عند التابوت مذعناً والحيرة تعلو وجهه. حتى إذا انتهت قراءة الانجيل، قال سنيغيريوف لإيليوشا هامساً في أذنه (وكان إيليوشا إلى جانبه): لم تكن القراءة «كما يجب أن تكون»، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته. وحين أُنشد نشيد الكروبيين، صاحب الأب الانشاد بصوت خفيض، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الإنشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه، ثم سجد حتى التصق جبينه بالأرض، وبقي على هذا الوضع مدة طويلة. وأخيراً تُليت صلاة الجنازة، ووزِّعت الشموع، فاضطرب الأب عندئذ مجدداً، ولكن مهابة الغناء الجنائزي المؤثر لم تلبث أن نفذت إلى قلبه فهدأت روعه، ثم عاد إلى ذاته، وتجمّع على نفسه، وأخذ يبكي بنشيج قصير سريع، خانقاً صوته في بادىء الأمر، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً. حتى إذا آن أوان التوديع وأُريد إغلاق التابوت، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون إغلاقه، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت، وراح يغمره بالقبل في ظمأ لا يرتوي، وطفق يقبله على الفم بدون أن يتوقف. وأعادوه أخيراً إلى الصواب واستطاعوا أن يبعدوه. وفيما هو ينزل على الدرجات، غيَّر رأيه فجأة، فأغار بذراعه على التابوت واختطف منه بضع زهرات، وأخذ يتأملها. إن فكرةً جديدة قد نبتت في نفسه عندئذ، حتى لكأنه نسي، خلال لحظات، الأمرَ الذي هو فيه. وهوى، شيئاً فشيئاً، إلى نوع من تأمل عميق، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين رفع التابوت الصغير لنقله إلى القبر. كان القبر قريباً، فهو في الحوش إلى جانب

الكنيسة. وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترينا إيڤانوفنا. وقام الحفّارون بإنزال التابوت في القبر بعد إجراء الطقوس المألوفة؛ فبلغ سنيغيريوف (وكان يحمل الأزهار بيده) من شدة ميله على القبر المحفور أن الصِّبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه إلى وراء. غير أن ما يراه في تلك اللحظة يخيَّل إليه أنه أصبح لا يفهم ما يجري حوله فهماً واضحاً. حتى إذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب، خرج من خدَره فجأةً، فأشار بيده إلى التراب الذي كان يتكوم، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهمها أحد. على أنه لم يلبث أن صمت فوراً. وذُكِّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز، فاضطرب، وأخرج الرغيف من جيبه، وأخذ يفتته، مبعثراً فتاته على القبر، متمتماً في تشفُّع قلق: «هيَّا أسرعي يا عصافيري الصغيرة!». وقال له أحد الصبية إن الأزهار التي يمسكها بيده تعوق حركته، ومن الأفضل أن يحملها عنه لحظات، ولكنه رفض، حتى أنه خاف على أزهاره كما لو أن أحداً يريد انتزاعها منه، وبعد أن ألقى نظرة على القبر، ليطمئن إلى أن كل شيء قد تم على ما يرام، وأن فتات الخبز قد جُزِئ جيداً، استدار فجأة أمام دهشة الجميع ومضى متجهاً إلى البيت. ولكن خطواته أخذت تسرع شيئاً بعد شيء، وأخذ يسرع في المشي حتى صار كمن يركض ركضاً. ولم يتركه إيليوشا والصِّبية.

ـ أزهار للأم. هتف يقول. لا بد من أزهار للأم. لا بد من أزهار للأم. لقد أوذيت الأم وأُولمت. لفت أحدهم انتباهه إلى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد، فإذا بهذه الملاحظة تغضبه، وإذا هو يرمي قبعته على الثلج بعنف قائلاً: لا أريد قبعة، لا أريد قبعة! فمالَ الفتى سموروف على الثلج، فتناول قبعة اللبّاد وتولى حملها. وكان جميع الصِّبية يبكون، ولا سيما كوليا والصبي الذي اكتشف بناة طروادة. أما سموروف فكان يبكي بكاءً مرّاً هو أيضاً، ممسكاً قبعة الكابتن بيده، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد

كان يتلألأ احمرارها في الثلج، فرماها في الهواء على سرب من العصافير؛ فلم يصبها طبعاً، فعاد ينضم إلى جماعته وهو يبكي. وفي منتصف الطريق توقف سنيغيريوف فجأة، وشرد فكره نصف دقيقة، ثم استدار كأن فكرة مفاجئة قد انبجست في ذهنه، واندفع راكضاً نحو الكنيسة، نحو القبر الصغير المهجور. ولكن الصِّبية لحقوا به وأدركوه وأحاطوا به من جميع الجهات. هنا، تهاوى على الثلج محطماً منهار القوى، وراح يئن منتحباً صائحاً: «بنيَّ ايليوشا، بنيَّ الحبيب!» فحاول إيليوشا وكوليا أن يؤاسياه ويهدِّئا من روعه.

ـ ما هذا يا كابتن؟ دمدم كوليا قائلاً. على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم!

ـ سوف تُفسد الأزهار، بينما الأم تنتظرها. قال له إيليوشا. هي الآن في البيت لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار إيليوشا. وفي البيت أيضاً السريرُ الصغير الذي كان يرقد عليه ايليوشا.

ـ نعم نعم، لنركض إلى البيت. صاح سنيغيريوف يقول وكأن ذاكرته قد عادت إليه فجأة: سوف يأخذون السرير، سوف يأخذونه، سوف ينقلونه إلى مكان آخر!

وراح يركض نحو البيت. ولم تكن المسافة الباقية طويلة. وصل الجميع في وقت واحد. وفتح سنيغيريوف الباب بسرعة، وصاح يقول لزوجته التي كان قاسياً معها منذ قليل:

ـ ماما، ماما العزيزة، إن ايليوشا يرسل إليك هذه الأزهار.

ثم أضاف يقول وهو يناولها الأزهار التي تجلدت وتكسرت حين كان يتخبط في الثلج: ـ ماما المسكينة! إن ساقيك في إحدى الزوايا مريضتان؟

ولكنه في تلك اللحظة نفسها رأى في إحدى الزوايا أمام سرير ايليوشا، حذاء ابنه الذي رتبته صاحبة البيت هناك منذ هنيهة ـ وهو حذاء عتيق حال لونه

واهترأت أطرافه ورُقِّع في كل موضع؛ فلما رآه رفع ذراعيه وركع أمامه، فتناول إحدى فردتيه، وأطبق عليها بشفتيه يقبّلها بنهم، ويئن قائلاً:

ـ بنيَّ ايليوشا، بنيَّ الشجاع، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان؟

ـ إلى أين أخذته؟ إلى أين أخذته؟ صاحت المجنونة تسأل بصوت ممزِّق.

وأجهشت نينوتشكا تبكي وتنتحب بصوت متمزق. فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون، ولحق بهم إيليوشا إلى الخارج، وقال يخاطب كوليا:

ـ لنتركهم يبكون. ليس هناك ما نفعله الآن، فلسنا نستطيع أن نعزيهم. لننتظر هنا بضع لحظات، ثم نعود إلى الغرفة.

ـ كلا، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً. فظيع! قال كوليا مؤيِّداً!

ثم أضاف خافضاً صوته حتى لا يسمعه أحد غير إيليوشا. أتعلم يا كارامازوف! إنني أشعر بحزن رهيب، وإني لمستعد أن أهَب كل شيء في العالم من أجل أن يُبعث حياً، لو كان ذلك في الإمكان.

ـ وأنا أيضاً. قال إيليوشا ولكن ذلك غير ممكن مع الأسف!

ـ ما رأيك يا كارامازوف؟ يجب أن نعود غداً مساءً؟ قد يعود إلى الشراب ويسكر!

ـ هذا ممكن فعلاً. ولكننا سنجيء وحدنا نحن الاثنين. هذا كاف. وسنقضي في صحبتهم ساعتين، مع الأم ونينوتشكا. أما إذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم. كذلك اقترح إيليوشا.

ـ إن صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن. قال كوليا أغلب الظن أنها تفعل ذلك إعداداً لوجبة إحياء ذكرى الميت. وسيأتي الكاهن. هل يجب أن نعود إلى الغرفة يا كارامازوف؟

ـ حتماً! أجابه إيليوشا.

ـ ما أغرب هذا كله يا كارامازوف؟ أيكون الناس في مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر؟ ما أكثر الأمور الغريبة في ديانتنا!

قال الفتى الذي اكتشف بناة طروادة، بصوت عالٍ:

ـ هناك أيضاً سمك سومون.

ـ أرجوك يا كارتاشوف ألّا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء، وأننا نؤثر أن نجهل وجودك! قال له كوليا بصوتٍ حانق. فاحمر وجه الفتى بشدة، ولكنه لم يجرؤ أن يجيب. وكان الصِّبية يسيرون في الطريق على مهل، فصاح سموروف.

ـ تلك هي صخرة إيليوشا، التي كان يُراد أن يدفن تحتها.

توقف الجميع أمام الصخرة الكبيرة صامتين. نظر إليهم إيليوشا، وتذكر المشهد الذي قصَّه عليه سنيغيريف، حيث رأى إيليوشا باكياً معانقاً أباه قائلاً له: «بابا! حبيبي بابا! لقد أذلَّك!». وتحرك شيء ما في نفس إيليوشا عندئذ، فألقى نظرة رصينة قاسية على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية، وجوه التلاميذ، رفاق إيليوشا، وقال لهم:

ـ يا سادتي، أود أن أقول لكم كلمة هنا، في هذا المكان الذي نحن فيه.

فأحاط به الصِّبية وحدقوا إليه بعيونهم المنتظرة.

ـ سنفترق عمَّا قريب أيها الأصدقاء. سوف أبقى قليلاً مع أخويَّ اللذين سيُرحَّل أحدهما بعد مدة قصيرة، أما الثاني فيُحتضر. ولكنني سأغادر هذه الديار قريباً، وربما غبت عنها مدة طويلة. سنفترق إذن يا أصدقائي. لنتعاهد هنا، إذن، أمام صخرة إيليوشا، على ألّا ننسى الراحل الصغير أبداً، وعلى أن يتذكر بعضنا بعضاً على الدوام. يجب علينا، مهما يصبنا في هذه الحياة، ولو طال فراقنا عشرين عاماً، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذي دفنَّا فيه الصبي المسكين الذي كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك ـ قرب الجسر الصغير، هل تتذكرون؟

ـ ثم أصبحنا نحبه جميعاً. لقد كان فتًى شهماً، طيب القلب، شجاعاً، قوي الشعور بالشرف والإباء، عميق الإحساس بالمرارة من الاهانة التي أُلحقت بأبيه، تلك الاهانة التي تمرد بسببها وثار. يجب أن نتذكره طوال حياتنا. مهما يكن مصيرنا المقبل، وأياً كانت الأمور الخطيرة التي ستشغل أفكارنا، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن في الحسبان، يجب ألّا ننسى أبداً هذا العهد الذي أسعدنا فيه شعورُنا بالاتحاد في هذه المدينة على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبي الراحل، وأسعدنا فيه هذا الحب الذي حملناه له والذي لعلــه جعلنــا خــلال هـذه المدة أفضل مما نحن في الواقع. يا طيوري الصغار ـ اسمحوا لي أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة ـ إنني أتأمل الآن وجوهكم التي تفيض طيبة ورقّة، فأقول لنفسي، يا أبنائي الأعزاء، قد لا تفهمون أقوالي الآن لأنني في كثير من الأحيان أعبِّر بشكل غامض، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل، ثم يأتي يوم توافقونني فيه على رأيي. اعلموا أن ليس في حياتنا شيء أقوى ولا أطهر ولا أقدس من ذكرى طيبة، ولا سيما إذا دخلت إلى نفوسنا إبان طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء. ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم. ألا فاعلموا أن ذكرى مشرّفة مقدسة يحملها المرء في قلبه منذ طفولته هي خير تربية وأفضل تهذيب. لعلَّ ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافيةً لخلاصنا ولو لم يبق في قلوبنا أي شيء سواها. قد نصبح أشراراً فيما بعد، قد نعجز في المستقبل عن مقاومة فعل سيِّئ، قد نسخر من ألم الإنسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً إلى «التألم في سبيل الإنسانية»، كما قال كوليا منذ قليل، قد نستهزىء بمثل هؤلاء الناس في خبث وشر، ولكن مهما نصبح أشراراً، لا سمح الله، فسنظل نتذكر اليوم الذي دفنا فيه إيليوشا، والحبَّ الذي حملناه له في الآونة الأخيرة، وهذه المودة والصداقة والمحبة التي ترين على حديثنا في

هذه الدقيقة أمام هذه الصخرة. إن أشدَّنا ميلاً إلى القسوة وحباً بالتهكم ـ هذا إذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام ـ لن يجرؤ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى، لن يجرؤ، في قرارة نفسه، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعر النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات. ومن يدري؟ ربما تمكنت هذه الذكرى أن تمنعه في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيِّئ، فمتى تذكرها عاد إلى ذاته قائلاً: «نعم، لقد كنت في ذلك اليوم طيباً شجاعاً شريفاً». قد يقول لنفسه، ليس الأمر خطيراً، قد يسخر الناس غالباً مما هو حسن وجيد. تلك خفّة لا أكثر. ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أنه ما إن يبتسم قليلاً حتى يقول في أعماق قلبه: «لا، إن ما قمت به، أمر سيئ، لأنه يجب ألا نسخر من هذه الأمور!».

ـ طبعاً سيكون الأمر كذلك يا كارامازوف! هتف كوليا وقد سطعت عيناه: إنني أفهمك يا كارامازوف!

واضطرب الصِّبية الآخرون أيضاً، وتمنَّوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم، وحدَّقوا إلى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال.

ـ أقول لكم هذا الكلام في حال نصبح أشراراً، تابع إيليوشا قائلاً. ولكن لماذا إذن يجب أن نصبح أشراراً؟ أليس كذلك أيها السادة؟ فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شيء، ولنكن شرفاء بعد ذلك، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً إلى الأبد. إنني أكرر ذلك؛ وأعاهدكم، من جهتي، على أنني لن أنسى أيّ واحد منكم! سأظل أتذكر، ولو بعد ثلاثين عاماً، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر إليَّ الآن. منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا «لا نكترث لوجوده». ولكن يمكن أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمرّ في هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة، والذي ينظر إليَّ الآن بعينيه الصغيرتين

الطيبتين الفرحتين. يا أصدقائي، يا أصدقائي الأعزاء، لنكن جميعاً شجعاناً كما كان الصغير ايليوشا، لنكن جميعاً أقوياء نبلاء أذكياء مثل كوليا (الذي سيتوهج ذكاؤه حين يكبر)، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء مثل كارتاشوف! ولكن لماذا أتكلم على هذين الاثنين فحسب؟ إنني منذ اليوم أحبكم جميعاً، فستحيون جميعاً في قلبي، وأتمنى أن أحيا في قلوبكم أيضاً! من الذي وحَّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سوف نتذكرها بدون انقطاع، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر؟ من الذي وحَّدنا على هذه العاطفة إلّا إيليوشا، ذلك الفتى الطيب الرائع، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية إلى الأبد؟ نعم، يجب أن نتذكر إيليوشا مدى الحياة، يجب ألّا ننساه أبداً. فلتحي في أرواحنا، فلتحي في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الأبدية، الآن وإلى آخر الزمان!

ـ نعم نعم، ذكراه الأبدية! ردَّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة عارمة.

ـ فلنتذكر وجهه وثيابه، وحذاءيه الصغيرين الفقيرين، ونعشه الصغير، وأباه الشقي الخاطىء، ولنتذكر تلك الجرأة التي تمرد بها إيليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف!

ـ نعم نعم، فلنتذكر صاح الصِّبية! لقد كان شجاعاً، وكان طيباً!

ـ آه، كم كنت أحبه! صاح كوليا.

ـ يا أحبائي الصغار، يا أبنائي، لا تخافوا الحياة! ما أجمل الحياة عندما نقوم بشيء خيّر وعادل!

ـ نعم نعم، صحيح. ردَّد الصِّبية في حماسة.

ـ نحن نحبك يا كارامازوف! صاح فجأة صوت كارتاشوف.

فكرر جميع الصبية قوله:

ـ نحن نحبك، نحن نحبك! كرر الصبيّة بعده، وعدد كبير منهم سالت الدموع من أعينهم.

ـ يعيش كارامازوف! صاح كوليا بحماسة شديدة.

ـ ولتكن أبديةً ذكرى الميت الصغير! أضاف إيليوشا بانفعال.

ـ ذكرى أبدية! ردد الصبية بصوت واحد.

ـ كارامازوف! صاح كوليا: هل صحيح ما يعلمنا إياه الدين من أننا سنقوم جميعاً من بين الأموات، وسنُبعث جميعاً أحياء، فيرى بعضنا بعضاً، ونرى كلنا إيليوشا؟

ـ سوف نقوم بالمطلق. وبالمطلق سنرى بعضنا بعضاً، وسنروي فرحين سعداء كل ما قد حصل، أجاب إيليوشا نصف مبتسم ونصف مأخوذ بحماسته.

ـ آه، ما أروع هذا! قال كوليا صائحاً.

ـ حسناً، يكفينا خطباً، ولنذهب إلى وجبة إحياء ذكرى الميت. ولا تنزعجوا إذا أكلتم الفطائر. هذه عادة قديمة وأبدية، ولها جانبها الجميل أيضاً، قال إيليوشا ضاحكاً. هيَّا بنا إلى الطعام، ها نحن الآن نسير يداً بيد.

هيا بنا، إلى الأبد، ومدى الحياة يداً بيد. يعيش كارامازوف، صاح مجدداً كوليا متحمساً، وردَّد الصبيّة جميعهم هتافه مرة أخرى..



**الإخوة كارامازوف**

هناك الأب، فيدور باڤلوڤيتش، ثريّ، مخادع وفاسق، ومعه أولاده الشرعيون الثلاثة: ميتيا المندفع المتعجرف والمتوحش؛ إيڤان، المثقف، المرهف والعنيد؛ آليوشا، الصادق، التقي والبسيط. ثم هناك الابن غير الشرعي، سميرديكوف، الفاجر والساخر الذي يعيش في كنف أبيه كخادم. أحدهما سيكون قاتلاً.

رواية *الإخوة كارامازوف* كاملة وهّاجة، تجمع حبكة بوليصية، وعدة قصص حب، واستعراضات لاهوتية وميتافيزيقية باهرة، وشخصيات لا تنسى تمزقهم صراعاتهم الداخلية. إنها بلا شك رائعة دوستويفسكي. بهذا الإصدار يكتمل المشروع الضخم لإعادة ترجمة روايات دوستويفسكي الذي أطلقه أندريه ماركوفيتش منذ عدة سنوات.

*ولد فيدور ميخايلوفيتش دوستويفسكي في موسكو، في الثلاثين من تشرين الثاني/ أكتوبر ١٨٢١، ودخل معترك الأدب في كانون الثاني/ يناير من العام ١٨٤٦ بنشر عمله الأول الذي حمل عنوان: القوم البسطاء. وقد وافته المنية في سان بيترسبورغ في ٢٨ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٨١.*




ISBN 978-9953-71-748-7
9 789953 717487